



كتاب الشعب

مكتبة
الدكتور القطب محمد القزويني
شيد محمد قطب شارع محمد
المعادي

٢ سبتمبر ١٩٧٧

نفس القرآن العظيم

علوم قرآنية للحافظ ابن كثير

٧٧٤-٧٠٠ هـ

- ١٢ -
م - ٦ -

تحقيق

عبد القزويني غنيم

محمد أحمد عاصم

د. محمد إبراهيم البنا

المجلد السادس

دار الشعب

٢١٨١ شارع صلاح الدين، القاهرة

Ближайшая к Библиотеке
Секция

٢٠١٣/٥

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَلَيْهِمَا جَمَاعَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

يقول تعالى : هذه (سورة أنزلناها) فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها .

(وفرضناها) ، قال مجاهد وقناة : أى بينا الحلال والحرام ، والأمر والنهي ، والحدود .

وقال البخاري : « ومن قرأ (وفرضناها) (١) يقول : فرضنا عليكم وعلى من بعدكم (٢) » .

(وأنزلنا فيها آيات بينات) ، أى : معسرات واضمحكات ، (لعلكم تذكرون) .

ثم قال تعالى : (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فان الزاني لا يغلو إما أن يكون بكراً ، وهو الذى لم يتزوج . أو عصماً ، وهو الذى قد وطئ . فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فلما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة ، كما فى الآية . ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عند جمهور العلماء ، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله ، فان عنده أن التعريب إلى رأى الإمام . إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب . وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين ، من رواية الزهري ، عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابني كان عسيفاً - يعنى أجيراً - على هذا فرى بامرأته ، فافلتت [ابني] منه عاة شاة ووكريدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتعريب عام ، وأن على امرأته هذا . الرج . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردة عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتعريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأته هذا ، فإن اعترفت فارجمها . ففعلنا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (٢) .

(١) ذكر البخاري قبل ذلك القراءة الأخرى ، وهى : (فرضناها) ، بتشديد الراء . وذكر أن معناها : أنزلنا فيها فرائض مختلفة .

(٢) البخاري ، تفسير سورة النور : ١٢٤/٦ .

(٣) البخاري ، كتاب الصلح ، باب : إذا اصطالحوا على صلح جور ، فالصلح مردود : ٢٤١/٣ - ٢٤١ . وسلم . كتاب الحدود ، باب : من اعترف على نفسه بالزنا : ١٢١/٥ .

في هذا دلالة على تفريب الراي مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إن كان محصنا فإنه يرجم ، كما قال الإمام مالك :

حدثني ابن شهاب ، عن عبد الله بن عبد الله بن مسعود ، أن ابن عباس أخرجه ، أن عمر - رضي الله عنه - قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعينناها ، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأغشي أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله : فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصين ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو الحبيل أو الإعراف (١) . أخرجه في الصحيحين من حديث مالك (٢) مطولا ، وهذا قطعة منه ، فيها تفصيلا هاهنا .

وروى الإمام أحمد عن هشيم ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس : حدثني عبد الرحمن بن عوف ، أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعه يقول : ألا وإن أناسا يقولون : ما بال الرجم ؟ في كتاب الله الجلد ، وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون - أو يتكلم متكلمون - أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه ، لألقينا كما نزلت (٣) .

وأخرجه النسائي ، من حديث عبيد الله بن عبد الله ، به .

وقد روى أحمد أيضا عن هشيم ، عن علي بن زيد ، عن يونس بن مهران ، عن ابن عباس قال : خطبه عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تخذعن عنه ، فإنه حد من حدود الله . ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر في كتاب الله ما ليس فيه ، لكتب (٤) في لائحة [من] للمصحف ، وشهد (٥) عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفلان وفلان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [قد] رجم ورجمنا بعده ، ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالرجال وبالشعاعة وبعباد القبر ، ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا (٦) .

وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان ، عن يحيى الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب : لما حكم أن تهلكت عن آية الرجم (٧) .

(١) المطاوعة : كتاب الحدود ، باب : ما جاء في الرجم .

(٢) كذا ، والحدوث - كما وقع لنا في المصحين - من طريق ابن شهاب . انظر البغاري ، كتاب الحدود ، باب : رجم الخبل من الزنا إذا أصحت . ٢٠٨/٨ - ٢١١ . ومسلم ، كتاب الحدود أيضا ، باب : رجم اللوطي في الزنا ، ١١٦/٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ٢٩/١ .

(٤) في المسند ، لكتبه .

(٥) في المسند ، شبهه . دون واو .

(٦) مسند الإمام أحمد ، ٢٣/١ . والنظر في تفسير المصنف ، ٤٨٢/٧ .

(٧) مسند الإمام أحمد ، ٣٦/١ .

تفسير سورة النور

٥

الحديث رواه الترمذى ، من حديث سعيد بن مسر ، وقال : صحيح (١) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا حبيب الله بن عمر القواريرى ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا ابن هون ، عن محمد - هو ابن سيرين - قال : بُشِّتُ عن كثير بن الصلت قال : كنا عند مروان وفينا زيد ، قال زيد : كنا نقرأ : (والشيخ والشيخة فارجموها البتة) ، قال مروان : ألا كتبتُها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر ابن الخطاب ، فقال : أنا أفشيتكم من ذلك : قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم (٢) فقال : يا رسول الله ، أكتسبني آفة الرجم ، قال : لا تستطيع الآن . هذا أو نحو ذلك .

وقد رواه التستالى عن محمد بن المنذر ، عن غندر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن كثير ابن الصلت ، عن زيد بن ثابت ، به .

وهذه طرق كلها متعددة ، وحالة كل أن آفة الرجم كانت مكتوبة فتنسخ ثلاثاً ، وبني حكمها معمولاً به ، والله الحمد .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ، ورجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزاً والغامدية : وكل هؤلاء لم ينتقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلدتم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث المصححة للطرق والألفاظ ، بالانقصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد . ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المصن بين الجلد للآفة ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين عن بن أبي طالب رضى الله عنه أنه لما أتى بشرامة (٣) ، وكانت قد زنت وهى عصية ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدها بكتاب الله ، ورجمها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن الأربعة ، من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عباد بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوا (٤) حنى ، خلوا عني ، قد جعل الله من سيلا ، البكر بالبكر سنة ، جلد مائة وتغريب سنة ، والنيب بالنيب جلد مائة والرجم (٥) .

(١) تحفة الأوسى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء في تحقيق الرجم » ، الحديث ١٤٤٤ : ٧٠١/٤ .

(٢) يهده في المخطوطة : « فأنه فذكر ذلك الرجل الرجم » .

(٣) كذا ضبط في القاموس المحيط ، مادة (جرب) ، بضم ففتح ، قال : « كرامة » هندية أنزلت بالزنا عند حل .

(٤) في مسند الإمام أحمد : « خلوا عني ، ثلاث مرار » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٧/٥ . ومسلم ، كتاب الحدود ، باب « حد الزنا » : ١١٥/٥ . وسنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب « في الرجم » ، الحديث ٤٤١٥ : ١٤٤/٤ . وتحفة الأوسى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء في الرجم حل النيب » ، الحديث ١٤٥٨ : ٧٠٥/٤ - ٧٠٦ ، وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب « حد الزنا » ، الحديث ٢٥٥١ : ٨٥٢/٢ . ٨٥٣ .

وقوله : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، أي : في حكم الله . لا ترجموهما وترفعواهما في شرع الله ، وليس للنبي عنه الرأفة الطبيعية على إقامة الحد (١) ، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد | ، فلا يبور له ذلك .

قال جامد : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، قال : إقامة الحدود إذا رُفِعت إلى السُلطان ، فقام ولا تعطل . وكذا روى عن سعيد بن جبيرة ، وعطاء بن أبي رباح . وقد جاء في الحديث : تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب (٢) . وفي الحديث الآخر : (لحدٍّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يسطروا أربعين صباحاً) (٣) .

وقيل : المراد : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، فلا تقيموا الحد كما ينبغي ، من شدة الغضب الزاجر من اللأثم ، وليس المراد الغضب للبرح :

قال حار الشيباني : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، قال : رحمة في شدة الغضب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرح ، وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن حماد بن أبي سليمان : يجلد القاذف وعليه ثيابه ، والثاني تخلع ثيابه ، ثم تلا : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، فقلت : هذا في الحكم ؟ قال : هذا في الحكم والجلد - يعني في إقامة الحد ، وفي شدة الغضب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا وكيع ، عن نافع بن خُصَر ، عن ابن أبي مليكة ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت ، فغضب رجلها - قال نافع : أراه قال : وظهرها - قال : قلت : (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) ، قال : يابني . ورايتني أحكمتني بها رأفة . إن الله لم يأمر أن تقتلها ، ولا أن أجعل جلدك في رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (٤) .

وقوله : (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) ، أي : فافعلوا ذلك ، أقيموا الحدود على من زنى ، وشدهم عليه الغضب ، ولكن ليس مبرحاً ، ليرتدح هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنني لأذبح الشاة وأنا أرحمها . قال : ولك في ذلك أسر (٥) .

وقوله : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، هذا فيه تنكيل لكافرين إذا جادا محضرة الناس ، فَبُنْ هُنَا يَحْمِلُ أَلْبِقَ في زجرهما واتبع في ردهما ، فإن في ذلك تقريماً وتوبيخاً وفسيحة إذا كان الناس حاضرين .

قال الحسن البصري في قوله : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) . يعني عاتبة . ثم قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) ، الطائفة : الرجل فاقه .

(١) في المخطوطة : « وليس المنى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد » . ولعل أصحاب ما أثبتناه . وما بين أقوال من هذه عن الكلمات السابقة .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الحدود ، باب « الدعوى عن الحدود ما بين السُلطان » ، الحديث ٤٣٠٦ : ١٣٣/٤ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب قطع يد السارق ، باب « الترفيع في إقامة الحد » : ٧٥/٨ . وابن ماجه ، كتاب الحدود ، باب « إقامة الحدود » ، الحديث ٢٥٣٨ : ٨٤٨/٢ . ومسنن الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٣٦٢/٢ : ٤٠٢ .

(٤) أخرجه البخاري من حديث نافع بن عمر : ٥٢/١٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل في قصة المزني : ٤٢٦/٣ ، ٣٤/٥ .

وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف (١) . وكلنا قال عكرمة ، ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدق على واحد .

وقال عطاء بن أبي رباح : اثنان ، وبه قال إسماعيل بن راهوييه . وكلنا قال سعيد بن جبير : (طائفة من المؤمنين) قال : يعني رجلين فصاعدا .
وقال الزهري : ثلاثة نفر فصاعدا .

وقال عبد الرزاق : حدثني ابن وهيب ، عن الإمام مالك في قوله : (وليشهد عليهما طائفة من المؤمنين) ، قال : الطائفة أربعة نفر فصاعدا ، لأنه لا يكون شهادة في الزنا دون أربعة شهداء فصاعدا . وبه قال الشافعي .

وقال ربيعه : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عليهما طائفة من المؤمنين ، أي : نفر من المسلمين ، ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا بقية قال : سمعت نصر بن علقمة في قوله : (وليشهد عليهما طائفة من المؤمنين) ، قال : ليس ذلك للفضيحة ، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لها بالتوبة والرحمة .

الرَّائِي لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يتطأ إلا زانية أو مشركة ، أي : لا يطأوه على مراده من الزنا إلا زانية حاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : (الزانية لا ينكحها إلا زان) ، أي : حاص يزناه ، (أو مشرك) ، لا يعتقد بحرمه .

قال سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي حمزة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) ، قال ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يفي بها إلا زان أو مشرك .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد روى عنه من غير وجه أيضا . وقد روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وحروة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومقاتل بن حبيان ، وغير واحد - نحو ذلك .

وقوله تعالى : (وحرم ذلك على المؤمنين) ، أي : تعاطيه والتزويج بالبناء ، أو تزويج العفائف بالقدار من الرجال .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا قيس ، عن أبي حصين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وحرم ذلك على المؤمنين) ، قال : حرم الله الزنا على المؤمنين .

وقال قتادة ، ومقاتل بن حبيان : حرم الله على المؤمنين لكاح البنائا ، وتكتم في ذلك فقال : (وحرم ذلك على المؤمنين) .

وهذه الآية كقوله تعالى : (عَصَااتٌ غَيْرُ مَسَافِحَاتٍ ، وَلَا مُتَخَلَّاتُ أَخْدَانٍ (١)) ، وقوله : (مَحْصَنَتَيْنِ غَيْرِ مَسَافِحَتَيْنِ وَلَا مُتَخَلَّاتَيْنِ أَخْدَانٍ (٢)) .. الآية . ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح القدح من الرجل اللطيف على المرأة البغي مادامت كذلك [حتى] نستتاب ، فإن ثابت صح إعتد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ، لقوله تعالى : (وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عازم ، حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي ، حدثنا الحضرى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رجلا من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة - يقال لها : أم مهزول - كانت مسافح ، وتشرط له أن يتفق عليه - قال : فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أو : ذكر له امرأ - قال : اقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (التَّائِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالتَّائِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)) .

وقال النسائي : أخبرنا عمرو بن حنبل ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحضرى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة - يقال لها : أم مهزول - وكانت مسافح ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها ، فأذن الله عز وجل : (التَّائِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالتَّائِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) .

قال الرملى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا روح بن عبادة ، عن هبة الله بن الأعمش ، أخبرنا عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مرثد بن أبي مرثد » ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة . قال : وكانت امرأة يفتي بكه يقال لها « عناق » ، وكانت صديقة له ، وأنه واحد رجلا من أسارى مكة بحمله . قال : فبحث حتى انتهت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلي (٤) [تحت] الحائط ، فلما انتهت إلى حرفتي ، فقالت : مرثد ؟ قلت : مرثد . فقالت : مرحبا وأهلا ، هلم فبت عندنا الليلة . قال : قلت : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم قال : فتبني ثمانية ودخلت الخنثمة (٥) ، فالتفتت إلى غار - أو : كهف - فدخلت فيه ، فجاءوا حتى قاموا على رأسى فبالوا ، فظل يولم على رأسى ، فأعلمهم الله حتى - قال : ثم رجعوا ، فرجعت إلى صاحبي فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهت إلى الإذخر (٦) ، ففككت عنه أكبيله (٧) ، فحملت أحمله ويضعني ، حتى أتيت (٨) به

(١) سورة النساء ، آية : ٢٥ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٥٩/٢ ، ٢٢٥ .

(٤) في الخطوطة : « سواد ظل الحائط » . والمثبت عن الرملى .

(٥) لفظ الرملى : « وسكنت الخنثمة » . والخنثمة - يفتح الخاء - : جبل مكة .

(٦) كلما في الخطوطة والرملى ، وأسد الغابة : ١٣٨/٥ ، ولم تجده في الأماكن ، هل أن في اللسان (ذخر) : « ثنية الإذخر »

هى موضع بين مكة والمدينة ، وكانت مسجاة لجميع الإذخر .

(٧) أكبله : جمع كبل ، وهو القيد .

(٨) في الرملى : « حتى قست » .

للذنية ، فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : يا رسول الله ، أنكح عاتقا ؟ أنكح عاتقا ؟ - مروي - فأسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد على قيتها ، حتى نزلت : (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشركة ، وحرم ذلك على المؤمنين) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا مرثد ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة [والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك (١)] ، فلا تنكحها .

ثم قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٢) » . وقد رواه أبو داود والبيهقي ، في كتاب النكاح من سننهما ، من حديث عبيد الله بن الأختس (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا مسدد أبو الحسن ، حدثنا عبد الوارث ، عن حبيب المعلم ، حدثني عمرو ابن شعيب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله .

وبهذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر - عبد الله بن عمرو - كلاهما عن عبد الوارث ، به (٤) . وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا حاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن أبيه عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار - مولى ابن عمر - قال : أشهد لسمعت سائلا يقول : قال عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة - المشبهة بالرجال - ، والديوث . وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومنع الخمر ، والمثان بما أعطى (٥) » . ورواه النسائي عن عمرو بن علي القلاس ، عن يزيد بن زريع ، عن حمزة بن محمد الصمري ، عن عبد الله ابن يسار ، به (٦) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن قطن بن وهب ، عن عوبع ابن الأجدع ، عن حمزة ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : حدثني عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : ممن الخمر ، والعاق ، والديوث الذي يقر في أهله الخبث (٧) .

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا شعبة ، حدثني رجل - من آل سهل بن حنيف - عن محمد بن جهمار ، عن حماد بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة ديوث » (٨) .

(١) ما بين القوسين عن الترمذي .

(٢) تحفة الأحمدي ، تفسير سورة النور ، الحديث ٣٢٢٧ : ٢١/٩ - ٢٣ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب قوله تعالى : (الزاني لا ينكح إلا زانية) ، الحديث ٢٠٥١ : ٢٢/٢ ، والنسائي ، باب « تزويج الزانية » : ٦٦/٦ .

(٤) سنن أبي داود ، في الكتاب والباب المتقين ، الحديث ٢٠٥٢ : ٢٠/٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٣٤/٢ .

(٦) النسائي ، كتاب الزكاة ، باب « المثان بما أعطى » : ٨٠/٨ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٦٩/٢ .

(٨) معجم المصنف ، أبوابه - حد الزنا ، باب « البهي عن الزنا » و« رخصها به » ومن مباشرة المرأة المرأة ، والأمير يقض الجهره .

يستشهد به لا قبله من الأحاديث .

وقال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سلمة بن سوكر ، حدثنا كتيبة بن سليم ، عن الفضالة بن مزاحم ؛ سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول] : « من أراد أن يأتي الله طاهراً مطهراً ، فليتزوج الحرائر (١) » .

في إسناده ضعف (٢) .

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حنبل الجوهري في كتاب « الصحاح في اللغة » : الديوث القُدُح وهو الذي لا خير له (٣) .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في « كتاب النكاح » من سننه : أخبرنا محمد بن إسماعيل ابن حنبل ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة وغيره ، عن هارون بن رثاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير - وعبد الكريم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس - عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس ، وهارون لم يرفعه - قالوا : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن هندي امرأة [هي] من أحب الناس إلى ، وهي لا تمنع يد لمس ، قال : أطلقها ؛ قال : لا صبر لي عنها (٤) ؛ قال : استمتع بها .

ثم قال النسائي : هذا الحديث خبر ثابت ، وعبد الكريم ليس بالقوي ، وهارون أثبت منه ، وقد أرسل الحديث وهو ثقة ، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم (٥) .

قلت : وهو ابن أبي الخارق البصري الموثق تابعي ضعيف الحديث ، وقد خالفه هارون بن رثاب ، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم ، فحديث المرسل أولى كما قال النسائي . لكن قد رواه النسائي في كتاب الطلاق ، عن إسحاق بن راهويه ، عن النضر بن شميل ، عن حماد بن سلمة ، عن هارون بن رثاب ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن ابن عباس مستندا ، فذكره بهذا الإسناد ، رجاله على شرط مسلم ، إلا أن النسائي بعد روايته له قال : « وهذا خطأ ، والصواب مرسلاً (٦) » ؛ ورواه خبر النضر على الصواب .

وقد رواه النسائي أيضا وأبو داود ، عن الحسين بن حريش ، أخبرنا الفضل بن موسى ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن حمارة بن أبي حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره . وهذا إسناد جيد (٧) .

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « تزويج الحرائر والولد » ، الحديث ١٨٦٢ : ١/٩٨٠ .

(٢) وذلك لضعف كثير من سليم ، وأما « سلام بن سليمان بن سواد » فقال عنه ابن حبان : منكر الحديث . انظر ميزان الاحتيال : ٤٠٥/٢ ، ١٧٨/٢ - ١٧٩ .

(٣) الصحاح للجوهري : ٢٨٢/١ . وفي المغرب للجويعي : ٢٠٣ ، عن أبي بكر بن دريد أن الديوث كلمة عبرانية أو سريانية . وانظر النهاية لابن الأثير .

(٤) لفظ النسائي : « لا أصبر عنها » .

(٥) النسائي ، كتاب النكاح ، باب « تزويج الزانية » : ٩٧/٦ .

(٦) النسائي ، كتاب الطلاق ، باب « وما جاء في الخلع » : ١٧٠/٦ .

(٧) النسائي ، كتاب الطلاق ، باب « وما جاء في الخلع » : ١٦٩/٦ ، وضع أبي داود : « كتاب النكاح ، باب »

« النبي عن تزويج من لم يله من النساء » ، الحديث ٢٤٩٩ : ٢/٢٢٠ .

وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مضعف له ، كما تقدم من السائي وكما قال الإمام أحمد : هو حديث منكر (١) .

وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمتع ساللاً ، وحكاها السائي في سنته عن بعضهم فقال : وقيل : « سخية تعطى » وردّ هذا بأنه لو كان المراد فقال : لا تتردّ يد ملتمس .

وقيل : المراد إن سجيته لا تتردّ يد لاس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ في مصاحبة من هذه صفتها ، فإن زوجها — والحالة هذه — يكون ديناً ، وقد تقدم الوحيد على ذلك « ولكن لما كانت سجيته هكذا ليس فيها عمانية ولا مخالفة لمن أرادها لوغلا بها أحد ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرأها ، فلما ذكر أنه يجيها أباح له البقاء معها ، لأن عيبه لها عفة ، ووقع الفاحشة منها متوهم ، فلا يصحك إلى الضرر العاجل لثوم الأجل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قالوا : فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل للتزويج ، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله (٢)

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن ابن أبي ذئب ، قال : سمعت [شعبة] — مولى ابن عباس رضي الله عنه — قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل قال : إني كنت ألم بامرأة أتت منها ما حرم الله عز وجل حل ، فزني الله عز وجل من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية ، فقال ابن عباس : ليس هذا في هذا ، انكحها لما كان من ألم فحلي .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ذكر عنده (الزاني) لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، قال : كان يقال : نسختها التي بعدها : (وأنكحوا الأباي منكم) ، قال : كان يقال الأباي من المسلمين .

وهكذا روى الإمام أبو حيد القاسم بن سلام في كتاب « التامخ والتسوخ » له ، عن سعيد بن المسيب : ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو حيد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله .

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي لخرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقلوب رجلاً فكله جلد قاذفه أيضاً ، وليس في هذا نزاع بين العلماء ، فأما إن أقام القاذف بيته على صفة ما قاله رَدّ عنه أحد ، ولهذا قال تعالى : (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون) .

(١) في النهاية (لس) عن الإمام أسد : لم يكن ليأمره بالسكها وهي تلميح .

فلوجب حل القاذئ إذا لم يتم بيته على صحة ما قاله ثلاثة أحكام ، أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة : الثاني : أنه ترد شهادته دائماً : الثالث : أن يكون فاسقاً ليس بعقل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) . اختلف العلماء في هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجدل فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف - فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب - سيد التابعين - وجماعة من السلف أيضاً .

وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً . وعن ذهب إليه من السلف القاضي شريح ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم^(١) .

وقال الشعبي والفصحاء : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحيث قبل شهادته ، والله أعلم .

وَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ زَكَاةٌ وَلَمْ يَقْبَلُوا شَهَادَةً إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝

هذه الآية الكريمة فيها فَرْجٌ للأزواج وزيادة عُرْج ، إذا قُذِفَ لخدم زوجته ونسب عابه إمامة البيعة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله عز وجل ، وهو أن يخضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء ، (إنه لمن الصادقين) ، أى : فيا رماها به من الزنا ، (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) . فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ، ويعطى مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدراً عنها إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أى : فيا رماها به ، (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) . ولهذا قال : (ويدراً عنها المأطاب) ، يعنى : الحد ، (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجسم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معلور ، وهى تعلم صدقه فيا رماها به . ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يجحد عنه .

(١) في الخطوط : « عبد الرحمن بن زيد بن جابر » . ولم نجده في الرجال ، والمدهود فيا تقدم هو ما أثبتناه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورافته بهم ، وشرعه لهم الترجيع والفرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) ، أى : لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ، (وأن الله تواب) على عباده - وإن كان بعد الحلف والأمان المخالفة - (حكيم) فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه .

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا عباد بن منصور ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) ، قال سعد بن عباد - وهو سيد الأنصار - : أهلكنا أنزلت يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار ، ألا تسمعون ما يقول سيديكم ؟ قالوا : يارسول الله ، لا تكلمه فانه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط [إلا بكراً] وما طلق امرأة له قط (١) ، فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ، من شدة غيرة . فقال سعد : والله - يارسول الله - إن لأهلنا أم حق ، وأنها من الله ، ولكن قد تمجبت أنى لو وجدت لكاعاً (٢) قد تكفلها رجل ، لم يكن لي أن أميجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته : قال (٣) : فاليثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تبيسه عليهم (٤) - فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بينه وبينهم باذنيه ، فلم يهتبه (٥) حتى أصبح ، فنادى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إلى جث أهلى عشاء ، فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بينى وسمعت باذنيه . فكثرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا (٦) : قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد الآن ، يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ، ويبتلي شهادة في الناس (٧) . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لي منها خرجاً . وقال هلال ، يارسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما جث به ، ولقد يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه ، إذ أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى - وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك ، في ترتب (٨) وجهه ، يعنى فأسكروا عنه حتى فرغ من الوحى - فنزلت : (والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم) الآية ، فسرتى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك

(١) ما بين القوسين من المتن .

(٢) الكعاب : الحذاء ، وقد لكع الرجل - يفتح فكسر - يلكع لكماً ، فهو ألكع ، ويقال للرجل ألكع - بضم الفتح - وغالب ما يحصل « لكع » في النداء .

(٣) في المتن : « وقالوا : فاليثوا » .

(٤) كان هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، والاثنتان الآخران : كعب بن مالك ، ومراوة بن الربيع .

(٥) في المتن : « فلم يهتبه » .

(٦) في المخطوطة : « فقال » . والمثبت من المتن .

(٧) في المتن : « ويبتلي شهادته في المسلمين » .

(٨) أى : تقيده . لونه إلى الزينة - بضم فسكون - ، وهى لون بين السواد والبيضاء .

فرجاً وخرجاً : فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى عز وجل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلوا إليها . فأرسلوا إليها ، فجمعت ، فتلاها (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وذكرها وأخبرها أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا : فقال هلال : والله - يا رسول الله - لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تحزوا بينهما : قليل هلال : أشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان في الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا لعون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجه التي توجب عليك العذاب فقال : والله لا يملئني الله عليها ، كما لم يملئني الله عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل [لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل (٢) لها : اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه للموجه التي توجب عليك العذاب : فتلكت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفصح قولى . فشهدت في الخامسة أن غصب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقضى أن لا يدهى ولدها لأب ولا يرى ولدها ، ومن رماها أو رى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا يبيت لها عليه ولا يقات لها ، من أجل أنها يفرقان من غير عطلاق ولا متروق عنها ، وقال : إن جاءت به أصهبسب لؤيسح حشش الساقين (٣) فهو هلال ، وإن جاءت به أورق جعداً جسكالياً خدكج الساقين سابع (٤) الألبين ، فهو الذى رميت به . فجاءت به أورق جعداً جسكالياً خدكج الساقين سابع الألبين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا الإيمان لكان لى ولها شأن .

قال عكرمة : فكان بعد ذلك أمراً على مصر ، وكان يدهى لأمه ولا يدهى لأب (٥) .

ورواه أبو داود عن الحسن بن على ، عن يزيد بن هارون ، به نحوه مختصراً (٦) .

ولما الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فنها ما قال البخارى :

حدثني محمد بن بشر ، حدثنا ابن أبي عدى ، عن هشام بن حسان ، حدثني عكرمة ، عن ابن عباس : أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البينة أوحده في ظهرك : فقال : يا رسول الله ، إذا لرى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلمس البينة ؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : البينة وإلا حد في ظهرك . فقال هلال : واللى يمشك ياحنى إلى لصابق ، وليترن الله مايرعى ظهري من الحد . فترك جبريل ، وأزل عليه : (والذين يرمون أزواجهم) ، فقرأ حتى بلغ : (إن كان من الصادقين) : فانصرفت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليها ، فجاء هلال فشهد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ل إن الله

(١) في المتن : «قرأها» .

(٢) ما بين القوسين من المتن .

(٣) «الأصهب» : تفسير الأصعب ، وهو الذى تملو لوه صبية ، وهو كالشقرة ، و «الأبيض» : تفسير الأبيض ، وهو الذى لا حيز له . «سبى» - يفتح فسكون - ، أى : طيق الساقين .

(٤) «الأورق» : الأسمر ، والورقة - بضم فسكون - : السيرة . و «جعداً» : أى : جده الشعر ، وهو ضد السبل المنسل . و «جاليا» - بضم الجيم وتشديد الياء : هو الضخم الأعضاء ، اتام الأوصال . والمخارج : عظيم الساقين .

(٥) مسند الإسلام أحمد : ٢٣٨/١ ، ٢٣٩ .

(٦) سنن أبي داود : كتاب الطلاق ، باب : فى اللعان ، الحديث ٢٢٥٦ ، ٢٢٦/٢ ، ٢٧٨ .

يعلم [(١)] أن أجدكما كافيه ، قول منكأ نائبه ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت حدة الخامسة وقصوها وقالوا : إنها منجوبة . قال ابن عباس : فلكأت ونكمت حتى ظنت أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قوى سائر اليوم ، ففبت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبصروها ، فان جاءت به أكحل العينين ، صابغ الأيتين ، غدا كحل السائقين ، فهو لشريك بين سحماه . فجاءت به كذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان في ولما شأن (٢) .

اتفرد به البخارى من هذا الوجه ، وقد رواه من غير وجه ، عن ابن عباس وغيره .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الزياتى ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح - وهو ابن عمر - حدثنا حاصم - بنى ابن كليب - عن أبيه ، حدثني ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول الله ، فرى امرأته برجل ، فذكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يردده حتى أنزل الله : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهادت) ، حتى فرغ من الآيتين ، فأرسل إليهما فدحاها ، فقال : إن الله عز وجل قد أنزل فيكما . فدحا الرجل قرأ عليه ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين : ثم أمر به فأمسك على فيه فوحطه ، فقال له : كل شئ أعون عليه من لعنة الله . ثم أرسله فقال : (لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) ثم دحاها ، قرأ عليها ، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوحطها ، وقال : وعك . كل شئ أعون من غضب الله : ثم أرسلها ، فقالت : (غضب الله عليها إن كان من الصادقين) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأقضين بينكما قضاء فضلا . قال : فولدت ، فإرأيت مولوداً بالملنية [أكثر] غاشية (٣) منه ، قال : إن جاءت به لكلنا وكلنا فهو كلنا ، وإن جاءت به لكلنا وكلها فهو لكلنا . فجاءت به بفيه الذى فككت به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جببر قال : سألت عن الثلاثين أيفرق بينهما ؟ في إشارة ابن الزبير ، فإدريت ما أقول ، فقامت من مكانى إلى منزل ابن عمر فقلت : أبا عبد الرحمن ، الثلاثين أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله : إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان ، فقال : يارسول الله ، أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فان تكلمت بكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذى سألتك عنه قد اجبت به . فأنزل الله عز وجل هذه الآيات في سورة النور : (والذين يرمون أزواجهم) ، حتى بلغ : (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) . وبدأ بالرجل فوحطه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أعون من عذاب الآخرة ، فقال : والذى يهلك بائناً ما كذبك ثم نفي بالمرأة فوحطها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أعون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذى يهلك بائناً ، إنه لكاذب : قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، وانما غاشية أن لعنة الله عليه إن كان من

(١) ما بين لقوسين عن الصحيح ، ومكانه في المخطوطة : « الله يشهد » .

(٢) البخارى ، تفسير سورة النور : ١٢٦/٦ .

(٣) في الطبقات السابقة : « بالملنية أكثر منه » . وفي المخطوطة : « بالملنية غاشية منه » . ولعل السوابق ما أنشأه ، والغاشية :

للقوم المغمضين . وكأنهم - والله أعلم - للثلاثين الذين أرادوا أن يصرخوا صفات هذا المولود .

الكاذبين ، ثم نرى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، لم ترق بينهما (١) .

رواه الترمذي في التفسير ، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به . وأخرجه في الصحيحين من حديث سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا أبو عوانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : كنا جلوساً شية الجمعة في المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أئدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سككت سككت على فيظ . والله لتسن أصبحت صالحاً لأسأن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فسأله : فقال : بأرسول الله ، إن أئدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سككت سككت على فيظ . اللهم احكم : قال فأنزلت آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به (٣) .

انفرد بأخرجه مسلم ، فرواه من طريق ، عن سليمان بن مهران الأعمش ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله ، أقتل به أم كيف يصنع ؟ فقال عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل ، قال : فلقبه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتني بشيء ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب السائل ، فقال عويمر : والله لأتبن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا سأله . فأنه فوجده قد أنزل عليه بهما ، قال : فدعا بهما فكلعن بينهما . قال عويمر : لئن انطلقت بها يارسول الله لقد كذبت عليهما : قال : فصارها قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصارت سنة للمتلاحين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبصروها فإن جاءت به أسحم أدهج (٥) العيين عظيم الأيتن ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أسحمر كأنه وحتره (٦) فلا أراه إلا كاذباً . فجاءت به على التمت للكروه (٧) .

أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي ، من طريق ، عن الزهري ، به (٨) .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٩/٢ .

(٢) البخاري ، كتاب اللعان ، باب : قول الإمام للمتلحين : إن أحديكما كاذب ... : ٧١/٧ . ومسلم ، كتاب اللعان .

باب : ٢٠٩/٤ - ٢٠٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٢١/١ - ٤٢٢ .

(٤) مسلم ، كتاب اللعان : ٢٠٨/٤ - ٢٠٩ .

(٥) الاسم : الأسود . الأدهج : شديد سواد العينين .

(٦) الوصرة - بفتح الواو والخاء - : دويبة تلحق بالأرض .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٣٤/٥ .

(٨) البخاري ، تفسير سورة النور : ١٢٥/٦ - ١٢٦ . ومسلم ، كتاب اللعان : ٢٠٥/٤ - ٢٠٦ .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إصحاق بن الضبي ، حدثنا النضر بن شريك ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، عن زيد بن شحيم ، عن حليفه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : لو رأيت مع ألم رومان رجلا ما كنت فاعلا به ؟ قال : كنت والله فاعلا به شراً . قال : فأنته بأمر ؟ قال : كنت والله فاعلا ، كنت أقول : لمن الله الأعجز ، والله عيبه . قال : فتركه . (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم) . ثم قال : لا نعلم أحداً أسعد إلا النضر بن حبيب ، عن يونس بن أبي إسحاق . ثم رواه عن حديث النورى عن [أبي] أبي إسحاق (١) عن زيد بن شحيم مرسل ، فقد أحلم .

وقال الحافظ أبو بصل : حدثنا مسلم بن أبي مسلم الحرى ، حدثنا هناد بن الحبيب ، عن هشام ، عن أبي صيرين ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لأوك لمكان كان في الإسلام أن يشرك بين صماء فكله حلال بين أمية بأمر الله . (٢) روى (٣) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة شهود ولا نصدق في ظهورك . قال : بأمر الله ، إن الله يعلم لصايق . ولما ذكر الله عليك ما يرى به ظهري مع الجسد : فأول الله آية فقال : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم) ، إلى آخر الآية . قال : فدعا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا . فشهد بذلك أربع شهادات ، ثم قال له في الخامسة : ولما دعا الله عليك أن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا . ففعل ، ثم دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قولى فاشهدين بالله إنه لم يك الكاذبين فيما رماك به من الزنا . فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها في الخامسة : وهتفت بالله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا . فقالت : فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكعة حتى ظنوا أنها مستغرقة ، ثم قالت : لا أنضح قولى سائر اليوم . فبست حل القول ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وقال : انظروا ، فإن جاءت به جملتان حشمتان السالين فهو لفريك بن صماء ، وإن جاءت به أبس سبطا فنصص (٤) المينك فهو لخلل بن أمية . فجاءت به آة جملتان حشمتان السالين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا ما نزل فيها من كتاب الله لكان لي ولها شأن .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا لَهُ تَنَبُّ مِنْ
الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُمُ فَهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، حين زعموا لأهل الإثك واليهاد مع المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والقرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه - صلوات الله وسلامه عليه- فتوكل برأيتها صيانة لرضى الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام - فقال : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة) ، أى : جماعة منكم ، بمنى ما هو

(١) في المخطوطة : «عن أبي إسحاق» . انظر ترجمة يونس بن أبي إسحاق في الجرح والتعديل لأبي حاتم : ٢٤٣/٢٤٤-٢٤٤/٢٤٥ .

(٢) في المخطوطة : «قرنته» . ولعل السواب ما أثبتناه ، بمنى أن حلالا رضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) في المخطوطة : «فإن جاءت به سبطا قصير قصي العينين» . وفي النهاية : «سبطا» ، أى : «سدة الأعضاء لام الخلق» .

وقصص - بفتح القاف - وكسر القاء - بدعا ياء - فمزة - فاسد العين .

واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان القُدَم في هذه القصة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فانه كان مجتمعه ويستوربه، حتى دخل ذلك في اذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، ونجّوه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر، حتى نزل القرآن، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب، وعروة ابن الزبير، وعطمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن حنبل عن معمر، عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال لها أهل الإنك ما قالوا، فبرأها الله، وكلّهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوصى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد عبت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضاً ذكرنا أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سكرًا أقرع بين نسائه، فأبنتين خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاه، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فانا أحمل في هودج وأنزل فيه مسيرنا^(١)، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقتل ودنوا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقامت حين آذنوا بالرحيل، فلبثت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أبليت إلى الوحل فلمست صدرى، فاذا عقد من جزع ظفار^(٢) قد انقطع، فرجعت فالتصمت عقدى، فعبستى^(٣) ابتغاه: وأقبل الرجل الذين كانوا يرحلون في حملوا هودجى فرحلوه على يبرى: الذى كنت أركب، وهم يحسبون أنى فيه - قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهلبهن^(٤) ولم يمشهن اللحم، إنما يأكلن الملقّة^(٥) مع الطعام، فلم يستكرن القوم ثقل المودج حين رحلوه ورفعه، وكنت جارية حديثة السن، فبعضوا الجمل وساروا، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فبشت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فلبثت^(٦) منزلى الذى كنت فيه، وطلعت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلى. فبينا أنا جالسة فى منزلى، غلبنى عبنى فتمت - وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الدكوكى قد حرس من وراء الجيش، فاذكج^(٧) فأصبح عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فرفنى حين رأتى. وقد كان يرانى قبل أن يضرّب على الحجاب، فاستيقظت بأسرجاه^(٨) حين عرفنى، فحسرت وجهى ولبلى، والله ما كلمنى كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير أسرجاه، حتى^(٩) أناخ راحته، فطوى على يدها فركبتها، فانطلق يوقد في الرحلة حتى آتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤخرين^(١٠) في نحر الظهرة. فهلك من هلك فى شأنى،

(١) فى المخطوطة: «فبرأها» والمثبت من المسند.

(٢) الجرح والخرز وظفار - يفتح الظاء - مدينة حدير باليمن.

(٣) فى المسند: «فاحسنى».

(٤) أى: لم يكثر عليهن.

(٥) الملقّة - يتم فسكون - «والقى اليسير».

(٦) فى المسند: «فلبثت».

(٧) الادلاج - السير من آخر الليل.

(٨) الأسرجاع أن يقول: «إنا قد ونا إليه راجعون».

(٩) فى المخطوطة: «حين أناخ» - والمثبت من المسند.

(١٠) أى: فى وقت الهجرة، وقت توسط الشمس ليلها. يقال: وفرت الهجرة وغرا، وأوفر الرجل: دخل فى ذلك الوقت.

وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول . فقلتُ للنبية فاشكيت حين قلنا شهرا ، والناس يمشون في قول أهل الإللاك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يترينى في وجهى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطيف (١) الذى كنت أرى منه حين أشكيت ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ، ثم يقول : كيف بيكم ؟ فذلك يترينى ولا أشعر بالشئ ، حتى خرجت بعد ما نقيتُ (٢) وخرجت معى أم مسطح قبل الملاحع - وهو متبرزنا - ولا تخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التزه (٣) ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبي رهم ابن المطلب بن عبد مناف ، وأما ابنة صخر بن عامر ، خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثانة بن حباد ابن المطلب (٤) - فالتقت أنا وابنة أبي رهم قبيل يئى حين فرغنا من شأننا ، فهوت أم مسطح في مرطها (٥) ، فقالت : « تس مسطح » . فقلت لها : بشما قلت . تسين رجلا شهد بدرًا . قالت : أى هفتاه (٦) ، لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرنى يقول أهل الإللاك ، فازدبت مرعاً إلى مرضى فلما رجعت إلى يئى لدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ، ثم قال : كيف بيكم ؟ قلت : أناذن لى أن آتى أبوى ؟ - قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيتي الخبر من قبيلكما - فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمته ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بئيتى ، هوى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيت ، هند وجل بيها ، ولها ضرار ، إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : صبحان الله . أوقد تحدث (٧) الناس بهذا ؟ قالت : فهيكث تلك الالة حتى أصبحت لا يرفأ (٨) لى في فمع ولا أكمل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فلما رسول الله صلى الله عليه وسلم عكبا ، وأمامة بن زيد حين استلبت (٩) الوحى ، يستشيرا في فراق أهله ، قالت : فأما أمامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وباللهى يعلم في نفسه لم من الوء ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا تعلم إلا خيرا . وأما على ابن أبى طالب فقال : لم يضييق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدك ذلك الخبر (١٠) . قالت : فلما رسول الله صلى الله عليه وسلم بترية ، فقال : أى بترية ، هل رأيت من شئ يتريك من عاتية ؟ فقالت له ببرة : والذى يهلك الخلق ، إنه رأيت عليها أمرا قط أسمعته (١١) عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجن أهله ، فتأتى الداجن (١٢) فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستطر من عبد الله بن أبي بن سلول قالت : فقال رسول

(١) اللطيف - يفتح اللام والفاء ، ويضم فسكون - : الرقيق والبر .

(٢) أى : برأت ورافقت .

(٣) أى : التجمهه ، نريد أنهم كانوا يتقصون الحاجة في مكان بعيد .

(٤) في المخطوطة : « هباد بن عبد المطلب » . والصواب عن المستد ، وأمه العاتية : ١٥٦/٥ .

(٥) المرط - بكسر فسكون - : الكساء .

(٦) أى : يا هله . وقيل : الخى يا بلهه ، تنبها إلى ثلة المرأة ، وقال الجوهري : هذه اللفظة مخصصة بالداء .

(٧) في المخطوطة : « أوقد تحدث للناس بها » . والمثبت عن المستد .

(٨) أى : لا يتقطع .

(٩) أى : أبطأ وتأخر .

(١٠) كلمة « الخبر » غير ثابتة في المستد .

(١١) أى : أحياها به ، وألمن به عليها .

(١٢) الداجن : فلاة التى يملؤها الناس في منزلهم .

الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ، يا معشر المسلمين ، مَنْ يَملِكُ (١) مع رجل قد بلغني أَنَاهُ في أَهل بَيْتِي ،
 فَو الله ما علمتُ حُلَّي أَهلٍ إِلا خَيْرًا ، ولقد ذَكَرُوا رجلاً ما علمتُ عليه إِلا خَيْرًا ، وما كَانَ يَخْلُحُ حُلَّي أَهلٍ إِلا مَنِي ، فقام
 سعد بن معاذ الأَنْصَارِيُّ فقال : أَنَا أَملُوكُ مَنِي يا رَسُولَ اللهِ ، إِن كَانَ مِنَ الأَوْسِيِّ ضَرْبَنَا عَقَبَهُ ، وَإِن كَانَ مِنَ إِخْوَانِنَا
 [مِنْ] الْخُرُوجِ ، أَمَرْنَا فَنَضِلُّهُ أَمْرُكَ ، قَالَتْ : فقام سعد بن عبادَةَ - وهو سيد الْخُرُوجِ ، وَكَانَ رجلاً صَالِحاً ، وَلَكِنْ احْتَمَلَهُ
 الْحَمِيَّةُ (٢) - فقال لسعد بن معاذ : لَعمرُ اللهِ لَا نَقْتُلُهُ ، وَلَا نَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ ، فقام أُسَيْدُ بْنُ حُصَيْنٍ - وهو ابن عم سعد
 ابن معاذ - فقال لسعد بن عبادَةَ : كَلِمَتِي ! لَعمرُ اللهِ لَنَقْتُلُهُ ، فَإِنَّكَ مَنَافِقٌ تَجَادُلُ مِنَ الْمَنَافِقِينَ ، فَتُأَوَّرُ (٣) الْحَيَّانِ
 الأَوْسِيِّ وَالْخُرُوجِ حَتَّى هَمَمُوا أَنْ يَقْتُلُوا ، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم [قَامَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صلى الله
 عليه وسلم (٤)] يَخُفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَتْ : وَبَكَيْتُ يَوْمَ ذَلِكَ ، لَا بِرَأْيِ
 لِي دَعَمٌ ، وَلَا أَكْثَلِ يَوْمٍ ، وَأَبْوَى بَيْتَانِ أَنْ الْبُكَاءَ فَاتَكَ كَيْدِي ، قَالَتْ : فَبَيْنَا هَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي ، أَسْأَلُكَ
 حُلَّي أَمْرَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَذَلَّتْهَا ، فَجَلِسْتَ بَيْنِي مَيِّ ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم
 فَلَمْ نَمُجِّلْ ، قَالَتْ : وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مَتَدٍ قَلِيلٍ مَا قَلِيلٌ ، وَلَقَدْ لَبِثُ شَهْرًا لَا يُوَحِّسُ إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ - قَالَتْ :
 فَشَهِدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم جِيعَ جَلَسٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا يَجِدُ يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كُلُّهُ وَكُلُّهُ ، فَإِنْ كُنْتَ
 بِبِرِيَّةٍ فَسِيرْ لِي اللهُ ، وَإِنْ كُنْتَ الْخَمْسَةَ يَذْنِبُ فَاسْتَغْفِرِي اللهُ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ ، تَابَ اللهُ
 عَلَيْهِ ، قَالَتْ : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَقَالَتَهُ فَكَلَسَ (٥) دَمْعِي ، حَتَّى مَا أَحْسَسُ مِنْهُ قُطْرَةً ، فَقُلْتُ لَأَجِبَ :
 أُجِيبْ عَنِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : وَاللهُ مَا أُقُولُ لِرَسُولٍ ، فَقُلْتُ لَأَجِبَ : أَلْجِيبُ [عَنِّي] رَسُولُ اللهِ
 فَقَالَتْ : وَاللهُ مَا أُدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ، قَالَتْ : فَقُلْتُ ، وَأَنَا جَارِيَةٌ حَبِيَّةٌ مِنَ السَّحَابِ ، لَا أَحْظُرُ (٦) كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَاللهُ
 لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ جِلَاءَهُ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَلَتْكُمْ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَكُمْ لِي بِبِرِيَّةٍ - وَاللهُ يَعْلَمُ بِبِرِيَّتِي - لَا تَصْدُقُونَ
 [بِذَلِكَ] ، وَلَكِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ بِعَلَمِ لِي بِبِرِيَّةٍ تَصْدُقُونَ (٧) ، وَإِنِّي وَاللهُ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مِثْلًا إِلا كَذَابًا
 أَبُو يَوْسُفَ (٨) (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ السَّمْعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) ، قَالَتْ : ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي ، قَالَتْ :
 وَأَنَا وَاللهُ حِينَئِذٍ أَهْلِمْتُ لِي بِبِرِيَّةٍ ، وَأَنَّ اللهُ سَبَّحَنِي بِبِرَامِي ، وَلَكِنْ وَاللهُ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَزَالَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يَتَلَّى ، وَلَشَأْنِي
 كَانَ أَحْفَرُ قِيَّاسِي مِنْ أَنْ يَكْذِبَ اللهُ عَنِّي بِأَمْرِ يَتَلَّى ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي النَّوْمِ
 رُؤْيَا بِبِرِيَّتِي اللهُ بِهَا ، قَالَتْ : فَوَاللهُ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم [مِنْ] جِلْسِهِ ، وَلَا خُرُوجِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ
 أَحَدٌ ، حَتَّى أَتَى اللهُ حُلَّي لِي بِهِ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبَرَّحَاءِ (٩) عِنْدَ الْوُجْهِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ

(١) أَيُّ مَنْ يَمْلِكُ يَمْلِكُ إِذَا كَانَتْهُ بِسْمَةِ صَلَاحِهِ ؟

(٢) أَيُّ حَمَلَةِ الْاَلْفَةِ وَالْفَضْبِ عَلَى الْجُلُودِ ، وَبِرِيَّةٍ ، وَبِرِيَّةِ الْحَمِيَّةِ .

(٣) فِي الْمَسْتَدِ ، فَتَأَوَّرَ الْحَيَّانِ .

(٤) مَا يَبِينُ الْقُرْصِينَ مِنَ الْمَسْتَدِ .

(٥) أَيُّ أَرَقَّعَ وَدَحَبَ .

(٦) كَذَابًا فِي الْمَقْطُوعَةِ ، وَفِي الْمَسْتَدِ ، وَلَا أَقْرَأَ .

(٧) مَا يَبِينُ الْقُرْصِينَ مِنَ الْمَسْتَدِ .

(٨) وَلَمْ يَرِجْ ، وَبِرِجَ .

(٩) لِقَرْنِهِ ، فَتَلَتْ الْقَرْبَ مِنْ تَقَلُّ الْقَرْبِ .

الجسمان) (١) من العرق في اليوم الثاني، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قاله فلاسفة من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يضلح، كان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشر يا عائشة، أما الله فقد برأك، فقالت لي أي: قولي إليه: قتلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل برائعه، وأنزل الله عز وجل: (إن الذين جاءوا بالإلحاد عصبة منكم)، عشر آيات، فأنزل الله هذه الآيات برائعه، قالت: قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان يفتي على سطح لقربته منه وقره: والله لا أنفي عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة: فأنزل الله عز وجل: (ولا يأتئ أولوا الفضل منكم والسعة) إلى قوله: (ألا تحبون أن يغفر الله لكم)، فقال أبو بكر: والله إن لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى سطح الفتنة التي كان يفتي عليه: وقال: لا أزعجها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينبة بنت جحش: زوج النبي صلى الله عليه وسلم - من أمري (٢) يا زينبة، ما علمت، أو: ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمى سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني (٣) من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فسميها الله تعالى بالروح، وعلقت أعضائها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب: فلهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط (٤).

أخرجه البخاري ومسلم في مسيحتهما، من حديث الثوري (٥) وهكذا رواه ابن إسحاق، من الثوري كذلك، قال: وحديثي يعني من هبذ بن عبد الله بن الزبير، من أبيه، عن عائشة - وحديثي عبد الله بن أبي بكر بن محمد ابن هرو بن حرم الأنصاري، عن حمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم (٦).

ثم قال البخاري: وقال أبو أمامة، عن هشام بن عروة قال: أخرتني أبي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لا ذكر من شأن الذي ذكر وما حكمت به، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة، فشهد فتحمداً الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أشيروا علي في أماني أبتوا (٧) أهل، وأمر الله ما علمت على أهل من سوء، وأبتوهم بمن، والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: اللئيم يا رسول الله أن تضرب أعناقهم، فقام رجل من الخوارج - وكانت أم حسان [بن ثابت] من رهط ذلك الرجل، فقال: كلبت، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحيت أن تضرب أعناقهم،

(١) الجمان: الوثؤنؤ.

(٢) لفظ المست: من أمري وما علمت، أو ما رأيت، أو ما يملك.

(٣) أي: تمالئي وتعارفي.

(٤) منه الإمام أحمد: ١٩٤/٦ - ١٩٧.

(٥) البخاري، كتاب الشهادات، باب: تعديل النساء بمشهن بشراً، ٢٢٧/٣ - ٢٣١. وتفسير سورة يوسف:

٩٦-٩٥/٦، وتفسير سور التلويح: ١٢٧/٦ - ١٣٢، وكتاب الإيمان، باب: الإيمان فيما لا يملك وفي المسببة وفي الغيب، ١١٨/٨، وكتاب التوحيد: ١٧٦/٩، ١٧٧. ومسلم كتاب التوبة، باب: في حديث الإلحاد وقبول توبة القاذف، ١١٢/٨ - ١١٨.

(٦) سيرة ابن هشام، في غير غزوة: ٢٩٧/٢ - ٣٠٧.

(٧) أي: أجهوها.

حتى كاد أن يكره بين الأوس والخزرج شرًّا في المسجد ، وما حكمت : فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ، فتمكرت فقالت : تبس مسطح . قلت : أي أم ؟ أتبين ابنك ؟ وسكنت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تبس مسطح : فقلت لها : أي أم ؟ تبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت : تبس مسطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : في أي شيء ؟ قالت : فتبكرت (١) في الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم ، والله ؟ فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً ، ووُعثت ، وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلني إلى بيت أبي ؟ فأرسل معي الغلام ، فدخلت الدار ، فوجدت أم رومان في السفل ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أي : ما جاء بك يا بنتي ؟ فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث ، وإذا هو لم يبلغ منها [مثل] ما بلغ مني ، [فقالت : يا بنتي ، حكمتي عليك الشأن ، فانه - والله - لتكفما كانت امرأة حسنة ، عند رجل يحبها ، لها غرائب إلا حسنتها ، وقيل فيها . فقلت : وقد حكمت به أبي ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، لامتعبرت (٣) وبكيت ، فسميح أبو بكر صوتي ، وهو فوق البيت يقرأ ، فترجى فقال لأي : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها . ففاضت حينها وقال : أنصت عليك - أي بنتي - إلا رجعت إلى بيتك . فترجعت ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيبي ، فسأل حتى خاض ، فقالت : لا ، والله ما علمت عليها حياء ، إلا أنها كانت ترد حتى تدخل الشاة لتأكل خبثها أو : هيجنها ، وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدمني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أسقطوا (٤) لها به ، فقالت : سبحان الله : والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصالح هل تهر النعب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قبل (٥) له ، فقال : سبحان الله . والله ما كتشفت كتشفت (٦) أني لقط - قالت عائشة : فقتل شهيدا في سبيل (٧) الله - قالت : وأصبح أبرأى عدلى ، فلم يزالا حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر ، ثم دخل وقد اكتفيت أبرأى من بيني وعن شبلى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده - قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهي جالسة بالبواب - فقلت : ألا تصحى من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفت إلى أبي ، فقلت له : أجيبه قال : فإذا أقول ؟ فالتفت إلى أبي فقلت : أجيبيه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيبه ، تشهدت فحمدت الله وأثنت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فزأفك لتن قلت لكم إلى لم أفعل - والله عز وجل يشهد إلى لصادقة - ماذاك بنافى عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأشرته قلوبكم ، وإن قلت : إلى قد فعلت - والله يعلم أني لم أفعل - لتقولن :

(١) أي : فضحه وكشفته .

(٢) ما بين القوسين من البخاري ، وقد حُف من مخلوطة الأثر .

(٣) استعبرت ، من البرة ، وهي : تحب الدع .

(٤) أي : سبوا ، وقالوا لها من سقط الكلام ، وهو رديته ، بسبب حديث الإنك .

(٥) أي : صفوان بن المصل .

(٦) الكنف - بفتحين - : الجلباب والناحية . والكنف - بفتح فسكون - : الوعاء . وقد جوز ابن الأثير في النهاية

الصفين .

(٧) انظر شرح صفوان في أسد الغابة ٣/٢٠٠ - ٢١ بتحقيقنا .

قد بامت به على نفسها ، وإني - والله - ما أبجد لي ولكم مثلاً - والتستُّ أمم يعقوب فلم أقل عليه - إلا أبا يوسف حين قال : (فسر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ، وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته ، فسكتنا ، فقرأه عنه وإني لأعجب السرور في وجهه ، وهو عيس جيته ويقول : أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براتلك . قالت : وكنت أشد ما كنت غضباً ، فقال لي أبي : قولي [إليه] . قلت : لا ، والله لا أقوم إليه ولا أحمله ولا أحمد كما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل برامق ، لقد سمعته فأنكرتوه ولا غيرتوه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصها الله بدينها ، فلم تقل إلا غيراً ، وأما أخيها حمنة بنت جحش ، فهلكت فيمن ملك . وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت . وأما للشافع (١) عبد الله بن أبي بن سلوك فهو الذي [كان] يسترشيه ويجمعه ، وهو الذي تولى كثيره منهم هو وحمنة : قالت : وحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بتافئة أبداً ، فأنزل الله : (ولا يأتل أولو الفضل منكم) ، إلى آخر الآية ، بنى أبا بكر ، (والسمة أن يؤثوا أولى القرين والمساكين) ، يعني مسطحاً ، إلى قوله : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) . فقال أبو بكر : بلى والله يا ربنا ، إنا لنحبها أن تغفر لنا ، وعاد له بما كان يصنع .

هكذا رواه البخاري من هلا (٢) الوجه مضمكاً بصيغة الجزم ، عن أبي أسامة حماد بن أسامة [أحد الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن صفيان بن وكيع ، عن أبي أسامة] به مطولاً ، مثله أو نحوه (٣) . ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأجاج ، عن أبي أسامة بعضه :

وقال الإمام أحمد : حدثنا حُثَيْم (٤) ، أخبرنا عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما نزل حذري من السماء ، جاعني النبي صلى الله عليه وسلم فأنبأني بذلك ، فقلت : تسجد لله لا تسجد لك (٥) . وقال الإمام أحمد : حدثني ابن أبي حنبل ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن حمزة ، عن عائشة قالت : لما نزل حذري فأم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فتصيروا حديم (٦) .

وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن (٧) : وقع عند أبي داود تسميتهما : حمان ابن ثابت ، ومسطح بن أنثة ، وحمنة بنت جحش .

فهله طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها .

(١) لفظ الصحيح : وحسان بن ثابت ، والمتفق فيه الله بن أبي ، وهو الذي

(٢) البخاري ، تفسير سورة التوب : ١٣٤/٦ - ١٣٩ .

(٣) تفسير الطبري : ٧٤/١٨ - ٧٦ .

(٤) في المسند : وحدثنا هشام قال : أنا منصور ، عن عبد الرحمن بن عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه . والسرابة ما في تفسير ابن كثير . وهشام هو ابن بشير يروي عن عمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، الذي يروي عن أبيه .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٠/٦ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٥/٦ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الجود ، باب : وسد الثلق ، الحديث ٤٤٧٤ : ١٦٢/٤ . ومجلة الأحرف : تعليق

سورة توب ، الحديث ٢٢٤١ : ٢٧/٦ . وابن ماجه ، كتاب الجود ، باب : وسد الثلق ، الحديث ٢٥٧٢ : ٨٥٧/٢ .

وقد روي من حديث أمها أم رومان - رضي الله عنها - فقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن حاصم ، أخبرنا حصين ، عن أبي وائل ، عن مسروق ، عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله - بأبنائها - وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حدث الحديث . قالت عائشة : وأنى حديث ؟ قالت : كلها وكلها . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة رضي الله عنها منشا عليها ، فما أفاق إلا وعليها حمى بنافض^(١) . قالت : قممت قدرتها ؟ قالت : وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما شأن هذه ؟ قلت : يا رسول الله ، أخطبها حمى بنافض . قال : فلعله في - حدث - تحدث به ؟ قالت : فاستوت [له] عائشة قاعدة فقالت : والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني ، ولئن اغتسلت إليكم لا تغسلوني ، فئلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه (والله المستعان على ما تصفون) . قالت : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا الله صلواتها ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ، [لدخل فقال : يا عائشة : إن الله تعالى قد أنزل حورك : فقالت : محمد الله لا يحملك . فقال لما أبو بكر : تفرلين هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . قالت : نعم : قالت : فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يموله أبو بكر]^(٢) فحلف أبو بكر أن لا يصله ، فأتوا الله : ولا يأتى أولو الفضل منكم والسمة) ... إلى آخر الآية ، قال أبو بكر : بلى . فوصله^(٣) .

لفرد به البخاري دون مسلم ، من طريق حصين^(٤) . وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل ، عن أبي هريرة - وعن محمد بن سلام ، عن محمد بن فضيل - كلاهما عن حصين ، به ، وفي لفظ أبي هريرة : « حدثني أم رومان^(٥) » . وهذا صريح في صياح مسروق منها ، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الخطيب البغدادي ، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الخطيب : « وقد كان مسروق يرسله يقول : « سئلت أم رومان ، ويسوقه ، فلعل بعضهم كتب « سئلت » بآلف ، فاعتقد الراوى أنها « سألت » ، فظنه متصلا ، قال الخطيب : « وقد رواه البخاري كذلك ، ولم تظهر له علته » . كلها قال ، والله أعلم .

فقله : (إن الذين جاءوا بالإفك) ، أى : بالكلب والبهي والافتراء ، (عصبه) ، أى : جماعة منكم ، (لا تحسبوه سرا لكم) ، أى : يا آل أبي بكر ، (بل هو خبر لكم) ، أى : في الدنيا والآخرة ، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لم باعتناء الله بمناشئة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى إرمانها في القرآن العظيم الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)^(٦) وضلنا ما فعل عليها ابن عباس رضي

(١) أى : بمرحلة طيبة ، كأنها لطفها ، أى : حركتها .

(٢) ما بين القوسين من المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٦٧/٦ ، ٣٦٨ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة النور : ١٣٢/٦ .

(٥) انظر رواية البخاري عن موسى بن إسماعيل في كتاب المغازي ، باب « حديث الإنك » : ١٥٤/٥ ، وروايته عن محمد

ابن سلام في كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسالمين) : ١٨٢/٤ .

(٦) سورة فصلت : آية ٤٢ .

الله عنه ، وهى فى سياق الموت ، قال لما : أبشرى ، فأنك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، وأنزل برأيتك من السماء (١) ،

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثني محمد بن حبان الواسطي ، حدثنا جعفر بن عون ، عن اللؤلؤ بن عرفان ، عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضى الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التى نزلت زوجي [مى السماء] ، قال : وقالت عائشة : أنا التى نزلت حكرى فى كتابه ، حين حملني ابن المطلب على الرحلة ، فقالت لما زينب : يا عائشة ، ما قلت حين ركبتيها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة للمؤمنين (٢) ،

وقوله : (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) ، أى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورأى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بشئ من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب .

(والذى تولى كبره) ، قيل : ابتدا به : وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويلبسه ويشبهه ، (له عذاب عظيم) ، أى : حل ذلك ،

ثم الأكثرون حل أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سكر - قبحه الله ولعنه - وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث ، وقال ذلك جماعة وغير واحد .

وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما قد يترك حل ذلك . كان لإيراده كبير فائدة (٣) ، فانه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، ولحسن مجامعته كان كان يكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هاجهم وجبريل معك ، وقال الأعمش ، عن أبي الفصي ، عن مسروق قال : كنت عند عائشة - رضى الله عنها - فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فأتني ، فلما خرجت قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعنى يدخل عليك - وفى رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال الله (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ؟ قالت : وأنى عذاب أشد من العى - وكان قد ذهب بصره - لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم : ثم قالت : إنه كان يتأفح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية أنه أنشدها عند ما دخل عليها [شعراً] يمتدحها به ، فقال (٤) :

حَصَّانَ رَزَّانُ مَا تَزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غُرَّتِي مِنْ لُحُومِ الْقَوَائِلِ (٥)

فقلت : أما أنت فلست كذلك . وفى رواية : لكنك لست كذلك (٦) ،

(١) البخارى تفسير سورة النور : ١٢٢/٦ ، ١٢٣ .

(٢) تفسير الطبري : ٧٠/١٨ .

(٣) النظر البخارى ، كتاب المنازى ، باب : حديث الإنك : ١٥٥/٥ .

(٤) ديوانه ، ما يروى : ١٨٨ .

(٥) الحصان : العيلة . والرزان : ذات الثياب والرقار . تزن : تهم . غرئ : جاعة . اللؤلؤ : جمع فائلة . يعنى أنها لا ترتع فى أراض الناس .

(٦) انظر تفسير الطبري : ٧٠/١٨ ، والمرجع المتقدم من البخارى .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قزعة ، حدثنا سلمة بن عائقة ، حدثنا داود ، عن عامر ، عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، ولا تمثل به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبي سفيان ، يعني (١) ابن [الخيار] ابن عبد المطلب :

مَجَّوَتْ مُحَسَّنًا ، فَلَجِبَتْ عَنْهُ ، هَدَّ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْحَزَنُكُ
فَلَنْ أَتَى وَوَالِدَهُ وَعَرَضِي لِعَبْرَتِي مُحَسَّنًا مِنْكُمْ وَقَدْ
أَتَشْتُمُهُ ، وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍّ ؟ فَتَرَكْنَا لِحَبِيرِكُنَا الْقِدَاءُ
لَسَانِي عَكْرَمَ لَا عَيْبَ فِيهِ وَيَحْزِي لَا تُكْذِرُهُ الْكَلَامُ

قليل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا اقراء ؟ قالت : لا ، إنما اللغو ما قيل عند النساء ، قيل : أليس الله يقول : (والذى على كبره منهم له عذاب عظيم) ، قالت : أليس قد أصابه [عذاب] عظيم ؟ [أليس] قد ذهب بصره وكشع (٢) بالسيئ (٣) ؟ تعني القرية التي شره لهاها صفوان بن المعلل ، حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك ، فعلاه بالسيف ، وكاد أن يقتله .

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ أَنْتُمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ لَوْلَا جَاءَتْ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالْبُهْدَاءِ فَادَّعَى اللَّهُ إِلَيْكَ وَحَدَّثَ اللَّهُ بِهِمْ الْمُنِذِينَ ﴿١٦﴾

هذا بأدب من الله للمؤمنين في قضية عائشة - رضى الله عنها - حين أخاض بعضهم في ذلك الكلام السيئ ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال : (لولا) ، بمعنى هلا (إذ سمعتموه) ، أى : ذلك الكلام ، أى : الذى رويت به أم المؤمنين (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) ، أى فاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يبين بهم فام المؤمنين أولى بالبرائة منه بطريق الأولى والأخرى .

وقد قيل : إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضى الله عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار ، عن أبيه ، عن بعض رجال بني النجار : أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكت قاطلة ذلك يا أم أيوب قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من لعل الإفك : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون) ... الآية ، أى : كما قال أبو أيوب وصاحبه (٤) .

-
- (١) في مخلوطة الأثر : « لأبي سفيان ، يعني ابن حرب بن عبد المطلب » . وهو غشاً ، وانصواب عن الطبعات الساذجة .
وانظر ترجمة أبي سفيان في لكن من أسد القابة : ٢١٣/٥ ، ما انرجية .
(٢) كتبه بالسيف : أليس جاءه فرقا وخوفاً وهماً .
(٣) تفسير الطبري : ٦٩/١٨ ، ٧٠ . وانظر أبيات حسان في ديوانه : ٩ .
(٤) تفسير الطبري : ٧٧/١٨ ، وسيرة ابن هشام : ٣٠٢/٢ .

وقال محمد بن عمر الواقدي : حدثني ابن أبي حبيبة (١) ، عن داود بن الحصين ، عن أبي سفيان ، عن أنس بن مالك ، عن أبي أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبي أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكلب ، أكلت بأمر أبي أيوب [فاعلة ذلك] ؟ قالت : لا ، والله : قال : ضائشة والله خير منك ، فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك ، قال الله عز وجل : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) ، يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال .
ويقال : إنما قالوا أبي بن كعب .

وقوله : (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) ، أي : جكأ ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهلكه وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ، (وقالوا) ، أي : بأنفسهم (هذا إفك مبين) ، أي : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذي وقع لم يكن رية ، وذلك أن أبي أيوب لم المؤمنين راية جهرة على راحلة صفوان بن لمطل في وقت الظهيرة ، والجيش بكاهل مشاهدون ذلك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، لو كان هذا الأمر فيه رية لم يكن هكذا جهرة ، ولا كانوا يقتدئون على مثل ذلك على رموس الأشهاد ، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا ، فبعد أن ما جاهد به أهل الإفك مما رآه أم المؤمنين هو الكلب البحت ، والقول الزور ، والرسالة الفاحشة [أقبح] والصفقة الخاسرة .

قال الله تعالى : (لولا) ، أي : هلا (جاعوا عليه) ، أي : حلى ما قالوه (بأربعة شهداء) يشهدون على صحة ما جاعوا به ، (فإذا لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون) ، أي : في حكم الله كذبة جاعون .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ تَلَقَّوهُمْ بِالْإِسْكَرِ وَتَقُولُونَ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة) أي الخائفون في شأن عائشة ، بأن قبل توبكم وإنابتم إلى في الدنيا ، وحفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ، (لمسكم فيها أفضم فيه) ، من فضية الإفك ، (عذاب عظيم) . وهذا فيمن عنده إيمان برزقه الله بسببه التوبة إليه ، كمنسطح ، وحسان ، وحمنة بنت جحش ، أخت زبئ بنت جحش . فلما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين في هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن مايرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقا مشروعا بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازئه أو يترجح عليه .
ثم قال تعالى : (إذ تلتقونهم بالإسكركم) ، قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أي يرويه بعضهم عن بعض ، يقول هذا : سمعت من فلان ، وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا .

(١) في المخطوطة : « ابن أبي حبيب » . وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه ، وهو : إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة الأنصاري الأجل أبو إسماعيل اللخمي . يروي عن داود بن الحصين ، عنه الواقدي . انظر التلخيص : ١٠٤/٢ .

وقرأ آخرون (إذ تكفونته بالسكتم) . وفي صحيح البخاري عن عائشة : أنها كانت تقرأها كذلك (١) . وتقول : هو من ولّى القول ، يعني الكلب الذي يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : ولّى فلان في السير : إذا استمر فيه (٢) . والقراءة الأولى أشهر ، وعليها الجمهور ، ولكن الثانية مرويّة عن أم المؤمنين عائشة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن نافع بن عمر (٣) ، عن ابن أبي مليكة [عن عائشة أنها كانت تقرأ : (إذ تكفونته) ، وتقول : إنما هو ولّى القول - والولّى : الكلب . قال ابن أبي مليكة (٤)] ، هي أعلم به من غيرها .

وقوله : (وتقولون بأنواحكم ما ليس لكم به علم) ، أي : تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين ، وتحسبون

ثم قال تعالى : (وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم) ، أي : تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيرا ، ولو لم تكن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم لما كان هينا ، فكيف وهي زوجة النبي الأُمّ ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل ! الله يباركها ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك ، حاشا وكذا ، ولما لم يكن ذلك [فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة ؟] ولهذا قال تعالى : (وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) ، وفي الصحيحين : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يدرى ما تبلغ ، يجرى بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض . وفي رواية : لا يلقى بها بالا (٥) .

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَيْنَ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾ يَعْلَمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بالظن خبرا ، أي : إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولى بنهي الظن بهم خبرا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك . ثم إن حليق يتعسف شيء من ذلك - وسوسة أو خيالا - فلا يبيى أن يتكلم

(١) البخاري في تفسير سورة النور : ١٣٢/٦ .

(٢) تفسير عائشة للرق في تفسير الطبري : ٧٨/١٨ . وقال أبو الفتح بن جني في المحتب ١٠٤/٢ : ١٠٥ : وأما تعلقه [يعني : بكسر اللام وضع الفتح] فتسرعون فيه ، وتحفون إليه ... وأصله : تلقون فيه أو إليه ، فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إل للمفعول ، كقوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا) ، أي : من قومه . والماء : فسر الإنك .

(٣) في المطبوعة : « نافع » ، من ابن عمر . وهو خطأ ، صوابه عن تفسير الطبري : ٧٨/١٨ : وهو « نافع بن عمر ابن عبد الله الجسعي » . مترجم في التلخيص : ٤٠٩/١٠ ، يروي عن ابن أبي مليكة ، ويروي عنه أبو أسامة .

(٤) ما بين القوسين من اللد المتصور : ٣٤/٥ . وقد وضع في الطبقات السابقة في خبر موضعه .

(٥) البخاري : كتاب الرقاق : باب « حفظ اللسان » : ١٢٥/٨ . ومسلم : كتاب الزهدة ، باب « التكلم بالكلمة يجرى بها في النار » : ٢٢٢/٨ : ٢٢٤ .

به ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يجاوز لأمرى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل . أخرجاه في الصحيحين (١) .

وقال الله تعالى : (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) ، أى : ما ينبغي لنا أن نفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ، (سبحانه هذا بهتان عظيم) ، أى : سبحانه الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول وحليلة بنخليله .

ثم قال تعالى : (يعظم الله أن تعودوا مثله أبداً) ، أى : ينهاكم الله متعوداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أى : فيها يستقبل فلها قال : (إن كنتم مؤمنين) ، أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما من كان متصفاً بالكفر فلذلك له حكم آخر .

ثم قال : (وبين الله لكم الآيات) ، أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والمحكمات القدسية ، (والله عليم حكيم) ، أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فقام بلمعنه منه شيء ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ويشبهه ويذيعه ، فقد قال تعالى : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) ، أى : يتأرون ظهور الكلام عنهم بالتبصيح . (لهم عذاب أليم في الدنيا) ، أى : بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ، (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ، أى : افردوا الأمور إليه قترشوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون بن أبي عمير (٢) المكي حدثنا محمد بن حبيب الخزازي عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تؤذوا عباد الله ولا تسيروهم ، ولا تظلموا عوراتهم ، فإنه من طلب حورة أنبيه المسلم ، طلب الله حورته ، حتى يفصحه في بيته (٣) .

(١) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : إذا حدثت ناسياً ، ١٦٨/٨ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : يجاوز الله عن حديث النفس والخواطر ... ، ٨١/١ .

(٢) كذا في المطبعة ، والذي في مسند أحمد - في هذا الحديث - : ثنا ميمون ، ثنا عبد بن حباد ، دون أن ينسب ميمون . حل أنه في نفس الصفحة ، في حديث آخر : أنا ميمون أبو محمد المزني البصري . والمزني عطاء لثالث فيه ، صحابه المزني . وترجمة ميمون في التلخيص : ٣٩٢/١٠ ، وهو ميمون بن موسى المزني البصري . ولم تقع لنا كتيبه ولا كتيه أبيه . حتى تبين أمره . أبو محمد ، كما في المسند ، أم : ابن أبي عمير ، كما في غرر الأثر .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩/٥ .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم) ، أي : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رءوف بعباده ، رحيم بهم . كتاب حل من تاب إليه من هذه [القضية] ، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه .

ثم قال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتبعوا خطوات الشيطان) ، يعنى طرائقه ومساكنه وما يأمر به ، (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) ، هذا تنبيه وتحذير من ذلك ، بأصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (خطوات الشيطان) حمله . وقال حكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهي من خطوات الشيطان . وقال أبو مجاز : التذمر في المحاصي من خطوات الشيطان .

[وقال] مسروق : سألت رجلاً ابن مسعود فقال : إني حرمت أكل طعاماً ؟ قال : هذا من نزغات الشيطان ، ككفر عن يمينك ، وكلم .

وقال الشعبي في رجل نذر ذبيح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفاته أن يذبح كبشاً (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حسان بن عبد الله للمصري ، حدثنا السري بن يحيى ، عن سليمان التيمي ، عن أبي رافع قال : غضبت على امرأتى فقالت : هي يوما يهودية ويوما نصرانية ، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك . فأثبت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان . وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهي يومئذ ألقه امرأة بالمدينة ، وأثبت حاصم بن عمر ، فقال مثل ذلك (٢) .

ثم قال تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم أحد أبداً) ، أي : لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكي النفوس من شر كها وفجورها وذننها وما فيها من اخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لا حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ، (ولكن الله يزكي من يشاء) أي : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والنسي .

وقوله : (والله سميع) ، أي : سميع لأقوال عباده ، (عليم) بهم ، ممن يستحق منهم المدي والفضل .

(١) انظر بعض هذه الآثار في سورة البقرة ، عند الآية ١٦٨ : ٢٩٢/١ .

(٢) تقدم هذا الأثر عن ابن أبي حاتم في ٢٩٢/١ ، ٢٩٣ ، ولكن فيه : واثبت حاصم وابن عمر لقتالا مثل ذلك .

وَلَا يَأْتِي الْاَوْثَرُ الْاَفْضَلُ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ اَنْ يُؤْتُوا اَوَّلِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ اَفْضَلُكُمْ وَلَيَعْلَمَنَّ اَلَا يُحِبُّونَ اَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : (ولا يأتى) من الأكلة ، [وهى : الحلف] ، أى : لا يحلف (أولو الفضل منكم) ، أى : الطول والصدقة والإحسان (والسعة) ، أى : الجيدة ، (أن يؤتوا أولو القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) ، أى : لا تحلفوا أن لا تصلوا قرايبكم المساكين والمهاجرين . وهذه في غاية الترقق والعطف على صلة الأرحام ، ولما قال : (وليعلموا وليصفحوا) ، أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه وقلقه بخلفه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت في الصديقين ، حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثانة بتافه يعلما قال في حاشية ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما أنزل الله برامة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى ، وله الفضل والملة ، يطفئ الصديقين على قريبه ونسيه ، وهو مسطح بن أثانة ، فإنه كان ابن خالة الصديقين ، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفع عليه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين في سبيل الله ، وقد وكى وكشفه تاب الله عليه منها ، وغرّب الحد عليها . وكان الصديق رضى الله عنه معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأبداى على الأكابر والأجانب ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر من المذهب إليك تغفر لك ، وكما تصفح تصفح منك . فبعد ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان بصله من الثقة ، وقال : والله لا أزعجها منه أبداً ، في مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بتافه أبداً . ولهذا كان الصديقين من الصديقين .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾
يَوْمَ تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَتْ لَهُنَّ أَبْنَاءٌ وَأُولَدُهُمْ يَكْفُلُوهُنَّ يَوْمَ يَرَوْنَهُنَّ يَرْفَعُهُنَّ اللَّهُ دِينَهُمْ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - مخرج خرج الغالب - المؤمنات ، فأهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سبأ إلى كانت سبب التزول ، وهى عائشة بنت الصديق رضى الله عنها . وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رماها به [بعد هذا الذى ذكره (!)] في هذه الآية ، فإنه كافر ، لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أهات المؤمنين قولان : أحصها أنهن كفى ، والله أعلم .

وقوله : (لعنوا في الدنيا والآخرة ولم حذاب عظيم) ، كقوله : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذاباً مهيباً) (١) .

* وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بمائسة ، فقال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوام ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) : نزلت في عائشة خاصة .

وكذا قال مقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال :

حدثنا أحمد بن حنبل بن أبي حنيفة ، حدثنا أبو حنيفة ، عن حماد بن أبي سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : رُميت بما رُميت به وأنا غافلة ، فبلغني بعد ذلك ، قالت : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس عندي ، إذ أوحى إليه ، قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذته كهيفة السَّيِّئَات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ، ثم استوى جالساً مسح على وجهه ، وقال : يا عائشة ، أبشري : قالت : قلت : بحمد الله لا يحمليكم ، فقرأ : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) ، حتى قرأ : (أولئك يرمونكم بما يقولون) (٢) .

هكذا أورده ، وليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب التزلزل دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها . ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله ، والله أعلم .

وقال الضحاك ، وأبو الجوزاء ، وسلمة بن نُبَيْط : المراد بها أزواج النبي خاصة ، دون غيرها من النساء .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) : الآية ، معنى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وما من أهل النفاق ، فأوجب الله لهم العنة والغضب ، وباءوا بسخط من الله ، فكان ذلك في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل بعد ذلك : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) إلى قوله : (فإن الله خفور رحيم) ، فأنزل الله المجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل ، والشهادة ترد (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هشيم ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن شيخ من بني أسد ، عن ابن عباس - قال : فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا) : الآية - قال : في شأن عائشة ، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مبينة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : (والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) إلى قوله : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك

(١) سورة الأحزاب : آية ٥٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٨٢/١٨ .

(٣) تفسير الطبري : ٨٣/١٨ .

وأصلحوا « الآية ، قال : فجعل لولاء توبة ، ولم يجعل لمن قلف أولئك توبة ، قال : فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسر به سورة التور (١) .

ف قوله « وهى مبهمه » ، أى : عامة فى تحريم قلف كل عصنة ، ولتستند فى الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هلنا فى عائشة ، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم فى المسلمات لله ما قال الله عز وجل ، ولكن عائشة كانت إماماً ذلك (١) .

وقد اختار ابن جرير حمودها ، وهو الصحيح ، ويضد العموم ما رواه ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن — ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عى ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الفيث ، عن ابن هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والقول يوم الرحف ، وقلب المحصنات الفلالات المؤمنات » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن بلال به (٢) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحدادى الحرقانى ، حدثنى أبى ، (ح) وحدثنا أبو شعيب الحرقانى ، حدثنا جدى أحمد بن أبى شعيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن ابن إسحاق ، عن صلة بن زفر ، عن حذيفة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قلف المحصنة بهلم حل مائة سنة .

وقوله : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يعى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مطرف ، عن النعمان ، عن سعيد بن جبش ، عن ابن عباس قال : إنهم — يعنى للمشركين — إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا : نعالوا حتى نجحد . فيجحدون فيحتم على أقوامهم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثاً

وقال ابن جرير ، وابن أبى حاتم أيضاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن ذرّاج ، عن أبى الميثم ، عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا كان يوم القيامة ، عرف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاضع ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول « كذبوا » . فيقول : أهلك وعشرتك ؟ فيقول « كذبوا » ، فيقول : اقلقوا . فيحلفون ، ثم يصحبهم [الله] ، تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار .

(١) الأثر أيضاً فى تفسير الطبرى : ٨٣/١٨ .

(٢) البخارى ، كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) « بما يأكلون فى بطونهم لؤلؤاً وميصلون سيوراً » ١٢/٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الكيالى وأكبرها » ٦٨/١ .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي ، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي ، حدثنا أبو عامر الأسدي ، حدثنا سفيان ، عن عبيد^(١) المكتوب ، عن فضيل بن عمرو القفسي ، عن الشعبي ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يارب ، ألم تسجرتي من الظلم ؟ فيقول : بل ، فيقول : لا أبيز على شأدي إلا من نفسي . فيقول : كفى بنفسك اليوم [عليك شهيدا ؟] ، وبالكرام عليك شهيدا ، فيخمد على فيه ، ويقال لأركانه : انطلي ، فنظن بعمله ، ثم نزل بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسعفاً ، فنحن نكسب أنامل .

وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً : عن أبي بكر بن أبي الصخر ، عن أبيه ، عن عبيد الله الأشجعي ، عن صفوان الثوري (٢) : أنه قال للشافعي : لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن صفيان الثوري غير الأشجعي ، وهو حديث فرييب ، والله أعلم ، هكذا قال .

وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لشهوداً غيبتهم في ذلك ، فراقبهم واتق الله في سرهم وعلانيك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضياء ، والنسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن التعلق فليعمل ، ولا قوة إلا بالله .

وقوله (يَوْمَئِذٍ يَرْفَعُونَ آفَافَهُمْ الَّتِي هُمْ فِيهَا مَكِينٌ) ، قال ابن عباس (دينهم) ، أى : حسابهم ، وكل ما في القرآن (دينهم) ، أى : حسابهم - وكلنا قال غير واحد .

ثم إن قراءة الجمهور ينصب (الحق) ، على أنه صفة لـدينهم ، وقرا مجاهد بالرفع ، على أنه نعت للجلالة (٣) .
وقراها بعض السلف في مصحف ابن بكب : « يرمثل بوفهم الله الحق دينهم » (٤) .

وقوله : (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) ، أى : وهذه روحه وحسابه هو المثل ، الذى لا جور فيه .

أَتَلَبَّثْتُ الْفَجِينَ وَالْجَبُونَ ۖ فَحِثَّتْ ۖ وَالطَّيْنُ الطَّيْنُ وَالطَّيْنُ الطَّيْنُ ۖ أَوَلَيْكَ مُبْرُونَ ۖ مَا يَقُولُونَ ۖ
لَمْ تُغْفِرْ وَرَزَقَ كَرِيمٌ ﴿٥١﴾

قال ابن عباس : الخبيثات من القول الخبيث من الرجال ، والخبيثون من الرجال الخبيثات من القول ، والخبثات من القول للخبث من الرجال ، والخبثيون من الرجال الخبيثات من القول . قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك .

(١) في المخطوطة : « سفيان بن حبيب » ، وهو خطأ . انظر ترجمة حبيدين مهران المكتوب في البحر لابن أبي حاتم : ٢/١/٣ .

(۲) مجله، کتاب الزم : ۲۱۷/۸

(۲) انظر المحتسب لابن جني : ۱۰۷/۲ ، وتفسير الطبري : ۸۹/۱۸ .

(٤) تفسير الطبري : ١٨ / ٨٤ .

وهكذا روى عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبّير ، والشَّعْبِيّ ، والحسن بن أبي الحسن البصري ، وحبيب ابن أبي ثابت ، والفسحاك ، واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام للفتح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسب أهل الضاق إلى عائشة هم أولى به ، وهي أولى بالبرائة والتزاعة منهم . ولهذا قال : (أولئك مبرحون مما يقولون) (١) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيث من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللام ، أي : ما كان [الله] ليحصل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهي طيبة ، لأنه أحب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلت [له] ، لا شعراً ولا قدراً ، ولهذا قال : (أولئك مبرحون مما يقولون) ، أي : هم يحدّاهم بما يقوله أهل الإنك والعلوان ، (لم مغفرة) ، أي : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، (وروى كريم) ، أي : عند الله في جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن مسلم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم . عن يحيى بن الجزار قال : جاء أسيرين جابر (٢) إلى عبد الله قال : لقد سمعت الوليد بن حبة اليوم تكلم بكلام أصعجني ، فقال عبد الله : إن الرجل المؤمن يكون في قلبه [للكلمة] غير [طيبة (٣)] تتجلبل في صدره ما تستقر حتى يلفظها (٤) ، فيسمعها رجل عنده يتكلمها (٥) فيضمها إليه . وإن الرجل القاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلبل في صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل الذي عنده يتكلمها فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله ، (الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات) .

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد في المستد مرفوعاً : مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع . كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم ، فقال : أجزوني (٦) شاة . فقال : احبب فخذ بأذن أبها شئت . فذهب فانصد بأذن كسب الغنم (٧) . وفي الحديث الآخر : الحكمة ضالة المؤمن . حيث وجدها أطعها (٨) .

(١) انظر أثر ابن عباس في تفسير الطبري : ٨٤/١٨ ، ٨٥ ، وتوجيه ابن جرير في : ٨٩/١٨ .

(٢) أسير بن جابر مترجم في ليد الثانية : ١١٥/١ ، وقال ابن الأثير : « بعد في البصريين » . في صحيحه نظر .

(٣) في المخطوطة : « يكون في قلبه غير طائل » . والمثبت عن ثور المنصور السيوطي : ٣٧/٥ .

(٤) في المخطوطة : « حتى يخرجها » . والمثبت عن ثور والطيبات السابقة .

(٥) أي : يستعملها .

(٦) أي : أحسن شاة تصلح للفتح .

(٧) مستد الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٣٥٣/٢ ، ٤٥٥ ، ٥٠٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب : الحكمة ،

الحديث ٥١٧٢ : ١٣٩٦/٢ ، ١٣٩٧ .

(٨) تحفة الأحوصي ، أبواب العلم ، باب : في فضل الفقه على العبادة ، الحديث ٢٨٢٧ : ٤٥٨٪٧ - ٤٥٩ ، وقال

الترمذي : « هذا حديث غريب » . وابن ماجه ، الكتاب والباب للتقنين ، الحديث ٤١٦٩ : ١٣٩٥/٢ .

يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَارْجِعُوا هَٰذَا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْسِلُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٦٩﴾

هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمر الله المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا، أي: يمتدّوا قبل الدخول ويسلموا بعده؛ وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أذن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت أعبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له؛ فظهوره فوجده قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال ما رجعتك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فليانصرف». فقال: لتأتين على هذا بيعة وإلا أوجعتك ضرباً؛ فذهب إلى ما من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصبرنا؛ فقام معه أبو سعيد الخدري فأنشأ عمر بذلك، فقال: الماني عنه الصمتي (١) بالأسواق (٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ثابت، عن أنس - أو: غيره - «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن على سعد بن عبادة فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله. ولم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يستمعه؛ فرجع النبي صلى الله عليه وسلم، وابعه سعد فقال: يا رسول الله، باني أنت وأبي ما سلمت تسليمه إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت (٣) أن أستكثر من سلامك ومن البركة؛ ثم أدخله البيت. فقترب إليه زبيباً، فأكل نبي الله، فلما فرغ قال: أكل طعامكم الأبرار، وصليت عليكم للملائكة، وأفطر عندكم الصائمون (٤)».

وقد روى أبو داود والنسائي، عن حبيب بن عمرو الأزواحي: سمعت عبيد بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن قيس بن سعد - هو ابن عبادة - قال: زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أي: حدثني عن ذلك الحديث أمر التجارة والمعاملة في الأسواق.

(٢) البخاري، كتاب الاستئذان، باب: «التسليم والاستئذان ثلاثاً»: ٦٧/٨، ومسلم، كتاب الآداب، باب: «الاستئذان»: ١٨٠ - ١٧٧/٦.

(٣) لفظ المست: «أصبحت أن أستكثر».

(٤) مسند الإمام أحمد: ١٣٨/٣.

وسلم في منزلنا ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فردّ سعد رداً خفياً ، قال قيس : قلت : ألا تأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ذره يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله . فردّ سعد رداً خفياً ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، ثم رجّع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتبه سعد فقال : يا رسول الله ، إني كنت أسمع لسليكم ، وأرد عليك رداً خفياً ، فكثير علينا من السلام . قال : فإنصرف معي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر له سعد بفعل ، فاعتزل ، ثم ناولك ملحمة مصبوغة [(١) بزعفران - أو: ورس - فاشتعل بها ، ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . قال : ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام ، فلما أراد الانصراف قُرب إليه سعد حملاً قد وطأ (٢) عليه بقطيفة ، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سعد : يا قيس ، اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال قيس : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اركب . فأبى ، فقال : إما أن تركب وإما أن تنصرف . قال : فانصرفت (٣) .

وقد روى هذا من وجه آخر ، فهو حديث جيد قوي ، والله أعلم .

ثم يُعَلِّمُ أَنَّهُ يَنْهَى الْمُجَاهِدِينَ عَنِ أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ لَا يَشْفَ تَلْقَاءَ الْبَابَ بِوَجْهِهِ ، وَلَكِنْ لِيَكُنَ الْبَابُ مِنْ بَيْنِهِ أَوْ يَسَارِهِ ، لَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ : حَدَّثَنَا مُؤَمِّلُ بْنُ الْقُضَيْلِ الْحَرَوِيُّ - فِي آخِرِينَ - قَالُوا : حَدَّثَنَا بَقِيَّةٌ ، حَدَّثَنَا عُمَدُ بْنُ حُمَيْدٍ الرَّحْمَنُ ، عَنْ حَيْدِ اللَّهِ بْنِ بَسْرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَقْبَلَ بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْتِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ ، وَيَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ النُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ مَسْنُونٌ . لَمْ يَرَدْ بِهِ أَبُو دَاوُدَ (٤) .

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ - (ح) - قَالَ أَبُو دَاوُدَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، حَدَّثَنَا حَفْصٌ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ طَلْحَةَ ، عَنْ هُرَيْرٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ - قَالَ عُثْمَانُ : سَعْدٌ - فَوَقَفَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُ ، فَقَامَ عَلَى الْبَابِ - قَالَ عُثْمَانُ : مُسْتَقْبِلُ الْبَابِ - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَكَذَا هَكَذَا - أَوْ : هَكَذَا - فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ مِنَ التَّنْظَرِ (٥) .

وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ ، عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، عَنْ الْأَعْمَشِ ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ ، عَنْ رَجُلٍ ، عَنْ سَعْدٍ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَيْثُ (٦) .

(١) ما بين القوسين من سنن أبي داود . والملاحقة : ما يلبس فوق سائر اللباس ، يعفش به من البردة .

(٢) أي : جعل عليه فرائداً وطنياً ، ولفرائد الوطى : الذي لا يؤتى راحته .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ذكر مرة يسلم الرجل في الاستئذان ، الحديث ٥١٨٥ : ٣٤٧/٤ .

(٤) سنن أبي داود ، في الكتاب والياهد المتقنين ، الحديث ٥١٨٦ : ٣٤٨/٤ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في الاستئذان ، الحديث ٥١٧٤ : ٣٤٤/٤ .

(٦) سنن أبي داود ، في الكتاب والياهد المتقنين ، الحديث ٥١٧٥ : ٣٤٤/٤ .

وفي الصحيحين من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن امرأاً اطّلع عليك بغير إذن فتحكته (١) حصاة ، ففقت عنه ، ما كان عليك من جناح (٢) » .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : أثبت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي ، فدفقت الباب ، فقال : من ذا ؟ قلت : أنا . قال : أنا . أنا . كأنه كرهه (٣) .

وإنما كره ذلك لأن هذه الكلمة لا يُعرف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها ، وإلا فكل أحد يُعبر عن نفسه : « أنا » فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : الاستئناس : الاستئذان . وكلما قال غير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعد بن جبير ، عن ابن عباس في هذه الآية : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسلموا) ، قال : إنما هي خطأ من الكاتب ، (حتى تستأذنوا وتسلموا) » .

وهكذا رواه هشيم عن أبي بشر - وهو جعفر بن إياس - به ، وروى معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعد ، عن ابن عباس ، بمثله ، وزاد : وكان ابن عباس يقرأ : (حتى تستأذنوا وتسلموا) ، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه (٤) .

وهذا غريب جداً عن ابن عباس :

وقال هشيم : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم قال : في مصحف ابن مسعود : (حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا) . وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس ، وهو اختيار ابن جرير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني عمرو بن أبي سفيان : أن عمرو بن أبي صفوان أخبره ، أن كوكبة بن الحنبل أخبره ، أن صفوان بن أمية يهتدئ بالفتح يدياً وجد أخته وصفيان (٥) .

(١) الخلف : رميك حصاة أو لواة .

(٢) البغاري : كتاب البغيات ، باب « من اطّلع في بيت قوم ، ففقتوا عنه ، فلا دية له » : ١٣/٩ . وسلم ، كتاب الأدب ، باب « تحريم النظر في بيت غيره » : ١٨١/٦ .

(٣) البغاري : كتاب الاستئذان ، باب « إذا قال : من ذا ؟ قال : أنا » : ٦٨/٨ . وسلم ، كتاب الأدب ، باب « كرامة قول المستأذن » : أنا « إذا قيل : من هذا ؟ » : ١٨٠/٦ ، وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « الرجل يستأذن باللق » ، الحديث ١٨٧ : ٣٤٨/٤ . ومسنن الإمام أحمد : ٣٦٣/٣ .

(٤) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري : ٨٧/١٨ .

(٥) « البابا » - يوزن عنب - : أول ما يطلب عند الولادة . « والحداية » - يفتح الح - : من أولاد النخلاء ما بلغ ستة أشهر أو سبعة ، ذكر أو أنثى ، بمنزلة الجدي من المواشي . « نصمانيوس » : جمع صمفوس - يفتح ص - ، وهي : صفار النخاء .

صلى الله عليه وسلم بأهل الرواية ، قال : لئن كنت عليه ولم أسلم ولم أستاذن ، قل النبي صلى الله عليه وسلم : أرجع قل : السلام عليكم ، أدخل ؟ وذلك بعد ما أسلم صفوان (١) .

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به ، وقال الترمذي : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن ربيعة قال : حدثنا رجل (٢) من بني عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في بيته ، فقال : أأنت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا فسلمه الاستئذان ، قل له : قل : السلام عليكم ، أدخل ؟ فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أدخل ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل .

وقال هشيم : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين - وأخبرنا يونس بن حبيب ، عن حماد بن عمار عن سعيد التقي (٣) : أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أأنت - أو : أنتج ؟ - فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأمة له ، يقال لها روضة : قومي إلى هذا فسلميه ، فإنه لا يصح استأذن ، فتولاه تقول : السلام عليكم ، أدخل ؟ فسمعه الرجل ، فقالها ، فقال : أدخل (٤) .

وقال الترمذي : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عتبة بن عبد الرحمن ، عن محمد بن إزاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام قبل الكلام .

ثم قال الترمذي : عتبة ضعيف الحديث ذاهب ، ومحمد بن إزاذان مُتَكَبِّر الحديث (٥) .

وقال هشيم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرضاه (٦) ، فأتى فسطاط امرأة من قريش ، فقال : السلام عليكم ، أدخل ؟ قالت : أدخل بسلام . فأعاد ، فأعادت ، وهو يراو (٧) بين قدميه ، قال : قولي : أدخل . قالت : أدخل . فدخل (٨) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤١٤/٣ ، وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « كيف الاستئذان » ، الحديث ١٧٦٦ : ٣٤٤/٤ ، ومجلة الأوسى أبواب الاستئذان ، باب « التسليم قبل الاستئذان » ٢٨٥٣ : ٤٩٠/٧ ، ٤٩١ .

(٢) في المخطوطة : « وجاء رجل » . والمثبت من سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « كيف الاستئذان » ، الحديث ١٧٧٠ : ٣٤٥/٤ .

(٣) انظر الإيساية ، ترجمة عمرو بن سعيد التقي : ٣٣٢/٢ ، و ترجمة عمر بن هفم : ٣٣٥/٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٨٧/١٨ .

(٥) تحفة الأوسى ، أبواب الاستئذان ، باب « السلام قبل الكلام » ، الحديث ٢٨٤٢ : ٤٧٨/٧ - ٤٧٩ .

(٦) أي : شدة الحر .

(٧) أي : يعتمد على إحدىاهما مرة ، وعلى الأخرى مرة ، ليوصل الراحة إلى كل منهما .

(٨) تفسير الطبري : ٨٧/١٨ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو نعيم الأحول، حدثنا خالد بن إلياس، حدثني جديق لم إلياس، قالت: كنت في أربع نساء تستأذن [على عائشة] قلت: تدخل؟ قالت: لا، قلن: (١) لصاحبتكن: تستأذن؟ فقالت: السلام عليكم، أئخذ؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذوا وتسألوا على أهلها)؛

وقال هشيم: أخبرنا أشعث بن سوار، عن كردوس، عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذوا على أمهاتكم وأنصواتكم، قال أشعث، عن عدي بن ثابت: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراة أحد عليها، والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال؟ قال: فترلت، (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذوا وتسألوا على أهلها) (٢)؛

وقال ابن جرير: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: ثلاث آيات جحدتها الناس، قال الله: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا (٣)؛ قال: والإذن كله [قد] جعله الناس، قال: قلت: تستأذن على أخواتك أيتام في حجرى، معى في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت ليرخص لي فأبى، قال: أحب أن تراها حريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن: قال: فراجعته أيضاً، فقال: أئصب أن تطيع الله؟ قلت: نعم، قال: فاستأذن؛

قال ابن جرير: وأخبرني بن طاوس عن أبيه قال: ما من امرأة أكره إلى أن أرى حريتها من ذات عمرى، قال: وكان يشدد في ذلك؛

وقال ابن جرير: عن الزهري: سمعت هزبل بن شرحبيل الأودي الأعمى أنه سمع ابن مسعود يقول: عليكم الإذن على أمهاتكم؛

وقال ابن جرير: قلت لعطاء: أيتأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا؛

وهذا محمول على عدم الرجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفتن بها، لا إحتمال أن تكون على هيئة لا يحب أن يراها عليها؛

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو ابن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخى زيب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب رضى الله عنها قالت:

(١) في المخطوطة: «قلت لصاحبتكن» وألغيت عن العلمات السابقة؛ وللفظ الدر: ٣٨/٥، «قلت: لدخل؟ فقالت: لا» فقالت واحدة: «السلام عليكم».

(٢) تفسير الطبري: ٨٧/١٨، ٨٨.

(٣) في تفسير الطبري: «أعظمهم بيتاً».

كان عبد الله إذا جاء من حليجة فأتته إلى الباب ، تتحنن ويرق ، كراهية أن يجهم منا على أمر بكرهه (١) . إسناده صحيح .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن ستان الراسطي ، حدثنا عبد الله بن نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي هيرة قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس - تكلم ورفع صوته .

قال مجاهد : (حتى استأنسوا) ، قال : تتحننوا - أو : تفتخروا .

وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتحنن ، أو يحرك عليه .

وفدا جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طرؤفاً - وفي رواية : لئلا يتخوتهم (٢) .

وفي الحديث الآخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فبأها ، فأتاه بظاهرها ، وقال : انتظروا حتى تدخل حشاء - يعني آخر النهار - حتى تمتط الشعثة وتستحد الخبيثة (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثني أبو سؤدة ابن أبي أيوب ، عن أبي أيوب قال : قلت : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئناس ؟ قال : يتكلم الرجل بتسليمه وتكبيره وتحميدة ، ويتحنن فيؤذن لأهل البيت (٤) ، وهذا حديث غريب .

وقال قتادة في قوله : (حتى استأنسوا) ، قال : هو الاستئذان ، [قال : وكان يقال : الاستئذان] (٥) ثلاث ، فمن لم يؤذن له فبهن فليرجع ، أما الأولى فليسمع الحى ، ولما الثانية فليأخذوا حلهم ، ولما الثالثة فإن شاموا أذنوا وإن شاموا ردوا . ولا تقفن حل باب قوم ودوك من بابهم ، فإن الناس حاجات ولم يشغل ، والله أول بالمر .

(١) تفسير الطبري : ٨٨/١٨ .

(٢) البخاري : أبواب السيرة ، باب : لا يترك أهله إذا بلغ اللبنة . ٩/٣ . وكتاب النكاح ، باب : لا يترك أهله ليلا . ٥٠/٧ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب : كراهة الطروق - وهو الدخول ليلا - من ورد من سفر . ٩/٦٠ . وحمزة الأسدي : أبواب الاستئذان ، باب : في كراهية طروق الرجل أهله ليلا . الحديث : ٢٨٥٥ . ٩٣/٧ . وقال القرطبي : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) البخاري : كتاب النكاح ، باب : تستحد المنية وتمشط الشفة . ٥١/٧ . ومسلم : كتاب الإمارة ، باب : كراهة الطروق . ٥٥/٦ .

والمغنية : الثائب زوجها منها . والاصمدا : استعمال للموى . والشفة : أني أمير وتلبه . وتوسم : شمر رأسها .

(٤) الدر المنثور عن ابن أبي شيبة ، والحكمي القرملي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والطبراني : ٢٨٥ .

(٥) ما بين القوسين عن الدر المنثور ، ونحوه سقط نظر . وقد أخرجه السيوطي عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان : ٣٩٥ .

وقال مقاتل بن حبان في قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأمنوا وتسلموا على أهلها) كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حيث صاحباً وحيث مساء ، وكان ذلك نحية القوم بينهم ، وكان أحدهم يتطلى إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يفتحه ، ويقول : « قد دخلت » : فيشت ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، ففسر الله ذلك كله ، في سر وعفة ، وجعله نحية تقرأ من الناس والقلل والذين ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأمنوا وتسلموا على أهلها) (١) .

وهذا الذي قاله مقاتل : حسن : ولهذا قال : (ذلكم خير لكم) ، يعني الاستئذان خير لكم ، بمعنى هو خير للطرفين : المستأذن (٢) ولأهل البيت ، (لعلكم تذكرون) .

وقوله : (فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) ، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم) ، أي : إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ، (فارجعوا) هو أذكى لكم ، أي : رجوعكم أذكى لكم وأظهر ، (والله بما تعملون علم) .

وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ حُرّى كَلَّه هذه الآية لما أدركتها : أن أستاذني على بعض إعراف ، فيقول لي : ارجع ، فأرجع وأنا متعب [لقوله] (وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا) هو أذكى لكم والله بما تعملون علم (٣) .

وقال سعيد بن جبَر : (وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا) ، أي : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم) ، والله يعلم ما تبدون وما كنتمون) ، هذه الآية الكريمة أنص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد ، إذا كان له فيها متاع ، غير ذلك ، كالكسبية المدد لله ينف ، إذا أخذ له فيه أول مرة كني .

قال ابن جرير : قال ابن عباس : (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ، لم تُسَخ واستثنى فقال : (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ، فيها متاع لكم) (٤) : وكذا روى عن حكيم ، والحسن البصري .

وقال آخرون : هي بيوت التجار ، كالحانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك ، واختار ذلك ابن جرير ، وحكاها عن جماعة : « الأول أظهر » ، والله أعلم :

وقال مالك : من زيد بن أسلم : هي بيوت الشجر .

(١) القدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ٤٥٧ .

(٢) في المخطوطة : « هو خير من الطرفين » . ولعل الصواب ما ألفتناه .

(٣) تفسير الطبري : ٨٩/١٨ . وما بين القوسين منه .

(٤) تفسير الطبري : ٩١/١٨ .

قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ مِنَ ابْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يفوضوا من أبصارهم ما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يفوضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا ، كما رواه مسلم في صحيحه ، من حديث يونس بن عُبَيْد ، عن عمرو بن سعيد ، عن أبي ذُرْعَةَ بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظره الفجأة ، فأمرني أن أصرفته بِصَرَّتِي (١) .

وكذا رواه الإمام أحمد ، عن هشيم ، عن يونس بن عبيد (٢) ، به . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، من حديث أيضا ، وقاك الترمذي : « حسن صحيح (٣) » ، وفي رواية لبعضهم : « فقال : أطرف بصرى » ، يعنى : أنظر إلى الأرض ، والصرف أمم ، فانه قد يكون إلى الأرض ، وإلى جهة أخرى ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري ، حدثنا شريك ، عن أبي ربيعة الإيادي ، عن عبد الله ابن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل : يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليس لك الآخرة (٤) .

ورواه الترمذي من حديث شريك ، وقال : « غريب ، لا يرواه إلا من حديثه » .

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لياكم والجلوس على الطرقات . قالوا : يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غشى الصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر (٥) .

(١) مسلم ، كتاب الآداب ، باب « نظر الفجأة » : ١٨١/٦ ، ١٨٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٦١/٤ .

(٣) تحفة الأحرف ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء في نظرة الفجأة » ، الحديث ٣٢٦ : ٦٠/٨ ، وسنن أبي داود ،

كتاب التكاثر ، باب « ما يؤثر به من غش البصر » ، الحديث ٢١٤٨ : ٢٦٤/٢ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب التكاثر ، باب « ما يؤثر به من غش البصر » ، الحديث ٢١٤٩ : ٢٤٦/٢ . و تحفة الأحرف ،

أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء في نظرة الفجأة » ، الحديث ٢٩٢٧ : ٦١/٨ .

(٥) البخارى ، كتاب المغازي ، باب « أذية الدور والجلوس فيها » ، والجلوس على الصعدات : ١٧٣/٣ ، وكتاب الاستئذان ، باب قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا ..) : ٦٢/٨ . ومسلم ، كتاب الباس ، باب « النهي عن الجلوس في الطرقات » : ١٦٥/٦ .

وَرَوَى هَذَا مَرْفُوعًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، وَحَدِيثُهُ ، وَحَاشَا لِرَضَى اللَّهِ عَنْهُمْ ؛ وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهَا ضَعْفٌ ، إِلَّا أَنَّهَا فِي التَّرْجِيحِ وَمِثْلُهَا يَتِمَّاسُحُ فِيهِ .

وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مِنْ طَرِيقِ حَبِيبِ اللَّهِ بْنِ زُحَرٍ (١) ، عَنْ حُلِيِّ بْنِ يَزِيدَ ، عَنْ الْقَاسِمِ ، عَنْ ابْنِ أُمَامَةَ مَرْفُوعًا ؛ لِتَفَضُّعِ أَبْصَارِهِمْ ، وَلِتَضْفُظِ فُرُوجِهِمْ ، وَلِتَقِيمَنَّ وَجُوهَهُمْ — أَوْ لِتَكْتَفِنَنَّ وَجُوهَهُمْ) .

وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ ؛ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زُهَيْرٍ السَّيْرِيُّ قَالَ ؛ قَرَأْنَا عَلَى عَبْدِ بْنِ حَفْصٍ بْنِ عُمَرَ التَّسْوِيرَ لِلْقُرْآنِ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، حَدَّثَنَا هُرَيْرٌ بْنُ سُلَيْمَانَ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَالَ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ إِنْ انْظُرَ سَهْمٌ مِنْ سَهْمِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٍ ، مِنْ تَرَكَةِ عَنَاقِي أَبْدَلْتُهُ إِعَانًا بِحَدِّ حَلَاوَتِهِ فِي قَلْبِهِ .

وَقَوْلُهُ ؛ (إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَصْنَعُونَ) ، كَمَا قَالَ تَمَالِي ؛ (يَعْلَمُ خِلَاطَةَ الْأَخْبِيحِ وَمَا تَقِي الصُّلُورِ) .

وَفِي الصَّحِيحِ ، عَنْ ابْنِ هُرَيْرَةَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَالَ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِفْظُهُ مِنَ الزُّنَا ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا حَالَةَ ، فَزَنَا الْعَيْنَ النَّظَرَ ، وَزَنَا اللِّسَانَ النَّطْقَ ، وَزَنَا الْأَذْنَ الْإِسْتِغَاثَ ، وَزَنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشَ ، وَزَنَا الرَّجْلَيْنِ الْخَطْيَ ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَلِشْتَى ، وَالْقَرَجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ (٢) .

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُلَقًى ، وَمُسْلِمٌ مُسْتَدًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ ، بِنَحْوِ مَا قَدَّمْنَا .

وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ أَنْ يَحْدُثَ الرَّجُلُ بِصَوْرِهِ إِلَى الْأَمْرِ ؛ وَقَدْ شَكَّ كَثِيرٌ مِنْ أُمَّةِ الصُّوْفِيَةِ فِي ذَلِكَ ، وَحَرَمَتْهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِفْتِنَانِ ، وَشَكَّ دَاخِرُونَ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا جِدًّا .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا ؛ حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْمَدَنِيُّ ، حَدَّثَنَا حُمَيْرُ بْنُ سَهْلٍ اللَّازِقِيُّ ، حَدَّثَنِي حُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَهْبَانٍ ، حَدَّثَنِي صَفْوَانُ بْنُ سَلِيمٍ ، عَنْ ابْنِ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ كُلُّ حَيْنٍ بَاكِئَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا حَيْنًا خَفَّتْ عَنْ عَارِمٍ اللَّهِ ، وَعَيْنًا سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَعَيْنًا يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذَّنَابِ ، مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (٣) ، هَذَا وَجَلْ .

(١) فِي الْمَخْطُوطَةِ ؛ « حَبِيبُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ » . وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ مَا أَثْبَتَهُ وَأَنْظَرَ تَرْجُمَةً « حَبِيبُ اللَّهِ بْنُ زُحَرٍ » فِي التَّبْلِيبِ ؛ ٢٩٧/٢ . وَالْجَرَحُ وَالْتِمْلِيزُ لَا يَنْبَغُ ابْنُ حَاتِمٍ ؛ ٣١٥/٢/٢ .

(٢) الْبُخَارِيُّ ؛ كِتَابُ الْإِفْتِنَانِ ، بَابُ « زَنَا الْبُجُورِ حُدُوثُ الْفَرْجِ » ؛ ٦٧/٨ . وَكِتَابُ الْقَدَرِ ، بَابُ « وَحَرَامٌ عَلَى قَرِيَةٍ أَلْهَكْتُمَا أَنْفُسَهُمَا لَا يَرْتَدُّونَ » ؛ ١٥٦/٨ . وَمُسْلِمٌ ؛ كِتَابُ الْقَدَرِ ، بَابُ « قَدَرُ كُلِّ ابْنِ آدَمَ حِفْظُهُ مِنَ الزُّنَا وَغَيْرِهِ » ؛ ٥٢٠/٨ . وَسُتْنُ أَبِي دَاوُدَ ، كِتَابُ النِّكَاحِ ، بَابُ « مَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنْ خَفَى الْبَصَرِ » ؛ الْحَدِيثُ ٢١٥٢ ؛ ٢٤٦٢-٢٤٦٧ . وَمُسْنَدُ الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ ؛ ٢٧٦/٢ ؛ ٣٤٣ ، ٣٧٩ ، ٤٣١ ، ٥٣٦ .

(٣) الْأَثَرُ فِي الْمَدْرِ الْمُتَوَسَّطِ مِنْ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا وَالتَّبْلِيبِ ؛ ٤١/٥ .

وذهب كثيرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجناب بغير شهوة ، كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلَ ينظر إلى الحشبة وهم يأمون بحراهم يوم العيد في المسجد ، وعاشته أم المؤمنين تنظر إليهم من وراءه ، وهو يسرها منها حتى مكثت ورجست (١) .

وقوله : (ويحفظن فروجهن) ، قال سعيد بن جبّير : عن القواش : وقال قتادة وسفيان : مما لا يعمل لمن . وقال مقاتل : من الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت في القرآن بذكرها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : (ويحفظن فروجهن) أن لا يراها أحد .

وقال : (ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) ، أي : ولا يُظهرن شيئا من الزينة للأجناب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه .

وقال ابن مسعود : كالرداء والثياب (٢) : يبقى على ما كان يعتاده (٣) نساء العرب ، من اللقطة التي تُجكَل لياها ، وما يبدو من أسفل الثياب فلا حرج عليها فيه ، لأن هذا لا يمكن إخفاؤه . [ونظيره في زنى النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال] يقول ابن مسعود : الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النخعي ، وغيرهم .

وقال الأعمش ، عن سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس : (ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) ، قال : وجهها وكفها والخاتم . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبّير ، وأبي الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النخعي ، وغيرهم — نحو ذلك : وهذا يحمل أن يكون تفسير الزينة التي نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السبّعي ، من أبع الأحوال — عن عبد الله قال في قوله : (ولا يبدن زينتهن) : الزينة القُرْطُ والدُمْلُج (٤) والخلخال والفلافة — وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان ، فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، [وزينة يراها الأجناب ، وهي] الظاهر من الثياب .

وقال الزهري : [لا يبدو] هؤلاء الذين سمى الله عن لا تحمل له إلا الأسورة والأخرة والأقراط من غير حصر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الثياب .

وقال مالك ، عن الزهري : (إلا ما ظهر منها) ، الخاتم والخلخال . ويحمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه :

(١) البخاري : كتاب الصلاة ، باب : وأصحاب الخراف في المسجد : ١٢٢/١ . ومسلم : كتاب صلاة العيدين ، باب : والخمسة في الحب الذي لا مصية فيه في أيام العيد : ٢٢/٣ - ٢٢ .

(٢) تفسير الطبري : ٩٢/١٨ - ٩٣ .

(٣) أي : يأخذن أنفسهن به . والمتنمة — بكسر الميم — ما تغطي به المرأة نفسها .

(٤) السليج والسليج : للمعدن من الخلق .

حدثنا يعقوب بن كعب الإطاسكي ومؤسّل بن الفضل الحراني قالا : حدثنا الوليد ، عن سعيد بن بشر ، عن قتادة ، عن خالد بن دُرَيْك عن عائشة - رضى الله عنها - : أن أمّاء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : يا أمّاء ، إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يَترى منها إلا هذا - وأشار إلى وجهه وكفيه .

لكن قال أبو حادود وأبو حاتم الرازي : هذا مرسل ، خالد بن دُرَيْك لم يسمع من عائشة (١) ، فإله أعلم .
وقوله : (وليفرين بضمهم عن جوبين) ، يعنى : المقاتل يعمل ما حَسَنَات (٢) ضاربات على صدور النساء ، فوارى ما تحجبها من صدرها وثرائها ، ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة (٣) بصدورها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت حنقها وذوالب شرها وأقربة آذانها ، فأمر الله المؤمنين أن يستثرون في هيئاتهم وأحوالهم ، كما قال الله تعالى : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) (٤) . وقال في هذه الآية الكريمة : (وليفرين بضمهم عن جوبين) ، والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخَمَّر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس للثياب .

قال سعيد بن جببر : (وليفرين) : وليشدن (بضمهم عن جوبين) ، يعنى على النحر والصدر ، فلا يرى منه شيء .

وقال البخاري : وقال أحمد بن حنبل (٥) ، حدثنا أبي ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : برحم الله لساء المهاجرات الأول ، لا أتزل الله (وليفرين بضمهم عن جوبين) ، شَقَقْنَ مَرُوطَهُنَّ (٦) فاختصرن به (٧) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو ثَعْمَن ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم ، عن صكبة بنت شيبه : أن عائشة رضى الله عنها [كانت تقول (٨)] : لا أتزل هذه الآية : (وليفرين بضمهم عن جوبين) ، أخذت أزهرن فَشَقَقْنَهَا من قبل الحواشي ، فاختصرن (٩) جاءه

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثني الزبيري بن خالد ، حدثنا هيد الله ابن عثمان بن غنم ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة ، قالت : فذكرنا لساء قريش وفضلهن ،

- (١) سنن أبي داود : كتاب اللباس ، باب : ثيابا تلبس المرأة من زينة ، الحديث ٤١٠٤ : ٦٢/٤ .
- (٢) في المخطوطة : يعمل ما سيقات ، بالياء والفتحة . ولعل الصواب ما أثبتناه . والصفات جمع صفة - بفتح كسر ، وبكسر فسكون أيضاً - وهى حاشية الثوب . وعن أبيه : « الصنك : قلعة من الثوب » .
- (٣) كلاً ، ولم نجد في مادة « سفح » مثلاً للاستعمال ، يعنى : كاشفة صدرها بوقته ليعين لنا أنها من عامة أهل الشام .
- (٤) سورة الأحزاب : آية ٥٩ .
- (٥) في المخطوطة : « فإلى أحمد بن حنبل » . والخبر عن البخاري .
- (٦) المروء : جمع مروء - بكسر فسكون - وهو كساء من صوف .
- (٧) البخاري : تفسير سورة النور : ١٣٦/٦ .
- (٨) ما بين القوسين من البخاري ، ومكانه في المخطوطة : « قالت » .
- (٩) البخاري : تفسير سورة النور : ١٣٦/٦ - ١٣٧ .

قالت عائشة رضي الله عنها : إن نساء قريش لفضلنا ، وإنى - والله - ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشدَّ صديقا بكتاب الله ، ولا إيمانا بالقرآن ، لقد أنزلت سورة للنور : (وليضرين بغيرهم على جويبن) ، انقلب إليهم رجلا من يملون عليهم ما أنزل الله إليهم فيها ، ويملو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذي قرابة ، لما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرسل (١) فاعتجرت به ، تعديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصيحبن وراءه ووصل الله صلى الله عليه وسلم الصبح معجرات ، كأن كل رموسهن الفريان .

ورواه أبو داود من غير وجه ، عن صفية بنت شيبة ، به (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أن ثروة بن عبد الرحمن أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت : يرجم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : (وليضرين بغيرهم على جويبن) ، شككن أكتف مروطين فاعتجرتن (٣) به . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب ، به (٤) .

وقوله : (ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن) ، يعنى أزواجهن ، (أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) ، كل هؤلاء محرم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها ولكن من غير اقتصاد وتبرج .

وقال ابن المنذر : حدثنا موسى - يعنى ابن هارون - ، حدثنا أبو بكر - يعنى ابن أبي شيبة - حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود ، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : (ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) - حتى فرغ منها قال : لم يذكر الم ولا النحال ، لأنهما يمتنان لأبائهما ، ولا تضع خمارا عند الم والنحال . فأما الزوج فلأنما ذلك كله من أجله ، فتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : (أو نسائهن) ، يعنى : تظهر زینتها أيضا لنساء المسلمات دون نساء أهل الأمة ، لئلا تصفون لرجالهن ، وذلك - وإن كان علوا في جميع النساء - إلا أنه في نساء أهل الأمة أشد ، فلهن لا [يمتعن] من ذلك مانع ، وأما المسلمة فلأنها تعلم أن ذلك حرام فتترج عنه : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تباشر المرأة المرأة ، تعنها لزوجهما كأنه ينظر إليها : أخرجاه في الصحيحين ، عن ابن مسعود (٥) .

وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن الغاز ، عن عباد بن ثعلبة ، عن أبيه ، عن الحارث بن قيس قال : كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبيحتك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى صورتها إلا لأهل ملها .

(١) مرط مرسل : نقش فيه تصاویر الرجال . وأصعبرت المرأة : ليست المسعر ، وهو الثوب الذى تشده على رأسها .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب قوله تعالى (يبدین علیهن من جلابیبن) ، الحديث ٤١٠٠ ، ٤١٠١ ، ٦١/٤ .

(٣) تفسير الطبري ٩٤/١٨ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب في قوله (وليضرين بغيرهم على جويبن) ، الحديث ٤١٠٢ ، ٦١/٤ .

(٥) البخاري ، كتاب النكاح ، باب : لا تباشر المرأة المرأة ، ٤٩/٧ .

وقال مجاهد في قوله : (أو نسائهن) ، قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي للمشركة .

وروى حبيب في تفسيره ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : (أو نسائهن) ، قال : هن للمسلمات ، لا تبديهن لليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

وروى سعيد : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ، لأن الله تعالى يقول : (أو نسائهن) ، فليست من نسائهن .

وعن مكحول وعبادة بن نسي : أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو حمير ، حدثنا ضمرة قال : قال ابن عباس ، عن أبيه : ولما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بيت المقدس ، كان قنوبل^(١) نسائهم اليهوديات والنصرانيات - فهلما إن صبح محمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتحان ، ثم إنه ليس فيه كشف حورة ولا بد ، والله أعلم .

وقوله : (أو ما ملكت أيمانهن) قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر [زينتها لها وإن كانت مشركة ، لأنها أمته : وإليه ذهب سعيد بن السيب . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر [على رقيقها من الرجال والنساء] واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود .

حدثنا محمد بن حنبل ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى فاطمة بعد قد وهب لها - قال : وهل فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم مائتي قال : إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وخلا مأك^(٢) .

وقد ذكر الحافظ ابن حساكر في تاريخه ترجمة حبيب الخثعمي - مولى معاوية أن عبد الله بن مسعود القرظي كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهبه لابنته فاطمة ، فربته ثم أحضته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان [من] أشد الناس [على] علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن حيينة ، عن الزهري ، عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان لإحدائكم مكاتب ، وكان له ما يؤدى ، فلتحتجب منه » .

ورواه أبو داود ، عن مسلم ، عن سفيان ، به (٣) .

(١) سنن أبي داود ، كتاب العباس ، باب : في البه ينظر إل شعر مولاه ، الحديث ٤١٠٦ ، ٦٢/٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ٢٨٩/٦ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب المتى ، باب : في المكاتب يؤدى بعض كتابته فيموت أو يموت ، الحديث ٢٩٢٨ ، ٢١/٤ .

وقوله : (أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال) ، يعني كالأجراء والأماح الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك في حقوقهم وله وعزتهم (١) ، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن .

قال ابن عباس : هو المخل الذي لا شهرة له .

وقال مجاهد : هو الأبله .

وقال حكيم : هو الخنث الذي لا يقوم زينة (٢) . وكذلك قال غير واحد من السلف .

وفي الصحيح من حديث الزهري ، عن عروة ، عن عائشة : أن غنثا كان يدخل حل أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنت امرأة : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بشان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أرى لما يعلم ما هاهنا ، لا يدخلن عليكن فخرجه ، فكان باليليلة يدخل يوم كل جمعة يستعلم (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن أم سلمة قالت : دخل عليها [رسول الله - صلى الله عليه وسلم] - ونحن غنث ، وعندما [أخوها] عبد الله بن أبي أمية [وانفث يقول لعبد الله : يا عبد الله بن أبي أمية] إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فليلك بابة خيلان ، فلما قبل بأربع وتدبر بشان . قال : فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأم سلمة : لا يدخلن هذا عليك (٤) .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم غنث ، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم [يوماً] وهو عند بعض نساءه ، وهو بنت امرأة : فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بشان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أرى لما يعلم ما هاهنا ؟ لا يدخلن عليكم هذا ، فحجبه (٦) .

(١) كذا في المخطوطة مفسرًا .

(٢) الأرب - بضم الزاي - : الذكر يلة أهل اليمن . والأثر في تفسير الطبري : ٩٦/١٨ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب في قوله : (غير أولي الإربة) ، الحديث ٤١٠٩ : ٩٣/٤ . والمعنى أنها قبل بأربع حكن - بضم ففتح - وتدبر ببيان حكن ، والحكن : جمع حكنة ، وهي ما تطوى وتثنى من لحم البطن سداً .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٩٠/٦ . وما بين الأقواس من المسند .

(٥) البخاري ، كتاب اللباس ، باب : إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت : ٢٠٥/٧ . وسلم ، كتاب السلام : باب : منع

الخنث من الدخول على النساء الأجانب : ١٠٢/١١ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٥٢/٦ .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي من طريق عبد الرزاق ، (١) به .

وقوله : (أو الطفل اللين لم يظهروا على عورات النساء) ، يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرحيم ، ويصطفين في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مرافقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشواء والحساء ، فلا يمكن من الدخول على النساء : وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والدخول على النساء . قالوا : يا رسول الله ، أرايت الخمر ؟ قال : الخمر الموت (٢) .

وقوله : (ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) ، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يسمع صوته - ضربت برجلها الأرض ، فيعلم الرجال طينته ، فعنى الله المؤمنين أن لا يمشوا مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً ، فحركات بغيره تظهر ما هو مخفي ، دخل في هذا النهي : لقوله تعالى : (ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) : ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التطير والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتتم الرجال طينها ، فقد قال أبو عيسى الترمذي :

حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان ، عن ثابت بن عسكرة الحنفى ، عن عُثَيْمِ بْنِ قَيْس ، عن أبي موسى - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل عين زانية » والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس ، فهي كذا وكذا - يعني زانية .

قال : « وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح (٣) » .

رواه أبو داود والنسائي ، من حديث ثابت بن حمزة ، (٤) به .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن حاصم بن حديد ، عن عبيد مولى أبي وهب ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولديها إصبع فقال : يا أمة الجبار (٥) ، جئت من

(١) مسلم ، كتاب السلام ، باب « منع الخنثى من الدخول على النساء الأجانب » : ١١/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الهجاء ، باب في قوله : (خير أول الإربة) ، الحديث ١٠٨ : ٦٣/٤ .

(٢) الحمير - يفتح لمكون - : أسد الأساء ، وح أقارب الزوج . والمعنى فيه أنه إذا كان وأبه هذا في أب الزوج - وهو حرم - فكيف بالغير ؟ أي : فلتست ولا تعلمن ذلك . وهذه كلمة تقولها العرب ، كما تقول : الأسد الموت ، والسمان النار ، أي لغزهما مثل الموت والنار .

(٣) البيهقي ، كتاب التلخيص ، باب « لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو عزم » والدخول على المنية : ٤٨/٧ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها » : ٧/٧ .

(٤) حكمة الأسوي ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء في كراهية خروج المرأة متطرة » ، الحديث ٢٩٢٧ : ٧٠/٨ - ٧١ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الرجل ، باب « ما جاء في المرأة تطيب الخروج » ، الحديث ١١٧٣ : ٧٩/٤ . والسنن ، كتاب الزينة ، باب « ما ينكره النساء من الطيب » : ١٥٣/٨ .

(٦) قال أبو داود : « الإحصار : غبار » . وفي رواية : « عصرة » - يفتح العين والصاد - والنصرة والإحصار : الغبار الصاعد إلى السماء مستقيلاً ، وهي الزوامة ، قيل : وتكون العصرة من قوم الطيب ، فشيء مما يثير الريح من الإحصار ، هذا وقد ناداهما بأمة إلهيات قهرياً لها ، حتى تقلع عن الحال التي هي عليها من إظهار الطيب .

المسجد؟ قالت: نعم. قال لها: [وله] (١) تطيبت؟ قالت: نعم. قال: إني سمعت جبري أبا التامم صلى الله عليه وسلم يقول: لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة (٢).

ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان - هو ابن حنيفة - (٣) به.

وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونة بنت سعد (٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الرافلة في الزينة (٥) في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها (٦). ومن ذلك أيضاً أنهم ينهون عن اللثى في وسط الطريق، لما فيه من التبرج، قال أبو داود:

حدثنا القتيبي، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - عن أبي الباق، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس، عن أبيه، عن حمزة بن أبي أسيد النصارى، عن أبيه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج من المسجد - وقد انخلط الرجال مع النساء في الطريق - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء: «استأخرن، فإنه ليس لكن أن تحقطن (٧) الطريق، عليكم عفاف الطريق. فكانت المرأة تلصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليمتلئ بالجدار، من لصونها (٨) به.

وفوه: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحوا)، أي: اضلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ووصوله، وترك ما نهاه عنه، والله تعالى هو المصان.

وَأَنِذِرُوا أَيْمَانِي مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ لِيَسْكُنُوا أَقْرَابَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَيْسَتِ الْيَدَيْنِ الْيَدَانِ لَا يَحْدُونِ نَكَاةً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكَيْتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَكَتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَأْتُواهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَلِكْرِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنِ الْخُلُوعُ مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝

اشتملت هذه الآيات الكريمات اللينة على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، بقوله تعالى: (وأنكحوا الأيما منكم والصالحين من عبادكم وإيمانكم) هذا أمر بالتزويج. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه، على كل من

(١) ما بين القوسين عن سنن أبي داود.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الرجل، باب: «ما جاء في المرأة تطيب للمسجد»، الحديث ٤١٧٤: ٧٩/٤.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب: «فتنة النساء»، الحديث ٤٠٠٢: ١٣٢٦/٢.

(٤) في الترمذي أن ميمونة هذه كانت غلصاً لثى صلى الله عليه وسلم.

(٥) الرافلة: هي التي تتبشر في ثوبها. و: في غير أهلها، أي: وبين من يحرم نظرها إليها.

(٦) غصة الأومى: أبواب الرضاح، باب: «ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة»، الحديث ١١٧٧: ٣٢٩٤/٤. وقال الترمذي: «هذا حديث لا لمرءه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يصفى في الحديث من قبل حفظه وهو صحيح. وقد روى عنه شعبه والثوري. وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه».

(٧) أي تركين سحرها - بهم فسكون - وهو: وسط الطريق.

(٨) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب: «في حق النساء مع الرجال في الطريق»، الحديث ٥٢٧٢: ٣٦٩٤/٤.

قدّر عليه . واحتجوا بظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أحسن للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء : أخرجه من حديث ابن مسعود (١) .

وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوجوا تولدوا تناسلوا ، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة » (٢) وفي رواية : حتى بالسقط .

الأباي : جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها ، ولرجل الذي لا زوجة له ، وسواء كان قد تزوج ثم طلق ، أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري من أهل اللغة ، يقال : رجل أيم وامرأة أيم أيضا (٣) .

وقوله تعالى : (إن يكونوا قراء فنتنهم الله من فضله والله واسع عليم) قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : وفيهم الله في التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه النبي ، فقال : (إن يكونوا قراء فنتنهم الله من (٤) فضله) .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا حمود بن خالد الأزرق ، حدثنا حميد بن عبد الواحد ، عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - قال : بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : أطيعوا الله فيما أمرهم به من النكاح ، ينجز ما وعدهم من النبي ، قال : (إن يكونوا قراء فنتنهم الله [من فضله])

ومن ابن مسعود : اتقوا النبي في النكاح ، يقول الله تعالى : (إن يكونوا قراء فنتنهم الله من فضله) [رواه ابن جرير (٥) ، وذكر البغوي [من غير] نحوه .

ومن الحديث ، عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد المفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغزاة في سبيل الله » . رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه (٦) .

(١) البهاري : كتاب الصوم ، باب « الصوم لمن خاف على نفسه المزوجة » : ٢٤٢/٢ . وسلم ، أول كتاب النكاح : ١٢٨/٤ .

والباءة : النكاح والتزوج . وهو من المباءة ، وهي المنزل ، لأن من تزوج امرأة بولها منزلا ، وقيل : لأن الرجل يذبح من أمه ، أي : يستمكن ، كما يستمكن من منزله .

والجاء : أن ترض أنثى الفحل رضا فديدا ، يلعب شهوة الجماع حتى يكون أشبه بالخصي ، وإن لم تقطع أنثاه . أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعته الزوجة .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب « النبي عن تزويج من لم يله من النساء » ، الحديث ٢٥٠٠ : ٢٢٠٠/٢ . والنسائي : كتاب النكاح ، باب « كراهية تزويج المقيم » : ٦٥/٦ .

(٣) الصحاح للجوهري : ١٨٦٨/٥ .

(٤) تفسير الطبري : ٩٨/١٨ .

(٥) الأثر في التفسير الطبري : ٩٨/١٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٥١/٢ ، ٤٣٧ من طريق يحيى عن ابن عجلان . وحققة الأحوي : أبواب فضائل الجهاد ، باب « ما جاء في الجهاد والمكاتب والناكح وحث الله إياهم » ، الحديث ١٧٠٦ : ٢٩٦/٥ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » . والنسائي : كتاب النكاح ، باب « مموتة الله الناكح التي يريد المفاف » : ٦١/٦ . وكتاب الجهاد ، باب « فضل

الروسة في سبيل الله من رجل » : ١٥٦/٦ - ١٦ . وابن ماجه : كتاب المقت ، باب « المكاتب » ، الحديث ٧٥١٨ : ٨١٢/٢ - ٨١٢/٢ .

وقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي لم يجد إلا لزوره ، ولم يتقدم حل حاتم من حديد ، ومع هذا فروجه بتلك المرأة ، وجعل صدقها عليه أن يعلمها ما عطفه من القرآن :

وللمهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه غاية له ولها . فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث : « تزوجوا قهراء ينكمه الله » فلا أصل له ، ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن ، وفي القرآن غيبة عنه وكلنا هذا الحديث الذي أوردهاه والله الحميد .

وقوله : (وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) ، هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً [بالتعفف] عن الحرام ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : يا معشر الشباب ، من استطاع منكم ألياسة فليزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .

وهذه الآية مطابقة ، إلى في سورة النساء لنص منها . وهي قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ، مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ، إلى أن قال : (ذلك لمن غشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم) (١) ، أي : صبركم عن تزويج الإمامة خير ، لأن الولد نبىء رقيقاً ، (والله غفور رحيم) . قال حكيمه في قوله : (وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً) ، قال : هو الرجل يرى المرأة فكانه يشتهي ، فإن كانت له امرأة فليطلب إليها ولينص حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فليظفر بملوك السموات والأرض [حتى يغنيه الله] .

وقوله : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) ، هذا أمر من الله تعالى للعبادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤتى إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحم وإيجاب ، بل السيد خير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكتبه .

وقال الثوري : عن جابر : عن الشعبي : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه .

وقال ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن رجل ، عن عطية بن أبي رباح : إن يشأ يكتبه وإن لم يشأ لم يكتبه . وكذا قال مقاتل بن حيان ، والحسن البصري .

وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب ، أخلاً بظاهر هذا الأمر :

قال البخاري : وقال روح ، عن ابن جريج قلت لعطاء : [أوجب علي إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟] قال : ماله إلا وأجبا . وقال عمرو بن دينار : قلت لعطاء : أتأثره من أحد ؟ قال : لا ، ثم أخبرني أن موسى بن أسن أخبره ، أن سمر بن سأل أنساً للكتابة - وكان كثير المال فأتى ، فاطلق إلى عمر بن الخطاب فقال : كاتبه . فأتى ، فقصه بالدرة . ويظن عمر رضي الله عنه : (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) ، فكاتبه (٢) .

(١) سورة النساء : آية : ٢٥ .

(٢) البخاري ، كتاب النكاح ، باب في الكاتب : ١٩٨/٢ . وما بين القوسين منه .

هكذا ذكره البخاري تعليقاً ، ورواه عبد الرزاق ، أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : أوجب على إذا علمت له مالا أن يكتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجباً ، وقاموا عمرو (١) بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أئذنه عن أحد ؟ قال : لا (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن سريين أراد أن يكتبه ، فتركاه عليه ، فقال له عمر : لتكتبينه : إسناد صحيح (٣) .
وقال سعيد بن منصور : حدثنا هشيم بن جوير ، عن الضحاك قال : هي عزمة ، وهذا هو القول القديم من قول الشافعي رحمه الله ، ونهى في الجديد إلى أنه لا يجب ، لقوله عليه الصلاة والسلام : لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبه من نفسه .

وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده ، قال مالك وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب ، وكذا قال الثوري ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . وانتظر ابن جرير قول الرجوب لظاهر الآية .

وقوله : (إن علمتم فيهم خيراً) ، قال بعضهم : أمانة ، وقال بعضهم : صدقاً ، [وقال بعضهم : مالا] ، وقال بعضهم : حيلة وكسباً .

وروي أبو داود في كتاب الراسيل ، عن يحيى بن أبي كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فكاوتهم إن علمتم فيهم خيراً) ، قال : إن علمتم فيهم حرقة ، ولا ترسلوهم كلاً (٤) على الناس ،

وقوله : (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) ، اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه اطرحوا لهم من الكفاة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع ، وقيل : الثلث ، وقيل : النصف ، وقيل : جزء من الكتابة من غير حد .
وقال آخرون : بل المراد من قوله : (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) ، هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكوات ، وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل بن حيان ، واختاره ابن جرير (٥) .
وقال إبراهيم النخعي في قوله : (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) ، قال : حبت الناس عليه ، مولاه وغيره وكذلك قال بريلة بن الحصبية الأسلمي ، وقطادة .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب ، وقد تقدم في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاثة حق على الله عونهم) ، فذكر منهم المكاتب يريد الأعداء ، والقول الأول أشهر ،

(١) في المخطوطة : وقام عمرو بن دينار . والمثبت عن تفسير الطبري .

(٢) تفسير الطبري : ٩٨/١٨ .

(٣) الكل - بفتح الكاف - المالة .

(٤) تفسير الطبري : ١٠٢/١٨ .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل (١)، حدثنا وكيع، عن ابن شبيب، عن حكيم، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كاتب عبد الله، يكتب أبا أمية، فجاءه بغيره (٢)، حين حل، قال: يا أبا أمية، انصب فاستن به في مكاتبك. قال: يا أمير المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نبي؟ قال: انصاف أن لا أدرك ذلك، ثم قرأ: (فكانهم إن علمتهم فيهم خبراً، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (٣). قال حكيم: كان أول نبي أذى في الإسلام. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا هارون بن المنيرة، عن عيسى، عن سالم الأطلس، عن سعيد بن جبز: قال: كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئاً من أول نبوه، مخالفة أن يسير فرجع إليه صلاته. ولكنه إذا كان في آخر مكاتبه، وضع عنه ما أحب (٤).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)، قال: ينو ضعوا عنهم مكاتبهم. وكذلك قال مجاهد، وعطاء، والقاسم بن أبي بزة، وعبد الكريم بن مالك الجوزي، والسدي،

وقال محمد بن سيرين في قوله: (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم): كان يسهبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان القرشي، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جريج، أخبرني عطاء بن السائب: أن عبد الله بن جندب أخبره، عن علي رضي الله عنه، عن أبيه: صلى الله عليه وسلم: قال: ربح الكتابة.

وهذا حديث غريب، ورفع منكر، والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه كما رواه [عنه] أبو عبد الرحمن السلمي، رحمه الله.

وقوله: (ولا تكرر هو فئاتكم على البقاء إن أردن تحصنًا لئيتوا عرض الحيلة الدنيا) الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحد أمة أرسلها ترفي، وجعل عليها ضريبة يأخذونها منها كل وقت. فلما جاء الإسلام نهي الله المسلمين عن ذلك.

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين، من السلف والخلف - في شأن عبد الله ابن أبي سؤل، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لغرائبهن، ورضية في أولادهن، ورباهن معه فيما يكرهن.

(١) هو محمد بن إسماعيل بن البصري الحافظ الواسطي، قال ابن أبي حاتم في المبرج ١٩٠/٧/٣: «سمع عنه أبي» وأدركه بسامراء، ولم يقض له القضاء منه. وحمل هذا يبدو أنه مطلق من سند ابن أبي حاتم ذكر أبيه، والله أعلم.
(٢) النمر هنا: القسط، وقد كان للسيد يقسم ما يربيه من عبده على أقساط ليتسكن من دفعها له. وأصله أن العرب كانت تبذل مطاع منقول التمر ومساقطها، وما تبت حلول ديونها وغيرها، تقول: إذا طلع النمر حل عليك مال، أي: أثريا. وكذا باقي المثال.

(٣) أخرجه البيهقي في الدردر ٥٦/٥، عن عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(٤) تفسير الطبري ١٨/١٠١.

[ذكر الآثار الواردة في ذلك]

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الحائق البزار رحمه الله في مسنده : حدثنا أحمد بن داود الواسطي ، حدثنا أبو عمرو النخعي - يعني محمد بن الحجاج - حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهري قال : كانت حارية لعبد الله ابن أبي سلول ، يقال لها معاذة (١) ، يكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ، إلى قوله : (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) .

وقال الأعمش ، عن أبي سفيان عن جابر في هذه الآية : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ، قال : نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة ، كان يكرهها على الفجور ، وكانت لا بأس بها ، فتأبى ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية إلى قوله : (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) (٢) .

وروى النسائي ، من حديث ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر نحوه . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا علي بن سعيد ، حدثنا الأعمش ، حدثني أبو سفيان ، عن جابر قال : كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية يقال لها مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء ، فأنزل الله : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) إلى قوله : (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) .

صرح الأعمش بالسباع من أبي سفيان طلحة بن نافع ، فدل على بطلان قول من قال : ولم يسمع منه ، إنما هو صحيفة .

قال أبو داود الطيالسي ، عن سليمان بن معاذ ، عن سفيان ، عن حكرمة ، عن ابن عباس : أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزن في الجاهلية ، فولدت أولادا من الزنا ، فقال لها : مالك لا تزنين قالت : لا ، والله لأزني . فأنزل الله عز وجل : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) (٣) .

وقال عبد الرزاق : أنسبنا معمر ، عن الزهري : أن رجلا من قريش أسير يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أبي أسير ، وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها معاذة ، وكان القرشي الأسير يريد لها نفسها ، وكانت مسلمة ، وكانت تمتنع منه لإسلامها ، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها ، رجاء أن تحمل للقرشي ، فيطلب فداء ولده ، فقال تبارك وتعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ، إن أردن تحصنا) (٤) .

وقال السدي : أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به غضب أرسلها إليه ليوافقها ، إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت التجارية إلى أبي بكر - رضي الله عنه -

(١) انظر ترجمة معاذة في الاستيعاب لابن عبد البر : ١٩١٣/٤ وأسرة القباة لابن الأثير : ٥٤٧/٥ ط الراهبة .

(٢) تفسير الطبري : ١٨/١٠٣ ، وأسرة القباة : ٥٤٦/٥ .

(٣) تكرر في المخطوطات والطبعات السابقة بعد حديث أبي داود هذا ، الحديث الذي رواه البزار من أحمد بن داود الواسطي ، والذي تقدم في صدر هذه الآثار .

(٤) تفسير الطبري : ١٨/١٠٣ .

فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر لني صلى الله عليه وسلم ، فأمره بتقيضها : فصاح عبد الله بن أبي أمامة بـ (١) من محمد ، . يلبينا على مملوكتنا . فأنزل الله فيهم هذا .

وقال مقاتل بن حبان : بلغنا - وأنا أعلم - أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا : يكرهان لمتين لما إحداهما اسمها مسيكة وكانت للأصباري (٢) وكانت أمية أم مسيكة لعبد الله بن أبي ، وكانت معاذة وأروى بنتا لمترة ، فأتت مسيكة وأمرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرتا ذلك له ، فأنزل الله في ذلك : (ولا تكرهوا إهتاتكم على البلاء) يعني الزنا .

وقوله : (إن أردن تحصنا) : هذا خرج خرج الغالب ، فلا مفهوم له .

وقوله : (ليتفطروا عرض الدنيا) ، أي : من خرب أجبهن (٣) ومهورهن وأولادهن : وقد نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كسب الحجام ، ومهر البتي ، وحلوان الكاهن (٤) - وفي رواية : مهر البتي خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، ونمن الكلب خبيث (٥) .

وقوله : (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) ، [أي ، لمن ، كما تقدم في الحديث عن جابر .

وقال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : فإن فعلم فإن الله من غفور رحيم] وإنما من أكرههن . وكذا قال مجاهد ، وعطاء الخراساني ، والأعمش وقتادة .

وقال أبو عبيد : حدثني إسماعيل الأزرق ، عن عوف ، عن الحسن في هذه الآية : (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) ، قال : من والله ، لمن والله .

وهن الزمرى قال : غفور لمن ما كرههن عليه .

وهن زيد بن أسلم قال : غفور رحيم للمكرهات .

حكاها ابن اللندوف في تفسيره بأسانيد .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله ، حدثني ابن أبي عمير ، عن سعد بن جبيرة قال : في قراة عبد الله بن مسعود (فإن الله من بعد إكراههن تهنّ غفور رحيم) وإنما من أكرههن .

(١) أي : من يقوم بملوى ، إن كلفته على صفيه ؟

(٢) في المخطوطة : وكانت للأصبار . والمثبت من الدر المنثور : ٤٧/٥ . ولفظ الدر : وكانت للأصباري ، والأخرى أمية أم مسيكة لعبد الله بن أبي .

(٣) أنزل : غلة البه .

(٤) البخاري ، كتاب البيوع ، باب « ثمن الكلب » : ١١٠/٣ . وكتاب الإجارة ، باب « كسب البهي والإماء » : ١٢٢/٢ . وكتاب الطلاق ، باب « مهر البهي والتمكاح الفاسد » : ٧٩/٧ . وكتاب الطيب ، باب « الكهانة » : ١٧٦/٧ . وكتاب الجاس ، باب « من لعن المصور » : ٢١٧/٧ . ومسلم ، كتاب « البيوع » ، باب « تحريم ثمن الكلب ... » : ٣٥/٥ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب البيوع ، باب « في كسب الحجام » ، الحديث ٣٤٢٦ : ٢٦٦/٣ . وشفعة الأحوزي ، أبواب البيوع ، باب « ما جاء في ثمن الكلب » ، الحديث ١٢٩٤ : ٤٩٥/٤ - ٤٩٧ . ومسنن الإمام أحمد عن رافع بن خديج : ٤٦٤/٢ ، ٤٦٥ .

وفي الحديث الرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكروا عليه » (١) .

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبينها قال : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) ، يعني : القرآن فيه آيات والضحاحات مفسرات ، (ومثلا من اللين خلوا من فيكم) ، أي : خبرا عن الأمم الماضية ، وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى ، كما قال تعالى : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) (٢)

(وموعظة) ، أي : زاجرا عن ارتكاب المآثم والنجاسات (للمقربين) ، أي : لمن اتقى الله وعافاه .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبا ما بعدكم . وهو الفصل ليس بالقليل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن أتى الهدى من غيره أضله الله (٣) .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۖ يُشْكَرُ فِيهَا مُصْبِحٌ مِّنَ الصُّبْحِ إِلَى زُجَاجَةٍ ۚ الرَّجَاجَةُ كَانِبًا كَوَكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَّكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ۖ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ۝

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (الله نور السموات والأرض) ، يقول : هادي أهل السموات والأرض .

وقال ابن جرير : قال مجاهد وابن عباس في قوله : (الله نور السموات والأرض) ، يدير الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما :

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي (٤) ، حدثنا وهب بن راشد ، عن عرفة ، عن أنس بن مالك

قال : إن إلهي يقول : نوري هادي (٥) .

واختار هذا القول ابن جرير ، وحسنه الله .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب في قول الله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره) ، قال : هو المؤمن الذي قد جعل [الله] الإيمان والقرآن في صدره ، صرّب الله مثله فقال : (الله نور السموات والأرض) ، فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به . قال فكان أبي بن كعب يقرؤها : (مثل نور من آمن به) ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره (٦) .

(١) ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب « طلاق المكره والناسي » ، الأحاديث ٢٠٤٣ - ٢٠٤٥ - ٢٠٤٦/١ .

(٢) سورة الزخرف : آية ٥٦ .

(٣) انظر نهج البلاغة ، باب المختار من حكم أمير المؤمنين ، الحكمة ٣١١ : ٥٦ ، تصحيحنا .

(٤) في تفسير الطبري : « سليمان بن عمر بن خالد » والصواب ما في خطوطة الأثر . و ترجمه : سليمان بن عمر بن خالد .

في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٣١/١/٢ .

(٥) تفسير الطبري : ١٠٥/١٨ .

(٦) انظر تفسير الطبري : ١٠٥/١٨ ، والبحر المحيط لأبي حيان : ٤٥٥/٦ .

وهكذا قال محمد بن جبر ، وقيس بن سعد ، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك (نور من أمم بالله) .

وفرا بعضهم : (الله نور السموات والأرض) (١) .

وعن الضمك : (الله نور السموات والأرض) .

وقال السدي في قوله : (الله نور السموات والأرض) : فينوره أضاءت السموات والأرض .

وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في دعائه يوم أكذأ أهل الطائفة : أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يعلى بي غضبك ، أو يزلني بسخطك ، لك المتعجب (٢) حتى قرئ ، ولا حرك ولا قوة إلا بك (٣) .

وفي الصحيح عن ابن عباس : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام من الليل يقول : اللهم لك الحمد ، أنت قديم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ... الحديث (٤) .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : (مثل نوره) في هذا الضمير قولان .

أحدهما : أنه عائد إلى الله عز وجل ، أي : مثل هذا في قلب المؤمن ، قاله ابن عباس (كمشكاة) .

والثاني : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام ، فلهذه : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة . فشب قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : (أن كان حلي بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ، فشب قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالتقريب من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستنبطه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق للعتدل ، الذي لا كدر فيه ولا انحراف .

ف قوله : (كمشكاة) قاله ابن عباس ، وعبد بن كعب ، وغير واحد : هو موضع القبة من القنديل . هذا هو المشهور ، وغلا قال بعده : (فيها مصباح) ، وهو الدالة التي تضيء .

وقال النووي ، عن ابن عباس قوله : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ، وذلك أن اليهود قالوا أحمد صلى الله عليه وسلم : كيف غلصه نور الله من دون النساء ؟ فصرخ الله مثل [ذلك] لنوره ، فقال :

(١) البحر المحيط لأبي حيان : ٤٥٥/٦ .

(٢) الترمذي : المرحوم من القلب .

(٣) في الخطبة : « إلا بالله » . والمثبت من سورة ابن هشام : ٤٢٧/١ .

(٤) البخاري ، باب التمجيد بالليل : ٦٠/٢ - ٦١ ، وكتاب التوحيد : ١٤٣/٩ - ١٤٤ . ومسلم : كتاب صلاة

المسافرين ، باب : الدعاء في صلاة الليل : ١٨٤/٢ . ومسنن الإمام أحمد : ٣٥٨/١ .

(لله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة) - والمشكاة : كوة في البيت - قال : وهو مثل غربة الله لطاعته ، فسمى الله طاعته نورا ، ثم سماها أنوارا شتى (١) .

وقال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد : الكوة بلفظ الحيشة (٢) . وزاد غيره فقال : المشكاة الكوة التي لا مغلظ لها . وعن مجاهد : المشكاة : الحلال التي يلق بها القنديل .

والقول الأول أولى ، وهو أن المشكاة هي موضع القنيلة من القنديل ، ولهذا قال : (فيها مصباح) ، وهو النور الذي في الدلالة .

قال ابن أبي كعب : للمصباح : النور ، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره (٣) ، وقال السدي : هو السراج .

(المصباح لي زجاجة) ، أي : ههنا الضوء مشرق في زجاجة صافية .

قال ابن أبي كعب وغير واحد : وهي نظير قلب المؤمن ، (الزجاجة كأنها كوكب دري) ، قرأهم بهم للقال من غير هوة ، من الدر ، أي : كأنها كوكب من دُر .

وقرأ آخرون : (دريء) و (دريء) بكسر الدال وضمها (٤) مع الهمز ، من الدرء وهو الدفع ، وذلك أن النجم إذا دُمِيَ به يكون أشد استتارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درائى (٥) . قال ابن أبي كعب : كوكبه مضىء . وقال قتادة : مضىء مبین ضخم .

(يؤتد من شجرة مباركة) ، أي : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة : (زيتونة) ، بدل أو عطف بيان ، (لا شرقية ولا غربية) ، أي : ليست في شرق يقطعها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربها فيتقلص عنها النور قبل الغروب ، بل هي في مكان وسط ، تفرقه (٦) الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء ريتها معتدلا صائفا مشرقا (٧) .

(١) في تفسير الطبري ١٨/١٠٦ : « ثم سماها أنواراً فهي » .

(٢) انظر للمصنف للجواليقي ٣٥١ .

(٣) تفسير الطبري ١٨/١٠٧ .

(٤) لم يرد في كلام العرب حل وزن فعل - يسم الفاء ، وكسر العين مشددة - إلا كلمتان : دريء ، ومريق ، وهو المصبوخ بالصنبر . انظر البحر المحيط لأبي حيان ٦/٥٦٦ ، والمفتح لابن مسعود ١٠٩/١ - ١١٠ .

(٥) معاني القرآن للقرطبي ٢/٢٥٢ .

(٦) في المخطوطة : « تقصمها » . وسيأتي به قليل عند قول المؤلف : « وأول هذه الأقوال ... » : « لقرمه من أول النهار » . ولعل الصواب ما أثبتناه ، وفي اللسان : « وفرع التي يفرعها فرعاً وفروعاً » ، وقرمه : حلاه .

(٧) حكاية ابن جرير أول حل المنى قاله ابن كثير ، قال ١٨/١٠٩ - ١١٠ : « أي : ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت » وإنما لما نصيبها من الشمس بالنداء ، ما دامت بالجنب الذي يلى الشرق ، ثم لا يكون لما نصيب منها إذا مالته إلى جانب الغرب . ولا هي غربية وحدها ، فتصيبها الشمس بالنداء إذا مالته إلى جانب الغرب ، ولا تصيبها بالنداء ، ولكنها شرقية غربية ، تتصلح عليها الشمس بالنداء ، وتغرب عليها ، فتصيبها من الشمس بالنداء والندى ، قالوا : وإذا كانت كذلك ، كان أجود نزيهاً » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، أخبرنا عمرو بن أبي قيس ، عن ممالك بن حرب ، عن حكمة ، عن ابن عباس في قوله : (زينة لا شرقية ولا غربية) ، قال : الشجرة بالصحرَاء ، لا يظنها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يواربها شيء ، وهو أجود لزيته (١) .

وقال يحيى بن سعيد القطان ، عن عمران بن حدير ، عن حكمة ، في قوله (لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي بصحرَاء ، وذلك أصب لزيته .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو ثعلبة ، حدثنا عمار بن قزوخ ، عن حبيب بن الزبير ، عن حكمة — وسأله رجل عن : (زينة لا شرقية ولا غربية) ، قال : تلك بأرض فلاة ، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت غربت عليها فذلك أصب ما يكون من الزيت .

وقال مجاهد في قوله : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : ليست بشرقية ، لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ، ولكنها شرقية وغربية ، تصيبها إذا طلعت [وإذا غربت .

وقال سعيد بن جببر في قوله : (زينة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء) ، قال : هو أجود الزيت ، قال : إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق ، فإذا أظلمت في المغرب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالنداء والمشي ، فذلك لا تعد شرقية ولا غربية ،

وقال السدي قوله : (زينة لا شرقية ولا غربية) ، يقول : ليست بشرقية يحوزها المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو في صحراء ، تصيبها الشمس النهار كله .

وقيل : المراد بقوله (زينة لا شرقية ولا غربية) : أنها في وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب ؛

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العلاء ، عن أبي بن كعب ، في قوله الله تعالى : (زينة لا شرقية ولا غربية) قال : فهي خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت — قال : فلكل هذا المؤمن ، قد أجبر من أن يصيبه شيء من القتن ، وقد ابتلى بها فيبته الله فيها ، فهو بين أربع خصال : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، فهو في سائر الناس كالرجل الحى يمشى في قبور الأموات (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مسدد قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله : (زينة لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي وسط الشجر ، لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا .

وقال عطية العوفي : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي شجرة في موضع من الشجر ، يرى ظل ثمرها في ووقها ، وهدم من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب .

(١) الأثر في قدر المتثور : ٩/٥ عن ابن أبي حاتم والقرطبي .

(٢) قدر المتثور ، عن عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم — وصححه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن حمر ، حدثنا عبد الرحمن المديني ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) ، ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية .

وقال محمد بن كعب القرظي : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : هي القبيلة .

وقال زيد بن أسلم : (لا شرقية ولا غربية) ، قال : الشام .

وقال الحسن البصري : لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله لغوره .

وقال الفصحاء : عن ابن عباس : (نود من شجرة مباركة) ، قال : رجل صالح ، (لنودة لا شرقية ولا غربية) ، قال : لا يهودى ولا نصراني .

ولول هذه الأقوال التوكيد الأول ، وهو أنها في معنى من الأرض ، في مكان فصيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، فذكرهم (٧٤) مع توكيد الظاهر إلى آخره ، ليكون ذلك أمضى ثبوتها وأبلغ ، كما قال غير واحد من صدم . ولما قال : (يكاد يظن بها) ولو لم تحسه لار ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني لظنوه إشراق الزيت .

وقوله : (نور على نور) ، قال العوفي ، عن ابن عباس : يعني بذلك إيمان العبد وهداه .

وقال مجاهد ، والسدي : يعني نور النار ولور الزيت .

وقال أبو بن كعب : (نور على نور) ، فهو يتقلب في خمسة من النور : لكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة .

وقال جابر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثني عن قول الله : (يكاد يظن بها) ولو لم تحسه لار ، قال : يكاد محمد يبين للناس ، وإن لم يتكلم ، أنه نبي ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء .

وقال السدي في قوله : (نور على نور) ، قال : نور النار ولور الزيت ، حيث اجتماعهما ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ولور الإيمان حيث اجتماعهما ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه] .

وقوله : (يضيء الله نوره على يشاء) ، أي : يرشد الله إلى هدايته من يظن به ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد القزويني ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني ربيعة بن يزيد ، عن عبد الله [ابن] التيمي ، عن عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله خلق خاتمه في طلمة .

ثم أتى عليهم من نوره يومئذ ، فن أصاب يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأ ضل ، لذلك أفوك : حيث ألقم على حلم الله عز وجل (١) :

طريق أخرى عنه ، قال الزوار : حدثنا أيوب بن سويد ، عن يحيى بن أبي عمرو السنياني عن أبيه ، عن عبد الله ابن عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم نوراً من نوره ، فن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأ ضل » [ورواه الزوار عن عبد الله بن عمرو ، من طريق آخر ، بلغظه وحروله] :

وقوله تعالى : (ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم) ، لا ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلبه للمؤمن ، غم الآية بقوله : (ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم) ، أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال :

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا أبو معاوية - [يعني (٢)] شيان - عن أبيه ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي التيمستري ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القلوب أربعة : قلب أجرد (٣) فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف (٤) مربوط على ضلالة ، وقلب منكوس ، وقلب مضطرب (٥) ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراج فيه نوره : وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب [المنافق] - حترت ثم أنكر - وأما القلب المضطرب فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمتدّها لئلا يطبخ ، ومثل النفاق فيه كمثل الترحمة يمتدّها لئلا يتبع والدهم ، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه (٦) . إسناده جيد ، ولم يخرجوه »

فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ بِهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّوسِ وَالْأَصَالِ ﴿١٧﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيسَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿١٨﴾ لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٩﴾

لما ضرب الله تعالى [مثل] قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الرجاجة الصافية الموقدة من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر عملها وهي للساجد ، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوت

(١) مسند الإمام أحمد : ١٧٦/٢ .

(٢) في المخطوطة : « حدثنا أبو معاوية ، حدثنا شيان » . وهو خطأ ، والصواب من المسند . وانظر ترجمة شيان بن عبد الرحمن ، في التلخيص : ٣٧٤ - ٣٧٣/٤ .

(٣) قال ابن الأثير في النهاية : « قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر » ، أي : ليس فيه غلولا فتن ، فهو حل أصلي للفتنة ، فنور الإيمان فيه يزهر » .

(٤) أي : عليه غشاء من سحاح الحق وقبوله .

(٥) أي : له وجهان ، يليق لكل الكفر بوجه ، وأهل الإيمان بوجه . وصلى كل في وجهه وقبحه .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٧٦/٣ .

التي يعبدها ويوجد ، قال : (في بيوت أذن الله أن ترفع) ، أي : أمر الله تعالى برفعها ، أي : بتطهيرها من النجس واللغو ، والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة : (في بيوت أذن الله أن ترفع) ، قال : نسي الله سبحانه من اللغو فيها (١) . وكذا قال حكرمة ، وأبو صالح ، وأصمجان ، ونافع بن جببر ، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حَكَمَة ، وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المشركين .

وقال قتادة : هي هذه المساجد ، أمر الله سبحانه ببنائها ورفعها ، وأمر بممارستها وتطهيرها (٢) . وقد ذكر لنا أن كتبها كان يقول : إن في الثبوت مكتوباً : «ألا إن يوتى في الأرض المساجد، وإنه من توفاً فأحسن وصوده ، ثم زارني في بيتي أكرمه ، وحق على المَنُور كرامة الزائر» . رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره .

وقد روت أحاديث كثيرة في بناء المساجد ، واحرامها وتوقيرها ، وتطهيرها وتبجيلها . وذلت له محل مبرور يذكر فيه ، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة ، والله الحمد والمثني . ونحن نذكر ما ذكره هاهنا منها من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :

فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بَنى مسجداً يَبْنِي به وجه الله ، يَبْنِي الله له مثله في الجنة » . أخرجاه في الصحيحين (٣) .

وروى ابن ماجه ، عن عمرو بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بَنى مسجداً يَذْكُر فيه نام الله ، يَبْنِي الله له بيتاً في الجنة » (٤) .

وللتنائي عن عمرو بن حَكَمَة مثله (٥) ، والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وعن عاتقة - رضي الله عنها - قالت : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنصف وتطيب » (٦) . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي : ولأحمد وأبو داود ، عن سَمُرَة بن جندب حواه (٧) . وقال البخاري : قال هر : ابن الناس ما يَكْتُمهم ، وإياك أن تَحْمِر نو تصغر صفن الناس (٨) .

(١) تفسير الطبري : ١١٩/١٨ .

(٢) الآثار في الفن المنظور من عبد بن سعيد : ٥٠/٥ .

(٣) البخاري : كتاب الصلاة ، باب « من بَنى مسجداً » : ١٢٢/١ . وسنن ، كتاب المساجد ، باب « من بَنى مسجداً » : ١٢٢/١ .

والحدث فيها : ٦٨/٢ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « من بَنى مسجداً » : الحديث ٧٣٥ : ٢٤٣/١ .

(٥) التلخيص : كتاب المساجد ، باب « الفضل في بناء المساجد » : ٣١/٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩/٦ ، وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « اقتداء المساجد في الدور » : أحدث

٤٥٥ : ١٢٤/١ . ونقطة الأحرشي : أبواب ، السفر ، باب « ما ذكر في تطيب المساجد » : الحديث ٥٩١ : ٢٠٦/٣ .

وسنن ابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « تطهير المساجد وتطيبها » : الحديث ٧٥٨ : ٢٥٠/١ .

وقال الترمذي : « قال سفيان : « بَنَى المساجد في الدور » ، يعني التبرُّك » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٧/٥ ، ولفظه : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نَتَقِدَ المساجد في الدور » ، وأمرنا أن نَتَقِدَها ، وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « اقتداء المساجد في الدور » : الحديث ٥٩١ : ٢٠٦/٣ .

(٨) البخاري : كتاب الصلاة ، باب « بَنَى المساجد » : ١٣١/١ ، ولفظه : « وقال أبو سعيد : « من سجد لسميعة من بَنَى بيتاً للمسجد وقال : « أكن الناس من انظر ، وإياك ... » .

وروى ابن ماجه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ساء عمل قوم قُتِلَ إلا زخرفوا مساجدكم (١) .
وفى إسناده ضعف .

وروى أبو داود عن ابن عباس - رضى الله عنهم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أمرتُ بتشديد المساجد . قال ابن عباس : لتزخرفنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى (٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد .
رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى (٣) .

ومن بريدة أن رجلاً أشد في المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر (٤) ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا وجدت ، إنما بنيت المساجد لا بُنيت (٥) له - رواه (٦) مسلم .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيع والابتاع ، وهر تناشت الأشعار في المساجد . رواه أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن (٧) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيتم مربي بيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا : لا أربع الله تجارتك ، وإذا رأيتم من يشتد خبالة في المسجد ، فقولوا : لا ردة الله عليك . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب (٨) .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعاً ، قال : خصصك لا تبلى في المسجد ، لا يتخذ طريقاً ،

(١) سنن ابن ماجه ، باب « تشييد المساجد » ، الحديث ٧٤١ : ٢٤٤/١ - ٢٤٥ . وفى إسناده أبو إسحاق ، وكان يندلس ، وجبارة بن المغلس ، وهو كذاب .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « وفي بناء المساجد » ، الحديث ٤٤٨ : ١٢٢/١ . وانظر البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « بنيان المساجد » : ١٢١/١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٣٤/٣ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٢٣٠ ، ٢٨٣ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « وفي بناء المساجد » ، الحديث ٤٤٩ : ١٢٣/١ ، والمتفق كتاب المساجد ، باب « المبالاة في المساجد » : ٣٢/٢ . وابن ماجه ، كتاب المساجد ، باب « تشييد المساجد » ، الحديث ٧٣٩ : ٢٤٤/١ .

(٤) أى : من وجد ضالتي ، وهو الجمل الأحمر ، فخصني إليه ؟ .

(٥) أى : من للمبادات .

(٦) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « انتهى من تشد الصلوة في المسجد » وما يقوله من سبع التلقيد : ٨٢/٧ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٧٩/٢ ، ٢١٢ ، وتحفة الأحوسى ، أبواب الصلاة ، باب « وما جاء في كراهية البيع والكراهة وإنشاء القبلة والشرع في المسجد » ، الحديث ٣٢١ : ٢٧١/٢ - ٢٧٥ . والمتفق ، كتاب المساجد ، باب « انتهى من البيع والشرع في المسجد » : ٤٧/٢ - ٤٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « المتعلق يوم الجمعة قبل الصلاة » ، الحديث ٢٨٢/١ : ١٠٧٩ .

(٨) تحفة الأحوسى ، أبواب البيوع ، باب « انتهى من البيع في المسجد » ، الحديث ١٣٣٩ : ٥٠٠/٤ - ٥٠١ .

ولا يشهر (١) فيه سلاح ، ولا يُبَنَس (٢) فيه بقوس ، ولا ينثر (٣) فيه نبل ، ولا يُمَرَّ فيه بلحم فيه ، ولا يُضْرَب فيه حدٌّ ولا يُقْتَصَّ فيه لمن لا حد ، ولا يُتَّخَذُ سوقاً (٤) .

وعن والته بن الأشعث ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «جنبا مساجدكم» (٥) صياتكم ومجانيتكم ، وشراكم (٦) وبمعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيفكم ، واخذوا على أبوابها المظاهر ، وجنمروها في الجُمُح (٧) .

ورواه ابن ماجه أيضاً ، وفي إسنادهما ضعف ،

لأنه لا يتخذ طريقاً ، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد منسوحة عنه ، وفي الأثر : « إن الملائكة لتسحب من الرجل يمر بالمسجد لا يصل فيه » .

وأما أنه لا يشهر فيه سلاح ، ولا ينفض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما غشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة الصلبيين فيه ، ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر أحد بهما أن يقبض على نعالها ، لئلا يؤذي أحداً ، كما ثبت في الصحيح (٨) .

وأما النهي عن المرور بالدمع الثني فيه ، فلما غشى من تقاطر الدم منه ، كما نيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت الطلوث .

وأما أنه لا يضرب فيه حد أو يقتص ، فلما غشى من إيجاد نجاسة فيه من المصروب أو المقطوع .

وأما أنه لا يتخذ سوقاً ، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما ينهى للذكر الله والصلاة كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - «لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد ، إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت للذكر الله والصلاة فيها . ثم أمر يستحلك من ماء ، فأهريق على يوله» (٩) .

(١) أي : لا يسل فيه سلاح .

(٢) أي : لا يشد فيه .

(٣) في سنن ابن ماجه : « ولا ينثر » . بالثين . ولعل الصواب ما هنا . وفي السان : « النثر » ترك الشيء بيده ، رمى به متفرقاً ، مثل نثر الجوز والقوز والسكر .

(٤) سنن ابن ماجه : كتاب المساجد ، باب « ما يكره في المساجد » ، الحديث ٧٤٨ : ٢٤٧/١ .

(٥) في القنطرة : « جنبا مساجدكم » . والمثبت من سنن ابن ماجه .

(٦) في سنن ابن ماجه : « وشراكم » . ولا لذلك في أنه خطأ .

(٧) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب للثنتين ، الحديث ٧٥٠ : ٢٤٧/١ .

(٨) مسند الإمام أحمد عن أبي موسى : ٣٩٢/٤ .

(٩) انظر البخاري : كتاب الوضوء ، باب « ترك النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي حتى يفرغ من بوله في المسجد » ، و« صب الماء على البول في المسجد » ، و« يريق الماء على البول » : ٦٥/١ . وكتاب الأدب ، باب « قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يسروا ولا تمسروا) وكان يجب التخفيف واليسر على الناس » : ٣٧/٨ . ونخبة الأسعدي : أبواب الطهارة ، باب « ما جاء في البول يصيب الأرض » ، الحديث ١٤٧ : ٤٥٧/١ - ٤٥٩ . وسنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب ١٣٦ ، ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢٣٩/٢ ، ٢٨٢ ، ٥٠٣ . وعن أنس بن مالك : ١١٠/٣ - ١١١ .

وفي الحديث الثالث : « جئوا مساجدكم صيانتكم » : وذلك لأهم يلبسون فيه ولا يتأهبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذا رأى صيانتاً يلبسون في المسجد - خرجهم بالخيل فكلوا - وهي الدرة - وكان يَحْسُ (١) المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحداً .

« وعجابتكم » ، يعني : لأجل ضعف عقولهم ، وسخو الناس بهم ، فيؤدى إلى اللبس فيها ، ولا يثنى من تقديم المسجد ونحو ذلك .

« ويبيعكم وشراكم » ، « كما تقدم » .

« وخصوماتكم » ، يعني التحاكم والحكم فيه : ولما نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا يتعصب للفصل الأجنبي في المسجد ، بل يكون في موضع ضربه ، لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر واللباط (٢) الذي لا يناسبه ، ولما قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجعدي عن عبد الرحمن (٣) قال : حدثني يزيد بن خصيفة ، عن السائب بن يزيد الكندي قال : كنت قائماً في المسجد ، فحصبني رجل ، فنظرت فإذا عمر ابن الخطاب ، فقال : اذهب فأتني بجلين . فجيته بهما ، فقال : من أتيا ؟ أو : من أين أتيا ؟ قال : من أهل الطائف . قال : لو كنتم من أهل البلد لأوجبتكما . ترضان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

وقال النسائي : حدثنا سويد بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم ابن عبد الرحمن بن عرف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال : أتدري أين أنت ؟ وهذا أيضاً صحيح .

وقوله : « وإقامة حلوقكم » ، « وصل سيوفكم » قللها .

وقوله : « واتخذوا على أبوابها المظاهر » ، يعني : المرائض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة : وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضئون وغير ذلك .

وقوله : « وجمروها في الجمع » ، يعني يتخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد الله ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن عبالقة بن عمر : عن نافع عن ابن عمر : أن عمر كان يجتمع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به ، والله أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاة الرجل في الجماعة تفتح على صلاته في بيته وفي سوقه » ، « وخمس وعشرين صفاً » . وذلك أنه إذا تروضا فأحسن وضوءه ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرج

(١) أي : يطوف بالليل .

(٢) اللباط - ككتاب - : الصراع والازدقة ، كذا في مصنفه لأبي العروم .

(٣) البخاري ، كتاب الصلاة ، باب : « وضع الصوت في المساجد » ١٢٧/١٥ .

إلا الصلاة ، لم يَسْطُرْ حَقُولَهُ إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا حُرْجَةٌ ، وَحُفِظَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ . فَإِذَا حَكَلَ لَمْ تَرَلِ الْمَلَائِكَةَ تَعْمَلُ [عَلَيْهِ] مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ : وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ (١) .

وعند الدارقطني مرفوعاً : « لَا صَلَاةَ لِحِجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » (٢) .

وفي السنن : « بَشِّرِ الْمَشَائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) .

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري (٤) : « عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ : « أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » [قَالَ : « أَتُطِ ? قَالَ : نَعَمْ] قَالَ : فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ : حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ .

وروى مسلم بسنده عن أبي حميد - أو : أبي أسيد - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ . وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » (٥) .

ورواه الترمذي عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) .

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ ، فَلْيَسَلِمِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَسَلِمِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ احْصِ مِنِّي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » .

ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبي سلم ، عن عبد الله بن حسن (٨) ، عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « فضل صلاة الجماعة » : ١٦٥/١ - ١٦٦ .

(٢) سنن الدارقطني ، كتاب الصلاة ، باب « المثل لجوار المسجد على الصلاة فيه إلا من حذر » : ٤٢٠/١ .

(٣) تلمذة الأحرشي ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء في فضل المشاء والتعجب في الجماعة » ، الحديث ١٢٢٣ : ١٤٢/٢ . وقال الترمذي : « هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الزَّوْجِ مَرْفُوعٌ - هُوَ صَحِيحٌ سَنَدُهُ وَمَوْثُوقٌ إِلَى أَهْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَسْنِدْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَسَنَنَ أَبُو دَاوُدَ ، كِتَابُ الصَّلَاةِ ، بَابُ « مَا جَاءَ مِنَ الْمُثْنِ إِلَى الصَّلَاةِ فِي الظُّلَمِ » ، الْحَدِيثُ ٥٦١ : ١٥٤/١ . وَسَنَنَ ابْنُ مَاجَةَ ، كِتَابُ الْمَسَاجِدِ ، بَابُ « الْمَثْنِ إِلَى الصَّلَاةِ » ، الْأَحَادِيثُ ٧٧٩ - ٧٨١ : ٢٥٧ - ٢٥٧/١ . (٤) كَذَا ، وَلَمْ يَجِدْ إِلَّا فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ ، فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ ، بَابُ « مَا يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدَ » ، الْحَدِيثُ ٤٦٦ : ١٢٧/١ . وَمَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ عَنْهُ .

(٥) مسلم ، كتاب المسافرين ، باب « ما يقول إذا دخل المسجد » : ١٥٥/٢ .

(٦) سنن النسائي ، كتاب المساجد ، باب « التَّوَلَّى عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ ، وَعِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ » : ٥٣/٢ . وَسَنَنَ أَبُو دَاوُدَ ، كِتَابُ الصَّلَاةِ ، بَابُ « فِيمَا يَقُولُهُ الرَّجُلُ عِنْدَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدَ » ، الْحَدِيثُ ٤٦٥ : ١٢٦/١ . وَسَنَنَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ ، ٤٩٧/٣ . وَعَنْ أَبِي حَمِيدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ : ٤٢٥/٥ . وَسَنَنَ ابْنُ مَاجَةَ ، كِتَابُ الْمَسَاجِدِ ، بَابُ « إِدْعَاءُ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ » ، الْحَدِيثُ ٧٧٢ : ٢٥٤/١ .

(٧) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب للمؤمنين ، الحديث ٧٧٣ : ٢٥٤/١ .

(٨) في المصنوعة : « عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حُسَيْنٍ ، وَالصَّوَابِ مِنَ الْمَسْنَدِ . وَالظَّرُّ تَرْبِيَةٌ » عبد الله بن حسن ، في الخلاصة .

إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى عَمَلِهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : « وَاللَّهِ ، أَغْفِرُ لِي ذُنُوبِي ، وَانْتَحَى إِلَى أَبْوَابِ رَحْمَتِكَ » ، وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى عَمَلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : « وَاللَّهِ ، أَغْفِرُ لِي ذُنُوبِي ، وَانْتَحَى إِلَى أَبْوَابِ فَضْلِكَ » (١) .

ورواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن ، وإسناده ليس بمتمصل ، لأن فاطمة بنته الحسين الصغرى لم تذكره فاطمة الكبرى (٢) » .

فهذا الذكر ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك حال الطلوع (٣) ، كله داخل في قوله تعالى : (يَوْمَ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ) .

وقوله : (ويذكر فيها اسمه) ، أى : اسم الله ، كقوله : (يا بَنِي آدَمَ ، خُلُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ (٤)) ، وقوله : (وَأَقِيمُوا وَجْهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٥)) ، وقوله : (وَأَنْ لِلْمَسْجِدِ اللَّهُ فَلَا لَدُوحَا مَعَ اللَّهِ أَجْمَلًا (٦))

قال ابن عباس : (ويذكر فيها اسمه) ، يعنى : يثني فيها كتابه (٧) .

وقوله : (يسبح له فيها بالغنود والآصال) ، أى : في البُكْرَات والمُعَشِيَّات والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعنى بالغنود صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال صلاة العصر ، وهما أول ما اغترس الله من الصلاة ، فاحب أن يذكرهما وأن يذكرهما جميعاً عبادة (٨) .

وكذا قال الحسن ، والضحك : (يسبح له فيها بالغنود والآصال) ، يعنى : الصلاة .

ومن قرأ من القراءة : (يُسَبِّحُ له فيها بالغنود والآصال) (٩) - يفتح لهما من (يُسَبِّحُ) ، على أنه مبنى لا لم

(١) مسند الإمام أحمد : ٧٨٢/٦ .

(٢) تحفة الأحوذى : أبواب الصلاة : باب « ما جاء ما يقول عند دخوله المسجد » ، الحديث ٣١٣ : ٢١٤ : ٢٥٢/٢ - ٢٥٥ . وسنن ابن ماجه : باب « لقائه عند دخول المسجد » ، الحديث ٧٧١ : ٢٥٣/١ - ٢٥٤ .

(٣) في المنار : « هذا القول » . ولعل الصواب ما أفتناه .

(٤) سورة الأعراف : آية : ٣١ .

(٥) سورة الأعراف : آية : ٢٩ .

(٦) سورة الجين : آية : ١٨ .

(٧) تفسير الطبرى : ١١٢/١٨ .

(٨) تفسير الطبرى : ١١٢/١٨ .

(٩) انظر هذه القراءة في تفسير الطبرى : ١١٢/١٨ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٤٥٧/٦ .

هذا ويجوز لما شهد جماعة الرجال ، بشرط أن لا تؤذى أحداً من الرجال بتطوُّر ذنبة ولا ربح طيبه ، كما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمنوا إمام الله مساجد الله » (١) ، رواه البخاري ومسلم ، ولأحمد وأبو داود : « ويؤتى خير لمن (٢) » ، وفي رواية : « وليخرجن وهن ثيابلات (٣) » ، أي : لا ربح لمن .

وقد ثبت في صحيح مسلم ، عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تحس طيباً » (٤) .

وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن للبحر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ، ما يخرقن من الفلنس (٥) .

وفي الصحيحين أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنهن المساجد ، كما مضت نساء بني إسرائيل (٦) .

وقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، كقوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٧)) . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، فاسسوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٨)) .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ، وملاذ بيعتها ورجعها ، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنهم بما بأيديهم ، لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق ، ولما قال : (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) ، أي : يقدمون طاعته وسركه ومحبه على مرادهم وصحتهم .

(١) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب « هل حل من لم يشهد الجمعة فصل من النساء والصبيان » : ٧/٢ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « خروج النساء إلى المساجد » إذا لم يترتب عليه فتنة . . : ٣٢/٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٧٦/٢ ، ٧٧ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما جاء من خروج النساء إلى المساجد » ، الحديث ٥٦٧ : ١٥٥/١ .

(٣) مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٤٣٨/٢ ، ٤٧٥ ، ٥٢٨ . وعن زيد بن خالد الجهني : ١٩٢/٥ - ١٩٢ . وعن عائشة رضي الله عنها : ٦٩/٦ - ٧٠ . وسنن أبي داود ، في الكتاب والباب المختصين ، الحديث ٥٩٥ : ١٥٥/١ .

(٤) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « خروج النساء إلى المساجد » : ٣٣/٢ .

(٥) البخاري ، كتاب المروائيت ، باب « فضل صلاة القبر » : ١٥١/١ . وكتاب الأذان ، باب « سرعة انصراف النساء من الصبح » وقلة مقامهن في المسجد : ٢٢٠/١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب التبكير بالصبح » : ١١٨/٢ - ١١٩ . والفلنس : بفتحة نين : ظلمة آخر الليل .

(٦) البخاري كتاب الأذان ، باب « انتظار الناس قيام الإمام العالم » : ٢١٩/١ - ٢٢٠ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « خروج النساء إلى المساجد » . : ٣٣/٢ .

(٧) سورة المنافقون ، آية : ٩ .

(٨) سورة الجمعة ، آية : ٩ .

قال هشام : عن سفيان : حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق ، حيث لودى بالصلاة ، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (١)) .

وهكذا روى حمزة بن دينار القشيري (٢) ، عن سالم (٣) ، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلة : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) - رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني ، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا عبد الله بن عيسى ، حدثنا أبو عبد رب قال : قال أبو الورداء رضي الله عنه : إني قست على هذا النرج أباح عليه ، أو يبيع كل يوم للأمانة دينار ، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد ، أما إني لا أقول : (إن ذلك ليس بحلال) ، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .

ولقد عمرو بن دينار الأحمري : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فرأوا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة ، وغضبوا معهم (٤) ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس منها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، ثم قال : هم هؤلاء .

وكذا قال سعيد بن أبي الحسن ، والضمحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها .

وقال مطر الزرقاني : كانوا يبيعون ويشتررون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه ، وأقبل إلى الصلاة .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ، يقول : عن الصلاة المكتوبة . وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .

وقال السدي : عن الصلاة في جماعة .

وعن مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها ، وما استحضروهم الله فيها

(١) تفسير الطبري : ١١٣/١٨ .

(٢) في التلخيص ٣٠/٨ : عمرو بن دينار البصري ، أبو يحيى الأحمري ، قهرمان آل الزبير ، وفي الجرح لابن أبي حاتم ٣٣٢/١/٣ : قهرمان آل الزبير ، ويقال : وكيل آل الزبير . والقهرمان في اللغة : القائم بأمر الرجل ، وهو فارس مرموق .

(٣) في تفسير الطبري ١١٣/١٨ : من سالم بن عبد الله أنه نظر . ومعنى ذلك أن الأمر من سالم . ويبدو أن الصواب ما هنا ، بدليل ما في الرواية به : (وقال ابن عمر) .

(٤) أي : خطره .

وقوله : « يخافون يوماً وظلهم فيه القلوب والأبصار » ، أى : يوم القيامة الذى تنقلب فيه القلوب والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأحوال ، كما قال تعالى : « ولأنهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كالطين (١) » ، وقال تعالى : « إنا يخفونهم ليرمى شخص في الأبصار (٢) » ، وقال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتباً وأسيراً » ، إنا نعلمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً هيوماً قهطريداً . نواقم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نصرة وسروداً ، وجزاهم عما صعدوا جنة وسريداً (٣) ،

وقال هاهنا (ليجزيم الله أحسن ما عملوا) ، أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله ١ (ويزيلهم من فضله) ، أي : ينزله عنهم الحسن ويضعفه لهم ، كما قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) . وإنَّ ثلث حسنة يصاحبه ، ويؤتمن من لده أجر عظيماً^(٢)) ، وقال تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها^(٣)) ، وقال : من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة^(٤)) ، وقال : (والله يصاحف المحسنين^(٥)) ، كما قال هاتين : (والله يوزن من يشاء بنصر حساب) .

وعن ابن مسعود : أنه جرى بين فريضة على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود وكان مفطراً فشربه ، ثم تلا قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ أَوْ بِهْوَاشٍ أَوْ غَسَقِ الْأَعْيُنِ أَوْ مُصْرَقَاتٍ لَّيْلًا وَلَا نَهَارًا) ، رواه النسائي ، وابن أبي حاتم ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عنه .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت : يُسمع الخلائق : سيبلغ أهل الجحيم من أولى بالكرم ، يُقيم للمؤمنين لأتاهم تجارة ولا يخرج من ذكر الله . فيقومون وهم قليل ، ثم عاتب سائر الخلائق » (٨) .

وروى الطبراني ، من حديث بقية ، عن إسماعيل بن عبد الله الكلبي ، عن الأعشى ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليؤتيهم أجورهم ويؤتيهم من فضله) ، قال : أجورهم يؤتيهم الجنة ، ويؤتيهم من فضله الشفاعة لمن حجت له الشفاعة ، لمن صنع لم المعروف في الدنيا .

- (١) سورة طه ، آية : ١٨ .
- (٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٢ .
- (٣) سورة الإسراء ، الآيات : ٨ - ١٢ .
- (٤) سورة النساء ، آية : ٢٥ .
- (٥) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .
- (٦) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .
- (٧) سورة البقرة ، آية : ٢٦٩ .
- (٨) أخرجه البيهقي في الدر المنثور عن هناد بن السلمي في الترجمة ، وعنه بن نصر في كتابه الصلاة ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان : ٥٢/٥ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾ أَوْ كُفِّلَتْ فِي بَحْرِ لَحْيٍ يَنْفُسُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ ۖ صَاحِبٌ ظَلَمْتُمْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَنْزَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْدِ يَدَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا لِّمَنْ نُورٌ ﴿١٠١﴾

هذان مثلاً ضربهما الله تعالى لنوحى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول « البقرة » مثلين لاريا ومائيا ، وكما ضرب لآبى فى القلوب من الهدى والملم فى « سورة الرعد » (١) مثلين مائيا وتاريا ، وقد تكلمنا على كل منها فى موضعه بما أفضى عن إعادته ، والله الحمد والملة .

فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، اللذين يحسبون أنهم على شئء من الأعمال والاحقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شئء ، فنلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام ،

والقيامة : جمع قاع ، كجار وجيرة ، وللقاح أيضا : واحد القيمان ، كما يقال : جار وجيران : وهى : الأرض المستوية للسمعة للمنطقة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الآل فأنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء يدر الساء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسب ما قصدته ليشرب منه ، فلما انتهى إليه (لم يجده شيئا) ، فذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا ، وأنه قد حصل شيئا ، فإذا واثق الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئا بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : (ولعلنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) (٢) .

وقال هاهنا : (ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب) . وهكذا روى عن أبى بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقاتبة وغير واحد .

وفى الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير بن الله . فقال : كذبتم ، ما أشك الله من ولد ، ماذا تبون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطينا فاسقا . فيقال : ألا ترون ؟ قمتم هم النار كأنها مسراب يحطم بعضها بعضا ، فيمطلقون فيثبثون فيها (٣) .

(١) انظر تفسير الآية ١٧ من سورة الرعد : ٣٦٩/٤ - ٣٧١ . وإحالاتنا هناك على الموضع الآخر فى سورة البقرة .

(٢) سورة الفرقان : آية : ٢٣ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة النساء : ٥٦/٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان : باب « معرفة طريق الروية » : ١١٤/١ - ١١٧ .

وهذا المثال مثال اللوى الجهل المركب (١) ، فاما أصاب الجهل البسيط ، وهم السخام (٢) الأشخاص الذينون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يفكرون ، فظهم كما قال تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي) - فذلك قنادة : وهو العميق - يشاء موج من فوقه موج من فوقه سمائه ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها) ، أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يفكر أى يذهب ، ولا يعرف حال من يتقدمه ، بل كما يضل في الليل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : مهم . قيل : فلان أين يذهبون ؟ قال : لا أدرى .

وقال النوف : عن ابن عباس أنه وضع الله حكمها = لا يشاء موج من فوقه موج من فوقه سمائه : أى يضل في الضلالة التي على القلب والسمع والبصر ، وهو كقول : (حتم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ، ولم يذهب عظم) ، وكقوله : (أنزلت من عند الله هواء ، وأضله الله على علم ، وعظم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا يذكرون (٣)) .

وقال أبو بن كعب في قوله : (ظلمات بعضها فوق بعض) ، فهو بالقلب في حمة من الظلم : كلاله ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومخله ظلمة ، وعجزه ظلمة ، ومبصره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار .
وقال الربيع بن أنس ، والسدس في ذلك أيضاً .

وقوله : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) ، أى : من لم يجد الله فهو كالكافر الجاهل بغير نور ، كما قال تعالى : (من يضل الله فلا هادي له) ، وهذا مقتبأ ما قاله في مثل الزمخشري : (جعل الله النور على من يشاء) ، فسلك الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، ونحن ابنا لنوراً ، ونحن ضالوك لنوراً ، ونحن عظم لنوراً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَصْخِرُ لِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَيْرِ عَنِ كُلِّ قَوْمٍ مِمَّا كَفَرُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
يَخْلِقُ مِمَّا يَشَاءُ مِمَّا يَخْلُقُ ۖ وَفِي ذَلِكَ لَأَنصِبُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

غير تعالى أنه يصبخه من في السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأنبياء ، والجن والإنس ، حتى الجباد ، كما قال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفهمه تسبيحهم ، إنه كان حلياً خفوا (٤)) .

(١) الجهل لومان ، أجدما ، جهل مركب ، وهو اعتقاد ما هو مخالف للواقع مع الإذعان بظلاله له ، وقيل : هم السخام من غير ادعاء له .

(٢) السخام : جمع عظم - يكثر سكوت - فكسر لطاء الثانية - وهو الذي في لسانه حجة :

(٣) تسمية الطبرى : ١١٦/١٨ .

(٤) سورة الإسراء : آية : ٤٤ .

وقوله : (والطير صافات) ، أى : فى حاك طيرها ، تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألقها وأرشدنا إله ، وهو يعلم ما هي فاعلة ، ولهذا قال : (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله عز وجل ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ولهذا قال : (والله علم بما يعملون) .

ثم أخبر تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم للتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله للعبود الذى لا تنفى العبادة إلا له ، (وإلى الله المصير) ، أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ، (ليجزى الذين أسأوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (١) ، فهو الحاكم للملك ، ألا له الحكم فى الدنيا والآخرة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْسِلُ فِي سُبُلِهِ مَن يُولِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكُونُ رِقًا لِّكُلِّ الْكَافِرِ ۚ وَاللَّهُ الْبَصِيرُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝

يذكر تعالى أنه يقره يسوق السحاب أول ما ينشئها وهي خفيفة ، وهو الإجزاء ، (ثم يؤلف بينه) ، أى : يجمعهم بعد تفرقه ، (ثم يجعلهم ركاماً) ، أى : متراكماً ، أى : يركب بعضهم بعضاً ، (ترى الودى) ، أى : للطر (يخرج من خلاله) ، أى : من حركته ، وكلما قرأها ابن عباس (٢) والفسحاك .

قال حيد بن عمر الرازي : يبعث الله للثيرة فتقسم الأرض قسماً (٣) ، ثم يبعث الله الناشئة فتدعى السحاب ، ثم يبعث الله للؤلؤة فتدعى بهن ، ثم يبعث الواقع فتلحق السحاب . رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير (٤) ، رحمهما الله .

وقوله : (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) - قال بعض النحاة : (من) الأولى لاجتماع الغاية ، والثانية للتبويض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يحى على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : (من جبال فيها من برد) ، معناه : أن فى السماء جبالاً برء ينزل الله منها البرد . وأما من جبل الجبال هاهنا عبارة (٥) عن السحاب ، فإن من : الثانية عند هذا لاجتماع الغاية أيضاً ، لكنها بذلك من الأولى ، والله أعلم (٦) .

(١) سورة النجم ، آية : ٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٨ / ١١٨ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٦ / ٤٦٤ .

(٣) أى : تكتسبها ككتماً .

(٤) تفسير الطبرى : ١٨ / ١١٨ .

(٥) فى المخطوطة : « هاهنا عبارة ككفاية » .

(٦) انظر البحر المحيط : ٦ / ٤٦٤ - ٤٦٥ .

وقوله : (فيصيب به من يشاء ويصرفه من يشاء) ، يحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) ، أى : ما يترك من السماء من نوى البرد والمطر ، فيكون قوله : (فيصيب به من يشاء) ، وحيمة لم ، (ويصرفه من يشاء) ، أى : يؤثر عنهم الغيث .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (فيصيب به) ، أى : بالبرد نقمة على من يشاء ، لا فيه من أثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه من يشاء وحيمة بهم .

وقوله : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) ، أى : يكاد ضوء برقه من شدته يطفئ الأبصار إذا أتبعته وتراكمته (١) .

وقوله : (يقلب الله الليل والنهار) ، أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يتبدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا ، فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلاً : والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وهزته وعلمه .

(إن في ذلك لبرهة لأولى الأبصار) ، أى : للدليل على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : (إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، آيات لأولى الأبصار (٢)) ، وما يسلط من الآيات الكريمات .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِمَّنْ يَمْشِي عَلَى سَاقَيْنِ وَبَعْضٌ مِنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، في خلقه أنواع [المخلوقات] ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، (فمنهم من يمشي على بطنه) ، كالحية وما شاكلها ، (ومنهم من يمشي على رجلين) ، كالإنسان والطير ، (ومنهم من يمشي على أربع) ، كالأنعام وسائر الحيوانات . ولهذا قال : (يخلق الله ما يشاء) ، أى : بقدرته ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال : (إن الله على كل شيء قدير) .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم (٢) والأمثال البينة المحكمة ، كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى نفعها ونهاها إلى الآليات والبصائر والنهي ، ولهذا قال : (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) .

(١) في المخطوطة : « وإذا أتبعته وأرادته » . والمثبت عن الطبقات السابقة .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٩٠ .

(٣) في المخطوطة : « من الحكم والحكم والأمثال » . فسلطنا « والحكم » .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ الْحَقُّ بِآتَاوَا إِلَى اللَّهِ فَالْيَوْمِئِذٍ أَقْبَلُوهُمْ مَرْضًا أَمْ أَرْتَابُوا أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٧٠﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٧١﴾

عبر تعالى عن صفات المتأقين ، الذين يظهرون خلاف ما يظنون ، يقولون قولاً باللسان ، (نسأ بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك) ، أى : يخالفون أقوالهم بأفعالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال تعالى : (وما أولئك بالمؤمنين) .

وقوله : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) ، أى : إذا طلبوا إلى اتباع الحق ، فيما أولاه الله حل رسوله ، أمرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه ، وعلمه كقولهم : (لم تر إلى الذين يظهرون أنهم آمنوا بما أولاه إليك وما أولاه من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت) ، وقد أمروا أن يتكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ، وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أولاه الله وإلى الرسل رأيت المتأقين يصدون عنك صلوفاً (١) .
وفى الطبراني من حديث روح بن حطاء بن نجيمولة ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعاً : « من دعى إلى سلطان فلم يذهب ، فهو ظالم لا حق له » (٢) .

وقوله : (وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ الْحَقُّ بِآتَاوَا إِلَى اللَّهِ فَالْيَوْمِئِذٍ أَقْبَلُوهُمْ مَرْضًا) ، أى : إذا كانت الحكومة لم لا عليهم ، جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله : (ملتحين) ، وإذا كانت الحكومة عليه أمرضوا ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ليروج باطله ثم : فإذا كانه أولاً لم يكن من اعتقاده أنه ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لغواه ، ولهذا خالف الحق فصد ، عدل عنه إلى غيره ، ولهذا قال تعالى : (أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ فَرِيقٌ يَمُرُّونَ بِهِمْ لَمَّا دُعُوا إِلَى اللَّهِ فَاذْهَبُوا عَنْهُ لَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) ، أى : قلبيهم مرض أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) ، يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد مرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ! وأما ما كان فهو كفر محض ، والله عالم بكل منهم ، وما هو عليه منظر من هذه الصفات .

وقوله : (بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، أى : بل هم الظالمون الظالمون ، والله ورسوله مرآن بما يظنون ويظهرون من الخيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك

(١) سورة النساء : آية ٦٠ ، ٦١

(٢) القدر المتصور من الطبراني : ٥٤/٥ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل (١) ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جئ أذن ، وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان ، فأورد الله هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان بينه وبين أخيه شيء ، فدعى إلى حكم من حكم المسلمين فإني أنجيب ، فهو ظالم لا حق له » .

وهذا حديث غريب وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفات المؤمنين المستجيبين لله ورسوله ، الذين لا يقولون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) ، أي : سماعاً وطاعةً ولهذا وصفهم تعالى بالصلاح ، وهو ليل للطلوب والسلامة من المروء ، فقال : (وأولئك هم المفلحون) .

وقال قتادة في هذه الآية : (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) : ذكر لنا أن عبادة بن الصامت -- وكان عقيباً (٢) بدياً ، أحد نفاة الأنصار -- : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية (٣) : ألا أتيتك بماذا عليك ومآذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، في عسرك ويسرك ، ومتنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقم لسانك بالمدل ، وأن لا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمرك بمعصية الله بهوآحا (٤) ، لما أمرت به من شيء . يخالف كتاب الله ، فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة : وذكر لنا أن أبا البرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة ، والصيحة لله ولرسوله ، والخليفة للمؤمنين عامة .

قال : وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب -- رضي الله عنه -- كان يقول : حُروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاء الله أمر للمسلمين ،

رواه ابن أبي حاتم . والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله [وسنة رسوله ، والخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله] كثيرة جداً ، أكثر من أن نحصر في هذا المكان .

وقوله : (ومن يطع الله ورسوله) ، أي : فيما أمره به وترك ما نهاه عنه ، (ويخش الله) فيما مضى من ذنوبه ، (ويخشه) فيما يستقبل .

(١) وهو أبو سلمة موسى بن إسماعيل المنقري ، متروك في الجرح ١٣٦/١/٤ ، ومبارك هو ابن لقمان ، متروك في الجرح أيضاً : ٣٣٨/١/٤ .

(٢) أي : أنه شهد بيعة العقبة وبعثاً . وفي العبارة -- وهي جئ -- كان بهد لفظ الأنصار برسول الله عليه الصلاة والسلام . وفيه شهد بمادة بين الصلوات العتبية الأولى والثانية . انظر سير ابن هشام : ٤٣١/١ ، وأسد الغابة : ١٦٠/٣ - ١٦١ . بتحقيقنا .

(٣) كذا ، والتي نرفعه أن جنادة بن أبي أمية دوسى وليس بأبن أخيه . انظر أسد الغابة : والجرح والتعديل لابن أبي حاتم . ٥١٥/١/١ .

(٤) معنى تفسير هذه الكلمة في : ٣٥١/٢ .

وقوله : (فأولئك هم الفالوون) ، أى : الذين فازوا بكل خير - وأستوفوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ أَنْ أَمْرَهُمْ لَيُخْرِجَنَّ قُلَّ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفٍ إِنَّ اللَّهَ سَخِرَ بِمَا كَانُمْ يَعْمَلُونَ ﴾ قُلْ أَمِلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلُ وَطْعِكُمْ مَا كَانُمْ لَكُمْ وَإِنْ طِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥﴾

يقول تعالى خبراً عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم : لئن أُمِرهم بالخروج ليخرجن ، قال الله تعالى : (قل : لا تقسموا) ، أى : لا تحلفوا .

وقوله : (طاعة معروفة) ، قيل : معناها طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد حكمت (١) طاعتكم . إنما قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كلتم ، كما قال تعالى : (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم ، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) (٢) وقال تعالى : (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون) (٣) ، فهم من سجيبتهم الكلب حتى فيما يخافونه ، كما قال تعالى : (ألم تر إلى الذين ناقضوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم ليخرجن معكم ، ولا يطع فيكم أحداً أبداً ، وإن قولكم لتنصروكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأديار ثم لا ينصرون) (٤) .

وقيل : أى : فى قوله : (طاعة معروفة) ، أى : ليكن أَمْرُكم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

(إن الله يخبر بما تعملون) - أى : هو خير بكم وبن يطيع من يبعث . فالخلف وإظهار الصراحة - والباطن خلافه ، وإن راج على المخلوق - فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى . لا يروج عليه شئ من الكذابين . بل هو خير بكمائير جهاده ، وإن أظهرها خلافها .

ثم قال تعالى : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ، أى : اتبعوا كتاب الله وسمعه رسوله .

وقوله : (فإن تولوا) ، أى : تنزلوا عنه وتركوا ما جاءكم به ، (فإنما عليه ما حمل) ، أى : بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، (وعليكم ما حملتم) ، أى : من ذلك وتنظيمه وإتيان مقتضاه ، (وإن طيعوه تهتدوا) ، وذلك لأنه ينهر إلى صراط مستقيم (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) (٥) .

(١) فى المخطوطة : (وقد طمعت طاعتكم) . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) سورة النقرة : آية ٩٦ .

(٣) سورة المنافقون : آية ٢ .

(٤) سورة الحشر : آية ١١ ، ١٢ .

(٥) سورة القصص : آية ٣٠ .

وقوله : (وما عل الرسول إلا البلاغ للذين) كقولہ : (فإنما عليك البلاغ ، وعليها الحساب) (١) ، وقوله : (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بصيطر (٢)) :

وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له : شيعا - أن قم في بني إسرائيل فإني سأطلق لماتك بوحى . فقام فقال : يا مباد اسمي ، ويا أرض أنصني ، فإن الله يريد أن يقضى شأنك وينبر أمرا هو مظهده ، إنه يريد أن يحول الريف إلى القلعة ، والأجرام (٣) في الشيطان ، والآثار في الصحارى ، والثمة في القفر ، والملك في الرعاة ، ويريد أن يعث أميا من الأمين ، ليس يفظ ولا خليظ ولا مستخاب (٤) في الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكيتة ، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه : أبشع مبيشرا وتبرأ ، لا يقول الخفا (٥) ، أفتح به أعينا حيا . وأذا صبا ، وقلوبا خلفا ، وأسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجمل السكينة لباسه ، وأبر شعاره ، وأقوى ضميره ، والحكمة متعلقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والشفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأهدم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخلالة (٦) ، وأعرف به [بعد] التكررة ، وأكثر [به] بعد القلة ، وأضي [به] بعد العميلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأولف به بين أسم متفرقة ، وقلوب غفلة ، وأهواه مشتتة ، وأستقده به ظما (٧) من الناس عظيما من الحكمة ، وأجمل أمة خير أمة أخرجت للناس ، بأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدون مخلصين ، مصدقون بما جاءت به رسل . رواه ابن أبي حاتم (٨) ،

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

هذا وعد من الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأنه سيجعل أمة عطفاء الأرض ، أي : أمة الناس والولاة عليهم ، وهم تصلح البلاد ، وتخضع هم العباد ، وليبذل لهم من الناس أمتا وحكما لهم ، وقد فعل بإبراهيم وإسماعيل

(١) سورة الرعد ، آية ٤٠ .

(٢) سورة الفاتحة ، آية ٢١ ، ٢٢ .

(٣) الأجرام - جمع أجمة - بفتح الحزة والهمزة - وهي : النجم الكبير الملتصق . والنيلان : جمع غافق ، وهي الأرض المنجية .

(٤) المستخاب والمخبط : المشقة . والمخطرب : الأصوات المتصنام .

(٥) الخفا : الفصح في القول .

(٦) يقال : خل ذكره خلوا غنى ، شد له . وهذا المصدر وهو خالة - بفتح الخاء - أخته أهل الأندلس ، وقالوا هو مثل : كرم كرامة . وأخته القاصي حياض في إثباته حل هذا الأثر . وزعم بعض العلماء أنه لما كانت : الضلالة ، والجهالة . وصوبه الزيد في تاج اللروس ، وقال : لإيطيقهم حل أنه من حد نصر . يعني أنه ما فيه بفتح السين ، لا من باب كرم .

(٧) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٢٦٠/٢ ، ٤١٥ .

(٨) أخرجه القاصي حياض في لفهاف من عهد الله بن سلام وكتب الأحيار : ٩٤/١ .

ذلك، وله الحمد والمئة فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مسجوس حبيّر، ومن بعض أطراف الشام، وحاداه هرقل ملك الروم وصاحبه مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي عمّلك بعد أصبحت، رحمه الله وأكرمه، ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فكتم حشمت ما وقى (١) عند موته - عليه الصلاة والسلام - وأطعد (٢) جزيرة العرب ومهدا، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس وصحبة خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجبنا كسر صحبة أبي عبيدة - رضى الله عنه - ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشاى في أيامه بضميرى ودمشق وسخايليفها من بلاد حوران وما والاها، وترواه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة: ومن على الإسلام وأهله بأن أتم الصديق أن استخلف عمر القاروق، فقام في الأمر بعده فيما نأما، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله: وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسّر كسرى وأهان غايه الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصّر قصره، والتزع بدنه من بلاد الشام فأنشأ إلى قسطنطينية، وأنفق أموالها في سبيل الله، كما أنشأ بذلك وهد به رسول الله، عليه مع ربه أتم سلام ولزكي صلاة.

ثم لما كانت الدولة (٣) العباسية امتلكت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب (٤) إلى أقصى ما هناك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القبروان، وبلاد سبينة، إلى البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصبغ، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وغراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخلع الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبى الخراج من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه: وذلك بركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن. ولهذا ثبت في الصحيح من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلع ملاشامى ما زوى لي منها (٥): فيها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله فسال الله الإيمان به، ورسوله، والقيام بشكره على الوجه الذى يرشيه عنا.

قال الإمام مسلم بن الحجاج: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن حمير، عن جابر بن سميرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يزال أمر الناس ما ضيا ماويلهم اثنا عشر رجلا. لم تكلم

(١) يريد قصاده - رضى الله عنه - على الردة - وإعادة القبائل إلى حظيرة الدين.

(٢) أى: تيتها وقواها.

(٣) يريد خلافة عثمان رضى الله عنه. هذا والمؤرخون قد اصطلموا على أن يطلقوا لقب الدولة العباسية على دولة الأتراك العباسيين.

(٤) لم تبلغ فتوحات الإسلام في عهد عثمان - رضى الله عنه - هذا المبلغ، فقد تم ذلك كله في عهد بنى أمية، وكمل المفسر حتى ذلك.

(٥) تقدم الحديث في ٣/٢٦٨ و ٤/٧٨، وعرجناه هناك، وشرحناه غريبه.

النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة تخفيت عني (١) فسألت أبي : ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كلهم من قريش (٢) .

ورواه البخاري من حديث شعبة ، عن عبد الملك بن عمار ، به (٣) .

وفي رواية لمسلم (٤) أنه قال ذلك حشة رجم ماعز بن مالك ، وذكر معه أسانيد أخر .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من [وجود] حشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الإثني عشر ، فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء ، فأما هؤلاء فلإهم يكونون من قريش ، يكونون يهبطون ، وقد وقعت الإشارة بهم في الكتب المقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متباينين ، بل يكون وجودهم في الأمة متبايناً ومضيقاً ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء . وهم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي وعلى الله عنهم ، ثم كانت بعدهم (٥) فمرة ، ثم وجد منهم ما شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقي في وقت يطعمه [الله] ومنهم المهدي الذي يطابق اسمه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنيته ككنيته ، عاد الأرض عدلا وقسطاً ، كما ملئت جوراً وظلماً .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من حديث سعيد بن جهمان ، عن سكيبة - مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم] قال : « الخلافة بعدني ثلاثين سنة ، ثم تكون ملكاً حضوفاً » (٦) .

وقال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية في قوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وهماوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ولينبئنهم من بعد خوفهم أمناً) الآية ، قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هكذا نحواً من عشر سنين ، يداخون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له ، صراً وهم خائفون . لا يأمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسسون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فتغيروا بذلك (٧) ما شاء الله ، ثم إن رجلاً من أصحابه

(١) في الصحيح : « خفيت علي » .

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « الناس تبع لقريش » : ٣/٦ .

(٣) البخاري ، كتاب الأحكام ، باب « الاستخلاف » : ١٠١/٩ .

(٤) مسلم ، في الكتاب والباب المتضمنين : ٤/٦ .

(٥) في المخطوطة : « ثم كانت بعدهم فترة بينهم » . فملأنا كلمة ب « بينهم » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٢٠/٥ - ٢٢١ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « في الخلافة » ، الحديث ٤٦٦٦ - ٤٦٦٧/٤ . وثقة الأحرشي ، أبواب الفتن ، باب « ما جاء في الخلافة » ، الحديث ٢٣٢٦ - ٢٣٢٧/٦ - ٤٧٨ . وقال الترمذي ، « هذا حديث حسن » قد رواه غير واحد من صيه بن جهمان ، ولا نكره إلا من حديثه .

هذا ، ولم ترد في المسند ، ولا سنن أبي داود والترمذي - لفظه « حضروا » . وملك حضوض : ظالم ، يستبد بالبيعة ويتكلم بهم .

(٧) أي : مكتوا على هذه الحال ، وقد وردت كلمة « تغيروا » في المخطوطة حيث لقط . وفي التوريشور : « تغيروا » ، بالياء المختارة .

قال : يا رسول الله ، أريد الله نحن غافقون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نؤمن فيه ونضع هذا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تغفروا إلا بغيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتيا (١) ليست فيهم حديدة ، وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأتىهم ووضعوا السلاح . ثم إن الله - عز وجل - قبض نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقوا غيا وقروا (٢) ، فأدخل عليهم الخوف (٣) فأتوا بالجزرة (٤) والشرط وعفروا ، فغير (٥) بهم .

وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - حتى في كتابه ، ثم تلا هذه الآية ،

وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن في خوف شديد :

وهذه الآية الكريمة كقولها تعالى : (واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس ، فلواكم وأيدكم بنصره ، ووزقكم من الطيات لعلكم تفكرون) (٦) ،

وقوله : (كما استخلف الذين من قبلهم) ، كما قال تعالى من موسى عليه السلام أنه قال لقومه : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (٧) ، وقال تعالى : (وتريد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ويجعلهم الولاين : ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحسدون) (٨) ،

وقوله : (وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا) ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم ، حين وفد عليه : أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أهرها ، ولكن قسمت بها . قال : فوالذي نفسى بيده ، ليؤمنن الله هذا الأمر حتى تخرج الظبية (٩) من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتضمن كنوز كسرى بن هرمز : قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، وليبدكن المال حتى لا يقبله أحد : قال عدى بن حاتم : فهذه الظبية تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فحين التفتحت كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها (١٠) ،

(١) الاحياء : أن يفهم الإنسان وجليه إلى بقلته بنوع ، يحسها به مع قلوه ، ويحده عليها .

(٢) بعد في الدار المنشور : وذكروا النعمة .

(٣) بعد في الدار المنشور : والى كان وقع منهم .

(٤) كذا في المخطوطة ، ولعله يعني جمع ساجز ، وهو الذي يسجز منك ، ويمنع منك فرك . وفي الدار المنشور : والخبر : جمع سيرة .

(٥) قدر المنشور من حيد بن حديد وابن أبي حاتم : ٥٥/٥ .

(٦) سورة الأنفال ، آية : ٢٦ .

(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .

(٨) سورة القصص ، آية : ٢٥ .

(٩) الظبية : المرأة .

(١٠) انظر البخاري ، كتاب المناقب ، باب : علامات النبوة في الإسلام : ٢٣٩/٤ - ٢٤٠ . ومطبعة الأحوزي ، تفسير

سورة الفاتحة ، الحديث ٤٠٢٩ - ٢٨٦/٨ - ٢٨٩ . ومسنود الإمام أحمد : ٢٥٧/٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبي سلمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بشر هذه الأمة بالسوء والرهبة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب » (١) .
وقوله : « يعبدون » لا يشركون شيئا ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا وحيث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا آخرة (٢) الرجل ، قال : « يا معاذ . قلت : لبيك يا رسول الله وصعد بك : قال : ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ بن جبل : قلت : لبيك يا رسول الله وصعد بك : ثم قال : يا معاذ بن جبل : قلت : لبيك يا رسول الله وصعد بك : قلت : الله ورسوله أعلم . قال [فلان] حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا : قال : ثم سار ساعة : ثم قال : يا معاذ بن جبل : قلت : لبيك يا رسول الله وصعد بك : قال : لهل تندي ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : [فلان] حق العباد على الله أن لا يعظم » (٣) .

أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة (٤) .

وقوله : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ، أى : من جرح عن طاعة بعد ذلك فقد فسق من أمر به وكفى بذلك ذنباً عظيماً ، فالصحابة ، رضى الله عنهم - لما كانوا أقوم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر الله عز وجل ، وأطوعوا لله - كان نصهم بحسبهم ، أظهر وأكلمة الله في المشرق والمغرب ، وأباهم تأييداً عظيماً ، وتحكموا في سائر العباد والبلاد . ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد لبث في الصحيحين ، من خبر وجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم القيامة » . وفي رواية : « حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك » . وفي رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » . وفي رواية : « حتى يزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون » (٥) . وكل هذه الروايات صحيحة ، ولا تمارض بينها .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٣٤/٥ .

(٢) آخرة الرجل - بعد الهزلة - : الخشية التي يستند إليها الراكب من كور البير .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٤٢/٥ .

(٤) البخاري : كتاب الجاس ، باب « وإدخال الرجل خلف الرجل » : ٢١٨/٧ . ومسلم : كتاب الإيمان ، باب « ومن لم يؤمن بالله » : وهو غير شك ، دخل الجنة وحرم حل النار » : ٤٢/١ .

(٥) البخاري : كتاب الاعتصام ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ... » : ١٢٤/٩ - ١٢٥ . وكتاب التوسيع ، باب قول الله تعالى : « (إنما قولنا لئلا) » : ١٦٦/٩ - ١٦٧ . ومسلم : كتاب الإيمان ، باب « ونزل موسى ابن مريم حاكماً بشرية فبينما محمد صلى الله عليه وسلم : ٩٥/١ . وكتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ... » : ٢/٦ - ٥٤ . وسنن أبي داود : كتاب الفتن ، باب « ذكر الفتن ودلائلها » : الحديث ٤٢٥٢ . ٩٨ - ٩٧/٤ . وكتاب الجهاد ، باب « في دوام الجهاد » : الحديث ٢٤٨٤ : ٤/٣ . وتحفة الأسوذي : أبواب الفتن ، باب « ما جاء في الإمامة المصلين » : الحديث ٢٣٣٠ - ٤٨٣/٦ - ٤٨٤ . وابن ماجه : المقدمة ، الأحاديث ٦ : ٩٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ . ومسند الإمام أحمد من معاوية بن أبي سفيان : ٩٣/٤ - ٩٩ . وعن سلمة بن كهيل : ١٠٤/٤ . وعن المنيرة ابن شعبة : ٢٤٤/٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ . وعن عمران بن حصين : ٤٢٩/٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ . وعن أبي أمامة : ٢٦٩/٥ . وعن ثوبان : ٢٧٨/٥ ، ٢٧٩ .

جذاج بعدهن) ، أى : إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إن راوا شيئاً في غير تلك الأحوال ، لأنه قد أخذ لهم في المجرم ، ولأنهم (طوافون) عليكم ، أى : في الخدمة وغير ذلك . ويقتصر في الطوافين مالا يقتصر في غيرهم . ولما رَوَى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المرأة : «إنها ليست بنت جنس» ، إنها من الطوافين عليكم ، أو : والطوافات (١) :

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً ، أنكر عبد الله بن عباس ذلك عمل الناس ، كما قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثني عبد الله بن طيبة ، حدثني عطاء بن دينار ، عن حميد ابن جبير قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : (يا أيها الذين آمنوا ، ليستأنذكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يفلتوا الحليم) إلى آخر الآية ، والآية التي في سورة النساء : (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فازدوهم منه) ، والآية التي في الحجرات (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وروى أيضاً من حديث إسحاق بن مسلم - وهو ضعيف - عن عمرو بن دينار ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : (يا أيها الذين آمنوا ليستأنذكم الذين ملكت أيمانكم) ، إلى آخر الآية .

وقال أبو داود : حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة - وهذا حديثه - أخبرنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإنني لأمر جاربي هذه لتأذن على .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء ، عن ابن عباس يأمر به (٢) .

وقال الثوري ، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي : (ليستأنذكم الذين ملكت أيمانكم) ، قال : لم تنسخ . قلت : فإن الناس لا يعملون بها ؟ فقال : الله المستعان (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عمرو بن أبي حصرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عودت إلى أمر الله بها في القرآن ، فقال

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب «سور المرأة» ، الحديث ٧٥ ، ١٩/١ - ٢٠ . ونجدة الأحول ، أبواب الطهارة ، باب «ما جاء في سور المرأة» ، الحديث ٩٢ : ٣٠٧/١ - ٣١٢ ، وقال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح» . والنسائي ، كتاب الطهارة ، باب «سور المرأة» : ٥٥/١ ، وكتاب المياه ، باب «سور المرأة» : ١٧٨/١ . وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب «الوضوء بسور المرأة والرخصة في ذلك» ، الحديث ٣٦٧ : ١٣٠/١ - ١٣١ . ومستند الإمام أحمد من أبي قتادة : ٢٩٦/٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب «الاستئذان في المودعات الثلاث» ، الحديث ١٩١ : ٣٤٩/٤ . وفي البئر المشهور ٥٦/٥ زيادة وهي : «وإنني لأمر جاربي هذه - بخارية قصيرة قائمة حل رأسه - أن تتأذن على» .

(٣) تفسير الطبري : ١٢٤/١٨ - ١٢٥ .

ابن عباس : إن الله سبّح بحج السر ، كان الناس ليس لهم ستور على أيوبهم ولا حِجَال (١) في بيوتهم ، فربما فاجأ الرجل صاحبه أو ولده أو يتيمة في حجره ، وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنا في تلك العورات التي سمي الله . ثم جاء الله بعد الستور ، فغطوا عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به (٢) .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود ، عن القعقي ، عن الدراودي ، عن عمرو بن أبي حمزة (٣) به .

وقال السدي : كان أناس من الصحابة - رضى الله عنهم - يحبون أن يؤتقوا نساءهم في هذه الساعات ، فيفسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة . فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والعلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا - والله أعلم - أن رجلا من الأنصار وامرأته أمياه بنت مرثدة صنعا النبي صلى الله عليه وسلم طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن . فقالت أمياه : يا رسول الله ، ما أليح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها ، وهذا في ثوب واحد ، غلامها بغير إذن ! فأقر الله في ذلك : (يا أيها الذين آمنوا ، ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم) الآية .

وما يدلك على أنها بحكمة لم تسخ ، قوله : (كذلك بين الله لكم الآيات ، والله علم حكيم) .

ثم قال تعالى : (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) ، يعنى إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانهم وإله الأخوال التي يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير : إذا كان الغلام رباعيا (٤) فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبيه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير .

وقال في قوله : (كما استأذن الذين من قبلهم) ، يعنى كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه ،

وقوله : (والقراعد من النساء) ، قال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان ، وقتادة ، والضحاك : هن القراني انقطع عنهن الحيض وتشن من الولد ، (الاقنى لا يرجون نكاحا) ، أى : لم يبق عن تنسج إلى التزويج ، (فليس عليهم جناح أن يضمن ثيابهن غير متبرجات بزينة) ، أى : ليس عليهن من الحجب في التستر كما على غيرهن من النساء ،

(١) الحجلة - بفتح الحاء والجيم - بيت كالحقة يسر بالثياب ، وتكون له أزرار كبار . وتجمع على حِجَال .

(٢) اللبر للستور من أبي داود ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه . والبيهي في السنن : ٥٦/٥ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « الاستئذان في العورات الثلاث » ، الحديث ٥١٩٢ ، ٢٤٩/٤ .

(٤) أى : طوله أربعة أشبار .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد الروزي ، حدثني علي بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوي ، عن حكيمه ، عن ابن عباس : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) : : الآية فسخ ، واستنى من ذلك (القواعد من النساء الثلاث لا يرجون نكاحاً) (١) : : الآية .

قال ابن مسعود : (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) ، قال : الجلباب ، أو الرداء (٢) : وكلما روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، وبجاءد ، وسعيد بن جبير ، وأبي الشعثاء ، وإبراهيم النخعي ، والحسن ، وقنادة ، والأزهري ، والأوزاعي ، وغيرهم .

وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع (٣) والحمار .

وقال سعيد بن جبير وغيره ، في قراءة عبد الله بن مسعود : (أن يضعن من ثيابهن) : وهو الجلباب من فوق الحمار ، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره ، بعد أن يكون عليها حمار صكتين .

وقال سعيد بن جبير : (غير متبرجات بزينة) ، يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، : أن يرى ما عليها من الزينة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا همام بن حبيد الله (٤) ، حدثنا ابن المبارك ، [حدثني سوار بن ميمون ، حدثنا طلحة بنت حاصم ، عن أم الفضل ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخلت عليّ (٥)] فقلت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين في الخفاف ، والثغاب ، والثغاب (٦) ، والثغاب ، والثغاب ، والخفاف ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء ، فصتن كلها واحدة ، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات ، أي : لا يحل لكن أن يروا منكن حرماً .

وقال السدي : كان شريك في يقال له مسلم ، وكان مولى لامرأة حليقة بن اليان ، فجاء يوماً إلى السوق وأثر الخنثاء في يده ، فسأله عن ذلك ، فأخبرني أنه خثفب رأس مولاته — وهي امرأة حليقة — فأنكرت ذلك ، فقال : إن شئت أدخلتك عليها ؟ فقلت : نعم . فأدخلني عليها ، فإذا امرأة جليلة ، فقلت : إن مسلماً حدثني أنه خضب رأسك ؟ فقالت : نعم ، باني ، إلى من القواعد الثلاث لا يرجون نكاحاً ، وقد قال الله في ذلك ما سمعت .

وقوله : (وأن يستغفرن خير لمن) ، أي : وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزاً غير أفضل لمن ، والله سميع علم .

(١) سنن أبي داود ، كتاب لباس ، باب في قول الله تعالى عز وجل : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) ، الحديث ٦٣/٤ : ٤١١١ .

(٢) تفسير الطبري : ١٢٧/١٨ .

(٣) الدرر : التقيص .

(٤) في المضطربة : : حاتم بن عبد الله . وما أثبتناه من المرح : ٦٧/٢/٤ .

(٥) ما بين القوسين سورة لما في مضطربة الأزهر ، ولم يتيسر لنا ضبطه لا سنداً ولا متنّاً ، ونسأل الله أن يوفقنا لضبطه فيما يستقبل ، وهو حسينا ونعم الوكيل .

(٦) ؟؟؟ ؟؟؟ ؟؟؟

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حُضُنِّكُمْ أَوْ بُيُوتِ غُلَامِكُمْ أَوْ مِمَّا لَكُمْ مَفَاحِمٌ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهَا أَوْ لِقَابُكُمْ إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَكَلِمَةٌ عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ طَيِّبَةً كَذَلِكَ يبين الله لكم: **أَلَا يَبْتَ لَكُمْ تَعْلُوتُ** ﴿١٥﴾

اختلف المفسرون - رحمهم الله - في اللفظ الذي وقع من أجله المخرج عن الأعمى والأعرج والمرضى هاهنا ، فقال هؤلاء القوم اسألوا ، وحده الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ ثلث في الجهاد ، وجعلوا هذه الآية هاهنا كالمثل في سورة الفتح (١) ، وذلك في الجهاد لا ههنا ، أي ؛ إني ؛ إني لا إثم عليكم في ترك الجهاد ، لفصيحهم وعبيرهم ، وكما قال تعالى في سورة براءة : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما يفتقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) ما حل الخسائر من سبيل الله فخور رحم ؛ ولا حل الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجلبوا ما يفتقون) .

وقيل ؛ المراد أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى ، لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما يهيه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فلهذا عليه جلوسه ، والمرضى لا يستوى من الطعام كغيره ؛ فكم هو أن يؤاكلهم لئلا يظلمهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك ؛ وهذا قول سعيد بن جبير ، ومقسم .

وقال الضحاك ؛ كانوا قبل لم يبت يخرجون من الأكل مع هؤلاء فقلوا ونكروا ، ولذا يفضلوا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال عبد الرزاق ؛ أخبرنا معمر ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله تعالى ؛ (ليس على الأعمى حرج) ؛ الآية قال ؛ كان الرجل يلجأ بالأعرج أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه ، أو بيت أخيه ، أو بيت أمته ، أو بيت صته ، أو بيت شاته ؛ فكان الثماني يتخرجون من ذلك ، يقولون ؛ إنما يلجئون بنا إلى بيوت غيرهم ؛ فنزلت هذه الآية ورخصة لم (٢) .

وقال السدي ؛ كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أمه أو أخته ، فتتحفه المرأة بالتي من الطعام ؛ فلا يأكل من أجل أن رتب البيت ليس ثم ؛ فقال الله تعالى ؛ (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم) ، إلى قوله ؛ (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) .

(١) انظر الآية ١٧ من سورة الفتح .

(٢) تفسير الطبري ؛ ١٢٩/١٥ .

وقوله تعالى : (ولا حل أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) ، إنما ذكر هذا ، وعز معارفه ، ليعلم عليه غيره في اللفظ ، وليستأديه (١) ما بعده في الحكم : وتضمن هذا بيوت الأبناء ، لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل بهذا مع ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنت ومالك لأبيك (٢) .

وقوله : (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) ، إلى قوله : (أو ما ملككم مفاتيحه) ، هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، في المشهور عنهما .
وأما قوله : (أو ما ملككم مفاتيحه) ، فقال سعيد بن جبيرة ، والسدي : هو خادم الرجل من عهده وقهرمان (٣) .
فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف ،

وقال الزهري ، عن عروة ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان المسلمون يرحبون في الشهر (٤) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلبسون مفاتيحهم إلى ضمنتهم ، ويقولون : قد أحلتنا لكم أن تأكلوا ما أحجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ، لأنهم أذنوا لنا عن غير طيبه أنفسهم ، وإنما نحن أمناه ، فأئزله الله (أو ما ملككم مفاتيحه) .

وقوله : (أو صديقكم) ، أي : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يفسد عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) - قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد : فكف الناس عن ذلك ، فأئزله الله : (ليس على الأعمى حرج) ، إلى قوله : (أو صديقكم) : وكانوا أيضاً يأنفون ويشرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله في ذلك ، فقال : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) .

(١) كذا في خطرة الأزهر ، وفي السان : «استأذناه قاده» ، أي : أماله وقواه . وعليه فيكون للمنى هذا ، وليستعين به على أداء حكم ما بعده . وفي الطبعات السابقة : «وليسوا به ما بعده» .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، عن رسول الله بن عمرو : ١٧٩/٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ . وسنن ابن ماجه ، كتابه التجارات ، باب ما للرجل من مال ولده ، الحديث ٢٢٩١ ، ٢٢٩٢ ، ٧٦٩/٢ .

(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٦٤/٢ .

(٤) الشهر : القوم الذين ينفرون منك في القتال ، أي : يقتلون .

وقال قتادة : وكان هذا الخي من بني كنانة ، يرى أحدهم أن غزاة عليه أن يأكل وحده في الجماعة ، حتى إن كان الرجل 'لنيسوق' الذؤود' الحنظل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشايره ، فأقول الله : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) .

فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد .

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وحشي بن حرب ، عن أبيه ، عن جده : أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نأكل ولا نشبع ؟ قال : «لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يذكركم لكم فيه » (١) .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم (٢) ، به .

وقد روى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرمانى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كلوا جميعاً ولا تفرقوا ، فإن البركة مع الجماعة» (٣) :

وقوله : (فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) ، قال سعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وقتادة ، والزهري : فليسلم بعضهم على بعض .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو الزبير : سمعت جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلت على أهيك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة ، قال : ما رأيته إلا يوجبه (٤) .

قال ابن جرير : وأخبرني زياد ، عن ابن طائوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته فليسلم ،

قال ابن جرير : قلت لعضد : أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا أكره (٥) ويجزيه من أحد ، ولكن هو أحب إلي ، وما أدمه إلا ثابياً (٦) .

وقال حماد : إذا دخلت المسجد قل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهيك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد قل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

ودروى الثوري ، عن عبد الكريم الجزري ، عن حماد : إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد قل : بسم الله ، واحمد الله السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

(١) مسند الإمام أحمد : ٥٠١/٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأضحية ، باب في الإجماع على السلام ، الحديث ٣٣٦٤ ، ٣٤٦/٢ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الأضحية ، باب في الإجماع على السلام ، الحديث ٣٣٨٦ ، ١٠٩٣/٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب اللذين ، الحديث ٣٣٨٧ ، ١٠٩٣/٢ ، ١٠٩٤ .

(٤) تفسير الطبري : ١٣٢/١٨ .

(٥) له ولا يؤمر .

وقال قتادة (١) : إذا دخلت على أهلِكَ فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد ، قل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (١) . فإنه كان يومئذ بذلك ، وحدّثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن الحنفى ، حدثنا حمزة بن أبي هريرة (٢) : الجوفى ، عن أبيه ، عن أنس قال : أوصانى النبي صلى الله عليه وسلم بخص شخص ، قال : وبألس ، أسخ الوضع يؤدّ في حركه وسكّم على من ليك من أمي تكثّر حسنتك . وإذا دخلت - يعنى يطك - فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك : وصل صلاة الضحى فلها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير ، تكن من وقتلى يوم القيامة .

وقوله : (تحية من عند الله مباركة طيبة) ، قال محمد بن إسحاق : حدثني داود بن الحصين ، عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أعلمت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة) ، فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات العلوات اللطيات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم .

هكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث ابن إسحاق (٣) .

والذى في صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف هذا (٤) ، والله أعلم .
وقوله : (كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تفلحون) ، لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المنقذة المرمة ، نبّه تعالى على أنه يبيّن لمبادئ الآيات بياناً شافياً ، ليتنبهوا ويتفهموا ،

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَلِيلٍ لَمْ يَلْبِسُوا كَلِمَةً مِّنْ يَّحِبُّونَ لِيُقِضَ لَهُمْ أَلَّذِينَ
يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَعِذُّوكَ لِيَبْعَثَ شَأْنَهُمْ فَلَاذَٰنَ لِيَمَنَّ شَأْنُهُمْ وَاسْتَفْرِ
عَلَّمَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ خَفِيزٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

وهذا أيضاً أدب أرفق الله عباده المؤمنين إليه ، فكان أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع ارسو - علوات الله وسلامه عليه - من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع لشورة ونحو ذلك ، أمرهم الله تعالى أن لا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين .

(١) ما بين القوسين المضمون سقط من ضلولة الأثر ، وقد أثبتناه من الطبقات السابقة . ونحبه سقط نظر . وانظر الدر المنثور : ٥٩/٥ - ٩٠ .

(٢) عوف بن أبي هريرة الجوفى مترجم في البحر والتمثيل لابن أبي حاتم : ٤٥/٢/٢ . وانظر ترجمة أبيه عبد الملك بن حبيب في التلخيص : ٢٨٩/٦ .

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور من ابن حاتم : ٦٠/٥ .

(٤) سلم في كتاب الصلاة : باب في التشهد في الصلاة : ١٤/٢ .

ثم أمر رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له ، إن شاء ؛ ولما قال :
(فَأَذِنَ لِمَن شِئْتُمْ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لِمَن رَّحِمَ) .

ولما قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حنبل ومُسَدَّد قالوا : حدثنا بشر - هو ابن الفضل - عن ابن جعلان ،
عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا انتهى أحدكم إلى
الجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة (١) .

وهكذا رواه الترمذي والنسائي ، من حديث محمد بن جعلان ، به ؛ وقال الترمذي : حسن (٢) .

لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُطُونَ مَنِكَرًا إِذَا عَلَيَّ سُورَةُ مُؤْمِنٍ
فَأَن أَمْرُهُ أَن تَسْبِغَهُمْ فِتْنَةً أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٧﴾

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم . فنهاهم الله عز وجل [عن ذلك] ،
إعظاماً لثبته - صلوات الله وسلامه عليه - قال : فقالوا يا رسول الله (٣) يابني الله ؛ وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبلة ،
وقال قتادة : أمر الله أن يجاب نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأن يُسَجَّلَ وأن يعظم وأن يسود (٤) .

وقال مقاتل في قوله : (لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) ، يقول : لا تُسَمِّوْهُ إِذَا دَعَاكُمْ
يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد الله . ولكن شَرِّقُوهُ فَقُولُوا : يابني الله ، يا رسول الله .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم في قوله : (لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) ، قال : أمرهم الله
أن يشرفوه .

هذا قول ، وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا إِنَّا نَنْظُرُ
وَأَسْمِعُوا) (٥) ، وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ، كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَن يُحْطِئَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) إلى قوله : (إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون .
ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) (٦) .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « السلام إذا قام من المجلس » ، الحديث ٥٢٠٨ : ٣٥٣/٤ .

(٢) تحفة الأحرف ، أبواب الاستئذان ، باب « التسليم عند القيام والقعود » ، الحديث ٢٨٤٩ : ٤٨٥/٧ - ٤٨٦ .
وقال الحافظ أبو المثل - صاحب تحفة الأحرف - : « وأخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، وأبو داود ،
(٣) الأثر في الفهر المنثور عن ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، ٦١/٥ .

(٤) في المخطوطة : « وأن يعظم » ، وأن يودد . والمثبت من الطبقات السابقة . والأثر في الفهر المنثور عن عبد الرزاق ،
وعبد بن سعيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، ٦١/٥ . ولغة : « أن يابنيته وأن يعجل » ، وأن يعظم وأن يشتم ويعرف .

(٥) سورة البقرة ، آية ١٥٤ .
(٦) سورة الحجرات ، آية ٤٤ .

لهذا كله من باب الأدب (١) في غاطية النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته [.

والقول الثاني في ذلك أن المعنى في : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) ، أي : لا تعطوا دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا .

حكاه ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصري ، وعطية الموقى (٢) : والله أعلم .

وقوله : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) ، قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - يعني بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض الصحابة - أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم - حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح الرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة ، بعد ما يأخذ في الخطبة . وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل [منهم] كان إذا تكلم بالنبي - صلى الله عليه وسلم - غيظ ، بطلت جمعة (٣) ،

وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتنبهوا عنه ، فلا يراهم .

وقال قتادة في قوله : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) ، يعني : لواذاً (عن أبي الله وعن كتابه .

وقال سفيان : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) ، قال : من الغفب ، وكان يخاف في الآية (لواذاً) . قال : خلافاً .

وقوله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ، أي : من أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيئله هو ومنهجه وطريقته [وستة] وشرعته ، خوزن الأموال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله ، كاللنا ما كان ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد (٤) .

أي : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً (أن تصيبهم فتنة) ، أي : في قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، (أو يصيبهم عذاب أليم) ، أي : في الدنيا ، يقتل أو حصد أو حبس أو نحو ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبته قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ومثلكم كمثل (٥) رجل استوفد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل القراش

(١) في غطوة الأثر : « من باب الآداب » . وما بعده ، وهو ما بين القوسين ، أئتنه من التعليمات السابقة

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه : ٦١/٥ .

(٣) الأثر في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ٦١/٥ .

(٤) البخاري ، كتاب الصلح ، باب : إذا اصطلموا على صلح جور ، فالصلح مردود : ٢٤١/٣ . ومسلم ، كتاب

الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ، ورد أحداث الأمور : ١٣٢/٥ . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب : في لزوم

السنة : الحديث ٤٦٠٦ : ٢٠٠/٤ ، وابن ماجه ، الملقمة : الحديث ٧/١٤ . وسنن الإمام أحمد عن عائشة : ١٤٦/٦ .

(٥) لفظ المست : « مثل كمثل رجل ... » .

وهذه الدواب الأربع [يقمن في النار] يقمن فيها ، وجعل يحجزهن وينظهن ويتحصنن (٢) فيها : قال : ذلك مثل مثلكم ، أنا أتخذ بحجزكم من النار ، هم من النار فتنبأوني وتتحصنون فيها (٢) : أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٢) .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ وَالْغَوْثُ
فِيهِمْ

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم [النبي والشهادة] (٤) ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرم ، فقال : (قد يعلم ما أنتم عليه) - وقد للتصديق ، كما قال قبلها : (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) ، وقال تعالى : (قد يعلم الله المرحمين منكم ، والقاتلين لأنفسهم) (٥) : وقال تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير) (٦) ، وقال : (قد علم أنه ليعزلك التي يقولون : لأنهم لا يكليوك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) (٧) . وقال : (قد نرى تقلب وجهك في السماء) (٨) . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر ، كما يقول المؤمنون تحقيقاً وثبوتاً : (قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة) وقوله تعالى : (قد يعلم ما أنتم عليه) ، أي : هو عالم به ، مشاهد له ، لا يحزب عنه مقال خفة ، كما قاله تعالى : (وفوض على العزيز الرحيم ، الذي يراك حيث تقوم ، وتقبل في الساجدين : إنه هو السميع العليم) (٩) ، وقال : (وما تكون في شأن ، وما تنلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ فوضون فيه ، وما يحزب عن ربك من مقال خفة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) (١٠) ، وقال تعالى : (أفئن هو قائم على كل نفس بما كسبت) (١١) ، أي : هو شهيد على عباده بما هم عاملون من خير وشر ، وقال تعالى : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) (١٢) ، وقال تعالى : (سواء منكم

(١) لفظ المسنة : « فتتصم » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٢ ، من حديث طويل .

(٣) سلم : كتاب الفضائل ، باب : شفقتي - سل الله عليه وسلم - من عمله ، ومبالغة في تعظيم ما يفرم .
٦٤ - ٦٣/٧ . وقد وقع لنا هذا الحديث في صحيح البخاري من غير هذه الطريق ، انظر كتاب الرقاق ، باب : الالتجاء من المصائب : ١٢٦/٨ - ١٢٧ . وكتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (وهبنا لداود سليمان) (لم المبه) : ١٩٧/٤ - ١٩٨ .
(٤) في غلظة الأثر : « وأنه عالم غيب السموات والأرض » . وقد أثبتنا ما في الطبعات السابقة .

(٥) سورة الأعراف : آية : ١٨ .

(٦) سورة المجادلة : آية : ١ .

(٧) سورة الأنعام : آية : ٣٣ .

(٨) سورة البقرة : آية : ١٤٤ .

(٩) سورة السجدة : الآيات : ٢١٧ - ٢٢٠ .

(١٠) سورة يونس : آية : ٦١ .

(١١) سورة الفرقان : آية : ٢٣ .

(١٢) سورة هود : آية : ٥٠ .

من أمر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (١) . وقال تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين) (٢) ، وقال : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (٣) . والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

وقوله : (ويوم يرجعون إليه) ، أى : ويوم ترجع الخلق إلى الله - وهو يوم القيامة - (فينبئهم بما عملوا) ، أى : يخبرهم بما فعلوا في الدنيا ، من جليل وحقيق ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : (نبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخبر) (٤) . وقال : (ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا ما مال هذا الكتاب لا يفادر صبرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحطاً) (٥) : ولما قال هاهنا : (ويوم يرجعون إليه ، فينبئهم بما عملوا ، والله بكل شيء عليم) . والحمد لله رب العالمين ، ونسأله التمام .

(١) سورة الرعد ، آية : ١٥ .

(٢) سورة هود ، آية : ٦ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

(٤) سورة القلم ، آية : ١٣ .

(٥) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .

تفسير سورة الفرقان

(وهي مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (١) الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ خِزْيَةُ
وَأَيُّهَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِرْيَةٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ (٢)

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى : (الحمد لله الذي
أول على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً) فلي لنذر بأساً شديداً من لده ، ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) (١)
وقال هاهنا : (تبارك) ، وهو تفاعل من البركة المستمرة الدائمة الثابتة (الذي نزل الفرقان) — نزل : فعل ، من
التكرار والتكرر ، كما قال : (والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل) (٢) ، لأن الكتب
المتنوعة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل مستجماً مفترقاً مفصلاً ، آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ،
وسوراً بعد سورته وهذا أشد وأبلغ وأشد احتناءً من أنزل عليه ، كما قال في أثناء هذه السورة : (وقال الذين كفروا :
لو أن نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً : ولا يأتونك بمثل إلا جنتاك بالحق وأحسن
تفسيراً) ، ولهذا سماه هاهنا الفرقان ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والفي والرشاد ، والحلال
والحرام .

وقوله : (على عبده) ، هذه صفة ملحق وثناء ، لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله ، وهي
ليلة الإسراء ، فقال : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) (٣) ، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه : (وأنه لما قام
عبد الله يدعوه كانوا يكفرون عليه ليلاً) (٤) ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال :
(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وقوله : (ليكون للعالمين نذيراً) ، أي : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل الحكيم الذي لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (٥) ، الذي جعله فرقاناً عظيماً — إنما خصه به لخصه بالرسالة
إلى من يستعمل بالخضراء ، ويستعمل على الغبراء (٦) ، كما قال — صلوات الله وسلامه عليه — : « بحث إلى الأحمر

(١) سورة الكهف ، آية : ١ و ٢ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٣٦ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ١ .

(٤) سورة البقر ، آية : ١٩ .

(٥) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

(٦) هي بالخضراء السياه ، وبالغبراء الارض .

والأسود (١) : وقال : « أُعْطِيَ خَسْماً لَمْ يَطْلُبْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ » ، فذكر منهن : أنه « كَانَ النَّبِيُّ يَمُوتُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَةً ، وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً (٢) » وقال الله تعالى : « قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » ، الذى له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت (٣) ، أئى : الذى أُرْسِلَ هو مالك السموات والأرض ، الذى يقول للشيء كن فيكون . وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا : (الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك) ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ عَنِ الْوَلَدِ ، وَعَنِ الشَّرِيكِ .

ثم أخبر أنه (خلق كل شيء بقدره تقديرآ) ، أى : كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإله ، وكل شيء تحت قهره [وتسييره] ، ولجبره وتخليقه .

وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يُنْصِفُوا شَيْئاً وَلَا يَخْلُقُوا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا ۚ

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، الخالق لكل شيء ، المالك للأمر ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح موضوعة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم شئاً ولا نفعا ، فكيف يملكون لعبادتهم ؟ (ولا يملكون موتاً ، ولا حياة ولا نشورا) ، أى : ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعبد الخلق يوم القيامة أولهم وآخرهم ، (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) (٤) ، (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (٥) ، (فلانما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) (٦) ، (فلانما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) (٧) ، (إن كانت إلا صيحة واحدة ، فإذا هم جميعاً لدينا محضرون) (٨) . فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنهى العباد إلا له ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولا والد ، ولا عدل ولا تكبد (٩) ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

(١) مسلم ، كتاب المساجد : ٦٣/٢ . ومسنن الإمام أحمد من ابن عباس : ٢٥٠/١ + ٣٠١ . وعن أبي موسى : ٤١٦/٤ . وعن أبي ذر : ١٤٥/٥ + ١٤٨ + ١٦٢ .

(٢) تقدم الحديث في سورة النساء ، عند تفسير الآية ٤٢ : ٢٨١/٢ ، ومخرجناه هناك .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .

(٤) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .

(٥) سورة القمر ، آية : ٥٠ .

(٦) سورة النازعات ، آية : ١٣ + ١٤ .

(٧) سورة الصافات ، آية : ١٩ .

(٨) سورة يس ، آية : ٥٣ .

(٩) التبدد : الخيل والشبيه ، يقال : جأ فلان ، وتبدده ، وتبدده .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا إِلَهَانَا اقْتَرَنُوا وَاعْتَمِرُوا عَلَيْهِ قَوْمٌ يَكْفُرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءَ وَعْدُكَ ۖ وَقَالُوا
سَيُطِيعُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبْنَا نَفْسِي عَلَىٰ طَبْعِ بَكْرَةٍ وَأَصِيلًا ۖ قُلْ أَتَزَعُ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْلَمُ الْبَرِّ فِي السَّنُونِ
وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّمَا كَانَ تَحَكُّمًا رَجِيمًا ۖ

يقول تعالى خبراً عن سخافة عقول الجبهة من الكفار : في قولهم من القرآن : (إن هذا إلا إلهك) ، أي : كذب ،
(اقترأه) ، يمتون النبي صلى الله عليه وسلم ، (واعتبروا عليه قوم كفرون) ، أي : واستعان على جمعه يقوم آخرين -
قال الله تعالى : (قد جاءوا غلباً وزوراً) ، أي : قد اتروا هم قولاً باطلاً ، هم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون
كذب أنفسهم فيما يزعمون .

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) ، يمتون كتب الأولاء استنسخها ، (فهي تملى عليه) ، أي : تقرأ عليه (بكرة
وأصيلاً) ، أي : في أول النهار وآخره .

وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهتته منهم - كقولهم " كذب " ، فإنه قد علم بطائفة ، فإنه قد علم بالهوان وبالضرورة : أن
هذه أساطير الأولين ، لا في أول عمره ولا في آخره (١) ، وقد نفا بين أظهرهم من أول
مولده إلى أن يهتد بهتاً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وزيه وأمانته وتواضعه من الملك
والشجور وسائر الأخلاق الرثيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صفه إلى أن يهتد إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه
وبره : فلما أكرمهم الله بما أكرم به ، تصبوا له المدادة ، وروى هذه الأقوال التي يعلم كل حائل براءته منها ،
وحاربوا ماذا يقلقونه به ، فتارة من إنكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون ،
وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلاً) (٢) .

وقال تعالى في جواب ما حادوا ما حادوا وأقروا : (قل : أتزعه الذي يعلم السر في السموات والأرض) ، أي :
أتزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صديقاً مطابقاً للواقع في الخارج ، ماضياً ومستقبلاً (أتزعه
الذي يعلم السر) ، أي : الله الذي يعلم خيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : (إنه كان غفوراً رحيماً) ، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمة واسعة ، وأن حلمه عظيم ،
وأن من تاب إليه تاب عليه . فيؤلا مع كتبهم وأقرباتهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول
والقرآن ما قالوا ، بدعهم إلى التوبة والإصلاح مما هم فيه إلى الإسلام والمسلمين ، كما قال تعالى : (لقد كفر الذين قالوا :
إن هذا ثالث لثلاث ، وما من إله إلا الله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذي كفروا عنهم حلاب أليم ألا يعيرون

(١) في هذا التفسير نظر : فإن القوم لم يهتوا بحدا بكاتب الأساطير بنفسه ، فقد كانوا يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب ،
وإنما كانوا يزعمون أنه قد اكتتبها ، أي : قد طلب من غيره أن يكتبها له ، فأجابهم الله بأن هذا غير ممكن ، وإنما الله هو الذي
أقر القرآن ، ولهذا لم ينتهوا عما قالوا ، لأنهم لم يقيموا عليه حجة .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٤٨ .

وَقَالُوا مَا لَئِذَا رَأَوْا الرُّسُولَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوَآ اِذَا لَئِذَا رَأَوْا إِلَهُ تَعَالَى لَنُبَذُوا فِيهَا سَوَاءً مِمَّنْ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ قَلِيلًا ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ ۖ هُمْ فِي جَنَّاتٍ يَدْخُلُونَ فِيهَا مِنْ حَيْثُ يُشَاءُونَ ۚ فِيهَا زَوْجٌ مِمَّا يَحِبُّونَ ۚ لَمْ يُقَرَّبُوا بِأُحُدٍ ۚ فِيهَا فَاكِهَةٌ ۚ وَخِزْفٌ مِمَّا يَنْخَرُونَ ۚ فِيهَا سُرُرٌ مَرْصُومَةٌ ۚ وَحُمْرٌ مُّطَوَّرَةٌ ۚ وَهُمْ فِيهَا كَاظِمُونَ ۚ وَفِيهَا نَضْرِبُ السُّرُورَ ۚ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۚ وَهُمْ فِيهَا قَاظِمُونَ ۚ وَفِيهَا جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنِزَّلُ مِنْ هُنَا أَمْثَلُ الْعِلْمِ ۚ فِيهَا أُحُدٌ ۚ فِيهَا جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنِزَّلُ مِنْ هُنَا أَمْثَلُ الْعِلْمِ ۚ فِيهَا أُحُدٌ ۚ فِيهَا جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنِزَّلُ مِنْ هُنَا أَمْثَلُ الْعِلْمِ ۚ فِيهَا أُحُدٌ ۚ

قال مجاهد : يعني في الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصر أو سواء كان كبيراً أو صغيراً (٣) .

(٣) تفسیر الطبری : ١٨/١٣٩ - ١٤٠ .

وقال سفیان الثوري ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن خثيمة ، قيل لربي صلى الله عليه وسلم : إن كنت أن أعطيك هواناً الأرض ومقانيها ما لم يعط نبى قبلك ، ولا يعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ؟ فقال : لعمري ما لي بالآخرة ، فأمر الله عز وجل في ذلك : (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً) (١) .

وقوله : (بل كذبوا بالساعة) ، أى : إنما يقول هؤلاء هكلاً تكليفاً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً ، بل لتكذيبهم يوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، (وأعتنا) ، أى : وأرصدنا (لمن كذب بالساعة سعيّاً) ، أى : علماً بأننا حاراً لا يطاق في نار جهنم .

وقال الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير : (السمر) : واد من قيع جهنم .

وقوله : (إذا رآهم) ، أى : جهنم (من مكان بعيد) ، يعنى : في مقام المحشر — قال السدي : من مسرة مائة حاتم — (سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) ، أى : حقاً عليهم ، كما قال تعالى : (إذا ألفوا فيها سمعوا لها شقيقاً وهي تفور) تكاد تغي من الغيط) ، أى : يكاد يفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا إدریس بن حاتم بن الأصبغ الواسطي (٢) : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي ، عن أصعب بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دؤيب ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يقل على ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والده ، أو اتنى إلى غير ماله فليتيروا ! فمعدن من النار . وفي رواية : فليتيروا ! بين عني جهنم مقعداً : قيل : يا رسول الله ، وهل لها من عتين ؟ قال : إنما سمعتم الله يقول : (إذا رآهم من مكان بعيد) :: الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد بن خديش ، عن محمد بن يزيد الواسطي ، به (٣) .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا أبو بكر بن حياش ، عن حميد بن سليم ، عن أبي واثل قال : خرجنا مع عبد الله — يعنى ابن مسعود — ومعنا الربيع بن خثيم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار ، ونظر الربيع بن خثيم إليها فبأبليس سقط ، فر عبد الله على آتون (٤) على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلهب في جوفه قرأ هذه الآية : (إذا رآهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) فصعق — يعنى الربيع بن خثيم — فحملوه إلى أهل بيته ، وربطه عبد الله إلى الظهر فلم يقن ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبي : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشوق إليه شهوة البغلة إلى الشعر ، ثم تزر فرقة لا يبقى أحد إلا خاف ،

(١) الأكثر في تفسير الطبري عن سفیان ، عن حبيب . انظر : ١٤٠/١٨ .

(٢) إدریس بن حاتم بن الأصبغ الواسطي يروى عن محمد بن يزيد ، ومحمد بن الحسن الواسطيين ، انظر ترجمته في إيجاز والتعديل لابن أبي حاتم : ٢٦٦/١٨١ .

(٣) تفسير الطبري : ١٤٠/١٨ .

(٤) الآتون : أعدود الجوار والخصاص .

مكثنا ورواه ابن أبي حاتم مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم اللدوقي ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، ثُمبَرُتا إسرائيل ، عن أبي يحيى ، عن جاهد بن ابن عباس قال : إن الرجل يُسَجَّرُ إلى النار ، فَيَتَوَرَّى وَيَتَجَنَّبُ بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير مِنِّي . فيقول : أُرسلوا عبدي . وإن الرجل يُسَجَّرُ إلى النار ، فيقول : يا رب ، ما كَانَ هذا النَّارُ بِلِي ؟ فيقول : لما كَانَ ظَنُّكَ ؟ فيقول : أَن تَسْتَحْيِي وَحَمَلْتُكَ . فيقول : أُرسلوا عبدي . وإن الرجل يُسَجَّرُ إلى النار ، فَتَقْشَرُ إِلَيْهِ النَّارُ شَوْقًا (١) الْبُحْلُ إِلَى الْفُسْرِ ، وَتَوَرَّى وَفَرَّ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ . وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ (٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبيد بن حمير قال قوله : (مصفوا لما قيل)
 ووزفراً) ، قال : إن جهنم تفرز زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبي إلا عثر ترعد فرائسه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام
 ليحس على ركبته ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسي (٢) .

وقوله : (وإذا ألغوا منها مكانا ضيقا) ، قال قتادة ، عن أبي أيوب ، عن هيد الله بن عمرو قال : مثل الزنج (٣) في الرمح ، أي : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أسيد - يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه مثل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا اتَّخَذُوا مَكَالًا ضَيِّقًا مَقْرِينَ ﴾ قال : « والذي نفسي بيده ، يهتم يستنكرون في النار ، كما يستنكر الولد في الحائط »

وقوله : (مقرنين) ، قال أبو صالح : يعني مكثنين : (دعوا هنالك ثوراً) ، أي : بالويل والحسرة والحمية لا تلهوا اليوم ثوراً واحداً ودعوا ثوراً كثيراً).

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن يزيد ، عن أنس بن مالك أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **أول من يكسب حكمة من النار أن لا يأس** ، فضعها على حاجبيه ويسحبها من عنقه ، (*) وخبرته من بعده ، وهو ينادى يا ثوراه ، وينادون يا ثورهم . حتى يقولوا على النار ، فيقول يا ثوراه . ويقولون يا ثورهم . فيقال لهم : **لا تلحقوا اليوم ثوراً وحداً** ، وادعوا ثوراً كثيراً . (*)

(١) يقلل : شقق - كنع ، وضرب ، وسع - شيقنا ، وشوقا ، وشمقا ، بالضم لهما ؛ إذا تردد البكاء في صفة . ومن الحماز : شقيقت عين الناظر عليه ؛ إذا أصبح فأدام النظر إليه . وشوق الحار وتطاول : نهال .

(٧) تفسير الطبري : ١٨ / ١٤٠ .

(٣) الزوج - بضم الزاي - : الحديدية التي تتركب في أسفل الرمح ، والعمدان : يتركب في أعلاه ، والفرج : المركز في الرمح في الأرض ، والعمدان : يمينين .

(٤) في رواية أخرى في المخطوط : ١٥٣/٢ : وهو يسحبها من عطفها .

(٥) مستند الإمام أحمد : ١٥٢/٣ ، وانظر أيضاً : ٢٠٤٩/٣ .

لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن حاتم ، عن أحمد بن ستان ، عن عفان ، به : ورواه ابن جرير ، من حديث حاد بن سلمة (١) به :

وقال عمرو ، عن ابن عباس في قوله : (لاندعوا اليوم ثوراً واحداً وادعوا ثوراً كثيراً) ، أى : لاتدعوا اليوم ويلاً واحداً ، وادعوا ويلاً كثيراً :

وقال الفصحك : الثبور : الملاك :

والأظهر أن الثبور جميع الملاك والربيل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : (وإني لأظنك بأفرون مثبوراً (٢)) ، أى : هالكاً : وقال عبد الله بن الزبير :

إذا أجزى الشيطان في ستن الله ، ومن سال مبتله مشبور (٣)

أقبل ذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً ﴿٥﴾ لهم فيها ما يشاءون خالدين كان
يعلى ربك وعدا مسئولا ﴿٦﴾

يقول تعالى يا محمد ، هذا الذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتلقاهم بوجههم حيرس وبقيظ وزفير ، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين ، لا يستطيعون حراكاً ، ولا انقصاراً ولا فكاً عما هم فيه - : أملاً خبر أم جنة الخلد التي وعدنا الله المتقين من عباده ، التي أعدنا لهم ، وجعلنا لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا ، وجعلنا ملكاً إليها . (لم فيها ما يشاءون) من الملاذ : من مأكول ومشرب ، وملابس ومسكن ، ومراكب ومنابر ، وغير ذلك ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد . وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، لا يخرجون عنها حولاً . وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولذا قال : (كان على ربك وعدا مسئولا) ، أى : لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر ابن جرير ، عن بعض علماء المدينة أن معنى قوله : (وعدنا مسئولا) أى وعدنا واجبا (٤) .

وقال ابن جرير ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (كان على ربك وعدا مسئولا) ، يقول : سلوا الذي واعدكم - أو قال : واعدناكم - تُنجِزْ (٥) .

(١) تفسير الطبري : ١٨ / ١٤١ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ١٠٢ .

(٣) تقدم البيت في : ١٢٤ / ٥ و ٣٧٦ ، ومخرجناه هناك .

(٤) قال الطبري : ١٨ / ١٤١ : « وقد كان بعض أهل المدينة يوجه معنى قوله : (وعدنا مسئولا) ، إل أنه معنى به : وعداً واجباً ، وذلك أن المسئول واجب ، وإن لم يسأل كالدين ، ويقول : ذلك نظير قول العرب : لأصينك ألفاً وعداً مسئولا ، بمعنى : واجب لك قضاءه . »

(٥) كلما في خطوطة الأثر . وفي تفسير الطبري : ١٨ / ١٤١ ، والطبعات السابقة من تفسير ابن كثير ، وفسألوا النبي وعلم وتنبؤوه .

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله : (كان على ربك وعدنا مستولا) : إن الملائكة لسأل لم ذلك : (ربنا ، وأدخلهم جنات عدن التي وعدناهم) .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا علمنا لك بالذي أمرنا ، فأجر لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله : (وعدنا مستولا) .

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة : كما ذكر تعالى في « سورة الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحيور ، ثم قال : (أذلك غير نزلا أم شجرة الزقوم : إذا جعلناها فنته للظالمين ، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رموس الشياطين . فإلهم لا تكون منها فالتون منها البطون : ثم إن لم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجهم إلى الجحيم . إنهم أقروا أيامهم ضالين . فهم على آقارهم يهروصون (١)) .

وَيَوْمَ يُنْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كُنَّا بِأَنْبِيَاءَ أَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَهَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا اللَّهَ كَرُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٣١﴾ فَكَيْفَ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ لَمَّا تَسْتَبِيلُونَ صَرَفًا وَلَا بَصَرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكَ نُزْغًا عَدَابًا كَبِيرًا ﴿٣٢﴾

يقول تعالى غيراً عما يتبع يوم القيامة من ترجيع الكفار في عبادتهم مَنْ عبدوا من دُون الله ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : (ويوم يُنْشَرُهُمْ (٢) وما يعبدون من دُون الله) ، قال مجاهد : عيسى ، والزعفر ، والملائكة (٣) : (فيقول أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) ، أي : فيقول الرب تبارك وتعالى : أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دُوني ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم ، من غير دعوة منكم لم ؟ كما قال الله تعالى : (وإذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أثبت قلت للناس : اتخذوني وأبي ليلين من دُون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق وإن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لم (٤)) ، إلى آخر الآية . ولهذا قال تعالى غيراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة : (قالوا : سبحانك . ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دُونك من أولياء) — قرأ الأكثرون بفتح « التون » من قوله (نتخذ من دُونك من أولياء) ، أي : ليس للخلاق كلام أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن مادونهم إلى ذلك ، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمر ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، كما قال تعالى : (ويوم نُحْشَرُهُمْ (٥) جميعاً ثم يقول الملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا

(١) سورة الصافات ، الآيات : ٦٢ - ٧٠ .

(٢) كلما في خطوطة الأثر : (نُحْشَرُهُمْ) ، بالنون ، وهي قراءة في القسم ٤ . انظر البحر المحيط : ٤٨٧/٦ - ٤٨٨ .

(٣) تفسير الطبري : ١٤٢/١٨ .

(٤) سورة المائدة ، آية : ١١٦ .

(٥) كلما في خطوطة الأثر : (نُحْشَرُهُمْ) ، والنون ، (نقول) ، بالنون لهما ، وهي قراءة لجمهور . فلما قراءة جلعس لهما .

انظر البحر المحيط : ٢٨٦/٧ .

يعيدون : قالوا : سبحانه أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعيدون الجن أكثرهم به مؤمنون (١) : وعرف آخرون : (ما كان ينبغي لنا أن نتحرك) (٢) من دونك من أولياء ، أى : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فلما عيّد لك ، قراء إليك . وهى قرينة للمعنى من الأولى .

(ولكن مصتهم وآبائهم) ، أى : طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر ، أى : نسوا ما أنزلت إليهم على أنسنة رسلك ، مع الدعوة إلى هدايتك وحملك لا شريك لك .

(وكانوا قوما بورا) ، قال ابن عباس : أى هلكت : وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهري : أى لا خير فيهم . وقال ابن الزبير : حيث أسلم (٣) :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِبَاسِي رَاكِبًا مَا فَتَحْتُ إِذْ أَنَا بَوْرٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَتَرِ اللَّهِ ، وَتَمَّ مَالٌ مِثْلَهُ مَكْتُوبٌ

قال الله تعالى : (فقد كتبكم بما قولون) ، أى : قد كتبكم الذين عيّدتم فما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتمهم قرناء فقبولكم إليه زلفى ، كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله لاسئد عجيبة له إلى يوم القيامة) وهم من دعائهم غافلون . ولما حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٤) .

وقوله : (لا يستطيون) صرا ولا نصرا) ، أى : لا يقدرون على صرف المذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، (ومن يظلم مذكماً) ، أى : يشرك بالله ، (لنلقه حللاً كبيراً) ،

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٥﴾

يقول تعالى خبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتعلمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التفتى به (وعشرون في الأسواق) ، أى : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لخالقهم ومنصبهم ، فإن الله جعل لهم من السماوات الأرضية والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخرائق الباهرة ، والأدلة ما يستل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صديق ما جاءوا به من الله عز وجل ، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : (وما أَرْسَلْنَا

(١) سورة صبا : آية ٤٠ ، ٤١ .

(٢) قرأ الميموني : (تبتك) ، مبنيا للفاعل ، وأما بالبناء المجهول فهى قراءة زيد بن ثابت وأبي الفداء . وآخرين .

الفرها في المختص لابن جنى : ١١٩/٢ - ١٢٠ .

(٣) تقدم من تريب تخرج أبيات ابن الزبير .

(٤) سورة الأنعام : آية ٩٤ .

(٥) كلما في خطوطة الأثر : (لا يستطيعون) ، بالياء المثناة من تحت . وهى قراءة مروية . انظر البحر المحيط .

من قبلك إلا رجالاً لوحى إليهم من أهل القرى (١) ، (وما جعلناهم جسداً لآكلون الطعام وما كانوا خالدين) (٢) وقوله : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنه أتصبرون) ، أى : اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، لنعلم من يطيع من يعصى ، ولهذا قال : (أتصبرون وكان ريك بصيرا) ، أى : من يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٣) ، ومن يستحق أن يهديه الله لا أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك وقال محمد بن إسحاق فى قوله : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنه أتصبرون) ، قال : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسل فلاخلفون ، لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبطل المبادئ ، وأبطلهم بهم . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله : إني مبتليكم وميثاقى بك (٤) وفى المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة ، وفى الصحيح أنه — عليه أفضل الصلاة والسلام — غيّر بن أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً »

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَلَعْنَنَاهُمْ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٤﴾

يقول تعالى خبرنا عن تَمَتَّتِ الكفار في كفرهم ، وعنادهم فى قولهم : (لولا أنزل علينا الملائكة) ، أى : بالرسالة كما نزل على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : (قالوا : لن نؤمن حتى نلقى مثل ما أوفى رسل الله) (٥) ويجعل أن يكون مرادهم هاهنا : (لولا أنزل علينا الملائكة) فزاهم حيالا ، فيخبروا أن عملاً رسول الله ، كقولهم : (أو تأتى بأمة والملائكة قبلا) (٦) ، وقد تقدم تفسيرها فى «سورة سبحان» (٧) ، ولهذا قال : (أو لرى ربنا) ، ولهذا قال الله تعالى : (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) : وقد قال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون) (٨) ،

وقوله : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجرا محجورا) ، أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك بصدق كل وقت الاحتضار حين ينشروهم الملائكة

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٨ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الجنة ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة - وأهل النار : ١٠٨٨ - ١٠٩٠ ، ولفظ مسلم : « إنا مبتلك لأبطلكم وأبطل بك » .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٩٢ .

(٧) انظر : ١١٨/٥ .

(٨) سورة الأنعام ، آية : ١١١ .

بالتار ، وغضبه الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجي أيها النفس النجاسة في الجسد النجس ، اخرجي إلى صوم وحميم ، وظل من محموم . فتأتي الخروج وتتفرق في البدن ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم (١)) . وقال : (ولو ترى إذ الظالمون في عمرات للوت ، والملائكة باسطو أيديهم) ، أي : بالضرب ، (أخرجوا أنفسكم ، اليوم نجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون (٢)) . ولهذا قال في هذه الآية الكريمة : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) ، وهذا خلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات : قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَحْزَنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . فَلَا مَن يَخْشَوْنَ غَيْرَهُ يَوْمَ (٣)) .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن حازب : أن الملائكة تقول لأرواح المؤمنين : اخرجي أيها النفس الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تمرينه ، اخرجي إلى زوج وريحان ورب غير غضبان : وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم (٤) ، عند قوله تعالى : (يَبْتَغِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٥)) .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ) ، يعني : يوم القيامة : قاله جاهد ، والفضالة ، وغيرهما .

ولا مثالة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم المات ويوم المفاد تصلى للمؤمنين والكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالنجية والحسرة ، فلا بشري يومئذ للمجرمين .

(ويقولون حجرا محجورا) ، أي : وتقول الملائكة للكافرين حرّام محرم عليكم الفلاح اليوم .

وأصل الحجر : المنع ، ومنه يقال : حَجَرْتُ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسكته ، أو فكتسه ، أو صغره ، أو نحو ذلك . ومنه سمي «الحجَر» عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطُّرُف أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال لنقل «حجَر» لأنه يمنع صاحبه عن تعامله ما لا يليق .

والغرض أن الضمير في قوله : (ويقولون) عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وصكرمة ، والفضالة ، والحسن ، وقتادة ، وعطية القوّي ، وعطاء الخراساني ، وخُصَيْف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير (٦) .

(١) سورة الأنفال ، آية : ٥٠ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٩٣ .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٣٠ - ٣٢ .

(٤) النور : ٤١٧ .

(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٢٧ .

(٦) تفسير الطبري : ١٩ / ٢ - ٣ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى - يعني ابن قيس - عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري : (ويقولون حجراً محجوراً) ، قال : حرماً مُحَرَّمًا أَنْ يُبَشَّرَ بِمَا يَبْشُرُ بِهِ الْمُتَّقُونَ .

وقد حكى ابن جرير ، عن ابن جريج أنه قال : ذلك من كلام المشركين ، (يوم يرون لللائكة) ، [أى : يتوحدون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة] يقولون : (حجراً محجوراً) .

وهذا القول - وإن كان له ماخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد ، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد أنه قال في قوله : (حجراً محجوراً) ، أى : حرماً مماناً ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج . ولكن في رواية ابن أبي حاتم ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد أنه قال : (حجراً محجوراً) ، حرماً مماناً ، الملائكة يقولون ، فافهم .

وقوله تعالى : (وقمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) ، وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأنظر أنه لا يتحصل لولاة المشركين من الأعمال - التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء ، وذلك لأنها قدت الشرط الشرعي ، إما الإخلاص فيها ، وإما المثابة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصاً وعمل الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد جمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ، ولهذا قال تعالى : (وقمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً) .

قال مجاهد ، والثوري : (وقمنا) ، أى : حمدنا .

وقال السدي : (قمنا) : حمّلنا . وبعضهم يقول : أئتنا عليه .

وقوله : (فجعلناه هباءً منثوراً) ، قال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي - رضي الله عنه - في قوله : (هباءً منثوراً) ، قال : شمع الشمس إذا دخل في الكوة . وكلما روى من غير هذا الوجه عن علي ، وروى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، والسدي ، والضحاك وغيرهم . وكلما قال الحسن البصري : هو الشماع في كوة أحدهم ، ولو ذهب بقيض عليه لم يستطع .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (هباءً منثوراً) ، قال : هو الماء المنراق (١) ،

وقال أبو الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي : (هباءً منثوراً) ، قال : الهباء رَمَجُ النواكب (٢) ، وروى مثله عن ابن عباس أيضاً ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال قتادة في قوله : (هباءً منثوراً) قال : أما وأبيت يبيت الشجر إذا خرته الريح ؟ فهو ذلك الودق ،

(١) التفسير الطبري : ٤/١٩ .

(٢) في الخطوط : رَمَجُ النواكب . ولا معنى لرمج هنا . فلما الريح - ينتج فسكون - فهو البوار . والأثر في الدر المنثور : ٦٦/٥ ، ولفظه : رَمَجُ النواكب .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني حاصم بن حكيم ، عن أبي سريح الطائي ، عن يعلى بن عبيد (١) قال : وإن المباد الرماذ .

وحاصل هذه الأكوال التحية على مضمون الآية ، وذلك أنهم حلوا أمالا اعتقدوا أنها شيء ، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لأشياء بالكلي . وشبهت في ذلك بالشيء الثانيه الحخير المنفرد ، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلي ، كما قال الله تعالى : (مثل الذين كفروا يربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم حاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد (٢)) . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يظفروا صفاتكم بالبن والأذى كالأذى الذي ينفق ماله وراء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا (٣)) . وقال تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا (٤)) . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، والله الحمد والمنة .

وتروك : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، أي : يوم القيامة لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون (٥) ، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، ودرجات الآمنات ، فهم في مقام أمين ، حسن للنظر ، طيب للقام ، (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما (٦)) ، وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات ، والمسررات للتعابات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، (إنها ساعت مستقرا ومقاما (٧)) ، أي : يس للتلز منظارا ، ويش للقليل مقاما ، ولذا قال : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، أي : بما أحسنه من الأعمال المثقلة ، فالوا ماناوا ، وصاروا إلى ماصاروا إليه ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فتنبّه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلي ، فقال : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هي ضحوة ، فيقول أولياء الله على الأسرة مع الخور العين ، ويسئله أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يشرع الله من الحساب نصف النهار ، فيقول أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، قال الله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

(١) في المخطوطة : « حبه بن بعل » . وفي اللد المخطوطة ١٧/٥ : « اللد بن حبه » ، ولم نجدها . ولعل الصواب ما أثبتناه . و « يعلى بن حبه » مشرق في الجمع : ٣٠٤/٧/٤ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ١٨ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .

(٤) سورة لقدر ، آية : ٣٩ .

(٥) سورة المفسر ، آية : ٢٠ .

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٢٦ .

(٧) سورة الفرقان ، آية : ٦٦ .

وقال عكرمة : إني لأحرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : هي الساعة التي تكوّن في الدنيا عند ارتفاع الفصح الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقبولة ، فيصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينقلب بهم إلى الجنة ، فكانت قبولتهم [في الجنة] وأطعموا كيدحت ، فأشبههم كلهم ، وذلك قوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) (١) »

وقال صفيان ، عن ميسرة ، عن المنهال ، عن أبي حنيفة ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : لا يتصوّف النهار حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، وقرأ : (ثم إنهم رجعهم إلى الجحيم) (٢) ،

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، قال : قالوا في الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن عرضوا على [ربهم] عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : (فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يمحاسبه يحاسب حسابا يسيرا) ويتقلب إلى أهله (٣) مسرورا .

وقال قتادة في قوله : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، أي مأوى ومثلا - قال قتادة : وحدث صفوان بن محرز أنه قال : يجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا في الدنيا - إلى الجنة واليباض (٤) فيحاسب ، فإذا حيد (٥) ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار ، والآخر كان صاحب كساء في الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتني من شيء فتعاسيتني به . فيقول : صدق حيدى ، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يركن ما شاء الله ، ثم يدعى صاحب النار ، فإذا هو مثل الحُمّة السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقبل . فيقال له : حيد . ثم يدعى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : ربّ ، خير مقبل . فيقال له : عد . رواها ابن أبي حاتم كلها (٦) »

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا السوائي حدثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يقتصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقبلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) (٧) »

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ٦٧/٥ . وما بين الأقواس منه .

(٢) تفسير القرآن الكريم للإمام صفيان الثوري : ١٨٦ .

(٣) تفسير الطبري : ٤/١٩ .

(٤) أي : أقرب وأميل إلى الجنة واليباض .

(٥) أي : فإذا هو عيب ، يئى الملك .

(٦) الحُمّة - بقية فتحة - : واحدة الحم ، وهو النجم .

(٧) الأثر في الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم : ٦٧/٥ .

(٨) تفسير الطبري : ١٩ / ٥ .

لَيَوْمَ تَنفَخُ السَّاعَةُ بِالْأَمْرِ تَزُولُ الْمَلَائِكَةُ تَرِيلاً ﴿١٠﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَلْقُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْكَافِرِينَ
صِيرٌ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ مَضَى النَّفْلُ عَلَى بَدْنِهِ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلاً ﴿١٢﴾ بَلَوْنِي لَيْتَنِي لَأَتَّخِذَ
فُلَانًا خَلِلاً ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي مِنَ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿١٤﴾

يُخبر تعالى عن حَوْلِ يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فيها انشقاق السماء وتقطرها وانفراجها بالغمام ،
وهو ظُلُكُ النور العظيم الذي يهر الأَبصار ، وتزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلق في مقام الحشر . ثم يحيى
الرب تبارك وتعالى للفصل القضاء .

قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر
وإلى الله ترجع الأمور) (١) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد بن حماد بن الحارث ، حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد
عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية : (يوم تنشق السماء بالغمام وتزل الملائكة تزيلاً) .
قاله ابن عباس : يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والطيور وجميع الخلق ،
فتنطق السماء الدنيا ، فيقول أهلها : وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق - فيحيطون بالجن والإنس وجميع
الخلق : ثم تنطق السماء الثانية فيقول أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق
فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق (٢) . ثم تنشق السماء الثالثة ، فيقول أهلها ، وهم
أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، والجن والإنس
وجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة ، فيقول أهلها وهم أكثر من قول قبلهم من أهل السموات
ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، والجن والإنس
وجميع الخلق ، ويترأى لنا عز وجل في ظلل من الغمام ، وحوله الكروبيون (٣) ، وهم أكثر من أهل السموات
الصحح الإنس والجن وجميع الخلق ، ثم قرون كأكسب القتا (٤) ، وهم تحت العرش ، لم يزجرك بالتصحيح والتفصيل
والقدوس الله عز وجل ، ما بين إلهام قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام ،
وما بين ركبته إلى حُجْرَتِهِ (٥) مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْرَتِهِ إلى تَرْقُوته (٦) مسيرة خمسمائة عام ، وما بين تَرْقُوته إلى
موضع القطر مسيرة خمسمائة عام . وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ، وجهنم جهنم (٧) . هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق ،

(١) سورة البقرة : آية ٢١٠

(٢) ما بين القومين من النار المنتور : ٦٨/٥ ، وهو في الطبقات السابقة به : « ثم تنشق السماء الثانية فيقول أهلها » .

(٣) المظر : ٣٧٢/١ .

(٤) أي : القراع .

(٥) في الضلوة : « وما بين ركبته إلى أركبته مسيرة خمسمائة عام ، وما بين أركبته إلى تَرْقُوته ... ولا يستقيم عليه السياق ،
ولكن من الطبقات السابقة ، وفي النار المنتور : وما بين ركبته إلى فخذ ... والحجزة - بهم فسكون - موضع شد الإزار .

(٦) الترقوة : العظم الذي بين ثغرة النحر والناق .

(٧) في الضلوة دون فقط . وفي الطبقات السابقة : « وجهنم جهنم » . وقوله : « وجهنم جهنم » غير ثابت في النار المنتور .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن علي بن زيد ابن جدعان ، عن يوسف بن مهزيان ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يحن ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم مياه مياه ، على قدر ذلك من التضييف إلى المياه السابقة . فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتزل الملائكة الكروبيوت ، ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين يديه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رؤوسهم شيء ميسوط كأنه التتياء ، والعرش فوق ذلك .

ثم وقف ، فناداه على علي بن زيد بن جدعان ، وفيه ضعف ، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة : وقد ورد في حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال تعالى : (فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملاك على أرجائها ومحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (٢)) ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحميدك ، لك الحمد على حملك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحميدك ، لك الحمد على عفوك بعد قنوتك . رواه ابن جرير عنه . (٣)

وقال أبو بكر بن عبد الله : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش بهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، وزججت كلهم في أجوافهم ، وطارت قلوبهم من مقتدرها من صدورهم إلى حناجرهم (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا . معمر بن سليمان ، عن عبد الجليل ، عن أبي حازم . عن عبد الله بن عمرو قال : بهبط الله حين بهبط بيته وبين خلقه سبعون ألف (٥) حجاب ، منها النور والظلمة ، فيصوت للماء في تلك الظلمة صوتاً تتخلط منه القلوب (٦) .

وهذا موقف على عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من التوالتين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : (الملك يومئذ الحق الرحمن وكان يوماً على الكافرين بأساً) ، كما قال تعالى : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار (٦)) . وفي الصحيح أن الله يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك .

(١) انظر حديث الصور في سورة الأنعام ، حدة الآية ٧٣ : ٢٧٦/٣ - ٢٨٢ . كما ينظر : ٣٦٣/١ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات ١٥ - ١٧ .

(٣) تفسير الطبري : ٦/١٩ .

(٤) في تفسير الطبري : صهيون حجاباً .

(٥) تفسير الطبري : ٥/١٩ .

(٦) سورة خافر ، آية : ١٦ .

أما الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون (١) ؟

وقوله (وكان يوما على الكافرين حسرًا) ، أى : شديداً صعباً ، لأنه يوم حذل وقضاء فصل ، كما قال تعالى : (فلذلك يومئذ يوم صبر : على الكافرين غير يسير (٢)) ، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى : (لا يضرهم القزع الأكبر وتلفاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون (٣)) ؛

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن خزيمة ، حدثنا دَرَّاج ، عن أبي المنيم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول الله : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أشعث عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا (٤)) ،

وقوله : (ويوم بعض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) ، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذى لا صبرية فيه ، وسلك طريقاً أشعى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة تقدم حيث لا ينضمه التندم ، وحضر على يديه حسرة وأسفا .

وسواء كان سبب زوالها في حقيقة بن أبي مخطئ (٥) أو غيره من الأشقياء ، فإنها حامة في كل ظالم ، كما قال تعالى : (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا ، إنا أطعنا سادتنا وكبرانا فاضلونا السبيلا . وربنا آتهم ضيق من العذاب والمنهم لنا كبرا (٦)) . فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويغص على يديه قاتلاً ، (يا ليتني ، اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلاً) ، ينى : من صرفه عن الهدى ، وحذل إلى طريق الضلالة ، وسواء في ذلك أمة بن خلف ، أو أشعو بن بن خلف ، أو غيرهما .

(لقد أضلني عن الذكر) - (وهو القرآن) - (بعد إذ جافني) ، أى : بعد بلوغي إلى ، قاله الله تعالى : (وكان الشيطان للإنسان خذولاً) ، أى : يحذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ، ويدعوه إليه ،

(١) مسلم : كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ١٢٦/٨ وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « في الرد على الجهمية » ، الحديث ٤٧٢٢ : ٢٣٤/٤ ، وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما انكرت الجهمية » ، الحديث ١٩٨ : ٧١/١ - ٧٢ ، كتاب التزهد ، باب « ذكر البيت » ، الحديث ٤٢٧٥ : ١٤٢٩/٢ .

(٢) سورة الم نشر : آية ٩ : ٩٠ .

(٣) سورة الأنبياء : آية ١٠٣ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧٥/٢ .

(٥) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس ٦/١٩ : « كان أبي بن خلف يصغر النبي - صلى الله عليه وسلم - لزوجره عقبة بن أبي معيط ، فنزل : (ويوم بعض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) إل قوله : (خذولاً) ، قال : (الظالم) عقبة ، و (فلانا خليلاً) أبي بن خلف . »

(٦) سورة الأحزاب : الآيات ٦٦ - ٦٨ .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿١٠٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكُنِّي بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى غيبراً عن رسوله ونبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - أنه قال : (يارب ! إن قومي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصَنِّفُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَسْمَعُونَهُ ، كما قال تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون (١)) ، وكانوا إذا نزل عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في خبره ، حتى لا يسمعه . فلهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تعبد به وتلقاه من هجرانه ، وترك العمل به واستتال أوامره واجتنب زواجره من هجرانه ، والملكوت لله إلى غيره من شر أو قول أو غناء أو طم أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه ، فسأل الله الكريم للناس القادر على ما يشاء أن يخلصنا عما يستخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، وإقامة معتضاه آداء الليل وأطرافه النهار ، على الوجه الذي يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب :

وقوله : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) ، أي : كما حصل لك - يا محمد - في قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان في الأمم الماضية ، لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالتهم وكفرهم ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يحيى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك مافتلوه ، للهم وما يفترون : ولنصلي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه وليقتروا ما هم مقترون) (٢) . ولهذا قال هاتما : (وكفى بربك هاديا ونصيرا) ، أي : إن اتبع رسوله ، وكفى بكتابته وصدقه واتهمه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة : وإنما قال (هاديا ونصيرا) لأن المشركين كانوا يصدون الناس من اتباع القرآن ، لئلا يفتنى أحد به ، ولتظلي طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿١٠٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى غيبراً عن كثرة اضراض الكفار وتمتعهم ، وكلامهم فيما لا يعنيه ، حيث قالوا : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) ، أي : فلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله ، كالانجيل والزيور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجيا في ثلاث وعشرين

(١) سورة فصلت ، آية : ٢٦ .

(٢) سورة الأنعام ، الآيات : ١١٢ ، ١١٣ .

سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال : (وقرأنا فرقاه لتقرأه على الناس كل مكث ، ونزلناه تنزيلا (١)) ، ولهذا قال : (لتثبت به فؤادك ، ونزلناه تنزيلا) -- قال قتادة : وبيناه تنبيهاً وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيرا (٢) .

(ولا يأتوك بمثل) ، أى : بحجة وشبهة (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ، أى : ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا أجبتهم بما هو الحق في نفس الأمر ولين وأوضح وأفصح من مقالتهم .

قال سعيد بن جببر ، عن ابن عباس : (ولا يأتوك بمثل) ، أى : بما يلتبسون به عيب القرآن والرسول (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ، أى : إلا نزل جبريل من الله بمراسمهم .

ثم في هذا اعتناء كبير ، لشرف الرسول -- صلوات الله وسلامه عليه -- ، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صياحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سقرا وحسرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب للقبليمة ، فلهذا المقام أهل وأهل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء -- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -- فالقرآن أشرف كتاب أنزل الله ، ومحمد -- صلوات الله وسلامه عليه -- أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفات مما في المثل الأعلى أنزل جملة من الوحي المحفوظ إلى بيت الغزة في مياه الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض متجسداً بحسبه الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن السائي : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن حكيم ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى مياه الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في حشرين سنة ، قال : (ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ، وقوله : (وقرأنا فرقاه لتقرأه على الناس كل مكث ، ونزلناه تنزيلا) .

ثم قال تعالى خبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات : (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) . وفي الصحيح ، عن أنس : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : (إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة (٣)) : وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين .

(١) سورة الإسراء ، آية ٩٠٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٨/١٩ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الفرقان : ١٣٧/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : يحشر الكافر على وجهه : ١٣٥/٨ . وقد أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في تفسير سورة الإسراء ، انظر تحفة الأسوسى ، الحديث : ٥١٥٠ .

٥٧٨/٨ - ٥٧٩ . وانظره في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة أيضاً : ٣٥٤/٢ ، ٣٦٣ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿١٠٠﴾ فَقُلْنَا أَفْبَهِ الْاِقْرَمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَذَرْنَهُمْ يَلْمُوا ﴿١٠١﴾ وَذَرْنُوهُمْ لَنَا كَذِبًا أُولَئِكَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالًا ۖ وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠٢﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَضْبَحَ الْمُرْسِ وَفَرُّونا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿١٠٣﴾ وَكَأَ مَا ضَرَبْنَاهُ الْإِنشِلَ وَكَأَ مَا نَبَّأْنَا نَبِيْرًا ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقُرْآنِ الْاَنبِيَاةَ الَّتِي أَمْلَأَتْ مَطَرُ السَّوْدِ أَكْمَلُ يَكُونُوا بِرَبِّهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُصْرًا ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى متعلما من كذب رسوله محمداً - صلوات الله وسلامه عليه من مشركي قومه ومن بنيانه، وعجزهم من عقابه وألم حذابه، بما أحله بالأمر الماضية للملكين لرسله، فبدأ بذكر موسى عليه السلام؛ وأنه ابنته وجعل معه أخاه هارون وزيراً؛ أي: نبياً مؤمراً ومؤيداً وناصراً؛ فكلبهما فرعون وجترده، ثم الله عليهم والكافرين أمثالها (١)، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ومن كلب برسول فقد كلب جميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فأنهم كانوا يكذبونه، ولهذا قال: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعهم إلى الله، ويعلمهم نعمة، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أفرقهم الله جميعاً، ولم يبق منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط.

﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ ، أى: عبرة يسيرون بها ، كما قال تعالى ﴿ إنا لا على الماء حملناكم في الجارية ﴾ لتجعلكم لهم تذكرة وتعبها أذنا وافية (٢) ، أى : وأيقينا لكم من السفن ما تكونون لثجيج البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الفرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمروه .

وقوله : (وعادوا ويؤذون) قد تقدم الكلام على قصتهما في غير ما سورة ، منها في سورة الأعراف : بما أفنى من الإعادة .

وأما أصحاب الرمس فقال ابن جرير ، عن ابن عباس : هم أهل قرية من قرى نهود (٣) .

وقال ابن جریر : قال حکمة : أصحاب الرمن بفکج وهم اصحاب یس . (۴)

وقال قتادة : فُكِّجَ من قري اليمامة »

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي حاتم ، حدثنا الفصحاك بن عثمة أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله (وأصاب الرمن) ، قال : ثم يأخذه جان .

(۱) سورة محمد : آية ۱۰ .

(٢) سورة الحاقة ، آية : ١١ و ١٢ هـ

(٣) تفسير الطبري ١: ١٩٠.

(4) النظر مرصده الاطلاق : ٦١٦/٢ • ١٠٤١/٢ •

«فَأَمَّا أَصْحَابُ الْوَيْحِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ (١)» عَنْ حِكْمَةَ : الرِّسَ بِرَ وَسَوَّاهَا (٢) نَبِيَهُمْ : أَي دَفَنُوهُ بِهَا .
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنْ أَوَّلَ النَّاسِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سَمِعَ تَوْبَهُ وَتَوَابَكَ - بَعَثَ نَبِيًّا إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ ، فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا ذَلِكَ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ ، ثُمَّ إِنَّ [أَهْلَ] الْقَرْيَةِ حَدَّثُوا عَلَى النَّبِيِّ ، فَخَضَعُوا لَهُ بِرَأْفَتِهِ فِيهَا ، ثُمَّ أُطِيقُوا عَلَيْهِ بِحَجَرٍ ضَخْمٍ (٣) ، قَالَ : فَكَانَ ذَلِكَ الْعَبْدُ يَلْهَبُ فَيَحْتَطِبُ عَلَى ظَهْرِهِ ، ثُمَّ يَأْتِي بِحَبْلِهِ فَيُبِيضُهُ ، وَيَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا وَشَرَابًا ، ثُمَّ يَأْتِي بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ ، فَيُرْفِعُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ ، وَيَعِيْنُهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، فَيُلْقِي إِلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ ، ثُمَّ يَرُدُّهَا كَمَا كَانَتْ . قَالَ : فَكَانَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَهَبَ يَوْمًا يَحْتَطِبُ كَمَا كَانَ [يَصْنَعُ] ، فَجَمَعَ حَبْلُهُ وَحَزَمَ حَزْمَتَهُ وَفَرَعَ مِنْهَا ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَجَدَ سِتْرًا (٤) ، فَاصْطَلَحَ خُتَامَ . فَضَرَبَ [اللَّهُ] عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ نَائِمًا ، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَتَمَطَّى ، فَتَنَحَّلَ لِشَقَةِ الْآخَرِ فَاصْطَلَحَ ، فَضَرَبَ [لَهُ] عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَى . ثُمَّ إِنَّهُ هَبَ وَاحْتَمَلَ حَزْمَتَهُ وَلَا يَحْسِبُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، فَجَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَيَاغِ حَزْمَتَهُ ، ثُمَّ اشْتَرَى طَعَامًا وَشَرَابًا كَمَا كَانَ يَصْنَعُ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْخَفِيفَةِ فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ ، فَاتَّسَمَ فَلَمْ يَجِدْهُ . وَكَانَ قَدْ بَدَأَ لِقَوْمِهِ فِيهِ بَدَأَهُ ، فَاسْتَخْرِجُوهُ وَأَتَمُّوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ . قَالَ : فَكَانَ نَبِيُّهُمْ يُسَلِّمُ عَنْ ذَلِكَ الْأَسْوَدِ : مَا قُلْتَ ؟ يَقُولُونَ لَهُ : مَا نَدْرِي . حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ النَّبِيَّ ، وَأَمْسَكَ الْأَسْوَدَ مِنْ تَوْبَتِهِ بِمَنْدَ ذَلِكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنْ ذَلِكَ الْأَسْوَدَ لِأَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ .

هَكَذَا رواه ابن جرير (٥) ، عَنْ ابْنِ حُمَيْدٍ ، عَنْ سُلَيْمَةَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ مَرْسَلًا ، وَفِيهِ طَرَاةٌ وَتَكْرَارٌ ، وَلَهُ فِيهِ إِدْرَاجٌ (٦) ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَمَّا ابْنُ جَرِيرٍ فَقَالَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ هَوْلًا عَلَى أَهْلِهَا أَصْحَابِ الرِّسِّ الْخَلْفَيْنِ ذِكْرًا لِيُتَرَفَّعَ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُ أَهْلُكُمْ ، وَهَوْلًا قَدْ بَدَأَ لَمْ أَتَمُّوا بِنَبِيِّهِمْ ، أَلَيْسَ لِأَنَّ يَكُونَ حَدِثَ لَمْ أَحْدَثُوا ، كَتَبُوا بِاللَّهِ بِمَدِّ هَلَاكِهِمْ (٧) . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) فِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ : «عَنْ أَبِي بَكْرٍ» . وَهِيَ خَطُوطُ الْأَزْهَرِ مِنَ الْأَصْوَابِ ، وَهِيَ «مَرْزُوقُ أَبُو بَكْرٍ الْهَمْدِيُّ» . مَرْجُومٌ فِي التَّجْلِيدِ : ٨٧/١٠ ، وَالْمَجْرُوحُ : ٢٦٣/١/٤ . يَرُودُ عَنْ حِكْمَةَ ، وَهِيَ الْفُورِي .

(٢) فِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ : ١٩/١٠٠ .

(٣) فِي الْمَقْصُودَةِ : «يُخْبِرُ أَحْمَدُ» . وَكَانَتْ مِنْ تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ وَقَدْ رُفِعَ الْمُنْتَوَى . وَهُوَ أَنْسَبُ بِالسَّيَالِ : أَمَّا الْمَجْرُوحُ الْأَسْمُ فَهُوَ الصَّلْبُ ، وَالرَّادُ هُنَا ثَقُلَ الْحَبِيرُ وَهَسَلَتْ .

(٤) لَمْ يَرْجِعْ السُّبُوطِيُّ فِي الدَّرَجَةِ الْمُنْتَوَى عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ وَابْنِ جَرِيرٍ : ٧١/٥ .

(٥) فِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ : ١٩/١٠٠ - ١١٠ .

(٦) الْمُدْرَجُ مِنْ مَصْطَلَحَاتِ حِلْمِ الْحَدِيثِ ، وَهُوَ أَقْسَامُ ، أَسْجَدُ : مَدْرَجٌ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِأَنَّهُ يَذْكُرُ الرَّأْيَ فَتَقْبَلُهُ كَلِمًا لِنَفْسِهِ أَزْهَرُ ، فَيُرْوِيهِ مِنْ بَدَنِهِ مُتَّصِلًا بِالْحَدِيثِ مِنْ خَيْرِ أَسْمَالٍ ، فَيَعْتَمِدُ أَنَّهُ مِنَ الْحَدِيثِ . الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ عَنْهُ خَتَانٌ بِإِسْنَادَيْنِ ، فَيُرْوِيهِمَا بِأَسْجَدٍ . الثَّالِثُ : أَنْ يَسْمَعَ حَدِيثًا مِنْ جِهَةٍ مُخْتَلِفَتَيْنِ [إِسْنَادَهُ أَوْ مَتْنَهُ] ، فَيُرْوِيهِ عَنْهُمَا بِإِسْنَادٍ ، وَلَا يَبَيِّنُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ .

يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : تَمَدُّ كُلِّ وَاسِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ حَرَامٌ ، وَصَلْبُهُ مَنْ يَخْرِفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعَ ، وَهُوَ مُلْحَقٌ بِالْكَذِبِ : أَمَّا مَا أُدْرِجَ لِتَفْسِيرِ فَرِيدٍ فَيُرْوَى عَنْهُ ، وَقَدْ فَهِمْتُ الْأَزْهَرِيَّ وَغَيْرَ وَاسِدٍ مِنَ الْأَمَةِ .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ هُنَا مِنَ الْأَوَّلِ .

(٧) كَلَّمَ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : وَلَفْظُ الطَّبْرِيِّ : ١١/١٩ : «... فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا الْمُنْهَوَيْنِ يَقُولُهُ (وَأَصْحَابُ الرِّسِّ)» لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ أَصْحَابِ الرِّسِّ أَنَّهُ مَرْمُوحٌ تَعْمِيرًا ، إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُوا دَفَنُوا بِأَحَادِيثِ أَشْهُدَاؤِهِ بِمَدِّ نَبِيِّهِمْ الَّذِي اسْتَخْرِجُوهُ مِنَ الْخَفِيفَةِ وَأَتَمُّوا بِهِ ، فَهِيَ ذَلِكَ وَجْهًا .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخنود ، الذين ذكروا في سورة البروج ، فانه أعلم ؛ وقوله : (وقرونا بين ذلك كثيرا) ، أى : وأما بين أضفاف من ذكر أهلكتهم كثيرة ، ولها قال : (وكلا هبنا له الأنفال) ، أى : بينا لهم الحجج ، ووضّحنا لهم الأدلة — كما قال قتادة : أرحنا عنهم الأعداء — (وكلا تبرنا تبتيرا) ، أى : أهلكنا إهلاكاً ، كقوله : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح (١)) .

والقرون : هو الأمة من الناس ، كقوله : (ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين (٢)) . وحدّه بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة سنة ؛ وقيل : بثمانين سنة ؛ وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك ؛ والأظهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جبل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم (٣) . الحديث .

وقوله : (ولقد أنزلنا على القرية التي أمطرت مطر السوء) ، بنى قرية قوم لوط ، وهي سدوم وبعملتها (٤) التي أهلكها الله بالقلب ، وبالمطر الحسابة من سجيل ، كما قال تعالى : (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنشرين (٥)) ، وقال : (وإنكم لثمرون عليهم مصبين • وبالبال أغلا تعقلون (٦)) ، وقال تعالى : (ولها لبسيل مقيم (٧)) ، وقال : (ولها إمام مبین (٨)) : ولها قال : (أقلم يكونوا يرونها) ، أى : فيعتبروا بما حكل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وخالفهم أوامر الله .

وقوله : (بل كانوا لا يرجون نشورا) ، يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورا ، أى : معاداً يوم القيامة .

وَإِذَا رَأَوْهُ تَتَكَلَّفُونَ لَوْلَا أَهْلَكُنَا اللَّهُ رُسُلًا ﴿١﴾ إِنَّكَ لَنَظِيلُنَا عَنْ هَٰمِئِنَّا لَوَلَّا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ أَهْلَ سَبِيلًا ﴿٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ صَلِيًّا وَكِيلًا ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إذا رآوه ، كما قال : (وإذا رآك الذين كفروا إن يتكلمونك إلا هزوا : أهذا الذى يذكر آياتكم ؟ (١)) يعنونه بالغيب والتقص ، وقال هاهنا : (وإذا

(١) سورة الإسراء : آية ١٧ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٣١ .

(٣) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب : ولا يشهد على جور إذا شهد : ٢٢٤/٢ . وسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب

فضل الصحابة ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم : ١٨٤/٧ .

(٤) يقصد بالمعلة ما يتبع سدوم من القرية .

(٥) سورة الشعراء : آية ١٧٤ .

(٦) سورة الصافات : آية ١٣٧ : ١٣٨ .

(٧) سورة الحجر : آية ٧٦ .

(٨) سورة الحجر : آية ٧٩ .

(٩) سورة الأنبياء : آية ٣٦ .

وأولك إن يفتلوك إلا هزواً أهلاً للذي بعث الله رسولا ؟ : أى : على سبيل التقصص والأجزاء - قبضهم الله - كما قال : (وقد استعزى به يرسل من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أغلقتهم فكيف كان عقاب) ؟ (١) .

وقولهم : (إن كاد ليقبضنا من آخنتا ، لولا أن صبرنا عليها) ، يعنون أنه كاد يشقيهم عن عبادة أصنامهم ، لولا أن صبروا وتحملوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متعللاً لهم ومتعللاً : (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أفضل سيلا) .

ثم قال تعالى لنبيه ، منيها له أن من كتب الله عليه الشقاوة والفضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله .

(أ رأيت من اتخذ إلهه هواه) ، أى : مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه ، كان دينه ومذهبه ، كما قال تعالى : (أفن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تلعب نفسك عليهم حسرات (٢)) . ولما قال هاهنا : (أنأنت تكون عليه وكيلاً) - قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يبعد الحجير الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبدَ الثاني وترك الأول .

ثم قال : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يقتلون إن هم إلا كالأعنام ، بل هم أضل سبيلاً) ، أى : أسوأ حالا من الأعنام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٣٤﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٣٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكَ الْإِيلَ لِيَأْسَ وَالتَّوَمَّ سَبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ سُوْرًا ﴿٣٦﴾

من هاهنا شرح تعالى في بيان الأدلة الباقية على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمضافة ، فقال : (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل مَدَّ الظِّلُّ ؟) - قال ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، وجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ، والفضلك ، والحسن البصري ، وقتادة ، والسدي ، وعمره ، هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (٣) . (ولو شاء لجعله ساكناً) ، أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى : (قل : أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة) ، (قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة) (٤) . وقوله : (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) ، أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسدي : دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله »

(١) سورة الرعد آية : ٣٢

(٢) سورة قلم آية : ٨ .

(٣) انظر تفسير الطبري : ١٢/١٩ - ١٣ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٧١ - ٧٢ .

وقوله : (لم يقبضناه إليها قبضاً يسيراً) ، أي : النخل . وقيل : الشمس : (يسيراً) ، أي : سهلاً - قال ابن عباس : سريعا . وقال مجاهد : خفيفاً . وقال السدي : قبضاً خفيفاً ، حتى لا ياتي في الأرض ظلال إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلمت الشمس ما فوقه :

وقال أيوب بن موسى : (ثم قبضناه إلينا قبضاً بغيراً) ، أى : قليلاً قليلاً ،

وقوله : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً) ، أى : يابس الوجود ويغشيه ، كما قال : (والليل إذا يغشاها) (١) ،
(والنوم مبيتاً) ، أى : قطعاً للحركة لراحة الأبدان ، فان الأعضاء والجوارح تتكبد من كثرة الحركة في
الاستمرار بالنهار في المشاى ، فاذا جاء الليل وسكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم للذي فيه راحة
البدن والروح معاً :

(وجعل النهار نورا) ، أي : يشرق الناس فيه بالحسنى ومكسبهم وأسيابهم ، كما قال تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه وتبغضوا من فضلها ولعلكم تشكرون (٢)) :

وَوَالَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَالزَّائِمِينَ السَّمَاوَاتِ طُحُورًا ۚ نَسْجِدُ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَارِهُونَ ۚ إِنَّ هُمْ لَشَرٌّ مُرْسَدُونَ ۚ وَلَقَدْ مَرْسَنَهُمْ بِمِثْلِهِ ۚ وَإِنَّا لَهُ لَنَالِيذُ الْكَوْثَرِ ۚ

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه متى يرسل الرياح مثيرات ، أى : يحث السحاب عليها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التصغير ، فمتى ما يثير السحاب ، ومتى ما يحمله ، ومتى ما يسوقه ، ومتى ما يكون بين بدئ السحاب مثيراً ، ومتى ما يكون قبل ذلك يَكْمُرُ الأرض (٢) ، ومتى ما يتلصق السحاب ليضم ، ولذا قال : (وأترأى من السماء ماء مطوراً) ، أى : آلة يظهر بها ، كالسحُور والوقود (٣) ، وما جرى مجراه ، فهذا أصح ما يقال فى ذلك ، وأما من قال : إنه يقول معنى فاعل ، أو : إنه مبنى للفاعلة أو الضمى ، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم (٤) ، ليس هذا موضع بسطها ، والله أعلم :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، عن أبي جعفر الرازي ، عن حماد بن حمزة الطويل ، عن ثابت البناني قال : دخلت مع أبي العلاء في يوم مطير ، وطرق البصرة فبكوه ، فسلمي فقلت له ، فقال : (وأنت لنا من السماء ماء طهوراً) قال : طهروه ماء السماء .

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وهيب ، عن داود ، عن معبد بن السيف عن هذه الآية :
(وأولئك من الماء ماء طهوراً) لا ينجه شيء .

(١) سورة الشمس ، آية : ٤ .

(٢) سورة القصص : آية : ٧٧ .

(۲) لی: ہیکسہا۔

(٤) في الخطوة : « الوجود » ، وهو خطأ ، وانثبت من تفسير القرطبي عند هذه الآية : ٢٩/١٢ .

(٥) النظر تقصير الطيرى : ٢٩/١٣ - ٥٠ : قد مرض هذه الآراء : كما ينتظر البحر المحيط لأبي جهم : ٥٠٥٤٧ .

وجن أبي سعيد قال : قيل : يا رسول الله ، أتوضأ من يتر بضاعة ؟ - وهي يتر يلقى فيها التخن ولحوم الكلاب - فقال : إن الماء طهور لا ينجسه شيء : رواه الشافعي ، وأحمد وصححه ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي (١) ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبي يحدث عن سيار ، عن خالد ابن يزيد - قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فينزل به (٢) الرعد والبرق : فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فما كان من السماء . وروى عن حكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة . وقال غيره : في البر يتر ، وفي البحر دُرّ :

وقوله : (لنحيي به بلدة ميتاً) ، أي : أرضاً قد طال انتظارها للحيث ، فهي هامة لانبثاق فيها ولا شيء : فلما جاءها الحيا (٣) عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان ، كما قال تعالى : (فلذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج (٤)) .

(ونسقيه بما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً) ، أي : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشرابهم وزروعهم ونسارهم ، كما قال تعالى : (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطرا وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد (٥)) ، وقال تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يهيئ الأرض بعد موتها إن ذلك لشيء الموقن ، إنه على كل شيء قدير (٦)) .

وقوله : (ولقد صرفناه بينهم ليلذكروا) ، أي : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فر حل الأرض وقملها وجازها إلى الأرض الأخرى ، لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة البالغة . قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : (ولقد صرفناه بينهم ليلذكروا) أي : أكثر الناس إلتفاتاً .

أي : ليلذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات : أو : ليلذكر من منع التساثر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقطع عما هو فيه ،

(١) مستند الإمام أحمد : ١٥/٣ - ١٦ - ٣١ - ٨٦ . وسنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب « ما جاء في يتر بضاعة » . الحديث ١٧/١ : ١٦٦ . والترمذي ، أبواب الطهارة ، باب « ما جاء أن الماء لا ينجسه شيء » ، الحديث ٢٠٣/١ : ٢١٥ . والنسائي ، كتاب المياه ، باب « ذكر يتر بضاعة » : ١٧٤/١ .

(٢) أي : يجعله مطراً .

(٣) الحيا - مقصوراً - : المطر .

(٤) سورة الحج ، آية ٥ .

(٥) سورة الثوري ، آية : ٢٨ .

(٦) سورة الروم ، آية : ٥٠ .

وقال صَمْرٌ مولى مُعَرَّة : كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ، إني أحب أن أعلم أمرَ السحاب ؟ قال : فقال جبريل : يأتي الله ، هذا ملك السحاب فله : قال : تأتي صبيحتك مَسْحَمَةٌ : أمس بلادك وكنها ، وكلها قطرة (١) . رواه ابن أبي حاتم ، وهو حديث موثق .
وقوله : (فإني أكثر الناس لإِكْفورا) ، قال حكيم : يعني الذين يقولون : مطرنا بِنَوْمِ (٢) كذا وكذا .

وهذا الذي قاله حكيم كما صَحَّ في الحديث المخرَج في صحيح مسلم ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوماً ، هل أثر مياه أصابتهم من الليل : أتدرون ما أنا قال ربيكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب . وأما من قال : مطرنا بنوم كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب (٣) .

وَلَوْ شِئْنَا لَظَهَرَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرٌ (١) فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّمَ بِهِ جِهَادٌ كَبِيرٌ (٢) * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَوْمَازٍ عَذَّبَ قَوْمًا وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَجَهًا عَجُورًا (٣) * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ نَارِهِ سَبْعًا يُعَلِّمُ سَبْعًا وَصِفَرًا (٤) وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥)

يقول تعالى : (ولو شئنا لظهر في كل قرية نذير) ، يدعهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك - يا صمد - بالجنة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، (لأنلوكم به ومن بلغ (٤)) ، (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده (٥)) ، (لتعلم أم لا تعلم ومن حوطا (١)) (قل : يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعاً (٦)) . وفي الصحيحين : بحث إلى الأحمر والأسود ؛ وفيهما : وكان النبي يبحث إلى قومه خاصة ويبحث إلى الناس عامة (٨) . ولهذا قال : (فلا تطع الكافرين وجاهلهم به) ، يعني : بالقرآن ، قاله ابن عباس (٩) ، (جهاداً كبيراً) ، كما قال تعالى : (يا أيها النبي ، جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم (١٠)) .

(١) الأثر في التور المشهور للسيوطي ، من ابن أبي حاتم ، ص ٧٣/٥ .

(٢) كانت العرب تصيب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى التور . وهو : مقود التور في الكفر مع التور وطولع التور بإثباته من ساحت بالشرق .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : ويحد كفر من قال : مطرنا بالنوم ، ص ٩٤/١ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ١٩ .

(٥) سورة هود ، آية ١٧ .

(٦) سورة الأنعام ، آية ٩٣ .

(٧) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ .

(٨) تقدم الحديثان عند الآية الأولى من هذه السورة ، ورحمنا الله بذلك .

(٩) تفسير الطبري ، ص ١٥/١٩ .

(١٠) سورة التوبة ، آية ٧٤ .

وقوله : (وهو الذي مرج البحرين ، هذا حلب فرات وهذا ملح أجاج) ، أي : حلق المأمن : الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والمين والآبار ، وهذا هو البحر الحلو القرات الملب الزلال . قاله ابن جريج (١) . واختاره ابن جرير . وهذا الذي لا شك فيه ، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو حلب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليذكروه ، فالبحر الملب هو هذا الساحل بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وصحواً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : (وهذا ملح أجاج) ، أي : مالح مَزْعَاق (٢) لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغرب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق (٣) وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والمند وبحر الروم وبحر الهند ، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري ، ولكن تتوَجَّع وتضطرب وتفتل (٤) في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجنوز ، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فإذا شرع الشهر في نقصان جُمَزَتْ (٥) ، حتى ترجع إلى غابتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة لم تشرع في النقص ، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - المادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحاً للماء ، فلا يحصل بسببها تنفُّع المفاو ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجزى (٦) الأرض عما جرت فيها من الحيران : ولا كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحياً وميتها طيبة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر : أترضأ به ؟ فقال : هو الطهور ماؤه ، الحِلُّ ميتته . رواه الأئمة : مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد (٧) .

وقوله : (وجعل بينهما برزخاً وحجراً) ، أي : بين العلب والمالح (برزخاً) ، أي : حاجزاً ، وهو البَيْتَس من الأرض ، (وحجراً صجوراً) ، أي : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) فيأى آلاء ربكما تكليبان (٨) ، وقال تعالى : (أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها روافي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون (٩)) .

(١) يذهب أنه قد وقع سقط من تفسير الحافظ ابن كثير ، فإثر ابن جريج - كما في التفسير الطبري ١٩ / ١٦ - : ولم أجد بحراً طيباً إلا الأنهار والدايب ، فإن دجلة تقع في البحر ، فأعبرني الكثير بما أنها تقع في البحر فلا تنور فيه ، بينهما مثل المحيط الأبيض ، فإذا رجعت لم يرجع في طريقها من البحر شيء ، والنيل يصب في البحر . وانظر أيضاً الدر المنثور ٥ / ٧٢ .

(٢) ماء زهاق : مرغلط : لا يطلق شره .

(٣) الزقاق - كما في مراصد الاصلاح - : مجاز البحر بين طنجة ، مدينة المغرب على البحر المتصل بالإسكندرية ، والجزيرة القديرة وهي في جزيرة الأندلس ، وبينهما اثنا عشر ميلاً .

(٤) أي : تضطرب وتبجج .

(٥) جزو للماء يجر - يجر الزلوى وكسرها - : نقص .

(٦) أي : تتكاثف .

(٧) تقدم الحديث في سورة المائدة ، عند تفسير الآية الثالثة منها ، وخرجناه هناك . انظر : ١٢ / ٢ .

(٨) سورة الرحمن ، الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٩) سورة النمل ، آية : ٦١ .

وقوله : (وهو الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا) ، أى : خلق الإنسان من طرفة ضعيفة ، فسواه وعذله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكرا أو أنثى ، كما يشاء ، (فجعله نسبا وصهرا) ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسب ، ثم يتزوج فيصير صهرا ، ثم يغير له أصهار وأخنان وقرابات : وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال : (وكان ربك قديرا) .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٢٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ وَقُولْ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَا يَمُوتُ وَنَسِخَ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَتُوبُ حَبَابَهُ خَيْرًا ﴿٢٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٢٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّجِدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجِدُ لِمَا نَأْمُرُ بِمَا وَآدَعُمُ تَقْوَىٰ ﴿٣٠﴾

يُخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام ، الى لا تمك لم تقم ولا غرا ، بلا دليل قادم الى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل مجرد الآراء ، والتشهى والأمواه ، فهم يوالونهم ويقاوتون فى سبيلهم ، ويمادون الله ورسوله فهم ، ولهذا قال : (وكان الكافر على ربه ظهيرا) ، أى : حوفاً فى عينى الشيطان على سبب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة لهم يصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (١)) ، أى : آلهتهم الى اتخذوها من دون الله لا تمك لم نصرا ، وهؤلاء الجبهة للأصنام جند محضرون يقاوتون عنهم ، ويتكبرون عن حوزتهم ، ولكن الماقية والنصرة لله ورسوله فى الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : (وكان الكافر على ربه ظهيرا) ، قال : يظهر الشيطان على معصية الله ، يهينه (٢) .

وقال سجد بن جببر : (وكان الكافر على ربه ظهيرا) ، يقول : حوفاً للشيطان على ربه بالعداوة والفرار .

وقال زيد بن أسلم : (وكان الكافر على ربه ظهيرا) ، قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله — صلوات الله وسلامه عليه — : (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) ، أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً إلى عذاب شديد لمن خالف أمر الله .

(قل ما أسألكم عليه من أجر) ، أى : على هذا البلاغ وهذا الانذار من أجرة أظنهم من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله ، (إن شاء منكم أن نسقي (٣)) ، (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) ، أى : طريقاً ومسلكا ومنهجاً يقتضى فيها بما جئت به .

(١) سورة يس : آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) لتفسير الطبري : ١٧ / ١٩ .

(٣) سورة التكاوير : آية ٢٨ .

ثم قال : (وتوكل على الحي الذي لا يموت) ، أى : فى أمورك كلها كُنْ متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً ، الذي هو (الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)^(١) ، الدائم الباقي السرمدي الأبدى ، الحي القيوم ربّ كل شيء ومليكه ، اجعله ذُخْرَكَ وملجأكَ ، وهو الذي يُتَوَكَّلُ عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وتناصرك وموئيدك ومعتقك ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فإبلى رسالتك) ، والله يصمك من الناس (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نقيط قال : قرأت على معقل - يعنى ابن حنبل - عن عبد الله بن أبي حنبل ، عن شهر بن حوشب قال : لقي سلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض فجاج (٣) المدينة ، فسجد له ، فقال : لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحي الذي لا يموت : وهذا مرسل حسن ؟

: وقوله تعالى : (وصح محمد) ، أى : اقرن بين حملته وتسيبته [، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سبحانك اللهم ربنا وصمك] ، أى : أخصص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً)^(٤) .

وقال : (فاعبه وتوكل عليه)^(٥) ، (قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا)^(٦) .

وقوله : (وكفى به بدون عباد خيراً) ، أى : لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام) ، أى : هو الحي الذي لا يموت ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه ، الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع ، فى ارتفاعها واتساعها ، والأرضين السبع فى سفلها وكثافتها ، (فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ، أى : يدير الأمر ، ويقضى الحق ، وهو خير القاصدين .

وقوله : (ثم استوى على العرش الرحمن فأسألك به خيراً) ، أى : استعلمت من هو خير به عالم به فاتيحه واقتد به ، وقد حكم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه على سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذي لا ينطق عن ملهى ، إن هو إلا وحى يوحى - فما قاله فهو حق ، وما أنشأه فهو صلبق ، وهو الإمام الحكم الذي إذا تنازع الناس فى شيء وجب ردّ تراجمهم إليه ، فما يوافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها فهو مردود على قائله وقاعله ، كما تنمى كان ، قال الله تعالى : (فان تنازعتم فى شيء - فردوه إلى الله والرسول)^(٧) ،

(١) سورة الحديد آية ٣

(٢) سورة المائدة آية ٦٤

(٣) أنه : طريقها .

(٤) سورة الزلزل آية ٩

(٥) سورة هود آية ٢٣

(٦) سورة الملك آية ٢٩

(٧) سورة النساء آية ٥٩

وقال : (وما اخلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله (١)) ، وقال تعالى : (ونعت كلمة وبك صدقا وعدلا (٢))
 أى : صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ، ولهذا قال : (فاسأل به خبيراً) - قال مجاهد في قوله : (فاسأل به
 خبيراً) ، قال : ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك : وكلنا قال ابن جرير :
 وقال شمر بن عطية في قوله : (فاسأل به خبيراً) ، قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى متكرراً على المشركين الذين يسجدون لعن الله من الأصنام والأنداد : (وإذا قيل لم اسجدوا للرحمن
 قالوا : وما الرحمن ؟) أى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسمَّى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك
 يوم الحديبية حين قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن
 ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم (٣) . ولهذا أقر الله : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ،
 أياًما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٤) ، أى : هو الله وهو الرحمن : وقال في هذه الآية : (وإذا قيل لم اسجدوا للرحمن
 قالوا : وما الرحمن ؟) أى : لا نعرفه ولا نقر به ، (أنسجد لا تأمرنا ؟) أى : لمجرد قولك ؟ ، (وزادهم تقورا) :
 أما المؤمنون فلأنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ، ويقرُّون به بالإلهية ويسجدون له ، وقد اتفق العلماء - رحمهم الله -
 على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروعة عندنا لقارنتها ومستمعها ، كما هو مقرر في موضعه ، والله أعلم .

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ لِيَلْبِغَ وَالنَّجْمَ ظُفًى
 لِّمَن يَرَاهُ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَلْغَمَهُ لِيَخْشَاهُ الْغُفَّاءُ ﴿٧﴾

يقول تعالى مجدا نفسه ، ومعظما على جميل ماخلق في السماء من البروج - وهي الكواكب - العظام : - في قول
 مجاهد (٥) ، وصعيد بن جبير ، وأبي صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هي قصور في السماء للحرس ، يروى هذا عن علي ، وابن عباس ، وعبد بن كعب ، وإبراهيم النخعي ،
 وسليمان بن مهران الأعمش : وهو رواية عن أبي صالح أيضا ، والقول الأول أظهر ؟ اللهم إلا أن يكون الكواكب
 العظام هي قصور للحرس ، فيجمع القولان ، كما قال تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما
 للشياطين (٦)) ، ولهذا قال : (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً) ، وهي الشمس المنيرة ، التي هي
 كالسراج في الوجود ، كما قال : (وجعلنا سراجاً وهاجاً (٧)) .

(١) سورة الشورى ، آية : ١٠ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ .

(٣) سورة ابن هشام : ٢ / ٣١٧ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ١١٠ .

(٥) تفسير البكري : ١٩ / ١٩ .

(٦) سورة الملك ، آية : ٥ .

(٧) سورة النبا ، آية : ١٣ .

(وأمراً متبراً) ، أي : مضياً مشرقاً بتور آخر ونوع ، وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : (وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا (١)) ، وقال خبراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً : وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً (٢)) .

ثم قال : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) ، أي : خلف كل واحد منهما الآخر ، يعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذلك ، كما قال : (وسفر لكم الشمس والقمر ذابين وسفر لكم الليل والنهار (٣)) ، وقال : (ينفث الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر مسجرات بأمره (٤)) وقال : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون (٥)) .

وقوله : (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) ، أي : جعلهما يعاقبان ، توفيقاً لعباده عباده له ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وقد جاء في الحديث الصحيح : (إن الله تعالى ينسب يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل (٦)) .

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو حنيفة (٧) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقبل له : صليت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقي عليّ من ردى شيء ، فأحييت أن أمته — أو قال : أنفسه — وتلاهذه . (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) ،

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : قوله : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمل ، أدركه النهار ، أو من النهار أدركه بالليل (٨) . وكلما قال عكرمة ، وسعيد بن جبيرة ، والحسن .

وقال مجاهد ، وقادة : (خلفة) ، أي : خلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضياؤه .

(١) سورة يونس : آية ٥ .

(٢) سورة نوح : آية ١٥ : ١٦ .

(٣) سورة إبراهيم : آية ٣٣ .

(٤) سورة الأعراف : آية ٥٤ .

(٥) سورة يس : آية ٤٠ .

(٦) مسلم ، كتاب القوية ، باب قبول القوية من الذنوب ، وإن تكررت القوية والقوية : ٩١/٨ . وأخرجه الإمام أحمد عن أبي موسى : ٣٩٥/٤ : ٤٠٤ .

(٧) في الخطوط : حدثنا أبو حمزة . والمواب ما أثبتناه ، وأبو حنيفة هو واصل بن عبد الرحمن ، منجم في كتب الرجال يروى عن الحسن . وانظر نسخة المسبوك : ٧٧/١ ، في مسند حديث آخر .

(٨) تفسير الطبري : ٢٤/١٩ .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ
 سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٣﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
 وَمُقَامًا ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٥﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) ، أى : بسكينة ووقار من غير جبّية (١) ولا استكبار ، كما قال : (ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا (٢)) ، فأما هؤلاء فهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع (٣) تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم - صلى الله عليه وسلم - إذا مشى كأنما ينحط من صتّب ، (٤) وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رؤيئاً ، قال : ما بالاك ؟ أنت مريض ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين . فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما المراد بالخرق هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا (٥) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن يحيى (٦) بن الخضر ، عن الحسن البصري في قوله : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) قال : إن المؤمنين قوم ذكّل ، ذلت منهم - والله - الأصابع والأبصار والجوارح . حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم تنظف من الخوف ما لم يدخل غيهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا فاطم من نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، أبكاكم الخوف من النار ، وإنه من لم يضر بهزاء الله تنفّخ نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب ، فقد قل علمه وحسن علمه (٧) .

وقوله : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، أى : إذا سئمه عليهم الجاهل بالحق ، لم يقابلهم عليه بمثله ، بل يهفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تريد شدة الجهل عليه إلا حلاً ، وكما قال تعالى : (وإذا سمعوا القرآن من أعزها منه قالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا تفتني الجاهل (٨))

(١) الجبرية - يفتح الجيم والياء - : الكبر .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٣٧ .

(٣) في غسوطه الأزهر : من الصابع . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) أى : من موضع متحط .

(٥) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب : للمشي إلى الجمعة : ٩/٢ . وسلم ، كتاب المساجد ، باب : استعمالها إتيان الصلاة بوقار وسكينة ، وأبى عن إتيانها سبيحاً : ٩٩/٢ - ١٠٠ .

(٦) في الغلوطة : « هر بن الخضر » . والمثبت من تفسير الطبري : النظر ترجمة يحيى بن الخضر : في الخلاصة .

(٧) تفسير الطبري : ٢٢/١٩ .

(٨) سورة القصص ، آية : ٥٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأصمعي ، عن أبي خالاد الوالي ، عن الثعلبي بن مضر بن العزكي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - [وسب رجل رجله عنده] قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن (١) ملكا بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به : وإذا قال له : عليك السلام ، قاله : لا ، بل (٢) عليك ، وأنت أحق به (٣) . إسناده حسن ، ولم يخرجوه .

وقال مجاهد : (قالوا سلاماً) ، يعني قالوا : سلاماً .

وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفاً من القول .

وقال الحسن البصري : (قالوا : سلاماً) ، قال : حياء لا يجهلون ؛ وإن جهل عليهم حلموا ، يصاحيون عباد الله تباركهم بما يصحون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل - (٤)

وقوله : (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) ، أي : في عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالآبصار هم يستفرون) (٥) . وقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعونهم خوفاً وطعناً ، وعمازقتهم ينفقون) (٦) ، وقال : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) (٧) الآية ، ولهذا قال : (والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً) ، أي : ملازماً دائماً ، كما قال الفاسر : (٨) .

إِنْ يُشَدَّ بِكَ يَكُنْ عَذَابُكَ ، وَإِنْ يَنْتَ طَرِ جَوَلَا ، فَإِنَّهُ لَا يَكُنْ (٩)

ولهذا قال الحسن في قوله : (إن عذابها كان غراماً) ، كل شيء يصيب ابن آدم ويؤذي عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض (١٠) . وكذا قال سليمان التيمي .

وقال محمد بن كعب : (إن عذابها كان غراماً) ، يعني : ما نعوذ في الدنيا ، إن الله سأل الكفار عن الجنة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار (١١) .

(إنها سمعت مستظراً ومقاماً) ، أي : نفس المترك منظرًا ، ونفس المكمل مقاماً .

(١) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد ، وقد سقط من مخطوطة الأثر .

(٢) لفظ المسند : وقال : لا ، بل لك ، أنت أحق به .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٤٥/٥ .

(٤) الأثر في النار المنتشر : ٧٦/٥ ، ٧٧ ، عن عبد بن سبيد ، وقد وقع اضطراب في اللفظ في مخطوطة الأثر . وما أشتاده من النار المنتشر .

(٥) سورة اللّٰهيات ، آية : ١٧ ، ١٨ .

(٦) سورة السجدة ، آية : ١٦ .

(٧) سورة الزمر ، آية : ٩ .

(٨) هو الأضفى سبيون بن قيس ، ديوانه ما يروى : ١٦٧ ، والبيت أيضاً في تفسير الطبري : ٢٣/ ١٩ .

(٩) في الديوان وتفسير الطبري : « إن يملأه يكن ... » .

(١٠) الأثر في النار المنتشر عن عبد بن سبيد : ٧٧/٥ .

(١١) تفسير الطبري : ٢٣ / ١٩ .

قال ابن أبي حاتم عند قوله : (إني سأمت مستقرا ومقاماً) : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طُرح الرجل في النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تصحب ، قال : فيسقى كأساً من سُمِّ الأسود (١) والمقارب ، قال : فيميز الجلد (٢) على حدة ، والشعر على حدة ، (والمصعب على حدة) والعروق على حدة :

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبيد ابن عمر قال : إن في النار لسجائباً (٣) فيها حيات أمثال البخت (٤) ، وعقارب أمثال البغال الذئم (٥) ، فإذا قلبت بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأنزلت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم ، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حر النار وجعت :

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سلام - يعني ابن مسكين - عن أبي ظلال ، عن أنس ابن مالك - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن عبداً في جهنم لينادى ألت سنة : يا فتان ، يا فتان ، فيقول الله لجبريل : اذهب فأخبري بعدي هذا : فيطلق جبريل فيجد أهل النار منكبين يبيكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : آخى به فإنه في مكان كذا وكذا . فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : يا عبي ، كيف وجدت مكانك ومقبلك ؟ فيقول : يارب ، شر مكان وشر مقبل ! فيقول : ودوا عبي . فيقول : يارب ، ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ! فيقول : ودوا عبي (٦) .

وقوله : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) ، أي : ليسوا بجبارين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهلبيهم فيقصرون في حقهم فلا يكتفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وبخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، (وكان بين ذلك قواماً) ، كما قال : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام بن خالد ، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم (٨) النسائي ، عن حمزة ، عن أبي النرداء ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : من قته الرجل رقه في معيشته (٩) : ولم يخرجوه :

(١) الأسود : جمع أسود ، وهو أبيض الخياشيم وأحطها .

(٢) مازده يمزّه : مزله .

(٣) سجائب : جمع جب - يضم الجيم - وهو : البئر .

(٤) البخت - يضم فسكون - : الإبل الخراسانية .

(٥) الذئم - يضم فسكون - : جمع أدلم ، وهو الأسود .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٣٠/٣ .

(٧) سورة الإسراء : آية ٢٩ .

(٨) كان في القسوة : وجه الله بن أبي مريم ، ولكن النسخ أحاد : مريم ، بك ، تميم ، وهو حدثنا ، والسراب من

المسند والتملاص .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١٩٤/٥ .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا أبو حنيفة الخداد ، حدثنا سكين بن (١) عبد العزيز الميموني ، حدثنا إبراهيم المجتري عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حال من اقتصد (٢) ، ولم يخرجوه ، وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون ، حدثنا معبد بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن يونس بن مينا ، عن حنيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن القصد في الشيء ، وأحسن القصد في الفقر ، وأحسن القصد في العبادات . ثم قال : لا نعرفه يروي إلا من حديث حنيفة رضي الله عنه : وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو صرف . وقال غيره : السرف الثقة في معصية الله . وقال الحسن البصري : ليس الثقة في ميل الله صرف .

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۖ

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجهل الله تبارك وتعالى وهو خلقك . قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولداً خشياً أن يطعمه مملوك . قال : ثم أي ؟ قال : أن ترائي حيلة جارلك . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) (٣) وهكذا رواه النسائي عن حنيفة بن العري ، عن أبي معاوية ، به (٤) .

وقد أخرجه البخاري ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور - زاد البخاري - وواصل - ثلاثتهم عن أبي وال ، شقيق بن سلمة ، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به ، والله أعلم ، ولقظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي اللذات أحق ؟ الحديث (٥) .

(١) في المخطوطة : «سكين» . والكتاب عن المستدرك والعلامة .

(٢) منه الإمام أحمد : ٤٤٧/١ .

(٣) منه الإمام أحمد : ٣٨٠/١ ، والطبري أيضاً : ٤٣٩/١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ .

(٤) الحديث في كتاب المنيب للشيخ من غير هذه الطرق ، النظر كتاب تحريم الدم ، باب وذكر أظم الذنب ... ٨٩/٧ : ٩٠ .

(٥) انظر تفسير سورة الألفاظ : الآية ١٥١ ، ٣٥٦/٢ ، قد خرجنا الحديث هناك من المصنفين .

طريق غريبه ، وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأوزاعي ، حدثنا عامر بن ملوك ، حدثنا السري - يعني ابن إسحاق - حدثنا الشعبي ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعه ، فجلس على نَشْر (١) من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهي حيال ركبتيه ، وانحنيت غلوتي وقلت : بأبي أنت وأبي يا رسول الله ، أئى اللئوب أكبر ؟ قال : أن تنحوه نأ وهو غفلتك . قلت : ثم مه ؟ قال : أن تقتل ولدك كراهية أن يعطس ملك . قلت : ثم مه ؟ قال : أن توفى حليته جارك . ثم قرأ : (وللذين لا يدينون مع الله إلها آخر) : الآية (٢)

وقال النسائي : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يساف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : ألا إنما هي أربع ، فأنا بأشبح عليهن مني (٣) منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنا ، ولا تسرقوا ،

وقال الإمام أحمد : حدثنا حل بن اللبني - رحمه الله - حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري ، سمعت أبا طيبة الكلابي ، سمعت للقداد بن الأسود - رضى الله عنه - يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ما تقولون في لزنا ؟ قالوا : حرمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لأن يزني الرجل بمشرك نسوة أسير عليه من أن يزني بامرأة جاره . قال : ما تقولون في السرقة ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله ، فهي حرام . قال : لأن يسرق الرجل من امرأة أسير عليه من أن يسرق من جاره (٤) .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا حماد بن نصر ، حدثنا بقية ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن الميمون بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال ، ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطقة وضعا رجل في رحيم لا يصل له (٥) .

وقال ابن جرير : أخبرني يعل ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك كانوا فاكثروا ، وزكوا فاكثروا ، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي يقول وتدعو إليه لمن ، لو تخبرنا أن الله جعلنا كفارة ، فتركت ، (واللذين لا يدينون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون) ، وتزلت : قل : يا صنادي الذي أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطروا من رحمة الله ، إن الله يفرح باللئوب جميعاً ،

(١) النَشْر : الموضع المرتفع .

(٢) تفسير الطبري : ٢٦/١٩ - ٢٧ .

(٣) في المخطوطة : « عليهن شيء » ، والمثبت من مصنف الإمام أحمد ، والحدِيث لم نجده في هجتي التفسير . وحرر في السنة من طريق منصور بإسناده . انظر : ٣٣٩/٤ .

(٤) مصنف الإمام أحمد : ٨/٦ .

(٥) تقدم الحديث بهذا الإسناد في سورة الإسراء ، منه الآية ٣٢ في النور ٣٠/٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبي ثعلبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل : « إن الله يهلكك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، ويهلكك أن تقتل وليلك وتغفل كليلك ، ويهلكك أن ترى حيلة جارك » قال سفيان : وهو قوله : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون) ،

وقوله : (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) - روى عن عبيد الله بن عمرو أنه قال : (أثاماً) : واد في جهنم ، وقال حكيمه : (يلق أثاماً) ، أودية في جهنم يطلب فيها الثأنة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقال قتادة : (يلق أثاماً) : نكالا ، كنا نحدث أنه واد في جهنم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والثأنة ، فإن أوله عاقلة ، وآخره للدامة ، وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره ، عن أبي أمامة الباهلي - موقوفاً ومروفاً - : أن : غيا ، وأثاماً : يثران في قبر (١) جهنم . أجازنا الله منها بجمعه وكرمه ، وقال السدي : (يلق أثاماً) جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ، ولهذا فسره بما بعده مبدياً منه ، وهو قوله : (يضاعف له العذاب يوم القيامة) ، أي : يكرر عليه ويغلفه ، (ويغلف فيه مهاتاً) ، أي : حقيراً ذليلاً . وقوله : (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً) ، أي : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القيحية ماذكر (إلا من تاب) في الدنيا إلى الله من جميع ذلك ، فإن الله يحب عليه .

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً) (٢) فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال تعالى : (إن الله لا يغير أن يشرك به ويغير ما دون ذلك لمن يشاء) . (٣)

وقد ثبت السنة الصحيحة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررنا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب ، وقيل منه (٤) ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله خفورا رحيماً) ، في معنى قوله : (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قولنا أحسنها : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك ، فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات (٥) .

(١) تفسير الطبري : ٢٩/١٩ .

(٢) سورة النساء ، آية : ٩٣ .

(٣) سورة النساء ، آية : ٤٨ .

(٤) تقدم الحديث في سورة النساء : ٣٣٥/٢ . وهرجناه هناك .

(٥) تفسير الطبري : ٢٩/١٩ .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية (١) :

بُدِّلْنَ بِعَدَّةٍ حَرَّةٍ غَرِيْبَةٍ • وَيَمْدَدَ طُيُوكَ النَّفْسَ الْوَجِيْبَةَ (٢)

يعنى : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها ؛

وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا ، يكون الرجل على هيئة قبيصة ، ثم يبدله الله بها غيرها .

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم عبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم بقتل الملبدين قتالاً مع الملبدين المشركين ؛ وأبدلهم بكناح المشركات كناح المؤمنات (٣)

وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالجهنم جحشاً ، وبالكفر إسلاماً ؛

وهذا قول أبي العالبة ، وكافة ، وجماعة آخرين ،

والقول الثاني : أن تلك السحبات للأضية تنقلب بنفس التربة النصبوح حسناً ، وماذا إلا أنه كلما تذكر ما مضى لهم واسترجع واستغفر ، فيقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيرم أقيامته وإن وجدته مكرباً عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحبت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى - وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المروزي بن مريد ، عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأحرف أعر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ؛ يوقى رجل فيقول : إنحوا كبار ذنوبه وسلوه من صغارها ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً - فيقال : فإن لك بكل سنة حسنة ؛ فيقول : يارب ؛ عملت أشياء لأرأها هاهنا ؛ قال : فضمك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يلت لوانجه (٤) ؛ واقرء به مسلم (٥) ،

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثني أبي ، حدثني يوسف ابن زعدة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطني صحيفتك ؛ فيعطيه إياها ، فاجرد في صحيفته من حسنة عما بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وتكتب حسناً ، فإذا أراد أن يتم أحدكم فليكتب ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويعبد أربها وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، ذلك مائة (٦) .

(١) البيت في تفسير الطبري : ٣٥/١٩ غير ملحوظ .

(٢) وجبت القلب وجيهاً ، خلق .

(٣) تفسير الطبري : ٣٩/١٩ .

(٤) مستد الإمام أحمد : ١٧٠/٥ .

(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : إذا نزل أهل الجنة منزلة فيها : ١٢١/١ - ١٢٢ .

(٦) الآثار في الترمذي المظهر عن الطبراني رحمه : ٨٥/٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة وعامر قالوا : حدثنا ثابت - يعني ابن يزيد أبو زيد (١) - حدثنا حاتم ، عن أبي عثمان ، عن سليمان قال : يطلى رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته - فإذا كاد يسود ظنه نظر في أسفلها فإذا حسنته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنتا (٢) .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود ، حدثنا أبو العنيس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم يا أبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنتا .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سييار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبي الضيف - وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : للثقلين ، ثم الشاكرين ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين : قلت : لم يسوا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات والسيئات فاعطوا فيهم بأعمالهم ، فقرأوا سيئاتهم حرفا جرفا - قالوا : يا أبا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسنتنا ؟ فبعد ذلك دعا الله السيئات وجعلها حسنتا ، فبعد ذلك قالوا : هاؤم اقرءوا كتابي ، فهم أكثر أهل الجنة .

... وقال علي بن الحسين زين العابدين : (يبدل الله سيئاتهم حسنتا) ، قال : في الآخرة .

وقال مكحول : ينظر هالم فيجعلها حسنتا . رواها ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب (٣) .

عليه السلام .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير التمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو جابر ، أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ، رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة (٤) إلا اقتصمها يمينه ، أو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوقيتهم (٥) ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسلمت ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فإن الله غافر لك ما كنت كذالك ، ومبدل سيئاتك حسنتا . فقال : يا رسول الله ، وهذا ركني وهذا ركني ؟ فقال : وهذا ركنك وهذا ركنك ، فوالله الرجل يهلك ويكبر .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة ، عن صفوان بن حمره ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن أبي فروة - شطب (٦) - أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : رأيت رجلاً على اللثوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ،

(١) ثابت بن يزيد مترجم في البحر والتمهيد لابن أبي حاتم : ٢٦٠/١/١ .

(٢) أخرجه السيوطي أيضاً في الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم : ٧٩/٥ .

(٣) تفسير الطبري : ٣٠/١٩ .

(٤) الداجة : كلمة مؤنثة لحاجة .

(٥) أي : أهلكهم .

(٦) كذا ، وشطب - كما في أصله الفاية ٥٢٤/٢ - يعني أبا طویل . والآخر أيضاً في الدر المنثور : ٢٨/٥ من البهوي . وابن قانع ، والطبراني بإسنادهم إلى أبي طویل شطب المنعقد .

فهل له من توبة ؟ فقال : أسلمت ؟ فقال : نعم ، قال : فاعلم الخيريات ، واترك البهائم ، فيجعلها الله لك خيرات كلها . قال : وعندنا في وسعنا ؟ قال : نعم : قال : فما زال يكبر حتى تروى (١) .

ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي ، عن ياسين الزيات ، عن أبي سلمة الحمصي ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن زياد مرفوعاً .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن طريح الثمالي ، عن عبيد (٢) بن أبي عبيد ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : جاعني امرأة قالت : هل لي من توبة ؟ إلى زيت وولدت وقتلته : فقلت : لا ، ولا نعمت (٣) العين ولا كرامة : فقامت وهي تدعو بالحسرة : ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بشها قلت : أما كنت تقرأ هذه الآية : (والذين لا يلهون مع الله إلا آخر) إلى قوله : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً) فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله خفواً رحيماً) قرأنا عليها ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي خيراً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي رجاله من لا يُعرفه والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم ابن المنذر الخزرجي بسند صحيح ، وعنده : فخرت تدعو بالحسرة وتقول : يا حسرتا ! أنصتني هذا الحسن لئلا ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعلق بها في جميع دور المدينة فلم يجد من يفلحها من أهله المظلة جادته ، فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذي جعل لي خيراً وتوبة مما عملت وأعفت جارية كانت معها وابنتها (٤) ، وتاب إلى الله عز وجل (٥) .

ثم قال تعالى مخبراً عن موم رحمه بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنبه كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) ، أي : فإن الله يقبل توبته ، كما قال تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله خفواً رحيماً) (٦) ، وقال : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم) (٧) ، وقال : (قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) (٨) ، أي : لمن تاب إليه .

(١) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة عن أبي بكر بن حاتم يستند من أبي طویل طبخ الممبود : ٥٢٥/٢ .

(٢) في المخطوطة : عن طريح من عبيد بن أبي عبيد الثمالي ، من أبيه . والمثبت من تفسير الطبري ، وانظر ترجمة الطحطاوي في البحر : ٨٥٤/٢/٣ ، وترجمة عبيد في البحر أيضاً : ٤١١/٢/٢ .

(٣) ومعنى : لا نعمت العين : لا حرمت العين ولا قوتها .

(٤) في تفسير الطبري : ووابنها .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧٤/١٩ - ٢٨٠ .

(٦) سورة النساء : آية ١١٠ .

(٧) سورة التوبة : آية ١٠٤ .

(٨) سورة الزمر : آية ٥٢ .

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا حُرِّمُوا بِالْفَوْكِمْ كَرَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَافَتِ رِجَمَهُمْ أَنْ يَرْتَكِبُوا فِيهَا مَعًا وَعَمَّا كَانَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفَرِيقِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتِّقِينَ إِمَامًا ﴿٦٨﴾

وجله أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : (لا يشهدون الزور) هـ قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، والفن ، والباطل .

وقال محمد بن الحنفية : الله والفناء هـ

وقال أبو العالية : وطأوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هي أعياد المشركين هـ
وقال جرير بن عيسى : هي مجالس السوء والخنا (١) .

وقال مالك ، عن الزهري : [شرب الخمر] (٢) لا يحضرونه ولا يربطون فيه ، كجاء في الحديث : «من كان يومئذ بالله ، واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» (٣) .

١- يعقيل : فلما يقوله تعالى : « لا يشهدون الزور » ، أي : شهادة الزور ، وهي الكذب متعمداً على غيره ، ذلك في المصنفين من أبي بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً ، قلنا : بلى ، يا رسول الله ، قال : الشرك بالله وحقوق الولدين . وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور . فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت » (٤) .

٢- قوله يظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون الزور هـ ، أي : لا يحضرونه ، ولهذا قال : « وإذا مروا بالفوكر مروا كراماً » هـ ، أي : لا يحضرونه الزور هـ وإذا اتفق مروهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء هـ ، ولهذا قال : « مروا كراماً » هـ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو الحسين العجلي ، عن محمد بن مسلم ، أخبرني إبراهيم بن ميسرة ، أن ابن مسعود مر ببلو معرضاً (٥) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد أصبح ابن مسعود ، وأمسى كريماً . لو حدثنا الحسن (٦) بن محمد بن سلمة التحوي ، حدثنا حبان ، أنا عبد الله ، أنا محمد بن مسلم ، أخبرني ميسرة قال : يلقي أن ابن مسعود مر ببلو معرضاً فلم يقف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أصبح ابن مسعود مؤمناً كريماً » هـ ٤٠٠ لا إبراهيم بن ميسرة هـ (وإذا مروا بالفوكر مروا كراماً) .

(١) التلذذ في القول .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة . ومكانه في المخطوطة : « والمأوى » .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الأشربة هـ باب « النبي من التمدد على مائدة يدار عليها الخمر » هـ الحديث ٢٠٩٨ هـ ٣٧/٢ .

(٤) تقدم الحديث في سورة النساء هـ عند تفسير الآية الحادية والثلاثين هـ ٢٤٠/٢ هـ وخبرناه هناك .

(٥) في المخطوطة : « معرضاً » .

(٦) ما بين القوسين المعقوفين من الطبعات السابقة هـ وقد كان فيها : « الحسين بن محمد » هـ والسواء من الجرح لابن

وقوله : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صيا وعياناً) - هذه من صفات المؤمنين - (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) (١) ، بخلاف الكافر ، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتعجب (٢) ، ما كان عليه ، بل يبقى مستمراً على كفره وعظيانه وجهله وضلاله ، كما قال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون • وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجساً إلى رجسهم) (٣) .

ف قوله : (لم يخروا عليها صيا وعياناً) ، أي : بخلاف الكافر الذي ذكر بآيات ربه ، فاستمر على حاله ، كأن لم يسمعه أصم أصم أصم .

قال مجاهد : قوله : (لم يخروا عليها صيا وعياناً) : لم يسمعو ولم يسمروا ، ولم يفقهوا شيئاً .

وقال الحسن البصري : كم من رجل يقرأها ويقرأ عليها أصم أصم .

وقال قتادة : قوله تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صيا وعياناً) ، يقول : لم يسموا من الحق ولم يسموا فيه ، فهم - والله - قوم عقلوا من الله وانكشفوا عما سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن حاصم ، حدثنا عبد الله بن حُمران ، حدثنا ابن حزم قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى أقوم مسجوداً ولم يسمع ما مسجوداً ، أسجد معهم ؟ قال : فلا هذه الآية : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صيا وعياناً) ، يعني : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة فلا ينفخ المؤمن أن يكون إصعة ، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بين .

وقوله : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين) ، يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطعمه ويحبه وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يمتنون من يحمل بالطاعة ، فخره به أهيمن في الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صراحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصري - سئل عن هذه الآية - فقال أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً ، أو ولد ولد ، أو أختاً ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جرير في قوله : (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين) ، قال : يهدونك ويحسنون هادئك ، ولا يجرعون حلتنا الجرائر .

(١) سورة الأنفال ، آية ٢ .

(٢) أي : يكتمه .

(٣) سورة النوبة ، آية ١٢٤ و ١٢٥ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمر^(١) بن بشر ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود [يوماً] ، فر به رجل فقال : طوبى لمانين العيينتين الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لو دنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجب ، ما قاله إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحيل الرجل على أن يتمي محضراً غيبه الله عنه ، لا يدري لو شهدته كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم ، لم يجيروه ولم يصدفوه ، أو لا تعلمون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدفين لما جاء به نبيكم ، قد كنتم البلاد بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد^(٢) حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفريقان ففرق^(٣) به بين الحق والباطل ، وفرق بين الرائد وولده ، (حتى) إن كان الرجل يرى والده وولده ، أو أمه كافرًا ، وقد فتح الله له قتلًا قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وإنما إلى قال الله تعالى : (والذين يقولون : ربنا ، حب لنا من أزواجنا وذرياتنا فتره أبصن^(٤)) . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه .

وقوله : (واجلسنا للمؤمنين إماماً) ، قال ابن عباس ، والحسن ، وقادة ، والسدي ، والريبع بن أنس : أغتة يقتدى بنا في الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هدايتهم متصلة إلى غيرهم بالنعم ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآلاً . ولهذا ورد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح ينجو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صلة جلوية^(٥) .

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ يَمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا غَنِيَةً وَسَلَامًا ﴿٦﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧﴾ قُلْ مَا مَعْبُوءُوا بِكُرْبِي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ هَكَلْتُمْ كُفُوفَ يَكُونُ زِينًا ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من انصمات انجميته ، والأفعال والاقوال الجليلة - قال بعد ذلك كله : (أولئك) ، أي : للمتصفون بهذه (مجزون) ، أي : يوم القيامة (الغُرَّة) ، وهي الجنة .

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والفسحاك ، والسدي : سميت بذلك لارتداعها .

(١) في المخطوطة : « يعمر بن بصر » . وصوابه من المصنف ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣١٣/٢/٤ .

(٢) في المخطوطة : « أشد حال » . ولعلبت من المصنف .

(٣) سنة الإمام أحمد ٢/٦ - ٣ .

(٤) مسلم ، كتاب الوصية ، وفيه « وما يعلق الإنسان من الثواب بعد وفاته » : ٧٣/٥ .

(٤٠ صبروا) ، أى : حل القيام بملك ، (ويَلْقَوْنَ فِيهَا) ، أى : فى الجنة (نحية وسلاما) ، أى : يُنْتَقَرُونَ فيها بالصحبة والإكرام . ويلقَوْنَ التَّوْقِيرَ والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن للملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم يا صبرتم ، فتم حقي الشر :

وقوله : (خالدين فيها) ، أى : مقيمين ، لا يظنون ولا يحسبون ، (ولا يموتون) ، ولا يزولون عنها ولا يغيرون عنها حولا ، كما قال تعالى : (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، صلاه خير مجلوز (١)) :

وقوله (حسنت مستقراً ومقاماً) ، أى : حسنت منظراً وملاطت متقبلاً ومزلاً .

ثم قال تعالى : (قل ما يبغى بكم ربى) ، أى : لا يبغى ولا يكره بكم إذا لم تبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليمدوه ويوحده ويبدعه بكرة وأصيلاً .

وقال مجاهد ، وعمر بن شبيب : (ما يبغى بكم ربى) ، يقول : ما يفعل بكم ربى (٢) :

وقال حل بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (قل ما يبغى بكم ربى لولا دعاؤكم) يقول : لولا إيمانكم ، وأعبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لمحب إليهم الإيمان كما حبه إلى المؤمنين .

وقوله : (فقد كذبتم) ، أى : أبها الكافرون ، (فسوف يكون ثواباً) ، أى : فسوف يكون تكليكم ثواباً لكم ، أى : مقتضياً لحلاكم وحلايتكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسره بملك هدى الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والفسطاطى ، وقاعدة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : (فسوف يكون ثواباً) ، أى : يوم القيامة ولا منافاة بينهما ، والله أعلم .

(١) سورة هود : آية ١٠٨ .

(٢) تفسير الطبري : ١٩٠٧ .

تفسير سورة الشعراء

(وهي مكية)

(وتقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها : سورة الجامعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ① يَلْكَ ② أَيْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ③ لَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ ④ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⑤ إِنْ لَمْ تُنْزَلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنِ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُعَدِّدٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْ يَبْتَئُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑧ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَأَيْنَتْهَا مِنْ كُلِّ قَادِحٍ ⑨ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهم مُؤْمِنِينَ ⑩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑪

لما الكلام حل الحروف المقطعة في أوائل السور ، فقد تكلما عليه في أوله تفسير سورة البقرة (١) :

وقوله (تلك آيات الكتاب المبين) ، أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : الذين الواضع ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والحق والرشاد ؛

وقوله (لعلك بانع) ، أى : مهلك (نفسك) ، أى : مما تحرس وتحزن عليهم ، (ألا يكونوا مؤمنين) : وهذه تسليمة من الله لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : (فلا تلعب نفسك عليهم حسرات) (٢) ، وقال : (لعلك بانع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (٣) .

قال مجاهد ، وحكمة ، والحسن ، وقلادة ، وعطية ، والمضحك ، (لعلك بانع نفسك) ، أى : قاتل نفسك . قال الشاعر (٤) :

أَلَا أَيُّهَا الْبَانِعُ الْحَزَنُ نَفْسَهُ • لَشَيْءٍ تَحْتَهُ هَنَ يَدِيهِ الْمَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى : (إِنْ لَمْ تُنْزَلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنِ) ، أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان ففرا ، ولكننا لا نفعل ذلك ، لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى ، وقال تعالى : (ولو شاء

(١) انظر ١٠٦/١ - ١٠٧ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٨ .

(٣) سورة الكهف ، آية : ٦٠ .

(٤) هو ذو الرمة . والبيت في تفسير الطبرى : ١٩٠/٣٧ .

وبك لأمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت نكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (١) ، وقال : (ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين : إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (٢) ، فسك قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حجة البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإزال الكتب عليهم .

ثم قال : (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) ، أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٣) ، وقال : (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) (٤) ، وقال : (ثم أرسلنا رسلا نرى ، كلما جاء أمة وسوطا ملبوسا فأتينا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ، فجعلنا قوم لا يؤمنون) (٥) ، ولهذا قال تعالى هاهنا : (قد كذبوا فسأليهم أنبياء ما كانوا به يستهزئون) ، أي : قد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيطرون نأ هذا التكذيب بعد حين ، (وسيعلم الذين ظلموا لى منقلب ينقلبون) .

ثم تبه تعالى على عظمتهم في سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذي خلق الأرض وأثبت فيها من كل زوج كريم ، من ذرور ونمار وجوارح ،

قال سليمان القوسى ، عن رجل ، عن الشعبي : الناس من لاهت الأرض ، فن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

(إن في ذلك لآية) ، أي : دلالة على قدرة الخالق للأنبياء ، الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا لا آمن أكثر الناس ، بل كلبوا به ورسله وكبه ، وعالفوا أمره واركبوا زواجره .

وقوله : (وإن ربك لمؤتيز) ، أي : الذى عز كل شئ وقهره وظله ، (الرحيم) ، أي : بخلقه ، فلا يجعل على من عصاه بل ينظره ويؤجله ثم يأخذله أخذ عزيز مقتدر .

قال أبو المآلية ، وتنادى ، والريح بين أنس ، وابن إسحاق : العزيز في لقمة واتصافه بمن خالف أمره وعبد غيره .

وقال سعيد بن جبر : الرحيم بمن تاب إليه وأتاب .

(١) سورة يونس : آية ٩٩ .

(٢) سورة هود : آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) سورة يونس : آية ١٠٧ .

(٤) سورة هود : آية ١٠٩ .

(٥) سورة المؤمنون : آية ٤٤ .

وإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ إِنِّي آلَتُومُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ قَوْمُ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٨﴾ وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿٣٩﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٤٠﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبْنَا نُبَارِكُكَ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٤١﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٤٣﴾ قَالَ أَلَمْ نَرْبِكْ فِينَا وَلَبِدَا وَلَبْتُ فِينَا مِنْ عُرْكٍ سِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ رَأَيْتُ مِنَ الْكَاثِرِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ فَعَلْنَاهُ إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٤٦﴾ فَفَرَدْتُ مِنْكَ لَمَّا خِفْتُكَ فَوَهَبَ لِي رَقِي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٧﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ضرباً عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران - صلوات الله وسلامه عليه - حين ناداه من جانبه الطور الأمين ، وكلمه ونجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال : (أن آلت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون : قال : رب إلى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون . ولم هل ذنب فأخاف أن يقتلوا) : هذه أحوال سأل من الله لإزاحتها عنه ، كما قال في سورة طه : (قال : وب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهل . هارون أخى . لشد به أزرى . وأشركه في أمري) : كى نسبك كثيرا . وتذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا . قال : قد أوتيت هؤلاء يا موسى (١) .

وقوله : (ولم هل ذنب فأخاف أن يقتلوا) ، أى : بسبب ما كان قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر : (قال : كلا) ، أى : قال الله له لا تخف من شيء من ذلك كما قال : (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً) ، أى : برهانا فلا يصلون إليك بآياتنا أنما ومن اتبعكمنا الظالمون (٢) .

(فأذهبنا بآياتنا إنا معكم مستمعون) ، كما قال تعالى : (إني معكم أسمع وأرى (٣)) ، أى : إني معكم بحفظي وكنة وكنة ونصري وتأيدى .

(فأتينا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين) ، وقال في الآية الأخرى : (إنا رسولا ربك) ، أى : كل منا رسول الله إليك ، (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) ، أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وفكرك وتعلبك ، لأنهم عباد الله المؤمنين ، وحزبه المختصون ، وهم معك في اللذات الملهى . فلما قال له موسى ذلك عرض فرعون عما هنالك بالكلية ، ونظر بين الأزدراء والنقص فقال : (ألم لرئيك فينا وليداً ، ولبت فينا من عرك سنين) ، (أى : أما أنت الذى ربيناها فينا) ، وفى بيتنا وحلى فراشنا (٤) ، وأمعنا عليه مله من السنين ، ثم هذا هذا قابلت ذلك الإنسان بثلث الفعلة ،

(١) سورة طه : الآيات : ٣٥ - ٣٦ .

(٢) سورة القصص : آية : ٣٥ .

(٣) سورة طه : آية : ٤٦ .

(٤) بكلمة وفراشنا في المخطوطة كلمة لم تليها ، وهى : وهوما .

أَنْ قُلْتُ مَا رَجُلًا ، وَجَعَلْتُ نَعْمَتًا عَلَيْكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ، أَي : الباطلين ، قَالَ ابْنُ جَابِرٍ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسَمٍ ، وَابْنُ أَبِي جَرِيرٍ (١) :

(قَالَ : فَعَلْتُهَا إِذَا) ، أَي : فِي تِلْكَ الْحَالِ ، (وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ) أَي : قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ وَيُنْفِخَ فِي الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَجَاهِدٌ ، وَقَادَةُ ، وَالضَّمْحَاكُ ، وَغَيْرُهُمْ : (وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ) ، أَي : الْبَاطِلِينَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهِيَ كَلِمَةٌ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢) :

(فَضَرَرْتُ مِنْكُمْ مَا خَفَنْكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) أَي : الْحَالِ الْأَوَّلِ الْفَصْلِ وَجَاهِدُكُمْ آخِرَ ، فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ أَطَعْتُمْ سَكَمْتُ ، وَإِنْ خَالَفْتُمْ عَطَلْتُ .

ثُمَّ قَالَ مُوسَى : (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مَنَّا عَلَيْكَ أَنْ صَدَقْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ، أَي : وَمَا أَصَحُّتُ إِلَى وَدَّيْنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَيَجْعَلُهُمْ عِبِيدًا وَخُلَعًا ، تَصْرِفُهُمْ فِي أَمْرَالِكَ وَمَشَاقِّ رَحِيكَ ، أَفَبِكَيْسٍ إِحْسَانُكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَسَأْتُ إِلَى جَمْعِهِمْ ؟ ، أَي : لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتُ بِهِمْ (٣) :

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لَنْ حَوَاشٍ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّكَ وَرَبُّ آبَائِكَ الْأُولِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكَ إِلَّا ابْنُ السُّفْرِ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى غَيْرًا عَنْ كَثَرِ فِرْعَوْنَ ، وَتَوَكُّدِهِ وَطَغْيَانِهِ وَجُحُودِهِ ، فِي قَوْلِهِ : (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟) ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (٢) ، (فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) (٤) ، وَكَانُوا يَجْعَلُونَ الصَّالِحَ - تَعَالَى - وَيَعْقِدُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فِرْعَوْنُ . فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى : (إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، قَالَ لَهُ : وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي ؟ هَكَذَا فَسَّرَهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ نَوَاعِمَ الْخُلُفِ ، حَتَّى قَالَ السَّادِي : هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالَ : فَمَنْ رِبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(١) التفسير الطبري : ٤٢/١٩ .

(٢) قَالَ الطبري فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ٤٢/١٩ - ٤٣ : « وَتَرْتِيبُكَ إِيَّاهِ وَفَرْكَكَ أَسْمَاءَهُ كَمَا اسْتَعْبَدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، نِعْمَةٌ مِنْكَ تَمْنَاهَا عَلَى جَمْعٍ ١٩ وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ ، اسْتَفَى بِدَلَالَةِ مَا ذَكَرَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ : (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مَنَّا عَلَيْكَ أَنْ صَدَقْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) وَفَرْكَتَهُ ، ثُمَّ اسْتَعْبَدَ . فَتَرَكَ ذِكْرَ « وَتَرْتِيبُكَ » ، لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ : (أَنْ صَدَقْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) عَلَيْهِ . وَلِكَيْ يَتِمَّ تَعْلِيلُ ذَلِكَ اخْتِصَارًا .

(٣) سُورَةُ الْقَصَصِ : آيَةٌ ٢٨ .

(٤) سُورَةُ الزَّخْرَفِ : آيَةٌ ٥٤ .

ومن زعم من أهل المتعلق وغيرهم ، أن هذا سؤال من الماهية ، فقد غلط ، فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل من الماهية ، بل كان جاحلا له بالكلية فيما يظهر ، وإن كانت الحجة والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى : لا سأله من ربه العالين (قال : رب السموات والأرض وما بينهما) ، أى : خالق جميع ذلك ومالكة ، وللتصرف فيه وإلهه ، لا شريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها ، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثابتة والسيارات الثابتة ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات ولما ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحترق عليه الجمر ، الجميع حيد له خاضعون ذليلون .

(إن كنتم موقنين) ، أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة : فعند ذلك فرحون إلى من حوله من ملكته وروضاء دولته قائلا لهم ، هل سبيل التهنيم والاستبزاز والتكليب لموسى فيما قاله : (ألا تستمعون ؟) ، أى : ألا تصبرون بما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلها غيره ؟ فقال لهم موسى : (ربكم ورب آبائكم الأولين) ، أى : خالقكم وخالق آباءكم الأولين ، اللذين كانوا قبل فرعون وزمانه . (قال) ، أى : فرعون لقومه : (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) ، أى : ليس له عقل فى دعواه أن سمّ ربا غيره : (قال) ، أى : موسى لأولئك الذين أوحى إليهم فرعون ما أوحى من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) ، أى : هو الذى جعل للمشرق مشرقا وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ، ثوابها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى ستخرجها فيه وقدّرهما ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلحكم صادقا فليمكس الأمر ، وليجعل للمشرق مغربا ، وللمغرب مشرقا ، كما أخبر تعالى عن (الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال لإبراهيم : رب الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فالتب بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين (١)) . ولهذا لما غلب فرعون وانقضت حجته ، حمله إلى استهلاك جاحمه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونال في موسى عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

قَالَ لَنْ أَجِدَ لَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ أَوْلَوْجِشْتَكَ بِشئٍ وَمِجْنٍ ﴿١٠١﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَأَتَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿١٠٤﴾ قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلُهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ طَبِيعٌ ﴿١٠٥﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَإِذَا تَأَمَّرُونَ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَلَائِكَةِ حٰشِرِينَ ﴿١٠٧﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ عَصٍ مُّكَلِّمٍ ﴿١٠٨﴾

لما قامت حل فرعون الحجة بالبيان والمقتل ، حمله إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقام (٢) ، قال : (لئن اتخذت إلها غيره لأجعلنك من المسجونين) . فعند ذلك قال موسى : (أولو جشتك بشئى مبين ؟) ، أى : برهان قاطع واضح ، قال : فالتب به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان

(١) سورة البقرة : آية : ٢٥٨ .

(٢) فى المخطوطة : «وراء هذا المقام مقام» . والكتب من الطبقات السابقة .

مبين) ، أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوام (١) وقم كبير ، وشكل هائل مزج ، (ونزع يله) ، أى : من جبهه ، (فإذا هى يضاء للناظرين) ، أى : تتلأأ كتقطعة من القمر : فيأدر فروعها بشفاة إلى التكذيب والعناد ، فقال للملأ حوله : (إن هذا لساحر عليم) ، أى : فاضل يارع فى السحر : فبرؤج عليهم فروع أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم يهجم وحرضهم على مخالفة ، والكفر به : فقال : (يريد أن يخرجكم من أرضكم يسحره فإذا تأمرون) ، أى : لا أراد أن يلهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أموره وأصلوه وأتباعه ويطلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ (قالوا أرجه وأناه وبشت فى اللذان حاشرين) ، أى : بأنوك بكل صحر عليم) ، أى : أخره وأناه حتى تجمع له من مدائن ملكتك وأقاليم دولتك كل صحر عليم . يقابلونه ، ويأتون بنظر ما جاء به ، فضله أنت وتكون لك النصرة والتأييد : فأجابهم إلى ذلك : وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ، ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة :

جَمِيعَ السَّحَرَةِ لِيَقْنَتَ بِوَمْرِ مَعْلُومٍ ۖ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۖ لَعَلَّنَا نَلْبِسَ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا مِنْ أَكْثَرِينَ ۖ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَهَئِنَّا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا خَائِفِينَ لَهُ ۖ قَالَتْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ لَمُبِينٌ ۖ الْمُرْسَلِينَ ۖ قَالَ لَهُمْ مَوْسَى أَفَلَا تُخْشَوْنَ ۖ فَأَلْفَوْا جِهًا لَّهُمْ وَعَصَبَهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۖ فَأَلْفَى مَوْسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ فَأَلْفَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ ۖ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ رَبِّ مَوْسَى وَهَارُونَ ۖ

ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية (٢) بين موسى والقيبط فى «سورة الأعراف» وفى «سورة طه» ، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يظفروا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجها وتقابل إلا عليه الإيمان ، (بل تلقف بالحق على الباطل فيضمه ، فإذا هو زافت ، ولكم العيلة مما تصفون (٣)) ، (وظل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً (٤)) : ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أمر الناس وأصنهم وأشدهم تحيلاً فى ذلك ، وكان السحرة جميعاً كثيراً ؟ وجما خفياً ، قيل : كانوا اثنى عشر ألفاً . وقيل : خمسة عشر ألفاً . وقيل : سبعة عشر ألفاً . وقيل : تسعة عشر ألفاً . وقيل : بضمة ثلاثين ألفاً . وقيل : لثمانين ألفاً . وقيل غير ذلك ، والله أعلم بعلمهم .

(١) كلما ، ولا تدعى ما ذا يقصد بالقوام ، وهو ليمان ؟

(٢) فى المخطوطة : «المناظرة الفعلية» ، والمثبت من قطعات السابقة .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٦٨ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٨١ .

قال ابن إسحاق : وكان أمرهم واجماً إلى أريهة منهم وهم رؤسائهم : وهم : سائور وهازور وحطط ويصفي (١) ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملوكهم . (فلما جاء السحرة) ، أي : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً (٢) ، وجمع حشمه وخدمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدي فرعون ، يطلبون منه الإحسان إليهم والقرب إليه إن غلبوا ، أي هذا الذي جمعنا من أجله ، فقالوا : (أين لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين) ، أي : وأخص بما تطلبون أجلكم من المقربين عندي وجلسائي . فعدوا إلى المقام المناظرة ، (قالوا : ياموسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا) (٣) ، وقد اختصر هنا هاهنا . فقال لهم موسى : (ألقوا ما أنتم ملقون . فآلقوا حياهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) ، وهذا كما يقوله الجهلة من الروام إذا فعلوا شيئاً : هذا بواب فلان . وقد ذكر الله في «سورة الأعراف» : أنهم (سمروا أصن الناس واسمروهم وجاموا بسحر عظيم) (٤) ، وقال في «سورة طه» : (فلما حياهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف ، إنك أنت الأعلى . وإني ما في عينيك تلقب ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) (٥) . وقال هاهنا : (فأتى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون) ، أي : تحتطفه وجميعه من كل بقعة وتبلمه فلم تدع منه شيئاً ، (فأتى الحق ويطل ما كانوا يعملون : فغلبوا ذلك واتلقوا صاهرين : وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آله خير من آلهتنا . رب موسى وهارون) (٦) ، وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعدو وحجة داهية ، (وقيل أن الذين استنصرهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الزاهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالعزة الباهرة ، فغلب فرعون فكما لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقفاً جريئاً عليه لمة الله ، فعلى إلى المكابرة والنناد ودعوى اليأجل ، فشرع يتجاهلهم ويتوعددهم ، ويقول : (إنه لكبركم الذي علمكم السحر) (٧) . وقال : (إن هذا لكم مكرعه في المدينة انخرجوا منها أهلها ، فسوف تعلمون) (٨) ،

(١) كلما وجدت أسامهم فخر خطوة الأزم ، ولم يقع لنا أثر ابن إسحاق .

(٢) كلما ، ولا نفهم ما المقصود بالوطاق . ولعله من صيغة أهل الشام .

(٣) سورة طه ، آية : ٦٥ - ٦٦ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١١٦ .

(٥) سورة طه ، الآيات : ٦٦ - ٦٩ .

(٦) سورة الأعراف ، الآيات : ١١٨ - ١٢٢ .

(٧) سورة طه ، آية : ٧١ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٢٣ .

قَالَ هَاسِمٌ لَهُ قَبْلَ أَنْ هَذَا نَكْرُهُ لَكِبَرُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّحَرُ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا يَطْعَنُ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْرَاهِيمَ
مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَاحِبَتَكَ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ فَلَوْلَا أَصْغَرُ إِنَّا إِلَهٌ رَبِّنَا مُنْقَلَبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا
خَطِيئَتَنَا إِنَّ كُنَّا أُولَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾

نهدهم فلم يقطع ذلك فيهم ، وتوعدهم لما زادهم إلا إيماناً وصلياً ، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ،
وظهر لهم الحق بعلومهم ما جهل قلوبهم ، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أبداه
به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه . ولهذا لا قال لم فرعون : (أكنتم له قبل أن آذن لكم) ؟
أى : كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا فتناثروا على في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإن
أنا الحاكم المطاع ، (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، لأنهم لم يمتنعوا بموسى
قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أقامهم صناعة السحر ؟ هذا لا يتوقله عاقل .

لم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب ، قالوا : (لا أضرب) ، أى : لا حرج ولا ضرراً ذلك
ولا نبال به (إنا إلى ربنا منقلبون) ، أى : المرجع إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت
بنا ، وسيجزي بنا على ذلك آثم الجزاء . ولهذا قالوا : (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) ، أى : ما قارفناه من الذنوب ،
وما أكرهتنا عليه من السحر ، (أن كنا أول المؤمنين) ، أى : بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فتنههم كلهم ؛

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ فَلَوْسَلَّ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْتُمْ لَنَا غَالِيُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّا بِجَمِيعِ حَاشِرِلَهُمْ ﴿٦٥﴾ فَأَنزَجْنَهُمْ مِنْ جَنَّتٍ وَعَمِيرُونَ ﴿٦٦﴾
وَكُنُوزٌ وَمَقَارٍ كَرِيمَةٍ ﴿٦٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٨﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حُجَّجَ الله وإبراهيمه على فرعون وملكه ، وهم مع ذلك
يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والهلاك ، فأمر الله موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر ،
وأن يغشى بهم حيث يؤمّر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل : خرجهم بهد ما استعاروا من قوم فرعون
حلياً كبيراً ، وكان خروجهم بهم ، فيما ذكر غير واحد من المفسرين ، وقت طلوع القمر : وذكر مجاهد رحمه الله أنه كشف
القمر تلك الليلة ، فأنه أعلم ، وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام ، فدلته امرأة عجزز من
بني إسرائيل عليه ، فاحتلح تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حمله بنفسه عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك
إذا خرج بنو إسرائيل أن يعملوه معهم ، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم ، رحمه الله قال :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عمرو بن محمد^(١) بن أبيان بن صالح ، حدثنا ابن فضل ، عن عبد الله ابن أبي إسحاق ، عن ابن أبي يردة ، [عن أبيه] ، عن أبي موسى قال : ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكبره ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعاهدنا . فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حاجتك ؟ قال : أتاة برحلي وأعتز عطيلي أهل ، فقال : أعجزت أن تكون مثل عجز بني إسرائيل ؟ فقال له أصحابه : وما عجز بني إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أشد الطريق ، قال لبني إسرائيل : ما هذا ؟ قال له علماء بني إسرائيل : نحن نخشعك أن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى تنقل تابوته معنا ، فقال لم موسى : فأبكم يدري أين قبر يوسف ؟ قالوا : ما نعلمه إلا عجز لبني إسرائيل : فأرسل إليها فقال لها : دليني على قبر يوسف . فقالت : والله لا أعلم حتى تعطيني حكي . قال لها : وما حكيك ؟ قالت : حكي أن أكون مملوك في الجنة . فكانه قتل عليه ذلك ، فقبل له : أعطها حكيها . قال : فالتفت معهم إلى بحيرة - مستقيم ماء - فقالت لهم : أنفسيوا^(٢) هذا الماء فلما أنفسيوه قالت : اسفروا ، فلما اسفروا استخرجوا قبر يوسف ، فلما احصلوه إذا الطريق مثل ضربه النهار .

هذا حديث غريب جداً ، والأغرب أنه موقوف ، والله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في نادهم حاج ولا عيب ، غاض ذلك فرعون وشبهه فخصه على بني إسرائيل ، لما يريد الله به من العار . فأرسل مريباً في بلاده حاشرين ، أي : من يمشي الجند ويحميه ، كالنقباء والحجائب ، ونادى فيهم : (إن هؤلاء) - يعني : بني إسرائيل - (لشرة قليلة) ، أي : لطلاقة قليلة ، (وأنهم لنا لغائظون) ، أي : كل وقت يصل لنا منهم ما يفتننا ، (وأنا لجميع حاذرون) ، أي : نحن كل وقت نحذر من غائظهم ولأن أريد أن أسأصل شأنهم ، وأريد اختصامهم : فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : (فأخرجناهم من جنات وجون . وكثر ومقام كرم) ، أي : فخرجوا من هذا النعم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والساتين والآبار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ، (كذلك وأورثناها بني إسرائيل) ، كما قال تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وثقت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون^(٣)) ، وقال تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم آفة ينجسهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون^(٤)) .

(١) ما بين القوسين من ترجمته في المرح والتمثيل : ١١٠/٢٧٣ .

(٢) يقال : نسب الله - من بابي قد - : إذا ذهب في الأرض . ولم نجد منه قطاً متصفاً بها المني .

(٣) سورة الأعراف : آية : ١٣٧ .

(٤) سورة القصص : آية : ٦٥ .

فَأَتَيْنَاهُمُ مُّشْرِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿١٩﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَعْرِضْ بِصَالِكَ الْبَحْرِ فَاغْلُظْ فَكُنْ كُلُّ فِرْقٍ كَاطُودٍ لَّعَاطِمٍ ﴿٢٠﴾ وَأَزَلْنَاهُمْ لَأَيُّرِينَ ﴿٢١﴾ وَأَخْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾

ذكر خبر واحد من المفسرين : أن فرعون خرج في جفطل عظيم وجمع كبير ، هو عبارة عن ملكة الديار المصرية في زمانه ، أولى الجفطل والعقد والدول (١) ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فلما ما ذكره خبر واحد من الإسرائيليات ، من أنه خرج في ألف ألف وسبائة ألف فارس ، منها مائة ألف على خيل دهم ، وقال كعب الأحبار : فيهم ثمانمائة ألف حصان آدمي - ففى ذلك نظر : والظاهر أنه من جازقات بنى إسرائيل ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذي أخبر به هو النافع ، ولم يبين حديثهم ، إذ لا فائدة منه ، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم ،

(فأتيناهم مشرقين) ، أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها : (فلما تراءى الجمعان) ، أى : وأتى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك (قال أصحاب موسى : إنا لمدركون) ، وذلك أنه انتهى بهم السبر إلى سيف (٢) البحر ، وهو بحر القلزم ، فعبار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فلهاذا قالوا : (إنا لمدركون) . قال : كلا ، إن معى ربى سيهدين) ، أى : لا يصل إليكم شيء مما تلحرون ، فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى . أسير هاهنا بكم ، وهو لا يختلف لليجاد ،

وكان هارون عليه السلام في المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة وقد ذكر خبر واحد من المفسرين : أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون : أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام : يا بنى الله ، هاهنا أمرك الله أن تسير ؟ فيقول : نعم ، واقرب فرعون وجنوده ، ولم يبق إلا القليل ، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يقرب بمصاه البحر ، فضربه وقال : انقلب ياذن الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد ، حدثنا عمار بن حمزة : (٣) بن حمزة : (٣) ابن يوسف بن عبد الله بن سلام : أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء ، وللكون لكل شيء ، والكاثر بعد كل شيء ، اجعل لنا مخرجاً : فأوحى الله إليه : (أن أضرِبْ بِصَالِكَ الْبَحْرِ) .

(١) كلاً : وللدول . ولله من الذين يتداولون الأمر ويستشارون فيه .

(٢) سيف البحر : شاطئه .

(٣) في المخطوطة : حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف ، من عبد الله بن سلام . والمثلث من ترجمه في المخرج لاين أبى حاتم .

وقال فتادة : أوحى الله تلك الليلة إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بمصاه فاصمعه له وأطع ، فبات البحر تلك الليلة وله (١) اضطراب ، ولا يدرى من أى جانب (٢) يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون : يا بئى الله ، أين أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر . قال : فاضربه ،

وقال محمد بن إسحاق : أوحى الله - فيما ذكر لى - إلى البحر : أن إذا ضربك موسى بمصاه فافلق له . قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضاً ، فرقا من الله تعالى ، وانتظاراً لما أمره الله وأوحى الله إلى موسى : (أن اضرب بمصاه البحر) ، فضره بها ، وفيها سلطان الله الذى أعطاه ، فافلق (٣) .

وذكر غير واحد أنه كناه فقال : افلق على أبا خالد يقول الله (٤) .

قال الله تعالى : (فافلق فكان كل فرق كالطود العظيم) ، أى : كالجبل الكبير ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والفسحاك ، وفتادة ، وغيرهم .
وقال عطاه الخراساني : هو القَجَّ بين الجبلين .

وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق - وزاد السدى : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام لئام على حيله (٥) كالحيطان ، وبث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فصار ينبساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : (فاضرب لم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دوكا ولا تخشى (٦)) ، وقال فى هذه القصة : (وأزلقنا) ، أى : هناك (الآخرين) .

قال ابن عباس ، وعطاه الخراساني ، وفتادة ، والسدى : (وأزلقنا) ، أى : قربنا (٧) فرعون وجنوده من البحر وأهليتنا إليه .

(وأنجينا موسى ومن معه أجمعين : ثم أغرقنا الآخرين) ، أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم حل دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك .

(١) كلمة اضطراب ، غير ثابتة فى المخطوطة ، ومكانها بهاء ، وكان فى المخطوطة : « فبات البحر تلك الليلة ولم » وفى الطبعات السابقة « وله » ، فأنبتاه .

(٢) فى المخطوطة : « من أى باب يضربه » . فأنبتنا « جانب » عن الطبعات السابقة .

(٣) تفسير الطبرى : ٥٠/١٩ .

(٤) فى المخطوطة : « افلق على إله يقول الله » . وفى الطبعات السابقة : افلق على أبا خالد بإذن الله . وفى تفسير الطبرى من أب السليل ٥٠/١٩ : « قال : إنا أبا خالد » . وفى مستدرك تلج البروس ، مادة خلد : « وأبو خالد كنية البحر كما فى القرون للجيل » .

(٥) كلمة ، ونصبه من استعمالات العامة ، يقولون دوقف على حيله ، أى : انتصب . ولم نجد هذا المصنف المعاصر إلى أنبئت لنا .

(٦) سورة طه ، آية ٧٧ .

(٧) تفسير الطبرى : ٥١/١٩ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا شبابة ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أن موسى عليه السلام حين أمرى يبنى لإسرائيل بلغ فرعون ذلك ، فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا ، والله لا يكره من مسلخه حتى يجمع إلى سبائة ألف من القطيع . فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر ، فقال له : اتفرق . فقال البحر : لقد استكرت ياموسى ، وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأطرق لك ؟ قال : ومع موسى رجل على حصان له ، فقال له ذلك الرجل : أين أمرت يابنى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ، [يبنى البحر ، فألهم فرسه فسبح به فخرج ، فقال : أين أمرت يابنى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه] . قال : والله ما كذبت ولا كذبت . ثم اتضم الثانية فسبح ، ثم مخرج فقال : أين أمرت يابنى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه ؟ قال : والله ما كذبت ولا كذبت . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فصره موسى عصاه ، فانطلق ، فكان فيه اثنا عشر طريقاً (١) لكل سبط طريق يرامون ، فلما خرج أصحاب موسى وتكلم أصحاب فرعون ، انتهى البحر عليهم فأغرقهم .

وفى رواية إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، اضطلم عليهم البحر ، فأرغمى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون معه الله .

ثم قال تعالى : (إن في ذلك لآية) ، أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لمباد الله للمؤمنين ، دلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ، (وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم) تقدم قصته .

وَأَنزَلْ جُثُومَ نَارٍ إِلَىٰ يَمِينِهِمْ ۖ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّكَ كَمِثْلِهِم مِّنْ عَاصِينَ ۖ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَبْصُرُونَ أَوْ يَشْعُرُونَ ۖ قَالُوا يَلْ وَجِدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَّالِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالُوا أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ ءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَلَيْسَ لَهُمْ دَعْوَىٰ لِّأَلَدٍ ۚ أَلَمَبَدِّلُوا

هذه إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليفه لإبراهيم إمام الحضاه ، أمر الله رسوله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه - أن ينزل على أمته ، ليقنوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبى من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشد من قبل ، أى : من صخره إلى كبره ، فإنهم وقت تفتأ وشبه ، أنكروا على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل فقال (لأيه وقومه : ماذا تعبدون) ؟ ، أى : ما هذه القائل إلى أنم لما كانوا ؟ (قالوا : نعبد أصناماً فنظنك كمثلهم من عاصين) ، أى : مقيمين على عبادة وعبادتها ، (قال : هل يسمعون إذ تدعون أو يشعرون أو يبصرون) ، أى : ما هذا شأنهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما وأوا آبائهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يهرعون . فبعد ذلك قال لهم إبراهيم : (أفرأيت ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم دعوى إلا وب السليلين) ، أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً وما تأثر ، فكنت خلتى إلى المصاة ،

(١) فى المخطوطة : « فكان فيه اثنا عشر سبطاً » والمثبت من النص المختار لميوط : « ٥٧/٥ »

فَلَمَّا دَعَا إِلَىٰ آبَالِهِمْ وَلَا أَفْكَرَ فِيهَا : وهذا كما قال تعالى خبراً عن نوح عليه السلام : (فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمُ عَلَيْكُمْ ثَمَ ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُوا) (١) ، وقال هود عليه السلام : (إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ : مَنْ دُونَهُ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنْ رَدَّتْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢) . وهكذا تبرأ إبراهيم من كلهم وقال (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا) (٣) . وقال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كُفَرْنَا بِكُمْ ، وَبِمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا (٤) حَتَّىٰ تَوَمَّنَا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) ، وقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ، يعني : لا إله إلا الله .

وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿١٥٦﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿١٥٧﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿١٥٨﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿١٥٩﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٦٠﴾

يعني : لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ، (الذي خلقني فهو يهدين) ، أي : هو الخالق الذي قدر قدرًا ، وهدى الدلائل إليه ، فكل يجرى على قدر ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء : (والذي هو يطعمني ويسقني) ، أي : هو خالقهم ورازقهم ، بما سخر ويسر من الأسباب السببية والأرضية ، فساق المزون ، وأزول الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأزول الماء حلجا زلالا (نُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا فِي كِتَابٍ) (٥) .

وقوله : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) ، أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلفه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى أمرا للمصلي أن يقول : (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فأسند الإنعام إلى الله سبحانه وتعالى ، والنفس حبكت فاعله أدبا ، وأسند الفضل إلى العبد ، كما قالت الجن : (وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَ أُرِيدُ بِنِ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ أُرَادَ بِهِمْ رَيْبُهَا) (٦) ، ولهذا قال إبراهيم : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) ، أي : إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيري ، بما يقدر من الأسباب الموصلية إليه .

(والذي يميتني ثم يحييني) ، أي : هو الذي يحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ، (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) ، أي : هو الذي لا يقدر على غفر الذنوب في الدنيا والآخرة ، إلا هو ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

(١) سورة يونس ، آية : ٧١ .

(٢) سورة هود ، الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٨١ .

(٤) سورة الممتحنة ، آية : ٤ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٤٩ .

(٦) سورة الجن ، آية : ٦٠ .

وَبِ مَبِّ لِي حَكْمًا وَأُخْفِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرثة جنة
النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٣﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُخْزَوْنَ ﴿١٤﴾ يَوْمَ لَا يُخَفِّعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ
﴿١٥﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلُوبٍ سَلِيمٍ ﴿١٦﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يوثقه ١ ربه ٢ حكماً :

قال ابن عباس : وهو العلم : وقال عكرمة : هو اللب : وقال مجاهد : هو القرآن ، وقال السدي : هو النبوة .
وقوله : (وأخفي بالصلحين) ، أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم
عند الاحتضار : (اللهم في الرفيق الأعلى) (١) قالوا ثلاثاً : وفي الحديث في الدعاء : اللهم أحبنا مسلماً ، وأحب مسلماً ،
ولفقتنا بالصلحين ، غير خزايا ولا مبدين (٢) .

وقوله : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) ، أي : واجعل لي ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقضى به
النفس ، كما قال تعالى : (وتركتنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين) (٣) .
قال مجاهد ، وقتادة : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) ، يعني : الثناء الحسن : قال مجاهد : وهو كقوله تعالى :
(وآتينا أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) (٤) ، وكقوله : (وآتينا في الدنيا حسنة ، وإنه في الآخرة لمن
الصلحين) (٥) .

قال ليث بن أبي سليم : كل ملة تحبه وتؤلفه : وكلما قال عكرمة :

وقوله : (واجعلني من ورثة جنة النعيم) ، أي : أنسم على في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفي الآخرة بأن
تجعلني من ورثة جنة النعيم .

وقوله : (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) كقوله : (وبنا اغفر لي ولوالدي) (٦) ، وهذا مما رجح عنه إبراهيم
عليه السلام ، كما قال تعالى : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا من موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه
إن إبراهيم لأواه حليم) (٧) . وقد قطع تعالى الإحقاق في استغفاره لأبيه ، فقال : (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم
والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم وما نعبدكم وما نعبدون من دون الله كفرتا بكم وبنا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ،
حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول إبراهيم لأبيه : لا تستغفرن لك وما أملك لئن لم أت من الله من شيء (٨)) .

(١) البخاري : كتاب الرقاق ، باب : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : ١٢٢/٨ - ١٢٣ . ومسلم : كتاب السلام

باب : استحباب رقية المريض : ١٥/٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد عن عبد الله الزرق : ٤٢٤/٣ ، ولفظه : « غير خزايا ولا مفقودين » .

(٣) سورة الصافات : الآيات : ١٠٨ - ١١٠ .

(٤) سورة المائدة : آية : ٢٧ .

(٥) سورة النحل : آية : ١٢٢ .

(٦) سورة إبراهيم : آية : ٤١ .

(٧) سورة التوبة : آية : ١١٤ .

(٨) سورة الممتحنة : آية : ٤ .

وقوله : (ولا تخزي يوم يبعثون) ، أى : أجرني من الخزي يوم القيامة و ا يوم أبعث الخلائق أولهم وآخرهم :
قال البخارى في قوله : (ولا تخزي يوم يبعثون) وقال إبراهيم بن طهمان ، عن ابن ابي دثب ، عن سعيد بن ابي
سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن إبراهيم رأى أباه
يوم القيامة عليه القبرة والقشرة (١) :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا أنس ، عن ابن ابي دثب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أنك لا تخزي (٢) يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت الجنة
على الكافرين :

هكذا رواه عند هذه الآية (٣) . وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه مفردة به ، ولقبته : يلقى إبراهيم أباه آزر
يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قشرة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصي ؟ فيقول أبوه : فاليوم
لا أصيبك : فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزي يوم يبعثون ، فأى خزي أخزي من ابني الأبعد ؟ فيقول
الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يكمل : يا إبراهيم ، ما تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بيد يخ (٤) متلطح ،
فيبرئ به يديه فيلقى في النار (٥) .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي في التفسير من سننه الكبير قوله : (ولا تخزي يوم يبعثون) : أخبرنا أحمد بن حنبل
عن عبد الله ، حدثني أبي ، حدثني إبراهيم بن طهمان ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ،
عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه القبرة
والقشرة ، وقال له : قد بينك من هذا فصصني . قال : لكني اليوم لا أصيبك واحدة . قال : يا رب ، وعدتني
أن لا تخزي يوم يبعثون ، فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال : يا إبراهيم . إني حرمتها على الكافرين . فاشد
منه ، قال : يا إبراهيم ، أين أبوك ؟ قال : أنت أشبهتني . قال : انظر أسفل منك . فنظر فإذا ذبيح يتمرغ في
نارته ، فأقبل بقوامه فلقى في النار :

هذا إسناد هريب ، وفيه نكارة :

والليخ : هو الذكر من الضباع ، كأنه حرك أكثر إلى صورة ذبيح متلطح بعدلته ، فيلقى في النار كذلك .
وقد رواه الزيل من حديث جاد بن سلمة ، عن أبيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم : وفيه غرابة : ورواه أيضا من حديث قتادة عن جعفر بن عبد العافر ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، بنحوه :

(١) القشرة - بطع الخفاف والنبات - : القبرة أيضا .

(٢) كلما في خطوطة الأثر . ولفظ البخارى : « وعدتني أن لا تخزي » وفي رواية : « أن لا تخزي » .

(٣) البخارى : تفسير سورة الشعراء ١٣٩/٦ - ١٤٠ .

(٤) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ١٦١/٤ .

(٥) البخارى : كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلا) : ١٦٩/٤ .

وقوله : (يوم لا يضع مال ولا بنون) ، أى : لا يبقى للره من طلب الله ماله ، ولو اتقى على الأرض ذمها .
(ولا بنون) ، ولو اتقى عن فى الأرض جميعا ، ولا يضع يومئذ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والبرى من الشرك .
ولمنا قال : (إلا من أتى الله بقلب سليم) ، أى : سلم من البفس والشرك .

قال محمد بن مبرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريبه فيها ، وأن الله يهتد فى القيور .
وقال ابن عباس : (إلا من أتى الله بقلبه سليم) حوى (١) يشهد أن لا إله إلا الله .

وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : (بقلبه سليم) ، يعنى : من الشرك .

وقال سعيد بن السبب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب المنافق مريض ، قال الله :
(فى قلوبهم مرض) .

وقال أبو عثمان التيباوى : هو القلب الخال من البدة ، الملمن على السعة .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَافِلِينَ ﴿١١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ
هَلْ يَنْصَرُونَكُمْ أَوْ يَنْصَرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَيْبَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَافِلُونَ ﴿١٤﴾ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَوْرَثَهُمْ
فِيهَا مَنَعَصُونَ ﴿١٦﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كَافِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ أَسْرَفَكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ
﴿١٩﴾ لَكُنَّا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٢١﴾ فَلَوْلَا نُنَّا كَرَّةً فَتَكُونُ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ فِي ذَلِكَ
لَكَيْفَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَزِيزٌ بِرُحْمٍ ﴿٢٤﴾

(وأزلفت الجنة) ، أى : قربت الجنة وأدلت من أجلها يوم القيامة مزخرة مزينة لتأظرها ، وهم للمقرن الذين
رغوا فيها ، وعبدوا لها فى الدنيا . (وبرزت الجحيم للغافلين) ، أى : أظهرت وكشفت عنها ، وبدت منها حشوتها (٢٤) ،
فزعرت زعرة بلغت منها القلوب لخنجر . وقيل لأهلها تقريبا وتوبيخا : (أين ما كنتم تعبدون من دون الله ، هل ينصرونكم
أو ينصرون) ٢ : ليست الآفة التى عبدتموها من دون الله ، من تلك الأصنام والأنداد تفتى حكم اليوم شيئا ، ولا تدفع
عن أنفسها ، فإذ ذكروا بإيها اليوم حصب جهنم أنهم لما ولعوا .

وقوله : (فككبوا فيها هم والغافلون) - قال مجاهد : يعنى : فقد هوروا (٢٢) فيها .

(١) كما فى خطوة الأثر . وفى الطبقات السابقة : بقلبه سليم ، القلب السليم أن يشهد . والسيك غير مستقيم لها .
وانظر اللد المنصور : ٩٠/٥ .
(٢) أى : قلعة منها .

(٣) فى اللسان ، دحر . وقال الزجاج فى قوله : (فككبوا فيها هم والغافلون) ، أى : فى الجسم . قال : ومن
« ككبوا » : طرح بعضهم كل بعض . وقال غيره من أهل اللغة : ساء دحوروا . ودحور : سلع ، ودحور كانه . فسم بعض
فى اثر بعض . ودحور الحائط : دحه فسقط .

وقال غيره : كبيراً فيها ؛ والكاف مكررة ، كما يقال : صرصر (١) . والراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقاضهم الذين دعواهم إلى الشرك ، (ويجوز إبليس أجمعون) ، أي : ألقوا فيها عن آخرهم . (قالوا : وهم فيها يفتصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين) إذ نسويكم برب العالمين) ، أي : يقول الضملاء الذين استكبروا : إنا كنا لكم لوما ، فهل أنتم مثنون هنا نصيباً من النار) (٢) . ويقولون وقد جادوا على أنفسهم بالملامة : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين) إذ نسويكم برب العالمين) ، أي : نجعل أكرمكم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وصيدناكم مع رب العالمين ، (وما أرسلنا إلا الخمريون) أي : ما دعانا إلى ذلك إلا الخمريون ، (فما لنا من شافعين) ، قال بعضهم : يعني من الملائكة ، كما يقولون : (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو لرد فتعلل غير الذي كنا نعمل) (٣) . وكذا قالوا : (فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم) ، أي : قريب .

قال قتادة : يملكون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً تقى ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع (٤) . (فلو أن لنا كرة ففكروا لمن يؤمنون) ، وذلك أنهم يمتنون أنهم يردون إلى النار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم فيها يرحمون - وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو ردهم إلى النار الدنيا لجادوا لما نورا عنه وإلهم كاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة « ص » ، ثم قال : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) (٥) .

ثم قال تعالى : (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) ، أي : إن في حاجة إبراهيم لقومه وإقامته الصحيح عليهم في التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، (وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم)

كَلِمَاتٍ قَوْمَ نُوحٍ الْفَارِسِيِّينَ ﴿١٩٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٩١﴾ إِلَى لُحْرِ رَسُولِ آمِينَ ﴿١٩٢﴾ فَأَنفَعُوا
لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٩٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٤﴾ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٩٥﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام ، وهو أول رسول بُعث إلى الأرض بعد ما عبثت الأصنام والأوثان ، بعه الله ناهياً عن ذلك ، وعلماً من ذليل عقابه ، فكلمه قومه واستمروا على ما هم عليه من القفال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم ، وينزل تكليمهم له بمنزلة تكليم جميع الرسل ، ولهذا قال : (كلمت قوم نوح المرسلين) ؛ إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ (إلى لحر رسول آمين) ؟ (إلى لكم رسول آمين) ، أي : أنى رسول من الله إليكم ، آمين فيما بيني به ، أبليكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، (فاتقوا الله وأطيعوا .

(١) انظر لتفسير الطبري : ٥٥/١٩ .

(٢) سورة طه : آية ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٥٣ .

(٤) تفسير الطبري : ٥٦/١٩ .

(٥) سورة « ص » : آية ٦٤ .

وما أسألك عليه من أجر) ، أى : لا أطلب منك جزاء على نصحي لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ، (فانتروا الله واطيعون) ، فقد وضع لكم وبان صديقاً ونصيحاً وأمانتى فيما بينى به واثمنى عليه :

﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴾ ﴿ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ إِنْ جَاءَاصِلٌ إِلَّا عَلَى رَاقٍ ﴾
﴿ لَوْ كُشِّرُونَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

يقولون : أنؤمن لك وتتبعك ، وتتساقى فى ذلك هؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك ، هم أراذلنا ، ولهذا قالوا (أنؤمن لك واتبعك الأردلون) . قال : وما على ما كانوا يعملون (؟) أى : وأى شيء يلزمى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شيء كانوا عليه لا يلزمى الشكيب منه والبحث والتحصن ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياى ، (وأكمل) مرأواهم إلى الله عز وجل ، (إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بظالم للمؤمنين) ، كأنهم سألوها منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : (وما أنا بظالم للمؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين) ، أى : إنما بشت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو رضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

﴿ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبَحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِيٌّ كَدِيدٌ ﴾ ﴿ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ﴾
﴿ وَنَجَّيْتَنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾
﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَكَلِمٌ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهاً وإساراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر التليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : (لن لم تنته) ، أى : من دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح (لتكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) ، أى : لترجمتك . فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : (رب إن قوى كليلون . فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى) ، كما قال فى الآية الأخرى : (فدا ربهم أننى مغلوب فانتصر . ففتحت أبواب السماء ماء منهمر . وفجرنا الأرض حيواناً فاتتى للاء على أمر قد نذر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . نجى بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١)) وقال هاتما : (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ) . ثم أغرقنا بعد الباقين) . وللمشكون : هو المملوء بالأمسة والأرواح التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : نجيناه ومن معه كلهم ، وأغرقنا من كنهه وخالف أمره كلهم ، (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم) .

كَتَبْتُ مَا دَلَّ الْمُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمِمَّا سَأَلْتُم مِّنْ آيَةٍ إِن آجُرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٨﴾ أَتُبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً
تَعْبَثُونَ ﴿١٩﴾ وَتَخْلُدُوهَا مُصْبِحًا لِّمَلَكَ تَخْلُدُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٢١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
أَمْرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ أَمَدًا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَمَدًا بِمَا تَعْبُدُونَ وَبَيْنَ وَجْهَيْكُمْ وَجْهِي وَوَجْهِي إِلَى أَحَافٍ عَلَيْكُمْ
هَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٣﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن أخيه ورسوله هود - عليه السلام - : أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكنون
الأصفاة ، وهي جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح ، كما قال
في سورة الأعراف : (واذكروا إذ جعلكم خلفاً من بعد قوم نوح) واذكم في الخلق بسطة (١) ، وذلك أنهم كانوا في غاية
من قرة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات والعيون ، والأبناء
والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبثون غير الله معه ، فبث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ، ونديراً ، فدعاهم
إلى الله وحده : وحلهم قومه وعلمه في مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : (أتبنون بكل ريح
آية تعبثون) ، اختلف المفسرون في الريح عما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد (٢) الطرق المشهورة - تبثون هناك
بناءً حكماً بآخرًا هالاً ، ولهذا قال : (أتبنون بكل ريح آية) ، أي : معلماً بناءً مشهوراً ، [تعبثون] ، وإنما تعلمون
ذلك حبثاً لا للاحتياج إليه بل لخرق اللبب والهوى وإظهار القوة : ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ، لأنه تضييع
الزمان وإتلاف الأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة .

ثم قال : (وتتخلدون مصانع لعلكم تتخلدون) ، قال مجاهد : المصانع : البروج المشيدة ، والبنان المخلد . وفي رواية
عنه : بروج الحمام .

وقال قتادة : هي مأخذ الماء : قال قتادة : وقرأ بعض القراء : (وتتخلدون مصانع كأنكم تخالدون) (٣) .

وفي القرامطة المشهورة : (لعلكم تتخلدون) ، أي : لكي تقيموا فيها [أبداً] ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل زائل
حكمكم ، كما زال حين كان قبلكم .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن حجلان ، حدثني حورن
ابن حيد الله بن حنبة ، أن أبا النرداء - رضي الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في الفتوة من البنان ونصب
الشجر ، قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق . فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا
تستحيون ! تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تتركون ، إنه كانت قبلكم قرون ، تجمعون فيورعون ،

(١) سورة الأعراف : آية : ٦٩ .

(٢) أبو الوليد : جمع جادة - بتشديد الدال - وهي : الطريق الأعظم الذي يجمع الطرق : ولا يد من المروء عليه .

(٣) تفسير الطبري : ١٩/٥٩٤ .

وينتون ليوتقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري من ميراث عاد بدينهم ؟ .

وقوله : (وإذا بطئ بطئ جبارين) ، وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ، (فأتقوا الله وأطيعوا) ، أي : احموا ربيكم ، وأطيعوا رسولكم .

ثم شرع يذكركم نعم الله عليهم فقال : (واتقوا الذي أمركم بما تعلمون ، أمركم بأنعام وتربح وجنات وعيون ، إن أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ، أي : إن كلمتم وخالفتم ، فلحاهم إلى الله بالتربية والترهيب ، فما نفع فيهم .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوُصِّلَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ فَكَذَّبُوا مُنَاقِلَتَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَخَوَّافٌ لِلرَّحِمِ ﴿١٩﴾

يقول تعالى خبراً عن جواب قوم هود له . بعد ما حذرهم وأنبأهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبيح لهم الحق ووعدهم (قالوا : سواء علينا أوصلت أم لم تكن من الوارثين) ، أي : لا ترجع عما نحن فيه ، (وما نحن بتاركي آياتك ككتنا من قولاك ، وما نحن لك بمؤمنين) (١) . وهكذا الأمر ، فإن الله تعالى قال : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (٢) ، وقال تعالى : (إن الذين حقن عليهم كلمة ربك لا يؤمنون : ولو جاستهم كل آية حتى يروا العذاب العظيم) (٣) .

وقوله : (إن هذا إلا خلق الأولين) ، قرأ بعضهم : (إن هذا إلا خلق) ، بفتح الخاء وتسكين اللام . قال ابن مسعود ، والعرى عن عبد الله بن عباس ، وعقبة ، ومجاهد : يمتون ما هذا الذي جئنا به إلا أخلق الأولين (٤) : كما قال المشركون من قريش : (وقالوا : أساطير الأولين) [اكتسبها ، فهي على طية بكرة وأصباح (٥)] ، وقال : (وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إلهك انتراه وأعاناه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلماً وزوراً) وقالوا : أساطير الأولين (٦) ، وقال : (وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين) (٧) :
وقرأ آخرون : (إن هذا إلا خلق الأولين) — بضم اللام واللام — يمتون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا يثبت ولا يمدد : ولهذا قالوا : (وما نحن بمعلمين) :

(١) سورة هود ، آية : ٥٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٦ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) تفسير الطبري : ٦٠/١٩ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٥ .

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٤ .

(٧) سورة النحل ، آية : ٢٤ ، وما بين القوسين المقتولين عن الطبقات السابقة ، وكان لها — في هذه الآية — : وقيل

للذين كفروا : ماذا أنزل ربكم . وليست آية .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (إن هذا إلا خلق الأولين) ، يقول : دين الأولين . وقاله صكرمة ، وصطاء الخراساني ، وقناة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير (١) .

قال الله تعالى : (فكلبوه فأهلكناهم) ، أي : فاستمروا على تكليب نبي الله هود وعائلته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بلغ صيب إهلاكهم إزاهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية ، أي : ريحا شديدة الهبوب
 ظلت برد شديد جدا ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فانهم كانوا أعشى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم مauer أعشى منهم وأشد قوة ، كما قال : (ألم تر كيف فعل ربك بأدم) (٢) ، وهم عاد الأولى ، كما قال : (وأنه أهلك عادا الأولى) (٣) ، وهم من [لسل] آدم بن سام بن نوح (ذات العماد) ، أي : الذين كانوا يسكنون العمسد . ومن زعم أن [لدم] مدينة ، فأنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كسبه ووهب ، وليس لذلك أصل أصيل . ولهذا قال : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) ، أي : لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشنتهم وجبروتهم ، ولو كان المراد بملك مدينة لقال : التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وقال : (فلما عاد فاستكبروا في الأرض بغیر الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله تلى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يمحطون) (٤) .

وقد قلنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة ، فأذن الله لها في ذلك ، وسلكت وحشيت بلادهم ، فصعبت كل شيء لهم ، كما قال تعالى : (لتمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) (٥) الآية ، وقال تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) ، أي : كاملة ، (فرى القوم فيها مصرى كأنهم أحجاز نخل خاوية) (٦) ، أي : بقوا أبدانا بلا رموس ؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتله وترفضه في الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدهخ دماغه ، وتكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أحجاز نخل متضرر . وقد كانوا يحسبوا في الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا ، (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) (٧) ، ولهذا قال : (فكلبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وإن ربك هو العزيز الرحيم .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذْ قَالَ لَهُمْ إِلهُهُمْ صَالِحٌ ؕ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ فَاقْبَلُوا إِلَهَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾

وهذا إخبار من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله صالح - عليه السلام - أنه بعث إلى قومه ثمود - وكانوا هربا يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة . وقد قلنا في سورة

(١) التفسير الكبير : ٦٠/١٩ - ٦١ .

(٢) سورة الصبر ، آية : ٦٠ .

(٣) سورة النجم ، آية : ٥٠ .

(٤) سورة فصلت ، آية : ١٥ .

(٥) سورة الأسفان ، آية : ٢٥ .

(٦) سورة الحاقة ، آية : ٧ .

(٧) سورة نوح ، آية : ٧١ .

الأعراف (١) الأحاديث المروية في مرور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهم حين أراد غزو الشام ، فوصل إلى تبوك ، ثم عاد إلى المدينة ليأتب لذلك ؛ وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام ؛ فدعاهم نبيهم صالح إلى الله - عز وجل - أن يبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكتبوه وخالفوه ؛ فأعجزهم أنه لا ينفع بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله - عز وجل - ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

أَتَرَكُونَ فِي مَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٥﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦﴾ وَزُرُوحٍ غُلَّغُلٍهَا هَضْمٌ ﴿١٧﴾ وَنَحْتِينَ مِنَ الْجِبَالِ
يُؤْتُونَ كَثْرَيْنَ ﴿١٨﴾ فَأَتَوْا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٩﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَسَوِّفِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٢١﴾

يقول لم واعظا لم واعظا إياهم ثم الله أن عمل بهم ، ومذكرا بأنهم لله عليهم فيما زرعهم من الأزواق الدالة ، وجعلهم في أن من المهدورات . وأثبت لهم من الجنات ؛ وأثبت لهم من العيون الجارية ، وأخرج لهم من الزروع واليتمات ، ولهذا قال : (ونخل طلها هضم) - قال العوفي ، عن ابن عباس ؛ أبلغ ويبلغ ، فهو هضم (٢) ؛ وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ؛ (ونخل طلها هضم) ، يقول ؛ مُعْشَبَةٌ . قال إسماعيل بن أبي خالد ، عن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس ؛ في قوله : (ونخل طلها هضم) ، قال ؛ إذا رطب واسترخى ؛ رواه ابن أبي حاتم ، قال ؛ ورؤى عن أبي صالح نحوه هذا ؛ وقال أبو إسحاق ، عن أبي العلاء : (ونخل طلها هضم) ، قال ؛ هو لللب من الرطب ؛ وقال مجاهد ؛ هو الذي إذا كُيسم تهشم وتفت وتثار ؛

وقال ابن جريج ؛ سمعت عبد الكريم أبا أمية (٣) ، سمعت مجاهدا يقول ؛ (ونخل طلها هضم) ، قال ؛ حبي يطلع تقبض عليه فتهضمه ، فهو من الرطب المضم ، ومن اليابس المشم ، تقبض عليه فتهشمه ، وقال عكرمة ، وقتادة ؛ المضم ؛ الرطب اللين .

وقال الضحاك ؛ إذا كثر حمل الثمرة ، وركب بعضه بعضا ، فهو هضم ؛

وقال مرة ؛ هو الطلح (٤) حين يفرق وينضج ؛

وقال الحسن البصري ؛ هو الذي لا نوى له .

وقال أبو صخر ؛ ما رأيت للطلع حين يشتق عنه الكم (٥) ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض ، فهو للمضم ؛ وقوله ؛ (وتحتون من الجبال يوتا فارحين) ؛ قال ابن عباس ، وغير واحد ؛ يعني حاذقين . وفي رواية عنه ؛ شربين أشربين ؛ وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخللون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشربا ويطربا وصيفا ، من خبر حاجة إلى سكنائها ؛ وكانوا حاذقين متقين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حطم إن رأى منازلهم .

(١) انظر ؛ ٤٣٥/٣ .

(٢) تفسير الطبري ؛ ٦١٧/١٩ .

(٣) هو عبد الكريم بن أبي الحارث ، أبو أمية اللطيم . مترجم في المعجم لابن حاتم ؛ ٥٩٧/١٧٣ . والتلخيص ؛ ٣٧٦/٩ -

٣٧٩ .

(٤) الطلع من النخل ؛ شيء يخرج نعلان ملبقان ، والحبل بينهما منضود والطرف عند ، أو هو ؛ ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها .

(٥) الكم - بكسر الكاف - ؛ غلاف الثمر .

ولما قال : (قَالُوا اللَّهُ وَأَطِيعُوا) ، أي : اقبلوا على عَمَلِكُمْ ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم التي خلقكم وروّضكم لتزجوه وتعبده وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ولا تطيعوا أمر السُّفَرَاءِ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ يعني : رؤسائهم وكبرائهم ، النعمة لهم إلى الشرك والكفر ، وعقوبة الحق .

قَالُوا إِنَّمَا آتَيْنَا لِنُذَرِّكَ بِالسُّعُورِ ۖ وَمَا آتَيْتَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَكَ وَإِنْ تَنْظُرُكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ۖ فَاسْقِطْ عَلَيْهِمَا كِسْفًا مِّنَ السَّعِيرِ ۚ كَذَبَ الَّذِينَ لِلصَّاعِدِينَ ۖ قَالَهُ وَفِي غُلْمٍ يَّامَعْمَلُونَ ۖ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن كَانَ أَكْثَرُكُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

تفسير الآية

يقول تعالى خبراً من نوح في جوابهم لتوبيخ صالح - عليه السلام - حين دعاهم إلى عبادة ربهم ، (قالوا : إنما آتيناك من السُّعُورِ) - قال مجاهد ، وقطادة : يتنون من السُّعُورِ .

وروي أبو صالح ، عن ابن عباس : (من السُّعُورِ) : يعني من الخلق الوُحُوشِ (١) ، واستشهد بعضهم على هذا القول بما قاله الشاعر (٢) :

فَلَنْ تَسَالِبُنَا ۖ نَبِيحُ تَحْنُ ۖ ذَانِكَا • عَصَايَرُ مِنْ هَكَذَا الْأَنَامُ لِلْمَسْحَرِ

يعني الذين لم يسحور (٣) ، والسحر : هو الرقة .

والأظهر في هذا قول مجاهد وقطادة : أنهم يقولون : إنما آت في قولك هذا مسحور لا عقل لك .

ثم قالوا : (ما آتيت إلا بشر مثلاً) ، يعني : فكيف أوحى إليك دوناً ؟ كما قالوا في الآية الأخرى : (أأنى عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كلاب أشر ، سيملكون هذا من الكلاب الأشر (٤)) .

ثم لهم اتفحوا عليه آية بأنهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملوهم - أن يخرج لهم من الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عنتقم - ناقة حُشْرَاءَ من صفتها كلها وكلها . عند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهد والميثاق ، لأن أجابهم إلى ما سألوا لِيُؤْمِنُوا بِهِ ، وليبغته ، فأنصوا بذلك (٥) . فقام نبي الله صالح عليه السلام فصل ، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فافطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها من ناقة حُشْرَاءَ ، حل الصفة التي وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، (قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) يعني : نرد ماءكم يوماً ، ويوما تردونه أنتم ، (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) ، فحطروهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورد والرعى ، ويتنعمون بابنها ،

(١) التفسير الطبري : ١٩/٦٣ .

(٢) تقدم البهت عند الآية ٤٦ من سورة الإسراء : ٨٠/٥ ، وغيره من هناك .

(٣) السحر - يفتح فسكون ، ويفتحين ، ويضم فسكون - : الرقة ، وجمعه : سحور وأسحار .

(٤) سورة القمر ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٥) أي : قالوا له : نعم .

عطينون منها ما يفتخهم ثربا وديا ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقائهم ، ثمالوا على قتلها وعقرها ، (فعقروها فاصبحوا نادمين . فأنزلهم العذاب) ، وهو أن أرضهم زلزالا شديدا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محلها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحسبون ، فاصبحوا في ديارهم جاثية ، (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وإن ذلك هو العزيز الرحيم

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٦٩﴾ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٠﴾

يقول تعالى خبراً عن عبده ورسوله لوط - عليه السلام - وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخی إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم ، وكانوا يسكنون سدوم ، وأعمالها التي أهلكتها الله بها [، وجعل مكانها بحيرة مستنة خيثة ، وهي مشهورة ببلاد النور ، متاخمة لجبال البيت المقدس ، بينها وبين بلاد الكرك (١) والشوبك . فدعاهم إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسوله الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم ، ما لم يسبقهم لخلق إلى فعله ، من إتيان الذكران دون الإناث ، ولهذا قال تعالى :

أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧٢﴾ لَيْسَ لَكُمْ مِنْهُ بِنَافِلَةٌ إِنَّتُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينَةٍ ﴿١٧٣﴾ قَالُوا إِنَّا نَسِيكَ يَا لُوطُ ، بَعَثَ إِلَيْنَا رَجُلًا يَتَّبِعُنَا وَمَنْ يَتَّبِعْهُ فَهُوَ مِنْكُمْ وَإِنْ يُدْعِ إِلَى شَيْءٍ فَتُفْسِدْ أَعْمَالَهُمْ أَتَعْجَبُونَ ﴿١٧٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ خِزْيًا فِي الْأَعْيُنِ ﴿١٧٥﴾ وَأَمْ نَدْرَأُكَ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٧٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَمْرِيَّةَ ﴿١٧٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءً مَطَرًا الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٨٠﴾

لما نهي نبي الله عن إتيانهم الفواحش ، وغشيتهم الذكور ، ولرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا : (لن لم تنته يا لوط) ، يعنون عما جئنا به ، (لتكونن من الغرجين) ، أي : نضلك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم ، إنهم أناس يظفرون (٢)) . فلما رأى أنهم لا يريدون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم ، تبرأ منهم فقال : (إني لكم من الغالين) ، أي : للبغضين ، لا أحبهم ولا أرضي به ، فأتاه برءى منكم : ثم دعا الله عليهم قال : (وب نجي وأهل ما يعملون) : قال الله تعالى : (فنجينا وأهلهم أجمعين) ، أي : كلهم ، (إلا عجزاً في الغابرين) ، وهي امرأته ، وكانت عجزت سوء ، بقيت فهلك

(١) الكرك - بفتحين - : قلعة حصينة جداً في طرف الشام ، من نواحي البلقاء في جهات . والشوبك : قلعة حصينة أيضاً في أطراف الشام ، بين عمان وأيلة .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٨٢ .

مع من بين من قومه ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و«هود» ، وكذا في «الحجر» ، حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا . وأئذ الله على أولئك الطلبات التي هم جميعهم ، وأمرط عليهم حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال : (ثم دمرنا الآخرين . وأمرطنا عليهم أمطاراً فساء مطر المتلذذين : إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين : وإن ربك هو العزيز الرحيم) .

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجِبَالِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾

هؤلاء - أئمة أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هاتما أخوهم شعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة : وقيل : شجر ملتف كالغليظة ، كانوا يميلونها ، فلعلها لا تاله ، كلب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : «إذ قال لهم أخوهم شعيب» ، وإنما قال : «إذ قال لهم شعيب» ، قطع نسبة الأخوة بينهم ، والمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أختاهم نسباً . ومن الناس من لم يضعف هذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أميين ، ومنهم من قال : ثلاث أم .

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهل - وهو ضعيف (١) - «حدثني ابن السدي ، عن أبيه - وزكريا بن عمر ، عن عصف ، عن حكيم قال : ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً ، مرة إلى مدين فأعلمهم الكتاب الصبيحة ومرة إلى أصحاب الأيكة فأعلمهم الله بطلب يوم القلة» .

وروى أبو القاسم البخري ، عن هذبة ، عن هشام ، عن قتادة في قوله تعالى : (وأصحاب الرس) : قوم شعيب ، وقوله : (وأصحاب الأيكة) : قوم شعيب .

قال إسحاق بن بشر : «قال خبر جوير : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد : والله أعلم» .

وقد روى الخافظ ابن صاكر في ترجمة شعيب : «من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معاوية ابن هشام ، عن هشام بن سعد (٢) ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام» .

وهذا غريب ، وفي رحمه نظر ، والأشبه أن يكون موقفاً . والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفاً في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء للمكاي والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

(١) قال ابن أبي حاتم في الجرح ١/١٧٤ من أبي ذرعة : «إسحاق بن بشر الكاهل كان يكذب» ، يحدث عن مالك وأبي معشر بأسانيد موشوعة .

(٢) في المخطوطة : «هشام بن سيب» . والصواب عن ترجمته في التلخيص : ٣٩/١١ وترجمة سيبه بن أبي هلال : ٤٠/٤ .

• أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَخْلُفُونَ عَنْهُمْ رَسُولًا وَلَا يَنْجُوا النَّارَ •
 وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَخْلُفُونَ عَنْهُمْ رَسُولًا وَلَا يَنْجُوا النَّارَ •
 وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَخْلُفُونَ عَنْهُمْ رَسُولًا وَلَا يَنْجُوا النَّارَ •

يأمرهم تعالى بإيقاع المكيل والميزان ، وينهاهم عن التكليف فيهما ، هناك : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَخْلُفُونَ عَنْهُمْ رَسُولًا وَلَا يَنْجُوا النَّارَ)
 أى : إذا دفعتم إلى الناس فكمالوا الكيل لهم ، ولا تخسروا الكيل فخطوه ناقصا ، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاما وانها
 ولكن خلوا كما تطعون ، وأعطوا كما تأخذون .

(- وزنوا بالقسطاس المستقيم) ، والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : الثبائن (١) ، قال بعضهم : هو مربوب مع
 الرومية (٢) .

وقال مجاهد : القسطاس المستقيم : العدل بالرومية : وقال قتادة : القسطاس العدل
 وقوله : (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ، أى : لا تنقصوهم أموالهم ، (ولا تغشوا في الأرض مفلسين) ، أى :
 قطع الطريق ، كما قال في الآية الأخرى : (ولا تفعلوا بكل صراط توهلون) (٣) .

وقوله : (واتقوا الذي خلقكم والجنة الأولى) ، يخوفهم بأمر الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأولين ، كما قال
 موسى عليه السلام : (ربكم ورب آبائكم الأولين) - قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى ، وسفيان بن عيينة .
 وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (والجنة الأولى) ، يقول : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : (ولقد أغل منكم
 جهنم كثيرا) (٤) .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ • مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ • قَالَ فَتِلْكَ
 نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكِنْ شَرِبَ يَوْمَ تَجْلُوفُ • وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ فِجَافِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ • فَمَقَرُّوهُمْ
 فَأَصْبَحُوا تَلَائِينَ • فَاخْلَعُوا الْعَذَابَ إِذْ فِي ذَلِكَ لَكَايَةٌ وَمَا كَانُوا لَهُمْ حَاذِرِينَ • وَإِنَّ رَبَّكَ لَخَبِيرٌ
 الرَّحِيمُ •

يخبر تعالى عن جواب قوله له بمثل ما أجابت به نمرود لرسولها - ثابته قلوبهم - حيث قالوا : (إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
 الْمُسَحَّرِينَ) ، يهتون : من المسحورين ، كما تقدم . (وما أنت إلا بشر مثنا وإن نطقك لبي الكاذبين) ، أى : تسمعه
 الكلب فيما يقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، فأسقط علينا كسفا من السماء - قال الضحاك : جانيا من السماء . وقال
 قتادة : قطعا من السماء . وقال السدى : عذابا من السماء . وهذا شيء بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى :

(١) الثبائن - كشاد - : القسطاس .

(٢) للمربوب لغير الحق : ٢٩٩ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٨٦ .

(٤) سورة يس ، آية : ٦٢ .

(وقالوا لن يؤمن لك حتى نضرب لك من الأرض ينبوعاً) ، إلى أن قالوا : (أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفاً ، أو تأتي بالهلكة قبيلاً (١)) . وقوله : (وإذا قالوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمرنا علينا حجارة من السماء أو ائتنا بقدر من الماء) . وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجيلة (فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين) .

(قال : ربني أعلم بما تعملون) ، يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جزاؤكم به غير ظالم لكم ، وكللك وقع بهم كما سألوها ، جزاء وفقاً ولهذا قال تعالى : (فكذبوه فأخطم عليهم غلاب يوم الظلة ، إنه كان غلاب يوم عظيم) . وهذا من جنس مسائلنا من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد يتنا مدة سبعة أيام لا يكفّ عنهم منه شيء ، ثم أقيمت إليهم نعمة أظلمتهم ، فجعلوا يتعلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا تحته أرسل الله تعالى عليهم منها شراً من نار ، ولها ووهبها عطفاً ، ووجّفت بهم الأرض وجامتهم صبيحة عظيمة أرهقت أرواحهم ، ولهذا قال : (إنه كان غلاب يوم عظيم) .

وقد ذكر الله تعالى صفة إعلاهم في ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، في الأعراف ذكر أنهم أعظمهم الرجفة فأصباحوا في دارهم جانيين ، وذلك لأنهم قالوا : (لنخرجنك يا مشيب واللّٰهين آمنوا معك من قريتنا أو لم نؤت في ملتنا (٢)) ، فأرجفوا بني (٤) الله ومن آيمه ، فأعظمهم الرجفة ، وفي سورة هود قال : (وأخملت اللّٰهين ظلموا الصبيحة) (٥) ، وذلك لأنهم استهزؤا بني الله في قولهم : (أصلاّك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا ، أو أن لفلان في أتواننا ما نشاء ، إنك لأنت تخلق الرشد (٦)) . قالوا ذلك على منيل التهمك والأزراء ، فتناسب أن تأتيهم صبيحة تسكتهم ، وقال : (وأخملت اللّٰهين ظلموا الصبيحة) . وهاتنا قالوا : (فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين) ، على وجه التفت والمعاد ، فتناسب أن يخفى عليهم ما استعملوا وقوعه ، (فأخطم عليهم غلاب يوم الظلة ، إنه كان غلاب يوم عظيم) .

قال قتادة : قال عبد الله بن عمر - وعفي الله عنه - : إن الله ساءط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء . ثم إن الله أنشأ لهم صبيحة ، فاطلق إليها مدحهم واستظل بها ، فأصاب عطفاً برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأنوها جميعاً ، فاستظلوا تحته ، فأججّت عليهم نارا .

(١) سورة الإسراء : آية ٩٧ .

(٢) سورة الأأنال : آية ٣٢ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٨٨ .

(٤) الإرجاف : إيقاع الرجفة - وهي الإزلة - إما بالقول وإما بالفعل ، ويقال : أرجفوا في الشيء ، وبه : إذا حاصروا له .

(٥) في المحطرة : وفي سورة هود قال : (فأخملت الصبيحة) . والآية ليست من سورة هود . وإنما هي من سورة الحجر في قصة لوط ، انظر الآية : ٧٣ - ٨٣ . لما آية هود فرقها : ٩٤ .

(٦) سورة هود : آية ٨٧ .

ولمكلا رؤى عن هكزمة ، وصعد بن نجير ، واطمن ، وقادة ، وفهرهم ،

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله إليهم الظلة ، حتى إذا اجتمعوا كلهم كثفت الله عنهم الظلة ، وأحصى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد في الحقل (١) .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أقل ملين عليوا بثلاثة أصناف من العذاب : أنطسهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها أصابهم فرع شديد ، ففترقوا أن يدخلوا إلى البيوت فصلق عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة ، فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كالذيوم ظلا أظيب ولا أبرد من هذا . هلوا أيها الناس : فلتدخلوا جميعا تحت الظلة . فصاح بهم صيحة واحدة ، فاتوا جميعا . ثم تلا محمد بن كعب : (فأعلمهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم) (٢) .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثني الحسن ، حدثني سعيد بن زيد - أسير حماد بن زيد - حدثني حاتم ابن أبي مسرة ، حدثني يزيد الباقل : سألت ابن عباس عن هذه الآية : (فأعلمهم عذاب يوم الظلة) قال : بعث الله عليهم وندكاً (٣) وخرا شديدا ، فأخذ بأفاسهم [فدخلوا البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأفاسهم (٤)] . فخرجوا من البيوت عراباً إلى البرية ، فبعث الله بحابة فأظلمت من الشمس ، فوجدوا لها برذاً وللة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا نوحوا أرسلها [الله] عليهم ناراً . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم (٥) .

(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم) ، أي : العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

وَأَنزَلْنَا لِتَنزِيلِ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٩﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢٠﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢١﴾ بِبَيِّنَاتٍ

يقول تعالى شبرا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - : (وأنه) ، أي : القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله : (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن غث) - (لتنزيل رب العالمين) ، أي : أنزله الله عليك وأوحاه إليك ، (نزله به الروح الأمين) ، وهو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس . ومحمد بن كعب . وقادة . وعطية العوى ، والسدى ، والمفضل ، والزهري ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه .

(١) تفسير الطبري : ٦٨/١٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في المعجم المشهور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم : ٤٣/٥ .

(٣) في المصنوع : بعث الله عليهم وندكاً . والندك من تفسير الطبري . والندك - بفتح الواو والميم - : نهر من البحر يقع حل الناس في شدة الحر وشدة البرد .

(٤) ما بين القوسين من تفسير الطبري : وقد سقط من تفسير ابن كثير ، وهو سقط نظر .

(٥) تفسير الطبري : ٦٧/١٩ .

قال الزهري : وهذه قوله : (قل : من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك ياخذ الله) (١) الآية .

وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين لأتأكله الأرض .

(على قلبك فتكون من المنلرين) : أى : لك به ملك كرم أمين ، ذو مكانة عند الله ، مطاع فى الملأ الأعلى ، (على قلبك) يا محمد ، سائلاً من الناس والريادة والنفس ، (فتكون من المنلرين) ، أى : لتنتزله بأمر الله ونعمته على من خالفه وكلفه ، ويظهر به الزمعة للتجني له .

وقوله : (بلسان عربى مبين) ، أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك بلسانك العربى الفصحى الكامل الشامل ، ليكون بيننا واضعاً ظاهراً ، قاطعاً للحر ، مقياً للحجة ، دليلاً إلى الحجة (٢) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر المتكفى ، حدثنا عباد بن عباد المهلب ، عن موسى بن عبيد بن (٣) إبراهيم التيمى ، عن أبيه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى يوم جث (٤) إذ قال لهم : كيف ترون بواسقها (٥) قالوا : ما أحسنها وأشد تراكبها (٦) . قال : فكيف ترون قواعدها (٧) ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد ثقلها : قال : فكيف ترون جوتها (٨) ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : فكيف ترون رحاها استدارت ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها : قال : فكيف ترون برقعها ، أوميض أم ختم ؟ (٩) أم يشق شقاً ؟ قالوا : بل يشق شقاً : قال : الحياض الحلياء إن شاء الله : قال : فقال رجل : يا رسول الله ، بأبى وأبى ما أفصحك ، ما رأيت للى هو أهرى منك : قال : فقال : حق لى ، وإنما أنزل القرآن بلسانى ، والله يقول : (بلسان عربى مبين) :

وقال سفيان الثورى : لم يتزل وحى إلا بالعربية ، ثم ترجم كل نبي لقومه ، واللسان يوم القيامة بالسريانية ، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية : رواه ابن أبى حاتم .

(١) سورة البقرة : آية : ٩٧ .

(٢) الحجة : الطريق .

(٣) فى المخطوطة : عن موسى بن عبيد : عن إبراهيم التيمى . ولعل الصواب ما ألقناه . : قال فى كتب الرجال - للبيهق : ٣٨٨/١٦ ، والجرح : ١٥٩/١/٤ - أن موسى يروى عن أبيه ، وهو عبد بن إبراهيم بن الحارث التيمى .

(٤) الجث - يقع فسكون - : النيم .

(٥) فى النهاية : : ومعه الحديث فى سفة أصحاب : : كيف ترون بواسقها ؟ : : أى : ما استطال من فروعهما .

(٦) أولكم الفيه وقرأكم : أجمع .

(٧) فى النهاية : : وفيه أنه سأل من صاحب مرت فقال : : كيف ترون قواعدها وبواسقها ؟ : : أراد بالقواعد : ما أفرس منها وسئل : تشكها بقواعد البنيان .

(٨) فى المخطوطة : : سرجا ، : دون نقط . والمثبت من المصنوع لابن سيده ٩٦/٩ .

(٩) فى المخطوطة : : أم ختم . والمصواب من المصنوع لابن سيده ٩٦/٩ . والنهاية لابن الأثير : : وخفا البرق : : يشق ويشق خفوا : إذا برق برقاً خفياً .

وَأَنذَرْنِي زُرَّ الْأُولِينَ ﴿١٥﴾ أَوْ لَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَذِيرٌ أَن يَكْفِرُوا فَلَمَّا آتَتْهُمُ آيَاتُنَا بَازِغَةً قَالُوا هَذَا نَارُ اللَّهِ تَوَلَّوْا عَنْهَا وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ كَذِبًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنبؤ به لموجود في كتب الأولين للأولاد عن أنبيائهم ، الذين ينفروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيئا في ملته بالبراءة بأحمد : (وإذا قاله عيسى ابن مريم : يا بني إسرائيل ، إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد (١)) والذين : هاهنا هي الكتب وهي جمع زبور (٢) ، وكذلك الزبور ، وهو كتابه داود ، وقال تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر) ، أي : مكتوب عليهم في صصف للملائكة .

ثم قال تعالى : (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) ، أي : أو ليس يتكلمهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بني إسرائيل يهدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ؟ والمراد بالهدى منهم ، الذين يترفون عما في أيديهم من صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومبعوث أمته ، كما أنكر بذلك من آمن منهم كعبدة ابن سلام ، وسلمان الفارسي ، عن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهم مكتوبا عنهم في التوراة والإنجيل (٣)) الآية .

ثم قال تعالى غرأ من شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزل على رجل من الأعاجم ، ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيان وفصاحة ، لا يؤمنون به ، ولهذا قال : (ولو أنزلناه على بعض الأعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) ، كما أنكر عنهم في الآية الأخرى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . فقلوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (٤)) ، وقال تعالى : (ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم بالهوى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله (٥)) ، وقال : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جئتهم بكل آية حتى يروا العذاب الأكبر (٦)) .

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٨﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْضَةٌ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْجَرُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَعَدَّائِنَا لَمَنَاجِيْلُوتٌ ﴿٢١﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَعْلَمُكَ مِنْ فَتْرَةٍ إِلَّا لَهَا مُنَادِرُونَ ﴿٢٥﴾ ذُرِّيَّتٌ وَمَا كَانُوا يَحْسِبُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد ، أي : أخطأنا في قلوب المجرمين ، (لا يؤمنون به) ، أي : باطن ، (حتى يروا العذاب الأليم) ، أي : حيث لا ينفع الظالمين مطهرتهم ، ولم العلة ولم سوء النذر : (فيأتيهم

(١) سورة الصف : آية ٦ .

(٢) في المظنونة : جميع زبور . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٥٧ .

(٤) سورة الحجر : آية ١٥ : ١٥٤ .

(٥) سورة الأنعام : آية ١١١ .

(٦) سورة يونس : آية ٩٦ : ٩٧ .

بقة) ، أى : خطاب الله بقة ، (وهم لا يشعرون . فيقولوا : هل نحن منظرون ؟) أى : يمتحنون نحن . يشاهدون العذاب أن لو أنظرنا قليلا ليعلموا بطاعة الله ، كما قال تعالى : (وألذ الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا ، أفرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك وبتع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (١)) ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندب لنما شديد ، هلا فرصون لا دعا عليه الكلیم بقوله : (ربنا ، إنك آتيت فرعون وملائه زيتة) وأمولا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم : قال : قد أجيب دعوتكما (٢) ، فأثرت هذه الدعوة في فرعون ، فآمن حتى رأى العذاب الأليم ، (حتى إذا أدركه الفرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين (٣)) : وقال : (فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) ، الآية (٤) .

وقوله تعالى : (أفيملأنا يستعجلون) ، إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فلهم كانوا يقولون الرسول تكليفا وإمتهادا : (أفتأبى الله) ، كما قال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب (٦)) :: الآيات :

ثم قال : (أفأرأيت إن متناهم سنبح : ثم جاءهم ما كانوا يوعدون : ما أخفى عنهم ما كانوا يمتحنون) ، أى : أفر أمرناهم وأنظرناهم ، وأملأناهم برهة مع الزمان وحينئذ من الدهر وإن مالك ، ثم جاءهم أمر الله ، أى : شئ يحلى عنهم ما كانوا فيه من التعم ، (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا غشية أو ضحاها (٧)) ، وقال تعالى : (يود أحدهم لو يمسر ألف سنة ، وما هو بمزحرجه من العذاب أن يسمر (٨)) ، وقال تعالى : (وما يخفى عنه ماله إذا تردى (٩)) ، ولهذا قال : (ما أخفى عنهم ما كانوا يمتحنون) .

وقل للحديث الصحيح : يؤتى بالكافر فيقسم في النار خمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل رأيت نجما قط ؟ فيقول : لا [والله يارب : ويؤتى بأشد الناس بؤسا — كان في الدنيا — فيصيح في الجنة صبيحة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا [والله يارب (١٠)] . أى : ما كان خيرا كان . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمثّل جهنم البيت :

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٤٤ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) سورة يونس ، الآية : ٩٠ ، ٩١ .

(٤) سورة طه ، الآية : ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) سورة النكبات ، آية : ٢٩ .

(٦) سورة النكبات ، آية : ٥٣ .

(٧) سورة النازعات ، آية : ٤٩ .

(٨) سورة البقرة ، آية : ٩٩ .

(٩) سورة الليل ، آية : ١١ .

(١٠) أخرجه الإمام أحمد في مسند أنس بن مالك : ٢٠٣/٢ ، ٢٠٤ .

كَأَنَّهُ لَمْ يُؤْتِرْ (١) مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً ۖ إِنْ أَنْتَ أَذْرَكْتَ لَلَّذِي كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى خبراً عن عذابي خلقه : أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِطْلَاقِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِلْهَارُ لَهُمْ وَبِهِ الرِّسَالُ إِلَيْهِمْ ، وقيام الحجج عليهم . ولهذا قال : (وما أهلكنا من قرية إلا ما نلترون ، ذكروا وما كنا ظالمين) ، كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٢)) ، وقال تعالى : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) إلى قوله : (وأهلها ظالمون (٣)) ۝

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴿١١﴾ إِنْ هُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْمُولُونَ ﴿١٢﴾

بقول تعالى خبراً عن كتابه العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكم حميد : أَنَّهُ يُؤَلِّمُ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ ، (وما تنزلت به الشياطين) ۝ ثم ذكر أَنَّهُ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوَاجٍ ، أَحْلَاهَا : [أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ ، أَيْ : لَيْسَ هُوَ مِنْ بَعْثِهِمْ وَلَا مِنْ مَلَكِبَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ مِنْ سَجَائِمِ الْقِسَادِ وَإِضْلَالِ الْعِبَادِ ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنُورٌ وَهُدًى وَبِرْهَانٌ عَظِيمٌ ، فَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مَنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : (وما ينبغي لهم) ،

وقوله : (وما يستطيعون) ، أَيْ : وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَلَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (لَوْ أَنَّا نُنَزِّلُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَالِصًا مَتَّصِعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (٤)) ۝

ثم بين أَنَّهُ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَلَا اسْتَطَاعُوا حِمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ ، لَمْ يَصِلُوا إِلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ يَمُزُّونَ عَنْ اسْتِغْنَاءِ الْقُرْآنِ حَالَهُ زُجُولَهُ ، لِأَنَّ السَّيَاءَ مَلَكْتُ حَرَسًا شَلِيلًا وَشَهَابًا فِي مَكْدَةِ إِتْرَاقِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِغْنَاءِ حَرَكَةِ وَاحِدٍ مِنْهُ ، لِثَلَاثَةِ الْأَمْرِ . وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظُهُ لَشَرْعِهِ ، وَتَأْيِيدُهُ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَهَذَا قَالَ : (إِنْ هُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْمُولُونَ) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى خَبَرَ عَنِ الْجِنِّ : (وَأَنَا لَمُسْنَا السَّيَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلَكْتُ حَرَسًا شَلِيلًا وَشَهَابًا ۖ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رُدًّا (٥)) ۝

(١) البيت في سيرة عمر بن خطاب لابن الجوزي : ١٣٥ ، وفيها وفي المخطوطة والخطبات السابقة : « كأنك لم تؤتر » .
والسياق يقتضي ما أتيته ، يقول : « كأنك لم يمسك الدهر بشيء عند ما تدرك منك » .

(٢) سورة الإسراء : آية ١٥ .

(٣) سورة القصص : آية ٥٩ .

(٤) سورة الحشر : آية ٢١ .

(٥) سورة الجن : الآيات ٨ - ١٠ .

لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَ فَتَكُونَ مِنَ الصَّالِينَ ﴿١١﴾ وَأَنْزَلَ حَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢﴾ وَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُفْرِسِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ مَصَّوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْكَافِرِ الرَّحِيمِ ﴿١٥﴾ الَّذِي يَمْلِكُ مِنْ يَمِينِكَ يَقُولُ ﴿١٦﴾ وَقَطَّعْتَ فِئَالِنِجْدِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ، ونهيا أن من أشرك به عليه .

ثم قال تعالى آمرا لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - أن ينزل حشيره الأقربين ، أي : الأذنين إليه ، وأنه لا يختص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل ، وأمره أن يدين جانيه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كانتا من كان فليطأ منه ، ولهذا قال : (فَإِنْ مَصَّوْكَ فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) . وهذه التكرار الخاصة لا تنافي العامة ، بل هي فرد من أجزائها ، كما قال : (لَنُنَزِّلُ قَوْماً مَا آتَلُوا آبَاؤُهُمْ هُمْ يَخَافُونَ (١)) ، وقال : (لَنُنَزِّلُ لَكَ نَقْرًا مِنْ حَوْطَا (٢)) ، وقال : (وَأَنزِلْ بِهِ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَحْشُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ (٣)) ، وقال : (لَنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَزِّلُ بِهِ قَوْماً لَدَا (٤)) ، وقال : (لَنُكَلِّمَنَّكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ (٥)) ، كما قال : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْجِدَةٌ (٦)) .

وفي صحيح مسلم : والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة ، يهودى ولا نصراني ، لم لا يؤمن بي إلا دخل النار (٧) .

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية للكرامة ، فلنذكرها :

الحديث الأول ، قال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا عبد الله بن عمر ، عن الأحمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل : (وَأَنزَلَ حَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : يا صباحاه (٨) : فاجتمع الناس إليه بين رجل يهيم إليه ، وبين رجل يبعث رسولهُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني [لؤي] ، أرايتُم لو أنصبرتكم أن تخجلوا بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني لنبري لكم بين يدي حذاب شديد : فقال أبو لهب : يا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ . وأنزل الله : (تَبْتَ يَدَايَ لِيْهِ وَتَبْ (٩)) .

(١) سورة يس : آية ٦ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٢ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٥١ .

(٤) سورة مريم : آية ٩٧ .

(٥) سورة هود : آية ٦٩ .

(٦) سورة هود : آية ١٧ .

(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : وجوب الإيمان برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - لك جميع الناس ، وقسح الملل عنه : ٩٣/١ .

(٨) يا صباحاه : كلمة يقولها المستغيث ، وأصلها إذا سألوا الغارة ؟ لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ، فكان القائل : يا صباحاه يقول : قد خشنا العدو .

(٩) مسند الإمام أحمد ٣ : ٧٤١ .

ورواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي ، من طرق ، عن الأعمش ، به (١)

الحديث الثاني ، قال الإمام أحمد ، حدثنا وكيع ، حدثنا هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لا إله إلا الله ، وأنزل عشرين الأقرين ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا ، سألوني من مالي ما شئتم (٢) ، انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

الحديث الثالث ، قال أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثنا عبد الملك بن هشيم ، عن موسى بن طلحة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية : (وأنزل عشرين الأقرين) ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم (قريشا) ، فعم وخص (٤) ، فقال : يامعشر قريش ، أنقلوا أنفسكم من النار ، يامعشر بني كعب ، أنقلوا أنفسكم من النار . يامعشر بني عبد مناف ، أنقلوا أنفسكم من النار ، يامعشر بني هاشم أنقلوا أنفسكم من النار . يامعشر بني عبد المطلب ، أنقلوا أنفسكم من النار ، (يافاطمة بنت محمد ، أنقلني نفسك من النار) (٥) ، قال - والله - ما أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبئكم (٦) ببئلاها (٧) .

ورواه مسلم والترمذي ، من حديث عبد الملك بن حمير ، به ، وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه : (٨) ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلا ، لم يذكر فيه أبي هريرة (٩) ، وللبوصلة هو الصحيح ، وأخرجه في الصحيحين من حديث الزهري ، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة (١٠) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد ، يعني ابن إسحاق - عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا بني عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من الله ، يا صفية ، رسول الله . ويا فاطمة بنت رسول الله ، اشتريا أنفسكما من الله ، لا أغني عنكما من الله شيئا ، سألوني من مالي ما شئتما (١١) » .

(١) البخاري ، تفسير سورة (حيث بدأ أبي لمب وتب) : ٢٢١/٦ - ٢٢٢ . وتفسير سورة الشعراء : ١٤٠/٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله تعالى : (وأنزل عشرين الأقرين) : ١٣٤/١ . وتحفة الأحسن ، تفسير سورة (حيث) ، الحديث ٣٤٢٢ : ٢٩٦/٩ - ٢٩٨ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٨٧/٦ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنزل عشرين الأقرين) : ١٣٣/١ .

(٤) فعم وخص : أي في ذلك النداء . وقوله : « يا معشر قريش » ، وما بعده ، بيان لما عم وخصه .

(٥) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد .

(٦) سأبئكم : سأصاحبكم . والبئلا - بكسر الباء - : جمع بئلا - يفتحين - وهو كل ما يل الحلق من ماء أو لبن أو غيره .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٦٠/٢ .

(٨) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنزل عشرين الأقرين) : ١٣٣/١ . وتحفة الأحسن ، تفسير سورة الشعراء ، الحديث ٣٢٣٧ : ٤١/٩ - ٤٢ .

(٩) النسائي ، كتاب الوصايا ، باب « إذا أوصى لمشيرته الأقرين » : ٢٤٨/٦ - ٢٤٩ .

(١٠) البخاري ، تفسير سورة الشعراء : ١٤٠/٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنزل عشرين الأقرين) : ١٣٣/١ .

(١١) مسند الإمام أحمد : ٤٤٨/٢ - ٤٤٩ .

تفرد به من هذا الوجه ، وتفرد به أيضا ، من معاوية ، من زائدة ، من أبي الزناد ، من الأعرج ، من أبي هريرة ، من النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه (١) . ورواه أيضا عن حسن ، ثنا ابن أبي ليثة ، من الأعرج [سمعت] أبا هريرة مرفوعا (٢) .

وقال أبو يعلى : حدثنا صفي بن سعيد ، حدثنا خديج بن إسماعيل ، عن موسى بن وردان ، عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، أنا النذير والموت المفزع : والساعة للمرعد » .

المحدث الرابع : قال أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الثبيتي ، عن أبي حنبل ، عن قبيصة بن معاذ ، عن زهير بن عمرو قال : لما نزلت : (وأنذر عشيرتلك الأقرين) ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رخصة (٣) من جبل على أعلاما حجرا ، فجعل ينادي : يا بني عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثل مثلكم . كرجل رأى الملوك ، فذهب يربأ أمه - يعني (٤) أن يسبقوه - فجعل ينادي ويهتف : يا بصباحه (٥) :

ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن طرخان الثبيتي ، عن أبي حنبل عبد الرحمن بن مكي الشافعي ، عن زهير بن زهير بن عمرو اللؤلؤ ، به (٦) .

المحدث الخامس : قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك عن الأعمش ، عن المنهك ، عن حباب ابن عبد الله الأسدي ، عن علي - رضي الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية : (وأنذر عشيرتلك الأقرين) ، جمع النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : من يقسمن عني ديني ومواعيدي ، ويكون مني في الجنة ، ويكون خليفتي في أهل ؟ فقال رجل - لم يسمه شريك - : يا رسول الله ، أبيت كنت حجرا (٧) ، من يقوم بهما ؟ قال : ثم قال الآخر : قال : ففرض ذلك على أهل بيته ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنا (٨) .

طريق آخرى بأبسط من هذا السياق ، قال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو حنيفة ، عن حنبل بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجب ، عن علي - رضي الله عنه - قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم - أودع رسول الله صلى الله عليه وسلم - بني عبد المطلب ، وهم (٩) وهط ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرْق (١٠) . قال :

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٥٠ . وما بين القوسين للمؤلفين عنه .

(٣) في المسند : « رخصة من جبل » . وقد أثبتنا ابن الأثير في النهاية « مادة وتم » وقال : « رخصة الواو » . وجانبه . وقيل : « جميع ماله » . وفي موضع آخر من المسند ٣/٤٧٦ مثل ما هنا : « رخصة من جبل » وفي النهاية مادة « رخصة » : « الرخصة » . واحتج الرخص - يفتح فسكون - والرضام ، وهي دون المشايخ . وقيل : « صخور يمشي فوق بعضها » .

(٤) في المسند : « فيثني » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٩/٦٠ .

(٦) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : (وأنذر عشيرتلك الأقرين) : ١/١٣٤ .

(٧) في المختصرة : « بحري » . والمثبت من المسند . ومعنى « كنت حجرا » أنه واسع الكرم والجود : جبل الله عليه وسلم .

(٨) مسند الإمام أحمد : ١/١١١ .

(٩) في المسند : « فيهم وهط » .

(١٠) الفرق - يفتح الله والراء - : مكيال يبع ستة عشر رجلا .

وصنع لهم (١) مدًا من طعام فأكلوا حتى شبعوا - قال : وفيه الطعام كما هو كانه لم يمس - ثم دعا بقُصْر (٢) فشربو حتى رَوَوْا ، وفي الشراب كانه لم يمس - : أو لم يشرب - وقال : يابني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأبكم يابني حتى ألقوا بكوني نبي وصاحبي ؟ قال : فلم يتم إليه أحد - قال : قُصْتُ إليه - وكنت أصغر القوم - قال : فقال : اجلس - ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي : اجلس ، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي (٣) .

طريق آخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر ، قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا محمد ابن عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس بن بكير (٤) ، عن محمد بن إصحاق قال : حدثني من سمع عبد الله بن الخوارث بن نوفل - واستكنى اسمه - مع أبيه عباس ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأتوا مشركيك) ، وانخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حضرت آلي إن بادلتُ بها قومي ، رأيتم منهم ما أكره ، فقصتُ : فجانف جبريل - عليه السلام - فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما يبرك به ربك عليك ربك : قال علي رضي الله عنه : فدعاني فقال : يا علي ، إن الله قد أمرني أن أدع شريك الأكرين ، ففعلت أفي ذلك ؟ إن بادتهم يهلك وأبوتُ منهم ما أكره ، فقصتُ عن ذلك ، ثم جانف جبريل فقال : يا محمد ، إن لم تفعل ما أمرت به عليك ربك . فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عَص (٥) ابن ، ثم اجتمع لي بني عبد المطلب : ففعلت فاجتمعوا له ، وهم يومئذ أربعون رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً ، فيهم أحمامة : أبو طالب ، وحذوة ، والعباس ، وأبو لب الكافر الخبيث : فقد تمت إليهم تلك الجفنة ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها حذية (٦) ، فشقها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها ، وقال : كلوا بسم الله - فأكل القوم حتى نهلوا (٧) عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثله . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استقم يا علي . فجيئت بالملك اتقعب (٨) فشرىوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم ، بذره أبو لب إلى الكلام فقال : لئند ما صرتم (٩) صاحبكم . ففزعوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما كان الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علي ، عندنا لنا يمثل الذي كنت صنعت بالأمس

(١) الله - بضم اللام - : وجع صاع .

(٢) القصر - بضم القاف - : القنح الصغير .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/١٥٩ .

(٤) في الخطوط : « يوسف بن بكير » . وهو خطأ واضح .

(٥) العَص - بضم فسكون - : القنح الكبير .

(٦) الحذية - بكسر الحاء ، وسكون اللام - : ثم يده وده - : ما قطع من اللحم طولاً .

(٧) في تاج المروس : « وقد ورد في كلامهم : « أكل من الطعام حتى نهل » ، قال شيخنا : « وانظار الله من الخبز ، وعلاجه لزوم الشرط للأكل » ، غالباً : « ولا فائيل إنما هو في الشراب كالمثل » .

(٨) تقعب - بفتح القاف - : القنح العظيم .

(٩) لغة : كلمة يتسبب بها ، يقال : « قد الرجل » ، أي : ما أجعله ؟ ويقال : « إنه به الرجل » ، أي : نعم الرجل ؟

من الطعام والشراب ، فان هذا الرجل قد يَدْرِي إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم : فقلت ، ثم جمعهم له ، فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع بالأسس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم لياكل مثلها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استقيم يا حل : فبحث بملك القصب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم يَدْرِي أبو لهب بالكلام فقال : نهك ما سرهم صاحبكم ففزعوا ولم يكلمهم رسول الله ، فلما كان الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حل ، حد لنا بطل الله كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب ، فان هذا الرجل قد يَدْرِي إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم : ففعلته ، ثم جمعهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم [كما صنع] بالأسس ، فأكلوا حتى نهلوا عنه ، ثم سقيتهم من ذلك القصب حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم لياكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بني عبد المطلب ، إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومَه بأفضل مما جئتكم به ، إني لفي جئتكم بأمر الدنيا والآخرة .»

فإنه أحمد بن عبد الجبار : بلغني أن ابن إسحاق إنما سمعه من عبد الغفار بن القاسم بن مريم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث (١) .

وقد رواه أبو جعفر بن جرير ، عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن عبد الغفار بن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس ، عن حل بن أبي طالب - فذكر مثله ، وزاد بعد قوله : « إني جئتكم بغير الدنيا والآخرة » - : وقد أمرني الله أن أذهبكم إليه ، فأبكم يوازوني على هذا الأمر على أن يكون نبي ، وكلذا وكلذا ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت - وإني لأحدثهم سناً ، وأرخصهم (٢) ، عينا ، وأعظمهم عطناً ، وأحجمهم (٣) ساقاً - أنا يا بني الله ، أكون وزيرك عليه : فأخذ يترقبني ثم قال : إن هذا نبي ، وكلذا وكلذا ، فاسمعي له وأطعوا ، قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لأبيك وتطيع (٤) .

فرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم بن مريم ، وهو منروك كذاب شيعي ، أهمه حل بن المنيني (٥) وغيره بوضع الحديث ، وضمه الأئمة ورحمهم الله .

طريق أخرى ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن عيسى (٦) بن ميسرة الحارثي ، حدثنا عبد الله بن عبد القادوس ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال : قال حل ، رضي الله عنه : لما نزلت

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، خطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث : ٢ ورقة : ٢٣ ، ٢٤ . ورواية الحديث كما في الدلائل فتبين أن الرسول أحمد لم يسم في يومين لا في ثلاثة أيام كما هنا .

(٢) الرخص - يلتحقين - : الهامش الذي يجمع في زوايا الأجزاء .

(٣) أي : حقيق الساق .

(٤) تفسير الطبري : ١٩ / ٧٥ .

(٥) انظر ميزان الاعتدال : ٢ / ٦٤٠ - ٦٤١ .

(٦) في المخطوطة : « حدثنا الحسين ، عن عيسى » ، والصواب ما أثبتناه من ترجمته في إفراح والتبديل لابن أبي حاتم .

هذه الآية : (وأنذر عشيرتک الأقربين) ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصبت لى رجل شاة بصاع من طعام وإنه لبنا . قال : ففعلت ، ثم قال : ادع بنى هاشم . قال : فدعوتهم وإنهم يومئذ لأربعون خير رجل — أو : أربعون ورجل — قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجکة بإدامها . قال : فلما أتوا بالقصة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذرّوتها ثم قال : كانوا فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها لم يترزأوا (١) منها إلا سیراً ، قال : ثم أتتهم بالإتامة فشربوها حتى روّوا . قال : وفصل فصلٌ ، فلما فرغوا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن یحکم ، فیدروه الکلام ، فقالوا : ما رأينا کالیوم فى السحر . فسکت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اصنع رجل شاة بصاع من طعام ، ففصنت ، قال : فدعاهم ، فلما أكلوا وشربوها قال : فیدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسکت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لى : اصنع رجل شاة بصاع من طعام . فصنعت ، قال : فجعلتهم ، فلما أكلوا وشربوها یدرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الکلام فقال : أیکم یقضى حتى دینی ویکون عیفتی فی أهل ؟ قال : فسکوا وسکت العباس خشية أن یعیط ذلك عاله ، قال : وسکت أنا لسین العباس . ثم قلنا مرة أخرى فسکت العباس ، فلما رأیت ذلك قلت : أنا بإرسول الله . قال : ولانى يومئذ لأسوأهم هیة ، ولانى لأعشى العینین ، فغمض البطن ، حشش الساقین »

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه . ومعنى سؤاله — علیه الصلاة والسلام — لأعباءه وأولادهم أن یقضوا عنه دينه ، ویخلفوه فی أهله ، یعنى إن قتل فی سبیل الله ، كأنه عشی إذا قام بأعباء الإنذار أن یقتل ، ولما أنزل الله عز وجل : (یا ایها الرسول بلغ ما أنزل إلیک من ربک ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالتی ، والله یعصمک من الناس) (٢) و بعد ذلك أسین ، وكان أولای یرحس حتى نزلت هذه الآية : (والله یعصمک من الناس) . ولم یکن فی بنى هاشم إذ ذاك أحدٌ إیماناً وإیقانا وتصديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من على — رضى الله عنه — ، ولهذا یدرهم لى التزام ماطلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم کان بعد هذا — والله أعلم — دحاوة الناس جبهة على الصفا ، وإنذاره بطون قریش عموماً وخصوصاً ، حتى سحى من سحر من أعباءه وعماه وبناته ، لینبه بالأدنى على الأعلى ، لئلا أنا تلیر ، والله یدلنى من یشاء لى صراط مستقیم .

وقد روی الحافظ ابن عساکر فی ترجمة عبد الواحد البمشقي — غیر منسوب — من طریق عمرو بن سمرة ، عن محمد بن سوقة ، عن عبد الواحد البمشقي قال : رأیت أبا البرداء — رضى الله عنه — یحدث الناس ویفتیهم ، وولده لى جنبه ، وأهل بیته جلوس فی جانب للمسجد یحدثون ، فقیل له : ما بال الناس یرغبون فی عنک من العلم ، وأهل بیتک جلوس لأین ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم یقول : أزهّد الناس فی الدنیا الأنبیاء ، وأزهدم علیهم الآخرین . وحلک فیما أنزل الله عز وجل : (وأنذر عشیرتک الأقربین) ، ثم قال : إن أزهّد الناس فی العلم أهلهم حتى یفارقهم . ولهذا قال : (وأنذر عشیرتک الأقربین . وانخفض جناحک بن ائیمک من المؤمنین ، فإن مصوبک و قتل : لى یرى ما تعملون) .

(١) لى : لم یقتصروا منها إلا شیئاً سیراً .

(٢) سورة المائدة ، آیه ٦٧ .

وقوله : (وتوكل على العزيز الرحيم) ، أى : فى جميع أمورك ، فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُحِلُّ كلمتك :

وقوله : (الذى يراك حين تقوم) ، أى : هو معن بك ، كما قال تعالى : (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) (١) قال ابن عباس : (الذى يراك حين تقوم) ، يعنى : إلى الصلاة .
وقال حكيم : يرى قيامه وركوعه وسجوده :
وقال الحسن : (الذى يراك حين تقوم) ، إذا صليت وحلك .
وقال الضحاك : (الذى يراك حين تقوم) ، أى : من فرأىك أو مجلسك :
وقال قتادة : (الذى يراك) قائما وجالسا وحلى حالائك .

وقوله : (وتقبل فى الساجدين) - قال قتادة : (الذى يراك حين تقوم ، وتقبل فى الساجدين) ، قال : فى الصلاة ، يراك وحلك ويرك فى السجدة . وهذا قول حكيم ، وعطاء الخراساني ، والحسن البصري .
وقال مجاهد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ويشهد لهذا ما صنف فى الحديث : « سَوَّاهُ صُفُوفِهِمْ ، فَإِذَا أَرَادَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ » (٢) .

وروى البراء وابن أبي حاتم ، من طريقين ، عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : يعنى تقبله من صلب نبي إلى صلب نبي ، حتى أخرجه نيا ،

وقوله : (إنه هو السميع العليم) ، أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بمركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : (وما نكون فى شأن وما ملتونه من قرآن ، ولا نعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) (٣) ... الآية .

هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٣﴾ وَالشَّعْرَاءَ يَلْمِزُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ﴿٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٌ بِنُفُوسِهِمْ ﴿٧﴾

يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقا ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به ركبى (٤) من الجن ، فنه الله - سبحانه - جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبيل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة

(١) سورة الطور ، آية : ٤٨ .

(٢) البخارى ، كتاب الأذان ، باب : إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف : ١٨٤/١ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب : تسوية الصفوف ... : ٣٠/٢ - ٣١ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٦١ .

(٤) الفرق : الرابع من الجنب ، سى كذلك لأنه يتدعى لمحبوه .

في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما يتزلزل حل من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكلبة ، ولهذا قال الله : (حل أنبيكم) ، أي : أخبركم (على من تزل الشياطين . تزل حل كل أفلاك أنيم) ، أي : كلوب في قوله ، وهو الأفلاك الأنيم ، أي : الفاجر في أفعاله . فهذا هو الذي تزل عليه الشياطين كالكهان وماجرى غيرهم من الكلبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كلبة فسقة .

(يلقون السمع) ، أي : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من حل النبي ، فيزيلون معها مائة كلبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها ، فيصدقهم الناس في كل مقالوه ، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء ، كما صرح بذلك الحديث ، كما رواه البخاري ، من حديث الزهري : أخبرني يحيى بن عروة ابن الزبير ، أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة - رضي الله عنها - : سألت ناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشيء . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالنبي ، يكون حقاً ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تلك الكلمة من الحق يضلها البغي ، فيغير كبرها (١) في أذن وليه كقرفة اللباجة ، فيخطئون معها أكثر من مائة كلبة (٢) .

وقال البخاري أيضا : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة يقول : سمعت أبا هريرة يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاءاً (٣) لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، حتى إذا فُزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ؟ وبكم قالوا ؟ قال : (الحق) (٤) وهو البلى الكبير . فيسمعون منرق السمع ، ويسترقون السمع - هكذا بعضهم فوق بعض - ووصف سفيان يده فتحركها ، وبدد بين أصابعه (٥) - فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر - أو : الكاهن - فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كلبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ؟ كذا وكذا ؟ فيصدق تلك الكلمة التي سمعت من السماء ، انفرد به البخاري (٦) .

وروى مسلم من حديث الزهري ، عن حل بن الحسين ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار قرياً من هذا . وسيلاتي عند قوله تعالى في سبأ : (حتى إذا فرغ من كل جم) (٧) ... الآية .

وقال البخاري : وقال الليث : حدثني خالد بن يزيد ، عن سميد بن أبي هلال : أن أبا الأسود أخبره ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن للملائكة تحدث في العتكان - والعتان : الغمام -

(١) قرئت اللباجة : رددت صوتها .

(٢) البخاري ، كتاب الوصية ، باب : قراءة الناجي والمنجى : ١٩٨/٩ .

(٣) انظر تفسير هذه الكلمة في : ٤٤٩/٤ .

(٤) في المخطوطة : قال لي قال الحق ، والمثبت من الصحيح .

(٥) حرفها : أملاً . ويبد بين أصابعه : فرق بينها ، واللباجة : الطريق .

(٦) البخاري ، تفسير سورة سبأ : ١٥٢/٦ ، ١٥٣ .

(٧) مسلم ، كتاب السلام ، باب : تحريم الكهانة وأتباع الكهان : ٣٧-٣٦/٧ .

— بالآمر ١ يكون ١ في الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتتحرّما في أذن الكاهن كما تُحرّ القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة (١) .

وقال البخاري في موضع آخر من كتاب « بدء الخلق » عن سعيد بن أبي مرز ، عن الليث ، عن عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن ، عن عروة ، عن عائشة ، بنحوه (٢) .

وقوله ١ (والشعراء يتبعهم الغاؤون) ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن ، وكلّما قال مجاهد رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما .

وقال حكيمه ١ : كان الشعراء يتهاجيان ، فيتبصر لهما فيقام (٣) من الناس ، ولهذا فتألم من الناس ، فأنزل الله : (وللشعراء يتبعهم الغاؤون) .

وقال الإمام أحمد ١ : حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن ابن الهاد ، عن يَحْيَى — مولى مصعب بن الزبير — عن أبي سعيد قال : بينا نحن نسبح مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمرج (٤) ، إذ عرّض شاعر يُششد ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « خلوا الشيطان — أو : أمسكوا الشيطان — لأن يعلّي جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يعلّي به شعراً (٥) » .

وقوله ١ (ألَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ) — قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : في كل لغو غيوضون (٦) ، وقال الضمكاني عن ابن عباس : « كل فن من الكلام . وكلّما قال مجاهد وغيره .

وقال الحسن البصري : قد — والله — رأينا أوديتهم التي يميمون فيها ، مرة في شمة فلان ، ومرة في مدحة فلان ، وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً يباطل ، ويدم قوماً يباطل .

وقوله ١ (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَفْعَلُونَ) — قال العوفي ، عن ابن عباس : كان رجلاً على عهد رسول الله ، أحداهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا ، فكان مع كل واحد منهما غوة من قومه — وهم السفهاء — فقال الله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَفْعَلُونَ (٧)) ، وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه .

وهذا الذي قاله ابن عباس — رضي الله عنه — هو الواقع في نفس الأمر ، فإن الشعراء يتتبعون بأقوال وأفعال لم تصبر منهم ، ولا عنهم ، فيتكررون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء — رحمهم الله — فيما إذا اعترف الشاعر بشعره بما يوجب حداً : هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون مالا يفعلون علي فولين . وقد ذكر محمد

(١) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة إبليس وجنوده » : ١٥٢/٤ .

(٢) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ذكر الملائكة » : ١٢٥/٤ .

(٣) أي : جهامات من الناس .

(٤) المرج — يفتح فسكون — : قرية جلمة في واد من فواحي الطائف .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٨/٣ . وانظره من طريق أخرى : ٤١/٣ .

(٦) تفسير الطبري : ٧٨/١٩ — ٧٩ .

(٧) تفسير الطبري : ٧٨/١٩ .

ابن إسحاق ، وعمد بن سعد في الطبقات ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استعمل النعمان بن حدي بن نضلة على ميسان - من أرض البصرة - وكان يقول الشعر ، فقال : (١) .

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءَ أَنْ حَكِيْلَهَا يَمِيْسَانُ ، يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَسَنٌ (٢)
إِذَا شَعْتُ عَتَقْتَنِي دَمَاقِينَ قَرِيْبَةً وَكَأَصَاةَ (٣) تَجِدُوْهُ عَلَى كُلِّ مَتْنَمٍ
لَّإِنْ كُنْتُ نَذْمًا مَنَى قَبِيْلًا كَبُرَ لِسْتَعْنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْفَرِ لِلتَّكْتَمِ
لَعَلَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ يَسُوْوُهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ لِلتَّهْدَمِ (٥)

فلما بلغ أمير المؤمنين قال : إني والله ، إنه ليسوئي ذلك ، ومن قبله فليخبره أني قد عزلته ، وكتبه إليه :
(بسم الله الرحمن الرحيم . حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو ، إليه المصير) ، أما بعد فقد بلغني قولك :
لَعَلَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ يَسُوْوُهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ لِلتَّهْدَمِ

وَأَمِ الْفُتُوْةِ ، إنه ليسوئي وقد عزلتك : فلما قدم على علي عمر بكه هذا الشعر ، فقال : والله - يا أمير المؤمنين - ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا غي طمّح على لسان (٧) . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لي على علي أبدا ، وقد قلت ما قلت .

فلم يذكر أنه حدّثه على الشراب ، وقد ضمه شعره ، لأنهم يقولون مالا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر - رضي الله عنصلامه على ذلك وعزله به . ولهذا جاء في الحديث : لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا ، يَرِيْهِ (٨) خير لمن أن يمتلي شعرا (٩) ،

(١) الأبيات في سيرة ابن هشام ، في ذكرى ، قدوم جعفر من الحبشة : ٢٦٦/٢ ، وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيري : ٣٨٢ ، والاستيعاب لابن عبد البر : ١٥٠٢/٤ ، وأسد الغابة ، الترجمة ٥٢٤٨ : ٣٣٥/٥ ، ومعجم البلدان لياقوت (ميسان) .
والمعجم الجوليقي : ١٤٥ ، واللسان (جدا) . والأول في جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ١٥٨ ، واللسان (حنن) ، والثاني في اللسان (صنج) ، والرابع في اللسان (جسق) .

(٢) الختم - يفتح الحاء والفاء ، بينهما ثوب ساكنة - جرار خضر تضرب إلى الحبرة .
(٣) كذا في ابن كثير ، وفي المراجع المتقدمة : « وصناعة » . والصنع - يفتح فسكون - ما يكون في النفوس ، وهو الأثر . وهو معرب - وامرأة صناجة : ذات صنج ، وصموا أحصى بكر صناجة لبيودة شعره .

(٤) تجلوا - بجم وذال منجمة : تثبت قائمة ، وقال ثعلب : « البجر - بضم الباء والذال ووار مشددة - : على أطراف الأصابع . وأما متنم - يفتح الميم ، وسكون الثوب ، وسين مكسورة - فأصل فيه منسأ خف البير ، وهما الظفرين في مقدمه مما يستبان أثر البير البشال ، واستعماله هنا على سبيل الاستعارة .

(٥) الجوسق - يفتح الجيم والسين ، بينهما واء ساكنة - الحصن وقيل : شبهه بالحسن . واصله « كوكب » - بضم الكاف ووار ساكنة ، وفتح الشين - بالفارسية .

(٦) أيم : اسم وضع القسم ، ويقول اللغويون : أصله أيم الله .
(٧) في المغرب للجوابيقي : ١٤٥ : « ويقال : إن الرجل كان صالحا ، وإنما قال هذا الشعر ليعزله عمر » .
(٨) أي يفسده ، من الكورى - يفتح فسكون - وهو اللحاء .

(٩) تحفة الأوحى : أبواب الآداب ، باب وما جاء : لأن يمتلي جوف أحدكم قبيحا خير له من أن يمتلي شعرا ، الحديث ٣٠١٠ : ١٤٤/٨ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » ، وقال الحافظ أبو العلي صاحب تحفة الأوحى : « والمرجعه الشيخان وابن ماجة » . وأخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢٨٨ / ٢ : ٣٩١ ، ٤٧٨ .

والمراد مع هذا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ، لأن حال المعنات الخالم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (١)) ، وقال تعالى : (إنه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين (٢)) • وهكذا قال هانئا : (وإنه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • حل قلبك لتكون من المنزّلين • يلسان عربي مبين) • إلى أن قال : (وما تنزلت به الشياطين • وما ينبغي لهم وما يستطيعون : إنهم عن السمع لمزولون) ، إلى أن قال : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين : تنزل على كل أفك أنثم • يلقون السمع وأكّهم كاذبون • والشعراء يتبعهم الغاؤون • ألم تر أنهم قالوا فكل واد يميمون ؟ وأنهم يقولون مالا يفعلون) ،

وقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) - قاله صمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن ابن الحسن سلم البركاد مولى تميم الدار قال : لما نزلت : (والشعراء يتبعهم الغاؤون) ، جاء حسان بن ثابت ، وحيد الله ابن روضة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يبيكون فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا شعراء ، ففلا النبي صلى الله عليه وسلم ! (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال : أنثم (وذكروا الله كثيرا) ، قال : أنثم ، (وانتصروا من بعد ما ظلموا) ، قال : أنثم ،

رواه ابن أبي حاتم : وابن جرير (٣) ، من رواية ابن إسحاق .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا ، عن أبي سعيد الأشج ، عن أبي أسامة ، عن الوليد بن كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي الحسن مولى [بن] نوفل : أن حسان بن ثابت وحيد الله بن روضة أتيا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حين نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) يبيكان ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأها عليها : (والشعراء يتبعهم الغاؤون) حتى بلغ : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال : أنثم .

وقال أيضا : حدثنا أبو حنيفة أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة ، عن هشام بن حروة ، عن حروة قال : لما نزلت : (والشعراء يتبعهم الغاؤون) إلى قوله : (يقولون مالا يفعلون) ، قال عبد الله بن روضة : يا رسول الله ، قد علم الله أني منهم ، فأترك الله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إلى قوله : (ينقلبون) .

وهكذا قال ابن عباس ، وحكمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وزيد بن أسلم ، وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآية شعراء الأنصار ؟ في ذلك نظر ، ولم يضمن إلا مراسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان مطلباً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأمله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقبل ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً

(١) سورة يس : آية : ٦٩ .

(٢) سورة الحاقة : ٤٠ - ٤٣ .

(٣) تفسير الطبري : ١٩ ٪ ٧٩ .

في مقابلة ما تقدم من الكلام السوي ، فإن الحسنة بلعين البينات ، وامتنع الإسلام وأهلته في مقابلة ما كذب به ، قال
قال عبد الله بن الزبير عن ابن عباس (١) :

بِأَرْسُولٍ لِّلْمَلِكِ ، إِنَّ لِّسَانِي وَاتَّقِ مَا فَتَنَتْ إِذْ أَنَا بِوَدِّ
إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْيَوْمِ ، وَمَنْ مَلَكَ مَيْلَهُ مَتَّبِعُوهُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عدواة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن عمه ، وأكثرهم له دجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يمدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ما كان يهجو ، ويتولا بعد ما كان قد عاداه : وهكذا روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ؟ ثلاث أعطنيهن قال : نعم : قال : معاوية يجعله كالنبي يدبك . قال : نعم . قال : وتورثني سبي أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : نعم ، وذكر الثالثة (٢) :

وهذا قال تعالى : (إِذَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) ، قيل : معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم . وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح .

وقوله : (وَانْتَصَرُوا مِنْ بَدَا مَا ظَلَمُوا) - قال ابن عباس : يردون حل الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين (٣) . وكلما قال مجاهد ، وقادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : اصحبهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله - عز وجل - قد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده ، لكان ما ترومهم به تصح (٥) النبيل (٦) .

وقوله : (وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينتقلون) ، كما قال تعالى : (يوم لا ينفع الظالمين من ظلمهم ولم لهم) ، ولم سوء العذاب (٧) ، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة (٨) . وقال قتادة بن دحية : في قوله : (وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينتقلون) ، يعني من الشعراء وغيرهم .

(١) تقدم البیان من قرطبي ، وانظر : ١٠٦/٦ ، ١٠٨ .

(٢) مسلم كتاب الفضائل ، باب : «من فضائل أبي سفيان بن حرب» : ١٧١/٧ .

(٣) تفسير الطبري : ٨٠/١٩ .

(٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة : ١٣٦/٤ . مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب : فضائل حسان ابن ثابت : ١٦٢/٧ . وصند الإمام أحمد عن البراء بن عازب : ٢٨٦/٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٥) أي : رمي النبيل .

(٦) صند الإمام أحمد : ٣٨٧/٦ .

(٧) سورة طه : آية ٥٤ .

(٨) مسلم ، كتاب البر ، باب : تحريم الظلم : ١٨/٨ . وصند الإمام أحمد عن ابن عمر : ٩٢/٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

ومن جابر بن عبد الله : ٢٢٣/٢٢ .

وقال أبو حنود الطيالسي : حدثنا إياس بن أبي تميم ، قال : حضرت الحسن ومروءة عليه بجنادة نصراني ، فقال الحسن : (وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون) :
وقال عبد الله بن رباح ، عن صفوان بن محرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوده : (وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون) :

وقال ابن وهب : أخبرني ابن سريج الإسكندراني ، عن بعض المشيخة : أنهم كانوا بأرض الروم ، فبينما هم ليلة على نار يشفون (١) حليها - أو : يصطلون (٢) - إذا بركاب (٣) قد أقيروا ، فقاموا إليهم ، فإذا فضالة بن عبيد فيهم ، فأنزلوه فجلس معهم - قال : وصاحب لنا قائم يصلي - قال : حتى مرتبه الآية : (وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون) ، قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يغربون البيت .

وقيل : للراد بهم أقل مكة : وقيل : الذين ظلموا من المشركين : والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، كما قال ابن أبي عمير : فذكر عن زكريا بن يحيى الواسطي : حدثني الميثم بن محفوظ أبو سعد النهدي ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ابن أبي عمير ، حدثنا هشام بن حروة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كتب أبي وصيته سطرين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هلما ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهي للقاهر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم حمزة بن الخطاب ، فإن يهلكه فذلك ظلي به ، ورجائي فيه : وإن يجر ويدك فلا أظلم اليه » ، (وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون) .

آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين

(١) أي : يصطلون عليها سواء .

(٢) أي : يستلقون .

(٣) كلنا في خطوة الأهر : « ركاب » والركاب بكسر الراء - جمع دابة . نقل ذلك ابن منظور في اللسان عن ابن الأعرابي

- (١) الظفر : ٦/١ - ٦٠ .
- (٢) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .
- (٣) سورة مريم ، آية : ٩٧ .
- (٤) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .
- (٥) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ .

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ إِنِّي مَآئِدْتُ لَكَ مَا تَشَاءُ مِنْهَا بِخَيْرٍ وَأَوَاتِيكَ مِنْهَا بِقِسْ لَعَلَّكَ تَصْطَلُونَ ﴿١٠﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمَا نُورُ اللَّهِ يَغِيظُكَ مِنْ فِي الْغَارِ مِنْ حَوْلِهِمَا وَسَبَّحْتَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ يَمْوِجُ ۖ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ
الْمُرِيدُ لَكُمْ خَيْرٌ ۖ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهَا تَحْتَرُ كَانَتْ جَانِبَ الْوَيْلِ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعْقِبْ يَمْوِجُ لَا تَحْفَ إِلَى
لَا يَمُوتُ لَكَ الْمُرَادُ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ عَلَّمَ قَدْ هَلَّ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ
فَخَرَجَ مِنْهَا خَبْرًا مِنْ ثَمَرِ سُوءٍ فِي تَصْنِيعِ عِلْيَتِكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا لَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
هَاجَتُهُمْ مَوْرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ لَقَدْ هَمَمْنَا بِهَا وَاسْتَفْتَيْنَا أَنْفُسَهُمْ فَطَلَبُوا وَعُلُوا فَلَنظُرْ كَيْفَ كَانَ
حَقِيقَةُ التَّحْقِيقِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - مذكراً له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، ولجأه وأعطاه
من الآيات العظيمة الباهرة، والآلاء القاهرة، وابنته إلى فرعون وماله، فخصدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه
والإتيان به، قال تعالى: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ) أي: أذكر حين صار موسى بأهله، فأصل الطريق، وذلك في ليل
وظلام، فأنس من جانب الطور نارا، أي: رأى نارا تألج وتضطرم، فقال (لأخيه) إلى أختت نارا، سأكلم منها
بخبر، أي: عن الطريق، (أرأتكم منها بشهاب ليس لعلكم تصطلون)، أي: تطفئون به، وكان كما قال، فانه
وجع منها خبر عظيم، واقتبس منها نورا عظيما، ولهذا قال تعالى: (فلما جاءهما نودي أن بورك من في النار ومن حولها)
أي: فلما أتاهما رأى منتظرا هالكا عظيما، حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقفاً،
ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وفرة، لم رفع رأسه إلى نورا متصل بستان السماء،
قال ابن عباس، وغيره: لم تكن للرا، إنما كانت نورا يتوهج.

وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين. فوقف موسى متسجعا بما رأى، فتدعى أن بورك من في النار. قال ابن
عباس: قد دعى (١).

(ومن حولها)، أي: من اللامعة. قاله ابن عباس، وعكرمة، وصعبد بن جبيرة، والحسن، وقتادة:

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود - هو الطيالسي - حدثنا شعبة والمسيدي، عن عمرو
ابن مرة، سمع أبا عبيدة يحدث، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله
لا ينام، ولا ينفى له أن ينام، يغشى القسط (٢) ويرضه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل - زاد
للمسيدي - وحجابه [النور] ألقا، لو كشفها لأحرقت سبحات (٣) وجهه كل شيء أدركه بصره. ثم قرأ أبو عبيدة:
(أن بورك من في النار ومن حولها). وأصل هذا الحديث خرج في الصحيح لسان، من حديث عمرو بن مرة (٤)، به.

(١) تفسير الطبري: ١٩ / ٨٢.

(٢) القسط: الميزان.

(٣) سبحات وجهه: نوره وجلاله وجلوه.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» ١١١/١.

وقوله : (وسبحان الله رب العالمين) ، أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبهه شئ من مخلوقاته ، ولا يحيط به شئ من مضموعاته ، وهو الله العظيم ، الباقين لجميع المخلوقات ، ولا يكتشف الأرض والسماوات ، بل هو الأحد الصمد ، لكثرة من مآله الأحداث .

وقوله : (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) ، أعلمه أن الذى يخاطبه ويناجيه هو به الله العزيز ، الذى عز كل شئ وقهره وعلوه ، الحكيم فى أماله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه القائل المختار ، القادر على كل شئ : فلما أتى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حيةً عظيمة هائلة فى غاية الكبر ، وسرعة الحركة ، وأكثره اضطراباً . وفى الحينئذ تهيئ من قتل جثثان (١) البيوت - فلما عين موسى ذلك (ولى مديراً ولم يقب) ، أى : لم يلتصق من شدة قربه (٢) ، (يا موسى لا تخف ، إني لا أغاث للذين المرسلون) ، أى : لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسلاً وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : (إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء) ، فإني غفور رحيم) ، هذا استثناء منقطع ، وليه بشاره عظيمة للبشر . وذلك أن من كان على شئ ثم ألقه عنه ، ورجع وأتاب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : (وإنى لظالم لى تائب وآتى وعمل صالحاً ثم اهتدى (٣)) ، وقال تعالى : (ومن يعمل سوءاً ثم يخلص نفسه لم يستغفر الله ، فبئس عاقبة أولئك الذين هم) والآيات فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : (وأدخل يدك فى جيبك فخرج به شاء من غير سوء) ، هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله القائل اختار ، وصديق من جبل له معجزة ، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها غورت بيضاء ماطة ، كأنها قطعة قمر ، لما لمعان يلائم كالبدر فى الخافض .

وقوله : (فى تسع آيات) ، أى : هاتان تسعتان من تسع آيات أولئك الجن ، وأجملهن برهاناً لك على قهرهم وقومهم ، (إنهم كانوا قوماً فاسقين) .

وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) (٤) ، كما تقدم تقرير ذلك (٦) هناك . وقوله (فلما جاءهم آياتنا مبصرة) ، أى : بينة واضحة ظاهرة (قالوا : هذا سحر مبين) ، وأرادوا معارضة بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين (وجعلوا بها) أى فى ظاهر أمرهم (واستبقوا أنفسهم) أى علموا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعانقوها وكابروها (ظلوا وعلموا) ، أى : ظلوا من أنفسهم ، مستجيبةً لمغفوه ، وعلموا ، أى : استكبروا عن اتباع الحق . ولما قال : (فانظر كيف كان عاقبة التمسكين) ، أى : انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ، فى إهلاك الله إياهم ، وإفراقهم عن آخرهم فى صيحة واحدة .

(١) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الجن وفرايم : ١٥٤/٤ . ومسلم ، كتاب تلى الحيات : ٣٨ - ٣٩ . والجنان - بكسر الجيم - : جميع جان ، وهى الحية الصغيرة .

(٢) الفرق : الخوف .

(٣) سورة مده : آية ١٠٧ .

(٤) سورة الصاء : آية ١١٠ .

(٥) سورة الإسراء : ١٠٦ .

(٦) انظر فيما تقدم : ١٧٧٥ .

وقوله : (يالها الناس ، حكمتنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء) ، أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيها وعبه له من الملك الثام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سحر له الإنس والجن والطيور ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعمده أحد من البشر - فيها علمناه - ما أخبر الله به ورسوله ، ومن زعم من الجهلة والرجح أن الخيرات كانت تنطق كتنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود - كما يظنه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف مايقول ، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر مخلوقات من وقت خُلِقَتْ إلى زماننا هذا على هذا الشكل والنوال ؛ ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان قد أنعم عليهم سليمان - عليه السلام - ما يخاطبه به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ، ولهذا قال : (علمتنا منطلق الطير ، وأوتينا من كل شيء) ، أى : بما يحتاج إليه الملك ، (إن هذا هو الفضل المبين) ، أى : الظاهر البين لله علينا .

قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا يعقوب بن حيد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان داود - عليه السلام - فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع - قال : فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب ، فأقبلت امرأته (١) تنطلق إلى النار ، فإذا رجل قائم وسط النار ، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدنار مغلقة ؟ والله لتفتضح (٢) بداود ، فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط النار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى (٣) لا يهاب الملوك ، ولا يتجنى من الحجاب . فقال داود : أنت وإذا ذلك الموت مرحباً بأمر الله ، فترمل (٤) داود - عليه السلام - مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلمت عليه الشمس ، فقال سليمان عليه السلام للطير : أظنى هل داود فأظلمت عليه الطير حتى أظلمت [عليها] الأرض ، فقال لما سليمان : أقبض جناحاً جناحاً قال أبو هريرة (٥) : يا رسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، وغلبت عليه يومئذ المفسر حبة (٦) .

قال أبو الفرج بن الجوزى : المفسر حبة : النصور الحمر .

وقوله تعالى : (وحشر سليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) ، أى : وجعم سليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعنى : ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم اللذين يلوونه ، والجن وهم يعنهم فى المثرة ، والطير ومزنتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلمته مع ما يجنحها .

(١) فى المخطوطة : « امرأة » . والمكتوب عن المحدث .

(٢) فى المحدث : « لتفتضح » . بالفاء .

(٣) أخذ المحدث : « أنا الذى لا أهاب الملوك » ، ولا يتجنى من شيء .

(٤) فى المحدث : « فرمل » . ولم يتبين لنا فى المصحف معنى متاسب السياق .

(٥) نقل المحدث : « قال أبو هريرة : بعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كيف فعلت الطير » . وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وغلبت عليه المفسر حبة .

(٦) فى مخطوطة الأثر ، والمحدث ، والمصرية ، والنسب للمهمة . والمكتوب عن القرآن قال : والمفسر من المفسر : ما مال

وقوله : (فهم يؤزحون) ، أى : يكف أولهم على آخرهم ، فلا يتقدم أحد عن متركة إلى حرة مرتبة له .

قال جاهد : جعل على كل صنف وزعة ، يردون أولها على آخرها ، فلا يتقدموا في المسير ، كما يفعل الملوك اليوم . . .

وقوله : (حتى إذا أتوا على وادى القل) ، أى : حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادى القل ، (قالت غلة : يا أيها القل ، ادخلوا مساكنكم ، لا تعطنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون) .

أورد ابن صاكر ، من طريق إسحاق بن بشر ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن : أن اسم هذه الغلة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم : بنو الشيصان ، وأنها كانت مرجاء ، وكانت بقدر الدبيب .

أى : خافت على القل أن تعطلها الخيل بحوافرها ، فأمرهم بالدخول إلى مساكنها ، فقام ذلك سليمان - عليه السلام - منها ، (فتبسم ضاحكا من قولها) ، وقال : رب ، أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه) ، أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على ، من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالإسلام لك ، والإيمان بك ، (وأن أعمل صالحا ترضاه) ، أى : عملا تحبه وترضاه ، (وأدخلنى برحمتك فى عبادة الصالحين) ، أى : إذا توفيتنى فأدخلتنى بالصالحين من عبادة ، والرفيق الأهل من أوليائك .

ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره ، وإن هذه الغلة كانت ذات جناحين كالذباب .
أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها .

وعن توفى البكالى أنه قال : كان غل سليمان أمثال الذباب : هكذا رأيت مضبوطة بالياء المثناة من تحت ، وإنما هو الباء للوحدة ، وذلك تصحيف ، والله أعلم .

والفرض أن سليمان - عليه السلام - فهم قولها ، وتبسم ضاحكا من ذلك ، وهذا أمر عظيم جدا .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مسعر ، عن زيد الصننى ، عن أبى الصديق التاجى قال : خرج سليمان - عليه السلام - يستقى ، فإذا هو بمنلة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ، إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، ولا نسئما بها كنتا . فقال سليمان - عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة خيركم .

وقد ثبت فى الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : قرئت نبياً من الأنبياء غلة ، فأمر بقرية القل فأحرق ، فأوحى الله إليه ، أنى أن قرنتك غلة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا غلة واحدة ؟ (١)

وَتَقَدَّرَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْمَلْعُدَ أَمْ كَانَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا خَبْرَ لَهُمْ بِأَشْيَاءِ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ يُعَذِّبُونَ ۚ

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْلُطْنَ فِي الْأَرْضِ ۖ

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما ، عن ابن عباس وغيره : كان للملحد مهنتما ، بئس سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بارض فلاة طلبه فظفر له الماء في غيوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا حلم عليه أمر سليمان - عليه السلام - اللجان فحفروا له ذلك المكان ، حتى يستنيط للماء من قراره ، فترك سليمان عليه السلام بفلاة من الأرض ، فتفقد الطير ليرى الملحد ، فلم يره ، فقال : ما لي لأرى الملحد أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟

حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج ، يقال له : تافع بن الأزرق ، وكان كبير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : كف يا ابن عباس ، حكيت اليوم ! قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الملحد أنه يرى الماء في غيوم الأرض ، وإن الصبي يضع له الحية في الفخ ، ويحفر على الفخ ترابا ، فيجىء للملحد ليأخذها فيقع في الفخ ، فيصيده الصبي . فقال ابن عباس : نولا أن يلعب هذا فيقول : رددت على ابن عباس ، لا أجبه ، فقال له : وعك ! إنه إذا نزل القدر عسى البصر ، وذهب الحذر ، فقال له تافع : وافقه لا أجادك في شيء من القرآن أبداً ،

وقد ذكر المحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزنجي - من أهل « بَرْزَجَة » من فرقة دمشق ، وكان من الصالحين بصوم الاثنين والخميس ، وكان أمور قد بلغ الثمانين - فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد : أنه سأله عن سبب عبوره ، فامتنع عليه ، فألح عليه شهوياً ، فأنصبره أن رجلين من أهل خراسان نولا عنده جمعة في قرية برزة ، وسألاه عن واد بها ، فأريته إياه ، فأخرجها مجامير وأوقد فيها غمراً كثيراً ، حتى حصبج الوادي بالدخان ، فأخذوا يترنمون (١) والحيات تقبل من كل مكان إليها ، فلا يلتفتن إلى شيء منها ، حتى أقيمت حية نحو الدراع ، وعينها توثقان مثل اللينار . فاستبشرا بها عظيماً ، وقالوا : الحمد لله الذي لم يخيب سرفنا من سعة ، وكسرا المجامر ، وأخذوا الحية فأدخلوا في عينا ميلا فاحتلوا به ، فسألته أن يكملاني ، فأبى ، فألححت عليها وقتل لا بد من ذلك ، ونوعتها بالدولة (٢) ، فكحلا صبي الواحد البني ، فحين وقع في صيني نظرت إلى الأرض تحتي مثل المرأة ، أنظر مانعها كما تنرى المرأة ، ثم قالوا : مر معنا قليلا ، فسررت معها وما يحدثان ، حتى إذا بدلت عن القرية ، أعتلاني فكشاني ، وأدخل أحبا بدنه في صيني ففأها ، وري بها ومغنيا . فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً ، حتى مر بي نفر فكفك ربكاف ، فهذا ما كان من خبر حبيب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو السخاني ، حدثنا عبيد الله بن ميسرة المقرئ ، عن الحسن قال : اسم هذا سليمان عليه السلام : حنبر .

(١) أي : يترنمون الزمزم ، وهي الرقعة .

(٢) الدولة : أمانية .

وقال عبد بن إسحاق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه : تفقد الطير ، وكان يبايعهم ، وكان يوجب من كل صنف من الطير ، كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حشره إلا الهدهد ، فقال : مالي لأرى المهدد أم كان من الثائنين ، أخطأه بصري من الطير ، أم خاب فلم يحضر ؟

وقوله : (لأعلمته حذاباً شديداً) ، قال الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن ابن عباس : يعني تلف ريشه (١) ، وقال عبد الله بن شداد : تلف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه تلف ريشه ، وتركه ملتقى بأفكه الدر وأتمل .

وقوله : (أو لأعلمته) ، يعني : قتله ، (أو ليأتيني بسلطان ميين) أي : بعلم واضح بين .

وقال سليمان بن حبيشة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم المهدد قال له الطير : ما خلفك ، فقد نزل سليمان عليك ، فقال : هل استنق ؟ فقالوا : نعم ، قال : (لأعلمته حذاباً شديداً أو لأعلمته أو ليأتيني بسلطان ميين) ، فقال : نجوت إذا . قال مجاهد : إنما دفعه عنه بجره بامه .

لَكَتَ لَمْ يَجِدْ قَدَاسَتْ بِمَا لَمْ يَجِدْ بِهِ وَجَعَتْكَ مِنْ سَلَامٍ بِمَا يَجِدُ ۖ إِلَى مَيْمَنَةِ امْرَأَةِ الْعَمَلِ
وَلَا يَمْنَى بِنَاصِيَةِ الْفِتْرِ وَمَا عَرَفَ عَظِيمُ ۖ وَجَدَتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَنْعَمَهُمْ فَصَدَقَهُمْ فِي السَّيْلِ فَهَمُّهُمْ لَا يَسْتَلُونَ ۖ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَرَجَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ
وَالْأَرْضُ فَاسِقَةٌ ۖ وَمَا تَلْبِسُونَ ۖ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۖ

يقول تعالى : (لكث لم يجد) ، (لكث) المهدد (غير بعيد) ، أي : خاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : (أعطت بما لم تحط به) ، أي : أعطت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، (وجعلتك مرسياً بينا يقيس) ، أي : يخبر صدق حق يقين ، وصياً بهم ، حمير ، وهم ملوك اليمن .

ثم قال : (إلى) وجدت امرأة عمالكهم) ، قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شركيل ملكة سبأ . وقال قتادة : كانت أمها جنية ، وكان مؤخر قلميها مثل حافر الدابة ، من بيت ملكة .

وقال زهير بن عبد الله بن بلقيس بنت شركيل بن مالك بن الريان ، وأمها فارعة الجنية (٢) . وقال ابن جرير : بلقيس بنت ذي شرح ، وأمها بلقة (٣) .

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٩٠ .

(٢) انظر جبهة السبأ العربية لابن حزم ٤٣٩ .

(٣) كلاني خطبة الأثر : بلقة . وفي أثر حيان بن ساهر في العلم المنتشر ١٠٥/٥ : يقال لما : بلقة بنت

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مسدد ، حدثنا صفيان - يعني ابن حينة - عن عطاء بن السائب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان مع أ صاحبة سليمان ألف قَيْلٍ (١) ، تحت كل قَيْل مائة ألف :

وقال الأعمش ، عن مجاهد : كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قَيْل ، تحت كل قَيْل مائة ألف مقاتل .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن قتادة بن قولة : (إني وجدت امرأة تملكهم) ، كانت من بيت ملكة ، وكان أولو مشورتها ثلاثمائة وأثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل : وكانت بأرض يقال لها مأرب ، على ثلاثة أميال من صنعاء .

وهذا القول هو أقرب ، على أنه كثير على ملكة اليمن ، والله أعلم .

وقوله : (وأوتيت من كل شيء) ، أي : من منافع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتكبر : (ولها مرضى عظيم) ، يعني : سرير يجلس عليه عظيم هائل مزخرف باللحبي ، وأنواع الجواهر واللاقي .

قال زهير بن محمد : كان من ذهب صفحته ، مرمول بالياقوت والزبرجد (٢) ، (طولُه ثمانون ذراعاً) ، ومرضاه أربعون ذراعاً .

وقال محمد بن إسحاق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد (٣) ، وكان إنما يخدمها النساء ، لما سألته امرأة على الخليفة (٤) .

قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرف ومظها من غربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابليها ، فيسجدون لها صليحاً وساء . ولهذا قال : (وجندتها ونحوها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل) ، أي : عن طريق الحق ، (فهم لا يجنون) .

وقوله : (ألا يسجدوا لله) : [معناه : (وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدمهم عن السبيل ، فهم لا يجنون : ألا يسجدوا لله) ، أي : لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) (٥)] .

وقرأ بعض القراء : (ألا يا سجدوا لله) (٥) ، جعلها (ألا) الاستغاثية ، و (يا) النداء ، وحذف النداء ، تقديره عنده : (ألا يا قوم ، اسجدوا لله) .

(١) أثر ابن أبي حاتم - كما في الدر المنثور : ١٠١/٥ - : كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قَيْل ، تحت كل قَيْل مائة ألف .

(٢) في المخطوطة : صفحتها مرمولة ، بآلتاء . ولا يستقيم عليه النص . وفي الدر المنثور ١٠٦/٥ : زهير بن محمد قال : « سرير من ذهب وصفحته ، مرمول ، فأثنتا مرمول » دون آلاء ، على أنه صفة للذهب . والمرمول في اللغة المنسوج . ولعل المقصود : مزين ومطعم .

(٣) في المخطوطة : تليها الخنة والخثب من الطهيمات السابقة .

(٤) سورة فصلت ، آية ٣٧ .

(٥) نسبت هذه القراءة إلى ابن عباس وجماعة ، انظر البحر المحيط : ٦٨٧ .

وقوله : (الذي يخرج الخبء من السموات والأرض) ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعلم كل خبيء في السماء والأرض . وكلما قال حكمة ، وجهاد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وضرب واحد .

• وقال سعيد بن المسيب : الخبء : الماء : وكلما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السموات والأرض ما جعل فيها من الأرزاق : لظن من السماء ، والنبات من الأرض (١) .

وهذا مناسب من كلام المحدث ، الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره ، من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) ، أي : يعلم ما يحق به العباد ، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسار به بالنهار) (٢) .

وقوله : (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ، أي : هو المدعو الله ، وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه :

ولما كان المحدث داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له ، نبه عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن أبي هريرة (٣) - رضي الله عنه - قال : نبه النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الخنثى والنحلة والمذنب والعنكبوت (٤) : وإسناده صحيح .

• قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾ أَذْهَبَ بِكَ نَارُ اللَّهِ الْيَوْمَ ثُمَّ قَوْلَ عَنَّمْ كَأَنَّهُمْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَىٰ إِلَىٰ آلِي كَيْفَ كَرِهَ ﴿٣﴾ لَأُنْفِرَنَّ مِنْ سُلَيْمَانَ وَنَارِيَسَ إِلَهُ الْأَرْحَمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتَوْهُ مُسْلِمِينَ ﴿٥﴾

يعبر تعالى عن قبل سليمان - عليه السلام - للمحدث حين أنبأه عن [أهل] سبأ وملكتهم : (قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ، أي : أصدقت في إخبارك هذا ، (أم كنت من الكاذبين) في مقالته ، فتتخلص من الوحيد الذي أوعدتك ؟ (أذهب بكاني هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) ، وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك المحدث فحمله ، قيل : في جناحه كما هو عادة الطير ، وقيل : بمقارة • وذهب إلى بلاده فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوقة التي كانت تختل فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هناك بين يديها •

(١) تفسير الطبري : ١٩ / ٩٣ .

(٢) سورة الرعد ، آية : ١٠ .

(٣) الحديث كما وقع لنا - في المسند من ابن عباس ، أنظر : ٣٣٢ / ١ ، ٣٤٧ . وكذلك هو في سنن أبي داود ، عن ابن عباس أيضاً . انظر كتاب الأدب ، باب : « في قتل الدار » ، الحديث ٢٦٧ ، ٣٦٧ / ٤ .

وقد أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة وابن عباس . انظر كتاب الصيد ، باب : « ما يؤتى من قتله » ، الحديث ٣٢٢٣ ، ٣٢٢٤ : ١٠٧٤ / ٢ ، ٩٧٤ / ٢ .

(٤) الصرد - بضم ففتح - : طائر ضخم الرأس ، أبيض البطن أخضر الظهر ، يصطاد بخنجر الطير .

ثم تولى لاجبة أدبا ورياسة فتجبرت مماراة ، وعلما ذلك : ثم حدث إلى الكتاب فأخذه ، فقصت حقه وقراته ، فإذا فيه : (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين) فجمعت عند ذلك أمرهما ووزارهما وكبراه دولتهما وملكهما ، ثم قالت لهم : (يا أيها اللأ ، إني ألقى إلى كتابي كرم) ، فمضى يكرمه ما رآته مع حبيب أمره ، كونه طائر ألقى به فالتفاه إليها ، ثم تولى عنها أدبا . وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سيولهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم ، (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين) ففرغوا الله من نبي الله سليمان ، وأنه لا فيكمل لهم به . وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والقصيدة ، فإنه حصل للنبي وأمره عبارة وأحسنها ، قال العلماء : ولم يكتب أحد (بسم الله الرحمن الرحيم) قبل سليمان عليه السلام .

وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا في تفسيره ، حيث قال : حدثنا أبي : حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلو الخطاط ، حدثنا أبو يوسف ، عن سلمة بن صالح ، [عن حيد الكرم] أبي أمية ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : كنت أشتق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أعلم آية لم يترك على نبي قبلي بعد سليمان بن داود : قال : قلت : يا رسول الله ، أي آية ؟ قال : سأعلمها قبلي أن أخرج من المسجد : قال : فالتفتي إلى الباب ، فأنرجح إحدى قدمي ، فقلت : ليس . ثم التفت إلى وقال : (إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) .

هذا حديث غريب ، وإسناده ضعيف .

وقال ميمون بن هرون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب : باسمك اللهم ، حتى ترك هذه الآية ، لكتبه : (بسم الله الرحمن الرحيم) :

وقوله : (أن لا تعلوا عليّ) ، يقول قتادة : لا تجروا عليّ (وأتوني مسلمين) :

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا تتصروا ولا تكبروا عليّ .

(وأتوني مسلمين) ، قال ابن عباس : موحدين ، وقال غيره : غلصين ، وذلك سليمان بن حبيبة ، طائفة .

قالت يثيب الملقبة بالفتوى في أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴿١﴾ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأسا

شديدا والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴿٢﴾ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أمراءها

أذنلة وكنك يعلون ﴿٣﴾ وإني مرسلتان إليهم ببلية فتأطروهم يرجع للمسلمون ﴿٤﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارهم في أمرها ، وما قد نزل بها ، ولهذا قالت : (يا أيها اللأ ، أنظروا في أمرى

ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) ، أي : حتى يحضرون ونشرون ، قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأسا شديدا ،

أي : منوا إليها بتقدمهم وعدتهم وقوتهم ، ثم فرضوا إليها بعد ذلك الأمر قالوا : (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ،

أي : نحن ليس لنا حيلة (١) ولا بنا بأس ، إن شئت أن نقصدية ونطويه ، لنا حيلة هـ . وبعد هذا فالأمر إليك ،

مرى فيها برأيك بمخطه ولطيفه .

(١) كلا هـ . ولم نجد فيما أنجز لنا من المباحث ، وفي اللغة هـ . والله من أنزه ، يهوه هـ . سره وسجده .

قال الحسن البصري رحمه الله : فوضوا أسرارهم إلى حليجة (١) تضطرب ثديها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هي أعزهم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بمجوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع المدهد أمراً عجيباً بديها ، فقالت لهم : إني أنشئ أن تحاربوه وتمتحن عليه ، فيقتصدوا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى وإليكم الملاك والنمل دون غيرنا : ولهذا قالت : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) .

قال ابن عباس : أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه ، أي : خربوه ، (وجعلوا أمة أهلها أذلة) ، أي : وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهاتهم غاية الخوان ، إما بالقتل أو بالأسر .

قال ابن عباس : قالت بلقيس : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أمة أهلها أذلة) ، قال الرب عز وجل : (وكللك بفعلون) : لم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسألة والغداة والمصانعة ، فقالت : (وإني مرسله إليهم جديبة فناظرة بم يرجع للرسلون) ، أي : سأبث إليه يهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل ذلك ويكف عنه ، أو يضرب علينا غزواً يحمله اليفق كل عام ، ونلتزم له بذلك ونترك قتالنا وعاربتنا : قال قتادة : رحمه الله ورضي عنها ، ما كان أمقلها في إسلامها وفي شركها !! علمت أن المدينة تقع موقفاً من الناس .

وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل المدينة فهو ملك قتالوه ، وإن لم يقبلها فهو لبي فاتبعوه .

فَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ عَلَىٰ الْحَبَلَةِ أَتَيْنَهُ اللَّهُ خَبَرَهَا بِمَا عَمِلَتْ مِن آثَامِهَا وَبِمَا كَسَبَتْ خَيْرًا وَأَنَّتْ بِمَا هَدَىٰ رَبُّهَا وَلَئِنَّ مُوسَىٰ لَكَانَ مَرْسُومًا ۚ

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه يهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآل وغير ذلك . وقال بعضهم : أرسلت إليه بلبنة (٢) من ذهب : والصحيح أنها أرسلت بآنية من ذهب .

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهما : وأرسلت جوارى في زى النملان ، وغلان في زى الجوارى ، وقالت : إن هرفت حولاة من حولاة فهو نبي : قالوا : فأمرهم عليه السلام أن يتوضؤوا ، فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء ، وجعل الغلام يتوقت ، فيز به بالملك .

وقيل : بل جعلت الجارية تفعل ما فعل يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالمكس .

وقيل : بل جعلت الجوارى يستنسلن من أكفهن إلى مراقيهن ، والغلمان من مراقيهن إلى أكفهن : ولا مناقاة بين ذلك كله ، والله أعلم .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بتدح ليملاء ماله وواه ، لا من السماء ولا من الأرض ، فأجرى النيل حتى هرقت ، ثم ملأه من ذلك : وبغرزة وسلاك ليملاء فيها ، فعمل ذلك : والله أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات .

(١) الحليجة - بكسر فسكون - : مؤلف ملج ، وهو الرجل من كبار البهيم .

(٢) اللبنة - بفتح كسر - : واحدة اللبن ، وهي التي يصف بها الجدار .

والظاهر أن سليمان - عليه السلام - لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : (أتعدون بحال) ، أي : أتضمنوني بحال لأحرككم على شرككم وملكمكم ؟ (لما أتاني الله خبر مما كنتم) ، أي : التي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، (بل أنتم بهديتكم تفرحون) ، أي : أنتم الذين تتقانون الهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف :

قال الأحمد ، عن اللهالك بن عمرو ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه - : لم سليمان الشياطين ففرغوا له ألف قصر من ذهب وفضة : فلما رأته رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا : وفي هذا دلالة على جواز خيبر للملوك وإظهارهم الزينة للرسول وللصناد :

(ارجع إليهم) ، أي : بهديتهم ، (فلأنهم يجدون لا قبل لهم بها) ، أي : لا طاعة لهم بقتلهم (وئمنهم منها) ، أي : من يلهم (أدلة وهم صافرون) ، أي : مهاتون ملحورون .

فما رجعت إليها رسلها بهديتها : وما قال سليمان ، سمعت وأطاعت من وقومها ، وأقبلت تنير إليه في جودها خاضعة ذليلة ، معطلة لسليمان ، نارية متابعته في الإسلام : ولما تحقق سليمان - عليه السلام - قدومه عليه وولدهم إليه ، فرح بملك وسره .

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَيْمَنُ يَأْتِيَنَّكَ عَرُوشُهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ حَفِيتُ مِنْ إِلَهِي أَنَا وَأَهْلِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقْلَدِكُمْ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَفَتِيءٌ أَمِينٌ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي لِيُؤْثِرَكُمْ عَنْكُمْ آلِهَتِكُمْ أَفَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ اللَّهِ إِذَا دُعُوا لِلْعِلَاقَةِ قُلُوبُهُمْ وَأَمْ كُنتُمْ تَعْبُدُونَ إِلَّا آلِهَةً مِثْلَ عَصَائِبٍ يَصْعَدُ الْبَلَدُ بِلَاقَتِهَا

قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد - والله - فرحت ما هذا بك ، وما لنا به من طاعة ، وما نصنع بمكاتره (١) شيئاً : وبشت إليه : (إلى قاضية عليك بملوك قومي ، لأنظر ما أمرتك وما كنحتوا إليه من جنك) : ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه - وكان مع ذهبه منقوش على بالاقوت والزبرجد واللؤلؤ - فجعل في صيغة آيات ، بعضها في بعض ، ثم أنظمت عليه الأبراج ، ثم قالت لمن حكمت حل سلطانها : احفظ بما أتاك ، وسرير ملكي ، فلا تخلص إليه أحد مع حبال الله ، ولا يرتد له أحد : حق آتيك : ثم شخصت إلى سليمان في أربع عشر ألفاً : قبل من ملوك اليمن ، تحت يدي كل قبيل منهم ألوف كثيرة : فجعل سليمان يمشي الجن يأتيه بصرها ومتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دكت جمع من عتده من الجن والإنس ، بمن تحت يده ، قال : (يا أيها اللأ ، أياكم يأتي عرشها قبل أن يأتيوني مسلمين) :

(١) في المخطوطة : « مكاتره » . ولعلبت عن تفسير العنبري : من ابن إسحاق ، عن بعض أهل العلم : من ذهب إلى منه :

وقال قتادة : لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، وكان من ذهب ، وقوامه لؤلؤ وجوهر ، وكان مسنواً بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مثاقيل ، فذكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم مئ أسلموا تحرم أموالهم مع هباتهم فقال : (يا أيها الملأ ، أليكم يائنين بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) .

وهكذا قال حطاه الخراساني ، والسدي ، وزهير بن محمد : (قيل أن يأتوني مسلمين) ، فتحرم على أموالهم بإسلامهم (قال عفريت من الجن) - قال مجاهد : أي مارد من الجن .

قال شُعيبة الجبلي : وكان اسمه كوزن : وكذا قام محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان (١) . وكذا قال أيضاً وهب

ابن منبه :

قال أبو صالح : وكان كانه جبل .

(أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك) - قال ابن عباس : يعني قبل أن تقوم من مجلسك : وقال مجاهد : مقعدك ، وقال السدي ، وغيره : كان مجلس للناس للقبضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزل الشمس . (وإنني عليه لقوي أمين) - قال ابن عباس أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر .

فقال سليمان عليه السلام : أريد أصجل من ذلك : ومن هاهنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، واستحقاقه من الجنود ، الذي لم يسله أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليستخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ، لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلاده قبل أن يكتدوا عليه . هذا ولد حجة بالاعتماد والافتدال والمخفة : فلما قال سليمان : أريد أصجل من ذلك ، (قال الذي عنده علم من الكتاب) - قال ابن عباس : وهو آصف كاتب سليمان : وكذا روى محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : أنه آصف بن برخيا ، وكان صديقاً يثق به العلم الأهم الأعظم .

وقال قتادة : كان مؤثماً من الإنس ، واسمه آصف : وكذا قال أبو صالح ، والضحك وفتادة : إنه كان من الإنس -

زاد قتادة : من بني إسرائيل .

وقال مجاهد : كان اسمه أسطوم .

وقال قتادة - في رواية عنه - كان اسمه بليخا .

وقال زهير بن محمد : هو رجل من الأتلس يقال له : ذو النور .

وزعم حمد الله بن حنيفة : أنه الخضر وهو غريب جداً .

وقوله : (أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك) ، أي : لرفع بصرك وانظر مدي بصرك بما تقدر عليه ، فإنك لا بكل بصرك إلا وهو حاضر عندك .

وقال وهب بن منبه : أمدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى أتيتك به .

فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ، ثم قام فتربصاً ، ودعا الله عز وجل .

قال جاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام : وقال الزهري : قال : يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهنا وإلهنا ، لا إله إلا أنت ، انتهى برحمتها : قال : فتمثل له بين يديه .

قال جاهد ، وسعيد بن جببر ، وعبد بن إسحاق ، وزهير بن محمد ، وغيرهم : لما دعا الله عز وجل ، وسأله أن يأتيه برش بلقيس - وكان في اليمن ، وسليمان عليه السلام بيت المقدس - غاب السرير ، وغاص في الأرض ، ثم بلغ مع بين يدي سليمان عليه السلام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم ير سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه : قال : وكان هذا الذي جاء به من خزائن البحر ، فلما هين سليمان ومكوثه ذلك ، وراه مستقراً عنده ، (قال : هذا من فضل رب) ، أي : هذا من نعم الله عز وجل ، (ليلوني) ، أي : ليختبرني (أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، وكفوله : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يعهدون) (٢) .

وقوله : (ومن كفر فإن ربح غنى كريم) ، أي : هو غنى من العباد وحياتهم ، (كريم) ، أي : كريم في نفسه ، وإليه لم يعده أحد ، فإن عظمته ليست مقفلة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى : (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لعنهم جميعاً) (٣) .

وفي صحيح مسلم : (يقول الله تعالى : يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفنى قلب رجل مثكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل مثكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً : يا عبادي ، إنا هي أعمالكم أحصينا لكم) ثم أوفيك إياها (فمن وجد غيرا لم يجده الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (٤) .

قَالَ تَكَرُّوا لَهَا حَرْشَهَا نَنْظُرَ أَتَنْتَبِهْ أَمْ تَكُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا حَرْشُكَ قَالَتَ كَاثِرٌ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلُهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِبَتِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُثَمَّرٌ مِنْ قَرْيَارٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَنَنْتُ نَفْسِي آسَافًا وَاسْتَكْبَرْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾

يا جى سليمان - عليه السلام - برش بلقيس قبل قلوبها ، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها ونياتها عنه ورويته ، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به ، قال : (تكروا لها عرشها ، ننظر أتنهت أم تكون من الذين لا يندون) . قال ابن عباس : نزع عنه قصوره ومراقبه .

(١) سورة فصلت : آية : ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : آية : ٤٤ .

(٣) سورة إبراهيم : آية : ٨ .

(٤) تقدم المحدث في تفسير الآية الثلاثة من سورة إبراهيم ، وعرشاته هناك . انظر ٣٩٩ - ٤٠٠ .

وقال مجاهد : أمر به فتبر ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

وقال حكرمة : زادوا فيه ونقصوا .

[وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، وزادوا فيه ونقصوا] .

(فلما جاءت قيل أهلكا عرشك) ، أي : عرض عليها عرشها ، وقد غير ونكّر ، وزيد فيه ونقص منه ، فكان فيها ثبات وعقل ، ولما نُبِّه ودعاه وحزم ، فلم تقم على أنه هو ليمد مسافته عنها ، ولا أنه غيره ، لما رأته من آثاره وصفاته ، وإن غير وبدل ونكر ، فقالت : (كأنه هو) ، أي : يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في اللكاء والحزم .

وقوله : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ، قال مجاهد : سليمان يقول (١) .

وقوله : (وصلها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام — في قوله تعالى : (وصعد بن جبر ، وحدها الله — أي : قال سليمان : (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ، وهي كانت قد صلها لله ، أي : غفلها من عبادة الله وحده (ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) . وهذا الذي قاله مجاهد وصعد حسن ، وقاله ابن جرير أيضا .

(ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون في قوله : (وصلها) ، ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى الله عز وجل ، تقديره : وصلها (بما كانت تعبد من دون الله) ، أي : صلها عن عبادة غير الله ، (إنها كانت من قوم كافرين) .

قلت : ويؤيد قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي .

وقوله : (قيل لها : ادخل الصرح ، فلما رأته حسبه لجة وكشفت عن ساقها) ، وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين قبولا له قصرًا عظيمًا من قوارير ، أي : من زجاج ، وأجرى تحت الماء ، فاللجى لا يعرف أمره بحسب أنه ماء ، ولكن للزجاج يحرك بين اللجى وبينه ، واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان عليه السلام إلى اتخاذ ، قيل : إنه لما حزم على تزويجها واصطفاتها لنفسه ، ذكر له جلالا وحسنا ، ولكن في ساقها هكب (٢) عظيم ، ومؤخر أقدمها كؤنخر الدابة : فمأه ذلك ، فانخذل هذا ليوم صحه أم لا ؟ — هذا قول محمد بن كعب القُرظي ، وغيره — فلما دخلت وكشفت عن ساقها ، رأى أحسن الناس وأحسنه (٣) قنما ، ولكن رأى على رجلها شعرا ، لأنها ملكة ليس لها بعل ، فأحب أن يلعب ذلك عنها فقيل لها : الموصى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك : وكره سليمان ذلك ، وقال للجن : اصنعوا شيئا غير الموصى يلعب به هذا الشعر ،

(١) تفسير الطبري : ١٩ / ١٠٥ . وقال ابن جرير : « وقوله : (وأوتينا العلم من قبلها) يقول تعالى ذكره غير أن من قبل سليمان : وقال سليمان : (وأوتينا العلم من قبل هذه المرأة) باقة ويقدرته على ما يشاء ، وكنا مسلمين لله من قبلها » .

(٢) أي : شعر .

(٣) أي : « وأحسن قنما » . وقد أفرد الضمير ، وهو أسلوب عربي جيد ، ورجال العربية يقولون : إنه في معنى « وأحسن شيء » ، فلذلك أفرد الضمير .

قصصوا له التوراة (١) : وكان أول من اتخذ له التوراة ، قاله ابن عباس ، وبجاءه ، وعكرمة ، وعبد بن كعب القرظي ، والسدي ، وابن جريج ، وغيرهم .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان : ثم قال لما : ادخل الصرح ، لربها ملكاً هو أعم من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها : فلما رآته حسيه لجة وكشفت عن ساقها ، لا تشك أنه ماء غوضه ، قيل لما : إنه صرح مسرود من قواير : فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله وعائتها في عبادتها الشمس من دون الله .

وقال الحسن البصري : لما رأت الملجعة الصرح عرفت - والله - أن قدرأت ملكاً أعظم من ملكها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن بعض أهل العلم ، عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح ، وقد علمته له الشياطين من زجاج ، كأنه للماء أيضاً : ثم أرسل للماء حته ، ثم وضع له فيه سريره ، فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والخنزير والإنس ، ثم قال : ادخل الصرح ، لربها ملكاً هو أعم من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، (فلما رآته حسيه لجة وكشفت عن ساقها) ، لا تشك أنه ماء غوضه ، قيل لما : (إنه صرح مسرود من قواير) ، فلما وقفت على سليمان ، دعاها إلى عبادة الله عز وجل ، وعائتها في عبادتها الشمس من دون الله ، فقالت يقول الزنادقة ، فوقع سليمان ساجداً إماماً لما قالت ، وبصعد معه الناس ، فسقط في يدها حين رأت سليمان صنع ما صنع ، فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ! ماذا قلت ؟ - قاله : وأنسيت ما قالت - فقالت : (رب ، إني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ، فأسلمت وحسن إسلامها (٢) .

وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثرًا غريباً عن ابن عباس ، قال : حدثنا الحسين بن علي ، عن زائدة ، حدثني عطاء بن السائب ، حدثنا مجاهد - ونحن في الأزد - قال : حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان - عليه السلام - يجلس على سريره ، ثم توضع كراسي حوله ، فيجلس عليها الإنس ، ثم يجلس الجن ثم الشياطين ، ثم تأتي الريح فتفرقهم ، ثم تظلمهم الطير ، ثم يبدون قدر ما يشئى الراكب أن يترك شهراً ورواحها شهراً ، قال : فبينما هو ذات يوم في مسير له ، إذ تفقد الطير ففقد المدهد فقال : (مالي لا أرى المدهد أم كان من الغائبين . لأعلمته حلداً شديداً أو لأعلمته أن يأتيني بسلعان ميين) ، قال : فكان حلداً به إياه أن ينتفه ، ثم يلقيه في الأرض ، فلا ينتفع من غلة ولا من شيء من هوام الأرض .

قال عطاء : وذكر سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مثل حديث مجاهد - (فكش غير بعيد) - فقرأ حتى انتهى إلى قوله - : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) . اذهب بكتابي هذا) وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى بلقيس : (أن لا تعملوا على واتتوني مسلمين) ، فلما أتى المدهد الكتاب إليها ، أتى في روعها : إنه كتاب كريم ، وأنه من سليمان ، وأن لا تعملوا على واتتوني مسلمين : قالوا : نحن أولو قوة ، قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أسندوها ، وفيهم عرسة إليهم بهدية . فلما جاءت الهدية سليمان قال : أعلموني حال ، أرجع إليهم . فلما نظر إلى الغبار - أخبرنا ابن عباس قال : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحبرة - قال عطاء : وبجاءه حيتل الأزد - قال سليمان : أليكم بآئتي بعرشها ؟ قال : وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ، (قال حفر من الجن : أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك) - قال : وكان لسليان مجلس يجلس فيه الناس ، كما يجلس الأمراء ثم يقوم - قال : (أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك) ، قال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذي عنده علم من الكتاب : أنا أنظر في كتاب ربي ،

(١) التوراة - بضم فسكون - سحر يرق ، يطلق به شعر المائدة .

(٢) تصدير الطبري : ١٩ / ١٤٦

فَمَ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ : قَالَ : لَنْ نُنْظِرَ إِلَيْهِ سَلْيَانٌ فَلَمَّا قَطَعَ كَلَامَهُ وَدَسَلْيَانٌ بَصَرَهُ (١) ، فَنَبِعَ عَرْشَهَا مِنْ حَيْثُ قَعَمَ سَلْيَانٌ ، مِنْ تَحْتِ كُرْسِيِّ كَانَ سَلْيَانٌ يَضَعُ عَلَيْهِ رِجْلَهُ ، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَى السَّرِيرِ . قَالَ : فَلَمَّا رَأَى سَلْيَانٌ عَرْشَهَا قَالَ : (هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي) ، (قَالَ : وَتَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا) ، فَلَمَّا جَاءَتْ قَبْلَ لَهَا : أَهْكَذَا عَرْشُكَ ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ : قَالَ : فَسَأَلَتْهُ عَنْ حَيْثُ جَاءَهُ : عَنْ أَمْرَيْنِ ، قَالَتْ لَسَلْيَانٌ : أَرِيدُ مَا لَيْسَ مِنْ أَرْضٍ وَلَا مِنْ مَيَاءٍ - وَكَانَ سَلْيَانٌ إِذَا سَمِعَ عَنْ شَيْءٍ ، سَأَلَ الْإِنْسَانَ ثُمَّ لَجَعَ ثُمَّ لِلشَّيَاطِينِ - فَقَالَتْ لِلشَّيَاطِينِ : هَلَا هَبْنِ ، أَبْجُرْ الْخَلِيلَ ثُمَّ خُذْ عَرْفَهَا ، ثُمَّ امْلَأْ مِنْهُ الْآتِيَةَ : قَالَ : فَأَمَرَ بِالْخَلِيلِ فَطَجِرَتْ ، ثُمَّ اخْتَذَ عَرْفَهَا فَلَمَّا مِنْهُ الْآتِيَةُ : قَالَ : وَسَأَلَتْ عَنْ لَوْنِ اللَّهِ حَزَّ وَجَلَّ : قَالَ : قَوْبٌ سَلْيَانٌ مِنْ سَرِيرِهِ ، فَنَحَرَ سَاجِدًا ، هَذَا : يَا رَبِّ ، لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرٍ إِنَّهُ يَنْكَادُ ، أَيْ : يَتَضَاظَمُ فِي قَلْبِي أَنْ أَذْكَرَهُ لَكَ : قَالَ : ارْجِعْ فَتَدَكِّمْنِي كَيْفَ تَكُونُ ، فَكَانَ : فَرَجَعَ إِلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ : مَا سَأَلْتُ عَنْهُ ؟ قَالَتْ : مَا سَأَلْتُكَ إِلَّا عَنْ لَمَاءٍ : فَقَالَ لَجُنُودِهِ : مَا سَأَلْتُ عَنْهُ ؟ فَقَالُوا : مَا سَأَلْتُكَ إِلَّا عَنْ لَمَاءٍ : قَالَ : وَتَسَوَّهَ كُلُّهُمْ . قَالَ : وَقَالَتْ الشَّيَاطِينُ لَسَلْيَانٍ : تُرِيدُ أَنْ تَتَخَذَهَا لِنَفْسِكَ ، فَانْ اخْطَلَا نَفْسَهُ ثُمَّ وَلَدَ بِبَيْتِهَا وَلَدٌ ، لَمْ تَنْفَكْ مِنْ حَبُودِهِ (٢) : قَالَ : فَجَعَلُوا صَرْحًا مَجْرَدًا مِنْ قَوَارِيرَ ، فِيهِ السَّمَكُ - قَالَ : فَقَبِلَ لَهَا : ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ، فَلَمَّا هِيَ شَعْرَاءُ . فَقَالَ سَلْيَانٌ : هَذَا قَبِيحٌ ، مَا يَذْهَبُ ؟ فَقَالُوا : لَنَجْهِي لَهَا مَاءً ، هَذَا : أَمْرُ لَوْحِي قَبِيحٌ : قَالَ : فَجَعَلَتْ الشَّيَاطِينُ التَّوْرَةَ : قَالَ : فَهُوَ أَوْلَى مِنْ جُمْلَتِ لَه التَّوْرَةِ .

ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا أَخْبَسَهُ مِنْ حَيْثُ (٣) :

قَالَتْ : بَلْ هُوَ مُتَكَبِّرٌ خَرِيبٌ جَلَدٌ ، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَوْهَامِ حَطَّابِينَ السَّابِقِ عَلَى ابْنِ حِبَّاسٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَالْأَكْرَبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقِيَّاسَاتِ أَلَيْسَ مِثْلُهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، عَمَّا يُوْجَدُ فِي صِنْوَانِهِمْ ، كَرِوَايَاتِ كَتَبِ وَوَهَبٍ - سَاعِيهَا اللَّهُ تَعَالَى - فَلَمَّا تَقَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ أَهْلِ الْإِسْرَائِيلَ ، مِنَ الْأَوْدَادِ وَالْفَرَائِبِ وَالْمَجَائِبِ ، عَمَّا كَانَ وَمَا لَمْ يَكُنْ ، وَعَمَّا حُرِفَ وَبَدِّلَ وَنَسِخَ . وَلَقَدْ اخْتَلَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - مِنْ ذَلِكَ عَمَّا هُوَ أَصَحُّ مِنْهُ وَأَقْبَلُ وَأَوْضَحُ وَأَبْلَغُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ .

أَصْلُ الصَّرْحِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : هُوَ الْقَصْرُ ، وَكُلُّ بِنَاءٍ مَرْفُوعٍ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخَيَّرُ عَنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ لِرُؤُسِهِ هَامَانَ : (ابْنِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ فَطَامِلُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) (٤) الْآيَةُ . وَالصَّرْحُ : قَصْرٌ فَهُوَ تَكْنِيصٌ عَلَى الْبِنَاءِ ، وَالْمَرْدُّ أَيْ : الْمُنْبَنِي بِنَاءً عَمَّا كُنَّا أَمْلَسَ (مِنْ قَوَارِيرَ) ، أَيْ : زُجَاجٍ ، وَقَرِيعَةُ الْبِنَاءِ تَحْلِيصُهُ : وَمَارِدٌ : حَصْنٌ يَدْخُلُ وَجْهُهُ لِلْجَنَّةِ .

وَالْفَرَضُ أَنَّ سَلْيَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتَذَ قَصْرًا عَظِيمًا مَنِيغًا مِنْ زُجَاجٍ لَهُلِكَ لِلْمَلَكَةِ ، لِيَرِيهَا عَظَمَةُ سُلْطَانِهِ وَتَمَكَّنَهُ ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا آتَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - وَجَلَالَهُ مَا هُوَ فِيهِ ، وَتَبَصَّرَتْ فِي أَمْرِهِ انْقَادًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَعَزَّتْ أَنَّهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ ، وَمَلِكٌ عَظِيمٌ ، فَاسْلَمَتْ لَهُ حَزَّ وَجَلَّ ، وَقَالَتْ : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) ، أَيْ : بِمَا سَلَفَ مِنْ كُفْرٍ وَشُرْكِهَا وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، (وَاسْلَمْتُ مَعَ سَلْيَانَ قَبْلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، أَيْ : مُتَابِعَةً لِمَنْ سَلْيَانٌ فِي عِبَادَتِهِ اللَّهُ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَتَعَدَّاهُ تَعْدِيرًا .

(١) مَا بَيْنَ التَّوْرَتَيْنِ مِنَ الْوَدِّ الْمَشْهُورِ .

(٢) لَفْظُ الْوَدِّ : « فَرَجَعَ الشَّيَاطِينُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالُوا لِسَلْيَانٍ : رَسُولُ اللَّهِ قَدْ سَفَرَ اللَّهُ مَا سَفَرَ ، وَبَلَقَ مَلَكَةُ سَبَأٍ يَنْتَكُمُهَا ، فَتَقُلُّ لَهُ غُلَامًا ، فَلَا تَنْفَكْ لَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ أَبَدًا » .

(٣) أَخْرَجَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الْوَدِّ الْمَشْهُورِ فِي آيِنِ أَبِي خَيْثَةَ ، وَصَدِّ بْنِ حَسِيدٍ ، وَابْنِ الْمُنْظَرِ ، وَابْنِ أَبِي حَسَامٍ : ١١٠ - ١١١ .

(٤) سُورَةُ طه آيَةُ ٣٩ وَ ٤٧ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠﴾ قَالَ يَتَقَوْمٌ لِّمُتَعَبِينَ
وَالْبَيْتَةُ قَبْلَ الْحَسَةِ ﴿١١﴾ لَوْلَا تَسْتَفْتُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا أَطِيعُوا نَارَكُمْ وَبِعَنَ مَعَكُمْ قَالِ مَلِكُكُمْ كَرِهَتْهُ اللَّهُ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن تمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، (فإذا هم فريقان يختصمون) - قال مجاهد : مؤمن وكافر (١) - كقوله تعالى : (قال للملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لئن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون : قال الذين استكبروا : إنا بالذي آمنتم به كافرون) (٢) .

(قال : يا قوم ، لم تستعجلون بالسبقة قبل الحسنة) ، أى : لم تلحون بحضور الطلاب ، ولا تطالبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : (لولا تستفتون الله لعلكم ترحمون . قالوا : اطعوا بك وعن معك) ، أى : ما رأينا حل وجهك ووجوه من اتبعك خيرا . وذلك أنهم - لشقاؤهم - كان لا يصيب أحدا منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه : قال مجاهد : تشاموا بهم . وهذا كما قال تعالى إني أخيرا عن قوم فرعون : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطروا مجموعى ومن معي ألا إنما طائرهم عند الله (٣)) . وقال تعالى : (وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك : قل : كل من عند الله (٤)) ، أى : بقضاء الله وقدره . وقال خبزا عن أهل القرية إذ جاءها الرسول : (قالوا إنا تطيرنا بكم ، لن لم تنتهوا لرجعتكم ، وليستكم منا عذاب أليم) قالوا طائرهم معكم (٥) . وقال هؤلاء : (اطعوا نارك وعن معك قال : طائرهم عند الله) ، أى : الله يجازيكم على ذلك (بل أنتم قوم تفتنون) ، قال قتادة : تطنون بالطاعة والمعصية .

والظاهر أن المراد بقوله : (تفتنون) ، أى : تستخرجون فيما أنتم فيه من الله لال .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجَاعٌ يُطِيعُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلُّونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا نَقَامُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّ وَأَهْلُكُمْ
لَنَقُولَنَّ لِرَبِّهِمْ مَا شَاءْنَا مِنْهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يُعْصِرُونَ ﴿١٦﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَوَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَالِيتُهُمْ عَمَّا تَطَلَّسُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن طاعة تمود ورجوعهم ، الذين كانوا دعوة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحالك إلى أنهم عرفوا الناقة ، وهما يقتل صالح أيضاً ، بأن بيته في أهله ليلا يقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأولاده من أمهيه :

(١) لتفسير الطبري : ١٩ / ١٠٧ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٣١ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٧٨ .

(٥) سورة يس ، آية : ١٨ ، ١٩ .

لأنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبرهم به ، من أنهم لم يشاهدوا ذلك . فقال تعالى : (وكان في المدينة) ، أي : مدينة ثمود (تسمى رمط) ، أي : تسعة نفر ، (يفسدون في الأرض ولا يصلحون) ، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود ، لأنهم كانوا أكبر إياه فيهم ورواسمهم .

قال العوفي ، عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين حقروا (١) الناقة . أي : الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - قبحهم الله ولعنهم - وقد قبل ذلك .

وقال السدي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة : دعوى ، ودعيم ، وهرما ، وهرجم ، وداب ، وصواب ، [ورياب] ، ومسطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة . أي : الذي يأسر ذلك بيده . قال الله تعالى : (فنادوا صلحهم ، فعاتلى فمقر) (٢) ، وقال تعالى : (إذ أتيت أشفها) (٣) .

وقال عبد الرزاق : أنبأ يحيى بن ربيعة الصنعاني ، سمعت عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول : (وكان في المدينة تسعة رمط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) ، قال : كانوا يقرضون الدرهم . يعني أنهم كانوا يأخذون منها ، وكانهم كانوا يتعاملون بها عداً ، كما كان العرب يتعاملون .

وقال الإمام مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قطع النعيب والورق من الفساد في الأرض (٤) .

وفي الحديث - الذي رواه أبو داود وغيره - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي من كسر (٥) سكة لبسدين البخارة بينهم إلا من يأسي (٦) .

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة ، كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها ، لأنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله : (قالوا تقاسموا بالله لننبيته وأهله) ، أي : تخالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح - عليه السلام - من قبله ليلا غيلة . فكادهم الله ، وجعل العاقبة عليهم .

قال مجاهد : تقاسموا وتخالفوا على هلاكه ، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال قتادة : توافقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينا هم متعاقبون (٧) إلى صالح ليفتكوا به ، إذ بحث الله عليهم صخرة فاهلبتهم .

(١) تفسير الطبري : ١٩ ٪ ١٠٨ .

(٢) سورة القمر آية : ٢٩ .

(٣) سورة الشمس آية : ١٣ .

(٤) الموطأ ، كتاب البيوع ، باب : بيع الذهب بالفضة تراً وميتاً ، الحديث ٣٧ ٪ ٩٣٥ .

(٥) المقصود بالسكة هنا - بكسر السين - : الدرهم والفضة المصروبة .

(٦) سنن أبي حنيفة ، كتاب البيوع ، باب : في كسر الدرهم ، الحديث ٣٤٤٩ ٪ ٢٧١/٣ - ٢٧٢ وابن ماجه ،

كتاب التبايعات ، باب : النبي عن كسر الدرهم والفضة ، الحديث ٢٢٦٣ ٪ ٧٦١/٢ . ومنه الإجماع أحمد بن عبد الله المزني : ٤١٩/٣ .

(٧) معانيق مصرعين ، جبع ممتق ، من أعتق : إذا أسرع .

وقال الولي ، عن أبي حمزة : هم الذين حقروا الناقة قالوا حين حقروها : لُبَيْتُ (١) صالحا وقومه فنقلتهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئا ، وما لنا به علم : فنحرم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحاق : قال هؤلاء النعمة بعد ما حقروا الناقة : حَكِّمُ فنقلت صالحا ، فإن كان صادقا صلبناه قبلنا ، وإن كان كاذبا كنا قد لحقناه بناتحه ! فأنوه ليلا ليبيئوه في ليله ، فدمغتهم للملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا حل أصحابهم ، أتوا منزلة صالح ، فوجدوه منشقين قد رضعوا (٢) بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت تقتلهم .

ثم مواه به ، فقامت عشيته دونه ، ولبسوا السلاح ، وقالوا له : والله لا نقتلوه أبدا ، وقد وعدتم أن العذاب نازل بك في ثلاث ، فإن كان صادقا فلا تزيروا بكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون : فانصرفوا عنهم لينتهم ذلك .

وقال حيد الرحمن بن أبي حاتم : لما عرفوا الناقة وقال لهم صالح : (انتموا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكشوب) ، قالوا : زعم صالح أنه يفرق منا إلى ثلاثة أيام ، فنحن نفرق منه وأهل قبل ثلاث : وكان لصالح مسجد في الحِجْر عند شعب هناك يصل فيه ، فخرجوا إلى كهف ، أي : غار هناك ليلا ، فقالوا : إذا جاء يصل لثناؤه ، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهلنا ، ففرغنا منهم : بيث الله صخرة من المصنَّب (٢) حياهم ففسدوا أن تخلصهم فتبادروا فانطليقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار ، فلا يرى قومهم أي لم يبق ولا يرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء هاهنا ، وهؤلاء هاهنا ، وأبى الله صالحا ومن معه ، ثم قرأ : (وكنوا مكرًا ومكرًا مكرًا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عقوبة مكربهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فذلك يومئذ ناوية) ، أي : فإعادة ليس فيها أحد (عا ظلموا) ، إن في ذلك لآية لقوم يعنون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

[illegible]

يُخبر تعالى عن عبده لوط - عليه السلام - : **إِنَّهُ أُنْزِلَ قَوْمَهُ نَقْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ ، فِي فَلْسٍ هُمْ لَا بِغَمٍّ لَهَا بَعْدَ زَوَاجِهِمْ ، وَلَهُ فِيهَا مِزَاجُ حَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَكَانَ وَجْهُهُ مُسْتَضِيًّا ، وَكُنُوفُهُ إِثْمَارًا ، إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا لَا يُخَبِّرُونَ ، فَأَتَى بِرَبِّهِمْ مِزَاجًا بَعْضًا ، وَتَأْتُوهُ لَدَيْكُمْ الْمَتَكِرَ ، وَالنِّسَاءَ لِلنِّسَاءِ - قَالَ : (أَنْتُمْ أَتَوْنَهُ فَاصْبِرُوا وَأَنْتُمْ يَصْبِرُونَ) ، أَيْ : بِرَبِّهِمْ بَعْضًا ، وَتَأْتُوهُ لَدَيْكُمْ الْمَتَكِرَ ؟ أَنْتُمْ أَتَوْنَهُ الرِّجَالُ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ) ، أَيْ : لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْآخَرَةِ : (أَنْتُمْ أَتَوْنَهُ الْفَرَّانَ مِنَ الْعَالَمِ ، وَتَلْعَلُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِبْكِمْ مِنْ أَنْزَالِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) (١) .**

(١) نبيهم المدو : أن يقصد لولا من غير أن يعلم ، فهو على سنة .

(٢) الرضخ : اللق والشخ .

(٣) المنسوب - بكسر قاف - جميع خضبة ، وهي الجبل المنبسط على الأرض ،

(٥) سورة الشعراء آية ١٦٥ - ١٦٦

(فأكان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قريبتكم ، إنهم أناس يظلمون) ، أي : أخرجوهم من فعل ما فعلوه ، ومن إقرارهم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فخرجوا على ذلك ، فلعن الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى : (فأتيناها وأهلها إلا امرأته قدرناها من الغافلين) ، أي : من المالكين مع قومها ، لأنها كانت ردةً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم في رضاها بأهلهم النجسة ، فكانت تلك قومه على ضيق لوط ، ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت فعل الفواحش تكريماً لنبى الله - صلى الله عليه وسلم - لا كرامة لها :

وقوله : (ولمطرنا عليهم مطراً) ، أي : حجارة من سجيل منضود 3 مسومة عند ربك 4 ، وما هي من الظالمين بحد ، ولهذا قال : (فماء مطر للمتقين) ، أي : الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الإنذار ، فعالتوا الرسول وكماله ، وهو يخرجهم من بينهم :

لَا يَخْلُقُ إِلَهُ مِثْلُهُمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَسْرُكُونَ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
مَنْ يَخْلُقُكُمْ فِي الْمَنَازِلِ ثُمَّ يَأْتِيكُم بِهِمْ حَتَّىٰ قُلْتُ بَعْجَةٌ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْشِرُوا بِهَا ؕ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ عَلَىٰ
حُكْمٍ قَدِيرٍ ﴿٢١﴾

يقوله تعالى أمرأ رسولاً - صلى الله عليه وسلم - أن يقول : (الحمد لله) ، أي : على نعمته على عباده ، مع أنهم لن لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما انصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يُسَلِّمَ على عباده الله الذين اصطفاهم والنجاهم ، وهم رسله وأنبيأوه للكرام - عليهم من الله الصلاة والسلام - هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى ، هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين (١)) :

وقال القورى ، والسدى : هم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ورضى عنهم أجمعين : وروى نحوه من ابن عباس .

ولا مثالة ، فإنهم إذا كانوا من عباده الذين اصطفى ، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى : والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أهل بأعدائه من الخزي والهلاك والقهر ، أن يحمده على جميع أعماله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

وقد قال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن حمارة بن صبيح ، حدثنا طلق بن غنام ، حدثنا الحكم بن ظهير ، عن السدى - إن شاء الله - عن ابن مالك ، عن ابن عباس : (وسلام على عباده الذين اصطفى) ، قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اصطفاهم الله لنبىه رضى الله عنهم .

وقوله : (آفة خير أم ما يشركون) ، استفهام إنكار على للمشركين في حياتهم مع الله آفة أخرى . ثم شرع تعالى بين أنه المفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : (أمن خلق السموات والأرض) أي : تلك السموات بارتفاعها وصفاتها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة : والأرض باستفالتها وكتلتها ، وما جعل فيها من الجبال والأودية والسهول ، والقياقق والقفار ، والأشجار والزرع ، والبحار والبحور ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

وقوله : (وأترسل لكم من السماء ماء) ، أي : جملة رزقاً للعباد ، (فأتبثا به حدائق) ، أي : بساتين (ذات بهجة) ، أي : منظر حسن وشكل جي ، (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) ، أي : لم تكونوا تقدرُونَ على إنبات شجرها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرزق ، المستقل بملكه المفرد به ، دون ما سواه من الأصنام والأنداد . كما يترتب به هؤلاء للمشركون ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله (١)) ، (ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فليحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله (٢)) ، أي : هم مسترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يجهلون معه غيره مما يصرفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يُعبدَ بالعبادة . من هو المفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال : (أإله مع الله؟) ، أي : أإله مع الله بعد : وقد بين لكم ولكل جئ ليب ما يعرفون به أنفسهم أنه الخالق للرزق ؟

ومن المفسرين من يقول معنى قوله : (أإله مع الله) ، (أي : أإله مع الله (٣)) فعل هذا : وهو يرجع إلى معنى الأول ، لأنّ تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس شئ أحد فعل هذا معه ، بل هو المفرد به : فيقال : فكيف تدعون معه غيره وهو المستقل للمفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : (ألئن يخلق كن لا يخلق (٤)) .

وقوله ها هنا : (أمن خلق السموات والأرض) ، (أمن) في هذه الآيات تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر ، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك ، وقد قاله : (آفة خير أم ما يشركون) .

ثم قال في آخر الآية : (بل هم قوم يعبدون) ، أي : يجهلون الله هدلاً ونظراً : وهكذا قال تعالى : (أمن هو قائم آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه (٥)) ، أي : أمن هو هكلنا كن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يذكر أولو الألباب (٦) ، (ألئن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاصية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلال مبين (٧)) ، وقال : (أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت (٨)) ، أي : أمن هو شهيد على أعمال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ؟

(١) سورة الزمر : آية ٨٧ .

(٢) سورة المائدة : آية ٦٣ .

(٣) وهذا ما بين القومين ليستقيم السياق .

(٤) سورة النمل : آية ١٧ .

(٥) سورة الزمر : آية ٩ .

(٦) سورة الزمر : آية ٩ .

(٧) سورة الزمر : آية ٢٢ .

(٨) سورة الفرقه : آية ٢٢ .

يعلم الغيب جليلة وحكيمة ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها ؟ ولهذا قال : (وجعلوا الله شركاء ، قل : سوف) ، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَافَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ لَا يَمْلِكُونَ

يقول : (أن جعل الأرض قراراً) ، أي : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طلب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً يساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال في الآية الأخرى : (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناءً (١)) .

(وجعل خلالها أنهاراً) ، أي : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها ، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وصرفها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بحسب مصالح عباده في أقاتهم وأقطارهم حيث ذراهم في أرجاء الأرض ، سيرهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، (وجعل لها رواسي) ، أي : جبالاً شائعة ترسي الأرض وتثبتها لتلا تميد بهم ، (وجعل بين البحرين حاجزاً) ، أي : جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً ، أي : ما نماً يمنعها من الاختلاط ، فلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الخارية بين الناس ، وللمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً تقي الحيوان والنبات والثمار منها ، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار ، من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً لجابجاً ، فلا يفسد لمياه يربحها ، كما قال تعالى : (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً مبهوراً (٢)) ، ولهذا قال : (أ إله مع الله) ، أي : هل هذا ؟ أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ، (بل أكثرهم لا يعلمون) ، أي : في عبادتهم غيره .

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ لَا يَمْلِكُونَ

بني تعالى أنه هو المدعو عند الشكائد ، للرجوع بين التنازل ، كما قال : (وإذا مسكم الضر في البحر ، فسل من تدعون إلا إياه (٣)) ، وقال تعالى : (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٤)) ، وهكذا قال هاهنا : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) ، أي : من هو الذي لا يلجأ للمضطر إلا إله ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن أبي تيمية المجشمي ، عن رجل من بلهيم قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده ، الذي إن سئلكم ضر فدعوته كشف عنك ، والذي

(١) سورة هافر ، آية : ٦٤ .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٥٣ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .

(٤) سورة النحل ، آية : ٥٢ .

إِنْ أَسْأَلُكَتْ بِأَرْضِ قَعْرِ قَدْحَةٍ رَدَّ هَلِيكَ ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَكَ سَنَةٌ (١) قَدْحَتُهُ أَتَيْتَ لَكَ ؛ قَالَ ؛ قُلْتُ ؛ أَوْصِنِي . قَالَ ؛ لَأَسْأَلَنَّ أَحَدًا ، وَلَا تَزْعُمَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ ، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ ، وَلَوْ أَنَّ تَفْرُخَ مِنْ ذَلِكَ فِي إِيَّاهِ الْمُسْتَقَى ، وَاتَّزَرَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ ، فَإِنَّ أَيْتَ ذَلِكَ الْكَمِينَ ؛ وَلِيَاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْخِيَلَةِ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَجِبُ الْخِيَلَةُ [(٢)] .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، فذكر اسم الصحابي فقال ؛ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس - هو ابن عبيد - حدثنا حبيدة المصممي (٣) ، عن أبي تميم المصممي ، عن جابر بن سلم المصممي قال ؛ أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مُحْتَبٍ (٤) بِشَمْلَةٍ ، وقد وقع هُذْبُهَا (٥) عَلَى قَدَمَيْهِ ، قُلْتُ ؛ أَبَيْكَ مُحَمَّدٌ - أَرَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَأَوْمَأَ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، قُلْتُ ؛ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، وَفِي جِوَارِيهِمْ ، فَأَوْصِنِي ؛ قَالَ ؛ لَا تَحْزَنَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ مُنْبَسِطٌ ، وَلَوْ أَنَّ تَفْرُخَ مِنْ ذَلِكَ فِي إِيَّاهِ الْمُسْتَقَى ، وَإِنَّ أَمْرًا شَقِيكًا مَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَشْتَمِعْ مَا تَعْلَمُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وَزَرُهُ ، وَلِيَاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْخِيَلَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ الْخِيَلَةَ ، وَلَا تَسْبِيحُ أَحَدًا ؛ قَالَ ؛ فَأَسْبِغْتُ بِيَدِهِ أَحَدًا ، وَلَا شَاةَ وَلَا يَمْرًا (٦) .

وقد روى أبو داود والتماني لهذا الحديث طرقًا ، وعندما طرف صالح (٧) منه ؛ وقال ابن أبي حاتم ؛ حدثنا أبي ، حدثنا علي بن حاتم ، حدثنا حيدة بن فوح ، عن حماد بن الحجاج ، عن عبيد الله ابن أبي صالح قال ؛ دخل على طاوس يروح ، قُلْتُ لَهُ ؛ أَدْعُ اللَّهَ لِي يَا أَبَا عبيد الرحمن فقال ؛ ادع نفسك ، فإنه يجيبه المضطر إذا دعاه .

وقال وهب بن منبه ؛ قرأت في الكتاب الأول ؛ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ ؛ يَزِقُّ لِي مِنْ أَعْمَصٍ فِي إِيَّاهِ كَادَهُ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِيهِنَ ، وَالْأَرْضِ مِمَّنْ فِيهَا ، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ خُرْجًا ؛ وَمَنْ لَمْ يَتَصَمَّ فِي لَيْلِي أَنْصَفَ بِهِ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الْأَرْضِ ، فَأَجْعَلُهُ فِي الْفَوَاحِ ، فَأَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ .

وذكر الخافظ ابن حساكر في ترجمة رجل - حكى عنه أبو بكر محمد بن داود اللدِّي - المعروف بالذكي الصوفي - قال هذا الرجل ؛ كنت أكرى على بطل لي من دمشق إلى بلد الزيداني (٨) ، فركب مع ذات مرة رجلًا ، فمرنا على بعض الطريق ، على طريق غير مسلوكة ، قال لي ؛ خذ في هذه ، فلما أترب ؛ قُلْتُ ؛ لَا خَيْرَ لِي فِيهَا .

(١) السنة - يفتح السين - الجنب والمقط .

(٢) مستد الإمام أحمد ؛ ٦٤/٥ .

(٣) الخطوط ؛ « من مدينة الحبشي ، من أبيه » . « ومن أبيه » غير ثابتة في المستد ولم تجد في ترجمة حبيدة أنه روى من أبيه . انظر التلخيص ؛ ٨٦/٧ .

(٤) انظر تفسير الاحياء ؛ ٨٦/٦ .

(٥) الجنب ؛ يفتح فسكون - ؛ فقول التوب .

(٦) مستد الإمام أحمد ؛ ٦٣/٥ - ٦٤ .

(٧) سنن أبي داود ؛ كتاب لباس ، باب ما جاء في إسبال الإزار ؛ ٥٦/٤ - ٥٨ .

(٨) الزيداني ؛ كقوة مشهورة بين دمشق وبغداد ؛ منها خرج مير صفق .

فقال : بل هي أقرب : فسلكتها فاتتهينا إلى مكان وَصُرَ وواد عميق ، وفيه قتل كبير ، فقال لي : أمسك رأس البغل حتى أنزل : فنزل ونشمر ، وجمع عليه ثيابه ، وصل سكيناً معه وقصصني ، ففرت من بين يديه وتبعني ، فناشدته الله وقلت : هذ البغل بما عليه : فقال : هو لي ، وإنما أريد قتلك : فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه وقلت : إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين ؟ فقال : وعجل . فقامت أصلي فارتج (١) على القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متعباً وهو يقول : هيه : افرغ . فأجرت الله على لساني قوله تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) ، فإذا أنا بفارس قد أقبل من لم الوادي ، وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فلما أصطأت فؤاده ، فخر صريماً فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء : قال : فأخذت البغل والجمل ورجعت سالماً .

وذكر في ترجمة « فاطمة بنت الحسن أم أحمد الصليبة » ، قالت : هزم الكفار يوماً المسلمين في غزاة ، فوقف جَوَادٌ جَيْدٌ بصاحبه ، وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء ، فقال للجواد : مالك ؟ وملك . إنما كنت أهدك ليل هذا اليوم . فقال له الجواد : وما لي لأفصر وأنت تكلل حلوئي إلى السَّوَّاس فيظلموني ولا يطعموني إلا القليل ؟ فقال : لك على عهد الله أني لأهلكك بعد هذا اليوم إلا في حجرى : فجرى الجواد عند ذلك ، ونجى صاحبه ، وكان ليلافقه بعد ذلك إلا في حجره . واشتهر أمره بين الناس ، وجعلوا يقصدونه ليمسحوا منه ذلك ، وبلغ ملك الروم أمره ، فقال : ما نضم بلدك يكون هذا الرجل فيها : واحتمل ليحصه في بلده ، فبعث إليه رجلاً من المرتلين عنده ، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه ، حتى استرقت ، ثم خرجا يوماً يمشيان على جنبه الساحل ، وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أمره ، فلما اكتشفا ليأخذاه رَمَعَ طرفه إلى السماء وقال : اللهم ، إنه إنما خدعني بك لأكفنيهما بما شئت . قال : فخرج سيمان إليهما فأخذاهما ، ورجع الرجل سالماً :

وقوله تعالى : (ويجعلكم خلفاء الأرض) ، أى : يُخَلِّفُ قَرْنَا لقرن قبلهم وخلفاً لسلف ، كما قال تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذُرِّيَّة قوم آخرين) (٢) ، وقال تعالى : (وهو الذى جعلكم خِلافة الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات) (٣) ، وقال تعالى : (وإذا قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة) (٤) ، أى : قوما يخلف بعضهم بعضاً كما قلنا تقريره . وهكذا هذه الآية : (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى : أمة بعد أمة ، وجيل بعد جيل ، وقوما بعد قوم . ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب : ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية (٥) بعض ، ولكن لا يبيح أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض : ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلفهم من نفس واحدة ، ثم يكثرونها غاية الكثرة ،

(١) لى : استغفلت عليه القرامة .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢٣ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .

(٥) في المخطوطة : « أن يجعلهم من ذرية بعضهم بعضاً » . وما أكتناه من الطبقات السابقة .

ويلدأهم في الأرض ، ويجعلهم قرونا بعد قرون ، وأما بعد ام ، حتى ينتفى الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدتهم عدداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال تعالى : (أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلقاً الأرض ، أ إله مع الله) ، أى : يقرر على ذلك ، أو إله مع الله يُعبد ، وقد علم أن الله هو المضرّد بفعل ذلك (قليلاً ما يذكره (١)) ، أى : ما أقل تذكركم فيما يرسلهم إلى الخلق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بِشَرِّ بَيْنِ يَدَيْ رَحْمَتِهِ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَنْ مُشْرَكُونَهُ

يقول : (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر) ، أى : بما خلق من الدلائل السابوية والأرضية ، كما قال : (وعلمات ويالنجم هم جهنوم (٢)) وقال تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر (٣)) ، الآية . (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) ، أى : بين يدي السحاب الذى فيه مطر ، يفيث به عباده للمجددين الأزلين (٤) القنطن ، (أ إله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون) .

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ يُرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ قَدْ عَلَّمَ قُلُوبَهُمْ يَعْتَكِرُونَ كُفْرَهُمْ

أى : هو الذى يبدئه وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : (إن يمشي بعك الشليل . إنه هو يبدئ ويعيد (٥)) ، وقال : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه (٦)) .

(ومن يرزقكم من السماء والأرض) ، أى : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال : (والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدم (٧)) ، وقال : (يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يخرج فيها (٨)) . فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسكنه في الأرض ، ثم يخرج به أنواع الزروع والشمار والأشجار ، وغير ذلك من ألوان شتى ، (كلوا وارحوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولئك الذين) (٩) ، ولهذا قال : (أ إله مع الله) ، أى : فقل هذا : وعلى القول الآخر : يعيد ؟ ، (قل : هاتوا برهانكم على صحة)

(١) كلما في غلظة الأثر : « يذكره » : وهي قراءة الحسن والأشعث وابن عمرو . انظر البحر المحيط : ٩٠/٧ .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٦ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩٩ .

(٤) الأول - يفتح فسكون - : الضيق والشقة .

(٥) سورة البروج ، آية : ١٢ ، ١٣ .

(٦) سورة الروم ، آية : ٢٧ .

(٧) سورة الطارق ، آية : ١١ ، ١٢ .

(٨) سورة الحديد ، آية : ٤ .

(٩) سورة هـ ، آية : ٥٤ .

ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ، (إن كنتم صادقين) في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لم ولا برهان ، كما قال : (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون) (١) .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ أَذْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلَىٰ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلَىٰ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى أمراً رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول معلماً لجميع الخلق : أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب . وقوله : (إلا الله) استثناء مطلق ، أي : لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده ، لا شريك له ، كما قال : (وحده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) (٢) ... الآية ، وقال : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) (٣) ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله ١ : (وما يشعرون أيان يبعثون) ، أي : وما يشعر الخلق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال : (تَهْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُم إِلَّا بَغْثَةٌ) (٤) ، أي : تقل علمها على أهل السموات والأرض .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي : حدثنا علي بن الجعد ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : من زعم أنه يعلم - يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يكون في غد فقد أحبط على الله القربة ، لأن الله تعالى يقول : (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) .

وقال قتادة : إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصالات : جعلها زينة للنساء ، وجعلها بهتدى بها ، وجعلها رجوماً فمن تعامل فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأنشأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جهلكم بأمر الله ، قد أبدلوا من هذه النجوم كهانة : من أهرس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولمصرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحنين والديم ، وما علمت هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ! وقضى الله : أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون .

رواه ابن أبي حاتم عنه بحرفه ، وهو كلام جليل متين صحيح ، وقوله : (بل أذكرك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها) ، أي : انتهى علمهم وحيز عن معرفة وقتها .

(١) سورة المؤمنون ، آية : ١١٧ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

(٣) سورة لقمان ، آية : ٣٤ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٨٧ .

وقرأوا النمل : (بل أدرك علمهم) (١) ، أى : تساوى علمهم في ذلك ، كما في الصحيح لحلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة - : ما للشئوك عنها بأعلم من السائل (٢) ، أى : تساوى في العجز عن ذلك ذلك علم المشرك والسائل .

قال هل بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (بل أدرك علمهم في الآخرة) ، أى : غاب (٣) .

وقال قتادة : (بل أدرك) علمهم في الآخرة ، أى : يجهلهم بهم ، يقول : لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم . هذا قول .

وقال ابن جرير ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : (بل أدرك) علمهم في الآخرة ، أى : حين لم ينفع العلم . وبه قال عطاء الخراساني ، والسدي : أن علمهم إنما يندرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : (أسمعهم وهم لا يسمعون يومئذ ، ولكن الظالمون في فساد من غي) (٤) .

وقال سفيان ، عن عمرو بن حبيد ، عن الحسن أنه كان يقرأ : (بل أدرك علمهم) (٥) ، قال : اضمحل علمهم في الدنيا ، حين هابتوا الآخرة .

وقوله : (بل هم في شك منها) ، عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : (وعرضوا على ربك صفًا لقد جثتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعم أن لن نجعل لكم موعدًا) (٦) ، أى : الكافرون منكم ، وهكذا قال هاهنا : (بل هم في شك منها) ، أى : شاكون في وجودها ووقوعها ، (بل هم منها حون) ، أى : في حسابة وجهل كبير في أمرها وشأنها .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَلْمَنَّا لِمُحَرَّبُونَ ﴿١﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا قَبْلَ
 فِي هَذَا إِلَّا آسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ ﴿٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣﴾ وَلَا
 تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْسِكُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى خبراً عن منكري البعث من المشركين : أنهم استعملوا إعادة الأجساد بعد صيورتها عظماً ورفاً وتراباً . ثم قال : (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) ، أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ، ولا يرى له حقيقة ولا وقوعاً .

(١) انظر التواتر في البحر المحيط : ٩٢/٧ . والقر المتثور : ٢٢٦/١٣ .

(٢) أخرجه في كتاب الإيمان . انظر البخاري ، باب : « موال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان » ، والإسلام . والإيمان . وحمل الساعة : ١٦/١ - ٢٠ . وسلم ، باب : « معرفة الإيمان » ، والإسلام ، والقر ، وعادة الساعة . ٢٩/١ .

٣١ و ٣٠

(٣) تفسير الطبري : ٦/٢٠ . وكان في المخطوطة : (بل أدرك) . وقد أثبتنا ما في تفسير الطبري .

(٤) كذا أثر قتادة في مخطوطة الأزهر . وأثره - كما في تفسير الطبري ٢٠/١ - : « كان يقرؤها » (بل أدرك علمهم في الآخرة) ، قال لم يبلغ لم فيها علم ، ولا يصل إليها منهم رغبة . وانظر القر المتثور : ١١٤/٥ .

(٥) في المخطوطة : « بل أدرك » . ولكتبت أيضاً من تفسير الطبري .

(٦) سورة مريم ، آية : ٣٨ .

(٧) البقر المتثور : ١١٤/٥ ، من عبد بن حميد ، وابن المنذر .

(٨) سورة التكوير ، آية : ٤٨ .

وقولهم : (إن هذا إلا أساطير الأولين) ، يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان (إلا أساطير الأولين) ، أى : أحطه قوم من قبلهم ، من قبلهم يتلقاه بعض من بعض ، وليس له حقيقة . قال الله تعالى نبياً لم يحاطوا من الكفر وعدم للماد : (قل) - يا عباد - هؤلاء (سبروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) ، أى : للمكذبين بالرسول وما جاءهم به من أمر للماد وغيره ، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسوله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فذلك ذلك حل صدق ما جاءت به الرسل و... .

ثم قال تعالى معللاً لنبية - صلوات الله وسلامه عليه - (ولا تحزن عليهم) ، أى : للمكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتلعب فقلك عليهم حسرات ، (ولا تكن فى ضيق مما يحزنون) ، أى : فى كيدك ورد ما نبئت به ، فإن الله مؤيدك وتاصررك ، ومظهر دينك حل من خالفه وحامله فى المشرق والمغرب .

وَيَقُولُوا مَن هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ قُلْ هَٰذَا هُوَ الْوَعْدُ الَّذِى كُنتُمْ تُسْتَعْجِلُونَ ﴿١١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴿١٣﴾ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٤﴾ وَمِمَّنْ غَابَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي جَنَّةٍ مِّنْهُنَّ ﴿١٥﴾

يقول تعالى خبراً عن المشركين ، فى سؤالهم من يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : (ويقولون : من هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) قال الله تعالى نبياً لم : (قل) - يا عباد - (عسى أن يكون زخرف لكم بعض الذى تستعجلون) . (قال ابن عباس : أن يكون قرب - أو : أن يقرب - لكم بعض الذى تستعجلون (١١)) . وهكذا قال بجاهد ، والضحاك ، وحطاب الخريزاني ، وفخادة والسلي .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ويقولون : من هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً (١٢)) : وقال تعالى : (ويستعجلونك بالمعصية ، وإن جهنم حيطه بالكافرين (١٣)) :

وإنما خلقت اللام : فى قوله : (زخرف لكم) ، لأنه ضن معنى : حنجل لكم ، كما قال بجاهد فى رواية عنه : (عسى أن يكون زخرف لكم) : حنجل لكم .

ثم قال الله تعالى : (وإن ربك ل ذو فضل على الناس) ، أى : فى إصابه نعمه عليهم منع تلمهم لأفئهم ، وهم منع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا التليل منهم ، (وإن ربك ل يعلم ما تكمن صدورهم وما يننون) ، أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظاهر ، (سواء منكم من أمر القول ومن سجر به) (١٤) ، (يعلم السر وأخفى (١٥)) ، (ألا حين يستغنون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون (١٦)) .

(١) ما بين القوسين من الطبقات السابقة . انظر تفسير الطبري ٢٠/٢٠٠ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٥١ .

(٣) سورة المتكوت ، آية : ٥٤ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٩٠ .

(٥) سورة طه ، آية : ٧ .

(٦) سورة هود ، آية : ٥٠ .

١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

وقوله : (وإلهي رحمة للمؤمنين) ، أي : هدي لقلوب المؤمنين ، ورحمة لهم في العمليات .

(هو كل من الله ، أى : فى أمورك ، ويكنّ رسالة ربك ، إنك على الحق المبين) ، أى : أتيت على الحق المبين وإن خالفك من مخالفك من كتب عليه الشقاوة وحكمت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو خافهم كل آفة : ولهذا قال : (إنك لا تسمع المؤمنين) ، أى : لا تسمعهم شيئاً بغيرهم ، فكللك هؤلاء على قولهم غشاة ، وفى آذانهم وكثر الكفر ، ولهذا قال : (ولا تسمع الصّام الدّعاء إذا ولوا مدبرين : وما أنت بنائى اللّهي عن ضلالتهم : إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ، إلخاً يستجيب لك من هو صريح بصير ، السّمع والبصر : النافع فى القلب والبصيرة الخافض لله ، ولما جاء منه حل أسنة الرسل عليهم السلام .

(۱) سورة الحج ، آیه : ۷۰ .

(۲) سورة مريم : آية : ۴۴ .

﴿وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَىٰ قَوْمِكَ فَقُلْ لَهُمْ إِنَّمَا تَرَجَعْتُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِهِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركيهم أوامر الله وتبدلهم الذين الحق ؛ يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل : من مكة - وقيل : من غيرها ؛ كما سيأتي تفصيله - فتكلم الناس على ذلك .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة - وروى عن علي رضي الله عنه - : تكلمهم كلاماً ، أى : غشاهم غشابة وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون ؛ ويروى هذا عن علي ، واعتباره ابن جرير (١) - وفي هذا نظراً لآيتي ، والله أعلم .

وقال ابن عباس - في رواية - : يخرجهم - وعنه رواية ، قال : كلاً فعل (٢) ، يني هذا وهذا ، وهو قول حسن ، ولا منافاة والله أعلم .

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وأثار كثيرة ، فلنذكر ما تيسر منها ، والله المستعان ؛

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن فرات ، عن أبي الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غرة ونحن نذكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تقرأوا عشر آيات ؛ طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والجال ، وثلاثة خسوف ؛ خسوف بالغرب ، وخسوف بالشرق ، وخسوف بجزيرة العرب ، وثار يخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس ؛ تهبت معهم حيث باتوا ، وتكبل معهم حيث قالوا (٣) .

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، من طرق ، عن فرات القزاز ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، عن حذيفة موقفاً (٤) . وقال الترمذي : حسن صحيح ؛ ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رفيع ، عن أبي الطفيل ، عنه مرفوعاً (٥) ، والله أعلم .

طريق أخرى ، قال أبو داود الطيالسي ، عن طلحة بن عمرو ، وجرير بن حازم ، فأما طلحة فقال : أخبرني عبد الله ابن عبيد الله بن عُمير الليثي : أن أبا الطفيل حدثه ، عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريجة ، وأما جرير فقال : عن عبد الله بن عبيد ، عن رجل من آل عبد الله بن مسعود - وحدث طلحة أم وأحسن - قال : ذكر رسول الله

(١) انظر تفسير الطبري : ٣٠ / ١١ ، ١٢ .

(٢) أخرج السيوطي في الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي داود نفيح الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله (أخرجنكم دابة من الأرض تكلمهم) أو تكلمهم ؛ يسكون الكاف ؟ قال : كل ذلك والله يفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر تجرحه . انظر : ١١٥ / ٥ .

(٣) هذا من حديث رواه الإمام أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة ، عن فرات : ٧ / ٤ . أما روايته عن سفيان ، عن فرات فهي في المسند : ٦ / ٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الفتن ، باب : في الآيات التي تكون قبل الساعة ؛ ١٧٨ / ٨ ، وسنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب : أمارات الساعة ؛ الحديث ٤٣١١ ؛ ١١٤ / ٤ ، ١١٥ ، وتحفة الأحوس ، أبواب الفتن ، باب : ما جاء في الخسف ، الحديث ٢٢٧٤ - ٢٢٧٤ ؛ ٤١٣ / ٦ - ٤١٦ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب : والآيات ، الحديث ٤٠٥ ؛ ١٣٤٧ / ٢ . ومسند الإمام أحمد : ٧ / ٤ .

(٥) مسلم ، في الكتاب والباب المختارين ؛ ١٨٠ / ٨ .

صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : لما ثلاث خرجات من اللبر ، فتخرج خرقة (١) من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - ثم تكن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خرقة أخرى دون تلك ، فيلوح ذكرها فى أهل (٢) البادية ، ويدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم يبين الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة (٣) وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهى ترعو (٤) بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها الراب : فارفض الثامن عنها شتى ومما ، ولبت (٥) حصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبذلك بهم فجكت وجرحهم حتى جعلتها كأنها الكوكب النورى ، وولت فى الأرض لا يلوكنها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ، الآن تعصى ؟ فيقبل عليها فتقسمه فى وجهه ، ثم تتعلق ويشترك الناس فى الأموال ، ويصطحبون فى الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر ، اقضى حتى : وحتى إن الكافر ليقول : يا مؤمن ، اقضى حتى (٦) .

ورواه ابن جرير من طريقين ، عن حليقة بن أسيد موقوفاً (٧) . قاله أهل : ورواه من رواية حليقة بن اليمان مرفوعاً ، وإن خلك فى زمان عيسى ابن مريم ، وهو يطوف بالبيت ، ولكن إسناده لا يصح (٨) .

حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن بشر ، عن ابن حبان ، عن أبي زُرَّعة ، عن عبد الله بن عمر قال : حكيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبها ، فالأخرى على غيرها (٩) .

حديث آخر : روى مسلم فى صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب - مولى الحرث - عن أبيه ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدابة ، أو خاصة (١٠) أحكم ، أو أمر العامة (١١) . وله من حديث قتادة ، عن الحسن ،

(١) فى نسخة الميود : « فتخرج فى أقصى البادية » .

(٢) فى نسخة الميود : « فيملح ذكرها أهل » .

(٣) فى نسخة الميود : « حرمة » غيرها وأكرمها » .

(٤) أى تصوت .

(٥) فى نسخة الميود : « ولبت حصابة » .

(٦) نسخة الميود : كتاب الفتن ومناجات الساعة ، باب « خروج الدابة » وألغيت : ٢٢٠/٢ - ٢٢١ .

(٧) تفسير الطبري : ٢٥ / ١٥ .

(٨) تفسير الطبري : ١١ / ٢٥ .

(٩) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « فى خروج النجاش ومكة فى الأرض » . ٢٠٢ / ٨ .

(١٠) فريد يامر العامة : القيلة : لأجائهم الناس بالملوث ، وبخاصة أسدكم : حادثة الموت التى تنفس كل إنسان ، ومعنى ميدانها : الاتهام بالأعمال الصالحة قبل وقوعها .

(١١) مسلم ، كتاب الفتن ، باب فى نية من حديث النجاش : ٢٥٧ / ٨ .

عن زياد بن رباح ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال ستا ! اللجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخويصة » (١) أحكم (٢) .

حديث آخر ، قال ابن ماجه : حدثنا حمرلة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ وابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « بادروا بالأعمال ستا ! طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، ودابة الأرض ، واللجال ، وخويصة أحكم ، وأمر العامة » (٣) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي أيضاً : حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أوس (٤) بن خالد عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج دابة الأرض ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام ، فتخطم (٥) أنف الكافر بالعصا ، وتجلبي وجه المؤمن بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان (٦) يعرف المؤمن من الكافر (٧) » .

ورواه الإمام أحمد ، عن جاز وعفان ويزيد بن هارون ، ثلاثهم عن حماد بن سلمة ، به : وقال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا ، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجمعون فيقول : هذا : يأمؤمن ويقول : هذا : ياكافر (٨) » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يونس بن محمد المؤدب ، عن حماد بن سلمة ، به (٩) .
حديث آخر : قال ابن ماجه : حدثنا أبو خسان محمد بن عمرو ، حدثنا أبو ثُمَيْلَةَ ، حدثنا خالد بن عُبَيْد ، حدثنا عبد الله بن بُرَيْدَةَ ، عن أبيه قال : « ذهب في رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية ، قريب من مكة ، فإذا أرض يابسة حولها رمل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخرج النبابة من هذا الموضع : فإذا فُتِرَ (١٠) في شبر » .
قال ابن بُرَيْدَةَ : فحجبت بعد ذلك بسنين ، فأرانا عصاً له ، فإذا هو بعصاى هله : كذا وكذا (١١) .
وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة أن ابن عباس قال : هي دابة ذات زغب ، لها أربع قوائم ، تخرج من بعض أودية تهامة .

(١) خويصة : تصغير خاصة .

(٢) مسلم ، في الكتاب والباب المتضمنين : ٢٠٧/٨ و ٢٠٨ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب « الفتن » ، « الآيات » ، الحديث ٤٠٥٦ : ١٣٤٨/٢ .

(٤) في المخطوطة : « وأوس » . والمنتب من منحة المعبود وسند الإمام أحمد ، وميزان الاعتدال : ٢٧٧/١ .

(٥) خطمه ينضمه - بكسر الطاء في المضارع - : ما يوركل عليه الطعام .

(٦) الخوان - بكسر الخاء وضمة - : ما يوركل عليه الطعام .

(٧) منحة المعبود ، باب « خروج النبابة » : ٢٢١/٢ .

(٨) حديث عفان ويزيد في المسند : ٢٩٥/٢ ، وحديث جاز في ٩١/٢ .

(٩) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « دابة الأرض » ، الحديث ٤٠٦٦ : ١٣٥١/٢ ، ١٣٥٢ .

(١٠) الفتر - بكسر فسكون - : ما بين الإجماع والسياسة .

(١١) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتضمنين : الحديث ٤٠٦٧ : ١٣٥٢/٢ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية قال : قال عبد الله : تخرج الدابة من صيدع من الصفا كجترى القرس ثلاثة أيام ، ثم يخرج لثها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن أبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة : فقال : الدابة تخرج من تحت صخرة جباد (١) ، والله لو كنت معهم — أو لو شئت بصأي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها : قيل : فصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو ؟ قال : تستقبل للشرق فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ، لا ثم تستقبل للغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تروح من مكة فتصيح بصفان . قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم (٢) .

وعن عبد الله بن عمر ، أنه قال : تخرج للدابة ليلة جئع (٣) . ورواه ابن أبي حاتم : وفي إسناده ابن أبي ليلى .

وعن وهب بن منبه : أنه حكى من كلام عذير عليه السلام أنه قال : وتخرج من تحت سلوم دابة تكلم الناس كلهم بسمها ، وتضع الحبال قبل التمام ، ويعود للماء العذب أجاجاً ويتماذى الأخلاء ، وتشرق الحكمة ، ويرتفع العلم ، وتكلم الأرض التي عليها : وفي ذلك الزمان يرجو الناس مالا يلفون ، ويتبعون فيما لا يتألون ، ويسلمون فيما لا يأكلونه . ورواه ابن أبي حاتم ، عنه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح — كاتب الليث — حدثني معاوية بن صالح ، عن أبي مريم : أنه سمع أبا هريرة — رضى الله عنه — يقول : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنها فرسخ للراكب . وقال ابن عباس : هي مثل الحرية الضخمة .

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر ، وما لها ذنب ، ولها حية ، ولها تخرج حوض القرس (٤) الجواد ثلاثاً ، وما خرج لثها . ورواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير ، عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل (٥) ، وعقها عتق نعام ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرة ، وذنبها ذنب كيش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا ذراعاً ، تخرج منها عصا موسى وعظام سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكت في وجهه بمصا موسى نكتة بيضاء ، فضض تلك النكتة حتى يتيفر لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء غام سليمان ، فضضوا تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ، حتى إن الناس يتابعون في الأسواق : بكم

(١) جباد — بكسر الجيم وفتحها ، ويقال : أجبباد — موضع بمكة بل الصفا .

(٢) أخرج السيوطي بعضه في الدر المنثور عن عبد بن حميد . انظر : ١١٥/٥ .

(٣) جمع — يفتح فسكون — : المنزلة . والأثر أخرجه السيوطي في الدر المنثور ١١٧/٥ ، عن أبي أيوب : وأين أبي حاتم . ولغته : « تخرج الدابة ليلة جمع ، والناس يسرون إلى متى ، فتسلم بين نحرها وذنبها ، فلا يبقى مطلق إلا خلطه ، وتسمع المؤمن لمحبته وهم يشر من النبال » .

(٤) الحضر — يفتح فسكون — : الطور .

(٥) الأيل — يفتح المعزة — وكسرهما ، واليهامشدة مفتوحة — : الأكر من الأرمال .

ذيا مؤمنين ، بكم ذا كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على ماثلهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم يقول لهم الدابة : يا فلان ، أبشر ، أنت من أهل الجنة ؟ ويا فلان ، أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجناهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٣٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ : كَذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُحْطَرُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ آيَةً أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَسْطِقُونَ ﴿٣٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا لِكُلِّ لُغَةٍ قُرْآنًا وَإِنَّا فَتَقَرُّوهُمْ بِأَيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى غبرا عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسوله إلى بن يدي الله عز وجل ، ليسلمهم عما فعلوه في الدار الدنيا ، تقرىما وتوبيخا ، وتصغيرا ونقصا فقال : (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) ، أى : من كل قوم وفرق فوجا أى : جماعة ، (ممن يكذب بآياتنا) ، كما قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) (١) ، وقال تعالى : (وإذا النفوس زوجت) (٢) :

وقوله : (فهم يزعرون) ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : يلغون . (٣) وقال قتادة : وزعة ترد أولهم حل آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

(حتى إذا جاءوا) ، أى : أوقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المسائلة ، قال : أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما ، ألم ماذا كنتم تعملون) ؟ أى : ويسألون عن اعتقادهم ، وأعمالهم ظالم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : (فلا صدق ولا صلح ولا لكن كذب وتولى) ، فحيث كانت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم حجة يعتزلون به ، كما قال تعالى : (ولما يوم لا ينطقون) . ولا يؤذن لهم فيعتلدون . ويل يومئذ للمكذبين) (٤) ، وهكذا قال هاهنا : (ووقع القول عليهم بما ظلموا) ، أى : جئوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والجهاد الذى لا يخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منها على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى يجب طاعته والانتقاد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذى لا شريك له ، فقال : (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكتوا فيه) ، أى : فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم ، وتهدأ أفعالهم ، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم . (واللهار مبصر) ، أى : منيرا مشرقا ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكسب ، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها ، (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) :

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٢ .

(٢) سورة التكاوير ، آية : ٧ .

(٣) تفسير الطبري : ١٢/٢٠ .

(٤) سورة المرسلات ، الآيات : ٣٥ - ٣٧ .

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّمُورِ مَنَ فِي السَّمُورِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَمٍّ مَّرْجُومٌ
 ﴿٧٧﴾ وَرَوَّى الْجِبَالُ مَحْجَاً بِطَلَّةٍ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ صَوَّغَ اللَّهُ لِلَّذِينَ يُنْفَخُونَ فِيهَا وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ
 ﴿٧٨﴾ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ
 وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ وَجِيءَ مَرْمَرٌ مِّنَ السَّحَابِ

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث : « قرن ينفخ (١) فيه » ، وفي حديث (الصور) (٢) أن إسرائيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع وطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من في السموات ومن في الأرض (إلا من شاء الله) ، وهم الشهداء ، فلهم وأحياء ح عند ربهم يرزقون ،

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا حبيب الله بن معاذ المعنري ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن الثعلبي بن سالم : سمعت يعقوب بن عاصم بن حروة بن مسعود الثقفي ، سمعت عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - وجاه رجل قال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله : أو : لا إله إلا الله - أو كلمة نحوها - لقد صممت أن لأحدث أحدا شيئا أبدا ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يغرب (٣) البيت ، ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج للرجال في أمي فيمكث أربعين - لا إحدى أربعين - يوما ، أو أربعين شهرا ، أو أربعين عاما - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه حُرُوة بن مسعود ، فيطليه فيهلكه : ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين حداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى حل وجه الأرض أحد في قلبه مقال فرة من غير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم (٤) دخل في كبك (٥) جبل لدخلكته عليه حتى تقبضه : قال : سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع (٦) ، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فإنا نمرنا ؟ فيأمرهم بمادة الأوثان ، وهم في ذلك دار (٧) رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لبيثا (٨) : قال : وأول من يسمعه رجل يكره (٩) حوض

(١) تقدم الحديث في تفسير الآية ٧٣ من سورة الأأنام : ٢٧٦/٣ - وهرجناه هناك .

(٢) انظر حديث الصور بتمامه في الموضع المتقدم : ٢٧٦/٣ - ٧٨٢ .

(٣) كذا ، وفي مسلم : « يهرق البيت » .

(٤) كذا في المخطوطة ، ومثله في سنن الإمام أحمد : ١٦٦/٢ . وفي مسلم : « أحكم » .

(٥) كبد الجبل - بفتحين - جوفه ، من كبد أو فشب .

(٦) أي : يكونون في سرهم إلى الشر وقضاء الشهوات والفساد كلبان الطير ، وفي المعان وظلم بعضهم بضاً في ملاق السباع المادية .

(٧) أي : كثير رزقهم ، من دار البين يد ، أي : كثر .

(٨) سيأت شرح ابن كثير لهذه الكلمة .

(٩) أي : يظلمه ويصلحه .

إله . قال : فَيَصْبَحُ وَيَصْبَحُ النَّاسُ ، ثم يرسل الله - أوقال : يتزل الله مطرا كأنه الطل (١) - أوقال : الظل - يَبْزُلُ الشَّالَكُ - فثبت منه أجساد الناس ، ثم يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثم يقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، حلُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وَفَقُّوهُمْ لِنَهْمِ مَسْئُولُونَ . ثم يقال : أَخْرَجُوا بِعَثِ النَّارِ . فيقال : مِنْ كَمْ ؟ فيقال : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ ، قَالَ : فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ يَعْمَلُ الْوَلَدَانِ شَيْئاً ، وَفَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ يَكْشِفُ عَنْ سَائِ (٢) .

وقوله : « ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصحى ليتا ورفع ليتا » ، اللبت : هو صفحة العنق ، أى : آمال حنقه ليستمعه من السماء جيلاً .

فهذه نفخة الفزع : ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ، ولهذا قال : (وكل أتوه داخرين) - قرئ (٣) بالمد ، وبغيره على القمل ، وكل بمعنى واحد - (داخرين) ، أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد عن أمره ، كما قال تعالى : (يوم ينحكم فستجيبون بجهنم) (٤) ، وقال : (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) (٥) . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فوضع فى قصب فى الصور ، ثم ينفخ إسرائيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، توهج أرواح المؤمنين نوراً ، ولأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله عز وجل : وعزى وجلالى لترجسن كل روح إلى جسد لها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتمتد فيها كما يتدبى السم فى اللبغ ، ثم يقومون فينفخون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراها ، كأنهم إلى نصب يوفضون) (٦) .

وفوله : (وترى الجبال تحسبها جاملة وهى تمر مر السحاب) ، أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : (يوم تفر السحاب هورا ، وتسر الجبال سيرا) (٧) ، وقال : (ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفاً . فيلها قاعا صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) (٨) ، وقال تعالى : (ويوم نسف الجبال وترى الأرض بارزة) (٩) .

(١) الظل : الذى يزل من السماء فى الصحو . والطل أيضاً : أضفى المطر .

(٢) مسلم ، كتاب الفتن ، باب : فى خروج النبال ... ٢٠١/٨ - ٢٠٢ .

(٣) قال التبرى ١٤/٢٠ : « واختلف القراء فى قراءة قوله : (وكل أتوه داخرين) ، فقرأه عامة قراء الأئمة : (وكل أتوه) ، به الألف من (أتوه) ، هل مثاله فاطوة » ، سوى ابن مسعود فإنه قرأ : (وكل أتوه) ، هل مثاله فاطوة . واتبعه على القراءة : به المشايخون : الأعمش وحسنة . هذا وانظر تفسير القرطبي ٢٤١/١٢ .

(٤) سورة الإسراء : آية ٥٢ .

(٥) سورة الروم : آية ٢٥ .

(٦) سورة المارج : آية ٤٣ .

(٧) سورة الطور : آية ٩ ، ١٠ .

(٨) سورة طه : الآيات ١٠٥ - ١٠٧ .

(٩) - سورة الكهف : آية ٤٧ .

وقوله : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) ، أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ، (إنه خبير بما تعملون) (١) ، أى : هو حليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها - قال فتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله - وقد بين فى المكان الآخر (٢) أن له عشرين أمثالا . (وهم من فرع يومئذ آمنون) ، كما قال فى الآية الأخرى : (لا يحزنهم الفزع الأكبر) (٣) ، وقال : (ألن يلقى فى النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) (٤) . وقال : (وهم فى الغرفات آمنون) (٥) .

وقوله : (ومن جاء بالسيف فكبب وجههم فى النار) ، أى : من لى الله ميثاقاً لحسنه له ، أو : قدر جمعت سيئاته على حسناته ، كل حسب . ولهذا قال : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس - رضى الله عنهم - وأنس بن مالك ، وعطاء ، ومعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعي ، وأبو وائل ، وأبو صالح ، ومعيد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، والزهري ، والسدي ، والفسطاك ، والحسن ، وفتادة ، وابن زيد ، فى قوله : (ومن جاء بالسيف) ، يعنى : بالشرك :

إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أُعْبَدَ رَبِّ هَذِهِ الْبِلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ عَنِي وَامَرْتُ أَنْ أُكْفِرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ وَإِنِّي أَتَوَلَّوُا الْقُرْآنَ أَنْ فِيهِ هَدًى لِّمَا يَتَذَكَّرُ بِهِ وَمَنْ سَلَ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۖ وَقُلْ لِّلْعَالَمِينَ ۖ اللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ فَمَنْ تَوَلَّيْنَا وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۖ

يقول تعالى غيراً رسوله وأمرأه أن يقول : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شيء) ، كما قال : (قال : يا أيها الناس ، إن كنتم فى شك من دىي فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذى يتولاكم) (٦) :

وأضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاحتشاه بها ، كما قال : (فليجئوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٧) .

(١) كذا فى تفسير ابن كثير (يملوه) ، بالياء ، وهى لرامة ثابتة فى النسخة . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ١٠١/٧ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٣ .

(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٥ .

(٥) سورة سبأ ، آية : ٣٧ .

(٦) سورة يونس ، آية : ١٠٤ .

(٧) سورة قريش ، آية : ٤٤ .

وقوله : (التي حرما) ، أى : التى إذا صارت حراما قدرا وشرا ، يتحرمها لها ، كما ثبت فى الصحيحين بن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة : « وإن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، لا يُحصَد شوكة (١) ، ولا ينثر صيده ، ولا يلتقط لُصْقَتُهُ إلا لمن عرفها ، ولا يخلى (٢) خلاها ... الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحيح والحسان وللصانيد من طرق (٣) حجة تفيد القطع ، كما هو مبين فى موضعه من كتاب الأحكام ، والله الحمد .

وقوله : (وله كل شيء) ، من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل كل شيء ومليكه ، (وأمرت أن أكون من المسلمين) ، أى : للموحدين المخلصين المتقادين لأمره المطيعين له ، وقوله : (وإن أتوا القرآن) ، أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : (ذلك تنزه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٤)) ، وكقوله : (تنزه عليك من نيا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٥)) ، أى : أنا مبلغ ومنذر ، (فن احتلى فلانما بهتلى لنفسه ، ومن ضل قتل : إنما أنا من اللذنين) ، أى : لى سوية (٦) الرسل الذين أنزلوا قورهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وعكسوا من عهدتهم ، وحساب أنهم على الله ، كقوله تعالى : (فلانما عليك البلاغ وعليتا الحساب (٧)) ، وقال : (إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل (٨)) ، وتل : الحمد لله مبريك آياته فتعرفونها) ، أى : الله الحمد الذى لا يعلب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإحاطة إليه ، ولهذا قال : (مبريك آياته فتعرفونها) ، كما قال تعالى : (سنبريك آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق (٩)) .

وقوله : (وما يك بذائل مما تملون) ، أى : بل هو شهيد على كل شيء .

(١) لى : لا يقطع .

(٢) لى : لا يجز . وأتلى : الرطب من الثبات ...

(٣) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « الإذخر والخشيش فى القبر » : ١١٥/٢ - ١١٦ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « تخرج مكة وصيحتها ... » : ١٠٩/٤ . وسنن أبي داود ، كتاب المناسك ، باب « تخرج مكة » : الحديث ٢٠١٨ : ٢١٢/٢ . والنداء ، كتاب الحج ، باب « حرمة مكة » : ٢٠٣/٥ - ٢٠٤ . ومسنن الإمام أحمد : ٢٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤) سورة آل عمران : آية : ٥٨ .

(٥) سورة القصص : آية : ٢٠ .

(٦) يقال : مما على سوية من هذا الأمر ، لى : على سواء .

(٧) سورة الفرق : آية : ٤٠ .

(٨) سورة هود : آية : ١٢ .

(٩) سورة فصلت : آية : ٥٣ .

قال ابن أبي حاتم : ذكر من أبي عمر الوضئ حفص بن عمر : حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفي ، حدثنا سعيد ابن أبي سعيد ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ، لا يتغترن أحدكم بالله ، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والفرذلة والنملة » .

[وقال أيضاً] حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا نصر بن علي ، قال أبي : أخبرني (١) خالد بن قيس عن مطر ، عن عمر بن عبد العزيز قال : « لو كان الله مغفلاً شيئاً لأغفل ما تعني (٢) الرياح من أثر غفلي ابن آدم » .

وقد ذكر عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه كان يشد ملين البجين ، إما له أو لغيره :

إذا ما خلعت الله هريوماً فلا تغفلْ خلعتْ ولكن قلْ عكْ ركيه

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يتخى عكبه يكيه

(١) في المخطوطة : « قال أبي : أخبرني عن خالد » . وحالته بين قيس الطائي يروى عنه هل بن نصر ، والله نصر بن علي

الطهوسي . انظر المخرج لابن أبي حاتم : ٣٤٨/٢٤١ .

(٢) أي : تمحوه .

تفسير سورة القصص

قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا وكيع ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن معد يكرب قال : ١ أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا (طسم) المائتين ، فقال : ما هي معي ، ولكن عليكم من أطعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم : غيباب بن الأرت . قال : فأتينا غيباب بن الأرت ، فقرأها علينا ، رضي الله عنه (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَلَّمَهُ ① تِلْكَ نَائِبَتُ الْكِتَابِ لِلْمُبِينِ ② تَنَالُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلًا شِيمًا يَسْتَصِفُّ عَلَيْهِ مِنْهُمُ ابْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَ
مِنَ الْمُنْكَرِينَ ④ وَوَرِّدُكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْضَوْا فِي الْأَرْضِ وَتَجْمَلَهُمْ أُمَّةٌ وَتَجْمَلَهُمُ الْوَرِثِينَ ⑤
وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَرِيهِ فِرْعَوْنُ وَهَمَلُ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : (تلك) ، أي : هذه (آيات الكتاب للمبين) ، أي : الواضح الجلل الكاشف عن حقائق الأمور ،
وعلم ما قد كاث وما هو كائن .

وقوله : (تنالوا عليك من نأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) ، كما قال تعالى : (نحن نقص عليك
أحسن القصص) (٢) ، أي : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك شاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : (إن فرعون علا في الأرض) ، أي : تكبر وتبهر وطنى ، (وجعل أهلها شيمًا) ، أي :
أصنافًا ، قد صرف كل صنف فيها يريد من أمور دولته .

وقوله : (يستصفف عليه منهم) ، أى : بنى إسرائيل . وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم .
هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العبد يستعملهم في أنص الأعمال ، ويتكدهم ليلا ونهارا في أشغاله وأشغال رعيته ،
ويقتل مع هذا أبنائهم ويستحي نساءهم ، إهانة لهم وإحتقارا ، وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تنوف
هو وأهل ملكه من أن يوجد منهم غلام ، يكون سببه هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٢١٩ .

(٢) سورة يوسف : آية ٢١ .

بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل . حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة ليخلفها جارية ، فصابتها الله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم - عليه السلام - ولده أنه سيولد من صلبه وذريته ممن يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترق فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكر بني إسرائيل . ولما بلغ حلقه من قلب ، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخره ، ولكل أجل كتاب . ولهذا قال : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال ، (وأوردنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، ونمت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعملون) (١) . وقال : (كذلك وأوردناه بني إسرائيل (١٢) ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فأنقذه ذلك مع قدر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدری ، بل نقل حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترق من وجوده ، وقبيل بسببه ألواناً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشه ، وفي ذلك ، وغلواؤه من علمه ، وأنت تربية وتبليغ وتصفية (٢) ، وحضك ، وهلاكك وحلك جنودك على يديه ، تعلم أن رب السموات والأرض هو القاهر الغالب العظيم ، العزيز القوى الشديد الخالق ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَاِذَا خَشِيَ عَلَيْهِ قَاتِلِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا وَارَدْنَاهُ الْبَيْتَ
وَجَاءَهُ مِنَ الْكَرْمَلَيْنِ ۖ ① قَالَتْ لَهُمَا عَالِ فِرْعَوْنَ لَيْسَ لَهُ بَدُوٌّ ۖ وَحَدَّثْنَاهُ فِرْعَوْنَ بِمَا كُنَّا فَعَلْنَا بِاللَّذِينَ
كَانُوا خَائِفِينَ ۖ ② وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْبَىٰ ۖ وَلَوْلَا كَلَامُ رَبِّي لَأَمَتُنَا ۚ فَتَقَالُوا ۚ ③ وَتَقَالُوا ۚ ④ وَتَقَالُوا ۚ ⑤
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ⑥

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكر بني إسرائيل ، خافت القبط أن يفتي بني إسرائيل ، فيكون هم ما كانوا يلوون من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم وعلمائهم لا يعيشون ، وسلاهم لا يمكن أن يجيبوا ما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان وأما وتركهم أماناً ، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى - عليه السلام - في السنة التي يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوايل يدرك على النساء ، فمن رأيتها قد حملت أحسبوا اسمها ،

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٢٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٥٩ .

(٣) في المخطوطة : « وتقبله » . والليث عن الطبعات السابقة .

فَإِذَا كَانَ [وَقْتُ] وُلادَتِهَا لَا يَكْتَبُهَا (١) إِلَّا نِسَاءُ الْقَيْطِ ، فَإِنْ وَلَدَتْ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً تَرَكْتَهَا وَذَعَبَتْ ، وَإِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا دَخَلَ أُولَئِكَ النَّبَاحِرُونَ ، بِأَيْدِيهِمُ الشَّفَارَ الْمَرْهَفَةَ ، وَقَتَلُوهُ وَمَضَوْا قَبْحَهُمْ اللَّهُ : فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مَوْسَى بِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا خَائِلُ الْحَمْلِ كَثِيرًا ، وَلَمْ تَقْطَعْ لَهَا الدَّيَّاتُ ، وَلَكِنْ لَمْ وَضِعَتْ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذُرْعًا ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا وَأَحْبَبَتْ حَيَا زَائِلًا ، وَكَانَ مَوْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحِبَّهُ ، فَالْمَسِيدُ مِنْ أَحِبِّهِ طَبْعًا وَشَرَحًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ عَجَبًا مَنِي) (٢) : فَلَمَّا ضَاقَتْ ذُرْعًا بِهِ كَلِمَتْ فِي سِرِّهَا ، وَأَلْقَى فِي خَطْلِهَا ، وَاقَتْ فِي رَوْعِهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مَوْسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ إِلَى الْيَمِّ وَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) : وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَاقَةِ النَّيْلِ ، فَاتَّخَذَتْ ثَابُوتًا ، وَمَهَّكَةً فِيهِ مَهْدًا ، وَجَعَلَتْ تَرْضِعُ وَلَدَهَا ، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُهُ جَعَلَتْهُ فِي ذَلِكَ الثَّابُوتِ ، وَسِرَّتَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَرَبَطَتْ بِحَبْلِ حَنْدَلٍ : فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا مِنْ تَخَافِهِ ، فَلَحَبَتْ فَوْضَتَهُ فِي ذَلِكَ الثَّابُوتِ ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَذَعَلَتْ أَنْ تَرْتَبِلَهُ ، فَلَحَبَ مَعَ الْمَاءِ - أَحْتَمِلَهُ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ ، فَاتَّخَذَهُ الْخَوَارِى فَاحْتَمَلَتْهُ ، فَطَلَعْنَ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَلَا يَدْرِينَ مَا فِيهِ ، وَخَشِينَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهَا فِي فَتْحِهِ دُونَهَا : فَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلَامٌ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ وَأَجْمَلِهِ وَأَحْلَاهُ وَأَبْنَاهُ ، فَأَوَقَعَ اللَّهُ حِمْنَهُ فِي قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ لِسَعَادَتِهَا وَمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ كَرَامَتِهَا وَشَفَاوَةِ بَعْلِهَا (٣) ، وَلِهَذَا قَالَ : (فَاتَّخَذَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا) :

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقٍ وَغَيْرُهُ : «اللام هنا لام العاقبة لا لام التاميل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضيه ما قالوه ، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتاميل ، لأن معناه أن الله - تعالى - قبضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا فيكون أبليغ [في إيصال] حلزهم منه ، ولهذا قال : (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتابًا إلى قوم من القدرية ، في تكلبيهم بكتابه الله وأقناده الثالثة في علمه السابق : وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن ، قال الله تعالى : (وَأَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ) ، وَقَلَّمَ أَنَّهُمْ : لَوْ شَاءَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ لِمُوسَى وَلِيًّا وَنَاصِرًا ، وَاللَّهُ يَقُولُ : (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) .

وقوله تعالى : (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ : قُرَّةٌ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ ، حَسْبِيَ أَنْ يَضْمَنَّا أَوْ تَصْنَعَهُ وَلَنَا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ، يَعْنِي أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَرَاهُمْ يَقْتُلُهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَعَلَتْ امْرَأَتُهُ آسِيَةَ بِنْتَ مِزَاجٍ تُصَنِّجُ عَنْهُ وَتَلْدِبُ دُونَهُ ، وَتَحْبِيهِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَحَالَتْ : (قُرَّةٌ عَيْنٍ لِي وَلَكِ) ، فَقَالَتْ : «أَمَّا لَكَ فَتَحْتَمِمْ ، وَأَمَّا لِي فَلَا» . فَكَانَ كَذَلِكَ ، وَهَلُمَّا اللَّهُ بِهِ ، وَأَمْلَكَ اللَّهُ عَلَى بَنِيهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْفَتَوَى فِي «سُورَةِ طه (٤)» هَذِهِ الْقِصَّةَ بِطَوَّلٍ ، مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا عَنِ النَّسَائِيِّ وَغَيْرِهِ :

(١) قبلت القابلة المرأة : إذا تلقت ولدها .

(٢) سورة طه ، آية : ٣٩ .

(٣) أي : ذوجها .

(٤) انظر حديث الفتوى في : ٢٧٩/٥ - ٢٨٦ .

وقوله : (عسى أن ينصنا) ، وقد حصل لما ذكره ، وحلها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه ، وقرئ : (أو تنخله ولأنا) ، أى : أرادت أن تنخله ولأنا وبنته (١) ، وذلك أنه لم يكن لما ولدته .
وقوله تعالى : (وهم لا بشعرون) ، أى : لا يبرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة الطيبة البالغة ، والحجة القاطعة .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَتًى ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَّيْ قَلْبِهَا لَنُكَوِّنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّبْتُ قُصِّبْتُ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ۝١١ ۖ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ
 فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۖ ۝١٢ ۖ وَذَرْنَاهُ فِي قَرْعِهِ
وَالْغَمَزَ ۖ وَلَنُعَلِّمَنَّ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ ۝١٣

يقول تعالى غبراً عن فؤاد أم موسى ، حين شعب ولحقا في البحر ، أنه أصبح قرداً ، أى : من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس (٢) ، ويجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة ، والفسحاك ، والسنن البصري ، والقاتلة ، وشهرم .

(إن كادت لتبدي به) ، أى : إن كادت من شدة وجعها وحزنها وأسفها لتظهر أنه شعب لما ولد ، وغير محالها ، لولا أن الله حبسها وصبرها ، قال الله تعالى : (لولا أن ربنا عل قلبها لتكون من المؤمنين) . وقالت لأخيه : قصي به) ، أى : أشرت ابتهاجاً وكانت كبيرة فمى ما يقال لها - قالت لما (قصي) ، أى : اتبى أثره ، وغلخى خبره ، وتعللني شأنه من نواصي البلد : فخرجت للكم ، (قُصِّبْتُ به عن جنب) - قال ابن عباس : عن جانب .

وقال مجاهد : (قُصِّبْتُ به عن جنبه) ، عن بعبه .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريد .

وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام ببلد فرعون ، وأحبته امرأة لذلك ، واستلطته معه ، فحسوا عليه المراضع التي في حدرهم ، فلم يقبل منها ثوباً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك ، فخرجوا به إلى سوق لهم مجنون امرأة تصلح لراضعته ، فلما رآته بأبصارهم حرصه ، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها ، قال الله تعالى : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) ، أى : تحريماً قدَرنا ، وذلك لكرامة الله له صاته عن أن يرضع شيء سوى أمه ، ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ، لرضعته وهي أمته ، بعد ما كانت شاةة لها رآهم حالين فيمن يرضعه (قالت : هل أحلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) .

(١) في المخطوطة : ولأنا ، وكنت له . . . ولكتبت من التبعات السابقة .

(٢) انظر تفسير البصري : ٢٠/٢٣٧-٢٤٠ .

ثم ذكر تعالى سببه ووصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والملكيم ؛ فقبية قطه ذلك القبلى ، الذى كان سبب هروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، قال تعالى : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) - قال ابن جرير ، من عطاه لفراسى ، من ابن عباس ؛ وذلك بين المغرب والمشاء .

وقال ابن المنكر ، من عطاه بن يسار ، من ابن عباس ؛ كان ذلك نصف النهار (١) ؛ وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والسدى ، وقطادة .

(فوجد فيها رجلين يقتلان) ، أى : يتضاربان ويتنازعان ، (هذا من قبته) ، أى من (بنى) إسرائيل ، (وهذا من عدوه) ، أى : قبلى ، قاله ابن عباس ، وقطادة ، والسدى ، وعبد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلي موسى عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبلى (فوكره موسى فقتل عليه) ، قال مجاهد ؛ وكره ، أى ؛ طمسه بجمع (٢) .

وقال قطادة ؛ وكره بصحا كانت معه ؛

(فقتل عليه) ، أى ؛ كان فيها حقه فأت ، (قال) موسى ؛ (هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مبين) . قال : رب ، إلى ظلمت نفسى ، فافترى ، ففتر له ، إنه هو الظفور الرحيم . قال : رب ، بما أنعمت على ؛ أى ؛ بما جعلت لى من إلهاء والعزة والمنة (فلن أكون ظهيرا) ، أى : معينا (للمجرمين) ، أى الكافرين بك ؛ الخائفين لأمره ،

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ ﴿٢٠﴾
فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَلِقَ أَلْقَى هُوَ عَدُوٌّ لِمَا قَالِ يَتَّبِعُ أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
لِئِنْ تَكُنْ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى غرضاً عن موسى - عليه السلام - لما قتل ذلك القبلى أنه أصبح (فى المدينة خائفاً) ، أى ؛ من مَنّ ما فعل ، (يترقب) ، أى ؛ ينتظف ويتوقع (٢) ما يكون من هذا الأمر ، فمر فى بعض الطرق ، فإذا ذلك الذى استصمر بالأمس على ذلك القبلى يقتل آخر ، فلما مر موسى ، استصمره على الآخر ، فقال له موسى ؛ (إنك لغوى مبين) ، أى ؛ ظاهر الغواية كثير الشر ؛ ثم حزم على البطش بملك القبلى ، فاعتقد الإسرائيلي لغوته وضغفه وذلته أن موسى إنما

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/٢٠ .

(٢) جمع الكف - يكم أسكون - حين تقيها .

(٣) فى الخطورة ؛ أى ؛ يتقلب ؛ أى يتوقع . واللتيت من اللطيمات السابقة .

يريد فصله لا سمعه يقول ذلك ، فقال يذبح من نفسه ، (يا موسى ، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) ؟ ، وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبيح لتفنتها من فقه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فأتاها عنده ، فلم يملك ، فاشتد غضبه ، وحزم على قتل موسى ، فطلبوه وبشوا وراموه ليحصروه لذلك .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْيَدْيَةِ يَسْأَلُ قَالِ يَمْوَسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٦﴾

قال تعالى : (وجاء رجل) ، وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق ، فملك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراموه ، فسأل إلى موسى ، فقال له : يا موسى ، (إن الملأ يأتيمرون بك) ، أي : يتشاورون فيك (ليقتلوك فاخرج) ، أي : من البلد ، (إلى لك من الناصحين) .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَسَدِينَ قَالَ هَٰذَا رَجُلٌ أَنْ يَدْعِيَ بِكَ سَوَءَ الدَّعْوَىٰ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَلِيحٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ كَلِخَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسِي حَتَّىٰ يَصِلَ الرَّحَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٩﴾ فَقَتَلَ هُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٠﴾

لا أنكره ذلك الرجل بما أنما عليه فرعون ودعاه في أموره ، خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله ، بل كان في رعايته ولعمرة ورياسة ، (فخرج منها خائفاً يترقب) ، أي : يتلفت ، (قال : رب ، نجني من القوم الظالمين) ، أي : من فرعون وماله ، فذكروا أن الله - سبحانه وتعالى - بعث له ملكاً على فرس ، فأرشده إلى الطريق ، فآله أعلم .

(ولا توجه تلقاه معلن) ، أي : أنشد طريقاً سالكاً منهجاً (١) فرح بذلك ، (قال : عسى ربى أن يهديني سواء السبيل) ، أي : إلى الطريق الأحسن : فقبل الله به ذلك ، وهذه إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة ، فقبله حاجباً مهيئاً . (ولا ورد ماء معلن) ، أي : ولا وصل إلى معلن وورد ماءها ، وكان لما يتر كرده وراه الشاة (٢) ، وجد عليه أمة من الناس) ، أي : جماعة (يسقون ، ووجد من دونهن امرأتين تزدان) ، أي : تكتفكان غنهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاة ثلاثاً يؤتيا ، فلما رآهما موسى - عليه السلام - رقى لهما ورحبهما ، (قال : ما خطبكما ؟) ، أي : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ قالتا : لا نسى حتى يصل الرعاة) ، أي : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ، (وأبونا شيخ كبير) ، أي : فهنا الحال للشيخ لنا إلى ما ترى . قال الله تعالى : (فسقى هما) .

(١) أي : سبيل .

(٢) وراه - بكسر الراء وهما - جمع وراه .

قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو (١) بن ميمون الأودي ، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن موسى - عليه السلام - لما وود ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يمسكون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة حل البئر ، ولا يطبق رقعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بأمرأتين تلوثان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثناه ، فأتى الحجر فرقه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت للنم : إستاند صحيح .

وقوله : (ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إني من خير فقير) - قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فإ وصل مدين حتى سقطت نعل قلعه (٢) وجلس (٣) في الظل وهو صفة الله من خلقه ، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل ترى من داخل جوفه وإته يحتاج إلى شق ثمرة .

وقوله : (إلى الظل) ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدي : جلس تحت شجرة .

وقال ابن جرير : حدثني الحسين بن عمرو المنفري ، حدثنا أبي ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : حكيت على جميل ليلتين ، حتى صبحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى ، فإذا شجرة خضراء ترف ، فأهوى إليها جميل - وكان جائعاً - فأخذها جميل فبالها ساعة ، ثم لفظها فدعوت الله لموسى - عليه السلام - ثم انصرف (٤) .

وفي رواية عن ابن مسعود : أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها موسى ، كما ميانق والله أعلم . وقال السدي : كانت من شجر اللسمر (٥) .

وقال عطاء بن السائب : لما قال موسى : (رب ، إني لما أنزلت إني من خير فقير) ، أسمع للراة (٦) .

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَا وَقَالَتْ إني أَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ إِيمَر مَاسَقَيْتَ لَنَا قَبْلَ جَاءَهُمْ وَقَسَمَ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ حَيَّرَتْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَيُّ اسْتَحْيَاهُ إِنْ خَيْرٍ مِنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَرْيَ الْأَمِينِ ﴿٥٦﴾ قَالَ إِنْ أُرِيدُ أَنْ أَمْكُمُكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي كَمَا تَفْعَلُ فَإِنْ أَتَيْتَ هَاتَرَا فَرَنْ جَنَدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْقَسِيصِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٥٨﴾

لما رجعت المرأتان ميراكعا بالضم إلى أبيها ، أنكر حالها ومجيئها سريعا ، فسألها عن خبرها ، فقصتها عليه ما قبل موسى

(١) في المخطوطة : « حروة بن ميمون » . وهو خطأ . انظر ترجمة « حروة بن ميمون » في البحر لابن أبي حاتم : ٢٥٨/١٢٣ .

(٢) الأثر في اللامد المشهور عن ابن اللطاف : « وابن أبي حاتم : ١٢٥/٥ » .

(٣) في المخطوطة : « ولا جلس » . فقلنا : « لا » ليصتقم السياق .

(٤) تفسير الطبري : ٣٧/٢٥ .

(٥) اللسمر : واحد سمرة ، وهو شجر عظام له شوك .

(٦) تفسير الطبري : ٣٨/٢٥ .

عليه السلام وبعث إلهاماً إليه ليعمده إلى أبيها قال الله تعالى : (فجاءته إلهاماً تثنى على استحياء) ، أي : متثنى الخرائر ، كما روى عن أمير المؤمنين حر - رضى الله عنه - أنه قال : كانت مستورة بكم ذرعها (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا (٢) أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن ابن إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : قال الله حر - رضى الله عنه - جاءت تثنى على استحياء ، (٣) فأثله (٤) بثوبها على وجهها ، ليست يسلق خرقاة ولاجة . هذا إسناد صحيح .

قال الجوهري : السلق من الرجال : الجور ، ومن النساء : الجرعة السليطة ، ومن النوق : الشديدة (٥) .
(قالت : إن ابن يدهوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) ، وهذا تأدب في امسارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يؤهم رية ، بل قالت : (إن ابن يدهوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) ، يعني : ليثيك ويكافئك على سقيك لثمتنا . (فلما جاءه وقص عليه القصص) ، أي : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ، قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين) ، يقول : طلب نفساً وقتر حيتا ، فقد خرجت من ملكهم فلا حاكم لهم في بلادنا ، ولهذا قال : (نجوت من القوم الظالمين) .

وقد اعطى القسرون في هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شبيب النبي - عليه السلام - الذي أرسل إلى أهل مدين - وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد - ورواه ابن أبي حاتم .

حدثنا أبو ، حدثنا عبد العزيز الأريسي (٥) ، حدثنا مالك بن أنس : أنه بلغه أن شيباً هو الذي قص عليه موسى قصته ، قاله : (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) .
وقد روى الطبراني عن سبعة من سجد للمتنبي أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : مرحباً بقوم شبيب وأنشدنا موسى (٦) ، هُدَيْتَ ،

وقال تفسرون : بل كان ابن أمي شبيب ، وقيل : وجعل مؤمن من قوم شبيب ، وقال آخرون : كان شبيب قبل زمان موسى - عليه السلام - مدة طويلة ، لأنه قال لقومه : (وما قوم لوط منكم بعيد) . وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل - عليه السلام - ينص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل - عليه السلام - مدة طويلة تزيد على أربعين سنة ، كما ذكره غير واحد - وما قيل : إن شيباً عاش مدة طويلة ، إنما هو - والله أعلم - استراق من هذا الإشكال : ثم من الملقى أنكره ليس بشبيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القصة هاتين : وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى ، لم يصح إسناده ، كما سنذكره قريباً إن شاء الله . ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه : (ليهون (٧)) ، والله أعلم .

(١) دوح المرأة قبسها .

(٢) ما بين القسرين زيادة من إلهامها ، فإن إلهامها : هوى من أليه ، من أليه تم التفسيرين . انظر المرح ١١/٢٢٣ .

(٣) أي : ولما ثوبها . والهرب - كما تتم مراراً قبل القول صراحة من جميع الأفعال .

(٤) الصالح الجوهري : ١٢٤١ .

(٥) في المخطوطة : الأوصى . ولعليت من ترجمته في التفسير لابن أبي حاتم . ٣٨٧/٢/٢ .

(٦) الأخشاف : كل ما كان من قبل المرأة ، أكليها وأشبا .

(٧) كذلك خطمة الأخر بهاته واليه وفي تفسير الطبري : ٤٠/٢٠٠ من ابن إسحاق : يندرون ، بالياء والفاء .

وقال أبو حبيدة بن عبد الله بن مسعود : وأثرون (١) هو ابن أخي شعيب عليه السلام .

وعن أبي حمزة (٢) ، عن ابن عباس : الذي استأجر موسى يرى (صاحب مدين) . ورواه ابن جرير ، ثم قال الصواب أن هذا لا يترك إلا خبر ، ولا [خبر] يجب به الحجة في ذلك (٣) .

وقوله (قالت إحداها : يابئنا ، استأجره) إن خبر من استأجرت القوى الأمين) ، أي : قالت إحدى ابنتي هذا الرجل . قيل : هي التي ذهبت وراء موسى - عليه السلام - قالت لأبيها : (يابئنا استأجره) ، أي : لرحمة هذه النعم ، قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ، وعبد بن إسحاق ، وغير واحد : لما قالت : (إن خبر من استأجرت القوى الأمين) ، قال لما أبوها : وما حملك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورثتي ، فإذا اجتنب الطريق فالحق (٤) بحصاة أحلم بها كيف الطريق لأهدي إلى .

قال صفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي حبيدة ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : أقرس اثنا عشر ليلة أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : (أكرى مفواه) ، وصاحبة موسى حين قالت : (يابئنا) . استأجره ، إن خبر من استأجرت القوى الأمين (٥) .

قال : (إني أريد أن أتحدثك إحدى ابنتي هاتين) ، أي : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرضى عنه ، ويؤوجه إحدى ابنتيه هاتين .

قال شعيب الجاني : وها صفورا ، وليا

وقال محمد بن إسحاق : صفورا وشرقا ، ويقال : ليا (٦) : وقد استلح أصحابي أن حفيضة بهذه الآية على صحة البع فيها إذا قال : « بعتك أحد هاتين المدينتين » . فقال : اشتريت « أنه يصح ، والله أعلم .

وقوله (هل أن تأجرني ثلثي حجيج) ، فإن أعمت حشراً فمن عندك) ، أي : هل أن ترعى علي ثلثي سنتين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي ثلث كفاية ، (وما أريد أن أشق عليك) ، ستجلبني إن شاء الله من الصالحين) ، أي : لأشاقك ، ولا أؤذيك ، ولا أماريك .

(١) كلما في خطوطة الأثر . وفي تفسير الطبري : ٤٠/٢٠٠ عن أبي حبيدة : « يؤرث » . والله أعلم .

(٢) في الخطوطة : « عن أبي سرة » . والمثلث من تفسير الطبري ، والمطبوعات السابقة . وفي التلخيص ١٣٥/٨ أن أبي حمزة هذا هو عمران بن أبي حنبل .

(٣) تفسير الطبري : ٤٠/٢٠٠ .

(٤) أي : ارضي .

(٥) تقدم هذا الأثر في تفسير سورة يوسف : ٣٠٦/٤ . ورواه أبو بكر الصديق حين استملك عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(٦) انظر الأثرين في تفسير الطبري : ٤٠/٢٠٠ . ورواه ثورثا : كلما بالفتح في خطوطة الأثر . وفي تفسير الطبري : « فورا » . والقراء المحوطة .

وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة للذهب الأوزاعي ، فما إذا قال : « بعتك هذا بعشرة نقات ، أو بعشرين لسته » ، أنه يصح ، ويختار المشتري بأما أخذه صح . وحمل الحديث للروى في سنن أبي داود : « من باع يخبث في بيمه ، فله أو كسها (١) » أو الربا (٢) ، على هذا للذهب . وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ، ليس هذا موضع بسطه لقوله . والله أعلم .

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم ، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن ، حيث قال : « باب استئجار الأجير (٣) » على طعام بطنة : « حدثنا محمد بن المصنف الحمصي ، حدثنا بقة بن الوليد ، عن سلمة بن علي ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح قال : سمعت عتبة بن النضر (٤) يقول : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قرا (طسم) ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى أجرت نفسه لثاني سنين - أو : عشر سنين - على عفة فرجه وطعام بطنة (٥) » .

وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف ، لأن سلمة بن علي وهو الخشني النخعي البهلاطي ضعيف الرواية عند الأئمة ، ولكن قد روي من وجه آخر ، وفيه نظر أيضا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لبيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن علي بن رباح النخعي قال : سمعت عتبة بن النضر والسلمي - صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - يحدث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن موسى أجرت نفسه بعقة فرجه ، وطعمة بطنة .

وقوله تعالى إنياداً من موسى عليه السلام : (قال : ذلك بيني وبينك أما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على ما تنزل وكيل) ، يقول : إن موسى قال لصبوه : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشرأ فري حنلى ، فإنما منى ضلت ألقها يرث من العهد ، وخرجت من الشرط ، ولهذا قال : (أما الأجلين قضيت فلا عدوان علي) ، أى : فلا حرج على من أن لا يكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بليل من خارج ، كما قال تعالى : (فمن يعمل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحزمة بن عمرو الأسلمي - رضى الله عنه ، وكان كثير الصيام ، وسأله عن الصرم في السفر - قال : إن شئت فسم ، وإن شئت فاطر (٦) ، مع أن فعل الصيام راجع من دليل آخر .

(١) التوكس : التمس ، أى أنقصما .

(٢) سنن أبي داود : كتاب البيوع ، باب « فممن باع يخبث في بيمه » ، الحديث ٣٤٦١ : ٣٤٧٤/٣ .

(٣) في سنن ابن ماجه : باب « إجارة الأجير » . . .

(٤) في الخطوط : في هذه الحديث والأحاديث التالية : « عتبة بن النضر » . وهو خطأ ، والصواب من ترجمته في أسد الغابة :

٥٧٠/٧ ، بصرفتها .

(٥) سنن ابن ماجه : كتاب الرهون ، باب « إجارة الأجير على طعام بطنة » ، الحديث ٢٤٤٤ : ٨١٧/٢ .

(٦) سنن قتادة ، كتاب الصيام ، باب « ذكر الاختلاف على سليمان بن يسار في حديث حزمة بن عمرو فيه » : ١٨٥/٤ .

وسند الإمام أحمد : ٤٩٤/٢ .

هذا وقد دل الدليل على أن موسى - عليه السلام - إنما فعل الأجلين وأتبعها ، قال البخاري :

حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأنصلي ، عن سعيد بن جبير قال : سألت يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدري حتى أقدم على خبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس - رضي الله عنه - فقال : قضى أكثرها وأطيبها ، إن رسول الله إذا قال فعل (١) : هكذا رواه البخاري . وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره ، عن سعيد بن جبير . ووقع في « حديث الفتون » (٢) ، من رواية القمام بن أبي أيوب . عن سعيد بن جبير : أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية . « الأول أشبه ، والله أعلم ، وقد روي من حديث ابن عباس مرفوعا ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن محمد الطرمي ، حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم ابن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أكملهما وأتبعها » (٣) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن الحميدي ، عن سفيان - وهو ابن عيينة - حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب - وكان من أستاذي أو أصغر مني - فذكره .

قلت : وإبراهيم هذا ليس بمعروف .

ورواه الزبير بن أحمد بن أبيان القرشي ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أبيان ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكره . ثم قال : لا تخرجه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم : قرئ على يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، عن يحيى بن ميمون الخضرى ، عن يوسف بن نوح ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : لا أعلم لي . (فساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقال جبريل : لا أعلم لي) ، فساءل جبريل ملائكة فوقع فقال : لا أعلم لي . فساءل ذلك الملك ربه - عز وجل - عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال الرب سبحانه وتعالى : قضى إبراهيم وأتبعها - أو قال : أقرهاها .

وهذا مرسل . وقد جله مرسل من وجه آخر ، وقال سفيان : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال : قال مجاهد : إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقال : سوف أسأل إسرائيل . فساءله فقال : سوف أسأل الرب عز وجل . فساءله فقال : أيرها وأتبعها (٣) .

طريق أخرى مرسله أيضا ، قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا ابن ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرظي قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوقاها وأتبعها (٣) .

(١) البخاري ، كتاب الشهادات ، باب « من أمر بإتيان القوم » وقوله الحسن : « ٢٣٦/٣ » .

(٢) تقدم حديث الفتون في سورة طه . وانظر المراد منه هنا في : « ٢٨٢/٥ » .

(٣) تفسير الطبري : « ٤٤/٢٠ » .

فهذه طرق متصاعدة ، ثم قد روى مرفوعاً من رواية أبي ذر غرضي الله عنه : قال الحافظ أبو بكر الزوار : حدثنا أبو حنيفة
الله عبي بن محمد بن السكن ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا حنيفة بن أبي عمران الجوني ، عن أبيه . عن عبد الله بن
الصامت ، عن أبي ذر : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأبرهما -
قال : وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ قل : الصغرى منها .

ثم قال الزوار : لا تعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد .

وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث حنيفة بن أبي عمران - وهو ضعيف - ثم قد روى أيضاً نحوه من حديث عتبة بن
الثدري بزيادة غريبة جداً ، فقال أبو بكر الزوار : حدثنا حماد بن الخطاب السجستاني ، حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا ابن
هبة ، حدثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن الثدري يقول : إن رسول الله صلى الله عليه
وسلم سئل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن موسى عليه السلام لما
أراد فراق شبيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطياها من غنمه ما يعيشون به . فأعطاهما ما ولدته غنمه في ذلك العام
من قالب لبون (١) . قال : لما موت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه ، فولدت قنابل ألوان كلها ، وولدت ثنتين
وثلاث كل شاة ليس فيها قشوش (٢) ولا صوب ، ولا كيشة تقشورت الكف ، ولا تحول . وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : إذا اقتحم الشام فلأنكم ستجدون بقايا منها ، وهي السامرية .

هكذا أورده الزوار . وقد رواه ابن أبي حاتم بأسهل من هذا ، فقال :

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثني عبد الله بن هبة (ج) وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ،
حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن هبة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة
ابن الثدري السلمي - صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى -
عليه السلام - أبحر نفسه بمهفة فرجه وطعمته (٣) بطنه . فلما وفي الأجل قيل : يا رسول الله ، أي الأجلين ؟ قال : أبرهما
وأوفاهما : فلما أراد فراق شبيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطياها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاهما ما ولدته من غنمه
من قالب لبون من ولد ذلك العام ، وكانت غنمه موداه حسناء ، فأنطلق موسى - عليه السلام - إلى عصاه فقسماها (٤) من
طرفها ، ثم وضعها في أدنى الحوض ، ثم أوردتها فسقاها ، ووقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا ضرب جنبها

(١) أي : ما جاءه من الغنم على غير ألوان أمهاتها ، كأن لونها قد انقلب .

(٢) القشوش - بفتح القاء ، بزة أكول - التي ينشأ لبها من غير حلب ، أي : يجرى ، وذلك لسمة الإحليل ، ومثله
للقتوح والثور .

والصوب - بزة القشوش - والقيقة ثقب الإحليل ، على عكس القشوش .

وأما الكيشة فهي الصغيرة للفرح ، سميت بذلك لانكماش ضرعها ، وهو تقلمه . وفي النهاية : « ولا كمش » ، على
بزة فول أيضاً .

واللبون - بزة ما سبقه ، وباليمن الملهمة - : للشاة التي لما زيادة حلمة وهو حبيب .

(٣) روى ابن أبيه هذا القدر في كتاب الرحمن ، باب : « إجابة الأجير على طعام بطنه » الحديث ٢٤٤٤ ، ٨١٧٤٢ .

من طريق الحارث بن يزيد .

(٤) في المطبوعة : « فصلها » . والختمت عن الطبقات السابقة .

شاة شاة قال : فأثمت وأثنت (١) ، ووضعت كلها قرأه الأولان ، إلا شاة أو شايح ليس فيها فحوش - قال يحيى : ولا ضبون . وقال صفوان : ولا ضبوب . قال أبو زرعة : الصواب ضبوب - ولا عززوز (٢) ولا تحول ولا كهيئة تفرمت لا كتبت . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلو اختصم الشام وجدتم بقايا ذلك القوم وهي الضربة (٣) .
وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان قال : سمعت الوليد قال : سألت ابن لهيعة : ما فحوش ؟ قال : التي تكون بلينها (٤) واسمة الشخب (٥) . قلت : فما الضبوب ؟ قال الطويلة الفرج تجمه . قلت : فما العزوز ؟ قال : ضيقة الشخب كالقنا . قلت : فما التحول ؟ قال : التي ليس لها فخرج إلا كهيئة حلتين . قلت : فما الكهيئة ؟ قال : التي تفرمت الكف ، كهيئة الفرج ، صغير لا يدركه الكف .

منار هذا الحديث هل عبد الله بن هبة المصري - وفي حفظه سوء - وأنتهى أن يكون فيه خطأ ، والله أعلم . وينبغي أن يروى ليس فيها فحوش ولا عزوز ، ولا ضبوب ولا تحول ولا كهيئة ، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة . وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك - موقوفاً عليه - ما يقوي بعضه بإسناد جيد ، قال : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك - وفي الله به - قال : لما دعا بني الله موسى عليه السلام - صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على خير لوئها فذلك ولدا لك . فمعد فرفع حالاً على لده ، فلما رأته أنبيل فرحت فجالت جرة ، فولدت كهن بلقا إلا شاة واحدة ، فلهبها بأولادها من ذلك العام (٦) .

﴿ قُلْتُ قَضَىٰ عَلَىَّ الْأَجَلَ وَسَاءَ لِئَعْلَىٰ فَلَمَّا قُضِيَ الْأَجَلُ عَلَيَّ قَالَ لِأَعْلَىٰ لَسْتُ بِكَ إِلَّا كَمَا كُنْتُ قَدِمْتُ قَدِمْتُ بِكُمْ مَتَىٰ بِكُمْ وَأَجَلُكُمْ مِنْ أَنْبَارٍ تَلْسَكُ تَصْطَلُونَ ﴿١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا وَقَعَتْ فِي بَيْتِي الْوَيْلُ لِلَّذِينَ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْنُوكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوُتَ إِيَّانَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَلِيَّ عَصَاكَ قَدَارًا فَهَاتِرَةً كَلِمًا جَانًّا وَلَكِ مَذِيرًا وَلَمْ يَجِبْ يَمْوُتُ أَقِيلٌ وَلَا تَحْفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣﴾ لَسْتُ بِكَ فِي جِرْكَ تَحْفَ يَسْأَلُ مِنْ قَوْمٍ سَوَاءٍ أَلَيْكَ جَنَاحُكَ مِنَ الرَّهْبِ قَدْ نَكَرَ بِمَعْنَىٰ مِنْ مَوْلٍ إِنْ فَرَعُونَ فَكَلِمَةً إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا قَنِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى - عليه السلام - قضى أم الأجلين وأولاهما وأبرهما وأكلهما وأقامها ، وبسبب هذا أيضاً من الآية الكريمة من قوله : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ ، أي : الأكل منها ، والله أعلم .

(١) في الخطوط : « فأثمت وانثيت » . وفي قدر المشرق : « فأثمت وأثنت » . وفي الطبقات السابقة : « فأثمت وأثنت » . ولعل الصواب ما أثبتناه . وأثنت الآية : « وضعت الثمن في يده » . ولما « أثنت » فالتحق اللسان أنه يقال : « أثنت اثنتا إذا جاءت بولدها الثالث » ، ولم نجد - فيما أتبع لنا من المصاحف - منى ولدت ثلاثاً في بيت .

(٢) المزوز - بالعين المهملة ، وزاين بينهما واو - لكثرة اليكينة القليلة العين ، الضيقة الإحليل .

(٣) قدر المشرق : ١٢٦٦ .

(٤) في النهاية : « هي التي يفتش لبنها من حجر حلب » ، هي حمى : وذلك لصفة الإحليل .

(٥) الشخب - كما في اللسان - : ما خرج من اللبن إذا احلب .

(٦) تفسير الطبري : ٤٢٤٥ .

قال ابن أبي جريح ، عن مجاهد ، قضى عشر سنين ، وبعدما هثرا آخر . وهذا القول لم أره لغره ، وقد حكاه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والله أعلم .

وقوله (وسار بأهله) قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه ، فحصل بأهله وما كان معه من الثمن التي وهبها له صهره ، فسلك بهم في ليلة مظيرة مظلمة باردة ، فتركوا منزلا فجعل كلما أوردى (١) زنده لا يخفى شيئا ، فصعب من ذلك ، فبينما هو كذلك : (آنس من جانب الطور نارا) ، أي : رأى نارا تضيء له على بعد ، (قال لأهله : امكثوا إلى آتت نارا) ، أي : حتى أذهب إليها ، (لعل آتيكم منها بخبر) ، وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، (أو جلوة من النار) ، أي : قطعة منها ، (لعلكم تصطلون) ، أي : تشتدثون بها من البرد . قال الله تعالى : (فلما أتاهم نودي من شاطئ الوادي الأيمن) ، أي : من جانب الوادي مما يلي الجبل من يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى : (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربي من يمينه ، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحيته (٢) الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتا في أمرها ، فناداه ربه : (من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة) .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ، عن هذا أنه قال : وأبنت الشجرة التي نودي منها موسى - عليه السلام - صرة خضراء ترف (٣) . إسنادها مقارب (٤) . وقال همد بن إسحاق ، عن بعض من لا يهتم ، عن وهب بن منبه قال : شجرة من المسكين (٥) ، وبعض أهل الكتاب يقول : من الواسع (٦) .

وقال قتادة : هي من الواسع ، وعصاه من الواسع .

وقوله تعالى : (أن يا موسى ، إني أنا الله رب العالمين) ، أي : الذي يخلقك ويملكك هو رب العالمين ، الأعمال لا يشاء ، إلا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتزه عن مائلة المخلوقات في ذاته وصفاته ، (وأقواله) وأفعاله ، سبحانه !

وقوله : (وأن ألق عصاك) ، أي : التي في يدي . كما قرره على ذلك في قوله : (وما تلك بيمينك يا موسى) قال : هي عصاك أتوكأ عليها وأمسك بها على خنفي ، ولي فيها مآرب أخرى (٧) . والمعنى : أما هذه عصاك التي تعرفها ؟

(١) أي : أخرج لونه . والزند : السود الذي تقطع به النار .

(٢) مذهب - بكسر اللام - وسكون الحاء المهملة - : أصل الجبل .

(٣) تفسير الطبري : ٤٦٠/٢٥٠ ، وللفظه : شجرة سر خضراء ترف .

(٤) قال الثوري في التخرين : ٢٢٤ : ومن ألفاظهم - بين المحدثين في التمديل - : فلان روى عنه الناس ، وسط .

(٥) مقارب الحديث ، ويقول البيهقي : وهذه الألفاظ الثلاثة من المرتبة التي يذكر فيها شيخ ، وهي الثالثة من مراتب التمديل .

(٦) الملقب - بضم الميم - وضع اللام مشددة ، وياء ساكنة - : ثبت وصالق بالشجر . وقال أبو حنيفة : يحسب بالمراسمة

حركة ، وهو من شجر الشوك لا يهضم .

(٧) الواسع : شجر كثير الشوك .

(٨) ص : ١٨٠ ، آية : ١٧ ، ١٨ .

(أنفها ، فالتأثما فإذا هي حية تسعى) ، عرفت ونعق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول الشيء : كذا ، فيكون ، كما تقدم بين ذلك في « سورة طه (١) » .

وقال حامتا : (فلما رأها يتبر) ، أي : تضطرب (كأنها جان) ، أي : في حركتها السريعة مع عظم خشكتي قوائمها واتساع لها ، واصطلاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها ، فتضجر في فيها تضجع ، كأنها حادة في واد . فعند ذلك (ولي مبرأ ولم يغيب) ، أي : ولم يكن يلبث ، لأن طبع البشرية يتفر من ذلك : فلما قال الله له : (ياموسى ، أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) ، رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال الله له : (اسلك بلك في جيبك فخرج يبيضه من غير سوء) ، أي : إذا أدخلت بلك في جيب درعك ثم أخرجتها فلها تخرج تلالاً ، كأنها قطعة نمر في لمان البرق . ولهذا قال : (من غير سوء) ، أي : من غير برص .

وقوله : (واضمم إليك جناحك من الرهب) ، قال مجاهد : من الفرخ : وقال قتادة من الرهب : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما خصل لك من خوفك من الحية (٢) .

والظاهر أن المراد أهم من هذا ، وهو أنه أمر — عليه السلام — إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهو يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجيد أو يتخفف ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الربيع بن ثعلبة الشيخ الصالح ، أخبرنا أبو إسماعيل اللؤلؤي : من عبد الله بن مسلم ، عن مجاهد ، قال : كان موسى عليه السلام قد مكبى قلبه رجلاً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم ، إني أمرأ بك في نغره ، وأعوذ بك من شره ، ففرغ الله ما كان في قلب موسى — عليه السلام — وجعله في قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يقول الخمار .

وقوله : (فلذلك برهاتنا من ريك) ، يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده في جيبه فخرج يبيضه من غير سوء — دليلاً قاطعاً واضحاً على قدرة القاهر المظهر ، وصحة نبوة من جرى هذا الخلق على يده ، ولهذا قال : (إلى فرعون ومله) ، أي : وقومه من الرؤساء والكبراء والأعيان ، (إنهم كانوا قوماً فاسقين) ، أي : خارجين عن طاعة الله ، عاكفين لعين الله :

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٣﴾ وَإِنِّي مُرَوِّدٌهُمْ مُقِيمًا فَارْجُهُمْ رَبِّ لَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَبْغِيَنَّ رَدِّيَ إِتِيَّ أَخَافُ أَنْ يُبَكِّدُونِ ﴿٢٤﴾ قَالَ عَسَىٰ ذُنُوبُكَ أَنِ يَخْلِكَ بِأُخْرَىٰ وَتَجْعَلَ لَكَ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ يَعٰلَٰهِنَّ أَتَمٰنَا وَمِنْ أَتَعٰمِكَ الْقٰتِلُونَ ﴿٢٥﴾

لما أمره الله — تعالى — بالهلب إلى فرعون ، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً عنه وخوفاً من سطوره ، (قال : وب ، إني قتلته منهم نفساً) ، يعني ذلك القبطي ، (فلخاف أن يقتلوه) ، أي : إذا رآه ، (ولشيء هارون مو لنصيح

(١) النظر فيما تقدم : ٢٧٣/٥ .

(٢) تفسير القرطبي : ٤١٦/٢٥ .

منى لساناً ، وذلك أن موسى - عليه السلام - كان في لسانه لغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خيّر بينها وبين الثمرة أو الدرّة ، (فأتخذ الجمرة) فوضها على لسانه (١) ، فحصل فيه شدة في التعبير ، ولهذا قال : (واحل عقدة من لساني : يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه في أمرى (٢)) ، أى : يؤثّر في أمرتى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك للتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردماً) ، أى : وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى ، يصدّقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ، لأن خبر اثنين أجمع في النفوس من خبر واحد ، ولهذا قال : (إني أخاف أن يكذبون) ، وقال محمد بن إسحاق : (ردماً يصدّقني) ، أى : بين لم منى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم ما لا يفهمون (٣) .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : (سنشد عضدك بأخيك) ، أى : سنقوى أمرك ، ونعزج جانتك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً مذكّراً . كما قال في الآية الأخرى : (قد أوتيت سورةك يا موسى (٤)) ، وقال تعالى : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً (٥)) ، ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه ، من موسى على هارون عليهما السلام فإنه شفع فيه حتى جعله نبياً ورسولاً معاً إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال في حق موسى : (وكان عند الله وجيباً (٦)) . وقوله تعالى : (ونجعل لك سلطاناً) ، أى : حجة قاهرة ، (فلا يصلون إليك بآياتنا) ، أى : لا سنبل لهم إلى الوصول إلى أئنا كما بسبب إبلانكم آيات الله ، كما قال الله تعالى : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك) إلى قوله : (والله يصمكم من الناس (٧)) . وقال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله ، وكفى بالله حصيماً (٨)) ، أى : وكفى بالله ناصرأ ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخبرهما أن العقاب هما ولن اتبعهما في الدنيا والأخرة ، فقال : (أنيا ومن اتبعكما الغالبون) ، كما قال تعالى : (كتب الله لأهلنا أنا ورسلي ، إن الله قوى عزيز (٩)) ، وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا يفع الظالمين معصنهم ، وهم اللذمة وهم سوء الناس (١٠)) .

وجه ابن جرير على أن المعنى (ونجعل لك سلطاناً فلا يصلون إليك) ، ثم يندىء فيقول : (بآياتنا أنيا ومن اتبعكما الغالبون) ، تقديره أنيا ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا (١١) .

(١) انظر ذلك في حديث الثور ، وقد تقدم ذلك في ٢٨٠/٥ .

(٢) سورة طه ، الآية ٣٢ - ٣٤ .

(٣) التفسير الطبري ٢٠/٤٧ .

(٤) سورة طه ، آية ٣٦ .

(٥) سورة مريم ، آية ٥١ .

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٦٩ .

(٧) سورة المائدة ، آية ٦٧ .

(٨) سورة الأحزاب ، آية ٣٩ .

(٩) سورة المجادلة ، آية ٢١ .

(١٠) سورة غافر ، آية ٥١ - ٥٢ .

(١١) قال الطبري ٢٠/٤٨ : « فالله في قوله (بآياتنا) من صلة و غالبون » ، ومعنى الكلام : أنيا ومن اتبعكما الغالبون في يوم وملاذ بآياتنا ، أى يحببنا وسلطاننا الذى نجعله لك » .

ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من الترجمة الأول ، فلا حاجة إلى هذا ، والله أعلم .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسْحَرُؤُنَا وَمَا هُمْ بِبَشَآئِرٍ إِلَّا فِي قُلُوبِنَا ۚ ﴿١٥﴾
وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ حَقِيقَةُ الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا يَمْلِكُ الْكَافِرُونَ ۚ ﴿١٦﴾

غير تعالى عن موسى وأخيه هارون إلى فرعون ملكه، وعرضه ما أتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة ، على صلتها فيما أخبر عن السحر وجل - من توحيده وإتباع أوامره - فلما علم فرعون ما علمه ذلك وشاعروا وتحققوا ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكرهم [وبغيرهم] إلى العناد والمباينة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن إتباع الحق ، فقالوا : (ما هذا إلا سحر مفزى) ، أى : مفتعل مصنوع : وأرادوا معارضة حقيقة وإلجاء ، فاصدق (١) معهم ذلك . وقوله : (وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين) ، يعنون عبادة الله وحده لا شريك له ، [يقولون] : ما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله كلمة أخرى : فقال موسى - عليه السلام - عبياً لهم : (والله أعلم بمن جاء بالمغدى من عبده) ، يعنى مؤمرا ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم ، ولهذا قال : (ومن يكون له هاتية النار) ، أى : النصره والظفر والتأييد ، (إنه لا يفلح الظالمون) ، أى : للشركان باء .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَانِي الْفُلُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَتَوْنِي عَلَى الْعُلَاقِ فَأَجْعَلُنِي فِي سَرَاحٍ لَّيَلَىٰ ۖ وَأَطْلُعْ إِلَيَّ إِلَهَهُ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَكْفُرُ مِنَّا الْكَافِرِينَ ۚ ﴿١٧﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۚ ﴿١٨﴾ فَأَعَدَّ لَهُ وَقُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ فَأَنظَرْنَاهُ فِي اللَّيْلِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۚ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَأْتِي وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۚ ﴿٢٠﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِنَعْلَمَ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ۚ ﴿٢١﴾

غير تعالى عن كثر فرعون وطغيانه وافتراءه في دعوى الألوهية لنفسه البهيمة - لهه الله - كما قال تعالى : (فاستخف قوم فأتاهوه إنهم كانوا قوما فاسقين) (٢) ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالألوهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ، ولهذا قال : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) ، قال تعالى إخباراً عنه : (ففسخ فنادى : فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يعشى) (٣) ، يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مضمراً لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين : ولهذا اتفق الله تعالى معه ، فبسطه صبرة لغيره في الدنيا والآخرة ، وحتى إنه ووجه موسى الكليم بذلك فقال : (لئن اختلفت إلى غيرى لأجعلنك من المسجونين) .

(١) لهه يعنى : ما نفقت معهم البينات .

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٥٤ .

(٣) سورة القصص ، الآيات : ٢٤ - ٢٦ .

وقوله : (فأرسل في يامان على الطبق : فاجعل لي صرحاً لعل أطلع إلى إله موسى) ، أي : أمر وزيره حامان ومدير وجهه وسفير دوله أن يرسل له على الطبق ، ليخبره أنه آتيتكم لبيان الصرح، وهو القصر للثبوت الرابع - كما قال في الآية الأخرى : (وقال فرعون : يامان، ابن لي صرحاً لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإلى لآله كائناً ، وكذلك زين فرعون سوء عمله ، وصعد من السيل، وما كيد فرعون إلا في هباء) (١) ، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم يَر في الدنيا بناء أعلى منه، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرحبته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ، ولهذا قال : (وإلى لآله من الكاذبين) ، أي : في قوله إن تسم رباً غيري ، لا أنه كتبه في أن الله أرسله ، لأنه لم يكن يتعرف بوجود الصانع ، فإنه قال : (وما وب الملقين) (٢) ؟ ، وقال : (لكن انخلت لها غيري لأجلك من السجورين) (٣) ، وقال : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) وهذا قول ابن جرير (٤) .

وقوله : (واستكبر هو وجنوده في الأرض بين الحق ، وظنوا أنهم ألينا لا يرجعون) ، أي : طغوا وتكبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك للمرصاد (٥) .

وهذا قال حاتم : (فاعلموا وجنوده نيلناهم في اليم) ، أي : أغرقناهم في البحر في صيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد . (فافتر كبت كان حاله الملقين . وجعلناهم أمة يحدون إلى النار) ، أي : إن سلك وراهم وأخذ بطريقهم ، في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ، (ويوم القيامة لا ينصرون) ، أي : فاجتمع عليهم خوى الدنيا موصولاً بذلك الآخرة ، كما قال (تعالى) (ألمعلكم فلا تفسرهم) (٦) .

وقوله : (وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة) ، أي : وشرح الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المؤمنين رسلاً، وكما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك (ويوم القيامة هم من الملقون) - كما قال لقادة : وعلمه الآية كقوله تعالى : (وأنبئوا في هذه لعنة يوم القيامة ، ينس الرد للرفود) (٧) .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَمَلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَاحِبِ النَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾

يُحِبُّ عَلَى مَا أَنَّهُمْ بِهِ عَلَى عَهْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمَ - عَلَيْهِ مِنْ ربه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ إِتْرَاكِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا أَمَلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ .

(١) سورة طه : آية ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة القصص : آية ٢٢ .

(٣) سورة القصص : آية ٢٩ .

(٤) تفسير الطبري ٥ : ٢٩ / ٤٩ .

(٥) سورة القصص : آية ١٣ - ١٤ .

(٦) سورة ص : آية ١٣ .

(٧) تفسير الطبري ٥ : ٢٥ / ٥٠ والآية من سورة هود : ٩٩ .

وقوله : (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) ، يعني : أنه بعد إنزال التوراة لم يصب أمة عبادة ، بل أمر المؤمنين أن يقتاتوا أجداد الله من المشركين ، كما قال : (وجاء فرعون ومن قبله والمترفكات بلطافة) . فعصوا رسول ربهم فاعلموا الحجة رابية (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالوا : حدثنا حوف ، عن أبي نصره ، عن أبي سعيد
الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بطلب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية
التي مسخوها قردة ، ثم لم أن الله يقول : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى (١٢))
ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث حوف بن أبي جميلة الأعرجي ، بنحوه . وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده ،
عن عمرو بن علي الفلاس ، عن يحيى القطان ، عن حوف ، عن أبي نصره ، عن أبي سعيد موقفا . ثم رواه عن نصر
ابن علي ، عن عبد الأعلى ، عن حوف ، عن أبي نصره ، عن أبي سعيد موقفا . قال :
ما أهلك الله قوماً بطلب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى ، ثم قرأ : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما
أهلكنا القرون الأولى) .

وقوله : (بصائر للناس) ، أى : من العمى والفقى ، (وهدى) إلى الحق ، (ورحمة) ، أى : إرشادا إلى الأحكام
الصالحة ، (لعلهم يتذكرون) ، أى : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

[illegible]

يقول تعالى منها على براهان نوبة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - حيث أنبر بالتيقيد الماضية ، خبراً كان سامعاً شاهد وركه لا تقدم ، وهو رجل أبى لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لا يخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى : (وما كنت للنبيم إلا بقول أقلامهم : أيهم يكمل مريم ؟ وما كنت للنبيم إلا بخصوص) (٣١) ، أي : ما كنت حاضرًا لذلك ، ولكن الله أوحى إليك ، وهكذا لا أخبر من لوح وقومه ، وما كان من إتياء الله له وإغراق قومه .

ثم قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين^(٤)) . وقال في آخر السورة : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك^(٥)) ، وقال بعد ذكر قصة يوسف :

(١) سورة الحاقة ، آية ٩ : ١٠ .

(٢) تقرير الطيري : ١٥٠/٢٠ .

(۳) سورة آل عمران ، آية : ۴۴ .

(٤) سورة هود ، آية : ٤٩ .

(٥) سورة هود ، آية : ١٥٥ .

(ذلك من أيام النبي لوجه إليك وما كنت إليهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يعكرون^(١)). وقال في سورة طه : (كذلك قصص طيوك من أيام ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً^(٢))، وقال هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إسماعيل عليه وتكليمه له : (وما كنت بجانب الفرق إذ قضيتا إلى موسى الأمر) ، يعني : يا محمد ما كنت بجانب ليل الفرق الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ، (وما كنت من الشاهدين) لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعل حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ، وتسوسوا حجاج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء للفقهاء .

وقوله : (وما كنت ثانياً في أهل مدين تنزل عليهم آياتنا) ، أي : وما كنت مقابلاً أهل مدين تنزل عليهم آياتنا ، حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ، (ولكننا كنا منسكين) ، أي : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، ولرسلناك للناس رسولا .

(وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) - قال أبو عبد الرحمن السبكي ، في التفسير من سننه : أخبرنا علي بن حمزة ، أخبرنا عيسى - وهو ابن يونس - عن حمزة الزيات ، عن الأعمش ، عن علي بن مدرك ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) ، قال : نودوا : يا أمة محمد ، أصليكم قبل أن تسألوني ، وأجيبتكم قبل أن تسألوني .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث جهاة ، عن حمزة - وهو ابن حبيب الزيات - عن الأعمش . ورواه ابن جرير من حديث وكيع^(٣) وعيسى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن علي بن مدرك ، عن أبي زرعة - وهو ابن عمرو بن جرير - أنه قال ذلك من كلامه ، والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) : أمثك في أصلاب آياتهم أن يؤمنوا بك إذا بعث . وقال قتادة : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى . و^(٤) - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : (وما كنت بجانب الفرق إذ قضيتا إلى موسى الأمر) .

ثم أخبر ما هنا بصيغة أخرى لخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى : (وإذ نادى ربك موسى^(٥)) ، وقال : (إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى^(٦)) ، وقال : (ونادياه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً^(٧)) . وقوله : (ولكن رحمة من ربك) ، أي : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به ، رحمة منه لك وبالباد بارسالك إليهم ، (تنزل قرماً ما أتاهم من نلير من قبلك لهم يذكرون) ، أي : لهم يتنزلون بما جئتهم به من الله عز وجل .

(١) سورة يوسف : آية : ١٠٢ .

(٢) سورة طه : آية : ٩٩ .

(٣) الذي وقع لنا في تفسير الطبري : ١/٢٥٠ . من حديث صفوان وعيسى بن عيسى .

(٤) سورة الشعراء : آية : ١٠ .

(٥) سورة النازعات : آية : ١٦ .

(٦) سورة مريم : آية : ٥٢ .

(ولولا أن تصيهم مصيبة بما قلعت أيهم فيقولوا: ربنا، لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين)، أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة وتقطع عنهم إذا جامعهم غلاب من الله بكفرهم، فيحجروا بأنهم لم يأثم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إزال كتابه المبارك وهو القرآن: (أن تقولوا: إننا نزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين، أو تقولوا: لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا لهدى منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة (١١))، وقال: (وسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (٢))، وقال تعالى: (يا أهل الكتاب، قد جاءكم رسولنا بين لكم على فرة من الرسل، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (٣))، والآيات في هذا كثيرة.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَّلُ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ ﴿١١﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ عَذَابِ هَؤُلَاءِ إِنْ هُمْ أَصْدَقُ مِنْهُمَا أَوْ يَتَّبِعُوا نَبِيَّهُمْ إِنْ هُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكَ الْغَنَىٰ وَالْغَنَىٰ أَنَّهُ لَا يَهْدِي مِنَ الْغَىٰ السَّابِقَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى خبراً عن القوم الذين لو حل بهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأثم رسول، أبى لا جامع الحق من عنده على لسان محمد صلوات الله وسلامه عليه قالوا على وجه التعت والتماد والكفر والجهل والإلحاد: (لولا أنزى مثل ما أنزى موسى، أو لم يكفروا بما أنزى موسى من قبل)، يعنون — والله أعلم — من الآيات الكثيرة، مثل النصا واليد، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وتنقص الأرواح والنياز، بما يشق على أعداء الله، وكفاح البحر وتظليل النعام، وإزال لمن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والجميع القادرة، التي أجزأها الله على يد موسى عليه السلام حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينسج في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لها: (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكنا الكبرياء في الأرض، وما نحن لكنا مؤمنين (٤))، وقال تعالى: (فكذبوها فكذبوا من اللذين (٥)). ولهذا قال هاتان: (أو لم يكفروا بما أنزى موسى من قبل)، أي: أو لم يكفروا بما أنزى موسى من تلك الآيات العظيمة (قالوا: ساحران (٧) تظاهرا)،

(١) سورة الأنعام، آية: ١٥٦، ١٥٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ١٩.

(٤) سورة يونس، آية: ٧٨.

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٤٨.

(٦) في تفسير الطبري ٢٠/٢٢: «أو لم يكفروا الذين عدوا هذه الهبة من اليهود، بما أنزى موسى من قبل؟»، هذا في اضطربة: «أو لم يكفروا بشير بما أنزى»، وللتب من الطبعات السابقة.

(٧) قالوا: ساحران، هذه قراءة الجمهور. وأما (سحران) فترجمة عبد الله، وزيد بن علي، والكلوبين. انظر

المعجم المحيط ٧/١٢٤، وتفسير الطبري ٢٠/٢٢.

أى تعاوناً ، وقالوا : إنا بكل كافرون ، أى : بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقابلة بين موسى وهارون ، حل ذكر أحدهما على الآخر ، كما قال الشاعر

فَمَا أَذْرَى إِذَا يَمَسَّتْ أَرْضَا • أُرِيدَ الْخَيْرَ إِلَيْهِمَا يَكُنَى (١)

أى : لما أدرى ألبنى الخير أو الشر ؟ قال مجاهد بن جبر : أسرت اليهود قريشاً أن يقولوا لحمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال الله : (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ، قالوا : ساحران تظاهرا) ، قال : بنى موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم (تظاهرا) ، أى : تعاونوا وتناصروا وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله : (ساحران) ، بنون موسى وهارون : وهذا قول جيد قوى ، والله أعلم .

وقال مسلم بن يسار : عن ابن عباس (قالوا : ساحران تظاهرا) ، بنى موسى ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهما - وهذا رواية عن الحسن البصري .

وقال الحسن : وقادة بنى عيسى ومحمداً - صلى الله عليهما وسلم - وهذا فيه بعد ، لأن عيسى لم يجر له ذكر هنا ، والله أعلم .

وأما من قرأ (سحران تظاهرا) ، فقال : حل بين أبي طلحة والوقوف ، عن ابن عباس : يعنون التوراة والقرآن : وكلما كان حاصم بلشتكى ، والسدى وحيد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر . وقال حكرمة : يعنون التوراة والإنجيل : وهو رواية عن أبي زرعة ، واختاره ابن جرير (٢) .

وقال الضعاف وقادة : الإنجيل والقرآن : والله سبحانه أعلم بالصواب : والظاهر على قراءة : (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن ، لأنه قال بعده : (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) ، وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن ، كما في قوله تعالى : (قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) إلى أن قال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) (٣) ، وقال في آخر السورة : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن) ، إلى أن قال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) ، فأنبأه واتقوا لعلكم ترجعون (٤) ، وقالت البجلي : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى (٥)) وقال ورقة بن نوفل هذا التاميم الذى أنزل على موسى : وقد علم بالضرورة للوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب للصلوة على أنبيائه أكل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو القرآن ، ويعد في الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران - عليه السلام - وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا

(١) تقدم البيت في تفسير سورة برآة ، الظفر ٢/٦١ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٠/٣٧٠ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٩١ ، ٩٢ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٥ .

(٥) سورة الأنعام : آية ٣٠ .

الذين هادوا والربانيون والأجبار بما استحقوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء (١) ، والإنجيل إنما نزل بها بالأنوار ومُحَلَّلًا لبعض ما حُرِّمَ على بني إسرائيل ، ولذا قال تعالى : قُلْ أَتُوبُوا بكتبكم من عند الله هو أهدى منها ، أي : أيها المتأخرون به الحق وتؤمنون به من الباطل :

قال الله تعالى : (فان لم يستجيبوا لك) ، أى : فان لم يجيبوك عما قلت لم ولم يتبعوا الحق ، (فاعلم انما يتبعون أهوامهم) ، أى : بلا دليل ولا حجة ، (ومن أضل ممن اتبع هواه بغيرهدى من الله) ، أى : بغير حجة مأثومة من كتاب الله ، (إن الله لا يهتدى القوم الظالمن) .

وقوله : (ولقد وصلنا لهم القول) ، قال مجاهد : فصلنا لهم القول .

وقال السلي : بينا لم نقول .

وقال قتادة : يقول تعالى : أَخْبَرْتُمْ كَيْفَ صُنِعَ مِنْ مَضَى وَكَيْفَ هُوَ صَائِعٌ ، (لعلهم يذكرون) (٢) :

قال جعاهد وغيره : (وصلنا لم) ، يعني قريشا . وعلمنا هو الظاهر ، لكن قال جاد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة ، عن قاعة - رقاعة هذا هو ابن قَرْظَةَ الْفُرْطَلِيِّ ، وجملة ابن منته : رقاعة بن سُمُوك ، خال صفية بنت حبي ، وهو الذي طُفِلَ قيمة بنت وهب إلى زوجها بمنه عبد الرحمن بن الزبير بن أُمّيا ، كلما ذكره ابن الأثير (٣) - قال : نزلت : (ولقد وصلناهم القول) في عشرة أنا أحصم . رواه ابن جرير (٤) وابن أبي حاتم من حديثه .

الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا قُلُوا إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيٌّ ۝ وَإِذَا بَلَغَ الْبُطْحُ مِنْ رَبِّكَ
إِنَّا كَانَ مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝ وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ أَمْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بَاصِدًا وَبَاطِلًا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ۝ وَإِنَّا
وَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَلَكِنْ نَعْلَمُ عَلَيْكَ رَبِّكَ رَبِّكَ

[illegible]

(١) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .

(۲) تفسیر الطبری : ۲۰/۵۵ .

(٣) المنظر أسد اللبابة ، الترجمة ١٩٩٠ ، ١٩٩٦ ، ٢/٢٢٨ ، ٢٣٢ ، كما انظر ترجمة عبد الرحمن بن الزبير ، وهي

• 117-0 117/7 : 77.7 Jd

(٤) تفسير الطبري: ٥٦/٧٠ -

(*) سورة البقرة الآية ١٧١ .

(۶) سورۃ آل عمران ، آیت : ۱۹۹ .

(٧) سورة الإسراء: آية ١٠٧ - ١٠٨

قسيين ورهيناً وأنهم لا يستكبرون : وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا ، آتنا فاكبتنا مع المشركين (١) »

قال سيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم : (يس والقرآن الحكيم) ، حتى ختمها ، فجعلوا يكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » وإذا يلى عليهم قالوا آتينا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) ، يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدون عظمين لله مستجيبين له »

قال الله : (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) ، أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ، ولهذا قال : (بما صبروا) ، أى : على اتباع الحق ، فان تبشم مثل هذا شديد على النفوس : وقد ورد في الصحيحين من حديث عامر الشامي ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن به ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فزوجهها » (٢) »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسماعيل السيليحي ، حدثنا ابن لهيعة ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إني لثمت راحلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم النتح ، فقال قولاً حسناً جميلاً ، وقال : ربنا قاله : من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ومن أسلم من للمشركين ، فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا (٣) »

وقوله (ويؤدون بالحسنة الميث) ، أى لا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يطفون ويصفحون : (وما رزقناهم ينفقون) ، أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من الصلوات ، وصلوات الليل والقرابات »

وقوله : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) ، أى : لا يخالطون أهله ولا يشارفونهم ، بل كما قال تعالى : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (٤) »

(وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتلى الجاهلين) ، أى : إذا سمعنا منهم سيئاً ، وكلمتهم بما لا يكتفى بهم الجواب عنه ، أعرضوا عنه ولم نقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب : ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتلى الجاهلين) ، أى : لا نريد طريق الجاهلين ولا تسبها »

(١) سورة المائدة : آية ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) البخاري ، كتاب العلم ، باب « تعلم الرجل أمه وأهله » ، ٢٥/١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس » ، وضع الملل بجملة : ٩٢/١ .

(٣) سنن الإمام أحمد : ٢٥٩/٥ ، وما بين القوسين عنه ، ونسبه سقط نظر .

(٤) سورة الفرقان : آية ٧٢ .

قال محمد بن إسماعيل في السيرة ، ثم قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة : فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوهم - ورجال من قريش في أنتيتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مسالة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره : فلما قاموا عنه اغترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : غيبيكم الله من ركب بهشكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لم تأتوهم غير الرجل ، فلم تظنن بحالكم عنده حتى غارقتم دينكم وصدقوه فيما قال ، ما نعلم ركباً أحق منكم : لو كما قالوا لهم : فقالوا : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نكال (١) أنفسنا خيراً .

قال : ويقال : إن النضر النضلى من أهل نجران فاته أعلم أى ذلك كان .

قال : ويقال - والله أعلم - إن فيهم ثلث هذه الآيات : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) إلى قوله : (لا يظن الجاهلین) ؛

قال : وقد سألت الزهري عن هذه الآيات فبين أنزلن ، قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن أنزلن في النجاشي وأصحابه ، رضى الله عنهم ، والآيات التي في سورة المائدة : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) إلى قوله : (فأكثبنا مع الظالمين) (٢) ؛

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٧٧﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَبِيُّ الْمَدْيَنَ مَعَكُمْ تَخْلُفُنَا أَرْضًا أَوْ لَرْتَمِكُنْ هُمْ حَرَمًا أَمْ أَبْجُجْنَا إِلَيْهِ عَمَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَرَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - : (إنك بالبعد لا تهدي من أحببت) ، أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء) (٣) . وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٤) .

وهذه الآية أخص من هداية كل ، فانه قال : (إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين) ، أى : هو أعلم عن يستحق الهداية ممن يستحق العزوبة ، وقد ثبت في الصحيحين (٥) أنها نزلت في أبي طالب

(١) أى : لم نزل لطلب أنفسنا خيراً .

(٢) سيرة ابن هشام ، غير . وقد للنصارى الذين أسلموا ٣٩٢/١ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

(٤) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .

(٥) انظر البخارى ، تفسير سورة القصص : ١٤١/٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : أول الإيمان ، قول : لا إله إلا الله ، ١/٤٠٥ .

حَمَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ كَانَ يَحْمِلُهُ وَيَتَصَرَّه ، وَيَقُومُ فِي مَقْعِهِ وَيَجِبُهُ جِبًا طَلِبًا لَا شَرْحًا ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْوَلَاةُ وَحَالَ لَيْلُهُ ، دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْإِيمَانِ وَالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَسَقِنَ الْقَدْرَ فِيهِ ، وَاخْتَلَفَ مِنْ يَدِهِ ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَقَدْ لَحِقَتْهُ النَّارُ ۝

قَالَ الزَّهْرِيُّ : حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ ، عَنْ أَبِيهِ - وَهُوَ الْمُسَيْبُ بْنُ حَزْرَنَ الْغَزَوِيُّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ : فَتَحَضَّرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَلَاةُ بِجَاهِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلَ بْنَ حِشَامٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ ابْنَ الْمُضَرَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يَاعَمُّ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَلِمَةُ أَشْهَدُ عَلَيْكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ : فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قُلْ : قَدْ يَزِلُّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِعَرَضِهَا عَلَيْهِ ، وَهَرْدَانِ لَهُ بِطَلْقِ لِقَائِهِ ، حَتَّى قَالَ آخِرُ مَا قَالَ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَلِكِ : وَأَبُو أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَمَّا لَأَسْتَفِرَّنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ هُنَاكَ : فَأَتَى اللَّهُ حَزْرَجًا : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قَرْبَى) ، وَأَتَى فِي أَبِي طَالِبٍ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَسَیْبَتْ) ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (١) ۝

لَمَرْجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ (٢) ۝ وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ الْوَلَاةُ أَبِي طَالِبٍ أَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : يَا صَدِّيقُ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ عَلَيْكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فَقَالَ : لَوْلَا أَنْ تُشِيرَنِي بِهَا قُرَيْشٌ ، يَقُولُونَ : مَا حَصَلَهُ عَلَيْهِ إِلَّا جَزَعٌ لَوَلَتْ ، لَا تَزُورُنَّ بِهَا هَيْكَلَهُ ، لَا تَقْرَأُ إِلَّا لَأَكْبَرُ بِهَا هَيْكَلَهُ : فَأَتَى اللَّهُ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَسَیْبَتْ) ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَّقِينَ) ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ غَرِيبٌ ، لَا نَحْنُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ (٣) ۝

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، عَنْ أَبِي يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، فَلَذَكَرَهُ بِهَذِهِ (٤) ۝

وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ حَرَمٍ ، وَبِجَاهِهِ ، وَالشَّعْبِيُّ ، وَكَثَادَةُ : (إِنَّمَا قَوْلُ فِي أَبِي طَالِبٍ حِينَ حَضَرَ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِنِّي عَلَيْهِ ذَلِكُ ، وَقَالَ : أَيُّ ابْنِ أُنْسَى ، مِلَّةَ الْأَخْيَاحِ : وَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَلِكِ ۝

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حِشَامَ بْنِ هُشَيْمٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي وَهَابٍ : قَالَ : كَانَ رَسُولُ قَيْسِرٍ جَاهِلِيًّا : كَتَبَ مَعِيَ قَيْسِرٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كِتَابًا ، فَأَتَيْتُهُ فَلَقِيتُ الْكُتَابَ ، فَوَضَعَهُ فِي حَبْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : عَيْنُ الرَّجُلِ ؟ قُلْتُ : مَنْ تَرَوُّجُ (٥) : قَالَ : هَلْ لَكَ فِي دِينِ أَبِيكَ

(١) تفسير الطبري ٥٩١/٢٠٠

(٢) البخاري ٥ باب قصة أبي طالب ٦٥٧ - ٦٦ ، ومسلم ٦٦ ، كتاب الإيمان ، باب أول الإيمان نوره ، ولا إله إلا الله ٤٠١/١

(٣) مسلم ٥ في الكتاب والباب المقتضين ٤١١/١ ، وتبعة الأحرف ٥ تفسير سورة القصص ، الحديث ٣٢٤١ ، ٤٦٩ - ٤٧٠ ، وقوله : لا نقول إلا لأمر بما هيته ، لم نجد في مسلم ، ولا الترمذي

(٤) سنة الإمام أحمد ٤٣٤/٢

(٥) الضميمة ٥ من ترويح ، وولدت من الطبقات السابقة

إبراهيم الخنيزية ؟ قلت : إني رسول قوم ، وعلى دينهم حتى أرجع إليهم : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر إلى أصحابه وقال : «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» .

وقوله : (وقالوا إن تبع للمدى ملك نتخطف من أرضنا) ، [يقول تعالى غيبراً عن اعتصار بعض الكفار في حلم اتباع المدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن تبع للمدى ملك نتخطف من أرضنا) ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من المدى ، وخالفتنا من حولنا من أحياء العرب للمشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمخاربة ، ويتخطفونا أيها كنا ، فقال الله تعالى غيبراً لهم : (أولم نمكن لهم حرمآ آمناً) ، يعنى ههنا الذى اعتصروا به كلب وباعل ، لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحترم معظم آمن مند وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وفكرهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابوا الحق ؟ .

وقوله : (يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ) ، [أى : من سائر الثمار مما حوله من الطائفت وغيره ، وكذلك المتجرى والأمتة] (ورزقاً من لدنا) ، أى : من عندنا ، (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا قالوا ما قالوا ،

وقد قال السامى : أنبأنا الحسن بن محمد ، حدثنا الساجع ، عن ابن جريج ، أخبرني ابن أبي مليكة قال : قال عمرو بن شعيب ، عن ابن عباس - ولم يسمه منه - : أن الحارث بن عاصم بن نوفل الذى قال : (إن تبع للمدى ملك نتخطفه من أرضنا (١)) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ يَتَّسِكُوا مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكَانَ الْوَارِثِينَ ﴿٥١﴾
وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا
عَالِيُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة فى قوله : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) ، أى : هلكت وأشربت وكفرت لعمرة الله ، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والشوف بما كانوا يصنعون : وقد جامع رسول منهم فكلبوه فأنعم المذاب وهم ظالمون (٢)) : ولهذا قال : (فذلك مسكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً) ، أى : كثرت ديارهم فلا ترى إلا مسكنهم .

وقوله : (وكنا نحن الوارثين) ، أى : رجعت هراباً ليس فيها أحد .

(١) أخرجه السيوطى فى الله المنتشر عن السامى وابن المنذر . انظر : ١٢٤/٥ .

(٢) التلح : آية : ١١٢ - ١١٣ .

(٣) دفر - من باهت فيه - : دوس ، والندوس : أن تهب الرياح على الخنزير فتضيق وسومه بالزلزل وتطيق بالشراب .

وقد ذكر ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سمع كعباً يقول لمرء إن سليمان - عليه السلام - قال لهما - يعني البرية - : مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم بسية من الجنة . قال : فمالك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله أفرق قوم نوح به : قال : فمالك لا تأوين إلا إلى الخراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله - عز وجل - ثم تلا : (وكنا نحن المرءتين)

ثم قال الله خبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولما قال : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها) - وهي مكة - (رسولاً ينزل عليهم آياتنا) ، فيه دلالة على أن النبي الأبي ، وهو محمد - صلوات الله وسلامه عليه - للمبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى من حرب وأصنام ، كما قال تعالى : (لننزل أم القرى ومن حولها) (١) ، وقال تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إنني رسول الله إليكم جميعاً) (٢) ، وقال : (لأنذركم به ومن بلغ) (٣) ، وقال : (ومن يختر به من الأحزاب فالنار موعده) (٤) . ونعم الدليل : (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو مملووها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) (٥) . فأشهر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : (وما كنا معلنين حتى نبعث رسولاً) . فجعل تعالى بعثة النبي الأبي شاملة لجميع القرى ، لأنمبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها . ولبت في الصحيحين عنه - صلوات الله وسلامه عليه - أنه قال : بهشت إلى الأخضر والأصفر (٦) ، ولما غنم به الرسالة والثبوة ، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة . وقيل : المراد بقوله : (حتى يبعث في أمها) ، أي : أصلها وعظمتها ، كما هي الراسية (٧) والأقاليم . كما هو الغرض من (٨) وابن الجوزي ، وغيرهما ، وليس يريد .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمِنَّهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ آمَنَ وَعَدْنَاهُ

وَعَدًا حَسَنًا فَمَا لَبِثَ قَوْمٌ مُنْكَرِينَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى خبراً عن حقارة الدنيا ، وما فيها من الرتبة الدنيا والزهرة القانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعم العظيم المقيم ، كما قال : (ما حثركم بقدر ما عند الله باق) (٩) ، وقال : (وما عند الله خير للأبرار) (١٠)

(١) سورة الشورى : آية ٧ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .

(٣) سورة الأنعام : آية ١٦٠ .

(٤) سورة هود : آية ١٠٠ .

(٥) سورة الإسراء : آية ٥٨ .

(٦) تقدم الحديث عنه تفسير الآية الثانية من سورة الفرقان ، وهرجه جلاله . انظر : ٣٧ - ٣٦/١ .

(٧) انظر تفسير هذه الكلمة في : ١٨٦/٥ ، ٣٠٠ .

(٨) انظر الكشاف : ٣٢٨/٢ ، وزاد للتفسير لابن الجوزي : ٢١٣/١ .

(٩) سورة النمل : آية ٩٦ .

(١٠) سورة آل عمران : آية ١٨٨ .

وقال : (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) (١) ، وقال : (بل تؤثرون الحياة الدنيا : والآخرة خير وأبقى) (٢) .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يَخْمِسُ أحَدُكُمْ إصبعه في المِمْ ، فليَنْظُرْ ما فيهِ »
يرجع إليه (٣) ؟

(أفلا يعقلون ؟) ، أي : أفلا يعقل مَنْ يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله : (أفن وعدناه وعداً حسناً فهو لآفئ ، كن متعاه متاع الحياة الدنيا ، ثم هو يوم القيامة من المحضرين)
يقول : أفن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة ، كن هو كافر مكذب
بما لله الله وعده ووعده ، فهو ينج في الحياة الدنيا أياماً قلائل ، (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) - قال حماد ،
وقناة : من للمحيطين ؟

ثم قد قيل : إنها ثلث في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي أبي جهل : وقيل : في حمزة وهل وفي جهل ،
وكلاهما عن مجاهد (٤) : والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى ليخبراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو في
الدرجات وذلك في السموات : (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) (٥) ، وقال تعالى : (ولقد علمت الجنة لهم
المحضرون) (٦) .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَدُونَ ﴿٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾
فَقَعَبْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَقَ أَن
يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى (خبراً) ما يورث به الكفار للمشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : (أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟)
أي : أين الآلة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو يتصرفون ؟ وهذا على

(١) سورة الفرق : آية ٢٦ .

(٢) سورة الأمل : آية ١٦ ، ١٧ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية السادسة والطريق مع سورة الفرق ، ورجله هناك ، الف : ٢٢٠ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٠ / ٦٦ .

(٥) سورة الصافات : آية ٥٧ .

(٦) سورة الصافات : آية ١٥٨ .

سبيل القريع والتهديد ، كما قال : (ولقد جئتمونا بآدى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم ورأه ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد قطع بينكم وصل عنكم ما كنتم ترجون (١)) .

وقوله : (قال الذين حق عليهم القول) ، يعنى من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ، (ربنا ، هؤلاء الذين أغويتنا أغويتهم كما غويتنا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ، فشهدوا عليهم أنهم أغوهم فأتبعوهم ، ثم تبرعوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم عباداً (٢)) ، وقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) (٣) ، وقال الخليل لقومه : (إنما اتخذتم من دون الله مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين (٤)) ، وقال الله : (إذ تراءى للذين اتبعوا من الذين اتبعوا . ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤنا منكم ، كذلك يرسم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار (٥)) . ولهذا قال : (وقيل : ادعوا شركاءكم) ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ، (فدعوه فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب) ، أى : وثبتوا أنهم صاروا إلى النار لا محالة .

وقوله : (لو أنهم كانوا يهتدون) ، أى : فردوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا . ولهذا كثره تعالى : (ويوم يقول : نادوا شركائى الذين زعمتم ، فدعوه فلم يستجيبوا لهم ، وجعلنا بينهم موبقاً . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً (٦)) .

وقوله : (ويوم يتنادى بعضهم لبعض : ماذا أجبتكم للمسلمين) ، النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمسلمين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فلما للؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه .. هاه (٧) ، لا أدرى . ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، ولهذا قال تعالى : (فسَمِعَ منهم الأثماء يومئذ فهم لا يستطيعون) .

وقال مجاهد : سمعت عليهم الحجيح ، فهم لا يستطيعون بالكسباب (٨) ،

(١) سورة الأنعام : آية : ٩٤ .

(٢) سورة مريم : آية : ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة الأحقاف : آية : ٥ ، ٦ .

(٤) سورة التكهوت : آية : ٢٥ .

(٥) سورة البقرة : آية : ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٦) سورة الكهف : آية : ٥٢ ، ٥٣ .

(٧) قال ابن الأثير في النهاية : وفى حديث جندب القبر (هاه هاه) ، هاه كلمة تقال في الإبهام ، وفى حكاية الفسك : رتد فقال فترجح ، فتكون الهاء الأولى مهدلة من حمزة واء ، وهو الألف المقام هذا الحديث ، يقال : تأوه وجره ، آهة وهاجة .

(٨) تفسير الطبري : ٢٠ ، ٦٢ .

وقوله : (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً) ، أى : فى الدنيا ، (فعسى أن يكون من المقبلين) ، أى : يوم القيامة ،
و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومآلاً لا محالة :

وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٣٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾

غير تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب فقال : (وربك خلق ما يشاء ويختار) ،
أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خبرها بشرها بيده ، ومرجعها إليه .
وقوله : (ما كان لهم الخيرة) ، نفى على أصح القولين ، بقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله
ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (٢) .

وقد اختار ابن جرير أن (ما) هاهنا بمعنى « الذى » ، لتقليده : ويختار الذى لم فيه خيرة (٣) . وقد احتج بهذا للمساك
طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأسلمح . والصحيح أنها نافية ، كما نقله ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس وغيره أيضاً ،
فإن المقام فى بيان انفراد تعالى بالخلق والتشريع والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ، ولهذا قال : (سبحانه الله وتعالى
عما يشركون) ، أى : من الأصنام والأنداد ، إلى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) ، أى : يعلم لما تكن (٤) الضمائر ، وما تتطوى عليه السرائر ،
كما يعلم ما تبدىه الظواهر من سائر الخلائق ، (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارِب
بالنهار) (٥) :

وقوله : (وهو الله لا إله إلا هو) ، أى : هو المنفرد بالإلوهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ، (له الحمد
فى الأولى والآخرة) ، أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعنله وحكمته (وله الحكم) ، أى : الذى لا معقب له ،
لنقهره وغلبته وحكمته ورحمته ، (وإليه ترجعون) ، أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله ، من خير وشر ،
ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال ،

(١) المذنبات من الأعمال .

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٣٦ .

(٣) النظر تفسير الطبرى : ٦٤/٢٠ - ٦٥ .

(٤) ما بين القوسين من الكلمات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « مكتبة » .

(٥) سورة الرعد ، آية ١٥ .

قُلْ لِّمَن لَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَقُّ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ نَارَ سَمُودَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بَضْبًا ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾
قُلْ لِّمَن لَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَقُّ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ نَارَ سَمُودَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بَضْبًا ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ فِيهِ
أَفَلَا تَهْتَفُونَ ﴿٦٢﴾ وَمِنْ دَحْمِيَّةٍ جَعَلَ لَكُمْ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى مختاراً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار ، اللذين لا تقوم لهم بدونهما : وبين أنه لو جعل الليل دائماً
عليهم سمرماً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولشغته النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى : (من إله غير الله
يأتيكم بضباء) ، أي : يصرون به وتستأنسون بيبه ، (أفلا تسمعون ؟)

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سمرماً دائماً مستمراً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولشغبت الأبدان وكلت من كثرة
الحركات والأشغال : ولهذا قال : (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكونون فيه) ، أي : تسريحون من حركاتكم وأشغالكم ،
(أفلا تهترون ؟ - ومن رحمته) ، أي : بكم (جعل لكم الليل والنهار) ، أي : خلق هذا وهذا ، (لتسكنوا فيه) ، أي :
في الليل ، (ولتبتغوا من فضله) ، أي : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف
والنشر (١) .

وقوله (ولعلكم تشكرون) ، أي : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه
بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً لئن أراد أن يذرك أولياد
شكوراً (٢)) ، والآيات في هذا كثيرة .

لَسَمِعْتُمْ يُنَادِيهِمْ يَقُولُ آيَنُ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٤﴾ وَزَعَيْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلَبُوا
لَئِنْ أَخَذَ اللَّهُ وَضْلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٦٥﴾

وهذا أيضاً نداء على سبيل التفريق والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب - تبارك وتعالى - على دعوس
الأشهاد فيقول : (آيَنُ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) ، أي : في الدار الدنيا .

(وتزعينا من كل أمة شهيداً) ، قال مجاهد : يعني رسولا : (قلنا : هاتوا برهانكم) ، أي : على صحة ما ادعيتوه
من أن الله شركاء ، (فعلبوا أن الحق قد) ، أي : لا إله غيره ، أي : فلم ينطقوا ولم (يبرهوا) جواباً ، (وضل عنهم ما كانوا
يفترون) ، أي : ذهبوا فلم يفتروهم ؟

(١) اللف والنشر : هو ذكر متعده على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين . ثقة بأه
الصالح يردده .

(٢) سورة الفرقان : آية : ٦٣ .

(٣) في المظومة : ولا يبرهوا ، فاستبدلنا ولا ، لم ، لستم السالك ، ولم يبرهوا ، لم يبرهوا ولم يردوا .

﴿١﴾ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَدَمِ مُوسَى فَبَيَّنَ عَلَيْهِمْ وَأَعْيَنَهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِيحَهُ لَتُنَوَّى بِالْعَصْبَةِ أُولَى
لِلْفُتُورِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٢﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّلَالَةَ إِلَىٰ آخِرَةِ وَلَا تَسْ
تَعِيبْكَ مِنَ الْإِنْتِبَآءِ وَاجْعَلْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣﴾

قال الأعشى ، من المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبلة ، عن ابن عباس قال : (إن قارون كان من قوم موسى) ،
قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخعي ، وعبد الله بن الحارث بن توفل ، وسماك بن حرب ، وقاعدة ، ومالك
ابن دينار ، وابن جريج ، وغيرهم ؛ أنه كان ابن عم موسى عليه السلام ؛

قال ابن جريج ، هو قارون بن بصهر (١) بن قاهث (٢) ، وموسى بن عمران بن قاهث ؛

وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى عليه السلام ؛

قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه (٣) ، والله أعلم ؛

وقال قاعدة بن دحمة : كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى ، وكان يسمى للنور لحسن صوره بالقوراء ؛ ولكن حدث
الله نافي كما نافي السامري ، فأهلكه البني لكثرة ماله ؛

وقال شهر بن حوشب . زاد في ثيابه شبرا طولا ، ترفعا على قومه .

وقوله : (وأنبأه من الكتوز) ، أي : الأموال (ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ، أي : لتبطل حسنها
الفسام (٤) من الناس لكثرتها .

قال الأعشى ، عن خزيمة : كانت مفاتيح كتوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الإصبع ، كل مفتاح حل خزنة
على حذته ، فإذا وكب حُملت على ستين بطلاً آخر (٥) محجلا . وقيل : خبر ذلك ، والله أعلم ؛

وقوله : (إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) ، أي : وعظه فبا هو فيه صلحو قومه ، وقالوا على سبيل
النصح والإرشاد : لا تفرح بما آتت فيه ، يمتنون لا تبطل بما آتت فيه من الأموال ، (إن الله لا يحب الفرحين) .

قال ابن عباس : يعني المرحين . وقال مجاهد : يعني الأشرار الباطنين ، الذين لا يشكرون الله على ما أحاطهم ؛

(١) كلما في غمرة الأثر ، وعظه في تفسير الطبري : ٦٧/٢٠ . وفي جملة أنساب العجم لابن حزم ٥٥٤ .
« بن يساهر » ، قال السيد الملق : « في سفر الخروج : يساهر ، بكسر الهمزة ، وعند ابن خلدون : « ليسهر » .

(٢) في الجوهرة : « قاهث » .

(٣) تفسير الطبري : ٦٧/٢٠ .

(٤) الفقام : الجاهات .

(٥) تفسير الطبري : ٦٨/٢٠ . هذا وقد ذكرت الآية أن مفاتيح خزائن قارون تنوء بالعصبة أولى القوة ؛ لما ما ذكره
الأعشى لنبالة من مالهات أهل الكتاب .

وقوله : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنسبة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة ، (ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، أى : بما أباح الله فيها من المأكول والمشروب والملابس والمساكن والمتاع ، فان لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك^(١) عليك حقاً ، قالت كل ذى حق حقه .

(وأحسن كما أحسن الله إليك) ، أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، (ولا تبغ الفساد فى الأرض) ، أى : لا تكن منك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض ، وتبىء إلى خلق الله ، (إن الله لاحب للمسلمين) .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى خبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشوه إلى الخير ، (قال : إنما أوتيته على علم هنىء) ، أى : أنا لا ألتفت إلى ما تقولون ، فان الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، وخبته لى فتقديره : إنما أعطيته لعم الله فى أنى أهل له ، وهذا كقول تعالى : (فلما مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولنا نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم) (٢) : [أى : على علم من الله] ، ويقول تعالى : (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لى^(٣)) ، أى : هذا أستحقه .

وقد روى من بعضهم أنه أراد : (إنما أوتيته على علم هنىء) ، أى : إنه كان يعانى علم الكيمياء ، وهذا القول ضعيف ، لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل ، لأنقلب الأعيان لا يقدر أحدها على إلا الله عز وجل ، قال الله : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له^(٤)) ، وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله تعالى : ومن أعلم من ذهب يخلق كخلى ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة^(٥) : وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون خلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى ، هذا زور وعال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهو كذب وزغل^(٦) وتحميه ، وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر ، وليس كذلك قطعاً لا محالة ، ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاطونها لآله الجاهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجربه المستعالمون من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهاباً أو فوضة أو نحو ذلك ، فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يرد مؤمن ، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات

(١) الزور - يفتح فسكون - الزائر .

(٢) سورة الزمر : آية ٤٩ .

(٣) سورة فصلت : آية ٥٠ .

(٤) سورة الحج : آية ٧٣ .

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثالثة والستين من سورة الحج ، وعرجناه هناك . انظر : ٤٥٠/٥ .

(٦) كذا ، ولها من علمية أهل الشام .

وإنما حلنا من مشيئة ربه الأرض والسموات، واختياره ونفعه، كما روى عن حنيفة بن شريح المصري رحمه الله أنه سأله سائل، فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته، فأنط حصة من الأرض فأجلاها (١) في كفه، ثم أقامها إلى ذلك السائل فلما هي ذهب أحمر، والأحاديث والآثار كثيرة جداً يطول ذكرها.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فلما الله به، فحبوك (٢) بسية؛ والصحيح للمعنى الأول؛ ولما قال الله تعالى: وأما عليه فيا ادعاه من احتواء الله به فيا أعطاه من المال: (أولم يعلم أن الله قد أحلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً)؛ أي: قد كان من هو أكثر منه مالا ومكان ذلك من حية مثله، وقد أحلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولما قال: (ولا يسل عن ذنوبهم المجرمون)، أي: لكثرة ذنوبهم.

قال قتادة: (على علم حننى)، على غير حننى.

وقال السدى: (على علم أني أعلم للملك).

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: (قال إنما أنوبه على علم حننى) قال: لولا رضا الله حنى، ومعرفة بغض ما أصطفى حلنا لئلا، وقرأ: (أولم يعلم أن الله قد أحلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً)، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون (٣).

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُمْ لَغَوْظٌ عَنَّا وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٤)

يقول تعالى خبراً عن قارون: أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وبجمل ياهر، من مراكبه وملايين عليه وعلى خلعهم وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويحيل إلى زخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه للظوظ عظيم، أي: ذو حظ وافر من الدنيا؛ فلما سمع مقاتلتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: (ويلكم: ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً)، أي: جواه الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون.

كما في الحديث الصحيح: يقول الله تعالى: أعددت لبيادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقروا إن شئتم: (فلا تعلم نفس ما ألقى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (٥)، وقوله: (ولا يلقاها إلا الصابرون)، قال السدى: وما يلي الجنة إلا الصابرون، كأنه جعل ذلك من تمام كلام

(١) أنه: أداها.

(٢) أي: كثر ماله.

(٣) تفسير الطبري: ٧٢/٢٥.

(٤) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ١٧٦/٩، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: أنه أهل الجنة منزلة: ١٢١/١. وما بين القوسين من الكلمات للبيان.

للذين أتوا العلم : قال ابن جرير : وما يأتي هذه الكلمة (١) إلا الصابرون من عبدة الدنيا ، الرافضون في الدار الآخرة .
وكانه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله - عز وجل - وإخباره بذلك :

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كُنَّا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٥١﴾
وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآفُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْقِ لِمَنْ يَسَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ
يَهِيَ اللَّهُ عَلَيْنَا تَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآفُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴿٥٢﴾

١٤ ذكر - تعالى - انخيل قارون في زبته ، وفخره على قومه وبنيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره
الأرض ، كما ثبت في الصحيح - عند البخاري من حديث الزهري ، عن سلم - أن أباه حدثه : أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : بينا رجل يمر لزاره إذ خُسِفَ به ، فهو يتجملجلى في الأرض إلى يوم القيامة (٢) :

ثم رواه من حديث جرير بن زيد ، عن سلم عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، نحوه (٣) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن يسحاق أبو المغيرة القاص ، حدثنا الأعشى ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج في بردين أنضرين يخال فيهما ، أمر الله الأرض
فأخطلت ، فإنه ليتجملجلى فيها إلى يوم القيامة (٤) . فردد به أحمد ، وإسناده حسن :

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا أبو يعلى بن منصور ، أنبأني حمد بن مسلم ، سمعت زيادا
القمي يحدث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بينا رجل فيمن كان قبلكم
خرج في بردين فأخطل فيهما ، فأمر الله الأرض فأخطلت ، فهو يتجملجلى فيها إلى يوم القيامة :

وقد ذكر محمد بن المنذر - (شكر) - (٥) في كتاب الصحابة الثرية بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شاباً في
مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله ونعامة وجهه ، فقال : مالك تنظر إلى ؟ قلت : أعجب من جماله
وكماله . قال : إن الله ليعجب مني . قال : فما زال يفتنى ويقتنى حتى صار بطول الشعر ، فأخذه بعض قريته في كفه
ونقب (٦) .

(١) قال البكري ٧٣/٢٠ - ٧٤ : « يقول : ولا يلقاها ، أي : ولا يوفق لتقبل هذه الكلمة ، وهي : (لواي الله خير
من آبن وحمل صاعاً) ، والماء والألف كتابية عن الكلمة ... » .

(٢) البخاري ، كتاب اللباس ، باب : من جر ثوبه من الخلاء : ١٨٣/٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٠/٣ .

(٤) شكر - بفتح الشين المسجدة - وبالكاف مشددة - : لقب محمد بن المنذر المروزي . انظر المشيخة للحلي : ٣٦٣ ،
والعبير له أيضاً : ١٢٦/٢ .

(٥) ما كان أمير المفسر من إيراد هذه القصة ، فإن لها من الهائلة والإفراق في الخيال ما لا يقدر ؟

وقد ذكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبي الله موسى عليه السلام : واختطف في سبيته ، فمن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بتسماً مالا على أن تبته موسى بحضرة للملأ من بني إسرائيل ، وهو قائم فيهم ينلو عليهم كتاب الله ، فتول قارون ، ياموسى ، إنك فعلت في كذا وكذا . فلما قالت في الملأ ذلك لموسى - عليه السلام - أرعبت من الفرق ، وأقبل عليها وصلى وكنتين ثم قال : أشدك بالله الذى فرق البحر ، وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لا أنجيتنى بالذى حملك على ماقلت ؟ فقالت : أما إذ تشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا ، على أن أقول لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه . فمت ذلك عمر موسى - عز وجل - ساجداً ، وسأل الله في قارون : فأرح الله إليه أتى قد أمرت الأرض أن تعطيك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبلعه وداره فكان ذلك (١) .

وقيل : إن قارون لما خرج على قومه في زينة تلك ، وهو راكب على البغال الشهية ، وعليه وعلى خدمه الثياب الأرجوان الصبغة ، فر في جسدك ذلك على مجلس نبي الله موسى - عليه السلام - وهو يذكرهم بأيام الله : فلما رأى الناس قارون انصرف وجوه الناس حوله ، ينظرون إلى ما هو فيه : فدهما موسى - عليه السلام - وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ياموسى ، أما لئن كنت فضلت حكمى بالنبوة ، فلقد فضلت عليك بالنبوة ، ولئن شئت لتخرجن ، فتدعون على وأدعي عليك . فخرج وخرج قارون في قومه ، فقال موسى : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : بل أنا أدعو : فلما قارون فلم يجهله ، ثم قال موسى : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم ، أمر الأرض أن تعطيك اليوم : فأوحى الله إليه أتى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض ، خنهم . فأنزلهم إلى أقدامهم : ثم قال : خنهم : فأخسهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم . ثم قال : أثقل بكنوزهم وأموالهم . قال ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها . ثم أشار موسى بيده فقال : اخبروا بنى لارى (٢) فاستوت بهم الأرض .

وعن ابن عباس أنه قال : خسب بهم إلى الأرض السابعة .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه خسف بهم كل يوم قامة ، (فهم) يتجلبون فيها إلى يوم القيامة (٣) .

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات أضربنا عنها صفحاً .

وقوله : (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المتصدين) ، أى : ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا أخذه وحشمه . ولا دفعوا عنه قمة الله وعلمابه ونكاله (ولا كان هو في نفسه متصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره) .

وقوله تعالى : (وأصبح اللين نمتوا مكانه بالأمس) ، أى : الذين لا رؤه في زينة (قالوا) : باليت لنا مثل ما أوقن قارون إنه للو حظ عظيم) ، فلما خسف به (أصبحوا يقولون : (ويكان الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) ، أى : ليس للملأ بدال على رضا الله من صاحبه ، فإن الله يعطى ويعتق ، ويضيق ويوسع ، (ويخفف ويضيق) ، وله الحكمة التامة

(١) انظر تفسير الطبري ٧٥/٢٠ - ٧٦ .

(٢) لارى من رله إسرائيل عليه السلام . انظر جبهة أنساب العرب لابن حزم : ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٣) تفسير الطبري : ٧٦/٢٠ .

والحجة البالغة : وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطي المال من حيث ، ومن لا يحب » ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (١) :

(ولا أن من الله علينا نصف بنا) ، أي : لا نلطف الله بنا وإحسانه إلينا نصف بنا ، كما خصف به ، لا لا ودده أن نكون مثله .

(ويكأنه لا يفلح الكافرون) ، يتوهم أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى : (ويكأن) ، فقال بعضهم : معناها : «ويكأن أعلم أن» ، ولكن ضعفت قليل ؛ ويك ، وحل فتح ، وأنه على حلف ، وهذا القول ضعفه ابن جرير (٢) ، والظاهر أنه قوي ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «ويكأن» ، والكتابة أمر وضعي اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى ، والله أعلم :

وقيل : معناها ويكأن ، أي : ألم تر أن ، قاله قتادة . وقيل : معناها «وى كان» ، فصلها وجعل حرف «وى» تنجيبة أول تنبيه ، وكان معنى أنن وأحسب . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة : إنها معنى : ألم تر أن ، واستشهد بقوله للشاعر (٣) :

سألتك أن تطلق أن رأيتك قل ما فى ، قد جئتكم بنكر
ويكأن من يكن له تشب ينح وب ، ومن يقهر يقهر عيش عزير (٤)

هَذَا الْبَارِ الْآخِرَةُ لِيُذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أَفْضَلُ حِمْمَتَهَا وَمَنْ جَاءَ بِالْأَسْفَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يُضِرُّ تَعَالَى أَنْ الْبَارِ الْآخِرَةُ وَتُعْجِبَتِهَا الْمُتَّقِينَ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ، جعلها بعد العبادتين لخصائص ، الذين لا يريدون علوًا في الأرض ، أي : رفعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم ، ولا فسادًا فيهم . كما قال عكرمة : العلو : التجبر ؛ وقال سديد بن جبير : العلو : البغي :

وقال سفيان بن سعيد القوري ، من منصور ، عن مسلم الطيلاني : العلو في الأرض : التكبر بقهر حق . والقصاد : أخذ المال بقهر حق (٥) .

(١) مسند الإمام أحمد ٢ : ٣٨٧/١ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠ : ٧٧/٢٠ .

(٣) هو زيد بن عمرو بن نفيل ، وقيل غيره . والبيتان من شواهد الكتاب : ٢٩٠/١ ، ٢٩٠/٢ ، ١٧٠/٢ . وسألت القرآن لقراء : ٣١٢/٢ . والبحر المحيط لأبي حيان : ١٣٥/٧ ، والخصائص لابن جني ٢١/٣ ، ١٦٩ ، وشرح المفصل لابن عيسى : ٧٦/٤ ، وشرح شواهد الشافعية ٢٣٩/٤ ، والخازنة ٩٠/٢ ، ٩٦ ، ومعنى اليباب لابن هشام : الشاهد ٩٨٩ ، ٩٠٩/١ ط . بيروت .

(٤) تفسير الطبري ٢٠ : ٧٧/٢٠ .

(٥) تفسير الطبري ٢٠ : ٧٥/٢٥ .

وقال ابن جرير : (لا يريدون علواً في الأرض) ، تعظماً وتجبراً ، (ولا لئساداً) : علواً بالماضي .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، عن أشعث السلمي ، عن أبي سلام (١) الأحمري ، عن علي بن كنان : إن الرجل ليسبح من شركه تله أن يكون أجود من شركه صاحبه ، فيدخل في قوله : (تلك النار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا لئساداً ، والجمالية للمتقين) .

وهذا محمول على ما إذا أراد التفرخ على غيره ، (فان ذلك معلوم) ، كما ثبت في الصحيح ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أوحى إلى أن تراضعوا ، حتى لا يفتخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد (٢) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرده التجميل لهذا لباس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ولعل حسنة ، أفن الكبر ذلك ؟ قال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال (٣) .

وقال : (من جاء بالحسنة) ، أي : يوم القيامة (فله خير منها) ، أي : ثواب الله خير من حسنة المهد ، فكيف والله يشاءه أضعافاً كثيرة فهذا مقام الفضل .

ثم قال : (ومن جاء بالسيرة فلا يجزي الذين حلوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) ، كما قال في الآية الأخرى : (ومن جاء بالسيرة فكيف وجوههم في النار ، هل يجزون إلا ما كنتم تعملون) (٤) وهذا مقام الفصل العكس .

إِنَّ أَلَيْسَ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرُدِّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ ضَلُّابِلِي مَبِينٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنَّ يَأْتِيَكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ عَابِدِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنزَلَتْ إِلَيْكَ وَادَّعَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْشَرِكِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا فَتَكُونَ مِنَ الْإِلَٰهَاتِ الْفُتَرِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى أمراً رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — يبلغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، وغيرها له بأنه صيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استراحه من أجهال التوبة ، ولهذا قال : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ، أي : افترض عليك أداعه إلى الناس ، (لرادك إلى معاد) ، أي : إلى يوم القيامة فسألك عن ذلك ، كما

(١) في تفسير الطبري : ٧٩/٢٠ : عن أبي سلام .

(٢) مسلم ، كتاب البينة ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار : ١٦١/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : في التواضع : ٤٨٩٥ : الحديث ٢٧٤/٤ : وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب : البرادة من التكبر والتواضع الحديث ١٣٩٩/٢ : ١٣٩٩/٢ .

هذا وما بين القوسين من التعليقات السابقة .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : تحريم التكبر ويأله : ٦٥/١ . وصند الإمام أحمد عن أبي فضالة : ١٣٢٤/٤ : ١٣٥ .

(٤) سورة النمل : آية ٩٥ .

قال تعالى : ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَأْتِيَنَّ لِلرَّسُولِ ﴾ (١) ، وقال : (يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أُجِيتُمْ) (٢) و (جاء بالنيب والشفهاء) (٣) ۝

وقال السدي عن أبي صالح ، عن ابن عباس : (إن الذي فرض عليك القرآن لراذك إلى معاد) ، يقول : لراذك إلى الجنة ، ثم مالهك عن القرآن . قال السدي : وقال أبو سعيد مثله (٤) .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : (لراذك إلى معاد) ، قال : إلى يوم القيامة : ورواه مالك ، عن الزهري ۝

وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبلة ، عن ابن عباس : (لراذك إلى معاد) ، إلى الموت (٥) ۝
ولهذا طريق عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفي بعضها : لراذك إلى معذتك من الجنة .

وقال جاهد : يحكيك يوم القيامة . وكلما روى عن عكرمة ، وعطاء ، وسعيد بن جبر ، وأبي قزعة (٦) ، وأبي مالك ، وأبي صالح ۝

وقال الحسن البصري : أي والله ، إن له لمعاداً ، يبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة ۝

وقد روى عن ابن عباس خبر ذلك ، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه :

حدثنا محمد بن مقاتل ، أثبانا يعل ، حدثنا سفيان الثوري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (لراذك إلى معاد) ، قال : إلى مكة (٧) ۝

وهكذا رواه النسائي في تفسيره عنه ، وابن جرير من حديث يعل - وهو ابن عبيد الطائفي - (٨) به . وهكذا روى العوفي ، عن ابن عباس : (لراذك إلى معاد) ، أي : لراذك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقال محمد بن إسحاق ، عن جاهد في قوله : (لراذك إلى معاد) ، إلى مولئك مكة :

قال ابن أبي حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبر ، وعطية ، والضحك ، نحو ذلك ۝

(١) سورة الأعراف : آية : ٦ .

(٢) سورة المائدة : آية : ١٠٩ ۝

(٣) سورة الزمر : آية : ٦٩ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٩/٢٠ .

(٥) تفسير الطبري : ٨٠/٢٠ .

(٦) أبو قزعة هو سعيد بن حبيب بن بيان الباهلي . روى عن أنس بن مالك ، وعنه ابن جريج وشعبة . ثقة . انظر التهذيب : ٢٧١/٤ ۝

(٧) البخاري ، تفسير سورة القصص : ١٤٢/٦ ۝

(٨) تفسير الطبري : ٨٠/٢٠ ۝

وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي هريرة قال : قال سفيان الثوري رحمه الله : سمعت من مقاتل بن سليمان سعة ، من الضحك (١) قال : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة ، فأول الله عليه : (إن النسي فرض عليك القرآن فإداك إلى معاد) إلى مكة

وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان يجمع السورة مكيًا ، والله أعلم .
وقد قال عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن قتادة في قوله : (اركب إلى معاد) ، قال : حله ما كان ابن عباس !
يكتمها ، وقد روى ابن جني حاتم بسنده عن نعيم القاري أنه قال في قوله : (اركب إلى معاد) ، قال : إلى بيت للنعيم ،
وهنا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فسر ذلك يوم القيامة ، لأن بيت للنعيم هو أرض المحشر والنشر ، والله
الوديع للصواب

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك ثلثة بروجعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس إشارة على اقتراب أجله - صلوات الله وسلامه عليه - كما فسره ابن عباس بسورة (إذا جاء نصر الله والفتح . ودأبت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا) . أنه أجكَلُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نُسِي إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم : ولعلنا فسر ابن عباس ثلثة أخرى قوله : (لرائدك إلى مباد) بالوت ، وثالثة يوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وثالثة بالجنة التى هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى القليلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأصنع خلق الله وأشرف ، خلق الله على الإطلاق ؛

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَأَيْتُمْ جَاءَ الْبَشَرُ مِنْ دُونِ الْبَلَدِ ﴾ ، أى : قل - لمن عاينك وكلبك يا محمد . فقولك من اللشركين ومن يهيم على كفرهم - قل : رب أعلم باللهيتى منكم وفى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الضر ، ومن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى ملئكم الله من رحمته وبهجة من رحمته عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ، (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) ،
 أي : ما كنت تظن قبل إتيان الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ، (ولكن رحمة من ربك) ، أي : إنا نازل الوحي
 عليك من الله من رحمته وبك والعباد يسبيح ، فإذا منحك هذه النعمة العظيمة (فلا تكونن ظهيرا) ، أي : معينا (للكافرين) ،
 ولكن فارهم وتألبهم وخالقهم .

(ولا يصليتك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) ، أى : لا تتأثر بخالفهم لك واصلهم الناس عن طريقك ، لا تولى على خلقك ولا تتباه ، فإن الله مهمل كلمتك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلت به على سائر الأديان ، ولهذا قال : (وادع إلى ربك) ، أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، (ولا تكون من المشركين) :

وقوله : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو) ، أي : لا تلتحق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لمخلقه .

وقوله : (كل شيء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقي الخالق القيوم ، الذي تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : (كل من عليها فان • ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) ، فسر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هائلا : (كل شيء هالك إلا وجهه) ، أي : إلا إياه :

وقد ثبت في الصحيح ، من طريق ابن سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أصدق كلمة قلها الشاعر : كلمة لا يموت» (٢) .

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل (٣) .

وقال مجاهد والثوري في قوله : (كل شيء هالك إلا وجهه) أي : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاها البخاري في صحيحه كالتقريب له :

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقوله الشاعر (٤) :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَلَّتْ مُنْجِيَّتُهُ رَبِّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الرَّجْعُ وَالْعَمَلُ (٥) .

ومنا القول لا يمانى القول الأول ، فإن هنا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله عز وجل . من الأعمال الصالحة المطابقة للشرعية : والقول الأول مقتضاه أن كل النواتق فانية وهالكة وزائلة إلا ذاتها - تعالى - فانه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء :

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتابه «التفكير والاعتبار» : حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الليثي ، حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتي لغربة فيقف على بابها ، فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : (كل شيء هالك إلا وجهه) .

وقوله : (له الحكم) ، أي : الملك والتصرف ، ولا منقب لحكمه ، (وإليه ترجعون) ، أي : يوم معادكم ، فيجزئكم بأحكامكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(١) سورة الرحمن : آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) في الخطوبة : «قلنا شاعر ليده» . والمثبت عن البخاري . وابن ماجه .

(٣) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : أيام الجاهلية : ٥٢/٥ . ومسلم ، كتاب الشعر : ٤٩/٧ . وابن ماجه كتابه الأدب : باب : الشعر : ٥ الحديث ٣٧٥٧/٢ ، ١٢٣٦/٢ . ومسنده الإمام أحمد : ٢٤٨/٢ ، ٣٩٣ ، ٤٥٨ ، ٤٧٠ . وانظر شرح ديوان ليده : ط بيروت : ٢٥٦ .

(٤) هو من أبيات سيبويه التي لا يعرف قائلها ، انظر للكتاب : ١٣٦/١ . وخزانة الأدب : ٤٨٦/١ .

(٥) تفسير الباقري : ٨٢/٢٥ . وموطن الاستعداد أنه أراد : واستغفر الله من ذنب . وأن في الآية حطاطا في اليأس .

تفسير سورة العنكبوت

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ : أَحَبُّ النَّاسِ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۖ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾

أما الكلام على الحروف [المقتطعة] فقد تقدم في أول «سورة البقرة» (١) :

وقوله : (أحب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) استفهام إنكار ، ومعناه أن الله - سبحانه وتعالى - لا بد أن يبتل عباده للمؤمنين بحسب ما عندكم من الإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلي الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلاحة زيد في البلاء» (٢) . وعلمه الآية كقوله : (أم حسبم أن يتركوا) ولا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٣) ، ومثلها في «سورة برائة» (٤) ، وقال في البقرة : (أم حسبم أن نتخلوا الجنة ولا يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم اليأس والفرار ووزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : حتى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب (٥)) ، ولهذا قال ما هنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ، أي : الذين صدقوا في دعوهم الإيمان عن هو كاذب في قوله ودعواه . والله - سبحانه وتعالى - يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . ولهذا جمع عليه عند آئمة السنة والجماعة ، ولهذا يقول ابن عباس وغيره في مثلي : (إلا لنعلم (٦)) ، لا لئرى ، وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أهم من الرؤية ، لأنه [يتعلق] بالمعلوم وللوجود :

وقوله : (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) ، أي : لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتصلحون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من القوة والتكال ما هو أعظم من هذا وأطم ، ولهذا قال : (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) ، أي : يفوتونا ، (ساء ما يحكمون) ، أي : يسي ما يظنون ،

(١) انظر ١/٩٦ - ٩٥ .

(٢) تحفة الأخرى ، أبواب الزهد ، باب «الصبر على البلاء» ، الحديث ٢٥٠٩ : ٧٨/٧ - ٧٩ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب «الصبر على البلاء» ، الحديث ٤٠٢٢ : ٢/١٢٢٤ . ومنه الإسلام أسد ١/١٧٧ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٥ .

(٣) سورة برائة ، آية ١٦ .

(٤) كلامه ، والآية المقتطعة هي التي في سورة برائة .

(٥) سورة البقرة ، آية ٢١٤ .

(٦) سورة البقرة ، آية ١٤٧ .

مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى : (من كان يرجو لقاء الله) أي : في الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سبحانه له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملاً موفوراً ، فإن ذلك كائن لا محالة ، لأنه سبحانه الدعاء ، بصير بكل الكائنات ، ولهذا قال : (من كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم) :

وقوله : (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) ، كقوله : (من عمل صالحا فلنفسه (١)) ، أي : من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غني عن أعمال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد ذلك في ملكه شيئا ، ولهذا قال : (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغني عن العالمين) :

قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوما من الدهر بسيف . ثم أنبر أنه مع قتاه عن الخلاق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ويمجزهم أجراً أحسن مما كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الرابضة بعشر أمثالها إلى مئة ضعف ، ويمجز على السيئة عتلاها أو يصفو ويصفح ، كما قال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن لله حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً (٢)) ، وقال هاجن : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لنكفرون عنهم سيئاتهم ، ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرَكَ بِمَالِكَ يُدْعِي إِلَيْكَ فَلَا تَطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْحُومَةٍ قَاتِيَتْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التحسب بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولها عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ، ولهذا قال تعالى : (وقضى ربك ألا تنبوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً . وانخفض لما جناح الله من الرحمة وقل وب لرحمها كما ربياني صغيراً (٣)) :

(١) سورة البقرة ، آية : ١٥ .

(٢) سورة النساء ، آية : ٤٠ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ ، ٢٤ .

ومع هذه الرمية بالرأفة والرحمة والإحسان إليها ، في مقابلة إحصائها للظلم ، قال : (وإن جاهدك لشرك في ما ليس لك به علم فلا تطعها) ، أي : وإن حرصاً عليك أن تنابها في دينها إذا كانتا مشركين ، فإياك وإياها ، لا تطعها في ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحصائك إليها وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليها في الدنيا ، فإن لزمه إذا عشر يوم القيامة مع من أحب ، أي : حيا دنيا ، ولهذا قال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنخلفنهم في الصالحين) .

وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن يشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن مياك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد ، يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت في أربع آيات ، فذكر قصة (١) ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طامعا ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها هتجروا (٢) فاما ، فأنزل الله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) ، وإن جاهدك ، الآية (٣) . وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم (٤) ، وأبو داود ، والنسائي أيضاً ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَمَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْمُتَنَفِّينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى خبراً عن صفات قوم من المكلفين : الذين يدعون الإيمان بالسهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بأنهم إذا جاهدتهم فتنة وعنة في الدنيا ، اعتضدوا أن هذا من فتنة الله - تعالى - بهم ، فارتدوا عن الإسلام : ولهذا قال : (ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كملاب الله) .

قال ابن عباس : يعني فتنة أن يرتد عن دينه إذا أؤذي في الله (٥) : وكذا قال غيره من علماء السلف : وهذه الآية كقوله تعالى : (ومن الناس من يبد الله على حرف ، فإن أصابه خير الحمان به ، وإن أصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والأخرة : فذلك هو الخسران المبين (٦)) .

(١) انظر هذه القصة في مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب في فضائل سعد بن أبي وقاص وفي الله عنه .
١٢٥/٧ - ١٢٦ .

(٢) أي : شعروا فاما .

(٣) نسخة الأحرشي تفسير سورة المتكوير ، الحديث : ٤٢٣٢ : ٤٨/٩ - ٤٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٨١/١ ، ١٨٥ / ١٨٦ . وقد تقدم تفريغ الحديث في صحيح مسلم ، وانظر فيما تقدم في تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء : ٢٧١/٢ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٠ / ٨٥ .

(٦) سورة الحج : آية ١١ .

ثم قال : (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ، أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك -- يا صمد -- ونفع وبناهم ، ليقولن هولاء لكم : إنا كنا معكم ، أى إخوانكم فى الدين كما قال تعالى : (الذين يربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنمكم من المؤمنين) (١) ، وقال تعالى : (نفسى الله أن يأتى بالقنتح أو أمر من عنده ، فيصبوا على ما أسروا فى أنفسهم تاهدين) (٢) .

وقال تعالى خبراً عنهم هاهنا : (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ، ثم قال تعالى : (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) ، أى : أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ، وما تكتنضها قلوبهم ، وإن أظهرها لكم الموافقة ؟ وقوله : (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) ، أى : وليخبرن الله الناس بالفرءاء والسرءاء ، ليتميز هولاء من هولاء ، ومن يطع الله فى الفرءاء والسرءاء ، ومن إنما يطيعه فى حقد نفسه ، كما قال تعالى : (فويلوكم حتى تعلموا ما تعملون منكم والصابرين وويلو أنصاركم) (٣) ، وقال تعالى بعد وقعة أحد : (إلى كان فيها ما كان من الاعتبار والامتحان) (ما كان الله ليبلو المؤمنين على ما أوتى عليه حتى يجيز الخبيث من الطيب) (٤) الآية .

وقال الذين كفروا للذين آمنوا أن لا تنفعوا ميلنا ولنحمل خطيئكم وما هم بحمائلين من خطيئتهم من شيء إنما هم كذابين (٥) وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليحملن يمين والقيامة هما كانوا يقولون (٦)

يقول تعالى خبراً عن كثر قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع للمدى : لو جئنا من دينكم إلى ديننا ، واتبعوا ميلنا ، (ولنحمل خطايكم) ، أى : وأكلمكم -- إن كانت لكم آكام فى ذلك -- طيننا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : (انفلدنا وخطيتك فى قنينة) . قال الله تكليها لهم : (وما هم بحمائلين من خطايهم من شيء ، إنما لكاذبون) ، أى : فيها قالوا : إنهم يحملون عن أولئك خطايهم ، فانه لا يحمل أحد وزر أحد ، (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) (٧) ، وقال تعالى : (ولا يسألُ حسم حمية - يهرونهم) (٨) .

وقوله : (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) ، إشارة من الله تعالى إلى الكفر والفساد ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزاراً أخرى بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلوهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) (٩) .

(١) سورة النساء : آية ١٤١ .

(٢) سورة المائدة : آية ٥٢ .

(٣) سورة محمد : آية ٣١ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٧٩ .

(٥) سورة فاطر : آية ١٨ .

(٦) سورة المائدة : آية ١٠ ، ١١ .

(٧) سورة النمل : آية ٢٥ .

وفي الصحيح : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » (١) : وفي الصحيح : « ما قلت نفس ظلا إلا كان هل أين آدم الأول كفل من دما ، لأنه أول من سقى القتل » (٢) ، وقوله : « وليست يوم القيامة مما كانوا يفترون » أي : يكذبون ويخفون ، من البهتان .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن حمار ، حدثنا صنف ، حدثنا هيثم بن حمير ، حدثنا أبي العلاء ، حدثني سليمان بن حبيب المخاري ، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : [إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلغ ما أرسل به ، ثم قال : إياكم والظلم ، فإن الله يمز يوم القيامة فيقول : وعزى لا يجوزني اليوم ظلم ! ثم ينادى مناد فيقول : أين فلان بن فلان ؟ فيأتى بينه من الحسنات أمثال الجبال ، فيخص الناس إليها بأبصارهم حتى يقوم بين يدي الله الرحمن - عز وجل - ثم يأمر المنادى فينادى : من كانت له تبعاة (٣) - أو : غلظة - عند فلان بن فلان ، فهلم ! فيقولون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن : انصوا عن عبدي ، فيقولون : كيف نقضى عنه ؟ فيقول لهم : خلوا لهم من حسناته : فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقي من أصحابه الظالمات ، فيقول : انصوا عن عبدي ، فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : [خلوا] من سيئاتهم فاحملوها عليه : ثم تزع (٤) النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليست يوم القيامة مما كانوا يفترون) (٥) :

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أحمد بن أبي الخوازي ، حدثنا أبو بشر الحلاء ، عن أبي حمزة الثمالي ، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم : يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سمي ، حتى عن كحل عينيه ، وعن ثياب الطينة بأصبعيه ، فلا ألتصيتك تأتي يوم القيامة وأحد أسد ما آتاك الله منك .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا فُتِحَ عَامًا فَخَافَهُمْ الْعَاقِلُونَ ﴿١١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَتَّخِذَ السَّبِيلَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾

هذه نسلي من الله تعالى لعبده ورسوله عمد - صلوات الله وسلامه عليه - يخبره عن نوح - عليه السلام - أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوه إلى الله ليلا ونهارا ، وسرا وجهوا ، ومع هذا ما زاحم ذلك إلا قرأ من الحق ،

(١) تقدم الحديث ، عند تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة النحل ، وخرجناه هناك . انظر : ٨٤/٤ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثلاثين من سورة المائدة ، وخرجناه هناك . انظر : ٨٢/٣ .

(٣) التبعاة - بكسر التاء - : ما فيه إثم يتبع به : يقال : ما عليه من الله في هذا تبعاة ولا تبعاة .

(٤) أي : استشهد .

(٥) انظر تفسير الآية الأربعين من سورة لقمان : ٢٦٧/٢ ، لقد أخرج ابن أبي حاتم عن مالك أن أبا بكر من عبه الله بن مسعود مثل ما هنا .

وأمرضا عنه ، وتكليفها له ، وما آمن منه منهم إلا قليل ، ولهذا قال : (قلت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فأعلم الطوفان وهم ظالمون) ، أي : بعد هذه المدة الطويلة ما ننج فيهم البلاغ والإكثار ، فانت - يا محمد - لا تأتس على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يبدى من يشاء ويضل من يشاء ، ويبدى الأمر وإليه ترجع الأمور ، (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون - ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأكبر (١)) ، وأعلم أن الله سيظرك ويتبرك ويؤيدك ، ويد لك عدوك ويكتهم ويضلهم أسفل السافلين .

قال حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن ماهك ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لا يعين سنة ، ولبيت في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وحاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة : يقال : إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاما ، لبت فيهم قبل أن يدعوه ثلاثمائة سنة ، ودعاهم ثلاثمائة ولبت بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة .

وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقال عون بن أبي شاذان : إن الله أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم حاش به ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضا غريب ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (٢) : وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم ، وقال الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن حماد قال : قال لي ابن عمر : كم لبت نوح في قومه ؟ قال قلت : ألف سنة إلا خمسين عاما ، قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمالهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا . وقوله : (فأتيناه وأصحاب السفينة) ، أي : الذين آمنوا بنوح عليه السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا في سورة هود (٣) ، وقد تقدم تفسيره عما أفنى عن إحاطته .

وقوله : (وجعلنا آية للعالين) ، أي : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما حينها كما قال قتادة : لإبائيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جملة للناس تذكرة لئلا ينسى ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون - وخلقنا لهم من مثلهما يركبون ، وإن لنا لغفرهم فلا صريح لهم ولا هم ينقلون - إلا رحمة منا ومننا إلى حين (٤)) ، وقال تعالى : (إنا لما خلقناهم من طين طينة ثم رزقناهم لبنا وجعلناهم سمك البحر) ، وقال هانئ : (فأتيناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالين) ، وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (٥)) ، أي : وجعلنا

(١) سورة يونس ، آية ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) تفسير الطبري ، ٨٧/٢٠ .

(٣) انظر : ٢٦٠ - ٢٥٥/٤ .

(٤) سورة هود ، الآيات ٤١ - ٤٤ .

(٥) سورة الحاقة ، آية ١١ ، ١٢ .

(٦) سورة الملك ، آية ٥٠ .

نوحها ، فإن التي يرى بها ليست هي التي زينة السماء : وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١)) ، ولهذا نظرنا بكثرة ،

وقال ابن جرير : لو قيل : إن التفسير في قوله (وجعلناه) ، حائد إلى الحقبة ، لكان وجهها (٢) ، والله أعلم .

وَالَّذِينَ آمَنُوا إِذْ قَالَ يَقُومُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ أَنْتُمْ خَيْرُ لَكَرَّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَشْغَاءً يُخَلَقُونَ كَمَا أَنْتُمْ تُخَلَقُونَ ﴿١١﴾ إِنْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَلْيَسْأَلُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَالْعِزَّةَ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَهُكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوجيهه في الشكر ، فانه للشكور على النعم ، لا تستأى لها غيره ، فقال لقومه : (اعبدوا الله وأنتم خير لعلكم) ، أنتم خير لعلكم له العبادة والخوف ، (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) ، أي : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، وأنفع منكم للشر في الدنيا والآخرة . ثم أخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتوها آلهة ، وإنما هي مخلوقة منكم . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدي .

وروى الوالي ، عن ابن عباس : وتصنعون إفاكا ، أي : تتخونها أصناماً ، وبه قال مجاهد - في رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقطادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير رحمه الله :

وهي لا تملك لكم رزقاً ، (فابتغوا عند الله الرزق) ، وهذا أبلغ في الحصر ، كقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) (١٤) ، (رب ابن لي بيتك في الجنة) (١٥) ، ولهذا قال : (فابتغوا) ، أي : فاطلبوا (عند الله الرزق) ، أي : لا أحد غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، (واعبدوه واشكروا له) ، أي : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، (إليه ترجعون) ، أي : يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

وقوله : (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ، أي : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والتكاليف مخالفة الرسل ، (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) ، يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله - تعالى - به من الرسالة ، والله يفعل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السخطاء .

وقال قتادة في قوله : (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ، قال : يحزى نبيه صلى الله عليه وسلم : ولهذا من فتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلى قوله : (فما كان جواب قومه) . وهكذا نص على ذلك ابن جرير (١٦) أيضاً :

(١) سورة الفرقان : آية ١٢ ، ١٣ .

(٢) تفسير الطبري : ٨٨/٢٠ .

(٣) سورة الفاتحة : آية ٥ .

(٤) سورة مريم : آية ١١ .

(٥) تفسير الطبري : ٨٩/٢٥ .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل - عليه السلام - يخج عليهم لإثبات المعاد ، قوله بعد هذا كله : (فإكان جواب قوله) ، والله أعلم .

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ الْآخِرَةَ الْأُولَى إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى خبراً عن الخليل - عليه السلام - أنه أُرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله لإيهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذى بدأ هذا قاصر على إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه .

ثم أُرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات للمشاهدة من خلق الله الأشياء ، السموات وما فيها من الكواكب النيرة : النيرات ، بالسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبهار ، كل ذلك دال على جلوهها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها القاهر المختار ، الذى يقول للشيء : كن ، فيكون ، ولهذا قال : (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير) ، كقوله : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه) (١) .

ثم قال تعالى : (قل : سيراوا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ الشئء الآخرة) ، أى : يوم القيامة ، (إن الله على كل شيء قدير) . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق) (٢) ، وكقوله تعالى : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون - أم خلقوا السموات والأرض - بل لا يعرفون) (٣) ، وقوله : (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) ، أى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا يعقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فتعدل ، لأنه المالك الذى لا يظلم لا يظلم خلقه ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن : (إن الله لوعذب أهل مساواته وأهل أرضه ، لمذهبهم وهو غير ظالم لهم) (٤) ، ولهذا قال تعالى : (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقبلون) ، أى : ترجعون يوم القيامة .

(١) سورة الروم ، آية ٢٧ .

(٢) سورة فصلت ، آية ٥٣ .

(٣) سورة الطور ، آية ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب فى القدر ، الحديث ٧٦ ، ٢٩/١ . وصلة الإمام أحمد : ١٨٢/٥ ، الحديث ٤٦٩٩ ، ٢٢٠/٤ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب فى القدر ، الحديث ٧٦ ، ٢٩/١ . وصلة الإمام أحمد : ١٨٢/٥ ، ١٨٩ .

وقوله : (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) ، أى : لا يجزيه أحد من أهل صلاته وأرضه ، بل هو الظاهر فوق عباده ، وكل شيء خاضع له ، قدير إليه ، وهو الذى هما سواه .

(وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير - والذين كفروا بآيات الله وقائه) ، أى : جحدوها وكفروا بالملء ، (أولئك يمسوا من رحمى) ، أى : لا نصيب لهم فيها ، (وأولئك لهم عذاب أليم) ، أى : موجع في الدنيا والآخرة .

لَمَّا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ : إِنْ أَنْ قَالُوا أَتَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَلْيَجْهَدْهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا أَوتِىَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى غييراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفهم الحق بالباطل : أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه للشملة على الملئ والبيان (إلا أن قالوا : اقتلوه أوحرقوه) ، وذلك لأهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فدخلوا في استعمال جاههم وقوة ملكهم ، (فقالوا : ابنوا له بيناً فاقوه في الجحيم . وأرادوا به كيداً فجللناهم الأسمان) (١) ، وذلك أنهم حشكوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحططوا حولها ، ثم أصرموا فيها النار فارتفع لها لعب إلى سنان السماء . ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم حملوا إلى إبراهيم فحرقوه وأقروه في كفة المتجين ، ثم قفلوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً ، فإنه يلدن نفسه للرحمن ، وجسده للثبات ، وسخا يولده للقرآن ، وجعل ماله للفقراء ، ولهذا اجتمع على محبة جميع أهل الأديان .

وقوله : (فأنجاه الله من النار) ، أى : سكته منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وقال : إنما اتخذتم من دون الله أولئاً مودةً بينكم في الحياة الدنيا) ، يقول لقومه مقرأها لهم وموعظاً على سوء صنيعهم ، في عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتتجهوا على عبادتها في الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا . وهذا على قرادة من نصب (مودة بينكم) ، على أنه مفعول له ، وأما على قرادة الرفع فمعناه : إنما اتخذكم هذا يحتمل لكم المودة في الدنيا فقط ، (ثم يوم القيامة) يتنكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة والمودة بكفشة وشقاء ، (يكفر بعضهم ببعض) [أى : يتجاهلون ما كان بينهم ، ويلعن بعضهم بعضاً] ، أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع ، (كلما دخلت أمة لعنت أمتها) (٢) ، وقال تعالى : (الأعلام يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (٣) ، وقال هاهنا : (ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وما أوتى النار وما لكم من ناصرين) ، أى : ومعيكم ومرجعكم بعد حركات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر يتصركم ، ولا منقل يتقدمكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فلما المؤمنون فيخالف ذلك :

(١) سورة الصافات ، آية : ٩٧ - ٩٨ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٢٨ .

(٣) سورة الزخرف ، آية : ٦٧ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا أبو حاتم القتيبي الرقيعي بن إسماعيل (١) بن عمرو بن سعيد بن جعفر بن هبيرة الخزومي ، عن أبيه ، عن جده ، عن أم هانئ - أخت علي بن أبي طالب - قالت : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : أشركك الله - تعالى - بجميع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفان ؟ فقالت : الله ورسوله أعلم ، ثم ينادي مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيسريئون - قال أبو حاتم : يرفهون رموسهم - ثم ينادي : يا أهل التوحيد ، ثم ينادي الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد حفا عنكم ، قال : فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعني : الظلم - ثم ينادي : يا أهل التوحيد ، ليحف بعضهم من بعض ، وحل الله القلوب .

فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٥﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ لِنَبِيٍّ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي النَّبَاِّ وَإِنَّهُ فِي آيَاتِنَا لَلصَّالِحِينَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ضراً من إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أختي لإبراهيم ، يقولون هو : لوط بن هاران بن آذر (٢) ، يعني : ولم يضمن به من قومه سواء ، وسارة امرأة الليل : لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الواردة في الصحيح : أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم - من سارة - ما هي منه ؟ قال : أختي : ثم جاء إليها فقال لها : إنني قد قلت له : إنك أختي ، فلا تكفيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن بحركه ؟ وخبري ، فأبت أختي في الدين : وكان المراد من هذا - والله أعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام خيرى وخبرك ، فإن لوطاً - عليه السلام - آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الليل إلى أهل سدوم ، ولقيهما ، وكان مزأراً لهم ما تقدم وما سيأتي :

وقوله (١) وقال : إني مهاجر إلى ربي ، يحتمل حود الضمير في قوله (وقال) على لوط ، لأنه أقرب المذكورين ، ويحتمل حوده إلى إبراهيم - قال ابن عباس ، والضحك : هو المكى (٢) - عنه بقوله (فآمن له لوط) ، أي : من قومه . ثم أخبر عنه بأنه اختار للمهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمسك من ذلك ، ولهذا قال (إنه هو العزيز) أي : له القوة ورسوله وللمؤمنين به ، (الحكيم) في أقواله وأفعاله وأحكامه الشرعية والشرعية .

وقال قتادة : هاجر جميعاً من كوثي ، وهي من سواد الكوفة إلى الشام : قال : وذكرنا أن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مهاجرة إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها ، حتى تلفظهم أرضهم وتقتلهم (٣) روح الله ، وتحشرهم النار مع القرود والحنازير ، تبيت معهم إذا باتوا ، وتغيب عنهم إذا قالوا ، وتاكل ما سقط منهم :

(١) في المخطوطة : الربيع بن سليمان . وهو خطأ . انظر ترجمته في البحر لابن أبي حاتم : ٥٥٥/٢٨٦ .

(٢) انظر ترجمة أنساب العرب لابن حزم : ٩٠ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ . وانظر أيضاً ما تقدم : ١٦٢/٦ .

(٣) انظر تفسير الطبري : ٩٢/٢٠ .

(٤) أي : يكره خروجهم إلى الشام ومقتلهم بها ، فلا يوقفهم لذلك ، كقوله تعالى : (كره الله أن ياتهم ليظلم) . وقال : لا رت الله - يكره الدليل - أقره - ينفضها - وإذا كرهه واجتنبه .

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب قال : لما جئنا بيعة يزيد بن معاوية ، قلمت الشام فأخبرت مقام يقومه نوف البكالي ، فحبته إذ جاء وجل ، فأتيت الناس (١) وعليه خميص (٢) ، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك من الحديث ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينزل الناس إلى مهاجرة إبراهيم ، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها ، فخلطهم أرضهم ، فخلدزم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والحنازير ، فقيت معهم إذا باتوا ، وتخليل معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من غلف . قال : وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : سيخرج أناس من أمي من قبل للشرق ، يرمون القرآن لا يجاوز تراقيهم (٣) ، كلما خرج منهم قرن قطع (٤) ، كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى عداها زيادة على عشرين (٥) مرة - كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الديجال في بقيتهم (٦) .

ورواه أحمد بن أبي داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدستوائي ، عن قتادة ، به (٧) .

وقد رواه أبو داود في سننه ، فقال في كتاب الجهاد ، باب ما جاء في سكنى الشام .

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني (أبي) (٨) ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الله ابن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون هجرة بعد هجرة ، فيخار أهل الأرض أزمهم مهاجرة إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها فتلظهم أرضهم وتخلدزم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والحنازير (٩) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يزيد ، أخبرنا أبو جيثاب يحيى بن أبي حنيفة ، عن شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لقد رأيتنا وما صاحب الديار والدرهم بأحق من أخيه للسلم ، ثم لقد رأيتنا بأخيرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه للسلم ، ولقد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : لئن أنتم أتيتهم أذنان البقر ، وتبايتهم بالعينة (١٠) ، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، ليازمكم الله ملكة في أعناقكم ثم لا تنزع (١١) منكم حتى ترجعوا

(١) في السنة : « فاشد الناس » . ويبدو أن الصواب ما في التفسير ابن كثير . يراد أن عبد الله بن عمرو قد تنس جانيبا في المكان : « أتيتهم فلا » ، ذهب قاسية ، « وأتيتهم من قومه » ، تنس

(٢) الخميصة : كساء أسود مربع .

(٣) التراقي : جمع ترقوة ، وهي العنق الذي بين ثغرة الشعر والعاتق ، وما ترقوتان . والمعنى أن فراسهم لا يرمعها الله ولا يقبلها ، فكانت ألام تتجاوز حلقهم .

(٤) أي : لا يأتي قرن آخر على شاكلته .

(٥) في المسند : « زيادة على عشرة مرات » .

(٦) حسنه الإمام أحمد : ٢/ ١٩٨ - ١٩٩ .

(٧) سننه الإمام أحمد : ٢/ ٢٠٩ .

(٨) ما بين القوسين من سنن أبي داود .

(٩) من أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في سكنى الشام » ، الحديث ٣٤٨٢ : ٢/ ٢٠٩ .

(١٠) البينة - بكسر الباء - أن يبيع من الرجل سلمة - بين مدلول أهل سبي - ثم يشترها به بأقل من اثنين ألفين مائة .

(١١) في المنطوية : « في أعناقكم ترجع منكم » . ولكتبت عن السنة .

إلى ما كنتم عليه ، وتوبوا إلى الله عز وجل ، وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر ليكم إبراهيم ، حتى لا يبقى في الأرضين إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضهم ، وتلقوهم روح الرحمن ، وتحترم النار مع القردة والخنازير ، تقول حيث يقولون (١) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها ، ولقد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يخرج من أمي قوم يسيئون الأعمال ، يفرعون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد : لا أعلمه إلا قال - : يحتر أحدكم علمه مع علمهم ، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوه ، ثم إذا خرجوا فاقتلوه ، ثم إذا خرجوا فاقتلوه ، فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه : كلما طلع منهم قرن قطعته الله : فردد ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عشرين مرة ، أو أكثر ، وأنا أسمع (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو الحسن بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن مغيان ، حدثنا أبو النصر إسحاق بن يزيد وهشام بن حمار النمشقيان قالا : حدثنا يحيى بن حمزة ، حدثنا الأزاعي ، عن نافع - وقال أبو النصر ، عن حدثه ، عن نافع - عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون وتلقوهم روح الرحمن ، وتحترم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا ، لما سقط منهم هـ غريب من حديث نافع ، والظاهر أن الأزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم ، وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن ميمون أقرب إلى الخط .

وقوله (ووجهنا له إسحاق ويعقوب) ، كقوله تعالى : (فلما اعتزلهم وما يعبودون من دون الله ، وهدانا له إسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا) (٣) ، أي : إنه لما فرق قومه أمر الله حبه بوجود ولد صالح نبى ، ووكله له ولكه صالح نبى ، في حياة جده ، وكذلك قال الله : (ووجهنا له إسحاق ويعقوب نافلة) (٤) ، أي : زيادة ، كما قال : (فيشرناها لإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب) ، أي : ويولد لهذا الولد ولد في حياتكما ، تقر به أعيانكما ، وتكون يعقوب وولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وتبيت به السنة النبوية ، قال الله : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد الملك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) (٥) ، وفي الصحيحين (٦) : إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

فأما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله : (ووجهنا له إسحاق ويعقوب) ، قال : هما ولدا إبراهيم (٧) ، فعتاه أن ولد الولد بمنزلة الولد ، فإن هذا أمر لا يكاد يفتى على من هو دون ابن عباس .

(١) في المخطوطة : « حيث قالوا » ، والمكتوب من المتن .

(٢) سننه الإمام أحمد : ٨٤/٧ .

(٣) سورة مريم : آية ٤٩ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ٧٢ .

(٥) سورة البقرة : آية ١٣٣ .

(٦) كلما ، وفيه تقدم الحديث في تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف ، وله أخرجه ابن كثير عن الإمام أحمد ، والله .

أنفرد بإخراجه البخاري . انظر : ٢٩٧/٤ - ٢٩٨ .

(٧) تفسير قتيرى : ٩٢/٧٥ .

وقوله : (وجعلنا في ذرية النوبة والكتاب) ، هذه خلقة منية عظيمة ، مع إتيان الله إياه خليلاً ، وجعله لنفسه إماماً ، أن جعل في ذرية النوبة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم - عليه السلام - إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملتهم مبشراً بالنبى العربى القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وصيد ولد آدم في الدنيا والآخرة : الذى اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام : ولم يوجد نبياً من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام :

وقوله : (وآتينا أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ، أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا والمصولة بمساعدة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الحلى والمثلث الرحب ، ولورد الطلب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثلاثة الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويولاه ، كما قال ابن عباس : وجعلناه وثيقة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : (وإبراهيم الذى وفى) (١) ، أى : قام بجميع ما أمر به وكل طاعة ربه ، ولهذا قال تعالى : (وآتينا أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ، كما قال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين : شاكراً لأمره ، اجتهاداً ، وهله إلى صراط مستقيم ، وآتينا في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) (٢) ،

وَلَوْ مَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّا لَنُتَوَنُّونَ الْفَلْعَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَكْرُ لَنُتَوَنُّونَ الرِّجَالَ
وَنَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَنَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ضرباً من لبيه لوط - عليه السلام - أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الاعمال ، في إتيانهم الذكران من العللين ، ولم يسبقهم إلى هذه القصة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكتفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يفتنون في طريق الناس يقتلونهم ويغتصبون أموالهم ، (وتأتون في ناديتكم المنكر) أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا ينكروا بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملاء ، قاله مجاهد (٣) ، ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، قاله عائشة - رضى الله عنها - والقاسم : ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويتناقرون بين الدبوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك :

(١) سورة التجم ، آية : ٣٧ .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٢٠ - ١٢٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٩٤ / ٢٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة ، حدثنا مياك بن حرب ، عن أبي صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله عز وجل : (وتأتون في ناديكم المنكر) قال : يغلغفون أهل الطريق ، ويسفرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه (١) .

ورواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أبي يونس القشيري : حاتم ابن أبي صغيرة ، به : ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن لا يخرجه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة ، عن مياك (٢) . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم ، عن مجاهد : (وتأتون في ناديكم المنكر) قال : الصغير ، ولعب الحمام والجمل (٣) ، والسؤال في المجلس ، وحل أزوار القباء . وقوله : (لما كان جواب قومه إلا أن قالوا : اتنا بطلب الله إن كنت من الصادقين) ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استعصر عليهم نبي الله قال : (وب : انصرف على القوم للمسلمين) .

وَلَمَّا جَاءَتْ رَحْمَةُ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٠﴾ قَالِمُ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا أَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا نَكُنَّ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٥١﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رَحْمَةُ الْوَلَدِ سَبَّحَهُمْ وَوَضَعَتْ يَدَهُمْ فَمِنْ ذَمِّهِمْ قَالُوا لَأَحْمَقُونَ وَلَا نَحْمِلُ مَا أَكُنَّا نَحْمِلُ إِنَّا مُتَجَبِّحُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكُنَّ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّا جَزَّاهُ عَلَى أُمَّهِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَبَنِيَانٍ مِنَ الْمَسْكُونَةِ كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا لَيْلَةً نَّيِّنًا لِّقَوْمٍ يُعَذِّبُونَ ﴿٥٥﴾

١٠ استعصر لوط - عليه السلام - الله عليهم ، بحث الله لتصرفه ملائكة فروا حل إبراهيم - عليه السلام - في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي الضيف ، فلما رأى أنه لا هيئة لهم إلى الطعام تكبرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤسولوه ويشروه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فصبيحت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة وهود « والحجر » (٤) : فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أشد يدافع عنهم ينظرون ، لم الله أن يهديهم ، ولا قالوا : إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، قال : إنا فيها لوطاً ، نحن أعلم بمن فيها ، لتنبيه وأهله إلا امرأته كانت من الغائبين ، أي : من المالكين ، لأنها كانت تمسكهم على كفرهم وفيهم وديهم (٥) : ثم ساروا من هذه فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ، فلما رآهم كذلك (سوى بهم وضاع بهم فرحاً) ، أي : أهتم بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يفسد عشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الزامته (٦) قالوا :

(١) سنة الإمام أحمد : ٢٤١٦ .

(٢) نسخة الأوصى : تفسير سورة الممتكوت ، الحديث ٧٢٤٣ : ٤٩/٩ - ٥٠ .

(٣) في الحرب لجواب ١٤٤ : الجلائق - بضم الجيم ، وتختفif اللام - : الذي يرمى به الصبيان ، وهو الطين المذود .

(٤) أنظر : ٢٦١/٤ - ٢٦٦ - ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٥) كذا ، ولعله يسه أنها كانت واحدة مما يأتونه من القاسية فيا بينهم .

لا تخف ولا تحزن ، إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من النافرين • إنا متزلون على أهل هذه القرية رجوا من السباه بما كانوا يفسقون ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رضعها إلى حستان السباه ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعيد ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة متنة ، وجعلهم عرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم للعاد ، ولما قال تعالى : (وقد تركنا منها آية ينة) ، أي : واضحة ، (لقوم يقولون) ، كما قال : (ولكن لثمرون عليهم مصبحين ، وبأليل أفلا تقولون) (١) .

إِلَى مَدِينٍ أَخْلَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَتْ يَتَقَوْمُ آعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾ كَذِبُهُمْ فَاحْتَبَاهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب - عليه السلام - أنه أنذر قومه أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإن يخافوا بأس الله ونقمته وسطرته يوم القيامة ، قال : (يا قوم ، آعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) .

قال ابن جرير : قال بعضهم : ومعناه وانخشوا اليوم الآخر (٢) وهذا كقوله تعالى : (إن كان يرجو الله اليوم الآخر) (٣) ثم ناهم عن الوثع في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها والي في أهلها ، وذلك أنهم كانوا يقيمون المكيل والمليان ، ويقطعون الطريق على الناس ، فلما مع كرههم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله برجة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة التي أزعج الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ، وقد تقدمت قصتهم مبسوطه في (سورة الأعراف) ، وهو (٤) ، والشعراء .

وقوله : (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ، قال قتادة : ميتين (٥) . وقال غيره : قد آلى بعضهم على بعض .

يَعَادُوا وَكُودُوا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَقَذَرُونَ وَفَرَعُونَ وَهَلَمَنَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنُفِثْنَا مِنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْطِيَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٧﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة الرسل كيف أبادهم وتزع في عذابهم ، فأخذهم بالاعتقاق منهم ، فساد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح وكانوا يسكنون الحاجر قريباً من وادي

(١) سورة الصافات ، آية : ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) تفسير الطبري : ٩٦/٢٠ .

(٣) سورة الممتعة ، آية : ٦ .

(٤) انظر : ٤٤٣/٣ - ٤٤٩ - ٢٧٢ - ٢٧٧ ، ١٦٨/٦ - ١٧١ .

(٥) تفسير الطبري : ٩٦/٢٠ .

الفرى : وكانت العرب تعرف مسكنهما جيداً ، وغر عليها كثيراً : ولارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز
الفضيلة : وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ، (فكلما أخذنا بذنبه) ، أى :
كانت عقوبته بما يناسبه ، (ففهم من أرسلنا عليه حاصبا) ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجهنهم
وبعصرهم بلوحة شديدة البرد ، عاتية شديدة الميؤوب جيداً ، تحمل عليهم حصبة الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلهم من
الأرض فتفرج الرجل منهم إلى عتكان السماء ، ثم تتكسه على رأسه فتشقه ، فيبقى بدنًا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل
مقتصر . (ومنهم من أخذته الصيحة) ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة ، من تلك الأنثاة التى انقلبت
حتم الصخرة ، مثل ما سألتوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهدوا نبي الله صالحاً
ومن آمن معه ، وتوعدوه وهم بأن يخرجهم ويرجمهم ، فجهنهم صيحة أعمدت الأصوات منهم والحركات : (ومنهم
من غسفناه الأرض) ، وهو فارون الذى طغى وبغى وحما ، وصحى الرب الأمل ، ومثى فى الأرض مرصاً ، وفرح
ومرح ولله بفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واعتال فى مشيئة ، فضفت الله به وبدهره الأرض ، فهو يتجبل
فيها إلى يوم القيامة . (ومنهم من أفرقنا) ، وهم فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أفرقوا نى صيحة واحدة ،
لم ينج منهم غير (١) ، (وما كان الله ليظلمهم) ، أى : فيا فعل بهم ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أى : إنما
فعل ذلك بهم جراء وفاقاً عما كسبت أيديهم .

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب التثنية (٢) ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : (فكلما
أخذنا بذنبه) ، أى : من هؤلاء المكذوبين ، وإنما نبهت على هذا لأنه قد روى أن ابن جرير قال : قال ابن عباس فى
قوله : (ففهم من أرسلنا عليه حاصباً) ، قال : قوم لوط . (ومنهم من أفرقنا) ، قال : قوم نوح (٣) .

وهذا منقطع عن ابن عباس ، فإن ابن جرير لم يذكره ، ثم قد ذكر الله فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ،
وقوم لوط بإزالة الرجز من السماء ، وهما السياق والقصل بين ذلك وبين هذا السياق :
وقال قتادة : (ففهم من أرسلنا عليه حاصباً) ، قال : قوم لوط ، (ومنهم من أخذته الصيحة) ، قوم شعيب . وهذا
يحيد أيضاً عما تقدم ، والله أعلم .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَثَلُ التَّكْوِينِ لَمْ تَكُنْ يَتَاءُ وَإِنْ أَوْهِنَ الْيَتِيمَ لَيْتَ التَّكْوِينِ
فَوَكَاوُا يَعْلَمُونَ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِمْ شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَيَتْلُكَ الْأَمْثَلُ
فَضِيرَتَا النَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ۝

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم ككدة من دون الله ، يرجون نصرهم ووليتهم ، ويمسكون بهم فى
العدالة ، فهم فى ذلك كهيئة التكوين فى ضبطه ووجهه فليس فى أيدي هؤلاء من كلفهم إلا كمن يمسك بيت التكوين

(١) أى : لم ينج منهم أحد .

(٢) تقدم تفسير هذا المصطلح الجدى من الآية فافهم من سورة القصص .

(٣) تفسير النجاشي : ١٧٤ ، ١٧٥ .

فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو حكموا هذا الحال لما اغتنوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فانه مستمره بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، فثوبها وثباتها .

ثم قال تعالى متوحداً لمن حيد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يفركون به من الأنداد ، ويميزهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) ، أى : وما يفهمها ويتلذذها إلا الراسخون في العلم للتفصيل منته .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثني ابن أبي عمير ، عن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : « عكثتُ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألف (١) مثل .

وهذه مثابة عظيمة لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - حيث يقول تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن سنان ، عن عمرو ابن مرة قال : ما مررت بأية من كتاب الله لأعرفها إلا أحرزنى ، لأنى سمعت الله تعالى يقول : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) » .

مَنْ يَرْجُ اللَّهَ وَالْيَوْمَآتِ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ أَتَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى لغيره : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا على وجه الحب والعب ، (لتجزى كل نفس بما تسعى) (٢) ، (لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحق) (١) ، وقوله : (إن في ذلك لآية للمؤمنين) ، أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى للتفرد بالخلق والتبليغ والإلهية :

ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإيلاؤه للناس ، (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) ، يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك القواش والمنكرات (١) ، أى : إن موافقتها لحمل على ترك ذلك . وقد جاء في الحديث من رواية حمران ، وابن عباس مرفوعاً : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يرد الله إلا جلعاً » .

(١) مصد الإمام أحمد : ٢٠٣/٤ .

(٢) سورة طه ، آية : ١٥ .

(٣) سورة النجم ، آية : ٣١ .

(٤) هذا أحد الأمرين ، وسباق الأمر الثاني به ذكر الآثار الواردة في الأمر الآله .

[ذكر الآثار الواردة في ذلك]

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن هارون المقرئ القلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبي عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمر بن ابن حصين قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، قال : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » :

وحدثنا علي بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي ، حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية :

وقال ابن جرير : [حدثنا القاسم] حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عن ذكره ، عن ابن عباس في قوله : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزد بصلاته من الله إلا بعدا : فهذا موقوف (١) :

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا علي بن هاشم بن البريد ، عن جوير ، عن الضحاک ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا صلاة لمن لم يقطع الصلاة . وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر » قال : وقال سفيان : (قالوا يا شبيب أصلائك تأمرك ؟) قال : فقال سفيان : أي والله ، تأمره ونهاه (٢) :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو غانم ، عن جوير ، عن الضحاک ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقال أبو غانم مرة : عن عبد الله - « لا صلاة لمن لم يقطع الصلاة ، وطاعة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا لم يقطع الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها .

وقال ابن جرير : [قال (٣)] علي بن حنين إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزد بها من الله إلا بعدا » (٤) .

والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقائدة ، والأعمش ، وغيرهم ، والله أعلم . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جبير - يعني ابن عبد الحميد - عن الأعمش ، عن أبي صالح قال : أراه عن جابر - شك الأعمش - قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلي فإذا أصبح سرق ، قال : سينها ما يقول .

(١) تفسير الطبري : ٩٩/٢٠ .

(٢) في المخطوطة : « وقال ابن جرير : حدثنا علي بن إسماعيل بن مسلم » وهو خطأ . والمثبت من تفسير الطبري : ٩٩/٢٠ . وحل هذا هو ابن هاشم بن البريد . الذي ورد في سنة ابن جرير المخطوطة .

(٣) تفسير الطبري : ٩٩/٢٠ .

وحدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا زياد بن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه - ولم يشك - ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش، واحتفظوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أو غيره، وقال قيس، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، وقال جرير، عن عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر:

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش قال: أبو صالح أخبرنا (١) عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟ قال: إنه سينهاه ما يقول (٢).

وتشمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر، ولما قال تعالى: (ولذكر الله أكبر)، أي: أعظم من الأول، (والله يعلم ما تصنعون)، أي: يعلم جميع أفعالكم وأعمالكم:

وقال أبو المألية في قوله: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)، قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصائص، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة الإخلاص، والخشية، وذكر الله، والإخلاص بأمره بالمعروف، ونهيها عن المنكر، وذكر القرآن بأمره ونهايه:

وقال ابن حنّ الأصباري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حيزتلك عن الفحشاء والمنكر، وللي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

وقال حماد بن أبي سليمان: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)، يعني: ما حرم فيها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: (ولذكر الله أكبر)، يقول: ولذكر الله أكبر إذا ذكرتموه من ذكرهم لياه (٣).

وكلنا روى غير واحد عن ابن عباس:

وبه قال مجاهد، وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خازم الأحمر، عن دلود بن أبي هند، عن رجل، عن ابن عباس: (ولذكر الله أكبر)، قال: ذكر الله عند طعامك وعند منامك وقلت: فإن صاحبا في في المنكر يقول غير الذي تقول؟ قال: وأنى شيء يقول؟ قلت: قال: يقول الله: (لاذكروني أذكركم)، فلذلك الله إيانا أكبر من ذكرنا لياه، قال: صدق.

قال: وحدثنا أبي، حدثنا الثعلبي، حدثنا إسماعيل، عن خالد، عن حكيم، عن ابن عباس في قوله: (ولذكر الله أكبر)، قال: لما وجهان، قال: ذكر الله عند ما حرمه، قال: وذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا لياه.

(١) في النسخة: قال: أرى أبا صالح. وفي المسند: قال: أنا أبو صالح. وكان في النسخة: أبو صالح.

ولكن النسخة أصل: أبو. ذلك وأما.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٢٧٢.

(٣) تفسير الطبري: ١٥٢٥.

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عطية بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس : هل تدري ما قوله تعالى : (ولذكر الله أكبر) ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : المسيح والصعيد والشكبر في الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إليكم حداً ما أمر به أو نهي عنه إذا ذكرتموه ، أخبركم إياه (١) .

وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضاً عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَالِيَّ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ الْبُكْرَ وَالنَّهْثَا وَاللَّهْكَ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية أو عمكة لأن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالي هي أحسن ، ليكون أمتع فيه كما قال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمعتدين (٢)) ، وقال تعالى لوسى وهارون حين بينهما إلى فرعون : (فقلوا له قولاً لنا ، لعله يتذكر أو يخشى (٣)) . وهذا القول اختاره ابن جرير (٤) ، وحكاه عن ابن زيد .

وقوله : (إلا الذين ظلموا منهم) ، أي : جادوا عن وجه الحق ، وعصوا عن واضح الحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلاء ، ويقاتلون بما يردعهم ويعتصمهم ، قال الله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز (٥)) .

قال جابر : أمرنا من خلاف كتاب الله أن نصره بالسيف .

قال مجاهد : (إلا الذين ظلموا منهم) ، يعني : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم) ، يعني : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهدا لا نكذب على تكليبه لأنه قد يكون حقاً ولا على تصديقه ، فقله أن يكون باطلاً ، ولكن تؤمن به إيماناً جعلاً معلقاً على شرط ، وهو أن يكون متولاً ، لا مهدلاً ولا مؤولاً .

(١) تفسير الطبري : ٩٩/٢٠ .

(٢) سورة النحل : آية ١٢٥ .

(٣) سورة طه : آية ٤٤ .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٢/٢١ ، ٣ .

(٥) سورة الحديد : آية ٢٥ .

قال البخاري رحمه الله : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عثمان بن حُسَـر ، أخبرنا علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : كان أهل الكتاب (١) يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويقرأونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصنعوا أهل للكتاب ولا تكلموهم ، وقولوا آمنا بالله وما أئزك إلينا : وما أئزك إليكم وإلنا وإلهم واحد ونحن له مسلمون (٢) : وهذا الحديث يرد به البخاري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عثمان بن حُسَـر ، أخبرنا يونس ، عن الزهري ، أخبرنا ابن أبي ثعلبة : أن أبا تَمَلَكَةَ الأنصاري أخبره ، أنه بينما هو جالس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاءه رجل من اليهود ، قال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجائزة (٣) ؟ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلم : قال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصنعوهم ولا تكلموهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسوله وكتبه ، فإن كان حقاً لم تكلموهم ، وإن كان باطلاً لم تصنعوهم (٤) :

قلت : وأبو تَمَلَكَةَ هذا هو : عُسَـكْرَة ، وقيل : حَمَـكْرَة ، وقيل : عمرو بن معاذ بن زُرَـكْرَة الأنصاري ، ورضي الله عنه . ثم ليعلم أن أكثر ما يُحَدِّثُونَ به غالبه كذبٌ وبهتان ، لأنه قد دخله تحريفٌ وتبديلٌ وتغييرٌ وتزويل ، وما أئزك الصديق فيه ، ثم ما أئزك ثلاثة كثير منه لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشر ، حدثنا أبو حاصم ، حدثنا صفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن حمارة بن حمير ، عن حريش بن ظهير ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكلموا غي أو تصنعوا يباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفيه شيء (٥) يندحروه إلى جهة كاذبة قال (٦) : وقال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن حنيفة بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أئزك إليكم على رسوله - صلى الله عليه وسلم - أحدثه قروءه بعضها لم يُشَـبَّه ، وقد حدِّثكم أن أهل الكتاب يملأوا كتاب الله وخبروه وكثروا بأبليسهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشعروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ألا والله ما رأيتنا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أئزك إليكم (٧) :

(١) في المخطوطة : « كان أهل التوراة » . وللحديث عن البخاري .

(٢) البخاري ، تفسير سورة البقرة : ٢٥/٦ . وكتاب الاحتصام . باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم - « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » . ١٣٦/٩ . وكتاب التوحيد . باب : ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية ، وغيرها . ١٩٣/٩ . وقد ساق المحدث ابن كثير في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة . الفهر : ٢٧١/١ .

(٣) في نسخة النجاة : ٣١٤/٢ ط القرطبي : « هل تتكلم هذه الجائزة ؟ » . الجائزة : مرتبهم . وقد روى ابن الأثير . واستدركه من ابن أبي حاصم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٣٦/٤ .

(٥) في المخطوطة : « ماله » . كناية اللال . « وللحديث عن تفسير الطبري » . والعلامات السابقة من تفسير ابن كثير . والذي في لسان العرب : « وتليت له ثلثة - بوزنة قليلة - لى يفتت له ثلثة » .

(٦) تفسير الطبري : ٢١/٤ .

(٧) البخاري : كتاب الاحتصام . باب : قوله النبي - صلى الله عليه وسلم - « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » . ١٣٦/٩ .

وقال البخاري : وقال أبو اليان : أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، أنسرفي حميد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رجلاً من قريش بلديته - وذكر كعب الأحبار - فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المخنفين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنباو عليه الكلب (١) :

قلت : معناه أنه يقع منه الكلب لغة من غير قصد ، لأنه يحدث عن صحف هو يمين بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكسوبة ، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضمت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علماً بذلك ، كل بحسبه ، والله اعلم والملة .

وَكَلَّاكَ أَتَرْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَأَلَّيْنَاهُ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذًا وَلَا رَأْيَ الْمُسْتَلُونَ ﴿١١﴾ بَلْ هُوَ لَكُم بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتاب على من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب (٢) :

وهذا الذي قاله حسن ، ومناسبة وإرباط جيد

وقوله : ﴿ فَاَلَّيْنَاهُ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ، أي : الذين أنزلوه ففهموه حتى تلاوته من أحبارهم العلماء الأكابر ، كعبد الله بن سلام وسان الفارسي ، وأصحابها .

وقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ ، يعني : العرب من قريش وغيرهم ، ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ ، أي : ما يكلمهم بها ويحجد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، وينطى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ ﴾ ، أي : قد لبثت في قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن حمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفة في الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوحاً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣) : الآية : وهكذا كان - صلوات الله وسلامه عليه ، إلى يوم القيامة - لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرأ ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بن يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم : ومن زعم من مثاوى الفقهاء ، كالتقاضي أن الوليد البايع (٤) ، ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : وهذا ما قاضى

(١) البخاري : في الكتاب والباب للفقهاء : ١٣٩/٩ .

(٢) تفسير البكري : ٤/٢٠ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٥٧ .

(٤) هو أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي القزويني . روى عن يونس بن عبد الله بن مغيث ، ومكي بن أبي طالب . برع في الحديث واللغة والأسول والنظر ، وله تصانيف كثيرة . وكانت له راحة إلى المشرق سبع فيها من الأعلام وقتل ، وعاد منها به ثلاث عشرة سنة ، سلم جم . وقد توفي رحمه الله بالمدينة سنة ٤٧٤ . انظر العبد القوي : ٢٨٠/٤٧ ، ٢٨١ .

عليه محمد بن عبد الله : «إذما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أشد فكتب : وعده محاولة على الرواية الأخرى : ثم امر فكتب . ولها اشد التكبر من قهقه المغرب والمشرق على من قال يقول الباجي ، وبمرواته ، وأنشدوا في ذلك أقوالا ، وخطبوا به في محافلهم : وإذا أراد الرجل - أضى الباجي ، فبا يظهر عنه - أنه كذب ذلك حروجه للصجرة (١) ، لا أنه كان يحسن الكتابة ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - إنجاراً عن الدجال - «مكروب بين عينيه كافر» وفي رواية : «ك ف ر» يقرؤهما كل مؤمن (٢) ، وما أوردته بعضهم من الحديث أنه لم يمت - عليه السلام - حتى تعلم للكتابة ، فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى : (وما كنت تتلو) : أي : قرأ (من قبله من كتاب) لتأكيد التلوي (ولا تحطه يمينك) ، تأكيد أيضاً ، وخرج عرج الناب ، كقوله تعالى : (ولا طائر يطير بجناحه) (٣) .

وقوله : « إذا لارتاب للظلول » ، أى : لو كنت تحسبها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه لا يحسن الكتابة ؛ وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فبى عمل عليه بكرة وأصيل (٤) ، قال الله تعالى : قل : أنزل الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان خفياً (٥) ، وقال جامعا : (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) ، أى : القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمراً ونهيًا وخبرًا ، يحفظه العلماء ، يَسِرُّه الله عليهم حفظًا وتلاوةً ويُفسِّرُهُ ، كما قال تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مذكر) (٦) ، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ؛ وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فليزج أن أكون أكثرهم تابعاً (٧) . وفى حديث عياض بن جابر : (صحبني مسلم ، يقول الله تعالى : إني مبتليكَ ومبتلي بك ، ومترول عليك كتاباً لا يُضِلُّه لاء ، تروه تأمناً ويقظان) (٨) ؛ أى : لو ضل لاء المحل للكتوب فيه لما احتجج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر (٩) : لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقته النار : لأنه محفوظ فى الصدور ، يسر على الأسنة ، مهين على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ؛ ولما جاء فى الكتب المضمعة ، فى صفة هذه الآلة : « أنجيلهم فى صدورهم » ،

- (١) قال السهيلي في الروض الأوفى ٢٢٠/٧ : «وَمِنْ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ كُتِبَ بِهِ ، وَفِي الْبَحْثِ أَنَّ كُتْبَهُ هُوَ لَا يَسْنُ الْكِتَابَةُ ، فَهُوَ أَمْ أَنْ أَطْلُقَ بِهِ بِالْكَتَابَةِ فِي تِلْكَ الْمَاةِ خَاصَّةً ، وَقَالَ هـ آيَةٌ . فَيَقَالُ لَهُ : كَأَنَّكَ تُكُونُ آيَةً قَوْلًا لَهَا مُنْتَفِضَةٌ لِآيَةٍ أُخْرَى ، وَهُوَ كَوْنُهُ أَمِيرًا لَا يُكْتَبُ ، وَيَكُونُهُ أَمِيرًا فِي أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ قَامَتِ الْحِجَةُ ، وَأَنْقَضَ الْجَانِدُ ، وَانْقَضَتْ الشَّجَاعَةُ ، وَلَيْسَتْ بِمَطْلُوقَةٍ إِنْهُدَهُ فَتَكُونُ آيَةً ؟ وَإِنَّمَا الْآيَةُ أَنْ لَا يُكْتَبُ وَالْمَجْزِئَاتُ يُمْكِنُ أَنْ يُدْفَعَ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ . وَإِنَّمَا مَعْنَى «كُتِبَ» ، لَوْ أَنَّ كُتِبَ ، وَكَانَ الْكِتَابُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى بَنِي طَالِبٍ » .
- (٢) البغاري ، كتاب الفتن ، باب ذكر النجاشي : ٧٥/٩ - ٧٦ ، وكتاب التوحيد : ١٤٨/٩ ، ومسلم ، كتاب اللعن ، باب وذكر النجاشي وصلته ، وما معه : ١٩٥/٨ .
- (٣) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .
- (٤) سورة الفرقان ، آية : •••
- (٥) سورة الفرقان ، آية : ٦ .
- (٦) سورة القصص ، آية : ٤٥ .
- (٧) البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «مَدَّتْ بِجُوعِ الْكَلْبِ» : ١١٣/٩ ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برؤية الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس ، ونسخ المثل بعينه : ٩٧/١ - ٩٨/١ .
- (٨) مسلم ، كتاب الجنة ، باب : «الصفقات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار» : ١٥٨/٨ - ١٥٩ .
- (٩) حسنة الإمام أحمد بن حنبل بن عتبة بن حازم : ١٥١/٤ - ١٥٥ .

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى : (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) ، بل العلم بأنك ائكت
كل من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تحط ببيئتك ، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب (١) . ونفنه عن
قتادة ، وابن جرير . وحكي الأول من الحسن فقط .

قلت : وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم .
وقوله : (وما يجحد بآياتنا إلا الظنون) ، أي : ما يكذب بها ويخس حقها ويردها إلا الظنون ، أي : المعتدون
للكابرون ، الذين يملكون الحق ويعيدون عنه ، كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءهم
كل آية حتى يروا الملعاب الأليم) (٢) .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ كُنْزُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَهَاتُوا
عَلَيْكُمْ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في معنتهم وطلبهم آياتهم - ترشدكم إلى أن محمداً رسول الله ، كما جاء صالح بناته ،
قال الله تعالى : (قل يا محمد : (إنما الآيات عند الله) ، أي : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم
إلى سؤالكم ، لأن ذلك سهل عليه ، يسر لديه ، ولكنه يعلم منكم أننا قصدكم التمسك والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال
تعالى : (وما نمنا أن نرسل بالآيات إلا أن نكلب بها الأولون ، وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) (٣) .

وقوله : (وإنا أنذير مبين) ، أي : إنما نبشئ نذيراً لكم بين التذكير لوقوع فعلكم رسالة الله ، و (من بعد الله
فهو الهتد ، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً (٤)) ، وقال تعالى : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء (٥)) .

ثم قال تعالى ميتة كثره جهلهم ، وسخافة عقولهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم . وقد جاءهم
بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي هو أعظم من كل معجزة ،
إذ عجزت القصداء والبلغاء عن موارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى :
(أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) ، أي : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذي فيه

(١) التفسير الطبري : ٥/٢٩ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٩ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ١٧ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٧٧ .

عبر ما قبلهم ، ونبا ما يعلم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تتألف أسدا من أهل الكتاب ، فبنتهم بأخباره إلى الصحف الأولى ، بيان الصواب مما انتظروا فيه ، وبالخط الواضح بين الليل ، كما قال تعالى : (لو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل (١)) ، وقال تعالى : (وقالوا : لو لا أنزل عليه آية من ربه ، لو لم تأتهم بيته ما فيه الصحف الأولى (٢)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثني سميد بن أبي سعيد ، عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أصلى » من الآيات « ما مظه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تأيماً يوم القيامة » (٣) ، أخرجه من حديث الليث (٤) .

وقال الله تعالى : (إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ، أي : إن في هذا القرآن (لرحمة) ، أي : أيها الحق ، وإزالة للباطل ، و (ذكرى) بما فيه حلول الثقات وتزول العقاب بالملكين والعاصين ، (لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) . ثم قال تعالى : قل : (كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) ، أي : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أتوك لكم من إخراجي عنه ، بأنه أرسلني ، فلو كنت كافياً عليه لانضممتي ، كما قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين : فما منكم من أحد عنه حاجزين (٥)) ، وإنا أنا صادق عليه فيما نعرضكم به ، ولهذا أيدى بالمعجزات الواضحات ، والذلال القاطعات .

(يعلم ما في السموات والأرض) ، لا تفتي عليه خافية .

(والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) ، أي : يوم معادهم سيجزى كل ما فعلوا ، ويقال لهم كل ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق وإتباعهم الباطل ، كلوا يرسل الله مع قيام الساعة على صنعم ، آمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجزى كل ذلك ، إنه حكيم عليم .

وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلَ مَسْمُوعِهِمْ أَتَانَهُمْ وَلِيَاثَنُهُمْ بِفِتْنَةٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠﴾ وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ لِلْعَلَّامِينَ مِنْ قُوتِهِمْ وَمِنْ فَتْنَةِ أَعْيُنِهِمْ وَهُمْ لَا يُرْجَوْنَ ﴿١٢﴾ دُورًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى نجرًا من جهل للمشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، ويأس الله أن يحل عليهم ، كما قال تعالى : (وإذا قالوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمنر علينا حجارة من السماء لو ائتنا بآياتك يا أيها النبي) ، وقال هاتين

(١) سورة الشعراء : آية : ١٩٧ .

(٢) سورة طه : آية : ١٣٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٤١ : ٤٥١ .

(٤) تقدم تفريع الحديث في الصحيحين ، حته الآية ٤٩ من هذه السورة .

(٥) سورة الحاقة : الآيات : ٤٤ - ٤٧ .

(٦) سورة الأنفال : آية : ٣٢ .

(ويستجولك بالملاب ، ولولا أجل مسمى لجاسم للملاب) ، أى : لولا ما حسّن الله من تأمر الملابس إلى يوم القيامة لجاسم الملابس تريبا مريحا كما يستجولون :

ثم قال : (وليأتينهم بقية) ، أى : فجأة ، (وهم لا يشعرون) يستجولوك بالملاب وإن جهنم خبطة بالكافرين) ، أى يستجولون بالملاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال حمزة ، عن حماد ، عن حكيمه قال فى قوله : (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ، قال : البحر (١) .
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا حلى بن الحسن ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن عباد ، حدثنا أبو من عباد ، عن الشعبي : أنه سمع ابن عباس يقول : (وإن جهنم خبطة بالكافرين) ، وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتشر الكواكب فيه ، وتكثر فيه الشمس والقمر ، ثم يستوفى فيكون هو جهنم :

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو حاتم ، حدثنا عبد الله بن أنس ، حدثني محمد بن (٢) حبيب ، حدثنا صفوان بن يحيى ، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : البحر هو جهنم ، قالوا ليل ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : (نارا أحاط بهم سرادقها) ، قال : لا ، والى نفسى يلى يده لا أدخلها أبدا حتى أعرض حل لله ، ولا يصعنى منها قطرة حتى أعرض حل الله عز وجل (٣) .

هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : (يوم يشاهم الملأ من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ، كقوله تعالى : (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) (٤) ، وقال : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) (٥) ، وقال : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكون من وجوههم النار ولا من ظهورهم) (٦) ، فالتار تشاهم من سائر جهنمهم ، وهذا أبلغ فى الملأ الحسى :

وقوله : (ويوقوا ذوقا ما كنتم تعملون) ، شديد وقريع وتوبيخ ، وهذا ملأ ملأ من النفوس ، كقوله : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) ، إنّا كل شئ خلقناه بقدر (٧) ، وقال : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) ، هذه النار التى كنتم بها تكتبون ، أنفسهم هذا أم أنتم لا تعلمون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ، إنّا نجزون ما كنتم تعملون (٨) .

(١) تفسير الطبرى : ٧/٢١ .

(٢) هو محمد بن حبيب بن زيد . شرح فى البحر والتمثيل لابن أبي ساتم : ٢٣٩/٢٤٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٢٢/٤ .

(٤) سورة الأعراف : آية : ٤١ .

(٥) سورة الزمر : آية : ١٦ .

(٦) سورة الأنبياء : آية : ٣٩ .

(٧) سورة النور : آية : ٤٨ ، ٤٩ .

(٨) سورة الطور : الآيات : ١٢ - ١٦ .

يُعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً لِّأُولَئِي فَأَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾
 كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَاصَّةً
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٣﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ مِنْ ذَاتِهِ
 لَا تَحِلُّ رِزْقُهَا اللَّهُ يُرزِّقُهَا وَيَاكُرُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٥﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقفرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحسوا الله ويبعدوه كما أمرهم ، ولهذا قال : (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون) :

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثني جبير بن عمرو القرشي ، حدثني أبو سعد الأنصاري ، عن أبي يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحينما أصبحت غريباً فلقم » (١) .

ولهذا لما ضيق على المتضيقين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليؤمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا هناك شعب للذين ، أصحبه النجاشي ملك الحبشة - رحمه الله - أولهم وأيدهم بصره ، وجعلهم سيوياً (٢) ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يربط للمطهرة .

ثم قال : (كل نفس ذائقة الموت ، ثم إلينا ترجعون) ، أي : أينما كنتم يترككم الموت ، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا يحده عنه ، ثم إلى الله المرجع ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم الثواب . ولهذا قال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَاصَّةً مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ، أي : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وشمس ، وحصل ولبن ، يصرقونها ويجرؤونها حيث شاموا . (خالدين فيها) ، أي : ما كنتم فيها أبداً لا يفتنون عنها حولاً ، (نعم أجر العاملين) ، أعنت هذه الثمرة أجراً على أعمال المؤمنين (الذين صبروا) ، أي : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، وتابوا الأعداء ، وطارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ووجاه ما عنده وتصليق موعوده .

قال ابن أبي حاتم ، رحمه الله : حدثني أبي ، حدثنا صفوان المروزي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن من أشبه زيد بن سلام ، عن جده أبي سلام الأسود ، حدثني أبو معاوية (٣) الأشعري : أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٦/١ .

(٢) أي : آمنين : قال ابن الأثير في النهاية : « وهي كلمة حبشية . وتروى بفتح السين . وتيل و سودم جمع سالم » أي تسودون في بلدك كالقائم السائمة ، لا يمارسكم أحد .

(٣) في المطبوعة : « أبو صالح الأشعري » . ولعلبت عن التلميحات السابقة . ولم تقع لنا ترجمته .

الله صلى الله عليه وسلم حدثه أن في الجنة عُرْقا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام وأقام الصلاة (١) والناس نيام (وعلى وجه يتوكلون) في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يخص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقهم حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت لِرِزَاقِ الْمَاهِجِينَ حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فلهذا بعد قليل صابروا أحكام البلاد في سائر الاقطار والأمصار ، ولهذا قال : (وَكُلِينَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) ، أي : لا تطيق جمعه ومحصله ولا تؤخر شيئاً لئلا (الله يرزقها وإياكم) ، أي : الله يفيض لها رزقها على ضعفها ، وينسره عليها ، فيبث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى اللزق في قرار الأرض ، والطير في المواء والحيتان في الماء . قال الله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن المروى ، حدثنا يزيد - يعني ابن هارون - حدثنا الجراح بن منهال الجيزي - هو أبو الطوف - عن الزهري ، عن رجل ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فبطل يقطع من التمر ويأكل ، فقال لي : يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ قال قلت : لا أشتهي يا رسول الله . قال : لكنني أشتهي ، وهذه صبيح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربّي فأعطاني مثل ملك قصير وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يستخبئون رزق ستمهم بضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما يرحنا ولا يرزقنا (٢) حتى نزلت : (وَكُلِينَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يأمرني بكثر الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كثر دنياه يريد بها حياة بالية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنّي لأكثر ديناراً ولا درهما ، ولا أنحياً رزقاً لئلا (٣) .

هذا حديث غريب ، وأبو الطوف الجيزي ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فروشه البيض ، خرجوا وهم يبيضون فإذا رآهم أبواهم كذلك ، فقرأ عنهم أباما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ قائماً فاه لا يفقد (٤) أبويه ، فيفيض الله له طراً صغيراً كالبرخيش (٥) بمشاه فيثبته منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رآوه أبيض الريش فقرأ عنه ، فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفاً عليه بالخصانة والفرق ، ولهذا قال الشاعر :

يا راقق الثعالب (٦) في عشه . وجابر المظلم الكنس الملهي

(١) «أباح الشيء : أطلعه» . وفي الطبعات السابقة : «وقائع الصلاة والصيام» وقام بالليل والناس ليام .

(٢) «أي : ولا يرحنا ، يقال : دام يرحم : إذا برح وزال من مكانه» ، وأكثر ما يعمل في النسي .

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن صاکر ، وقال : يست ضعف . انظر : ١٤٩٧ .

(٤) في المخطوطة : «وقال أبويه» . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) البرخش - يورن جطر - : اليموش .

(٦) الثعالب : فرخ الغراب حتى يملك لكثرة نجه .

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « سافروا تصحوا وترزقوا » ،

قال البيهقي اخبرنا إسماعيل أبو الحسن علي بن عبدان ، اخبرنا أحمد بن حنبل ، اخبرنا محمد بن غالب ، حدثني محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رزاد - شيخ من أهل المدينة - حدثنا عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سافروا تصحوا وتغنوا . قال : ورويناه عن ابن عباس .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ثوبان ، حدثنا ابن لهيعة ، عن دراج ، عن عبد الرحمن بن حنبل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سافروا ترزقوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنوا » (١) .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا ، وعن معاذ بن جبل موقوفا . وفي لفظ : « سافروا مع ذوي الجود والمليسة » .

وقوله تعالى : (وهو السميع العليم) ، أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ؛

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسُ وَخَرَجَ الْقَمَرُ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦﴾ اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ هَاجًا فَلَحَابٍ بِهِ الْآرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مفرقا أنه لا إله إلا هو ، لأن للشركين - الذين يحدون معه غيره - مغرور أنه للمستقل خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرزق لعباده ومقدر أجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم تفاوت بينهم ، ففهم الغنى والفقر ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى من يستحق الفقر ، ففكر أنه المستبد خلق الأشياء المنفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالأضراف بتوحيد الرواية . وقد كان للمشركون يشرفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تليجهم : « ليلك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

وَمَا عَلَيْهِ الْحَيَوةُ الذِّئْبُ إِلَّا هُوَ وَلَبَّ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمِنَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَذَارِكُوا فِي الْفَلَاحِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِنَّمَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا آيَاتُهُمْ وَابْتِغَاءُ مَقْصُودٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ضرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها هو ولعب : (وإن الدار الآخرة من الحيوان) ، أي : الحياة الدائمة الحق التي لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الأبد :

(١) لفظ الحديث في المسند ٢/ ٣٨٠ : « سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا » .

وقوله : (لو كانوا يعلمون) ، أي : لا أتروا ما يمي علي ما ينبغي .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ، (فإذا ركعوا
 قالوا انقلب دعوا الله خصيب له الدين) ، كقولهم : (وإذا مسكُمُ الضرُّ بالبحرِ صلبٌ من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البرِ أمرهم) (١)
 وقال هاهنا : (فلأنهم إلى امر إذا هم يشركون) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبي جهل : أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ذهب فاراً منها ، فلما ركب في البحر لينهب إلى الحشة ، اضطربت بهم سمعته ، فقال أهلها : يا قوم ، انظروا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى ما هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى في البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره في البر أيضاً ، اللهم لك على عهد النبي نبي ، لأفعلن فلاضمن ، يدي في يد محمد فلاضدنه وموطأ رحباً ، وكان كذلك .

وقوله : ﴿ لِكَيْفَ نَعْلَمَ تَوْبَتَهُمْ وَلِيُنْذِرَ سَائِرَ الْبَشَرِ ﴾ ، هذه الآية يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ، لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تحذير الله عليهم ذلك وتقييده إياهم للملك فهو لام التعليل ، وقد قلنا تقرير ذلك في قوله : ﴿ لِكَيْفَ نَعْلَمَ تَوْبَتَهُمْ وَلِيُنْذِرَ سَائِرَ الْبَشَرِ ﴾ . (٢)

أَوْ رَوَّانَا جَعَلْنَا حَمَإً مِّنَّا وَيَخْلِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۖ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَلُوا
فِينَا لَنُؤَدِّيَنَّهُمْ سَبَأًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مبتدأ على قریش فبا أحلهم من حرمة ، الذى جملة الناس سواه العاكف فيه والبادى ، ومن دخله كان آمنا ، لهم في أمن عظيم ، والأعراب حوله ينبه بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا قال تعالى : (إياهم قریش . إيلالهم رحلة الشتاء والصيف . فليجئوا رب هذا البيت . الذى أحلهم من جوع وأمهم من خوف) (٣) .

وقوله : ﴿أَبِالْأَبْلَاطِ يُؤْمِنُونَ﴾ ونعمة الله بكمرون ، أي : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعيولهم الأستام والأكتاد ، و (يبدلون نعمة الله كفرًا وأحوا فرغهم دار البوار) (٤) ، وكفروا بنبي الله وعبيده ورسوله ، فكان اللاتي هم لخلص العبادة ، وأن لا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتنظيمه وتوقيده ، فكلبوه وقتلوه وأشجروه من بين ظهرهم ، ولعلنا سلهم الله ماكان آمנם به عليهم ، وقتل من قتل منهم يئس ، وصارت النبوة لله ورسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأخرجهم أتلهم وأتلك وقامهم ۞

(١) سورة الإسراء : ٦٧ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٨ .

(۳) سورة قمرش، آية ۱۲ - ۱۴ .

(4) سورة إبراهيم ، آية : ٢٨ •

ثم قال تعالى : (ومن أظلم ممن اتقى الله كلباً أو كلباً يلقى لا يجمع) أي : لأحد أشد حقبة من كلبه على الله فقال : إن الله أوسع إليه ولم يرح إليه شيء ومن قال : سأزول مثل ما أنزل الله : وهكذا لا أحد أشد حقبة من كلبه يلقى لا يجمع ، فالأول مفر ، والثاني مكلف ، ولما قال : (أليس في جهنم مثوى للكافرين) :

ثم قال : (وللمن جاهدوا فينا) أي : يفتي الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، (لنهينهم سبيلنا) أي : لننصبرهم سبيلنا ، أي : طرقتنا في الدنيا والآخرة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله بن أبي الموارى ، حدثنا عيسى الميموني أبو أحمد - من أهل حكا - في قول الله : (وللمن جاهدوا فينا لنهينهم سبيلنا وإن الله مع المحسنين) قال : الذين يعملون بما يعلمون ، عليهم لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الموارى : حدثت به أبا سليمان اللؤلؤي فأصعبه ، وقال : (ليس آ ينيي لمن أكرم فينا من أنكر أن يعمل به) حتى يسمعه في الآخر ، فإذا سمعه في الآخر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما في نفسه .
وقوله : (وإن الله مع المحسنين) قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو عبد الله عيسى بن جعفر قاضي الري ، حدثنا أبو جعفر الرزقي ، من الكوفة : من الشعبي قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . والله أعلم .

تفسير سورة الروم

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِهِ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٦﴾

انزلت في هذه الآيات حين غلبه سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، واضطر هرقل ملك الروم حتى ألقاه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم حادت الدولة لفرقل كما سيأتي .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبي حمزة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى : (أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَذَى الْأَرْضِ) ، قال : غَلِبَتْ وَخَلَبَتْ . قال : كان للمشركين حين أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون حين أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لابي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أما إنيهم سيغلبون ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر - للنبي - صلى الله عليه وسلم فقال : ألا جعلتها إلى دؤن - أراه قال : العشر . قال سعيد بن جبير : للبضع مائة والعشر : ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : (لَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ) . في أَذَى الْأَرْضِ وهم من بعد ظلمهم سيغلبون : في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون : ينصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز (١) الرحيم .

مكذبا رواه الترمذي والنسائي جميعا ، عن الحسين بن حريش ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبي إسحاق الفزاري ، عن سفيان بن سعيد الثوري ، به . وقال الترمذي : حسن غريبه (٢) ، إنما تعرفه من حديث سفيان ، عن حبيب (٣) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن محمد بن إسحاق الصائغاني ، عن معاوية بن عمرو ، به . ورواه ابن جوير

(١) مسند الإمام أحمد ٤ : ٢٧٦/١ ، ٢٠٤ .

(٢) في الترمذي : حسن صحيح غريب .

(٣) نسخة الأخرى : تفسير سورة الروم ، الحديث ٣٧٤٤ : ١/٩ - ٥١ - ٥٢ .

حدثنا محمد بن الحنفى، حدثنا محمد بن سعيد - أو سعيد (١) الثعلبي الذى يقال له أبو سعد من أهل طرسوس - حدثنا أبو إسحاق الفزاري، فذكره. وعندهم: قال سفيان: فيلبنى أنهم غلبوا. يوم بدر (٢).

حديث آخر: قال سليمان بن مهران الأعمش، عن مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: خمس (٣) مضمرة: الدخان، والأرقام، والبليطة، والقتير، والروم. أخرجه (٤).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا الحارثي، عن داود بن أبي هند، عن عابر - هو الشعبي - عن عبد الله - هو ابن ميمون رضى الله عنه - قال: كان فارس ظاهراً على الروم، وكان للمشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، وكان للمسلمين يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم، لما نزلت: (الم - خلت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيبلون في بضع سنين)، قالوا: بأبأ بكر - إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق. قالوا: هل لك إلى أن نفاكرك فيأبوه على أربع ثلاثين (٥) إلى سبع سنين، فبض السبع ولم يكن شيء. ففرح للمشركون بذلك وشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما بضع سنين مثلكم؟ قالوا: دون المشر. قال: اذهب فإبنيهم واتدد سنين في الأجل. قال: فامضت الستة حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس، ففرح المؤمنون بذلك، وأنزل الله: (لم - خلت الروم) - إلى قوله: (لا يغلب الله) (٦) وعنده.

حديث آخر: قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عمر الوكيلى، حدثنا مؤمل، عن إسرائيل بن أبي إسحاق، عن البراء قال: لما نزلت: (لم - خلت الروم - في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيبلون)، قال للمشركون لأبي بكر: ألا ترى إلى ما يقول صاحبك؟ يزعم أن الروم تغلب فارس. قال: صدق صاحبي. قالوا: هل لك

(١) في المخطوطة: «أبو سمية». وأثبتنا ما في الطبقات السابقة، وهو موافق لنقطة الطبري.

(٢) تفسير الطبري ١٢/٢١.

(٣) أي خمس كلمات قد وقعت، الأولى: الدخان، قال الله تعالى: (يوم تأتي السحاب بالدهان مبين)، وكان رسول الله قد دعا حل قريش - لما استعصت عليه - فقال: اللهم أني أطلب سبع كسب يوسف، فأصابهم قسح شديد، حتى أكلوا الظلم، فنجى الرجل ينظر إلى السحاب، فيرى ما به ويبصا كهية الدخان، من الجبل، وقيل: كان يخرج من الأرض بخار كهية الدخان، من شدة سراتها ووجها بسبب عدم الغيث.

والثانية: الأرقام، وقد احتلف فيه، فذكره ابن أبي حاتم في تفسيره بأنه للقتل الذي أساميه يهود، وروى ذلك عن ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومجاهد، وقاتلة، والضحك.

وقيل: هو اتصال القتل بعضهم ببعض في بدر.

وقيل: هو الأسر فيه، وقد أسر صليون قرشياً. وقيل: هو الخط، وحل هذا بكونه هو الدخان واحداً.

والثالثة: البليطة، روى التي قال الله تعالى: (يوم يلعن البليطة الكبرى)، وذكر أن المقصود بها القتل الذي وقع يوم بدر، فتكون هي والأرقام - في بعض ما روى في تفسيرها - واحدة.

والرابعة: القتر، روى التي قال الله تعالى: (انقربت الساعة وانتق القتر).

والخامسة: الروم، روى الملائكة التي نحن بسعدنا.

(٤) البخاري، تفسير سورة النحل ١٦٤/٦، ومسلم كتاب صفه القيامة والجنة والنار، باب: الدخان، ١٣١/٥ - ١٣٢.

(٥) الثلاثين: جميع قلوب، روى عن الإبل: للشاة.

(٦) تفسير الطبري ١٤/٢٩ - ١٥.

أن تخاطبك (١) ؟ فجعل يته ويتهم أجلا ، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فاروس ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك وكرهه ، وقال لأبي بكر : مادحك إلى هذا ؟ قال : تصديقاً لله ورسوله . قال : تمرّس لهم وأعظم الحظير (١) ، واجعلهم إلى بضع سنين . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم . فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فاروس ، وربطوا خيولهم باللائن ، وبنوا الرومية ، فجاء به أبو بكر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : هذا السبت ، قال : تصديق به (٢) .

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس ، أخبرني ابن أبي الزناد ، عن عروة بن الزبير ، عن ليث بن مكرم الأسدي قال : لما نزلت (لم) غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيظيرون . في بضع سنين) ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان للمسلمون عيون [ظهور] الروم عليهم ، لأنهم ولّواهم أهل كتاب ، وفي ذلك قول الله : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) ، وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم ولّواهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان يبعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : (لم) غلبت الروم : في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيظيرون في بضع سنين) ، قال ناس من قريش لأبي بكر : فلذلك يبتنا وبينك زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - [فارتب أبو بكر وللشركون ، وتواضعوا الرهان] ، وقالوا لأبي بكر : كم تجعل البضع ، ثلاث سنين إلى سبع سنين ، فسمّ يبتنا وبينك وسعاً انتهى إليه : قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فضمت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأنشد للشركون ومن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فهاب المسلمون على أبي بكر تسعة ست سنين ، قال : لأن الله قال : في بضع سنين : قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير :

هكذا سألته الترمذي ، ثم قال : هذا حديث حسن صحيح (٣) ، لا تعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد (٤) . وقد روى نحو هذا رسلاً عن جماعة من التابعين ، مثل جكرمة ، والشامي ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، والزهري ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سفيان بن داود في تفسيره حيث قال : حدثني حجاج ، عن أبي بكر بن عبد الله ، عن جكرمة قال : كانت في فارس امرأة لا تلد إلا لملوك الأبطال ، فنهاها كسرى فقال : إنني أريد أن أبنت إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك ، فأشبرى عني ، أيهم أستعمل ؟ قالت : هذا فلان ، وهو أروغ من تلعب ، وأحلم من صقر ، وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان (٥) . وهذا شهريزاد ، وهو أحلم من كلا - تعني أولادها الثلاثة - فاستعمل أبهم ششت : قال : فإني قد استعملت الحليم : فاستعمل شهريزاد ، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم قتلهم ، وغرب ملكتهم ، وقطع زينتهم .

(١) أي : نراهنك ، وأحط - بتصحيح - ما يراهن عليه .

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن أبي يعل ، وابن أبي حاتم ، وابن مروه ، وابن حبان ، انظر ١٠٠٪ : ١٠١-١٠٢ .

(٣) في نسخة الأخرى : حسن صحيح غريب . . .

(٤) نسخة الأخرى : تفسير سورة الروم ، الحديث ٣٢٤٦ : ٥٢٩-٥٤٠ .

(٥) السنان : الرمح .

قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاه الخراساني فقال: أما رأيت بلاد الشام؟ قلت: لا، قال: أما إنك لو رأيتها لرأيت للدائن التي غربت، والذين للذي قطع: فأثبت الشام بعد ذلك فرائه.

قال عطاه الخراساني: حدثني يحيى بن يعمر: أن قيسر بعث رجلاً يدعى قطعة (١) بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز، فالتقيا بأذرعاء ومصرى، وهى أدنى الشام إليكم، فلقبت فارس الروم، فظنبتهم فارس: ففرحت بذلك كفتار قریش وكرهه للمسلمون:

قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنكم أهل كتاب، والانسارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخواننا من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظفركم حلبيكم، فأنزل الله: (لم) غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيبلون: في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا! ولا تحسبن الله أمينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم. فقام إليه أبى بن خلف قال: كلبت بأبأ فضيل، فقال له أبو بكر: أنت أكلب ياعبد الله: فقال: أناحيك (٢) عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس خربت، وإن ظهرت فارس خربت إلى ثلاث سنين، ثم جاءه أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، قال: ما هكذا ذكرت، إنما البضع مابين الثلاث إلى الصغ: فرائده في الحطير ومادة في الأجل، فخرج أبو بكر فلقى أنبياء قال: لعلك ندمت؟ قال: لا، قال أرايتك في الحطير وأما ذلك في الأجل، فأقبلها مائة قلوص لماة قلوص إلى تسع سنين: قال: قد فعلت: فظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فظنبتهم للمسلمون.

قال عكرمة: لما أن ظهرت فارس على الروم، جلس فرخان يشربه وهو أخو شهريراز، فقال لأصحابه: لقد رأيت كافي جالس على سرير كسرى: فلبثت كسرى فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي فابعث إلى برأس فرخان: فكتب إليه أبا الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، له نكاية (٣) وصوت في العدو: فلا تفعل: فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه، فاجعل إلى برأسه: فراجعه، فغضب كسرى فلم يجبه، وبعث يريد إلى أهل فارس: إلى قد نزلت حنك شهريراز، واستعملت حلبيكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا ولى فرخان لللك، وإفاد له أخوه، فأصله هله. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعاً وطاعة، وتزل عن سرير، وجلس فرخان، ودفع إليه الصحيفة قال: انكروني بشهريراز، وقد كنت ليضرب عقه، قال لا تجعل حتى أكتب وصيى، قال: نعم: فدعا بالسفط (٤) فأصله الصالح وقال: كل هذا واجبت عليك كسرى، وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد: فرد الملك إلى أخيه شهريراز، وكتب شهريراز إلى قيسر ملك الروم: إن في إليك حاجة لا تجعلها البرد ولا تصلها الصحن، فالتقى ولا تلقى إلا في خمسين روميا، فأنى

(١) في المخطوطة: يدعى بطه، والمثبت عن تفسير الطبري والتهجمات لأصحابه.

(٢) أي: أراحتك.

(٣) في تفسير الطبري: وإن له نكاية مرغوبة في العلم.

(٤) السفط - بفتح السين والقاف - والجوانق.

أفك في خمسين فارساً ، فقبل قيصر في خمسيناً (ألف) روى ، وجعل (يضع) الصيون بين يديه في الطريق ، وخاف أن يكون قد ذكر به ، حتى أتاه خبره أنه ليس منه إلا خمسون رجلاً . ثم بسط لها والفتيا في قبة ديباج ضربت لها ، مع كل واحد منها سكينة ، فلحقا (١) ترجمتا بينهما ، فقال شهر يراز (٢) إن للذين عذبوا مثلناك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حسنتنا ولراد أن أقتل أنى فأبيت ، ثم أمر أنى أن يقتلني ، وقد خطبناه جميعاً ، فشنع قتالته ملك : قال : قد أصبنا ، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فلحقا جلود اثنين فشا : قال : لجل : فقتلا الرجبان جميعاً بسكينتهما ، فأهلك الله كسرى ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فحرق والمسلمون معه (٣) :

فهذا سياق غريب ، وبنده حبيب ، ولتكم على كلمات هذه الآيات الكريمة ، قوله تعالى : (ألم . غلبت الروم) ، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ، في أول سورة البقرة (٤) ، وأما الروم فهم من سلالة اليمص (٥) بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بني إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة بانث ابن نوح ، أبناء عم الترك ، وكانوا يملكون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحررة ، ويصلون إلى القطب الشمال ، وهم الذين أسروا دمشق ، وبنوا مبدعا ، وفيه طريق إلى جهة الشمال ، فكان الروم حل دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من الألف سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر : فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطنس ، وأمه مريم الملاكية (٦) من أرض حران ، كانت قد تصورت قبله ، فدخلت إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلرسا ، فأنجبا - يقال : تكيّف (٧) - واجمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافاً معشراً مشتبهاً لا يضببط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أسقفاً ، فرضوا قسطنطين المقيده ، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإغاها في نهاية الحفرة ، ووضعوا له القوانين - يمتنع كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحاطون إليه ، وخبروا دين للمسيح عليه السلام ، وزادوا فيه وقصصوا منه ، وفصلوا إلى المشرق واحتاضوا عن السبت بالأحد ، وحلوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واقتلوا أحياءاً أحسنوها كعيد الصليب والقديس والطاس ، وغير ذلك من البراميت والشعائين (٨) ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم للطائرة ، ثم الأساقفة والقساسة ، ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمابد ، وأسس للمدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية ، يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لهم بثلاثة عوارب ، وبنى أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يمتنع الذين هم على دين الملك ،

(١) يقال : حبياً ، وحبياً . انظر القاموس المحي .

(٢) انظر تفسير الطبري : ٢١ / ١٢ - ١٤ .

(٣) انظر : ١٠٦ / ١ - ١٠٠ .

(٤) انظر جبهة أسماء العرب لابن حزم : ١١٠ .

(٥) كذا في خطوطة الأثر : وفي الطبقات السابقة : القسطنطينية .

(٦) أي : افتاد وسفراً .

(٧) انظر تفسير حله للكلمة في : ٧٦ / ١ .

ثم حدثت بعدهم البقوية أتياع بقويوب الإسكاف ، ثم التسطورية أصحاب فسطوا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إنيهم اتفروا على اثنين وسبعين فرقة (١) . والفرض أنهم استمروا على الصنافية ، كما هلك قيصر خلفه أكثر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل : وكان من قتلاء الرجال ، ومن أجرم للولك وأدعاهم ، وأبدهم خورا وأنصاهم رأيا ، فتمسك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة ، فتأوله كسرى ملك القرس ، ومملك البلاد كالمراف وخراسان والري ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رياسة العجم وحقاقه القرس ، وكانوا بجوسا يعبدون النار . فتقدم عن حكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، وللمشهور أن كسرى خزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت الصاري تعظمه تعظيما زائلا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لخصائتها ، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم المرة والمرة من هناك . فلما طال الأمر دير قيصر ميكيلة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقطع عن بلاده على مال يصلحه عليه ، ويشترط عليه مائة . فأجابته إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب ووجواهر وأقمشة وجوار وغطاء وأصناف كثيرة . فطاعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ماطلب ، واستقل قتله لاطلب منه ماطلب ، ولو اجتمع هو وزياده لميجز قلدونها عن جميع حشونه . وسأل كسرى أن يمكثه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من خزانته وحواصله ودفاته . فأشلق سره ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبهره ، في جند قد هيته من جيشي ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فانا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخير ، إن شئتم استعروم على يدي ، وإن شئتم ولينم عليكم خبري . فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ، ولو غبت عشره أوام : فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط ، ولما وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فمات في بلادهم قتلا لرجلها ومن بها من لقاتله ، أولا فاولا ، ولم يزل يقتل (٢) حتى انتهى إلى اللذان ، وهي كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر لسانه وحريمه وحقاق رأس ولده ، وركبه على حمار وبعث منه من الأساورة (٣) من قومه في غاية الفروان واللذة وكتب إلى كسرى يقول : لهما ما طلبت فخذله . فلما بلغ ذلك كسرى أخذته من اللطم مالا يحصى إلا الله عز وجل ، واشتد حظه على البلد ، فاشتد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من غاضة (٤) جيحون ، التي لاسيل قيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند قدم الغاضة ، وركب في بعض الجيش ، وأمر بأحبال من التبن والبر والذروت فصلت منه ، وسار إلى قريب من روم في للاء مصعبا ، ثم أمر بالقاء تلك الأحبال في النهر ، فلما حرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد غاضوا من هناك ، فركبوا

(١) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب شرح السنة ، الحديث ٤٥٩٦ : ٢٩٧/٤ - ٢٩٨ وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الفرق الآم ، الحديث ٣٩٩٢ : ١٣٢٢/٢ .
 (٢) في الخطوط : ولم يزل يقتل . وللتيت من العبيات السابقة .
 (٣) أي : القرسات منهم . جمع إسوار ، وهو القارس .
 (٤) الغاضة واغاض من الليل الكبير : الموضع الذي يخضض ملونه ويحركه مع الفيود عليه .

في طلبهم لشغرت (١) المضادة عن القرس ، وقدم قيسر فأمرهم بالتهوض في أنحوض ، فحاضوا وأمرها السبر فقاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يبدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيسر ، وبلادهم قد خربت بها الروم وأخلوا حواصلهم ، وسبوا ذرايعهم ، ونساءهم . فكان هذا من حُكْمِ الروم فارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب القرس للروم .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعائهم وبصرى ، على ما ذكره ابن عباس وحكمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما إلى بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فأنه أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ، فان البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع ، وكذلك جاء في الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن جُحَشى ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر في مناجاة (٢) (الم : غلبت الروم) : « ألا تحسنت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك (٤) . وقوله : (قد الأمر من قبل ومن بعد) ، أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبقي على الضم لما قطع المضاعف ، وهو قوله : قبل ، من الإضافة ، وثبت .

(ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) ، أى : للروم أصحاب قيسر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المغوس . وقد كانت نصرته الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والقرطبي ، والنسبى ، وغيرهم . وقد ورد في الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم واليزار ، من حديث الأعمش ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأزل الله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله بنصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) (٥) .

وقال آخرون : بل كان نصرته الروم على فارس عام الحديبية ، قاله حكمة ، والزهري ، وقطادة ، وغيرهم . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيسر كان قد نذر لئن أنظره الله بكسرى ليمشين من حصص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً لله - من وجل - ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه مع حبة بن خليفة ، فأعطاه حبة لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيسر . فلما وصل إليه سأل

(١) أى : غلبت منهم .

(٢) أى : مراعاة .

(٣) تحفة الأحوذى : تفسير سورة الروم : ٥٢/٩ . وتفسير الطبرى : ١٢/٢١ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٦/٢١ .

(٥) تحفة الأحوذى : تفسير سورة الروم : الحديث ٣٢٤٤ : ٥٠/٩ - ٥١ .

من بالثام من حريق الجباز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كهل قريش كانوا في غرة ، فجاءهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه - : إني سألت هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لو لا أن يأتروا على الكلب لكلبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل ينذر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعني بذلك المدة التي كانت قد وقعت بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ، لأن قيسر إنما وقي ينذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن ينجوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشتت ، لما تمكن من وفاة لدره حتى أصلح ما ينبغي إصلاحه ولقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وقي ينذره ، والله أعلم .

والأمر في هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من الفرس ، كما قال تعالى : (فليبدل أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، وليبدلن أفرسهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين وجهاناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذ سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آتينا فاكبتنا مع المشركين (١)) . وقال تعالى ها هنا : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثني أسيد الكلبي ، قال : سمعت العلامة بن الزبير الكلبي يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك في خمس عشرة سنة ،

وقوله : (وهو العزيز) ، أي : في انتصاره وانقضاه من أعدائه ، (الرحيم) بعباده المؤمنين .

وقوله : (وعد الله لا يخلف الله وعده) ، أي : هذا الذي أخبرناك به - يا محمد - من أن انتصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف ، ولابد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين للثنتين إلى الحق ، ويجعل لما العاقبة ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أي : يحكم الله في كونه وأفعاله بالحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون) ، أي : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حلق آذكياه في تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينضمهم في الدار الآخرة ، كان أحسن مستكمل لا نحن له ولا فكرة .

قال الحسن البصري : ولقد لبّخ من أحلم بدياه أنه قلب اللرم على ظفرو ، فيخبرك بوزنه ، وما حسن أن يصل .

وقال ابن عباس في قوله : يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، بنى : الكفار ، يعرفون حمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال (١) .

لَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِيَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ إِنَّ كَذِّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا فِيهَا يَمْتَرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منها على التفكر في عواقبه ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : (أو لم يتفكروا في أنفسهم) ، بنى به النظر والتفكير والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخالفات للثمة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا أنها ما غفلت سدئ ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها موجهة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ، ولعلنا قال : (وإن كثيرا من الناس بلفظهم لكافرون) .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أبهم به من للمميزات ، والدلائل الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال : (أو لم يسروا في الأرض) ، أى : بأفهامهم وصفوفهم ونظرهم وسامع أسيار الماضين ، ولعلنا قال : (فيظنوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة) ، أى : كانت الأمم الماضية والقرون السابقة أشد منكم - أبها للبحث إليهم عهد - صلوات الله وسلامه عليه - وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيت مشارا ما أولوا ، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ، وعمرها فيها أعمارا أطوالا ، فعمروها أكثر منكم . واستملوها أكثر من استملاكم ، وسع هذا لا جامتهم ورسولهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، انلحم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله إمن واق ، ولا حالت أسوأهم ولا أولادهم بينهم وبين يأس الله ، ولا دفوعاتهم مقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم لبا أمل لهم من العليق والنعال ، (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، أى : ولما أوتوا من أنفسهم حيث كتبوا بآيات الله ، واستمروا بها - وما ذلك إلا بسبب ذنوبهم السابقة وتكليفهم للنظم ، ولعلنا قال : (لم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كتبوا بآيات الله وكانوا يظلمون) ، كما قال تعالى : (وقلب أفتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ولنذرهم في طغيانهم يعمهون) ، وقوله : (فلما زاخروا الله للجهنم) ، وقال : (فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يعصمهم ببعض ذنوبهم) .

(١) تفسير البصري : ١٦٧/٢١ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١١٠ .

(٣) سورة القصص : آية ٥٠ .

(٤) سورة المائدة : آية ٤٩ .

وعلى هذا تكون السوراء [منصوبة مفعولا لأسماء ، وقيل : بل للمعنى في ذلك : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوراء)]
أى : كانت السوراء عاقبتهم ، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزون . فبلى هذا تكون السوراء منصوبة خبر كان ،
هذا توجيه ابن جرير (١) ، ونقله عن ابن عباس وقادة . ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم ، وهو الظاهر ،
والله أعلم ، (وكانوا بها يستهزون)

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١١﴾ وَلَيْسَ لَهُمْ
مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) ، أى : كما هو قادر على إنشاءه فهو قادر على إعادته ، (ثم إليه ترجعون) ،
أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله :

ثم قال : (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) ، قال ابن عباس : يبلس المجرمون .
[وقال مجاهد : يفتضح المجرمون : وفى رواية : يكتب المجرمون] :

(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) ، أى : ما شفعت فيهم الآلة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، وكفروا بهم
وخانواهم أحرص ما كانوا لأبيهم .

ثم قال : (ويوم تقوم الساعة ينفر فرقون) ، قال قتادة : هى - والله - القرعة التى لا إجماع بعدها (٢) . يعنى :
إذا رفع هذا إلى علبين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ، ولما قال : (فأما الذين آمنوا وعملوا
الصالحات فهم فى روضة يحبرون) ، قال مجاهد وقادة : ينعمون :

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى مباح الفناء . والحبرة أعم من هذا كله ، قال المنبجج (٣) :

الحمد لله الذى أعطى الخير موالى الحق ، إن المولى شكركم

فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٦﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ
تُظْهِرُونَ ﴿١٧﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٨﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه للقسمة ، وإرشاد لعباده إلى تسميته وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الثلاثة على كمال
قدرته وعظم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بغلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

(١) تفسير الطبري : ١٨/٢١ .

(٢) تفسير الطبري : ١٩/٢١ .

(٣) لسان العرب (سير) وتفسير الطبري : ١٩/٢١ .

ثم اعترض بحمله ، مناسبة للتسبيح وهو التوحيد ، قال : (وله الحمد في السموات والأرض) ، أي : هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض .

ثم قال : (وعشيا وحين تظهرون) ، فالعشاء هو : شلة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء : ف سبحانه خالق هذا وهما ، قاتق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : (والنهار إذا جلاها • والليل إذا يشاها (١)) ، وقال : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى (٢)) ، وقال : (والضحى • والليل إذا سجى (٣)) ، والآيات في هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لحيمة ، حدثنا زبّان بن قائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وني ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون (٤) .

وقال الطبراني : حدثنا مطلب بن شبيب (٥) الأزدي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن اليلماني ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال حين يصبح : (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) الآية بكاملها ، أدرك ما فاتته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليله . إسناده جيد (٦) ، ورواه أبو داود في سننه (٧) .

وقوله : (يخرج اللى من الليث ويخرج الليث من الحى) ، هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فانه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليل خلقه على كمال قدرته ، فن ذلك إخراج الثبات من الحلب ، والحلب من الثبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : (يحيى الأرض بعد موتها) ، كقوله : (وآية لم الأرض للينة أحييناهما وأخرجنا منها حيا فتة بأكلون : وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٨)) ، وقال : (وبرى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

(١) سورة الشمس ، آية : ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الليل ، آية : ١ ، ٢ .

(٣) سورة الضحى ، آية : ١ ، ٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٣٩/٢ .

(٥) في الجسم الصغير الطبراني : ١١٩/٢ ، مطلب بن سعد . وما في ميزان الاعتدال ١٢٨/٤ هو الحق ما هنا .

(٦) خلق حل أحسن الطبعات أن في النسخة المتبعة : . إسناده ضعيف . هذا ونحوه بن جبه الرحمن بن الليثاني - كما في ميزان الاعتدال ٦١٧/٢ - قال عنه البيهقي وأبو سالم : متكرر الحديث .

(٧) سنن أبي داود : كتاب الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح ، أخرجه : ٣١٩/٤ .

(٨) سورة يس : الآية : ٣٣ ، ٣٤ .

وريت وأنت من كل زوج هيج : ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير : وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور (١) ، وقال : (وهو الذي يرسل الرياح بشرابين من رحمة حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقانا ليل مبدت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) (٢) ولهذا قال هاتما : (وكذلك نخرجون) :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى : (ومن آياته) الثالثة على عظمتها وكبر قدرته أنه خلق أبائكم آدم من تراب ، (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان خلقه ، ثم مضى ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كما الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سمع بصير : ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيفا القوي والحركة ، ثم كلما طالع عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آكل به الحلال إلى أن صار بيني للدائن والمحصون ، ويسافر في أنظار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أنظار الأرض ويتكسب ويبيع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودعاء ومكر ، ورأي وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه : فبسطان من أقدارهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفازت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقيح ، والنبى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) :

١ وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وعبد بن خالد : حدثنا عوف ، عن قدامة بن زهير ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخيف والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك (٣) :

ورواه أبو داود والترمذي من طرق ، عن عوف الأحرابي ، به : وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح (٤) . وقوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) ، أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يَكُنْ لكم أزواجا ، (لتسكنوا إليها) ، كما قال تعالى : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) (٥) ، يعنى بذلك حوله ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأيسر الأيسر : ولو أنه جبل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر إما من جان أبو حيوان ، لا حصل هذا الاختلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل لقصة لو كانت الأزواج من غير الجنس : ثم من تمام رحمة يبنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهم مودة : وهى المحبة : ورحمة : وهى الرأفة ، فإن

(١) سورة الحج ، آية ٥ - ٧ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٥٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ٤ : ٤٠٠ ، وانظر ٤ : ٤٠٦ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في القدر ، الحديث ٤٦٩٢ ، ٢٢٢٢٤ . ونسخة الأحرار : تفسير سورة

القنطرة ، الحديث ٤٠٣١ ، ٨ : ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٨٩ .

الرجل يملك المرأة إما لجهته ما أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو لألفة بينها ، وغير ذلك ، (إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون) .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْوُجُوهِ الَّتِي لَا يَكُونُ لَهَا مِثْلٌ شَيْءٌ مِمَّا يَخْلَقُ ۚ وَهُوَ غَالِمٌ فِي خُسُوفِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعُلَمَاءٍ مُّنتَبِهِينَ ۚ وَنُفُوسٍ مُّطْمَئِنِّينَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) ، أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشقوق أجرامها وزخارفها (كواكبها ونجومها والربوات والسيارات ، والأرض فى انقياضها وكتافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقار ، وحيوان وأشجار .

وقوله : (واختلاف ألسنتكم) ، أى : اللغات ، فهولاء بلغة العرب ، وهولاء بتسليم لغة أخرى ، وهولاء كترج ، وهولاء روم ، وهولاء إفريق ، وهولاء بربز ، وهولاء تكتور ، وهولاء حبشة ، وهولاء هند ، وهولاء عجم ، وهولاء صفالية ، وهولاء حور ، وهولاء أرم ، وهولاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات نبي آدم ، واختلاف ألوانهم وحللاتهم ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عيانه وحاجياته ، وألف وجين ، وفم وشدان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقة بشئ من السمات أو الهيئة أو الكلام ، ظاهراً كان أو خفياً ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة فى صفة من جبال أو قبح ، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، (إن فى ذلك لآيات للعالمين) . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتنائكم من فضله ، أى : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وقضاء الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) ، أى : يهتدون .

قال الطبراني حدثنا حجاج بن محمد السلمي ، حدثنا عمرو بن الحصين الثقفي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عجلان ، حدثني ثوبان بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه ، عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قل : اللهم ، غارت النجوم ، وحدأت العين ، وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم ، لا أتم عني » . فقلت لها ، فذهب عني .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : (ومن آياته) الآية على عظمتها أنه (يرىكم البرق) خوقاً وطمعاً ، أى : آتاة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مرسجة ، أو صواعق متلفة ، وثارة تروحون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال : (ويرى من السماء ماء يخرج به الأرض بعد موتها) ، أى : بعد ما كانت هاملة لا نبات فيها ولا شئ ، فلما جاءها الماء (أهترت ورويت وأنبت من كل زوج شيخ) . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على الماد وقيام الساعة ، ولهذا قال : (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

ثم قال : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) كقوله : (وعملك السماء أن تهب على الأرض إلا بإذنه (١)) ، وقوله : (إن الله يملك السموات والأرض أن تزولا (٢)) . وكان عمر بن الخطاب -- رضى الله عنه -- إذا اجتهد فى اليمين يقول : لا ، واللهى تقوم السماء والأرض بأمره . أى : هى قائمة ثابتة بأمره لما وصفه إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بذلك الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أميها بأمره تعالى ودعائه إياهم ، ولهذا قال : (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) ، كما قال تعالى : (يوم يدعوكم فتستجيبون لصدهم وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً (٣)) ، وقال تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة (٤)) ، وقال : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥)) .

وَلَهُمْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَنْتَرٰتَيْنِ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْدَى السَّبِيلِ
الْأَعْلٰى فِي السَّمٰوٰتِ ۚ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى : (وله من فى السموات والأرض) ، أى : ملكه وعيده ، (كل له قانتون) ، أى : خاضعون خاضعون طوعاً وكرها .

وفى حديث دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، مرفوعاً : « كل حشر فى القرآن يكثر فيه القنوت فهو الطاعة (١) » ،

(١) سورة الحج ، آية : ٦٥ .

(٢) سورة الفاطر ، آية : ٤١ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

(٤) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٥) سورة يس ، آية : ٥٣ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٧٥/٢ . وقد تقدم فى سورة البقرة عند تفسير الآية ١١٦ : ١٢٢/١ ، وقال ابن كثير هناك : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه » وروى هذا الحديث منكراً ، وقد يكون من كلام الصحابة أو من بعدهم . والله أعلم .

وقوله : (وهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : بقي أسـ عليه .

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداية ، والبداية عليه هيئ^(١) . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليان ، أخبرنا شبيب ، أخبرنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : قال الله : كند بني آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقله : لن يعيدني كما بدأت ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته . وأما شتمه إياي فقله : انفذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد^(٢) .

انفرد بإسـاجه البخاري كما انفرد بروايته أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن حماد عن أبي هريرة ، به^(٣) . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى ، عن ابن طيبة ، حدثنا أبو يونس سليم بن جبير ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ينحوه ، أو مثله^(٤) .

وقال آخرون : كلامها بالنسبة إلى القدرة على السواء .

قال العوفي ، عن ابن عباس : كل عليه حين . وكذا قال الربيع بن خثيم : ومال إليه ابن جرير ، وذكر حله شواهد كثيرة : قال : ويحتمل أن يعود التفسير في قوله : (وهو أهون عليه) إلى الخلق ، أي : وهو أهون على الخلق^(٥) .

وقوله : (وله الخلق الأعلى في السموات والأرض) ، قال طبري في طلبه ، عن ابن عباس فقله : (ليس كنهه في^(٦)) .

وقال قتادة : ملكه أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره . وقال مثل هذا ابن جرير^(٧) .

وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية بعض أهل المعارف :

إذا مسكنَ القديرِ هلَّى صمَاءُ وَجَنَّبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ التَّسْمِيُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِكَلَامٍ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَكَتَجُومُ
كَذَلِكَ قُلُوبُ أَتْرَافِكَ الشَّجَى يُرَى فِي صَمَوَّهَا اللهُ الصَّطِيْمُ

(وهو العزيز) : الذي لا يغالِب ولا يَمَاج ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه (الحكيم) في أفعاله وأقواله ، شَرَعاً وقَدَرَا .

وعن مالك في تفسيره المروي عنه ، عن محمد بن المنكدر ، في قوله تعالى : (وله الخلق الأعلى) ، قال : لا إله إلا الله .

(١) تفسير الطبري : ٢٤/٢١ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة الإخلاص : ٢٢٢/٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٥٠/٢ .

(٤) لفظ ابن جرير : ٢٤/٢١ : « أي : إعادة الشيء أهون على الخلق من ابتدائه » .

(٥) تفسير الطبري : ٢٤/٢١ .

يُضْرِبُ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآزِقِنَا ۚ فَذَرِكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَعْلَمُونَهُمْ
يَكْفِيكَمْ أَنفُسُكَ ۚ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ بَلَىٰ اتَّبِعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَوْ أَعْمُوا بِتَوْبِهِمْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
مِنَ أَضَلِّ آلِهَةٍ ۖ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

هنا مثل ضرب به الله - تعالى - للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاهلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له ، كما كانوا في تلبيحهم يقولون : ليك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم) ، أى : تشهدونه وتتهمونه من أنفسكم ، (هل لكم مما ملكت إيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) ، أى : لا (١) يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ، (تحافونهم كخيفتكم أنفسكم) ، أى : تحافون أن يقاسموكم الأموال ،

قال أبو جاز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذلك ، كذلك الله لا شريك له ۝

ولمضى أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف يحسبون لله الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى : (ويعلمون الله ما يكرهون (٢))
أى : من البنات ، حيث جعلوا للآلة التي هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوا بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتولى من التوم من سوء ما يشر به ، أعسكه على هون أم يدسه في التراب ، فهم يأفون من البنات وجعلوا للآلة بنات الله ، فنسبوا إليه مالا يرتضونه لأنفسهم ، فهنا أخطأ الكفر . وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عباده وخلقهم ، وأحسب بالي غاية الإلابة ويأنف غاية الأفقة من ذلك ، أن يكون عبده شريكاً في ماله ، يساويه فيه ، ولو شاد تقاسمه عليه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ۝

قال الطبراني : حدثنا حمود بن الفرج الأصمعي ، حدثنا إسماعيل بن عمرو الجبلي ، حدثنا حماد بن شعيب (٣) ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان يابى أهل الشرك : لييك اللهم ، لييك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله : (هل لكم مما ملكت إيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء تحافونهم ، كخيفتكم أنفسكم (٤)) ،

ولا كان التنبيه بهذا المثل على إيمانه تعالى وتزجته بطريق الأولى والأخرى ، قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) :

ثم قال تعالى ميتاً أن المشركين إنما عبدوا غيره سكتاً من أنفسهم وجهلاً ، (بل اتبع اللين ظلمات) ، أى : المشركون (أهواهم) ، أى : في عبادتهم الأنداد ينبر علم ، (فمن يهدي من أضل الله) ، لا أى : فلا أحد يهديهم إذا كذب الله

(١) في المخطوطة : ، أى : لا يرتضى . ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) سورة النحل ، آية : ٦٢ .

(٣) هو حماد بن شعيب الجبلي الحنبل . مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١١٢/٢٤١ .

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المختار عن الطبراني وابن مروي . انظر : ١٥٥/٥ .

هؤلاء ٢ : (وما لم من تاصرين) ، أى : ليس لم من قدرة الله منقاد ولا جبر ، ولا يجد لم عنه ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ،

فَأْتِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِصَلَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ * مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ رِزْقٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداه الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فانه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : (وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى (١)) ، وفى الحديث : « إني خلقت عبادي حنفاء ، فأجثلتهم الشياطين عن دينهم (٢) » . وسنذكر فى الأحاديث أن الله - تعالى - فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية .

وقوله : (لا تبديل لخلق الله) ، قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتبدلوا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : (ومن دخله كان آمناً (٣)) ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه - تعالى - ماوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبيلة المسقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك . ولما قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبيرة ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والفساحك ، وابن زيد فى قوله : (لا تبديل لخلق الله) ، أى : لدين الله (٤) .

وقال البخارى قوله : (لا تبديل لخلق الله) : لدين الله ، خلقنى الأولين : [دين الأولين] ، والدين والفطرة : الإسلام .

حدثنا صيدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهري ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم (٥)) » .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأئلى ، عن الزهري ، به (٦) . وأخرجاه أيضاً من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم (٧) .

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٧٢ .

(٢) انظر الحديث منه تفسير آية الأعراف : ٣/٥٠٠ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٩٧ .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٧/٢٩٦ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة الروم : ١٤٣/٦ .

(٦) مسلم ، كتاب القدر ، باب : متى كل مولود يولد على الفطرة : ٥٣/٨ .

(٧) انظر تفسير آية ١١٩ من سورة النساء : ٣٦٨/٢ ، فقد خرجنا هناك الحديث وحرصنا فريه . كما ينظر أيضاً :

وفى معنى هذا الحديث قد وردت لحديث عن جماعة من الصحابة ، انهم الأسود بن سريج التميمي ، قال الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن الأسود بن سريج قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغزوت معه ، فأصبحت ظهراً (١) ، فقتل الناس يونس ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا النرية ؟ . فقال رجل : يا رسول الله ، أمام أبناء المشركين ؟ فقال : ألا إنما يخبركم أبناء المشركين (٢) . ثم قال : لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية . وقال : كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُحرب (٣) منها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها (٤) .

وردوا السائق في كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هشيم ، عن يونس - وهو ابن عبيد - عن الحسن البصري ، به :

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُحرب عنه لسانه ، فإذا عر (٥) عنه لسانه إما شاكراً وإما كافراً (٦) .

ومنهم عبد الله بن عباس المصفي ، قال الإمام أحمد :

حدثنا حفان ، حدثنا أبو عروة ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد للمشركين ، فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم (٧) . أخرجه في الصحيحين ، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس البشكري ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعاً (٨) بذلك .

وقد قال أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - بن أبي سلمة - أنبأنا عمر بن أبي حمزة ، عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين . وأولاد للمشركين مع المشركين ، حتى حدثني فلان

(١) في المخطوطة : ظهر . والمكتب من المصنف : والظهر - ينضح لمكون - : الإبل التي يحمل عليها ويركب .

(٢) ينى - عليه السلام - أن غيار الصحابة ولدوا في الجاهلية ، وكلموا بعد أن صاروا رجالاً .

(٣) أى : عذب .

(٤) سنة الإمام أحمد : ٤٣٥/٢ . وانظر أيضاً في تفسير سورة حود : ٢٤١/٤ .

(٥) في المصنف : فلما أحرجه .

(٦) سنة الإمام أحمد : ٣٥٢/٣ .

(٧) سنة الإمام أحمد : ٣٢٨/١ .

(٨) البخاري ، كتاب المغازي ، باب : ما قيل في أولاد للمشركين : ١٢٥/٢ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب : متى كل

مولود يولد على الفطرة : ٥٤/٨ .

عن فلان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنهم فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين : قال : فقلت الرجل فأنبرني ، فاستكت من قولي (١) :

ومنهم حياض بن حسكر المجاشعي ، قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مطرف ، عن حياض بن حمار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطب ذات يوم فقال في خطبه : إن ربي هو وجلي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومئذ : كل مال نحلته عبادي حلال . وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فآفستهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله - هو وجلي - نظر إلى أهل الأرض فبغضهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبليك وأبئلي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله (٢) الماء فتروءه ناعما ويقظان . ثم إن الله أمرني أن أسرق قريشا ، فقلت : يا رب ، إذا سئلتك وأمرني فبدوه حبيزة : قال : استخرجهم كما استخرجك ، واغزمهم نُغْزُك ، وأنفق [عليهم] فاستنق عليك . وابتعث جيشا يهت خمسة مئة ، وقتال ابن أطاحك من عصاك . قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موق . ورجل رحم وفق القلب بكل ذي قرى ومسلم . ورجل هيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ، اللين لم يهكم تبعا ، لا يعضن أهلا ولا مالا . ولئمان الذي لا يفتي (٣) له طمع وإن حق إلا خانه . ورجل لا يصيح ولا يمسى إلا وهو يخادك من أهلك ومالك . وذكر البخل ، أو الكلاب ، والشنظير : القحاش .

انقرض يئسجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به (٤) .

وقوله تعالى : (ذلك الدين القيم) ، أي : التمسك بالشرعية والقطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أي : فلعلنا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (٥) ، (وإن تلعب أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) (٦) ... الآية .

وقوله : (متبين إليه) - قال ابن زيد ، وابن جريج : أي راجعين إليه ، (واتقوه) ، أي : خافوه وراقبوه (وأقيموا الصلاة) ، وهي الطاعة المنظمة ، (ولا تكونوا من المشركين) ، أي : بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير : [حدثنا ابن حميد (٧) ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق (٨) ، عن ابن زيد بن أبي مريم قال : مر عمر - رضي الله عنه - بمعاذ بن جبل فقال : ما قرأ هذه الآية ؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن المنجيات :

(١) مسند الإمام أحمد : ٧٤/٥ .

(٢) هذا كناية عن كونه غفوطا في الصدور ، لا يطرُق إليه اللهاج .

(٣) أي : لا يظهر . والخلفاء من الأضداد .

(٤) تقدم الحديث في سورة المائدة عند تفسير الآية ١٩ منها . انظر : ٦٦/٣ ، وخرجناه هناك . وخرجنا فريه .

(٥) سورة يوسف : آية : ١٠٣ .

(٦) سورة الأنعام : آية : ١١٦ .

(٧) ما بين القوسين من تفسير الطبري .

(٨) في تفسير الطبري : يونس بن صالح . ويبدو أن الصواب ما في تفسير ابن كثير . انظر ترجمة يونس بن أبي إسحاق في التهذيب : ٤٣٣/١١ .

الإخلاص ، وهي النظرة الفطرية التي قَطَر الناس عليها ، والصلاة وهي اللذة ، والطاعة وهي العصاة ، فقال عمر : صلت (١) .

حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة : أن عمر - رضى الله عنه - قال لماذا : ما أقوام هذا الأمر ؟ ففكره نحوه (٢) .

وقوله : (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون) ، أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بألوه وغيره وآمنوا ببعض وكفروا ببعض :

وقرأ بعضهم : (فارقوا دينهم) ، أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدت الأولاد ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، لست منهم في شيء) ، وإنما أمرهم إلى الله ، ثم يبنهم بما كانوا يفعلون (٣) ، فلعن الأديان قبلنا اختلقوا فيها بينهم على آراء ومبطل باطلة ، وكل فرقة منهم زعم أنهم على شيء ، وهذه الأمة أيضاً اختلقوا فيها بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، للمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما كان عليه العصر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل عليه السلام عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : ما أنا عليه وأصحابي .

وَإِذَا سَأَلَ النَّاسُ ضَرْحاً دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِمَّنْ رَحِمَهُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَرْجِعُ بِحُكْمِ رَبِّهِمْ يُحْكُمُونَ
لِيُكْفَرُوا بِمَا أَتَيْنَاهُم فَتَمَتُّوا وَسُوءَ تَعْلُونِ ۖ أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْكُرُونَ
وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ مِّمَّا قَدَّمْتَأُنْذِرْهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

يقول تعالى خبراً عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فرغ منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ، ويميلون معه غيره .

وقوله : (ليكفروا بما آتيناكم) ، هي لام العاقبة عند بعضهم ، ولأم التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتفويض الله لهم ذلك ؛

ثم توعدهم بقوله : (فسوف تعلمون) ، قال بعضهم : والله لو توعذني حارس درب خلفت منه ، فكيف والتوعد هاهنا الذي يقول للشئ : كن ، فيكون .

(١) تفسير الطبري : ٢٦/٢١ .

(٢) المرجع السابق : ٢٦/٢١ - ٢٧ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٥٩ .

ثم قال منكراً على المشركين لما اذنبوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : (ألم نزلنا عليهم سلطاناً ،
 أى : حجة ، (فهو يتكلم) ، أى : ينطق (عاكفوا به يشركون) ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن شئ من ذلك .
 ثم قال : (وإذا أخذا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصيبهم سيئة بما كسبت أنفسهم إذا هم يقتلون) ، هذا إنكار على
 الإنسان من حيث هو إلا من عصمته الله ووفقه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطهر وقال : (ذهب السيئات عني) إنه لفرح
 شغور (١) ، أى : فرح في نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنطع وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛
 قال الله : (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) ، أى : صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرخاء ، كما ثبت في
 الصحيح : حببا للمؤمن ؛ لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سره شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر
 صبر فكان خيراً له (٢) ،
 وقوله تعالى : (ألم يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أى : هو للمصرف القائل لذلك بحكمته وعده ، فيوسع
 كل قوم ويضيئ على آخرين ، (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ،

فَعَلَتْ ذَا الْقُرْبَى حَقًّا وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾
 وَمَا آتَايْتُمْ مِنْ رِّبَا لِيَرْبِيَ إِلَّا أَمْوَالُ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَايْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْمُفْضَلُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِثْلَ
 شَيْءٍ سَيُجَنَّبُكَ الرَّعْبُ وَتَعْلَمُ مَا يُشْرُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى آمراً بأعطاء (ذى القربى حقه) ، أى : من البر والصلة ، (والمسكين) ، وهو : الذى لا شئ له ينفع عليه ،
 أوله شئ لا يقوم بكفايته ، (وابن السبيل) ، وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره ، (ذلك خير للذين
 يريدون وجه الله) ، أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، (وأولئك هم المفلحون) ، أى : في الدنيا وفي
 الآخرة .

ثم قال : (وما آتيتم من ربا ليربى في أموال الناس فلا يربو عند الله) ، أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس
 عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا سره ابن عباس ، وبجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ،
 وعبد بن كعب ، والشبي - وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نبى عنه رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - خاصة - قاله الضحاك ، واستدل بقوله : (ولا تمنن تستكثر) ، أى : لا تعط العطاة تريد أكثر منه .
 وقال ابن عباس : الربا رباً ما (٣) ، ربا لا يصح ، يعنى ربا البيع ؟ وربا لا يأمن به ، وهو هدية الرجل يريد
 فضلها وأضعافها . ثم تلاه الآية : (وما آتيتم من ربا ليربى في أموال الناس فلا يربو عند الله) .

(١) سورة هود : آية ١٠ .

(٢) تقدم الحديث في سورة هود ، عند تفسير الآية الحادية عشرة منها : انظر : ٢٤٣/٤ ، وقد خرجته هناك ، وانظره
 أيضاً في مستدرك الإمام أحمد : ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، ١٥/٦ ، ١٦ .

(٣) كذا في المخطوطة ، والرد المشهور : ١٥٦/٥ ، والمعروف لغة : « ربا » ، انظر لسان العرب مادة « ربا » .

وإنما الثواب عند الله في الزكاة ، ولهذا قال : (وما آتيتكم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المفلحون) ، أي : الذين يضاعف لهم الله ثم الثواب والجزاء ، كما في الصحيح : فما تصدق أحد بعلم نعمة من كسب طيب إلا أعطاه الرحمن يمينه ، فبرئها لصاحبها كما يبرئ أحدكم فكلوه أو فضيله ، حتى تصبر القرة أعظم من أحد (١) ؛
وقوله : (الله الذي خلقكم ثم رزقكم) ، أي : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه حروانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس واللؤلؤ والأماك وللكناس ، كما قال الإمام أحمد ،

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبي شرحبيل ، عن حبة وصوه أبي خالد قالوا : دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فسمعنا صوتاً فسمعنا ، فقال : « لا تلبسوا من الرزق ما تهزئت (٢) » وحسبكم ، فان الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة (٣) ، ثم يرزقه الله عز وجل (٤) ؛

وقوله : (ثم يميتكم) ، أي : بعد هذه الحياة ، (ثم يحييكم) ، أي : يوم القيامة ؛
وقوله : (هل من شركائكم) ، أي : الذين تعبدونهم من دون الله ، (من يفعل من ذلك من شيء) (٥) ، أي : لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله - سبحانه وتعالى - هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث للملائكة يوم القيامة . ولهذا قال بعد هذا كله : (سبحانه وتعالى عما يشركون) ، أي : تعالى وتقدس وتزه وتعاليم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾

قال ابن عباس ، وحكمة ، والفساد ، والسدى ، وغيرهم : المراد بالبر هاهنا القبايل ، والبحر : الأمصار والقرى ، وفي رواية عن ابن عباس وحكمة : البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف (١) ؛
وقال زيد بن ربيع : (ظهر الفساد) ، يعني : انقطاع اللطخ عن البر يفقه التحط ، وعن البحر بمعنى دوابه .
رواه ابن أبي حاتم (٢) .

-
- (١) تقدم الحديث في سورة البقرة ، عند تفسير الآية ٢٧٦ ، وخرجناه هناك ، وخرجناه غريبه ، انظر (١/٨٧) .
(٢) أي : تحركت .
(٣) أي : لباس .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٦٩/٣ .
(٥) انظر تفسير الطبري : ٣١/٢١ - ٣٢ .
(٦) الأكثر كان للبر المشرك ١٥٦/٤ ، قال : انقطاع اللطخ . قيل ، فالبر ؟ قال : إذا لم يهر حيث دواب البحر .

وقال : حدثنا محمد بن حيد الله بن يزيد القري ، عن صفيان ، عن حميد بن قيس الأخرج ، عن مجاهد : (ظهر الفساد في البر والبحر) ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد البحر : أخذ السفينة غضبا ؛
وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر ما فيه من اللذات والقري ، وبالبحر : جزائره ؛

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك أيلة ، وكتبه له بيسره يعني بيلده (١) ؛

ومعنى قوله تعالى : (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) ، أي : بان نقص في الثمار والزروع بسبب المعاصي ؛

وقال أبو العالية : من عصي الله في الأرض فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسياء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود : «لن تحمد يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يخطروا أربعين صباحا» (٢) . والسبب في هذا أن الخلود إذا أقيمت ، انكف الناس - أو أكثرهم ، أو كثير منهم - عن تعاطي المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصي كان سببا في عواقب الركات من السيأ والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى - عليه السلام - في آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة الطاهرة في ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف . فإذا أهلك الله في زمانه الجبال وأتباعه وأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجي بركاتك . فيأكل من الرمانة النشام (٣) من الناس ، ويستظلون بفحمها (٤) ، ويكفي ابن اللقمة الجماعة من الناس (٥) . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ثبت في الصحيح : أن الفاجر إذا مات تمسح العباد والبهائم والشجر والنواب (٦) ؛

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عوف ، عن أبي قحطم قال : وجد رجل في زمان زياد - أو ابن زياد - صرة (٧) فيها حبّ يعني من بر أمثال التوى (٨) عليه مكتوب : هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل (٩) ؛

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك ، وفيه نظر .

- (١) انظر سورة ابن هشام : ٥٢٥/٢ - ٥٢٦ .
- (٢) لم يقع لنا الحديث في سنن أبي داود . وقد تقدم تقريبنا لهذا الحديث عند تفسير الآية الثانية من سورة النور ، انظر : ٦/٦ .
- (٣) أي : البجعة .
- (٤) أي : يفسرها .
- (٥) انظر تفسير الآية ١٥٩ من سورة النساء : ٤١٥/٢ .
- (٦) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب «سكرات الموت» : ١٣٣/٨ . ومسلم ، كتاب الجنائز ، باب «ما جاء في مستريح ومسترح منه» : ٤٢/٣ .
- (٧) في المسند : «حرة» .
- (٨) في المسند : «أطال الثوم» .
- (٩) مسند الإمام أحمد : ٢٩٦/٢ .

وقوله : (ليأتيهم بعض الذي عملوا لهم يرجعون) ، أي : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والترات ، اختباراً منه ، وبجازة على سيئهم ، (لهم يرجعون) ، أي : عن الداعي ، كما قال تعالى (ويولتكم بالمحسنات والسيئات لهم يرجعون) (١) :

ثم قال تعالى : (قل : سبروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ،) أي : من قبلكم ، (كان أكثرهم مشركين) ، أي : فانظروا ما قاسمهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

قَالُوا وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْعَقُونَ ^(١٧) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْجِدُونَ ^(١٨) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ^(١٩)

يقول تعالى آسراً [عبادة] بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعه ، والمبادرة إلى الخيرات : (أفم وجهك للدين القيم ، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) ، أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا واد له ، (يومئذ يصبحون) ، أى : يخرجون ، يفرون في الجنة وفريق في السعير ، ولذا قال : (من كفر ضليه كفره ، ومن حمل حبله لفلانهم جهنم) ٢٠ . ليخرجي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) ، أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالا ، إلى سبعائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، (إنه لأعيب الكافرين) . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذي لا يجرؤ .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ تَبْرِتُ وَلِيَدْفِئَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَقْرَأَ مِنْ فُضْلِهِ
وَلِيُؤْتِيَكُمْ تَكْوِينًا ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا لِكُلِّ قَوْمٍ بِآيَاتِنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَضْنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾

يذكر تعالى نعمته على خلقه ، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، عبيء الفيت حقبتها ، ولعلنا قال : وليليكم من رحمته) ، أي : المطر الذي يتزله فيسقي به العباد والبلاد ، (ولتجرى الفلك بأمره) ، أي : في البحر ، وإننا سرها بالريح ، (وليضربوا من فضله) ، أي : في التجارات والمعايش ، والسبر من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، (ولعلكم تشكرون) ، أي : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التي لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم ، فجاءوهم بالبينات ، فأنقمنا من الذين أجرموا) ، هذه قضية من الله لعباده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه وإن كذب كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المقصودون مع جاءوا أنهم به من الأدلال الواضحات ، ولكن الله انتقم من كلهم وأخافهم ، وأنهى المؤمنين هم ، (وكان

(۱) سورة الاحراف ، آية : ۱۶۸

(٢) قال المبري ٣٣/٢١ : « يقول : فلا تفسهم يعملون ويموتون المنجيم ، ليصلوا وينجوا من عذاب » كما في الشام .

امهد لنفسك ، حلان السقم والطف • ولا تقهرن نفساً ما لها خلف

حقاً علينا نصر المؤمنين) ، هو حق لوجهه على نفسه الكريمة ، لكرما وفضلا ، كقوله تعالى : (كتب عليكم على نفسه الرحمة) (١) .

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا إسماعيل ، حدثنا ابن قتيب ، حدثنا موسى بن أبيه ، عن ليث عن شهر بن حوشب ، عن أم البرداء ، عن أبي البرداء قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما من امرئ مسلم يتردد عن عرض لحيه ، إلا كان حاضراً الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة : ثم تلا هذه الآية : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفْرِغُ مَاءً فِي سِطْحِهِ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيُجِئُ السَّحَابَ مُجْتَمِعًا فَتَنُجْرُجُ فِيهِ الْوُجُوهُ فَيُخْرِجُ مِنْ خَلْقِهِ فَإِنَّا أَصَابَ بِقَدَرٍ مِمَّنْ بَنَازَةٍ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ مُبَلِّغِينَ ﴿٢١﴾ فَانظُرْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذْ أَثَرَتِ رَحْمَتُ اللَّهِ كَيْفَ يُجَيِّدُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ لَمُؤَنٍّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَنَطْلُوهُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَكْفُرُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى كيف يخلق السحاب (٢) : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً) ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله من وجل ، (فيسطو في السماء كيف يشاء) ، أي : يمدّه فيكثره ويضمّنه ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشئ سحابة تفرى في رأى العين مثل الترس ، ثم يسطها حتى تغلأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر قالوا معلومة ماء ، كما قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقاهم ليلاء ميثقاً فأنزلنا به ليلاء ، فأخرجنا به من كل الثمرات - كذلك نخرج اللؤلؤ كذاكرون (٣)) ، وكلّ شيء لك حامداً (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ، فيسطو في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا) .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن الحلاء ، ومطر الزرقاق ، وقاعدة : ينحى قطعا (٤) ، وقال غيره : مترا كما : قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة ليلاء ، تراه ملغيا تليلاً فرياً من الأرض .

وقوله : (فرى الودق يخرج من خلاه) ، أي : فرى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحابات ، (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستشرون) ، أي : حاجتهم إليه يفرحون بتروله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبشرين) ، معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصبحهم هذا المطر كانوا قسطين أزبين (٥) من لؤلؤ للمطر إليهم قبل ذلك ، فلما جلعهم جاعهم على قاعة ، فوقع منهم موقعا عظيماً : وقد اختلف الصحابة في قوله (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبشرين) ، فقال ابن جرير : هو تأكيد : وحكاية عن بعض أهل العربية (٦) .

(١) سورة الأنعام ، آية ١٢ .

(٢) السحاب : جمع سحابة ، وقد أتته المؤنث باعتبار المنى . هذا والتفسير الطبري عنه هذه الآية : ٣٥/٢١ .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٥٧ .

(٤) التفسير الطبري : ٣٥/٢١ .

(٥) الأزرق - بفتح فسكون - : الشدة .

(٦) انظر آراء النحاة في البحر المحيط لأبي حنيفة : ١٧٨ - ١٧٩ ، والتفسير الطبري : ٣٤/٢١ .

وقال آخرون : من قيل أن يترك عليهم للطر ، (من قبله) ، أى : الإزال (المحلى) .

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا يحتاجون إليه قبل قوله ، ومن قبله أيضا قد فاتت عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فزرقوه في إياته فطُفِر ، ففست مدة فزرقوه فطُفِر ، ثم جامع بينه بعد الإياس منه والوقوف ، فبعد ما كانت أروضهم مشعرة هائلة أصبحت وقد انحزرت وربت ، وأثبتت من كل زوج بهيج : ولما قال : (فانظر إلى آثار رحمة الله) ، يعنى للطر ، (كيف يحيى الأرض بعد موتها) .

ثم به بملك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها ونزقها ، فقال : (إن ذلك لفي الوقي) ، أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، (إنه على كل شئ قدير) .

ثم قال تعالى : (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظنوا من بعده يكفرون) ، يقول : (ولئن أرسلنا ريحا) بآية على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع في القصاد ، لظنوا من بعده ، أى : بعد هذا الحلال يكفرون ، أى : يحدون ما تقدم من التمس ، كما قال : (أفرايت ما نثرثون ؟ أنهم يتروه) لم نحن الزارعون ، لو نشاء لجلناهم حطاما لظنهم فكفرون : إنا لمفرون : بل نحن عرومون (١) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن حبيب بن الصباح ، حدثنا هشام ، عن رجل بن عطاء ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالتنشرات والنبشرات والرسلات والداريات ، وأما العذاب فالعقيم والصرص ، وهما في البر ، والناصف والقصاف ، وهما في البحر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو حنيفة الله ابن أنس بن وهب ، حدثنا حمى ، حدثنا عبد الله بن عباس ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، عن دواج ، عن حبيب بن حلال الصدقى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للريح مسخرة من الثانية - يعنى الأرض الثانية - فما أراد الله أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا ، فقال : يارب : أرسل عليهم من الريح قتل منخر الثور : قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذا تكأ الأرض وما عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فبى إلى قال الله في كتابه : (ماثلر من شىء أنت عليه إلا جعلته كالرسم) : هذا حديث (٢) غريب ، ورواه منكر ، والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو ، رضى الله عنه .

فَمَا تَكُنْ لَا تَسْمِعُ الْآمُونَ وَلَا تَسْمِعُ الْعَمَىٰ الدَّاعِلَةَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ ﴿٦٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِذِي الْإِعْمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجسادها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مدبرون هناك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وودهم عن ضلالهم ، بل ذلك إلى الله تعالى .
إله يقدره يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولما قال : (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ، أى : خاضعون مستجيبيون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون

(١) سورة الواقعة ، الآيات : ٦٣ - ٦٧ .

(٢) سنن أبي داود الطيالسي عنه تفسير الآية ٤٢ من سورة القارعات .

فلن ويبرهه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مكل الكافرين ، كما قال تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون ، والمؤمنين منهم الله ، ثم إليه يرجعون (١)) ،

وقد استندت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : (إنك لا تسمع للوثى) ، على توهم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتل الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعانته إياهم وتفريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما مخاطب من قوم قد جيعتوا ؟ قال : والذي نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيئون (٢) ، وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حتى (٣) ،

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تفرحاً وتويحاً ونعمة ،

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما من الشواهد على صحته من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً ، عن ابن عباس مرفوعاً (٤) : ما من أحد ير بقر أخيه للمسلم ، كان يبره في الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام (٥) ،

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْ بَعْدِ ضَعِيفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخَافُ مَابَسَاطُهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

فيه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من لطفة ، ثم من خلقة ، ثم من حكمة ، ثم يصير عظيماً ثم يكسب لها ، ويُنْتَفَخ فيه الروح ، ثم يفرج من بطن أمه ضعيفاً خيفاً واهن القوى . ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حذقاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في التقص فيكتهل ، ثم يشيخ لم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الحمة والحركة والبطش ، وتشيب اللحمة ، وتتنبر الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال : (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء) ، أى : يفعل ما يشاء ويتصرف في عبده بما يريد ، (وهو العليم القدير) ،

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن فضيل (٦) ، ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية الموقى قال : قرأت على ابن

(١) سورة الأنعام : آية : ٣٦ .

(٢) الحديث رواه مسلم ، والإمام أحمد ، والنسائي من رواية أنس بن مالك . انظر صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، ١٦٣/٨ - ١٦٤ ، وسند الإمام أحمد ٢٦/١ - ٢٧ ، ١٠٤/٣ ، ١٧٢ ، ٢٢٥ ، ٢٦٣ . والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب : أرواح المؤمنين ، ١٠٨/٤ - ١٠٩ .

(٣) انظر رواية عائشة في المسند : ١٧٠/٦ .

(٤) لم يقع لنا حديث ابن عباس ، ولكن في سنن أبي حازم ، كتاب المناسك ، باب : « زيارة القبور » ، الحديث ٢٠٤١ . عن أبي هريرة مرفوعاً : « ما من أحد يسلم على ، إلا رد الله على روعى حتى أرد عليه السلام » .

(٥) وقع بعد هذا الحديث في الطبقات السابقة زيادات عن النسخة المكية ، وهي أساديث من رواية ابن أبي الدنيا في كتابه القبور .

(٦) في المخطوطة : « من فضل » . والتبث من المسند ، والطبقات السابقة من تفسير ابن كثير . ولله فضيل بن غزوان .

انظر ترجمة وكيع بن الجراح في التهذيب : ١٢٢/١١ .

هر : (الله الذى خلقكم من شعث) (١) ، ثم جعل من بعد ضَعْف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضَعْفًا) ، فقال : (الله الذى خلقكم من ضَعْفٍ) (٢) ، ثم جعل من بعد ضَعْف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضَعْفًا) ، ثم قال : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قرأت على ، فأنشد على كما أنشدت عليك (٣) :
ورواه أبو داود (٤) والترمذى - وحسنه - من حديث فضيل ، به : ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر ، من حملة ، عن أبي سعيد ، بنحوه (٥) :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيْنَا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَيْتِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَيْتِ وَلَكِنْ كَرِهْنَا أَنْ لَا تَعْلَمُوا ﴿٢﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَلِّمُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣﴾

يُخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، في الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فله إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم من بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينتظروا حتى يُعَلِّمَ إليهم : قال الله تعالى : (كذلك كانوا يؤفكون) وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، أى : فبعد عليهم المؤمنون المليء في الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لم حين يهلكون ما لبثوا غير ساعة : (لقد لبثتم في كتاب الله) ، أى : في كتاب الأعمال (إلى يوم البعث) ، أى : من يوم خلقتم إلى أن يهتَم ، (ولكنكم كنتم لا تعلمون) :
قال الله تعالى : (فيومئذ) ، أى : يوم القيامة (لا ينفع الذين ظلموا معلمهم) ، أى : احتلارهم عما فعلوا ، (ولا هم يستعتبون) ، أى : ولا هم يرجعون إلى الدنيا : كما قال تعالى : (وإن يستعتبوا فما هم من المحبين)

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ يَجْتَنِبَهُمْ بُيَاةُ لِقَائِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَبْطُلُونَ ﴿١﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتِرُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) ، أى : قد بينا لهم الحق ، ووضعتهم لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه ، (ولن يجتنبهم بؤية لِقَائِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا) ، أى : لو رأوا أى آية

(١) أى : يفتح الصاد .

(٢) أى : يفتحها .

(٣) مستد الإمام أحمد ٢/٥٨ - ٥٩ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الحروف ، الحديث ٣٩٧٨ : ٣٢/٤ . ونحفة الأحوص ، أبواب القراءات ، الحديث ٤٠٠ : ٤٠٠٦ .

(٥) ٢٠٨ - ٢٠٧ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الحروف ، الحديث ٣٩٧٩ : ٣٢/٤ .

كانت ، سواء كانت بالترجم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويحتفلون أنها معج وباعل ، كما قالوا في انشقاق القمر لمحوه ، كما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم (١)) ، ولما قال حامدا : (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فاصبر إن وعد الله حق) ، أي : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله منجز لك ما وعدهك من نصره وإياك ، وجملة العاقبة لك ولن تهلك في الدنيا والآخرة : (ولا يستخفك الذين لا يؤمنون) ، أي : بل أثبت على ما بطلك الله به ، فإنه الحق الذي لا مزية فيه ، ولا تمك عنه وليس فيها سواء هذكي يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد بن قادة : نادى رجل من المولود عليا - رضي الله عنه - وهو في الصلاة - صلاة الغداة - فقال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لن أشرك ليحيى معك وتكون من الخاسرين) (٢) ، فأمنت له على حتى فهم ما قال ، فاجابه وهو في الصلاة : (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفك الذين لا يؤمنون) : رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وقد رواه ابن جرير من وجه آخر قال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شريك ، عن عثمان (٣) بن أبي زهرة ، عن علي بن ربيعة قال : نادى رجل من المولود عليا وهو في صلاة التجر ، قال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لن أشرك ليحيى معك وتكون من الخاسرين) ، فاجابه على وهو في الصلاة : (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفك الذين لا يؤمنون) (٤) ،

طريق أخرى ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن الجعد ، أنبأ شريك ، عن عمران بن ظبيان ، عن أبي نعيم (٥) قال : قال علي - رضي الله عنه - صلاة التجر ، فناداه رجل من المولود : (لن أشرك ليحيى معك وتكون من الخاسرين) ، فاجابه على ، وهو في الصلاة : (فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفك الذين لا يؤمنون) ،

[ما روى في فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها في الفجر]

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمر سمعت شيبه أبا روح ، يحدث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - صلى بهم الصبح قرأ فيها الرّوم فأوم ، قال : إنه يلمس عليا القرآن ، قال أقرنا منك يسألون منا لا يحسنون الرضوء ، فن شهد الصلاة منا فليحسن الرضوء (٦) : وهذا إسناد حسن ومن حسن ، وفيه سر صيب : وثيا غريب : وهو أنه - عليه السلام - تأثر بقصان وضوء من اتسم به ، فله ذلك أن صلاة المأموم مطبوعة (٧) بصلاة الإمام .

(١) سورة يونس : آية : ٩٦ - ٩٧ .

(٢) سورة القمر : آية : ٦٥ .

(٣) هو أبو المنيرة حبان بن المنيرة . مترجم في البحر والمصيل لابن أبي حاتم : ١١٧٧/١٢٣ .

(٤) تفسير الطبري : ٣٨/٢٦ .

(٥) كذا في نيبا : (وذلك في البحر والمصيل في ترجمة عمران بن ظبيان : ٣٠٠/١٢٤ . وقال ابن أبي حاتم : (عمران بن ظبيان : روى عن أبي نعيم حكيم بن سعد .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٧١/٣ : ٣٦٨/٥ .

(٧) كذا في المخطوطة . وفي الطبقات السابقة : (مطبوعة)

تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ④

تقدم في أول سورة البقرة ، حاشية الكلام على ما يتعلق بصلوة هذه السورة ، وهو أنه - تعالى - جعل هذا القرآن هدى وشفاً ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل وإتية وغير راتية ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرضوا إلى الله في ثواب ذلك ، لم يراعوا به ولا أرادوا جزاءه من الناس ولا شكوراً ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين ، قال الله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) ، أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلى ، (وأولئك هم المفلحون) ، أى : في الدنيا والآخرة :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لُحُوبَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ وَيُغْلِبَهَا هُودًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ⑤ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ بَابُهَا قِيلَ إِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا كُفَرًا ⑥ كَانُوا لَمْ يَسْمَعُوا كَأَن فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآنُ قَيْسَرٍ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يتلون بكتاب الله ويتفكرون بسماحه ، كما قال تعالى (الله أول أسمن الحديث كتاباً مشابهاً ملأني تشتمر منه جلود الذين يفتنون بهم ، ثم تلبس جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله هدى به من يشاء ومن يضل الله فإله من هاد (١)) صطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أضرخوا عن الانتفاع بسماح كلام الله ، وأقبلوا على أسباح المزامير والغناء بالألحان والآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) ، قال : هو - والله - الغناء :

قال ابن جرير : حدثني يونس بن عبد الأمل ، أخبرنا ابن وهيب ، أخبرني يزيد بن يونس ، عن أبي صخر ، عن أبي معاوية العجلي ، عن سعيد بن جببر ، عن أبي الصهباء البكري ، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) - فقال عبد الله : الغناء ، والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات (٢) :

(١) سورة الزمر ، آية ٢٣ -

(٢) تفسير الطبري ٣٩٤/٢١ -

حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حميد الخراط ، عن حماد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : (ومن الناس من يشتري طو الحديث) ، قال : الغناء (١) ۝

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وبجهد ، ومكحول ، وعمرو بن شبيب ، وعلي بن بلعة ۝ وقال الحسن البصري : أنزلت هذه الآية : (ومن الناس من يشتري طو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) في الغناء والزنا ۝

وقال قتادة : قوله : (ومن الناس من يشتري طو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) ، والله لعله لا يشق فيه مالا ، ولكن شراره استعباده ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ۝ وقيل : حتى بقوله : (يشتري طو الحديث) اشتراه المغنيات من الجواري ۝

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع ، عن خلاد الصفار ، عن عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبي أمامة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : لا يخل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل آثان حرام ، وفيهن أنزل الله عز وجل حلتى : (ومن الناس من يشتري طو الحديث) ۝ وهكذا رواه الترمذي وابن جرير ، عن حديث عبيد الله بن زحر بنحوه ، ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وصحفت على بن زيد للثوري (٢) ۝

قلنا : علي ، وشيخه ، والزاوي منه ، كلهم ضغفاء ۝ والله أعلم ۝

وقال الضحاك في قوله تعالى : (ومن الناس من يشتري طو الحديث) : يعني الشرك ۝ وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله وأتباع سبيله (٣) ۝

وقوله : (ليضل عن سبيل الله) ، أي : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ۝

وعلى قراءة فتح الباء ، تكون اللام لام المعاقبة ، أو تليلا للأمر القنري ، أي : فَيَضُوا لَللَّك لِيَكُونُوا كَذَلِكَ ۝

وقوله : (ويضلوا جزوا) ، قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله جزوا ، يستهزئ بها ۝

وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله جزوا : وقول مجاهد لولي ۝

وقوله تعالى : (أولئك هم حذاب مهين) ، أي : كما استهاتوا بآيات الله وسبيله ، أهتروا يوم القيامة في المطالب الدائم للفساد ۝

ثم قال تعالى : (وإذا قلنا لعل عليه آياتنا ولي مستكبرا كان لم يسمها كان في آذنيه وقرا) ، أي : هذا لتليل على الله والعب والطير ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولي منها وأعرض وأدبر وتصام وما به من صسم ، كأنه ما يسمها ، لأنه يلقى

(١) تفسير الطبري : ٣٩/٢١ - ٤٠ -

(٢) نسخة الأحوصي : أبواب البورج ، باب : ما جاء في كراهية بيع المغنيات ، ١٢٠٠ - ٤٠٣/٤ - ٥٠٣ -

وتفسير الطبري : ٣٩/٢١ -

(٣) تفسير الطبري : ٤٠/٢١ -

بجميعها ، إذ لا تطاع له بها ، ولا أوصية له فيها : (فيشره بجناب ألم) ، أي : يوم القيامة يرثه ، كما قال في سماع كتاب الله وآياته :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في النار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وحصدوا للرسلين ، وحلوا الأعمال الصالحة للثابتة لشرعة الله ، (هم جنات النعيم) ، أي : يتمتعون فيها بأنواع الملاذ واليسار ، من المأكول والمشرب ، والملابس ، والمساكن ، والمرامح والنساء ، والنفرة والسماح الذي لم يخطر ببال أحد ، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها ، لا يظنون ولا يفتنون عنها حولا .
وقوله : (وعد الله حقا) ، أي : هذا كائن لا محالة ، لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، لأنه الكريم المنان ، للتمسك لما يشاء ، القادر على كل شيء ، (وهو العزيز) ، الذي قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء : (الحكيم) في أنفائه وأفعاله ، الذي جعل القرآن هدًى للمؤمنين ، (قل : هو الذين آمنوا هدًى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آفاتهم وفر وهو عليهم حى (١)) ، (وتترك من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٢))

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَآلَتِ فِي الْأَرْضِ رَوَيْتُ أَنْ تُعْمِدَ بِكُرٍّ وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَائِبَةٍ وَأَزَلْنَا مِنْ آلِهَا مَا كَانَتْ قَائِمَةً فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٣﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

يبيّن سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيها وما بينها ، فقال : (خلق السموات بغير حمد) ، قال الحسن وقتادة : ليس لما حمد مرئية ولا غير مرئية .
وقال ابن عباس ، وعكرمة ، وجاهد : لما حمد لا ترونها وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول « سورة الرعد (٤) » ، بما أغنى عن إعادته .

(وآلت في الأرض روائى) ، أي : الجبال أُرست الأرض وتقلتها لتلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ، ولهذا قال : (أن تعمد بكم) ، أي : لتلا تعمد بكم .
وقوله : (وبث فيها من كل دابة) ، أي : وفرا فيها من أصناف الحيوانات بما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها .

ولما قرر أنه الخالق له حل أنه الترويق بقوله تعالى : (وآلوا لنا من قبلها ماء فألقينا فيها من كل زوج كريم) ، أي : من كل زوج من الثيابت كريم ، أي : حسن المنظر .

(١) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .

(٣) انظر : ٣٠١/٤٤ .

وقال الشعبي : والناس أيضاً من لبث الأرض ، فن دخل الجنة فهو كرم ، ومن دخل النار فهو كرم ؟
 وقوله : (هذا خلق الله) ، أي : هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله
 وخلقهم وتقديره ، وحده لا شريك له في ذلك ، ولهذا قال : (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) ، أي : بما تبذلون وتدعون
 من الأصنام والأنداد ، (بل الظالمون) ، يعني للمشركين بالله العابدین معه غيره ، (في ضلال) ، أي : جهل وعي ،
 (ميت) ، أي : واضح ظاهر لا خفاء به .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

اختلف السلف في لقمان - عليه السلام - هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ هل قولين ، الأكثرون
 على الثاني ؟

وقال صفيان الثوري ، عن الأشعث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ،

وقال قتادة ، عن عبد الله بن الزبير قلت ، لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أنفوس
 من النبوة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة
 ومنه للتوبة :

وقال الأوزاعي ، رحمه الله ، حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد
 ابن المسيب : لا تخون من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أعير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهنج مولى عمر بن
 الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسود لوبياً ذا مشافر (١) .

وقال ابن جرير ، حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبي ، عن أبي الأشهب ، عن خالد الربيعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ،
 فقال له موله : اذهب لنا هذه المشاة ، فلبسها . فقال : أخرج أطيب مضختين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فكش
 ما شاء الله ، ثم قال : اذهب لنا هذه المشاة . فلبسها ، فقال : أخرج أعذب مضختين فيها . فأخرج اللسان والقلب ،
 فقال له موله : أمرتك أن تخرج أطيب مضختين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أعذب مضختين فيها فأخرجتهما . فقال
 لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منها إذا طابا ، ولا أعذب منها إذا خبيثا (٢) :

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبياً .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حكيم بن سكم ، عن سعيد الزبيدي ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين ، مُصَنَّع (٣)

القدمين ، فافسها على بين إسرائيل ؟

(١) تفسير الطبري : ٤٣/٢١ .

(٢) تفسير الطبري : ٤٣/٢١ - ٤٤ .

(٣) أي : مريضهما .

وذكر غيره : أنه كان قاضيا على بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام :

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُسَيْد، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان كان لقمان — عليه السلام — حينا أسود غليظ الشفتين ، مصمتح اللحمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس أنس يحدثهم ، فقال له : أأنت الذي كنت ترعى من الغنم في مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت مما لا ينبغي (١) :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زوعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم عكته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : أأنت عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدّر الله ، وأدله الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى مالا ينبغي .

فهذه الآثار منها ما هو موضح فيه بنى كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبدا قد مسّه الرق ينال كونه نبيا ؛ لأن الرسل كانت تبعث في أصساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن حكمة — إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن حكمة قال : كان لقمان نبيا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عبد الله بن عياش القشيري ، عن حمزة مولى فخرته قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بني الحسحاس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعي الغنم ؟ قال : نعم . قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذي يجعلك من أرى . قال : وطء الناس بسكاطك ، وغشيتهم بأبك ، ووضاهم بقولك . قال : يا ابن أمي ، إن صبرت إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غشى بصري ، وكفى لساني ، وعفة لعمري ، وحفظي فرجي ، وفوقي بصدق ، وولائي بهدئ ، وكرمي ضيئي ، وحفظي جاري ، وتركى مالا ينبغي ، فذلك الذي صبرني إلى ما ترى . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نعيم ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عتبة بن رباح ، عن ربيعة ، عن أبي الدرداء — رضى الله عنه ، أنه قال يوما — وذكر لقمان الحكيم — فقال : ما أوفى ما أوفى عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا [صسصاصا] (٢) سكيتا ، طويل الفكر ، عميق النظر ، لم يَمِ نهاراً قط ، ولم يره أحد قط يزن ولا يتنخّع (٣) ، ولا يبول ولا يتغوط ، ولا يتسل ، ولا يبعث ولا يضحك ، وكان لا بعيد متعلقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فأتوا فلم يملك عليهم . وكان ينشئ السلطان ، ويأتي الحكام ، لينظر ويضكر ويصبر ، فذلك أوفى ما أوفى (٤) .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبي حاتم . فقال :

حدثنا أبي ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن حبيد الخزاعي ، حدثنا سعيد بن بشر ، عن قتادة قال : شتّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال : فأتاه جبريل وهو قائم قدّر عليه الحكمة أو رثى عليه الحكمة — قال : فأصبح يتلعن بها .

(١) تفسير الطبري : ٤٤/٢١ .

(٢) أي : مصمم . وقيل : هو الشديد الصلب .

(٣) في الدر المنثور : « ولا يتنخّع » . وتنخّع الرجل : رمى ببنائه ، وهي البزقة التي تخرج من أصل الأم على أصل التنخاع .

(٤) الأثر المنثور عن ابن أبي حاتم : ١١٢/٥ .

فكان سعيد : فسمعت من ثائدة تقول : قيل لقبان : كيف اعتبرت الحكمة على النبوة وقد خبرتك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة مرسلة^(١) لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيبرني فخطت أن أضيق من النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلي .

فهذا من رواية سعيد بن بشر ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فالحق أعلم .
والذي رواه سعيد بن أبي حريزة عن ثائدة ، في قوله تعالى : (ولقد آتينا لقبان الحكمة) ، أي : الفقه في الإسلام ، ولم يكن لييا ، ولم يوح إليه .

وقوله : (ولقد آتينا لقبان الحكمة) ، أي : الفهم والعلم والتبصر ، (أن اشكر الله) ، أي : أمرناه أن يشكر الله - عز وجل - على ما آتاه الله ومنه ووجهه من الفضل الذي خصه به عن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه :

ثم قال تعالى : (ومن يشكر لأنا بشكر لنفسه) ، أي : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين ، لقوله تعالى : (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمدون)^(٢) .

وقوله : (ومن كفر فإن الله غني حميد) ، أي : غني عن العباد ، لا يتضرر بملك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعا فإنه الغني عما سواه ، فلا إله إلا الله ، ولا ت عبد إلا إياه .

وَمَا قَالَ لِقَبَيْنِ أَيْتِيَهُمْ هُوَ يَعْظُمُ يُدْنِي لَأُشْرِكَ بِإِلَهِهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ
حَلَّتْهُمُ أُمُّهُ وَمَنَا عَنْ وَهْنٍ وَفَصَّلْنَا فِي عَمَلَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ وَلَوْلَاكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٨﴾ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَنْ أَنْ تُشْرِكَ
فِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَهُ ثُمَّ إِلَىٰ مَهْرَجَحُكَ
فَأَنْتَ بِكُم مَّا كُنْتُمْ تَصَلُّونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى خبراً عن وصية لقبان لولده - وهو : لقبان بن عطاء بن سلعون^(٣) : واسم ابنته : ثارن في قول حكاة السهيلي^(٤) .

وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال عللناه له : (إن الشرك لظلم عظيم) ، أي : هو أعظم الظلم .

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله - رضي الله عنه - قال : لما نزلت : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ، شق ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا :

(١) يقال : مرستك عليك ، أي : أمرتك أمراً جدياً ، وهي لازمة .

(٢) سورة قروم ، آية : ١٤ .

(٣) كذا في المطبعة . وفي التصريف والإحلام السهيلي : ابن يثرون .

(٤) انظر التصريف والإحلام السهيلي ، ١٥٥ - ١٥٦ ، والمعارف لابن قتيبة : ٥٥ .

أبنا لم يخلص إيمانهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : (يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم (١)) ،

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به .

ثم قرآن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البرّ بالوالدين ، كما قال تعالى : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا (٢)) : وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال هاهنا (ووصينا الإنسان بوالديه حمته أمه وهنا على وهن) - قال مجاهد : مشقة وهن الولد (٣) ،

وقال قتادة : جهداً على جهده

وقال حماد الخراساني : ضعفاً على ضعف .

وقوله : (وفصالة في عامين) ، أي : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ، كما قال تعالى : (والوالدات برضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة (٤)) .

ومن هاهنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه قال تعالى في الآية الأخرى : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً (٥))

وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في مهرها ليلاً ونهار ، ليؤكد الولد بإحسانها المظلم إليه ، كما قال تعالى : (وقال : رب ارحمهما كما ربياني صغيراً (٦)) . ولهذا قال : (أن اشكركم ولو الذيك إلى المصير) ، أي : فاني سأجزيك على ذلك لو فر الجراء :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي شبة ، وعمود بن غيلان قالا : حدثنا حديد الله ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل ، وكان بهمة النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني رسول الله ﷺ إليكم : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعواي لا آؤكم (٧) خبراً ، وإن المصير إلى الله ، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظلم ، وشهود فلا موت .

وقوله : (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) ، أي : إن حَرَصَا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ولا تعتنك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ، أي : محسناً إليهما ، (واتبع سبيل من أناب إلى آ) ، يعني المؤمنين ، (ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) :

قال الطبراني في كتاب المشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ،

(١) البخاري ، تفسير سورة لقمان ١٤٣/٦ - ١٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ .

(٣) أثر مجاهد كافي تفسير الطبري ٤٤/٢١ ، « وعن الولد على ومن الوالدة وضعلها » .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٣٣ .

(٥) سورة الأحقاف ، آية : ١٥ .

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٢٤ .

(٧) أي : لا أقصر في بلغ الخبير إليكم .

حدثنا مسلمة بن حاتم ، عن داود بن أبي هند (١) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية : (وإن جاهدك حلّى أن
تشركن بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) . : الآية ، وقال : كنت رجلاً يراً بأبي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذي
أراك قد أحدثت ؟ لقد عرفت دينك هذا أولاً أكل ولا شرب حتى أموت ، فتعشّر بي ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت :
لا تضل يا أمه ، فاني لأدع ديني هذا لشيء . فكنت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فكنت يوماً وليلة أخرى
لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهداً ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تطعن والله لو كانت لك مائة نفس ففترجت
نفساً ففترجت ، ما تركت ديني هذا لشيء ، فان شئت فكل ، وإن شئت لا تأكل : فأكلت :

يَبْنِي لَهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ تَرْدِلٍ فَتَكُنْ فِي صَفَرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ يَبْنِي أَقِيمَ الْعِصَاةِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ
عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿٢﴾ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣﴾
وَأَقِصْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْصَرَّ الْأَصَوْتُ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٤﴾

وله وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ، ليستلها الناس ويقتلوا بها ، فقال : (يا بني ، إني إن تك مثقال
حبة من خرذل) ، أي : إن الظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خرذل . وجوز بعضهم أن يكون التفسير في قوله ، (إني)
تفسير الشأن والقصة : وجوز على هذا رفع (مثقال) والأول أولى :

وقوله : (يأت بها الله) ، أي : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، ويجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن
شراً فشر . كما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خرذل
أثينا بها ، وكفى بنا حسيين) (٢) . وقال تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (٣) ،
ولو كانت تلك الليرة عصنة حبيجة في خلخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض ، فان الله
يأت بها ، لأنه لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولهذا قال : (إن الله لطيف
خبير) ، أي : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاملت ، (خبير) بديبب النمل في الليل البهيم
/ وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : (فتكن في صخرة) ، أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، ذكره السدي بإسناده
ذلك للطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صبح ذلك ، ويروي هذا عن عطية العوفي ، وأبي مالك ،
والثوري ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم : وهذا والله أعلم كأنه متعلق من الإسراء إلييات التي لا تصدق ولا تكذب والظاهر
- والله أعلم - أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة فان الله سيديها ويظهرها بلطيف حلمه ، كما قال
الإمام أحمد :

(١) في أسد الغابة ٢/٣٦٨ : أن داود بن أبي هند رواه عن أبي صيان التيهي ، عن سعد .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٤٧ .

(٣) سورة الزلزلة : آية ٧ ، ٨ .

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن خزيمة، حدثنا دُرَّاج، عن أبي الميمون، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أحدكم يعمل في حفرة صباه، ليس لها باب ولا كوة، يخرج منه الناس كأنما ماكان (١) . ثم قال: (يا أيُّها الصَّابِرُ، أقم الصلاة) أي: املحها وفروضها وأوقاتها، وأمر بالمعروف ونه عن المنكر، أي: حسب طاقتك وجهلك، (واصبر على ما أصابك) - علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - لا بد أن يتألم من الناس أي: تألمه بالصبر .

وقوله: (إن ذلك من حزم الأمور)، أي: إن الصبر على أذى الناس من حزم الأمور .

وقوله: (ولا تصبر على الناس)، يقول: لا تعرض وجهك من الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتشاماً منهم، ولم يستكبراً عليهم؛ ولكن كن جالساً، واسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن نبياً أتاه وجوهك إليه منيسط، ولأهلك وإسبال الإزار إليها من الحيلة، واقتبلة لا يصيبها الله» (٢) .

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: (ولا تصبر على الناس)، يقول: لا تكبر فتعزَّ مهابة الله وتعرض عنهم وجهك إذا كلموك (٣)؛ وكلما روى العوفي وعكرمة، عنه .

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: (ولا تصبر على الناس)، لا تكلم وأنت مريض؛ وكلما روى عن حماد، وعكرمة، وزيد بن أسلم، وأبي الجوزة، وسعيد بن جبير، والفساك، وابن زيد، وغيرهم .

وقال إبراهيم النخعي: «بني بذلك الشاذلي في الكلام» (٤) .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير: وأصل الصبر حذاء يأخذ الإبل في أمثالها أو موصها حتى تكفَّت أمثالها عن موصها، شبه به الرجل المتكبر، ومنه قول عمرو بن حنبل (٥) التَّعَلَّى (٦) .

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَلُ حَمْرُ حَذَاهُ أَتَيْنَا لَه مِنْ سَيْبِهِ شَقَوْنَا

وقال أبو طالب في حرمه (٧) :

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨/٣ .

(٢) سنن أبي داود : كتاب المياس ، باب : ما جاء في إسبال الإزار ، الحديث ٤٠٨٤ : ٥٦٧٤ . ومسند الإمام أحمد : ٣٧٨ ، ٦٤/٥ ، ٦٥/٤ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٧/٢١ .

(٤) تفسير الطبري : ٤٨/٢١ . وللتشديد : الذي يلقى شدة - بكسر فسكون - وهو جالب القم - عنه ما يتكلم قطع . أو استبزه بالناس .

(٥) في القصور وتفسير الطبري : ٥٥٥٥ : ياء ياء الله - والصواب من اللشبة الجنب : ٢٦١ . ومسج الشراء لمرزبان : ١٣ .

(٦) كلما نسب البيت لمرور بن جني . وهو في القيان (حمر) مفعولاً إلى القيان . والنظرة في ديوان القيان : ٢٤ . وقد ذكر السيد عفت الديوان أن أبا عبيدة قد نسب هذا البيت في كتابه هاز القرآن ١٧٧/٢ لمرور بن حنبل . فإل لخدري قد أخذ ذلك من أبي عبيدة .

(٧) البيت في سيرة ابن هشام : ٢٦٦/١ .

وَكُنَّا قَلِيلًا لَا نَهْر ظِلَامَةٌ إِذْ مَاتُوا صُغُرَ الرُّعُوسِ لُغْمِهَا (١)

وقوله : (ولامتش في الأرض مرحاً) ، أي : جدلاً متكبراً جباراً عنيداً ، لأفضل ذلك يفضلك الله ، ولما قال : (إن الله لا يحب كل غثال فخور) ، أي : غثال معجب في نفسه ، فخور أي : على غيره ، وقال تعالى : (ولامتش في الأرض مرحاً ، إنك لن تمزق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) (٢) ، وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه ؛ وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضري ، حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى ، حدثنا أبو ، عن ابن أبي ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذكر الكبر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فشد فيه ، فقال : إن الله لا يحب كل غثال فخور . فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إنني لأفعل لئلا يمجيني يا بشما ، ويجبني شراك نمل ، وعلاقة سوطي ، فقال : ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفّه الحق وتغشط الناس (٣) ؛

ورواه من طريق أخرى عظمه ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته ؛
وقوله : (واقصد في مشيك) ، أي : امش مشياً مقتصداً ليس بالبطء (٤) للتبسط ، ولا بالسرع المفرط ، بل حدلاً وسطاً بين بين ؛

وقوله : (واخفض من صوتك) ، أي : لا تبلغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيها لأفانته فيه ، ولما قال تعالى : (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) ، قال مجاهد وغير واحد : إن أفتح الأصوات لصوت الحمير : أي : غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علو مورمعه ، ومع هذا هو يفيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه غاية اللم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس لنا مثل السوء ، المائد في هبة كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه (٥) . وقال السائي عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة ، عن الأهرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا سمعتم صباح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نحيب الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فأنها رأيت شيطاناً .

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة (٦) ، وفي بعض الألفاظ : « بالليل » ، والله أعلم .

(١) في السيرة : « صغر الرؤوس » . وكان « صغر » - بهم فسكون - : جمع أسمر إذا كان المراد اللد ، أو صمراء . إذا كان المراد الرأس .

(٢) سورة الإسراء : آية : ٣٧ .

(٣) البغية : الخلفة والقيش ، وصفه الحق - من باب علم - : جهله . وقيل إن في الكلام مخلوقاً وأن التقدير : إنما البهي فعل من صفه الحق .

(٤) في المفلوكة : « ليس بالبطء » . والمكتبة عن التبعات السابقة .

(٥) البخاري ، كتاب الحية ، باب : « لا يمل لأحد أن يرجع في هبته وصلته » : ٢/٣١٥ . ومسلم ، « كتاب الميابة » ، باب : « تحريم الرجوع في العفة والطهارة ... » : ٦٤/٦٥ .

(٦) البخاري ، « كتاب هذه الخلق » : ١٥٥/٢ . ومسلم ، « كتاب الذكر » ، باب : « استحباب الدعاء عند صباح الديكة » : ٨٥٠/٨ . وتحفة الأشراف : « أبواب النواحي » ، باب : « ما يقول إذا سمع نحيب الحمير » ، الحديث : ٣٥٢٤ : ٤٢٦/٩ . وصلة الإمام أسبه

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم : وقد روى عنه من الحكم والمواظب أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أروعها ومستوراً إلى ذلك ، قال الإمام أحمد :

« حدثنا علي بن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرني هبيل بن جميع الضبي (عن قرعة ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه (١) » وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [يحدث عن أبي موسى الأشعري (٢)] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني ، إياك والتضع فإنه ضلالة بالليل ، ملالة بالنهار .

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضمرة ، حدثنا السري بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إن الحكمة أجلس للمساكين مجالس للملوك . »

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن السعدي ، عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إذا أتيت نادى قوم فارمهم بهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تمنن حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فاجعل (٣) سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم وحدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة ، عن حفص بن عمر - رضي الله عنه - قال : وضع لقمان جرايا من غردل إلى جانبهِ ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج غردة ، حتى نفذ للغردل ، فقال : يا بني ، لقد وعظتك موعظة لو غرغلتها جبل لقطر : قال : فقطر (٤) ابنه (٥) :

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرثي ، حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن الطبراني ، حدثنا أنس بن سفيان المقامي ، عن خليفة بن سلام ، عن عطاة بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقتنوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة - لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المذنَّب - وقال أبو القاسم الطبراني : أراد الحبش .

(فصل في الخمول والتواضع)

وذلك متعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه ، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً نحن لذكر منه مقاصده ، قال : حدثنا إبراهيم بن النضر ، حدثنا عبد الله بن موسى اللدني ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس ، عن جده أنس بن مالك : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « رَبِّ أَضْعَفُ نَاصِيَةٍ يُسَوِّغُ (٦) » عن أبواب الناس ، إذا أنعم على الله لأبره (٧) ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٨٧/٢ .

(٢) ما بين القوسين من المستدرك للحاكم : كتاب التفسير : ٢١١/٢ ، قد أخرج السيوطي الحديث في اللز المتطور عن ابن أبي حاتم والحاكم : ١٦٢/٥ ، وقال : عن أبي موسى الأشعري .

(٣) أجال السهام بين القوم : سرها وأفضى بها في القصة : يريد : شاركهم وأدل بذكورهم .

(٤) القطر : التشقق . والمراد أن ابنه قد يلفت منه الموعظة بآلها .

(٥) الآخر في اللز المتطور عن أبي الدنيا : ١٦٢/٥ .

(٦) الطمر - يكمس فكموت - : الثوب البالك . ويصلح : يقال ويجنب أن يقر به هذه الأبرار .

(٧) أخبره الإمام أحمد بن حنبل عن وجه آخر : النظر المسند : ١٤٥/٢ .

لم يرواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ ، وذكره ، وزاد منهم البراء بن مالك .

وقال أبو بكر بن سهل التميمي : حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا ثاقب بن يزيد ، عن حياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمرو بن موسى الله عنه - أنه دخل المسجد فإذا هو بعماد بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يبكيك يا عماد ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : إن البسر من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأخفيا الأترياف (١) ، الذين إذا غابوا لم يقتدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، وينجون من كل غيبل مظلمة .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عثمان بن علي ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : رُبُّ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيهِ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرِهِ ، لَوْ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ ، وَلَمْ يَعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنْ مِنْ أُنْثَى مِنْ لَوْ أَنَّ بَابَ أَحَدِكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا أَوْ دِرْهَمًا أَوْ قَلَسًا لَمْ يَعْطُهُ ، وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، وَلَوْ سَأَلَ الدُّنْيَا لَمْ يَعْطِهَا إِيَّاهَا ، وَلَمْ يَنْتَهِ إِذَا هَوَاتِهِ عَلَيْهِ ، ذُو طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيهِ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبَرِهِ ، وَهَذَا مُرْسَلٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ :

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، لعمري جعفر بن سليمان ، حدثنا حوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنْ مِنْ مُلُوكٍ الْجَنَّةَ كُلِّ أَشْئَةٍ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيهِ لَهُ ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ لَمْ يُوْذَنْ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا لِنِسَاءِهِمْ لَمْ يَنْكَحُوا ، وَإِذَا قَالُوا لَمْ يَنْصِتْ لَهُمْ ، حِرَاجِ أَحَدِهِمْ تَنْجَلِبِلٌ فِي صَدْرِهِ ، لَوْ قَسَمَ نَوْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنِ النَّاسِ لَوْ سَمِعَهُمْ .

قال : وَأَشْفَقَنِي عَمْرُو بْنُ شَيْبَةَ ، عَنْ ابْنِ عَائِشَةَ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ :

أَلَا رُبَّ ذِي طَمَرَيْنِ فِي مَنَزَلٍ غَنَّا زَرَابِيَةً مَبْنُوتَةً وَتَمَارِقَهُ قَدْ اطَّرَدَتْ أَهْلَهُ حَوَكٌ قَصْرُهُ وَأَشْرَقَ ، وَالتَّخَنُّتُ عَلَيْهِ حَدِّ الْقَهْرِ

، وروى أيضا من حديث حبيب الله بن زحَر ، عن علي بن زيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة مرفوعا : قال الله : مَنْ أَحْبَبَ أَوْلِيَاءِي هُنْدَى مُؤْمِنٍ خَفِيفُ الْحَاذِرِ (٢) ، ذُو حِطِّ مِنْ صَلَاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ ، لَا يَشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ إِنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ . قال : ثُمَّ تَنَدَّى (٣) رَسُولُ اللَّهِ يَبْدُهُ وَقَالَ : حَبْلَتُ مَنِيَّتِي ، وَقُلْ تَرَاهُ ، وَقُلْتُ بَوَاكِيهِ (٤) ،

(١) الْأَفْرِيَاءُ : جَمْعُ فَرَى ، وَهُوَ الْفَرَسُ مِنَ النَّاسِ .

(٢) أَلَى : خَفِيفُ الْحَالِ ، الَّذِي يَكُونُ قَلِيلُ الْمَالِ ، وَخَفِيفُ الظَّهْرِ مِنَ الْمَالِ .

(٣) أَلَى : تَقَرَّرَ ، وَبَرُورَى : تَقَرَّرَ ، وَفَرَى : تَقَرَّرَ ، وَلَفْظُ التَّمْلَايِ : ثُمَّ تَقَرَّرَ بِأَسْبَابِهِ . وَأَمَّا مَعْنَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ ٢٥٥/٥ : وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَرَّرُ بِأَسْبَابِهِ . وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ جَعَلَ يَقْرَأُ الْأَنْعَالَ عَلَى الْأَنْعَالِ ، أَوْ عَلَى الْأَرْضِ ، كَلْتَقَاتٍ مِنَ النَّاسِ ، وَقِيلَ : فَتَنِيَهُ عَلَى أَنَّهَا يَهْدِيهِمَا جَمْعُ يَهْ .

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي أَبْوَابِ الزُّهْدِ ، بِإِسْنَادٍ ، مَا جَاءَ فِي الْكُفَّاتِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ ، مِنْ طَرِيقِ حَبِيبِ اللَّهِ بْنِ زُحَر . وَهَذَا مِنْ هَذَا حَدِيثِ سَنَنِ . انْظُرْ خُفَّةَ الْأَخْوَاضِ : ١٢/٧ - ١٥ . وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ سُنَنِهِ ، انْظُرْ : ٢٥٢/٤ - ٢٥٥ . وَأَمَّا ابْنُ مَاجَةَ فَقَدْ أَخْرَجَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ . انْظُرْ كُتَابَهُ الزُّهْدَ ، بِإِسْنَادٍ مِنْ لَا يُؤْتِيهِ لَهُ ، هَذَا حَدِيثُ ٤١١٧ ، ١٣٧٨/٢ - ١٣٧٩/٢ .

ومن عبد الله بن عمرو قال : أحب عبد الله إلى الله القريباء ، قيل : ومن القريباء ؟ قال : القرباء بنينهم ، يسعدون يوم القيامة إلى جيسى بن مريم ؟

وقال الفضيل بن عياض : يلقى أن الله تعالى يقول لعبد يوم القيامة : ألم أكرم عليك ؟ ألم أصطك ؟ ألم أستررك ؟ ألم ؟ ؟ ؟ ألم ؟ ؟ ؟ ألم أعمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت أن لا تموت فافعل ، وما عليك أن لا يلقى عليك ، وما عليك أن تكون ملحقاً عند الناس بمحمداً عند الله .

وكان ابن عبيد يقول : اللهم ، إني أسألك ذكراً خديلاً .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أرفع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك .
ثم قال (١) :

باب ما جاء في الشهرة

حدثنا أحمد بن حنبل للبرقي ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الخطاب وابن أبي عمير ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أحب امرئ من الشر - إلا من عصم الله - أن يشتر الناس إليه بالأصابع في دينه ودينه (١) . وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى عنه عن إسحاق بن الجهم ، عن ابن أبي عمير ، عن محمد بن عبد الواحد الأنصاري ، عن عبد الواحد بن أبي كبير ، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً ، مثله .

وروى عن الحسن بن مسروق ، قيل للحسن : قاله يشار إليك بالأصابع ؟ قال : إنما المراد من يشار إليه في دينه باليد . وفي دنياه باللسان .

ومن علي - رضي الله عنه - قال : لا كبراً لأن تشتهر ، ولا رفح شخصك لتتكر ، وتعلم واكتم ، وأصمت لسم ، تسر الأبرار ، وتغيظ القهار .

وقال إبراهيم بن آدم - رحمه الله - : ماصدق الله من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ماصدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بحكاه .

وقال محمد بن الوليد : من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس .

وقال عياض بن سلمة : إليك وكثرة الأخلاء .

وقال أبوان بن حبان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من العارث : كان أبو العباس إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة .
فمن تركهم ؟

(١) أي ابن أبي عمير .

(٢) هذا القدر أخرجه القزويني في أبواب القيامة ، قال : « وقد روي عن أنس بن مالك ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : . . . وذكره ، وقال المصنف أبو العباس - صاحب نسخة الأحرص - : « وحديث أنس هذا أخرجه الشيخ في شعب الإيمان . قال المصنف : « يساند فيه غيره » ، انظر نسخة الأحرص : ١٥٠/٧ .

وقال : حدثنا علي بن الجعد ، أخبرنا شعبة ، عن عوف ، عن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوماً يحشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن حنرة (١) ، عن سلم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها ملقة التايح ، وقتة للمتيوع .

وقال ابن هون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أغلق عليه باني ، ما تنبهني منكم رجلاً .

وقال جاد بن زيد : كنا إذا مرونا على للجلس ، ومنا أيوب (٢) ، وسلم ، ردوا رداً شديداً ، فكان ذلك ينعمة ؛ وقال عبد الرزاق ، عن معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، قليل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيها مضى كانت في طول التميم ، واليوم في قصيره . واصطنع مرة نعلين على حفو نعل النبي - صلى الله عليه وسلم - فلبسها أياماً ثم خلعها ، وقال : لم أر الناس يلبسونها ؛

وقال إبراهيم التيمي : لأتليس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء ؛ وقاله الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم ؛ والثياب الرديئة التي يحقر فيها ، ويستلذذ به ؛

وحدثنا خالد بن خديك : حدثنا جاد ، عن أبي حنيفة - صاحب الزيادة - قال : كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : لا يكفم وهذا الحمار النفاق .

وقال الحسن رحمه الله : إن قوماً جعلوا الكر في قلوبهم ، والتواضع في ثيابهم ؛ فصاحب الكساء بكساء أعظم من صاحب المطرف (٣) بمطرفة ، ملهم ثقافتها ؛

وفي بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبي إسرائيل : مالكم تأتونني عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب اللذائب اليسوا ثياب الملوك ، وآلبتوا قلوبكم بالخشية .

فصل في حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس - رضي الله عنه - : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً (٤) ؛ وعن عطاء ، عن ابن عمر : قيل : يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم خلقاً . وعن نوح بن حبان [عن ثابت] عن أنس مرفوعاً : «إن العبد ليبلغ حسن خلقه خرجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ سوء خلقه تركك جهنم وهو عابد » .

(١) في المخطوطة : « هارون بن أبي صرة » . وقد هدينا إلى الصواب من ترجمة سلم بن حنظلة ، في التبرج والتمثيل لابن أبي حاتم : ٢١٢/١٢ ؛ قال : « روى عنه هارون بن حنرة » . وعن روى عن هارون بن حنرة : ابن إدريس ، انظر التهذيب : ٩/١١ .

(٢) يبدو أنه أيوب بن أبي ثيمية ، انظر التهذيب : ٣٩٧/١ .

(٣) المطرف - بكسر فسكون - : ثوب من غز مريح .

(٤) أخرجه الإمام أحمد : ٢٧٠/٣ ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً » : ٧٤/٧ .

وعن سنان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « نحب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » :

والمطلب ، عن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار » (١) .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، أنصرفت لي وحي ، عن جدي ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال : تقوى الله وحسن الخلق . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، قال : الآجوفان القم والقرج (٢) .

وقال أسامة بن شريك : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاثته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » (٣) .

وقال يعلى بن ممالك ، عن أم البرداء ، عن أبي البرداء - يبلغ به - قال : « ما في أثقل في الميزان من حسن الخلق » وكذا رواه عطاه ، عن أم البرداء ، به (٤) .

وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا » (٥) :

حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، حدثنا محمد بن عتيق ، عن محمد بن أبي سارة ، عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعطي العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطي المجاهد في سبيل الله ، ينسب عليه الأجر » ويروى (٦) :

وعن مكحول ، عن أبي ثعلبة مرفوعا : « إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا ، أحسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني منزلا في الجنة مساويكم أخلاقا ، الثقاتون المشفقون للضعيف » (٧) :

وعن أبي أويس ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر مرفوعا : « ألا أنبئكم بأكملكم إيمانا ، أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يؤثقون ويأفكون » :

وقال الميث ، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة ، عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حسن الله خلق رجل وعلمه فقطعت له النار » .

وعن عبد الله بن غالب الحلبي ، عن أبي سعيد مرفوعا : « غصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » :

وقال ميمون بن مهران ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق . وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر » .

(١) أخرجه الإمام أحمد : ١٤٨/٦ ، ٩٠ ، ١٣٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة من غير هذه الطريق ، انظر المسند : ٢٩١/٢ ، ٣٩٢ ، ٤٤٢ . وأما ابن ماجه فقد أخرجه من طريق عبد الله بن إدريس ، مثله . انظر كتاب الزهد ، باب « ذكر الذنوب » : ١٤١٨/٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد : ٢٧٨/٤ . وانظر أسد الغابة : ٨١/٩ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد من هذه الطريق . انظر المسند : ٤٤٢/٦ .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب « حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل » : ١٦/٨ . ومسلم في كتاب الفضائل ، باب « ذكر ما يحبه الله صلى الله عليه وسلم » : ٧٨/٧ . والإمام أحمد في مسنده : ١٦١/٢ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد من طريق مكحول ، عن أبي ثعلبة الخشني ، انظر المسند : ١٩٣/٤ .

هذا والمتفقون هم : المتوسون في الكلام من غير استعزاز واحتماء . وقيل المستزكون بالناس ، يكونون أحسنهم - يعني - جانب الله - عليهم وجه .

وأما المشفقون فهم أيضا : الذين يتوسون في الكلام ، ويتعصون به أنفوسهم .

حدثنا علي بن الجهم ، حدثنا أبو المغيرة الأحمسي ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قرطبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قلب أعظم عند الله من سوء الخلق ، إن الخلق الحسن ليليب اللئوب كما تليب النسي الجليد ، وإن الخلق السيء لينسد العمل كما يسد الخلل السيل » .

وقال عبد الله بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي هريرة مرفوعاً : « إنكم لا تكونون الناس بأموالكم ، ولكن يستخرجهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » .

وقال عبد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل في ذم الكبر

قال حنيفة : عن ابن مسعود - رحمه - « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر » ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان » (١) .

وقال إبراهيم بن أبي حيلة : عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه في النار » .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا أبو معاوية ، عن عمر بن راشد ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه مرفوعاً : « لا يزال الرجل يلعب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » (٢) .

وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن دلود - عليه السلام - ذات يوم البساط في مائتي ألت من الإسي ، ومائتي ألت من اللبن ، فترعب حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ، ثم خفضوه حتى مست قامة ماء البحر ، فسمعوا صوتاً لو كان في قلبه صاحبكم مثقال ذرة من كبر تحسب به أجد ما وقع .

حدثنا أبو حنيفة ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن حاد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : « كان أبو بكر يشبها فيذكر يده خلق الإنسان ، حتى إن أحلنا ليذكر نفسه ، يقول : « خرج من مجرى البول » ، مرتين .

وقال الشعبي : « من قتل اثنين فهو جبار » ، ثم قال : « أتريد أن تقتل كما قتلت قسماً بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض » وقال الحسن : « حبلى لابن آدم يغسل الخمر » (٣) يده في اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السماوات . قال : حدثنا خالد بن خديش ، حدثنا حاد بن زيد ، عن علي بن الحسن ، عن الفضل بن سفيان ، فذكر الحديث ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم .

وقال الحسن ، عن يحيى ، عن أبي قال : « إن معلم ابن آدم ضرب مثلاً الدنيا وإن قرّسه » (٤) ومثله .

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ١٢٧ ، ٤٠١ . ونقطة الأخرى : أبواب البر ، باب ما جاء في الكبر . . الحديث ٢٠٩٦ .
١٣٥٧ . والحديث الذي يليه .

(٢) نقطة الأخرى : أبواب البر . . باب ما جاء في الكبر . . الحديث ٢٠٩٨ ، ١٣٨٧/٦ ، ١٣٩ . . وقال القرطبي : « هنا حديث حسن غريب » .

(٣) آخره - يتم فسكون - بالهزة وهي فطرات الإنسان .

(٤) ترجمه ومله ، أي ، تزيهه ، من التزح - بكسر فسكون - وهو التباهي الذي يفرح في التمتع كالكنوز والكثرة . . والمعنى : « أن المظهر وإن تكلمت الإنسان في صغته وتطهيه فإنه حاكك ذلك كثره وتكلمه . لكذلك الدنيا المبرور من على مدارها ونظم أسرارها » واجبة إلى عراب وإندلس .

وقال محمد بن الحنفية بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - : ما دخل قلبه رجل شيء من كبر إلا قص من صفته مقدس ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجدة كبر ، ولا مع التوحيد تقاض .
ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطن طاوس في جنبه بأصبيه ، وقال : ليس هذا شأن من في بطنه غرر ؟ فقال له كالمحتلر إليه يا عم ، لقد غرّب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها :

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كانت بنو أمية يضرّون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

فصل في الاعتقالات

عن ابن أبي ليلى ، عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه »
ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن صفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله (١) .
وحديث محمد بن بكر ، حديثا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، عن الأخرج ، عن ابن هريرة مرفوعا : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره » (٢) . و « بينا رجل يمشي في برديه ، أحجبه ثوبه ، خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٣) .

ودروى الزهري عن سلم ، عن أبيه : « بينا رجل : : : إلى آخره » (٤) .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ
مَنْ يَجْتَدِلُ فِي اللَّهِ يَغْفِرْ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كُتِبَ عَلَيْهِ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ
مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝

يقول تعالى منها خلقه على نعمة عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليالهم ونهارهم ، وما خلق فيها من صحاب وأقطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم مطلقا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من فوار وأنبار وأشجار وزروع وثار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإزالة الكتب ، وإزاحة الشبه والعالء ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي : في توحيدِهِ وإرسال الرسل . ويجادلته في ذلك بغیر علم :

(١) أخرجه الإمام أحمد بن طريق صفيان ، للشيخ : ٩/٥ - ١٠ ، وانظر البخاري ، كتاب الياض : ١٨٢/٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الياض ، باب « من جرّ ثوبه خيلاء » من طريق أبي الزناد : ١٨٢/٧ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الياض ، باب « تحريم التبغ في الكسب مع إصابته بغيره » من طريق أبي الزناد : ١٤٨/٦ - ١٤٩ .

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٥٣١/٢ .

(٤) البخاري ، كتاب الياض ، باب « من جرّ ثوبه خيلاء » : ١٨٢/٧ .

ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ، أى : من يضى : (وإننا قيل لهم) ، أى : لهؤلاء الجاهلين في توحيد الله : (اتبعوا ما أنزل الله) ، أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ، (قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) ، أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون (١)) ، أى : فما ظنكم بأها الضعفون بصنع آباءهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ، ولهذا قال : (أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير)

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنْكَ كُفْرُهُمْ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٩﴾

يقول تعالى خبراً عن أسلم وجهه لله ، أى : أخلص له العمل واتقاد لأمره واتباع شرعه ، ولهذا قال : (وهو محسن) ، أى : في عمله ، اتباع ما به أمر ، وترك ما حذر ، (فقد استمسك بالعروة الوثقى) ، أى : قد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يضل به ، (وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره) ، أى : لا يحزن يا محمد عليهم في كفرهم بالله وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينتهم بما عملوا ، أى : فيحزبهم عليه ، (إن الله عليم بواطن الصدور) فلا تخفى عليه خافية :

ثم قال : (نضمتهم قليلاً) ، أى : في الدنيا ، (ثم نضطرهم) ، أى : لنجيتهم (إلى عذاب غليظ) ، أى : نطرح صعبه مشق على النفوس ، كما قال تعالى : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم لنليهم المذاب الشديد بما كانوا يكفرون (٢)) :

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢١﴾

يقول تعالى خبراً عن هؤلاء المشركين به : أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يبدون معه شركاء يفترون أنها خلقت له وملك له ، ولهذا قال : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل : الحمد لله) ، أى : إذ قامت عليكم الحجة باصترافكم ، (بل أكثرهم لا يعلمون) .

ثم قال : (لله ما في السموات والأرض) ، أى : هو خلقه وملكه ، (إن الله هو الغنى الحميد) ، أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء قدير إليه ، الحميد في جميع ما خلق ، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود في الأمور كلها :

(١) سورة البقرة آية ١٧٠ .

(٢) سورة يونس ٧٥ .

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَجْعَلُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَ أَبْحُرٍ مَانِدَّتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُكُمْ إِلَّا كَفِّسٌ وَاحِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى خبراً عن عظمته وكبرياه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلالة العظمة التي لا يحيط بها لحد ، ولا اطلاع لبشر حل كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وغاتم الرسل : « لا أحصى ثلثه عليك أنت كما أثبتت حل نفسك » (١) ، فقال تعالى : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر منه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) ، أي : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداداً ومدته سبعة أبحر معه ، فكيفت بها كلمات الله لليلة حل عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفذت ماء البحر ، ولو جاء أمطلا صدداً »

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا أن « ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم » ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين إلى لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى : (قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لغدت البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) (٢) ، فليس المراد بقوله : (مثله) أبحر قطع ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم حل جراً ، لأنه لا حصر لأيات الله وكلماته ،

وقال الحسن البصري : لو جعل شجر الأرض أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وقال الله : إن من أمري كذا ، ومي أمري كذا لنفذ ما في البحور ، وتكسرت الأقلام (٣) .

وقال قتادة : قال للمشركون : إنا هذا كلام يوشك أن ينهد ، فقال الله تعالى : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) ، أي : لو كان شجر الأرض أقلاماً ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفذ صياحبي ربي وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل حلم العباد كلهم في حلم الله كقطرة من ماء البحر كلها ، وقد أنزل الله ذلك : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) (٤) . الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مداداً لكلمات الله ، والأشجار كلها أقلاماً ، لتكسرت الأقلام ، ولنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقتل قلوبه ، ولا يفتى عليه كما يفتى ، حتى يكون هو الذى يفتى حل نفسه إن وهنا كما يقول ، وفوق ما تقول .

(١) مسلم : كتاب الصلاة ، باب : ما يقال في الركوع والسجدة : ٥١/٢ . وسنن أبي داود : كتاب الصلاة ، باب : في الدعاء في الركوع والسجدة ، الحديث ٨٧٩ : ٢٣٢ / ١ ونسخة الأسدي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٠٧٢ : ٤٦٩ / ٩ . والسنن : كتاب قيام الليل ، باب : الدعاء في الترتب : ٢٤٨/٣ - ٢٤٩ . وسنن الإمام أحمد من حل - روى الله عنه - ٩٦/١ ، ١١٨ ، ١٥٠ . وعن عائشة - روى الله عنها - ٥٨/٦ .

(٢) سورة الكهف : آية ١٠٩ .

(٣) تفسير الطبري : ٥١/٢١ .

(٤) النظر لصغير سورة الكهف : ٢٠: ٥ .

وقد روي أن هذه الآية قلت جوايا اليهود ، قال ابن إسحاق : حدثني ابن أبي عمير ، عن سعيد بن جبير أو حكيم ، عن ابن عباس ، أن أبا جابر جود قالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة : يا محمد ، أرايت قولك : (وما أوتيت من العلم إلا قليلا) ؟ إني أريد أن تعلم قولك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا ، فقالوا : أأنت تنوينا جابجا أنا قد أوتينا النبوة فيها بيان لكل شيء ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكتفيكم . وأقول الله بما سأله عنه من ذلك : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) (١) هذه الآية .

وهكذا روي من حكيم ، وصطاء بن يسار ، وهذا يقتضي أن هذه الآية مفعلة لا مفعلة ، وللهنود أنها مفعلة ، والله أعلم .

وقوله : (إن الله عز وجل حكيم) ، أي : عز وجل قد عز كل شيء وقهره وعلوه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالفة ولا منقبة لحكمه ، (حكيم) في خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشريعته وجميع شئونه .

وقوله : (ما خلقكم ولا ينكمح إليكم إلا كنفس واحدة) ، أي : ما خلقكم جميع الناس ومنهم يوم المآل بالنسبة إلى قدرته إلا كنفس واحدة ، الجميع حين عليه . (وإنا أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون (٢)) ، (وما أمرا إلا واحدة كلج بالبر (٣)) ، أي : لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتركه . (وإنا من زجرة واحدة) (٤) فإنا من بالساعة (٥) .

وقوله : (إن الله صميع) ، أي : كما هو صميع لأقوالهم صمير بأعمالهم وصبر بالنسبة إلى نفسه واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفسه واحدة ، ولهذا قال : (ما خلقكم ولا ينكمح إليكم إلا كنفس واحدة) هذه الآية .

لَمْ يَخْلُقْكُمْ وَلَاحِقَ لَكُمْ لِيَأْخُذَ بِعَمَلِكُمْ وَإِنَّكُمْ لَفِي رَبِّ كَاشِفُونَ الْعَمَلِ كُلِّ عَمَلٍ لَكُمْ بِهِ حَسَابٌ وَإِنْ أَجَلُكُمْ إِلَى اللَّهِ لَأُولَىٰ مِنْ حَسَابِكُمْ وَإِنَّكُمْ لَفِي رَبِّ كَاشِفُونَ الْعَمَلِ كُلِّ عَمَلٍ لَكُمْ بِهِ حَسَابٌ وَإِنْ أَجَلُكُمْ إِلَى اللَّهِ لَأُولَىٰ مِنْ حَسَابِكُمْ

غير محال أنه (يولج الليل في النهار) ، يعني يأخذ منه في النهار ، فيطوّل ذلك ويقصر هذا ، وهذا يكون زجرا . السيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يصرق في النفس فيطوّل الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء ، (وسخر الشمس واقصر كل يجري إلى أجل مسمى) ، أي : إلى يوم القيامة ، وكل لا يغير صحيح ، ويستشهد بقوله الأول بحيث أن فرضي الله به الذي في الصحيحين ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يا أبا ذر ، أتدري أين تلعب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تلعب فحسب نعت العرش ، ثم تتأذن ربها فيرشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت (٦) .

(١) انظر تفسير الطبري : ١/٢٢١ ، ٥٢٧ .

(٢) سورة هود : آية ٨٢ .

(٣) سورة النور : آية ٥٠ .

(٤) سورة التازعات : آية ١٢ ، ١٣ .

(٥) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٠٢٤/١ ، ومسلم ، كتاب الإيمان : باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان : ١٦١/١ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن عطاء بن أبي وباح ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجري بالنهار في السهله في ظلكها ، فإذا غربت جرت بالليل في ظلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر يستأده صحيح :

وقوله : (وإن الله عا تعلمون خير) ، كقوله : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) (١) ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما) لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما (٢) :

وقوله : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل) ، أي : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي : الموجود الحق الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فانه الحق ما سواه ، وكل شيء قدير إليه ، لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لمعزوا من ذلك : ولهذا قال : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو الحق الكبير) ، أي : الحق لا أمل منه ، الكبير : الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل شيء خاضع خفي بالنسبة إليه :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَبُ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٥﴾
وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَافُوفٌ دَعَا اللَّهَ غُلُوبًا لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَلَئِنْ لَمْ يَنْجِهمْ لَيَكُنَّ لَهُ الْآخِرُ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَبَدَّ لَهُمُ الْبَاطِلُ إِذَا
كُلُّ خَدَّارٍ مُكْمَرٍ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي مسح البحر لتجري فيه الفلك بأمره ، أي : بخلقها وتسخيرها ، فانه لولا ما جعل في لئاه من قوة يحمل بها السفن لما جرت : ولهذا قال : (ليرىكم من آياته) ، أي : من قدرته ، (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، أي : صبار في الضراء ، شكور في الرخاء :

ثم قال : (وإذا غشيهم موج كالأفلال) ، أي : كالجبال والقيام (دعوا الله غلوبا ليرىكم من آياته) ، كما قال تعالى : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) (٣) ، وقال : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله غلوبيين له الذين (٤)) :

ثم قال : (فلما نجاهم إلى البر فأنهم مقتصد) ، قال مجاهد : أي كالمز (٥) ، كأنه لم يقتصد هاهنا بالجاهد ، كما قال تعالى : (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) (٦) :

وقال ابن زيد : هو المتوسط في العمل :

(١) سورة الحج : آية ٧٠ .

(٢) سورة المائدة : آية ١٢ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٦٧ .

(٤) سورة التكاوير : آية ٦٥ .

(٥) تفسير الطبري : ٢١ ٪ ٥٤ .

(٦) سورة التكاوير : آية ٦٥ .

وملا الذي قاله ابن زيد هو المراد في قوله : (منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ^(١)) فالقصد هاهنا هو : المتوسط في العمل ، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكسار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات البهارات في البحر ، ثم بعد ما أجمع الله عليه من الخلاص ، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل النائم ، والورع في العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : (وما يصحح بابآتنا لإلاكل خطر كفور) ، فالختر : هو الخدر ، قاله مجاهد ، والحسن ، وقادة ، ومالك من زيد بن أسلم ، وهو الذي كلما عاهد قضى عهده ، والختر : أتم الغر وأبله ، قال عمرو بن معد يكرب (٢) :

وَأَتَيْتَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا حُصَيْنٍ مَكَثْتَ بِدَيْفِكَ مِنْ خَدَرٍ وَخَتَرٍ (٣)

وقوله : (كفور) ، أي : جحد النعم لا يشكرها ، بل يناسها ولا يذكرها .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ يَتْلُو آيَاتِهِ لعلَّكُمْ تَحْذَرُونَ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن يَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ يُضِلُّوكُم مِّنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلَ هَٰذَا مِن دُونِهِ مُرْتَدًّا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَادْعُوا إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ تَتَّبِعُوا سَبِيلَهُ لَا تَتَّبِعُوا فِي سَبِيلِهِ مَن يَدْعُوا إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَهُ عِلْمُ الْغُيُوبِ

يقول تعالى قلنا في يوم اللحد ، وأمرنا لم يتقوا والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث (لا يجزي والده من ولده) ، أي : لو أراد أن يفيده بنفسه لما قبل منه : وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه .

ثم عاد بالموصلة عليهم بقوله : (فلا تفرنكم ليلية الدنيا) ، أي : لا تلهيكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ، (ولا يفرنكم بالله الزور) ، يعني : الشيطان ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والفصح : وقادة ، فإنه يفر ابن آدم ويحده ويعنيه ، ونيس من ذلك شيء بل كما قال تعالى : (يعلم ويمتهم وما يعلم الشيطان إلا فرورا ^(٤)) .

قال وهب بن منبه : قال عزيز عليه السلام : لما رأيت بلاء قومي اشتد حزني وكثر همي ، وأرق نومي ، فضرحت إلى ربك وصليت وصمت غائياً في ذلك انصرف أبكي إذ أتاني الملاك فقلت له : أعزني هل تشفع لأرواح المصدقين للظلمة ، أو الأياد لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا باذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والدع ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا صديق عن صديقه ، ولا يتم أحديهم ، ولا يحزن لحزنه ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يهتم به ويكي عوله ^(٥) ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه خبره وواه ابن أبي حاتم .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ الْغُيُوبِ وَيُزِيلُ الْغَیْبَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَكْتُمُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَكْتُمُ نَفْسٌ لِّأُخْرَىٰ مِمَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ، فعمل وقت الساعة لا يعلمه لي مرسل ولا ملك مقرب ، (لا يعلمها لوقتها إلا هو) ، وكذلك إزال الغيب لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمه

(١) سورة طافر : آية : ٣٢ .

(٢) انظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/٣٧٧ . وأسد الغابة : ٤/٢٧٧ .

(٣) البيت في تفسير الطبري : ٢١/٥٤ .

(٤) سورة النساء : آية : ١٢٥ .

(٥) أمهات الرجل والمرأة : وصفا صوتهما بالبكاء والصلح .

للاللثة للركلون بذلك ومن شاء الله من خلقه : وكذلك لا يعلم ما في الأرحام ما يريد أن يخلق هناك سواء ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا ، علم لللالثة الركلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه : وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخرها ، (وما تدري نفس بأي أرض تموت) في بلدنا أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شيعة بقوله تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو (١)) الآية ، وقد وردت قصة بسمية هذه الخمسة : مفاتيح الغيب :

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين بن واقد ، حدثني عبد الله بن بريدة ، سمعته أن بريدة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «خس لا يعلمهن إلا الله عز وجل» (إن الله عنده علم الساعة ، ويتروك النيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله علم غيب (٢)) .

هذه حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجه .

حدث ابن عمر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» (إن الله عنده علم الساعة ، ويتروك النيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله علم غيب) .
أفرد بإخراجه البخاري فرواه في (كتاب الاستسقاء (٣)) من صحيحه ، عن محمد بن يوسف القتيبي ، عن سفيان ابن سعيد الثوري ، به : ورواه في التفسير من وجه آخر قال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثني عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر : أن أباه حدثنا عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مفاتيح الغيب خمس» ثم قرأ : (إن الله عنده علم الساعة ، ويتروك النيث ، ويعلم ما في الأرحام) . أفرد به أيضا (٤) .

ورواه الإمام أحمد عن غندر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد : أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس» (إن الله عنده علم الساعة ، ويتروك النيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله علم غيب غير (٥)) :

[حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثني عمرو بن مرة ، عن عبد الله ابن سلمة قال : قال عبد الله : أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير خمس : (إن الله عنده علم الساعة ، ويتروك النيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله علم غيب غير (٦))]

(١) سورة الأنعام : آية : ٥٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٥٣/٥ .

(٣) البخاري كتاب الاستسقاء ، باب : لا يدري متى يموت المرء إلا الله . ٤١/٢٥ - ٤٢ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة لقمان : ١٤٤/٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٨٥/٢ - ٨٦ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٨٦/١ وما بين القوسين من الكلمات السابقة .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد في آخره : قال : قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم : أكثر من خمسين مرة (١) .

ورواه أيضا عن وكيع ، عن مسعر عن عمرو بن مرة به (٢) :

وهذا إسناد حسن على شرط لا أصح من السلف ولم يخرجوه :

حديث أبي هريرة ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبي حيان ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يبرز للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة للفروضة ، وتصوم رمضان . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : ما للمستور عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة وبعثها (٣) ، فذاك من أشراطها . وإذا كان لطفة المرأة رؤوس الناس ، فذلك من أشراطها ، فحينئذ لا يعلمون إلا الله : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل البيث ، ويعلم ما في الأرحام ثم انصرف الرجل فقال : ردوه على ، فأعلموا ليردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم (٤) .

ورواه البخاري أيضا في « كتاب الإيمان » (٥) . ومسلم من طرق ، عن أبي حيان ، به : وقد تكلما عليه في أول « شرح البخاري » : وذكرنا ثم « حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله ، وهو من أفراد مسلم » (٦) :

حديث ابن عباس ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شهر ، حدثنا عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحا كفيه على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، [حدثني] ما الإسلام ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : إذا فعلت ذلك فقد أسلمت . قال : يا رسول الله ، فحدثني ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والنبين وتؤمن بالوحي ، وبالطهارة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله غيره وشرة . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : إذا فعلت ذلك فقد آمنت . قال : يا رسول الله ، حدثني ما الإحسان ؟

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٣٨/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٤٥/١ .

(٣) رويها : سيبويه ومولاهما . والمعنى : أن الناس يبيعون أمهات أولادهم في الأسواق ، فيشتقان من يد إلى يد ، حتى يقمن في ملك هؤلاء الأولاد ، فتكون الأم جارية لايتها . وفي هذا من الإتيان لكرامة الأمهات ما فيه .

(٤) البخاري ، تفسير سورة لقان : ١٤٤/٦ .

(٥) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : سؤال جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان والإسلام . . . : ١٩/١ - ٢٠ .

ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : الإيمان ، ما هو ؟ وبيان خصاله : ٣٠/١ .

(٦) مسلم ، كتاب الإيمان : ٢٨/١ - ٢٩ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فانه يراك ؛ قال : يا رسول الله فحدثني متى الساعة ؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : سبحانه الله : في خمس لا يعلمهن إلا هو ! (إن الله عنده علم الساعة ، ويتزلزله النيب ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض غوت ، إن الله عليم خبير) ولكن إن شئت حدثتك بمعلم لما دون ذلك ؟ قال : أبطل ، يا رسول الله ، فحدثني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيت الأمة ولدت ربتها - أو : رجا - ورأيت أصحاب الشاة يتطاولون في البنيان : ورأيت الخفاة الجياح العالة [كانوا دعوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشرافها . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاة والخفاة الجياح العالة ؟ قال : العرب (١)] .

حديث خريب ، ولم يخرجوه .

حديث وجل من بني عامر ، روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربيعة بن حركاش ، عن رجل من بني عامر ، أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أأنت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغلامه : انزعجني إليه فانه لا يحسن الاستئذان فقول له : قليل : « السلام عليكم » أدخل ؟ قال : فسمعه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أدخل ؟ فأذن فدخلت (٢) ، فقلت : أم أنتما به ؟ قال : لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا الألات والنزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهرا ، وأن تهجروا البيت ، وأن تأتطوا الزكاة من مال أغنيائكم فزودها على فقرائكم ، قال فقال : فعمل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : قد حكم الله - عز وجل - خيرا ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، المجلس (٣) (إن الله عنده علم الساعة ، ويتزلزله النيب ، ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير (٤)) : وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبي نجيع ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبل ، [فأنخرني] أمثلة ؟ وولادته بكه : فأنخرني متى يتزلزله النيب ؟ وقد حكمت متى ولدت فأنخرني متى أموت ؟ فأنزل الله عز وجل : (إن الله عنده علم الساعة) (إلى قوله : (إن الله عليم خبير) - قال مجاهد : وهي مفاتيح النيب التي قال الله تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) : رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير (٥) .

وقال الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا (٦)) .

وقوله : (وما تدرى نفس بأى أرض غوت) - قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن منكها مغربا ، ولا نبييا مسلما (إن الله عنده علم الساعة) ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أى سنة أو في أى شهر ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٣١٨/١ - ٣١٩ ، وما بين القوسين المتولين عنه .

(٢) لفظ المسند : « فأذن » أو قال : « فدخلت » .

(٣) كلمة : المجلس : غير ثابتة في المسند .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٦٨/٥ - ٣٦٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٥٥/٢١ .

(٦) تفسير الطبري : ٥٦/٢١ .

لو ليل أو نهار ، (ويترك الليل) فلا يعلم أحد متى يترك الليل ، ليلاً أو نهاراً ، (ويعلم ما في الأرحام) ، فلا يعلم أحد ما في الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أم أسود ، وما هو ، (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لك ذلك ليلت غدا ، لك ذلك المصائب غدا ، (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أى عمر أم ير ، أو سهل أو جبل (١) :

وقد جاء في الحديث : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير ، في مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » :

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو داود الحفري ، عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن مطر بن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة (٢) » :

وهكذا رواه الترمذي في « المعجم » ، عن حديث سفيان الثوري ، به ، ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث » (٣) وقد رواه أبو داود في « المراسيل » ، قاله أعلم :

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن ابن أبي عمير ، عن أسامة ، عن أبي حنيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة (٤) » :

وأبو حنيفة هذا هو : يتكبر بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الملك :

ونخرجه الترمذي من حديث إسماعيل في « ابن أبي عمير » - وهو ابن حنيفة - وقال : صحيح (٥) :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا الأصمعي ، حدثنا المزمع بن إسماعيل : حدثنا عبد الله بن أبي حميد ، عن ابن أبي عمير ، عن أبي حنيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم يتعنه يلقها » ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عليم الساعات ويترك الليل) ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، (إن الله عليم خبير) :

حدثنا أحمد ، قال الحافظ أبو بكر الزائر ، حدثنا أحمد بن ثابت الجعفي رأى وعبد بن عيسى القطعي قال : حدثنا حنبل بن علي ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » ، ثم قال الزائر : وهذا الحديث لا أعلم أحداً يرفعه إلا حنبل بن علي المقدسي :

(١) تفسير الباري ٢/١ - ٥٥ - ٥٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٢٧ .

(٣) تحفة الأحرفي ، أبواب القدر ، باب « ما جاء أن النفس تموت حيث كتب لها » ، الحديث ٢٢٣٥ ، ٢٠٩/٦ . وانظر ترجمة مطر بن عكرمة في « أسد الغابة » : ١٨٥/٥ - ١٨٦ ، بتعقيتنا .

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٢٩٩ .

(٥) تحفة الأحرفي في القامع المقدم ، الحديث ٢٢٣٧ ، ٣٩/٦ - ٣٦٠ .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني سليمان بن أبي مسيح قال : أنشدني عماد بن الحكم لأعشى همدان :

فَمَا تَزُودُ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ
سِوَى حَنُوطِ هَذَاكَ الْبَيْتِ مَعَ خَرِكِ
وَعَيْرِ تَنْجَمَةِ أَمْوَاجِ نَشَبِ لَهُ
وَكُلِّ ذَلِكَ مِنْ زَادِ لِمُتَطَلِّكِ
لَا تَلْسِينَ عَلَى شَيْءٍ فَكُلَّ فَنَى
إِلَى مَنِيَّتِهِ صَيَّغُ قِي عَقَقِ (١)
وَكُلَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ لَلْوَيْ يَخْطِئُهُ
مُكَلَّلٌ بِأَعَاكِلِ مَنْ الْحَقِ
بِأَيْسَاءِ بَلَدَةٍ نَقَدَرُ مَنِيَّتُهُ
إِنْ لَا يُسِيرَ إِلَيْهَا طَالَمَا يَسُقِ

أورده الحافظ ابن عساكر - رحمه الله - في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، وهو أعشى همدان ، وكان النبي زوج أخته ، وهو مَزُوجُ بَلَسَتْ للشَّعْبِي أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم ونفقته ، ثم عدل إلى صناعة الشعر فأعترف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَرُ بن شُبَّه ، كلاهما عن صمر بن علي مرفوعا : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثقته إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره (٢) ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : (رب أ ، هلنا ما أودعني (٣)) »

قال الطبراني : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أبي بصير ، عن أبي الميخ ، عن أسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما جبل الله منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة (٤) » .

[آخر تفسير « سورة لقمان » والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبتا ولعمركي]

(١) المتن - بضم حين - : البحر الرعي .

(٢) الآخر : الأجل .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتابه الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له . الحديث ٢٤٦٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ .

(٤) كذا . وقد تقدم الحديث مع هذه الآية هلنا السنة .

تفسير سورة السجدة

وهي مكية

قال البخاري في «كتاب الجمعة»: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن سعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن هرم مزمز الأخرج، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: «كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في الفجر يوم الجمعة: (لم: تنزيل) السجدة»، و (هل أتى على الإنسان (١)).

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثوري، به (٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا الحسن بن صالح، عن ليث، عن أبي الزبير، عن جابر قال: «كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا ينام حتى يقرأ (لم: تنزيل) السجدة، و (تبارك الذي بيده الملك)؛ تفرد به أحمد (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنسَ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْغَلِيلِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۝ لَتَنذِرَنَّهُمْ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ ۝ قِيلَ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۝

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة (٤) بما أغنى عن إعادته.

وقوله: (تنزيل الكتاب لا ريب فيه)، أي: لا شك فيه ولا مرية أنه نزل (من رب العالمين).

ثم قال مخبرا عن المشركين: (أم يقولون افتراه)، بل يقولون: (افتراه)، أي: اختلقه من تلقاء نفسه، (بل هو الحق من ربك، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم ينتهون)، أي: يتجوز الحق.

(١) البخاري، «كتاب الجمعة»، باب: «ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة»: ٥/٢.

(٢) مسلم، «كتاب الجمعة»، باب: «ما يقرأ في يوم الجمعة»: ١٦/٢.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٤٤٠/٣.

(٤) انظر: ٥٦٤١ - ٦٥.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا خَفِيٍّ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يَذَرُ الْأَرْضَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي عَمَرٍ كَانَ مُقَدَّرًا أَلَمْ يَسْخَرْ لَكُمْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكُمْ إِلَهُكُمْ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾

يُخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك (١) .

(ما لكم من دونه من ولي ولا خفيج) ، أي : بل هو المالك لأزمنة الأمور ، الخالق لكل شيء ، والخبير لكل شيء .
(انذار على كل شيء) ، فلا ولي تخلق سواه ، ولا خفيج إلا من بعد ذاته ،
(أفلا تتذكرون) ، أي : أيها الماعبدون خبره ، لتذكرون على من عباد - تعالى وتقدس وتزه أن يكون له نظير أو شريك أو نظير ، أو وزير أو حليل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه :

وقد أورد السائق هاتين حديثاً فقال : حديثاً لإبراهيم بن يعقوب ، حديثاً لعبد بن الصباح ، حديثاً أبو حنيفة الخياط ، حديثاً الأعرج بن حنبلان عن ابن جريج للكني ، عن عطاء ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمجد يئس فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش في اليوم السابع ، فخلق القرية يوم السبت ، والجهنم يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، والكره يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والنواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلق من آدم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث » .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومقتاً ، وقد أخرج مسلم والسنائي ، أيضاً من حديث الحجاج بن محمد العمري ، عن ابن جريج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحو من هذا السياق (٢) .

وقد حله البخاري في كتابه « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأحمري وهو أصح » . وكلنا حله غير واحد من الحفاظ ، والله أعلم .

وقوله : (يذير الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه) ، أي : يترك أمره من أهل السماوات إلى أهل الأرض ثم يرجع الأمر من أهل الأرض من السماوات ، يترك الأمر بين يديهم لعلهم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أساط بكل شيء علماً (٣) .

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماواتها ، وملائكة ما بينها وبين الأرض (سورة : الحاقة ١٥) ، وسلك السبل حسبها ١٦ .

(١) انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ٤٢٢/٣ ، والآية الثالثة من سورة يونس ١٨٣/٤ ، والآية السابعة من سورة هود ٢٢٤/٤ - ٢٢٤/٤ ، والآية ٥٩ من سورة الفرقان ٢٢٨/٥ .

(٢) تقدم حديث مسلم عنه تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ، ومخرجته هناك ، انظر ٤٢٢/٤ .

(٣) سورة الطلاق ، آية ١٧ .

وقال جاهد ، وقادة ، والفساك : التزك من الملك في مسيرة خميسة عام وصعوده في مسيرة خميسة عام ، ولكنه يقطعها في طرفة عين ، ولهذا قال تعالى : (في يوم كان مقداره ألف سنة عما تعدون) (١) .
(ذلك عالم الغيب والشهادة) ، أي : للبر لحله الأمور التي هو شهيد على أعمال عباد ، يرفع إليه جبلها وحجرها ، وصفيها وكبرها - هو (البر) الذي قد عز كل شيء قهره وظله ، وحادث له القباد والرقاب ، (للرحيم) بجاده المؤمنين فهو عز في رحمة ، ورحم في حزم .

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ جَعَلَ نُسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مِهِينٍ ﴿٢١﴾
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾
يقول تعالى : إله الذي أحسن خلق الأشياء وأحسنها وأحكمها .

وقال مالك : عز زيد بن أسلم : (الذي أحسن كل شيء خلقه) ، قال : أحسن خلق كل شيء ، كاله جعله مع القدم والمؤخر .

ثم لا ذكر خلق السموات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال : (وبدأ خلق الإنسان من طين) ، يعني خلق أبا البشر آدم من طين (ثم جعل نسله من سلافة من ماء ميهين) ، أي : يتناسلون كذلك من لطفة تخرج من بين صلب الرجل وراثة المرأة (ثم سواه) ، يعني : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سوا مستقيا ، (ونفخ فيه من روحه) ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ، يعني : العقول (قليلا ما تشكرون) ، أي : هذه القوى التي وزعكموها الله - عز وجل - فالمسلم من استعملها في طاعة ربه عز وجل :

وَالَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُوا آيَاتِ الْكِتَابِ وَلَهُمْ أَرْحَامُ الْمَوْتَى وَلَهُمْ أَرْحَامُ الْمَوْتَى وَلَهُمْ أَرْحَامُ الْمَوْتَى
يَتْلُوا آيَاتِ الْكِتَابِ وَلَهُمْ أَرْحَامُ الْمَوْتَى وَلَهُمْ أَرْحَامُ الْمَوْتَى

يقول تعالى خبراً من الشرك في استبعادهم للمعاد حيث قالوا : (أتأبى علينا في الأرض) ، أي : تموت أجسادنا وفترت في أجزاء الأرض وذبت ، (أتأبى خلق جديد) ؟ أي : أتنا نسعد بعد تلك الحال ؟ ! يستعملون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الذي يبدئهم ويخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال : (يلهم بقاءهم كالفرون) .

ثم قال : (قل) يترفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص مبيع مع ملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء للتقدم ذكره في (سورة إبراهيم) (٢) ، وقد سمي في بعض الآثار بهزاتيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أحوان : وهكذا ورد في الحديث أن أحواله يتزعمون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

(١) انظر تفسير الطبري : ٥٨/٢١ .

(٢) انظر تفسير الآية السابعة والثلاثين من سورة إبراهيم : ٤١٣/٤ . وما بعده .

قال جاهد : حوت (١) له الأرض فجعلت له مثل الفلست ، يتناول منها حيث يشاء :

ورواه زهير بن محمد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه مرسلًا : وقاله ابن عباس رضي الله عنهما :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ ، حدثنا عمر بن سمرة ^٢ عن جعفر بن محمد ^٣ قال : سمعت أبي يقول : نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا ملك الموت ، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن : فقال ملك الموت : يا محمد ، طيب نفساً وقرّ عيناً فإنه بكل مؤمن رفيق ، وأعلم أن ما في الأرض بيت مدّرت ولا شمر ، في بر ولا بحر ، إلا وأنا أنصفه في كل يوم خمس مرات ، حتى إلى أعرق بصغيرهم وكبيرهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعضه ما قدّرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها (٤) .

[قال] جعفر : بلغني أنه إنما يتصفّحهم عند مواعيت الصلاة ، فإذا حضروا عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه الملك : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، في تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن ميسرة قال : سمعت جاعداً يقول : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو ملو إلا وملك الموت يطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ، ينظر هل فيه أحد أم أن يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم :

وقوله : (ثم إلى ربكم ترجون) ، أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزاكم :

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٧٤﴾
وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنفَسْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدِنَهَا وَلَئِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٥﴾ فَذُوقُوا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٦﴾ هَذَا أَنَا نَسِيْتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْعَذْلِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾

غير تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وقالمهم (١٧٤) حين عابوا البعث ، وقاموا بين يدي الله حزينين ذليلين ، لا سوى رءوسهم ، أي : من الحياء والخجل ، يقولون : (ربنا أبصرنا وسمعنا) ، أي : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : (أسمعهم وأبصر يوم يأتوننا) (١٧٥) : وكذلك يعودون على أنفسهم ببلايا إذا دخلوا النار بقولهم : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) (١٧٦) . وهكذا هؤلاء يقولون : (ربنا ، أبصرنا وسمعنا فارجعنا) ، أي : إلى النار الدنيا ، (نعمل صالحاً إننا موقنون) ، أي : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقائك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى النار الدنيا لكأنوا كانوا فيها كضاراً يكلون آيات الله وعافون رساله ، كما قاله (ولو ترى

(١) حوت : جمست .

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وأبي الشيخ : ١٧٤/٥ .

(٣) أي : قولهم .

(٤) سورة مريم : آية ٣٨ .

(٥) سورة الملك : آية ١٥ .

إذ وقفوا على النار قالوا : يا ليتنا ترد ولا نكتب آيات ربنا ونكون من المؤمنين : بل بدلا لم ما كانوا يحقون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون : وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمؤمنين (١) : وقال ها هنا : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداه) : كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) (٢) (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ، أي : من الصغين ، فدلهم (٣) النار لا يحيد لم عنها ولا يحبس لم منها ، فوذا بالله وكلماته الفاتمة من ذلك :

(فلو قرأ بما نسيتم لقاء يومكم هذا) ، أي : يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، إذ علمتموه معاملة من هو ناس له ، (إنا نسيناكم) ، أي : ستعاملكم معاملة الناس ، لأنه تعالى لا ينسى شيئا ، ولا ينسى شيئا ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى : (اليوم نساكم كما نسيه لقاء يومكم) (٤) هذا :

وقوله : (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) ، أي : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال في الآية الأخرى : (لا يلذقتون فيها ريذا ولا شرابا ، إلا حميما وضافا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذبا) (٥) وكل فيء لخصيصنا كتابا ، فلذوقوا قلن يزيدكم (إلا عذابا) (٦) :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا غَبَرُوا وَهُمْ لَا يُسَكِّرُونَ ﴿٥٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضْجِعِ يَدْعُونَ بِهِمْ حُوقًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ مِّنَ الْعَذَابِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى : (إنما يؤمن بآياتنا) ، أي : إنما يصدق بها (الذين إذا ذكروا بها غبروا سجدا) ، أي : استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلًا ، (وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) من اتباعها والافتقار لها ، كما يفعله الجبهة من الكثرة الشجرة ، قال الله تعالى : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيلخطون جهنم خاضعين) (٧) :

ثم قال : تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضجع) ، يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على القبر المطوية ، قال جاهد والحسن في قوله تعالى (٨) : (تتجافى جنوبهم) ، يعني بذلك قيام الليل (٩) : وعن أنس ، وعكرمة ، وعبد بن النكسر ، وأبي حازم ، وقادة ، هو الصلاة بين العشاءين ، ومن أنس أيضا : هو انتظار صلاة العتمة : رواد ابن جرير بإسناد جيد (١٠) :

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٧ - ٢٩ .

(٢) سورة يونس ، آية ٩٩ .

(٣) غسوة الأثر : أنه ذلهم النار .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٤ .

(٥) سورة لقمان : الآية ٢٥ - ٣٠ .

(٦) سورة طه : آية ٦٠ .

(٧) ما بين القوسين سقط من غسوة الأثر .

(٨) تفسير الطبري : ٦٤/٢١ .

(٩) انظر تفسير الطبري : ٦٢/٢١ .

وقال الفضائل : هو صلاة المشاة في جماعة ، وصلاة القنلة في جماعة .

(يدعون بهم خوفاً وطمأناً) ، أي : خوفاً من وياك حقايقه وطمأناً في جليل قوايه . (وما رزقناهم يثقرون) ، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والتمنية ، ومقدم هؤلاء وسليم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال عبد الله بن ربيعة رضي الله عنه :

وَكَيْفَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ
إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَطَعَ
أَرَاكَ الْمُدَى بَعْدَ الْعَصَى ، فَكَلَّوْنَا
بِهِ مَوْفِقَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَاقِعًا
يَتَبَيَّنُ بِجَانِبِ جَنَّةٍ عَنْ فِرَاشِهِ
إِذَا اسْتَقْبَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ لِمَصَابِحِهِ

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن مرة المخداني ، عن ابن مسعود ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « عجب ربنا من رجلين » رجل ثار من وطأته ولحافه ، من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول ربنا : أيا ملائكتي ، انظروا إلى عبدي ، ثار من فراشه ووطأته ، ومن بين حبه وأهله إلى صلاته (١) رغبة فبا عتدي ، وشفقة بما عتدي : ورجل ثار في سبيل الله - عز وجل - فأنزموا ، فلم ما عليه من القرار ، وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهرق دمه ، رغبة فبا عتدي وشفقة بما عتدي : فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فبا عتدي ، ورهبة بما عتدي ، حتى أهرق دمه (٢) .

وهكذا رواه أبو داود في « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن حاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير فقلت : يا أباي الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويأخذه من النار : قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليس به عمل من يسره الله عليه ، يعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت : ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخلقية ، وصلاة الرجل في جوف الليل : ثم قرأ : (تنجي جنوهم عن المضايح) ، حتى يبلغ (يعملون) : ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وخروجه مناه ؟ قلت : بلى ، يا رسول الله : فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وخروجه ستامة الجهاد في سبيل الله : ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك (٤) كله ؟ قلت : بلى ، يا أباي الله ، فأشد بلسانه ثم قال : كُفَّ حليك هذا . فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤملون بما تنكلم به : فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - لو قال : على مناخرهم - إلا حمالة الكسوف (٥) .

(١) ما بين القوسين سقط من نصيب ابن كثير ، وقد أنبأه عن لسانه .

(٢) سنن الإمام أحمد : ٤١٦/١ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب في الرجل الذي يشرى نفسه ، الحديث ٥٢٣٦ : ١٩/٢ - ٢٠ .

(٤) الملك - بكسر الميم - : ما به أحكام الله وتوقيعه .

(٥) سنن الإمام أحمد : ٢٣١/٥ .

ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم ، من طرق عن ميمون ، به : وقال الترمذي : « حسن صحيح (١) » ، ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عروة بن الزناد (٢) يحدث عن معاذ بن جبل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : ألا أهلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكثر الخليفة ، وقيام العبد في جوف الليل ، وتلا هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطعماً وما رزقناهم يفتقون (٣)) :

ورواه أيضاً من حديث الثوري ، عن منصور بن الحنظل ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبي ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ مرفوعاً بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، قال : قيام العبد من الليل (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فطر بن خليفة ، عن حبيب ابن أبي ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جبر ، عن ميمون بن أبي شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال : إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطهر الخليفة ، وقيام الرجل في جوف الليل ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطعماً ، وما رزقناهم يفتقون) :

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فينادي بصوت يسمع الخلائق : سيحلم أهل الجمع اليوم من أولي الكرم . ثم يرجع فينادي : ليقيم اللين كانت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) : الآية ، فيقومون وهم قليل .

وقال الزبيري : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثني مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال لما نزلت هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، كنا نجلس في المجلس ، وتاس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

ثم قال : لا تعلم روى أسلم عن بلال سواء ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق :

وقوله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ، أي : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم القيم ، والذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

(١) تحفة الأحرار : أبواب الإيمان ، باب ما جاء في سرمة الصلاة ، الحديث ٢٧٤٩ : ٧ / ٣٦٢ - ٣٦٥ . وسنن ابن ماجه ، كتاب اللين ، باب وكف المنافق في الفتنة ، الحديث ٣٩٧٣ : ٢ / ١٣١٤ - ١٣١٥ .

(٢) في تفسير الطبري : « عروة بن الزبير » . وعروة بن الزناد - كما في الخلاصة - يروي عن معاذ بن جبل ،

(٣) تفسير الطبري : ٦٤ / ٢١ .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٦٤ / ٢١ - ٦٥ .

قال الحسن : أننى قوم أعلمهم ! فألقى الله لم يلم تر عين ، ولم يخطر على قلبه بشر : وواه ابن أبي حاتم ، قال البخارى : قوله : (فلا تعلم نفس ما أنشى لهم من قرأه أمين) : الآية : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : أهدت لعبائى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلبه بشر » : قال أبو هريرة : فاقروا إن شئتم : (فلا تعلم نفس ما أنشى لهم من قرأه أمين (١)) : قال : وحدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال الله طه : قبل لسفيان : رواية ؟ قال : فتأى هـ ؟ .

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة ، به : وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) . ثم قال البخارى : حدثنا إصاق بن نصر حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش حدثنا أبو صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أهدت لعبائى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلبه بشر ، ذُشِرَ مَنْ بَكَه (٣) ما أُطْلِعَ عَلَيْهِ » ، ثم قرأ : (فلا تعلم نفس ما أنشى لهم من قرأه أمين جزاء بما كانوا يعملون) .

قال أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح قرأ أبو هريرة : (قُرأت أمين) : انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤) وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الله تعالى قال : أهدت لعبائى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلبه بشر (٥) » .

أخرجه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق (٦) : ورواه الترمذى فى التفسير ، وابن جرير ، من حديث عبد الرحيم ابن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحقه . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح (٧) » .

(١) البخارى ، تفسير سورة المسجدة : ١٤٥/٦ .

(٢) مسلم ، كتاب البينة : ١٤٢/٨ . وتحفة الأحرف : تفسير سورة المسجدة ، المجلد ٣٢٤٩ : ٩/٩٠ .

(٣) ذكر الحافظ فى فتح البارى ٣٦٥/٨ : « قال الخطيب : كأنه يقول : دع ما أظلم عليه فإنه سهل فى جنب ما أدر لم ويعقب ابن سير بنقله : « وهذا لا يقى بشرح (به) بغير تقدم (من) عليها ، وأما إذا تقدمت (من) عليها ، فقد قيل : من بمنى ، كيف ، ويقال بمنى ، أجل ، ويقال بمنى ، غير ، أو ، سوى : وقيل : بمنى ، فضل . لكن قال السلفى : أتلفت تسع الصحيح على (من به) ، والصواب إسقاط كلمة (من) . وتعقب بأنه لا يتعين إسقاطها إلا إذا فسرت بمنى « دع » ، وأما إذا فسرت بمنى : من أجل ، أو ، من غير أو سوى ، فلا وقد ثبت فى عدة مصنفات خارج الصحيح بإثبات (من) . . . » .

(٤) البخارى ، تفسير سورة المسجدة : ١٤٥/٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٣ / ٢ من حديث طویل .

(٦) وقع لنا الحديث فى صحيح البخارى من رواية مسمر ، وذلك فى كتابه به الخلق باب : وما جاء فى صفة الجنة . . .

١٢٢/٤ .

(٧) تحفة الأحرف : تفسير سورة الواقعة : المجلد ٣٢٤٦ : ١٧٩/٩ - ١٨٥ : وتفسير للطبري : ٦٦/٢١ .

وقال حماد بن سلمة : عن ثابت بن أبي رافع ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال حماد : أحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « من يدخل الجنة يتم لا يأس ، لا تملئ ثيابه ، ولا يفتني شياؤه ، في الجنة مالا حين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (١) ؛
رواه [مسلم] من حديث حماد بن سلمة ، به (٢) .

وروى الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت سهل ابن سعد الساعدي - رضي الله عنه - يقول : شهدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال في آخر حديثه : « فيها مالا حين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ، إلى قوله : (يعملون) (٣) .

وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب ، به (٤) .

وقال ابن جرير : حدثني العباس بن أبي طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبي مطيع ، عن قتادة ، عن حنيفة بن عبد الغفار ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يروي عن ربه عز وجل ، قال : « أحدثت لعبادي الصالحين مالا حين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٥) . لم يخرجوه .

وقال مسلم أيضا في صحيحه : حدثنا ابن أبي عمر وضريحه ، حدثنا صفيان ، حدثنا معمر بن عوف ، وعبد الملك بن سعيد ، سماع الشعبي بن جعفر عن المنيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر - يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « ما لك موسى عليه السلام ربه عز وجل ؟ ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو : رجل يحيى بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة - فيقول : أي رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذكهم (٦) ؟ فيقال له : أترضى أن يكون له مثل ملكك مكيك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رغبيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال في الخامسة : رغبيت رب ؟ فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت حينك . فيقول : رغبيت رب ؟ قال : رب ، فأعلام منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت - غرست - كرامتهم بيدي ، وخمست عليها ، فلم ترحب ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصداقه من كتاب الله : (فلا تعلم نفس ما أُتيت من قرة عين جزاء بما كانوا يعملون) (٧) .

ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبي ، عن المنيرة ولم يرفعه ، واللفظ أصح :

(١) تفسير الطبري : ٢١ : ٦٧ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة ، باب في دوام نعم أهل الجنة : ١٤٨/٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٣٤/٥ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الجنة : ١٤٢/٨٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٦٧/٢١ .

(٦) أي : أخذوا ما أخذوا من كرامة ربه .

(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : أملى أهل الجنة منزلة : ١٢ : ١٢١ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن منير اللخاني ، حدثنا أبو بكر شجاع بن الوليد ، حدثنا زياد بن خبشة ، عن هدد بن جبحانة ، عن حاصر بن عبد الواحد قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ، ثم يلفظ فإذا هو بأمرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أتى (١) لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول له : من أنت ؟ فتقول : أنا من للزبد . فيمكث معها سبعين سنة ، ثم يلفظ فإذا هو بأمرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أتى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التي قال الله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ، وقال ابن أبي حاتم : حدثني عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبلة قال : تدخل عليهم لللافة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم ، وذلك قوله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ، وَيُخَيَّرُونَ أَنْ لَقَّاهُمْ راضٍ .

وقال ابن جرير : حدثنا مهمل بن موسى الرازي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أبي البيان الموزني - أو غيره - قال : الجنة مائة درجة ، أولها درجة فضة وأرضها فضة ، وساحتها فضة ، وأقيمتها فضة ، وترابها للسك . والثانية ذهب ، وأرضها ذهب ، وساحتها ذهب ، وأقيمتها ذهب ، وترابها للسك . والثالثة لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، وساحتها لؤلؤ ، وأقيمتها اللؤلؤ ، وترابها للسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم تلا هذه الآية : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون) (٢) .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الخطيب ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الروح الأمين قال : يوتي بحسنة البد وبيئاته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة واحدة وسع الله له في الجنة ، قال : فدخلت على يوحنا - فحدثت بطل هذا الحديث ، قال : قلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : (أولئك الذين تنقص عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) : قلت : قوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ، قال : البد يعمل سرا أسرته إلى الله ، لم يعلم به الناس ، فآسر الله له يوم القيامة قرة أعين (٣) .

أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ كَافِرًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ تَزَلَّىٰ أَمْثَلُ كَأَنَّهُمْ يَمْشُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَنَذِقَنَّهِنَّ مِنَ الْعَذَابِ الْأَعْدَىٰ ذُو الْعَذَابِ لَأَكْبَرُ لَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢١﴾

يخبر تعالى عن عذله أنه لا يساوى في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، عن كان كافراً ، أي : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه ، كما قال تعالى : (لم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا

(١) أي : حات .

(٢) تفسير الطبري : ٦٦/٢١ .

(٣) تفسير الطبري : ١٧/٢١ .

وعملوا الصالحات ، سواء عبادهم وعملهم ، ساء ما يحكون (١) ، وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفُسِقِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢)) ، وقال تعالى : (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٣)) . ولما قال تعالى : هاتوا : (أَلَمْ يَكُنْ كَانَ مُؤْمِنًا كُنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ، أى : عند الله يوم القيامة :

وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما : أنها نزلت في حل بن أبي طالب ، وعقبة بن أبي معيط (٤) . ولما فصل حكمهم فقال : (أَمْ أَلْزَمْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ، أى : صلبت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، وهى الصالحات ، (فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى) ، أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ، (نَزَلَا) ، أى : ضيافة وكرامة بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا) ، أى : خرجوا عن الطاعة ، (فَأَوَّاهُمْ النَّارَ ، كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أَعْيُنًا) ، أى : كقولهم ، (كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) (٥) . الآية ٢ .

قال القسطلاني بن عياض : والله إن الأبدى لموتة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفهمهم ولللائكة تشمهم .
(وقيل لم : فوقوا حذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ، أى : يقال لم ذلك تقريرا وتوبييحا .

وقوله : (وَلَنُلْقِيَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) ، قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتا ، وما يهل بأهلها مما يهل لله به عباده ليتوبوا إليه (٦) : ورؤى مثله عن أبي بن كعب ، (وأبى العباس) ، والحسن ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجزري ، وشصيف ، وقال ابن عباس - فى رواية عنه - يعنى به إقامة الحدود عليهم (٧) .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو حنيفة : يعنى به عذاب القبر .

وقال التستلي : أخبرنا عمرو بن حلى ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص : وأبى حنيفة ، عن عبد الله : (وَلَنُلْقِيَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) ، قال : سنون أصابتهم . وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني عبيد الله بن حنبل القوليري ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن الحسن العرقي ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب في هذه الآية : (وَلَنُلْقِيَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) ، قال : للصبيات والذخائن قد مضى ، والبطشة والزرغام (٨) :

(١) صورة الجالية ، آية ٢١ .

(٢) سورة ص ، آية ٢٨ .

(٣) سورة الحجر ، آية ٣٠ .

(٤) ذكر الطبري : ٦٨ / ٢١ : يستأذنه من عطاء قال : « نزلت بمدينة في حل بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط . كان بين الوليد وبين حل كلام ، فقال الوليد بن عقبة : أنا أبسط منك لساناً ، وأشد منك ستاناً ، وأراد منك الكتيبة » . فقال حل : استك فإنيك فاسق . فأوزل الله فيهما : (أَلَمْ يَكُنْ كَانَ مُؤْمِنًا كُنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ، إلى قوله : (به تكذبون) .

(٥) سورة الحج ، آية ٢٢ .

(٦) تفسير الطبري : ٦٨ / ٢١ .

(٧) تفسير الطبري : ٦٩ / ٢١ .

(٨) مستند الإمام أحمد : ١٢٨ / ٥ ، وانظر تفسير هذه المفردات في : ٣٠٥ / ٦ .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفاً نحوه (١) : وعند البخارى عن ابن مسعود ، [نحوه (٢)]
 وقال عبد الله بن مسعود [أيضاً] فى رواية عنه : للعلاب الأذى : ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم ،

قال السدى : وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتل لم أو أسير ، فأصيروا أو غرروا ، ومنهم من جمع له الأمران ،

وقوله : (ومن أضلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) ، أى : لا أضلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجعلها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها :

قال قتادة - رحمه الله - إياكم والإعراض من ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر القكرة ، وأحوز أشد الصوكر ، وعظم من أعظم اللتوب ،

وهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : (إنا من المجرمين متقومون) ، أى : سأنضم من فعل ذلك إلى أشد الانضمام .
 وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكر الكلابى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا جده العزيز بن حبيد الله ، عن عباد بن نسي ، عن جنادة بن أبي أمية ، عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لوله فى غير حق ، أو حق والدية ، أو منى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم » يقول الله تعالى : (إنا من المجرمين متقومون (٣))

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به : وهذا حديث غريب جداً .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرَّةٍ مِنْ لِقَائِهِ . وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
 أُمَمًا يَهْتَدُونَ وَأَمْرًا لِمَا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِعَاقِبَتِنَا يَوْمَتُونَ ۚ (١) إِنْ رَأَيْتَ مُوسَىٰ يَتَوَلَّىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 فَأَنْذَرْنَاهُ إِذْ وَاعَىٰ وَوَحَّيْنَاهُ أَلَيْسَ لِي بِأَعْيُنٍ مُّصَوِّغَاتٍ لِّمَا تُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ (٢)

يقول تعالى ضرباً عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : (فلا تكن فى مرة من لقاءه) ، قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء . ثم روى عن أبي العالى الراعى قال :
 حدثني ابن عم ليكم - يعنى ابن عباس - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لويت ليلة أسرى بن موسى
 ابن عمران ، رجلاً آدم طويلاً جعداً ، كأنه من رجال شتومة » ورأيت عيسى رجلاً مربع الخلق ، إلى الحفرة

(١) مسلم ، كتاب صفوة القيامة والجنة والثار ، باب : المصالح ، ١٣٢/٨ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة المصاح ، ١٦٤/٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ٦٩/٢١ .

(٤) تفسير الطبرى : ٧٥/٢١ .

والبيض ، صبط الرأس * ورأيت مالكا خازن النار والرجال ، في آيات لراحم الله إياه ، (فلا تكن في مربة من لقائه) ، أنه قد رأى موسى ، ولقي موسى ليلة أسرى به (١) .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا الحسن بن علي الحلواني ، حدثنا روح بن حباد ، حدثنا سعيد بن أبي حنيفة ، عن قتادة ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (وجعلناه هدى لبي إسرائيل) ، قال : جعلم موسى هدى لبي إسرائيل ، وفي قوله : (فلا تكن في مربة من لقائه) ، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل .

وقوله : (وجعلناه) ، أي : الكتاب الذي آتيته (هدى لبي إسرائيل) ، (كما قال تعالى في سورة الإسراء :) وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبي إسرائيل (أن لا تتخذوا من دوني وكيلا (٢)) .

وقوله : (وجعلناه منهم أئمة جهنم بأمرنا) صبروا وكانوا بآياتنا يرفقون (، أي : لا كانوا صابرين على أوامر الله وعرك زواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءهم به ، كان منهم أئمة جهنم إلى الخلق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر : ثم لا بدلوهم وحسروا وأولوا ، صلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يعرفون الكلام من مواضعه ، فلا حل صلوا ، ولا اعتقاد صعبا . ولهذا قال : (وجعلناه منهم أئمة جهنم بأمرنا) صبروا (٣) .
- قال قتادة وعفيان : لا صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح :

قال صفيان : هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماما يُتَكَلَّمُ به حتى يحمى عن الدنيا .

قال وكيع : قال صفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز .

وقال ابن بنت الشاذلي : قرأ أبي علي علي - لو : حمى علي أبي - سئل صفيان عن قوله علي - رضي الله عنه - : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، لم تسمع قوله : (وجعلناه منهم أئمة جهنم بأمرنا) صبروا (، قال : لا أعلموا برأس الأمر صبروا وروسا ! قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

ولهذا قال تعالى (٤) : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) ووزعناهم من الطوائف وفصلناهم على الملأ * وآتيناهم بينات من الأمر (٥) (فما حظفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم (٥)) كما قال هنا : (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ، أي : من الاعتقادات والأعمال .

(١) تقدم الحديث في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وعرجناه هناك : ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٧ .

(٣) ورد في الخطوط والطباعت السابقة مكان هذه الآية قوله تعالى : (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب) ، وسهوا للمصنف يقتضي إثبات ما أتيته .

(٤) ما بين قوسين من الطباعت السابقة .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٧٤ ، ١٧٥ .

أَوَلَمْ يَدْعُوا مَن كَانَ مَلَكًا مِّن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَيسُّونَ فِي مَكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ
(١) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ لِلْأَرْضِ الْأَعْرَضِ فَتَغَيَّرَ بِهَا زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ لَنُضْمِرَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ (٢)

يقول تعالى: أولم يبد هؤلاء المكثنين بالرسل ما أمك الله قبلهم من الام للماضية، بتكليمهم الرسل وعنايتهم إياهم فبما جاملهم به من قوم السبل، فلم يبق منهم باقية ولا أثر؟ (هل نخس منهم من أحد أو قسح لم ركوا) (١)، ولما قال: (يعشون في مساكنهم)، أي: وهؤلاء للكنبون يعيشون في مساكن أولئك للمكثنين، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها (كان لم يفتوا فيها) (٢)، كما قال: (فكل بيوتهم خاوية عما ظالموا) (٣)، وقال: (فكأن من قرية أمكنها وهي ظلة، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد، أنظر يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فلها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور) (٤) ولما قال هاهنا: (إن في ذلك لآيات)، أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكليمهم الرسل، ونتيجة من آمن بهم، وآيات وهما: ومواضع ودلائل متظاهرة.

(أفلا يسمعون)، أي: أنصار من تقدم، كيف كان أمرهم؟

وقوله: (أولم يروا أنا سواك الماء إلى الأرض الجرز)، بين تعالى لطفه بخلقهم، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السبح، وهو ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال، إلى الأرض المطبقة إليه في أوقاته، ولما قال: (إلى الأرض الجرز)، وهي: التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: (وإننا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا)، أي: ببسا لا تثبت شيئا. وليس المراد من قوله: (إلى الأرض الجرز)، أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثلها كثير من للتسرين فليست المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فلها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لا نزل عليها مطراً لتهدمت أبنتها، فسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه عين أحمر، فينشئ أرض مصر، وهي أرض صالحة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه، فيستفدون كل سنة على ماء جديد مطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فيسبحان الحكيم الكريم للثان المصمود ابتلاء.

قال ابن طيبة، عن قيس بن حجاج، عن حنيفة قال: لما فتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل بؤونة من أشهر المعجم، فقالوا: أبا الأمير، إن لنا سنة لا تجرى إلا بها. قال: وما ذلك؟ قالوا: إذا كانت ثلث عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عصمتنا إلى جارية بكر بن أبيها، فأرضينا أبيها، وجعلنا عليها من الخيل والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا ما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان

(١) سورة مريم، آية: ٩٨.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٩٢.

(٣) سورة النمل، آية: ٥٢.

(٤) سورة الحج، آية: ٤٥ و ٤٦.

قيل : فأقاموا بذوثة والليل لا يجري ، حتى هربوا بالجماع ، فكذبهم ، إلى هرب من اللعنات بذلك ، فكذب إليه ، إنك قد أصبحت باللى فعلت ، وقد بعث إليك ببطاقة فدخل كتابي هذا ، وانقضى لي الليل . فلما قدم كتابه أشد هرب البطاقة فتصحا غلظا فيها : من عبد الله هرب أمير المؤمنين إلى ليل لعل مصر ، أما بعد ... فإنك إن كنت إنما تجري من قبلك فلا تهر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فساءل الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة في النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السنة من أهل مصر إلى اليوم . ورواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي (١) الطبري في كتابه « السنة » له .

ولمّا قال تعالى : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً يأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبدون) كما قال تعالى : (فليظفر الإنسان إلى طعامة : أنا صينة للأصابع . ثم شققنا الأرض شقاً : فأنبتنا فيها حباً : وعنباً ونضيباً . وزيتوناً ونخلاً : وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا) (٢) ، ولمّا قال هاتما (أفلا يبدون)

وقال ابن أبي نجيح ، من رجل ، من ابن عباس في قوله : (إلى الأرض الجرز) ، قال : هي التي لا تمطر إلا مطراً لا ينفي عنها شيئاً ، إلا ما يأتيها من السيول .

ومن ابن عباس ، ومجاهد : هي أرض باليمن .

وقال الحسن رحمه الله : هي قرى غيا بين اليمن والشام .

وقال حكمة ، والفسحاك ، وقائدة ، والسدي ، وابن زيد : الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مصر .

قلت : وهذا كقوله : (وآية لم الأرض اليتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فته يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون : ليأكلوا من ثمره وما حملته أيديهم أفلا يشكرون) (٣) .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى خبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحول غضبه وتقمه عليهم استبعاداً وتكليفاً وعناداً (ويقولون متى هذا الفتح ؟) ، أي : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما ترم أن لك وقتاً تدّال علينا ، ونستقم لك منا فيكون هذا ؟ ما لرائك أنت وأصحابك إلا محضين خائفين ذليلاً ! قال الله تعالى : (قل : يوم الفتح) ، أي : إذا حلّ بهم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ، (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) ، كما قال تعالى :

(١) هو الإمام أبو القاسم حبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي الحافظ . محدث بغداد . قال عنه الخطيب : كان يجمع ويعطف ، وصنف كتاباً في السنة . توفي في رمضان سنة ٤١٨ هـ . انظر تذكرة الحافظ الذهبي : ١٠٨٤ .

(٢) سورة ص : الآيات : ٢٤ - ٣١ .

(٣) سورة يس : الآيات : ٣٣ - ٣٥ .

(فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون : فلما رأوا بأسنا قالوا : أأنذا بالله وحده ، وكفرنا عما كنا به مشركين . فلم يك ينعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سئ الله التي تدخلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون (١)) . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النتيجة ، وأخطأ فافهمش ، فان يوم الفتح قد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من أقيين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ، لقوله : (قل : يوم الفتح لا يتفتح الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) ، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ، كقوله تعالى : (فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجى من ملى من المؤمنين (٢)) ، وكقوله : (قل : يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (٣)) وقال تعالى : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد (٤)) ، وقال : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا (٥)) ، وقال : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح (٦)) .

ثم قال : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) ، أى : أعرض عن هؤلاء للمشركين وبلغ ما أتول إليك من ربك ، كقوله : (اتبع ما أوصى إليك من ربك ، لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين (٧)) ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسيصرك على من خالفك ، إنه لا يثيب للمعاد .

وقوله : (إنهم منتظرون) ، أى : أنت منتظر وهم منتظرون ، ويترجمون بكهم الدوائر ، (أم يقولون شاعر نرى به ريب لمتون (٨)) ، وسترى أنت عاقبة صرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، في نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك ، من ويلى عقاب الله لهم ، وحلول عتابهم ، وحسنات الله ونعم الركني .

(١) سورة شاعر ، الآيات ٨٣ - ٨٥ .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ١١٨ .

(٣) سورة سبأ ، آية : ٢٦ .

(٤) سورة إبراهيم ، آية : ٩٥ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٨٩ .

(٦) سورة الأنفال ، آية : ١٩ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٦ .

(٨) سورة الطور ، آية : ٣٥ .

تفسير سورة الأحزاب

مدنية

قال ١ عبد الله بن (١) الإمام أحمد : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم بن بهلة ، عن زرارة قال : قال لي أبي بن كعب : كُتِبَ تقرأ (٢) سورة الأحزاب؟ أو كُتِبََ تملأ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال : قط ! لقد رأيها وإنما لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ وللشيعة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم حكيم » (٣) .

ورواه النسائي من وجه آخر ، عن عاصم — وهو ابن أبي النجود ، وهو ابن بهلة — به . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضي أنه كان فيها فرقان لم نسخ قطعه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝

هذا تنبيه بالأهل على الأذى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلا يأنر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك مصيبة الله ، على نور من الله ، غائقة عذاب الله .

وقوله : (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ، أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، (إن الله كان عليا حكيما) ، أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتنطبعه ، فإنه عليم بواطن الأمور ، حكيم فى أنواله وأفعاله . ولهذا قال : (وأتبع ما يوحىٰ إليك من ربك) ، أى : من فرقان وسنة (٤) ، (إن الله كان بما تعملون خبيرا) ، أى : فلا تخفى عليه خافية . (وتوكل على الله) ، أى : فى جميع أمورك وأسمالك ، (وكفى بالله وكيلا) ، أى : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه .

(١) فى المخطوطة : « قال الإمام أحمد » إنما قاله عبد الله بن أحمد . والحديث رواه عبد الله بن الإمام أحمد عن خلف . فأنبأنا ما بين القوسين ليستقيم السياق .

(٢) أى : كم آية تقرأ؟ وكم آية تملأ هذه السورة؟ .

(٣) سند الإمام أحمد : ١٣٢/٥ .

(٤) قوله « وسنة » ، بناء على أن أحاديث النبى — صلى الله عليه وسلم — مماثلها من الله وألفاظها منه عليه السلام .

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْكُمْ أَهْمًا ، وَمَا جَعَلَ
أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ أَصْحَابُكُمْ لَا بَأْسَ
بِهِمْ ، هُوَ أَقْسَمُ عِنْدَ اللَّهِ ، إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَبَاءَهُمْ فَلْيَوْنُوا فِي الَّذِينَ وَمَوْلَاهُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢﴾

يقول تعالى موطناً قبل المقصود للمعنى أمراً حسيماً معروفاً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا
نصر زوجته التي يظهر منها بقوله : أنت حكى كظهور أى أما له ، كذلك لا يصبر الله على ولدا للرجل إذا نبأه فدعاها ابناته ،
فقال : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منكم أهماتكم) ، قوله : (ما من
أهماتكم ، إن أهماتكم إلا اللاتي ولدنهم ، وإنهم يقولون منكراً من القول وزوراً) (١) .

وقوله : (وما جعل أديعائكم أبناءكم) ، هذا هو المقصود بالحق ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه
وسلم - كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نبأه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد بن عبد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع
هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : (وما جعل أديعائكم أبناءكم) ، كما قال في أثناء السورة : (ما كان عبد أباً أحد من
رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علياً) (٢) ، وقال هاتماً : (ذلكم قولكم بأفواهكم) ، يعنى
تبينكم قولكم لا يقتضى أن يكون ابننا حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فإمّا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن
أن يكون للبشر الواحد قلبان .

(والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) ، قال سعيد بن جبيرة : (يقول الحق) ، أى : العدل ، وقال قتادة : (وهو يهدي
السبيل) ، أى : الصراط المستقيم .

وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له
قلبين ، كل منهما يمشى واختر . فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . قاله مجاهد ، وعكرمة ،
والحسن ، وقتادة ، وإخضره ابن جرير (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن قابوس - يعنى ابن أبي طيخان - أن أباه حدثه قال : قلت لابن
عباس : رأيت قول الله تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ، ما حنى بملك ؟ قال : قام رسول الله صلى الله
عليه وسلم يوماً يصلى ، فخطر خطرته (٤) ، فقال المناقبون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلباً معكم وقلوبهم ؟
فأنزل الله عز وجل : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (٥) ،

(١) سورة المائدة ، آية ٢٠ .

(٢) سورة الاحزاب ، آية ٥٠ .

(٣) تفسير الطبري : ٧٤/٢٦٩ - ٧٥ .

(٤) يريد الوسوسة التى غشيت للإنسان في صلواته ، قال ابن الأثير في النهاية في حديث سجود النبي : « حتى يحضر النبي
بين المراءى عليه » يريد الوسوسة ، ومنه حديث ابن عباس : قام نبي الله صلى الله عليه وسلم يوماً يصلى ، فخطر خطرة ، فقال المناقبون :
« إن له قلبين » .

(٥) مستدرك الإمام أحمد : ١/٢٦٧ - ٢٦٨ .

وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن البصري ، عن صاعد الحارثي - وعن عبد بن حميد ، عن أحمد ابن يونس - كلاهما عن زهير ، وهواين معاوية ، به ثم قال : « وهذا حديث حسن (١) » : وكلما رواه ابن جرير (٢) ، وابن أبي حاتم ، من حديث زهير ، به :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، في قوله : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ، قال : « يا هذا ! إن ذلك كان في زيد بن حارثة ، ضُرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل ! أخبر ابنك (٣) » .

وكلما قال عابد ، وقفاة ، وابن زيد : أنها نزلت في زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قلناه من التفسير : والله أعلم . وقوله : « ادعهم لآبائهم هو أقسط عند الله » ، هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأديعاء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والأقسط :

قال البخاري رحمه الله : حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا عبد العزيز الخطار ، حدثنا موسى بن عقبة قال : « حدثني سالم بن عبد الله بن عمر : أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كُتِبَ لدعوه إلا زيد بن عمر ، حتى نزل القرآن » (٤) : « ادعهم لآبائهم هو أقسط عند الله (٥) » :

وأُخرج مسلم والترمذي والنسائي ، من طرق ، عن موسى بن عقبة ، به (٦) : « وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك ، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة : يا رسول الله ، كنا ندعو سائلا أبنا ، وإن الله قد أنزلك ما أنزلك ، وإنه كان يدخل حكي ، وإنني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا » فقال صلى الله عليه وسلم : « أرضعوه تحري عليه (٦) » : الحديث :

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة النبی ، وتزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا (٧) » ، وقال في آية التحريم : « وحلال أمهاتكم اللاتي من أمهاتكم (٨) » ، احترازا عن زوجة الداعي ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الإين من الرضاة فترد منزلة ابن الصلب شرعا ، بقوله عليه السلام في الصحيحين : « حرّموا من الرضاة ما يحرم من النسب (٩) » : فأما دعوة الغير أبنا على سبيل التكريم والتحيب ، فليس مما نبه عنه في هذه الآية ، بليل ما رواه الإمام

(١) تحفة الأرواح ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥١ ، ٣٢٥٢ ، ٩/٥٨ - ٦ .

(٢) تفسير الطبري ، ٧٤/٢١ .

(٣) تفسير الطبري ، ٧٥/٢١ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب ، ٩/١٤٥ - ١٤٦ .

(٥) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب : فضائل زيد بن حارثة ، ٨/١٣٥ - ١٣٦ . وتحفة الأرواح ، تفسير سورة

الأحزاب ، الحديث ٣٢٦٢ ، ٩/٧٢ .

(٦) مسلم ، كتاب الرضاة ، باب : رضاة الكعب ، ٤/١٦٨ - ١٦٩ . وسنن أبي حارث ، كتاب النكاح ، باب : فيه

حرم ٩٥ ، الحديث ٢٠٦١ ، ٢/٢٢٣ . والنسائي ، كتاب النكاح ، باب : رضاة الكعب ، ٦/١٠٤ - ١٠٦ . ومعه

الإمام أحمد : ١٧٤/٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ .

(٧) سورة الأحزاب ، آية ٥٣ .

(٨) سورة النساء ، آية ٢٣ .

(٩) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب ، ٩/١٥١ . ومسلم ، كتاب الرضاة ، باب : يحرم من الرضاة ما يحرم من

من الرضاة ، ٩/١٦٢ .

أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ، من حديث سفيان الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن الحسن المرقى ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قلنا هل رسول الله صلى الله عليه وسلم أغلظ على حركاتنا من نجس (١) ، فجعل يسلطخ أفضاها ويقول : أبيشنى لا تروا الجمرة حتى تطلع الشمس (٢) . قال أبو حنيفة وغيره : « أبيشنى » تصغير بيشى (٣) . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : (ادعهم لأبائهم) في شأن زيد ابن حارثة ، وقد قتل في يوم موثة سنة ثمان ، وأيضاً ففى صحيح مسلم ، من حديث أبي حنيفة الرضاح بن عبد الله البشكري ، عن الجهم ، أبي حنيفة البصري ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى » ورواه أبو داود والترمذى :

وقوله : « فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » ، أمر تعالى برد أنساب الأعداء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا آبائهم فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أى : عروضا عما قاتلهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من مكة حام حصرة القضاء ، وتبعهم ابنة حمزة تسمى : يا صم ، يا صم . فاعطاهم على وقال قاطعة : دونك ابنة حسك فاحملها . فاختصم فيها حل ، وزيد ، وجعفر في أبيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ، فقال حل : أنا لأنى جأهوى ابنة حمزى . وقال زيد : ابنة أنى . وقال جعفر بن أبي طالب : ابنة حمزى ، وخاتنها غنى - بنتى أماء بنت حمزى . ففضى النبي صلى الله عليه وسلم لخاتنها ، وقال : « لخاتمة بنتة الأم » : وقال للى : « أنت منى » ، وأنا منك ، وقال لجعفر : « أحببت عسكنى وعسكنى » ، وقال زيد : « أنت أمواتنا ومولاتنا » (٤) .

فى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه عليه الصلاة والسلام حكم بالحق ، وأرضى كلا من المتنازعين . وقال زيد : « أنت أمواتنا ومولاتنا » ، كما قال تعالى : (فإخوانكم في الدين ومواليكم) .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن حينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال أبو بكر : قال الله عز وجل : (ادعهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) ، فأنا ممن لا يعرف أبوه ، وأنا من إخوانكم في الدين . قال لى : والله لئن لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتسب إليه (٥) . وقد جاءه في الحديث : « من أدعى لنسب أبيه ، وهوى عليه ، كفر » (٦) : وهذا تشديد وتبديد ، ووعيد أكيد ، في التبرى من النسب المعلوم ، وهذا قال : (ادعهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم)

(١) جمع : هى الزدالة . والمطخ : القشر بالكتف ، وليس بالشديد .

(٢) متن أبي داود ، كتاب المناكح ، باب : « التبرى من جسد » ، الحديث ١٩٨٠ ، ١٩٨٠/٢ . والتمال : كتاب المناكح باب : « التبرى من رمى جيرة القربة قبل طلوع الشمس » : ٢٧٠/٥ - ٢٧٢ . وابن ماجه ، كتاب المناكح أيضاً ، باب : « من قدم من جمع لى من لرمى الجمار » ، الحديث ٣٠٢٥ ، ١٠٠٧/٢ . وصححه الإمام أحمد : ٣١١/١ ، ٣٢٦ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر في التباينة لابن الأثير : مادة : « أبى » . وقد كان في المخطوطة : « أبى » . تصغير أبى . . والفتح من المراجع المقتضية .

(٤) البخارى : كتاب الفسح ، باب : « كيف يكتب » ، هذا ما صالحه فلان بن فلان . . . ٢٤١/٢ ، ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٥) تفسير الطبرى : ٧٦/٢١ .

(٦) البخارى ، كتاب المناكح ، ٢١٩/٤ .

ثم قال : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) ، أى : إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله أدرأ حباهم أن يقولوا : ربنا لا يؤاخذنا عن نفسنا أو أخطائنا (١) . وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله : قد فعلت » (٢) وفي صحيح البخاري ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » (٣) . وفي الحديث الآخر : « إن الله رفع عن أمي الخطأ والسيان ، وما يكرهون عليه » (٤) .

وقال هاهنا : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تسلمت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيمًا) ، أى : وإنما الإثم على من تعدى الباطل كما قال تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم . وفي الحديث للعلم : « من ادعى إلى غير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر » وفي القرآن المنسوخ : « فإن كفرأ بكم أن ترضوا عن آباءكم » قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن ابن عباس ، عن عمر أنه قال : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : (ولا ترضوا عن آباءكم) فإنه كفر بكم - أو : إن كفرأ بكم - أن ترضوا عن آباءكم (٥) ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تاترون كما أطرى (٦) . عيسى ابن مريم ، فلما أتانا عبد ، يقولوا : عبده ورسوله : وربما قال معمر : « كما أطرت النصارى ابن مريم » (٧) .

ورواه في الحديث الآخر : « ثلاث في الناس كفر : الطعن في النسب ، والتباحة حل البيت ، والاستسقاء بالنجوم » (٨) .

لَمْ يَكُنْ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِذَا الْأَرْحَامُ مِنْهُمْ أُولَىٰ ۖ يَرْتَضِي فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَّا أُولَئِذَا بَيْنَكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦٠﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحسبته فيهم مقدماً على اختياراتهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : (فلا وريك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم

(١) سورة البقرة : آية : ٢٨٦ .

(٢) تقدم الحديث في سورة البقرة عند الآية ٢٨٣ ، انظر : ٥٠٢/١ . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الإيمان : ٨١/١ .

(٣) البخاري ، كتاب الاصطام ، باب « أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ » : ١٣٢/٩ - ١٣٣ .

(٤) تقدم الحديث في سورة البقرة ، عند تفسير الآية ٢٨٦ : ٥٠٩/١ . وخرجناه هناك .

(٥) ما بين القوسين منه عند الإمام أسد .

(٦) ما بين القوسين من الحديث ، ومكانه في المخطوطة : « كإبراهيم » .

(٧) مسند الإمام أسد : ٤٧/١ .

(٨) دولة مسلم والإمام أسد عن أبي مالك الأشعري ، « أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركهن » .

التأخر في الأصابع ... وذكر الثلاثة التي هنا ، ومثله في مسند الإمام أسد . انظر مسلم ، كتاب الجنازة ، باب التشديد في النجاسة : ٤٤/٢ .

ومسند الإمام أحمد : ٣٤٢/٥ ، ٣٤٣/٥ ، ٣٤٤/٥ .

لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً (١) ، وفي الصحيح : «والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» (٢) ، وفي الصحيح أيضاً أن عمر - رضي الله عنه - قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . فقال : «لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك» ، فقال : يا رسول الله ، «لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال : «والآن يا عمر» ،

ولمّا قال تعالى في هذه الآية : (التي أولى المؤمنين من أنفسهم) ،

وقال البخاري حدثنا : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا أبي ، عن هلال بن علي ، عن عبد الرحمن بن أبي حمزة - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : «أما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، ارموا إن شئتم : (التي أولى المؤمنين من أنفسهم) ، فأما مؤمن ترك مالا فليتركه ، حصصه من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني ذاتاً مولاه» ، «تقدم به البخاري» (٣) .

ورواه أيضاً في الاستقراض (٤) ، وابن جرير (٥) ، وابن أبي حاتم ، من طرق ، عن طبع ، به عنه ، ورواه الإمام أحمد ، من حديث أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله بنحوه (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري في قوله تعالى : (التي أولى المؤمنين من أنفسهم) عن أبي سلمة ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأما رجل مات وترك ديناً فليتركه» ، ومن ترك مالا فليؤدّه ، ورواه أبو داود ، عن أحمد بن حنبل ، به نحوه .

وقوله : (وأزواجه أمهاتهم) ، أي في الحرمة والاحترام ، والإكرام والتوقير والإحظام ، ولكن لا يجوز لكلوا من ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أموات للمؤمنين ، كما هو مخصوص الشافعي في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لإثبات الحكم ، وهل يقال لمأوية وأمثلة : حال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء ، ونص الشافعي على أنه يقال (٧) ذلك . وهل يقال من : أمهات المؤمنات ، فيدخل النساء في جميع المذكور السلم تنظيماً ؟ فيه قولان ، صحح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لا يقال ذلك . وهذا أصح الوجهين في طلبه الثاني رحمه الله .

(١) سورة النساء : آية : ٦٥ .

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ١٠٢/١ . ومسلم ، كتاب الإيمان أيضاً .

بابه : وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ٤٩/١ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الاحزاب : ١٤٥/٦ .

(٤) البخاري ، كتاب الاستقراض ، باب : الصلاة على من ترك ديناً ، ١٥٥/٢ .

(٥) تفسير البخاري : ٧٧/٢١ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٣٤/٢ - ٣٣٥ .

(٧) كذا في المطبوعة ، وفي النسخات السابقة : لا يقال ذلك .

حلاله في وقت لالة في ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جاز في قدره الأزلي ، وقضاه القدرى الشرعى .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١﴾ لَيَسْأَلَنَّ الْمُصَلِّينَ عَنْ صَلَاتِهِمْ وَاَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة ، وبقيّة الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَأْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَأْنَا ، قَالَ : فَاهْبِطُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (١) . فلهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية ، وفي قوله : (شرح لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، إن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٢)) ، فذكر الطرفين والوسط ، القاطع والخاتم ، ومن بينهما على الترتيب . فلهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها ، كما قال : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ) ، فبدأ في هذه الآية بالخاتم ، لشرفه - صلوات الله عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة اللثمي ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد بن بشر ، حدثني قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم . في قول الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) ، الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ، [فَبُكِّىهِ] في قبليهم (٣) » : سعيد بن بشر فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبي هريرة ، عن قتادة مرسلًا ، وهو ثلثه : ورواه بعضهم عن قتادة موقوفًا ، والله أعلم . وقال أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا حمزة الزيات ، حدثنا عدى بن ثابت ، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : خيار ولد آدم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وعمر ، وغيرهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين = موقوف ، وحمزة فيه ضعف .

وقد قيل : إن للراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الدّر من صلب آدم ، كما قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : ورفح إلهام آدم ، فخر إلهام - يعني ذرته - وأن فيهم النبي والقنبر ، وحسن الصورة ، وحدث ذلك ، فقال : رب ، لوسيت بين حبادك ؟ قال : إني أحببت أن أشكر وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج ، عليهم كالنور ، وغصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ : العهد .

(١) سورة آل عمران : آية : ٨١ .

(٢) سورة الشورى : آية : ١٣ .

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ، عن الحسن بن سفيان ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو لمي في الدلائل ، والبيهقي ، وابن حبان : ١٨٤/٥ .

وقوله : (ليسأل الصادقين عن صدقهم) ، قال جاهد : للبايعين للمؤمنين عن الرسل .

وقوله : (وأعد للكافرين) ، أي : من أنهم (عذاباً أليماً) ، أي : موجعاً ، فمن شهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصروا الأمم وأنصحوها لم عن الحق للين ، الواضح البلي ، الذي لا يلبس فيه ولا شك ولا لومة ، وإن كلهم من الجهلة والمماندين والمارقين والقاسطين ، لما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠٠﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى مبخراً عن نعمته وفضله وإسهائه إلى عباده المؤمنين ، في صرعه أعداءهم وهزيم إياهم هام تألبوا عليهم ونحووا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وقال موسى بن حبة وغيره كانت في سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن قرأ من أشراط يهود بني النضير ، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى يثرب ، منهم : سلام بن أبي الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكتانة بن الربيع ، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش ، وأبوم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدهم من أنفسهم النصر والإحاطة : فأجابهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى خيبر فدخلهم فخرجوا لهم أيضاً : وخرجت قريش في أحاديثها ومن تابعها ، وقالهم أبرسيان صخر بن حرب ، وحل خيطان حبيبة بن حصن بن بدر ، والجميح قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بخفر الخندق حول المدينة بما على الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، وتقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء للمشركون فزولوا شرق المدينة قرياً من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : (إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل : سبعمائة وأسندوا ظهورهم إلى سلع وجوبهم إلى نحو العدو ، والخندق حفر ليس فيه ماء بينهم وبينهم بحسب الرجالة والحجارة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة ، وكانت بنو قريظة سوماً طائفة من اليهود - لم حصن شرق المدينة ، ولم عهد من النبي صلى الله عليه وسلم وخفة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فحلب إليهم حتى ينأطط النضري ، فلم يزل بهم حتى تقضوا العهد ، وماقروا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظلم لظلم واشتد الأمر ، وضاق الحال ، كما قال الله تعالى : (هنالك أبطل المؤمنين وازلوا زلزالاً شديداً) ،

ومكثوا عاصرين لئني صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريباً من شهر ، إلا أنهم لا يصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال • إلا أن عرو بن عبد ود العامري ، وكان من القريظان المشهورين في الجاهلية ، ركب معه فراساً فالتحقوا بالطلق ، وخلصوا إلى ناحية للمسلمين . فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيل للمسلمين إليه ، فلم يبرز إليه أحد ، فأمر علياً فخرج إليه ، فتجاوزا ساعة ، ثم قتل على رضى الله عنه ، فكان علامة على النصر •

ثم أرسل الله - عز وجل - على الأحزاب ريحاً شديدة المهبوب قوية ، حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولا ثوب • ولم يبق لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً) •

قال مجاهد : وهى الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدهور » •

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن الحنفى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود ، عن عكرمة قال : قالت الجنيبة لثيال ليلة الأحزاب : انطلقين نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت لثيال : إن الحرة لا ترمى بالليل : قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم (٢) الصبا •

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الأشج ، عن حفص بن غياث ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فذكره •

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، حدثني عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر قال : أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة ، قال : اتنا بطعام وخلاف • قال : فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن لي ، وقال : « من أتيت من أصحابي فرحم يرحموا » : قال : فنهبت والريح تسقى كل شيء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : لما يلقى أحد منهم عتقه . قال : وكان مئى ترس لي ، فكانت الريح تضربه على ، وكان فيه حديد ، قال : فضرته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى ، فألقدها إلى الأرض (٣) •

وقوله : (وجنوداً لم نزوها) ، وهم لللائكة ، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخرق ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلى ، فيجتمعون إليه فيقول : التجاء ، التجاء . لما ألقى الله تعالى في قلوبهم من الرعب •

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : قال فئى من أهل الكوفة لحليفة ابن البمان : يا أبا عبد الله ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته ؟ قال : نعم ، يا ابن أختي . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد . قال الفئى : والله لو أدركناه ما تركناه عيشي على الأرض ولحملناه على أمانتنا •

(١) البخارى ، كتاب الاستسقاء ، باب « قول النبي - صلى الله عليه وسلم - » نصرت بالصبا » ، ٤٠/٢ - ٤١ •

ومسلم ، باب « في ريح الصبا والدهور » ، ٢٧/٣ •

(٢) تفسير الطبري ، ٨٠/٢١ •

قال : قال حليفة : يا ابن آدمي ، والله لو رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبقت وصل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هؤنبا (١) من الليل ، ثم التفت فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - بشرط له النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرجع - أدخله الله الجنة . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤنبا من الليل ، ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤنبا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع . - بشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة . » فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يبق أحد ، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن لي يد من القيام حين دعاني فقال : يا حليفة ، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا . قال : فذهبت فدخلت في القوم ، والريح وجتود الله عز وجل يفعل بهم ما يفعل ، لا تترسم لهم قبلوا (٢) ولا تارأ ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا مضر فريش ، لينظر امرؤ من جلسه : قال حليفة : فغطت بيد الرجل الذي إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا مضر فريش ، إنكم والله ما هيبتهم بدار مقام ، لقد هلك الكراع (٣) والخف ، وأخطأنا بني غزيفة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح الذي نرون . والله ما نطعن لنا قنر ، ولا نجرم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرثحل ، ثم قام إلى جسمه وهو مقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاقله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى : « أن لا تحدث شيئا حتى تأتيني » ثم شئت فقلته بهم :

قال حليفة : فرجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قائم يصلي في مرث (٤) لبعض لسانه مرثحل ، فلما وافي أدخلني بين وجلي ، وطرح على طرف السرط ، ثم ركع ، وسجد وإلى ثقبه ، فلما سلم أنصرت له الخبر ، وسنعت غططنا بما فعلت فريش ، فأنشروا (٥) واجبين إلى بلادهم . (٦)

وقد رواه سلم في صحيحه من حديث الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حليفة ابن اليان - رضي الله عنه - فقال له رجل : لو أدرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت معه وأبليت . فقال له حليفة : أنت كنت فعلت ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الأحزاب في ليلة ذات ربح شديدة وقر (٧) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا رجل يأتي بخبر القوم ، يكون معي يوم القيامة » . فلم

(١) أي : جزءا من الليل .

(٢) في المخطوطة : « ولا تفرهم فرادا » . والمثبت عن حيرة ابن هشام ، ومسنود الإمام أحمد . وما يأتي بعده في أثناء هذا الحديث

(٣) الكراع : اسم يلبس الخيل ، ويصنع بالخشب : الإبل .

(٤) المرط : يكره فسكر - كسبه من صوف ، وربما كان من خز أو غيره . وجمعه مروط . ومرط مرسل :

تفت فيه تصاوير الرجال .

(٥) أي : أسروا .

(٦) انظر حيرة ابن هشام : ٢٢١/٢ - ٢٢٢ . ومسنود الإمام أحمد : ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٧) في المخطوطة : « في ليلة ذات برد شديد » . والمثبت عن الطبقات السابقة : وفي مسلم : « ليلة الأحزاب » . وأصلنا

في حليفة وقره .

فقلت فقال : « إله كان في القوم خير فأنى خبر القوم » - قال : « وأنا من أشد الناس فرحا ، وأشدهم فرحاً - قال : فخرجت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » : قال : فو الله ما خلق الله فرحا ولا فرحاً في جوفى إلا يخرج من جوفى ، فما أجده فيه شيئا . قال : فلما وليت قال : « يا حليفه ، لا تمحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني » : قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لم توكد ، وإذا رجل آدم ضخم يقول (١) بيده على النار ، ويمسح خاصرته ، ويقول : « الرجل الرجل » ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهما من كتافى أبيض الريش ، فأضعه في كعب قومي لأرميه به في ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمحدثن فيهم شيئا حتى تأتيني » [فامسكت (٢)] ورددت سهمي إلى كتافى ، ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرجل الرجل ! لا مقام لكم : وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا ، فو الله إنى لأسمع صوت الحجارة في رحالم وقمر مستهم (٣) الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما انتصفت (٤) في الطريق أو نحو من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك مبعثمين ، فقالوا : « أخبرنا صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم » فرجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مشتمل في همة يصل ، فو الله ما علنا أن رجعت راجعتى القوم وجعلت أتركب (٥) ، فأرأى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [بيده] وهو يصل ، فدنوت منه ، فأسبل على هملته (٦) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنى تركتهم يترحلون ، وأزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا (٧) »

وأخرج أبو داود في سننه منه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حز به أمر ، من حديث حكرمة بن عمار ، به (٨) وقوله : « إذ جاءكم من فوقكم » ، أى : الأحزاب (ومن أسفل منكم) ، تقدم عن حليفه أنهم بنو قريظة ، وإذ أغت الأبطال وبغت القلوب الحناجر) ، أى : من شدة الخوف والفرع ، (وتظنون بالله الظنونا) .

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك (٩)

(١) أى : يمسحها على النار .

(٢) ما بين القوسين عن « الدلائل » .

(٣) في المخطوطة : « وورهم » . وفي الطبقات السابقة : « وفرهم » والمثبت عن : « الدلائل » . يشبه الريح بالهوان المقتصر

(٤) لفظ « الدلائل » : فلما انتصف في الطريق أو نحو ذلك .

(٥) أى : أركب .

(٦) في المخطوطة : « همة » . والمثبت عن « الدلائل » .

(٧) « دلائل النبوة » البيهقي ، خطوط بمسار الكتب رقم ٢١٧ ، الجزء الرابع ، ورقة ٩٨ - ٩٩ .

(٨) لم يقع لنا حديث أبي داود ، وصلى أن تصدركه فيما بعد . والمحدث أخبره الإمام أحمد من هذه الطريق ، انظر المستد

٣٨٨/٥

(٩) التفسير الطبري : ٨٢٤/٢١ - ٨٤

وقال محمد بن إسحاق في قوله : (وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصَارُ ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا) : ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم الاتفاق حتى قال معتقبة بن كثير - أخو بني عمرو بن عوف - : كان محمد بعدنا أن لا أكل كئوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يفتقر على أن يلجأ إلى النافذ ؛

وقال الحسن في قوله : (وتظنون بالله الظنونا) : ظنون مختلفة ، ظن المناقرون أن عمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري ، حدثنا أبو حاتم (ح) حدثنا أبي ، حدثنا أبو حاتم العقدي ، حدثنا الزبير - يعني ابن عبد الله ، مولى عثمان بن عفان - ، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قلنا يوم التندق : يا رسول الله ، هل من شيء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم ، قولوا : اللهم أسر عورتنا ، وآمن روعتنا . قال : فضر به وجوه أهلنا بالريح ، فلهزمهم بالريح ؛ وكلدواهم الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبي عمر العقدي (١) ؛

هَٰذَا إِلَهُكُمْ أَبُو الْأَبَدِثَةِ ۖ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۖ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّخِذَ لِكُلِّ فَاجِحٍ وَابِعًا ۚ يُنَادُونَ لِلَّهِ لَمَّا قَامَ يُصَلِّي ۚ يَخَافُونَ أَنِ اللَّهُ يَخْشَاهُمْ ۚ يَوْمَ أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ وَهُمُ الْمُحْشَوْنَ ۚ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَخِيفُوا فَيَخْبَرُوا ۚ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُخَالِفُوا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۚ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّخِذَ لِكُلِّ فَاجِحٍ وَابِعًا ۚ يُنَادُونَ لِلَّهِ لَمَّا قَامَ يُصَلِّي ۚ يَخَافُونَ أَنِ اللَّهُ يَخْشَاهُمْ ۚ يَوْمَ أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ وَهُمُ الْمُحْشَوْنَ ۚ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَخِيفُوا فَيَخْبَرُوا ۚ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُخَالِفُوا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۚ

يقول تعالى خبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون عصبورون في غايه الجهد والضيق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم : أنهم ابتكروا واختبروا وزكروا زكراً شديداً ؛ فحينئذ ظهر لتناقض وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم ؛ (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) ، أما المنافق فتج نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة (٢) ؛ ضعت حاله فتضيق بما يجده من الوسواس في نفسه ، لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من شيق الحال ؛ وقوم آخرون قالوا كما قال الله : (وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب ، بني المدينة كما جاء في الصحيح « أريت [في المنام] دار هجرتكم أرض بين حرتين فليجها وهي (٣) أنها حنجر ، فإذا هي يثرب » (٤) . وفي لفظ : « للمدينة » ؛

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣ .

(٢) الحسيكة : الدودة والحقد .

(٣) أي : وهي . وهجر : قاطعة البحرين .

(٤) البخاري ، كتاب المناقب : ٢٤٧/٤ . وكتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه إلى المدينة : ٧١/٥ . وكتاب التفسير ، باب « إذا رأى بقرأ تنصر » : ٥٢/٩ - ٥٣ . ومسلم ، كتاب الروايات ، باب « رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم » : ٥٧/٧ .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن مهدي ، حدثنا صالح بن عمر ، عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن البراء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من سعى المدينة يثرب فليستغفر الله ، هي طابة » هي طابة (١) ؛

فرد به الإمام أحمد ، وفي إسناده ضعف ، والله أعلم ؛

ويقال : إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق ، يقال له : يثرب بن عييل بن مهليل بن حوص ابن علقم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح (٢) . قاله السهيلي ، قال : وروى عن بعضهم أنه قال إن لها أحد عشر اسما : للمدينة ، وطابة ، وطيبة ، والمسكينة ، والنجارة ، والحبية ، والقاصصة ، وللجورة ، والعلاء ، والمرحومة ؛

وعن كعب الأحرار قال : إنما نجد في التوراة يقول الله للمدينة : يا طيبة ، ويا مسكينة ، لا تظلي الكنوز ، أرفع أسجرك على أسجركم القري (٣) .

ونحوه : (لا مقام لكم) ، أى : هاهنا ، يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم في مقام المراقبة ، (فارجموا) ، أى : إلى بيوتكم ومنازلكم (ويستأذن فريق منهم النبي) - قال العوفي ، عن ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرق ؛ وكذا قال غير واحد ؛

وذكر ابن إسحاق أن القتال للثقل هو نوس بن قتيبة ، بنى : اعتزلوا في الرجوع إلى منازلهم بأنها حورة ، أى : ليس دونها ما يصحبها من العدو ، فهم يحشون عليها منهم . قال الله تعالى : (وما هي بحورة) ، أى : ليست كما يزعمون ، (إن يريدون إلا فرارا) ، أى : حرباً من الزحف .

وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَقْوَاهَا وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّسَالَ وَقَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَأَنَّ عَهْدَ اللَّهِ سَعُولًا ﴿١٧﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ فَإِذَا لَا تُنْتَعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين (يقولون : إن بيوتنا حورة ، وما هي بحورة ، إن يريدون إلا فرارا) : أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقطع من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهي الدخول في الكفر ، لكفروا سرية ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفرع .
هكذا فسرها قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير (٤) . وهذا ذم لهم في غاية الذم .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤ / ٢٨٥ .

(٢) التفسير والإحكام للسهيلي : ١٠٢ .

(٣) ما بين القوسين عن التلميذات السابقة ، ومكانه في غلطوة الأثر يراعى بقدر سطر .

(٤) تفسير الطبري : ٢١ / ٨٧ .

ثم قال تعالى : يذكركم بما كانوا عاملوا الله من قبل هذا الخوف ، أن لا يولوا الأعداء ولا يفرؤا من الزحف :
(وكان عهد الله مستولا) : أي : وإن الله يسيّلم عن ذلك العهد ، لايد من ذلك .

ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤثر بأشياء، ولا يفلت أحدهم، بل ربما كان ذلك سببا في تسجيل أسلهم فبركة، ولهذا قال: (وإنّا لا نمتنعون إلا قليلا) أى: بعد هروبكم وفراركم: (قل: متاع الدنيا قليل، والآخره خير لمن اتقى) (١). ثم قال: (قل من ذا الذى يمسككم من الله) أى: يمنعكم، (إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى: ليس لهم ولا نفهم من دون الله غير الله ولا منبث.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكَ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلْ إِنَّا^ط وَلَا يُاتُونَكَ الْبَاسُ إِلَّا تَكْلِيلًا ﴿٥٨﴾ أَفَتُخَذَتْ عَيْنُكَ
فَإِذَا جَاءَ أَنْفُوكَ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُحِبَ الْمَوْءُودُ
سَلَفُوكُمْ بِأَيْسَرِ كَيْدٍ أَفَئِذَا عَلَى الْخَمِرِ وَلَافُوكُمْ لِزُيُوفُنَا فَجَبَحَ اللَّهُ أَعْمَلُكُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ لَعَلَّ اللَّهَ يُرْسِدُكُمْ

يُخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمؤمنين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائمين لإخوتهم ، أي أصحابهم وعشقرانهم وخطائهم (هلم إلينا) ، أي : إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والقبور ، وهم مع ذلك (لا يأتون البأس إلا قليلا : لشدة عيكم) ، أي : غلاء بالردة ، والشقة عليكم .

وقال السدي : (أشعة عليكم) ، أي : في الغنائم

(فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أمشيهم كاللبي غفنى عليه من الموت) ، أى : من شدة خوفه وجوعه وهكلا خوف هؤلاء الجناء من القتال (فإذا ذهب الخوف سلقوك بأنة حداد) ، أى : فإذا كان الأمن تكلموا كلاما بليغا فصحا حاليا ، وادعوا لأنفسهم المقامات المالية فى الشجاعة والتجعة ، وهم يكذبون فى ذلك ، وقال ابن عباس : (سلقوك) ، أى : استقبلوك .

وقال قتادة : أما عند النجفة فأشبح قوم ، وأسوأهم مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد شهدنا معهم ، وأما عند الباس فأجرب قوم ، وأجلبه (٢) لأجرب (٣) .

وهم مع ذلك أشعة على الخبير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جَمَعُوا الجبن والكُلب وقلة الخبر ، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر :

أَفِ السَّيِّئِ أَهْبَاراً جَفَاءً وَغِلْظَةً وَفِي الْحَرْبِ أَمْثَالَ النِّسَاءِ الْعَوَارِكِ (٤)

(١) سورة التّٰه ، آية : ٧٧ .

(٢) أى : وأكظم . واستعمال ضمير المفرد مع أفضل التفضيل استعمال جيد ، يقول النحاة : إن المنى : وأكظمك منى : ، فذلك وجه التضمير باعتبار المنى .

(٢) تفسير الطبري : ٩٠/٢١ .

(٤) قلتم البيت عند تفسير الآية السابعة والثمانين من سورة براءة ، وخرجناه هناك ، وشرحنا غريبه ، انظر :

أى : فى حال المسألة كانتهم الحبيب : والأعيان : جمع عبر ، وهو الخيال : وفى الحرب كانتهم النساء الحبيص : ولهذا قال تعالى : (أولئك لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا) ، أى : سهلا هينا عنده .

فَصَبَّوْا الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنَّ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوْدُوا لَوْ أَنَّكُمْ يَادُونِ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَلُونُ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والغور ، (يصبون الأحزاب لم يذهبوا) ، بل هم قريب منهم ، وإن لم حودة إليهم (وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم يادون فى الأحزاب) ، يسألون عن أنباءكم ، أى : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ، (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) ، أى : ولو كانوا بن أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلا ، لكثرة جبنهم وذلتهم وضبط يفتنهم .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى

لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰؤُلَاءِ مَثَلُ نَحْلِكَ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

• هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسي برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أقواله وأفعاله وأحواله ، وهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرايسته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - هو وجل - صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ، ولهذا قال تعالى للذين تفلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أئمرهم يوم الأحزاب : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ، أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشيئله ؟ . ولهذا قال : (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) ،

ثم قال تعالى ثم من عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعلته الماقية - حاصلة - لهم فى الدنيا والآخرة ، فقال : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصلى الله ورسوله) .

قال ابن عباس وقاعدة : يمتن قوله تعالى فى « سورة البقرة » : (أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم الهباء والقراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) (١) .

أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختيار والامتحان الذى يقيقه النصر القريب ، ولهذا قال : (وصلى الله ورسوله) .

وقوله : (وما زاحم إلا إيمانًا وتعلما) ، دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه يريد ويقص : وقد قرأوا ذلك فى أوله شرح البخارى ، والله الحمد والمنة .

ومعنى قوله : (وما زاعم) ، أى : ذلك الحال والضمير والشدة (إلا إيماناً) بالله ، (وتسلية) ، أى : ابتعاداً لأوامره ، وطاعة لرسوله .

بِإِذْنِ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٦﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأذى ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و (صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه) ، قال بعضهم : أجله ، وقال البخارى : عهده (١) : وهو يرجع إلى الأول : (ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً) ، أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

قال البخارى : حدثنا أبو اليان ، أخبرنا شعبة ، عن الزهرى قال : أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه قال : لما لسختنا الصحف فعددت آية من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى - الذى جعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شهادته بشهادة رجلين - (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) (١) :

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد في مستدركه ، والترمذى والنسائى - في التفسير من سننهما - من حديث الزهرى ، به : وقال الترمذى : « حسن صحيح » (٢) .

وقال البخارى أيضاً : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثني أبي ، عن ثمامة ، عن أنس ابن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) (١) .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال : قال أنس : حذى أنس بن النضر سميت به ، ثم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم حشيت (٣) عنه ، لأن أرفأ الله شهيداً فبأ بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرتين الله ما صنع . قال : لهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [يوم] أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين ، وأما (٤) ربح الجنة أجده دون أحد ، قال : قتلتهم حتى قُتِل قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من غيرة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - حذى الربيع ابنة النضر - : فاعرفت أختي إلا بيتانه . قال : فترت هذه الآية (رجال

(١) البخارى ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٦/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٨٨/٥ ، ١٨٩ . ولم يقع لنا هذا الحديث في « تحفة الأحرف » ، عند تفسير هذه الآية .

(٣) كلما في خطوطة الأثر ، ومثله في مسلم ، وفي مسند الإمام أحمد : « حشيت » .

(٤) وأما : كلمة تمن وتلهف ، قلنا أنس لعمري .

صلفوا ما جعلوا الله عليه ، فنهزم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا) : قال : فكانوا يَبْرُونَ أنها تزلت فيه ، وفي أصحابه (١) .

ورواه مسلم والترمذي والنسائي ، من حديث سليمان بن المغيرة ، به (٢) : ورواه النسائي أيضا وابن جرير (٣) ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، به نحوه .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أحمد بن منان ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حميد ، عن أنس أن عمه - يعني أنس ابن النضر - غاب عن قتال بدر فقال : غِيِبْتُ عن أول قتال قاتله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمشركين ، لأن الله أشهدني قتالا للمشركين لثبوتهم لله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك عما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني للمشركين - ثم تقدم فلقبه سعد - يعني ابن معاذ دون أحد ، فقال : أنا معك ، قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بشع ولما نون ضربة سيف ، وطبعة ربح ، ورمية سهم ، وكانوا يقولون : فيه وفي أصحابه (فنهزم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) :

وأخرجه الترمذي في التفسير من حديث ابن حميد ، والنسائي فيه أيضا عن إسحاق بن إبراهيم ، كلاهما ، عن يزيد بن هارون ، به وقال الترمذي : حسن (٤) : وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان ، عن حماد بن سلمة بن مصترف ، عن حميد ، عن أنس به (٥) : ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير ، من حديث المتحضر بن سليمان ، عن حميد ، عن أنس ، به (٦) .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أحمد بن الفضل السعدي ، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى بن موسى بن طلحة ابن حميد الله ، حدثني أبي ، عن جدي ، عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبي - صلى الله عليه وسلم - من أحد صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وعزى للمسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لم فيه من الأجر والخير ، ثم قرأ هذه الآية : (رجال صلفوا ما جعلوا الله عليه) الآية كلها : فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله ، ما هؤلاء ؟ فأقبلت وصكتي ثوبان أخضران حشورتيان فقال : وأبنا السائل ، هلا منهم .

وكلا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطحلي ، به (٧) : وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضا ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٩٢/٤ .

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب : نبوت الجنة فشيءه : ٤٥/٦ - ٤٦ . وهو تحفة الأحرف ، لتفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٣ : ٦٠/٩ - ٦٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٩٣/٢٦ .

(٤) تحفة الأحرف ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٤ : ٦٢/٩ - ٦٣ .

(٥) البخاري ، كتاب المغازي : ١٢٢/٥ .

(٦) تفسير الطبري : ٩٣/٢٦ .

(٧) تفسير الطبري : ٩٤/٢٦ .

وابن جرير ، من حديث يونس بن بكير ، عن طلحة بن يحيى ، عن موسى وعيسى ابني طلحة ، عن أبيهما ، به : وقال : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث يونس (١) .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصبم الأنصاري ، حدثنا أبو عامر - يعني العنلى - حدثنا إسحاق - يعني ابن طلحة ابن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية - رضى الله عنه - فلما خرجت دعاني فقال : ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أشهد تسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « طلحة بمن قضى نجيته » .

ورواه ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الحميد الحماني ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحي ، عن موسى ابن طلحة قال (٢) : [قام معاوية بن أبي سفيان فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « طلحة من قضى نجيته (٣) » ؛

ولهذا قال جاهد في قوله : « فمنهم من قضى نجيته » ، قال : عهد ، « ومنهم من ينتظر » ، قال : يوما فيه قتال فيصدق في المقام (٤) .

وقال الحسن : « فمنهم من قضى نجيته » ، يعني موته على الصديق والوفاء ، « ومنهم من ينتظر » الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلا : وكلما قال قتادة ، وابن زيد ، وقال بعضهم : « نجيته » : تلوه ؛

وقوله : « وما بدلوا تبديلا » ، أى : وما ضربوا هدهم ، وبدلوا الوفاء بالخلف ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفضل المنافقين الذين قالوا : « إن بيوتنا حورة ، وما هي بيوتنا » ، إن يريدون إلا فرارا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديار ؛

وقوله : « ليجزى الله الصادقين بصلاتهم ويعلب المنافقين إن شاء أو يتوب إليهم » ، أى : إنما ينظر عباده بالثواب وإثرائك ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفضل ، وأمر هذا بالفضل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعلب الخلق بعلومه فيهم ، حتى يعلموا بما يعلمه فيهم ، كما قال تعالى : « ولنبين لكم حتى تعلموا ما لكم من الله ما لا تعلمون » (٥) ، فهذا صلب بالشئ بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده . وكلما قال : تعالى « ما كان الله ليلر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطعنكم على النجس (٦) » ،

(١) تحفة الأحوسى ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٥٦ : ٦٤/٩ . أبواب المنتاب ، باب منتاب أبي حمه طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه ، الحديث ٣٨٢٥ : ٢٤٤/١٥ .

(٢) مابين القوسين سقط من غطوة الأثر ، وقد أئتمناه من الطبقات السابقة .

(٣) تفسير الطبري : ٩٣/٢١ - ٩٤ .

(٤) تفسير الطبري : ٩٢/٢١ .

(٥) سورة صمد ، آية : ٣١ .

(٦) سورة آل عمران ، آية : ١٧٩ .

ولهذا قال هاتما : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) ، أى : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، وحفاظتهم عليه : (ويعلمون المنافقين) ، وهم المنافقون لمهد الله ، الخالقون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئة في الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعلمهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى التزويج من النفاق إلى الإيمان ، وعمل الصالح بعد الفسوق والمعصيان . ولما كانت رحمته ورافته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال : (إن الله كان غفورا رحيما)

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٧٤﴾

يقول تعالى خيرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجند الإلهية ، ولولا أن جعل الله وسوله رحمة للمؤمنين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : (وما كان الله ليعلمهم وأنت فيهم) (١) ، فسلط عليهم هواء فرق بينهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الموتى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، وأحزاب وآراء ، فتناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم ، ورددهم خالطين غاسرين بغيظهم وحسنتهم ، لم ينالوا خيرا لا في الدنيا ، كما كان في أنفسهم من الظفر والغم ، ولا في الآخرة بما يحملوه من الآثام في مبارزة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بالمعلاة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه . ومن همّ بشيء وصدقَ همّه بفعله فهو في الحقيقة كفاطله :

وقوله : (وكفى الله المؤمنين القتال) ، أى : لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأمر جنده . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا إله إلا الله وحده ، صليق وحده ، ونصر عبده ، وأمر جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . أخرجه من حديث أبي هريرة (٢) .

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن حيد الله بن أبي أوفى قال : دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهل الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم (٣) .
وفى قوله : (وكفى الله المؤمنين القتال) ، إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش . وهكذا وقع بعدهما ، لم يفرهم للشركاء بل غزاهم المسلمون في بلادهم .

قال همد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بلغتا : « لن تفروكم قريش بعد حاكمكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تنز قريش بعد ذلك ، وكان هو يفرهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة :

(١) سورة الأنفال ، آية : ٣٣ .

(٢) الذى وقع لنا فى الصحيحين هو من رواية ابن عمر ، انظر البخارى ، كتاب السيرة ، باب : « ما يقول إذا رجع من الحج أو السيرة أو الفز » : ٨/٣ - ٩ . وكتاب الدعوات ، باب : « الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع » : ١٠٣/٨ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب : « ما يقول إذا قل من سفر الحج وغيره » : ١٠٥/٤ .

(٣) أخرجه فى كتاب الجهاد ، انظر البخارى ، انظر الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة : ٥٣/٤٠ ، ومسلم ، باب : « استحباب الدعاء بالصبر عند لقاء العدو » : ١٤٣/٥ .

وهذا الحديث الذي ذكره محمد بن إسحاق حديث صحيح ، كما قال الإمام أحمد :
 حدثنا يحيى ، عن سفیان حدثني أبو إسحاق قال : سمعت سليمان بن صرد يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يوم الأحزاب : « الآن نغزوه ولا يجزونا » (١) :
 وهكذا رواه البخاري في صحيحه ، من حديث الثوري وإسرائيل ، عن أبي إسحاق ، به (٢) ،
 وقوله تعالى : (وكان الله قويا عزيزا) ، أى : بحوله وقوته ، ردهم خائبين ، لم يثأروا خيرا ، وأمر الله الإسلام
 وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعده ، فله الحمد والمنة :

وَأَزَلَّ الَّذِينَ ظَنَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
 فَرِيقًا ۚ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُمُوا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري - لعنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل يسلمهم كعب
 ابن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : وعليك . قد جئتكم بهز الدهر ، أتيكم بقريش وأسيافها ، وخلفائها وأبناؤها ،
 ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا عمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل ، والله أتييكم بكل الدهر : وعليك يا حيي : إنك
 مشغوم ، فلعلنا منك : فلم يزل يفتل في الذرورة والغراب (٣) حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن
 من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما تفتت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 عليه وسلم ساءه ، وشق عليه وحل للمسلمين جدا ، فلما أيد الله وكثر ، وكبت الأعداء ورحم خائبين بأخسر صفقة ،
 ورجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة مؤيدا منصورا ، ووضع الناس السلاح : فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
 عليه وسلم يتصل من وعناء تلك المراقبة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معجرا (٤) بعلامة من إستبرق ، حل بقله عليها
 قطيفة ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن للملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا
 الآن رجوعي من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة - وفي رواية فقال له : حلبيرك من مقاتل (٥) -
 أو ضميم السلاح ؟ قال : « نعم » . قال : لكننا لم نضع أسلحتنا بعد ، انفض إلى هؤلاء . قال : « أين ؟ » قال : « بنى قريظة »
 فلما أمر الله أن أزلزل عليهم . فنهض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من فوره ، وأمر الناس بالسبر إلى بنى قريظة .
 وكانت حل أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصليبن أحد منكم العصر إلا في بنى قريظة » . فسار

(١) مستد الإمام أحمد : ٢٦٢/٤ .

(٢) البخاري ، كتاب المغازی : ١٤١/٥ .

(٣) هذا مثل في المخادعة . والذرة : أمل صنم البعير ، والفارسي : مقدم السنام . والجمل الثقور إذا أدهه أنفاسه ذلك
 الرجل يده عليه ، ويمسح غاريبه ، ويفتل ويربه ، حتى يستأنس ، ويحتدل يتمكن من وضع الزمام له . فظلت حال من يريه
 لفتاع غيره يأمر ويحاجي عليه ، ثم يتقاده في نهاية الأمر ، يحال ذلك الرجل مع بيده النافر .

(٤) الاحتجاج بالعلامة : أن يلقها على رأسه ، ويرد طرفها على وجهه ، ولا يحمل منها شيئا تحت كتفه .

(٥) أى : هات من يملك فيه . وقيل هنا معنى فاعل .

الناس ، فأدركهم الصلاة في الطريق ، فصلب بعضهم في الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لمجبل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة . فلم يُسْتَفْ واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعل بن أبي طالب . ثم نازلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما حال عليهم الحلال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ؟ واحتشدوا أنه يحسن إليهم في ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قيس عيلان ، حين استطلقهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم ، كما فعل ابن أبي في أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً - رضي الله عنه - كان قد أصابه سهم في أعضاه (١) أيام الخندق ، فكواه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أعضاه ، وأثزه له قبة في المسجد ليومعه من قريب . وقال سعد فيها دعا به : اللهم ، إن كنت أبليت من حرب قريش شيئاً فأبني لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فأفجرها ولا تمنني حتى تكفر حبي من بني قريظة : فاستجاب الله دعاءه ، وقدّر عليهم أن نزلوا على حكمه بانتصارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب [على حمار] قد وطئوا (٢) له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرقرقونه عليهم ويعفونهم ، وهو ساكت لا يرد عليهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا يخلعه في الله لومة لائم . فمروا أنه خبر مستجيبهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأثروه إعظاماً وإكراماً ولحتراماً له في كل ولايته ، ليكون أفند حكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن هؤلاء - وأهل إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فأحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكي نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : « وعلى من له هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاتنا . وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو معرض بوجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لإجلالاً وإعظاماً ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « نعم » . فقال : « إن لحكم أن تقتل منقاتلهم » وتبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت بحكم الله من فرق سبعة لرقعة (٣) » ، وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فحُكَّتْ (٤) في الأرض ، وجيء بهم مكثفين ، فغضب أعتاقهم ، وكانوا ما بين السجادة إلى الثعالب ، وسبي من لم يثبت (٥) منهم مائة النساء وأموالهم ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلة وأحاديث وبسطه في كتاب السير ، للذي أمرت به موجزاً ومقتصراً ، وبه الحمد ولله .

وفلما قال تعالى : (وأثروا الذين ظاهروا) ، أي : حاولوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهل الكتاب) يعني بني قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بني إسرائيل ، كان قد نزل آياتهم الحجاز

(١) الأكل : حرق في وسط اللراع ، يكثر فعله .

(٢) أي : يهلوه ويطلبونه حتى لا يثبتوا بالركوب ، وفي سيرة ابن هشام ٢/٢٣٩ : « قد وطئوا له يومئذ من آدم » .

(٣) الأركمة : السموات ، والواحدة : وقبة .

(٤) أي : سحرت وحقت .

(٥) أي : من لم يثبت شراً حاله ، وكان ذلك علامة التلويح .

قدما : حكمة في ابرام النبي الذي يدينه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به (١)) ، فطعنهم لحنه الله .

وقوله : (من يصاحبهم) ، يعني : حصونهم . كلما قال مجاهد (٢) ، وعكرمة ، وعطاء وقتادة ، والسدي ، وغيرهم ومنه سميت صياحي البقر ، وهي قرونها ، لأنها أحلى شيء فيها .

(وقلنا في قلوبهم الرعب) ، وهو الخوف ، لأنهم كانوا ما ثروا للمشركين على حوييه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس من يعلم كمن لا يعلم ، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليتزوا في الدنيا ، فانتكس عليهم الحال ، وانتقل الحال ، انشمر (٣) المشركون ففازوا بصفقة المؤمنين ، فكما راموا النزول ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستعملوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ، ولهذا قال تعالى : (فريقا يقتلون وتأسرون فريقا) ، فالذين قتلوا هم للفاتنة ، والأسراء هم الأصاغر والشاه .

قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم بن بشير ، أخبرنا عبد الملك بن حبيب ، عن عطية القرظي قال : عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكوا في ، فأمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن ينظروا : هل أنبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدوا أنبت ، فخلع حتى وألحقني بالسبي (٤) .

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق ، عن عبد الملك بن حبيب ، به : وقال الترمذي : حسن صحيح (٥) . ورواه النسائي أيضا ، من حديث ابن جريج ، عن ابن أبي نجيب ، عن مجاهد ، عن عطية ، بنحوه .

وقوله : (وأوردنكم أرضهم وديارهم وأموالهم) ، أي : جعلها لكم من قتلكم لهم (وأرسلهم طلالها) ، قيل : خير . يقال : مكة . رواه مالك ، عن زيد بن أسلم ، وليل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً (٦) .

(وكان الله على كل شيء قديرا) - قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن عمرو ، عن أبيه ، عن جده عطية بن وقاص قال : أخبرني عائشة قالت : خرجت يوم التندق (٧) أقفؤ الناس ، فسمعت وثيد الأرض ورائي ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مبعثته . قالت : فجلست إلى الأرض فرسند وعليه خرع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فإذا أقفؤ على أطراف سعد . قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فر وهو يرغزل ويقول (٨) :

(١) سورة البقرة : آية : ٨٩ .

(٢) تفسير الطبري : ٩٥/٢١ .

(٣) أي : أسرعوا راجعين إلى مواطنهم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣١١/٥ - ٣١٢ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب : في التلام يصيب الجده . ونسفة الآخري ، أبواب البير ، باب : ما جاء في النزول على الحكم ، الحديث ١٩٣٢ : ٢٠٧/٥ - ٢٠٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب : من لا يجب عليه

الجده ، الحديث ٢٥٢١ : ٨٤٩/٢ .

(٦) تفسير الطبري : ٩٩/٢١ .

(٧) أقفؤ : أتبع . والقريظ : شدة الوطء على الأرض ، يسع كالقوي من بهد .

(٨) قال السبيل في الروض ١٩٢/٢ : هو بيت تمثل به ، من به حمل بن سعدانة بن سارئة بن معقل بن كعب بن طيم

لَبِثْتُ فُكَيْلًا يَتَشَدَّدُ الْهَيْجَتَا حَمَلٌ • مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ*

قالت : قدمت فالتحمت حديدة فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تسبيخة (١) له - تعني المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجريرة ، وما يؤمنك أن يكون بلاد أويكون تحوز (٢) .
قالت : فما زال يلومني حتى تخيمت أن الأرض انشقت في ساعتي ، فدخلت فيها . فرفع الرجل التسبيخة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله قال : يا عمر ، ويحك : إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرى مسلماً وجل من قريش ، يقال له ابن العروة (٣) بسهم ، وقال له : خلما وأنا ابن العروة فأصابك أحمكته قطعه ، فلما الله سعد قال : اللهم ، لا تخني حتى تكبر عني من قريظة : قالت : وكانوا خلفاءه ومواليه في الجاهلية ، قالت : فرأيتكم (٤) ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلهذا أبو سفيان ومن معه بهامة ، ولحق عينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فخصموا في حياصهم ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمر ببقية من أدّم (٥) فضربت على سعد في المسجد ، قالت : فجاءه جبريل عليه السلام وإن على ثناباه لشفق الثنابار ، فقال : لوقد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت للملاكمة بعد السلاح ، أخرج إلى بني قريظة لقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته (٦) ، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) فرمى بني غنم وهم جيران المسجد حوله قال : ومن مر بهم ؟ قالوا : مر بنا حمية الكلبى - وكان حمية الكلبى تشبه لحية وسنه ووجهه جبريل - عليه الصلاة والسلام - فأثام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصره خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاد قيل لهم : أنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستشاروا أهل بيته بن عبد المنذر ، فأشار لأبيهم أنه النسيح : قالوا : نزل على حكم سعد بن معاذ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزلوا على حكم سعد ابن معاذ : فأنزلوا وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ (٨) فأتى به على حمار عليه إكاف (٩) من ليف قد حُمِلَ عليه ، وحنّت به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفوا لك ومواليك وأهل النكابة (١٠) . ومن قد علمت ؟ قالت : ولا ترجع إليهم شيئاً ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم انفضت إلى قومه فقال : قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم : قال : قال أبو سعيد : فلما طلع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : صيدنا الله : قال : أنزلوه . فأنزلوه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحكم فيهم » . قال سعد : فإني أحكم فيهم

(١) في المسند : « سبحة » والتسبيحة - كما في النهاية - : « هي من حلق الدروع والزرده ، يعلق بالخرقة دائراً معها فيستر الرقبة وجيب الدرع » . وفي المغفر أيضاً .

(٢) التصور : هو من قوله تعالى : (أوتحيوياً إلى فتنة) ، أي منفضاً إليها ، والتصوير والتحيز والانهياز بمعنى .

(٣) هو حيان بن العروة . أنظر سيرة ابن هشام : ٢٢٧/٢ ، وأسد الغابة : ٣٧٤/٢ .

(٤) الكلام - بفتح فسكون - الجرح . ورواها اللام يرفأ وقوماً ، انقلط

(٥) الأدم - بفتحين - : البك .

(٦) اللامة - بفتح فسكون - : الدرع ، والسلاح .

(٧) ما بين القومين عن المسند .

(٨) الإكاف : الجردة .

(٩) يقال : نكيت في البدن نكابة : إذا أكثرت فيهم الجراح والقتل . يسلمهم بالهأس والشفة .

أن تقتل مقاتلتهم ، وتسي ذراريهم ، وتقتل أموالهم . فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت آبيت على نيك من حرب قريش شيئاً فأبني لها ، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فأقبضني إليك . قال : فافجر كلمته ، وكان قد برىء منه إلا مثل الخرص^(١) ، ورجع إلى قبه التي ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فحصره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر ، وعمر : قالت : فوالله نفسي حصد بيده إلى لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر ، وأنا في حجرى . وكانوا كما قال الله تعالى : (رحمهم بينهم) .

قال علقمة : قلت : أى أمه ، فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قالت : كانت عنه لائم على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فلاناً هو آتيل بلسيته^(٢) .

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن نجر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه عن عائشة نحوه من هذا ، ولكنه أعصر منه ، وفيه دُعاء سعد رضى الله عنه^(٣) .

يَأْتِيَا أَنِّي قُلْ لَأَزُوجَكَ إِن كُنْتَن تَرِدُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتَهَا فَتَمْلِكِينَ أَمْتَعَكُنْ وَأَسْرِحَكُنْ سَرَّاحًا جَبِيلًا ۖ وَإِن كُنْتَن تَرِدُنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝

هذا أمر من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن يُخَيَّرَ نسائه بين أن يفارقهن ، فيلحقن إلى غيره من يتحصرن لمن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل : فاخترن - رضى الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة :

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري ، قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبرته : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاءه حين أمره الله أن يغير أزواجه ، فبدأ في رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إلى ذا لك أمراً ، فلا عليك أن تسبجلي حتى تستأمرى أبويك » وقد حكى أن أبوى لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال : وإن الله قال : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك) إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا استأمر أبوى ، فلانى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ؟

وكذا رواه معلقاً عن الليث : حدثني يونس ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، فذكره وزاد : « قالت : ثم فعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت .

(١) الخرص - يضم الخاء وكسر ها - : الحلقة الصغيرة من الخل ، وهو من حل الدابة .

(٢) مستند الإمام أحمد : ١٤١/٦ - ١٤٢ .

(٣) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الخندق » : ١٤٣/٥ - ١٤٤ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « جواز

تقال من تقضى اليه » . ١٦٠/٥ - ١٦١ .

وقد حكى البخاري أن معمرًا اضطرب ، فطارة رواه عن الزهري ، عن أبي سلمة . وتارة رواه عن الزهري ، عن هرو ، عن عائشة (١) :

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبد الله الضبي ، حدثنا أبو هريرة ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : لما نزل خيار قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أريد أن أذكر لك أمرًا ، فلا تقضى فيه شيئًا حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قلت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : فردّه عليها فقالت : فما هو يا رسول الله ؟ قالت : فقرأ عليها : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك إن كنن تردن الحياة الدنيا وزينتها) إلى آخر الآية ، قالت : فقلت : بل يختار الله ورسوله والدار الآخرة . قالت : ففرح بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

وحدثنا ابن وكيع ، حدثنا محمد بن بشر ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت آية التحجير ، بدأ لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا عائشة ، إني عارض عليك أمرًا ، فلا تقضيني (٢) فيه بشيء حتى تعرضيه على أبويك أبي بكر وأم رومان . فقلت : يا رسول الله ، وما هو ؟ قال : قال الله عز وجل : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك إن كنن تردن الحياة الدنيا وزينتها فصالبن أمتكن وأمرحكن سرا حبيلا . وإن كنن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فلن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا) . قالت : فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فولاؤكم في ذلك أبوي أبي بكر وأم رومان فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استقرأ الحَجَر فقال : « إن عائشة قالت كما وكذا » . فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن كلهن (٣) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الأشج ، عن أبي أسامة ، عن محمد بن عمرو ، عن عيسى بن جبر : وحدثنا سعيد بن عيسى الأموي ، حدثنا أبي ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن عترة ، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل (٤) إلى نسائه أمر أن يخبرن ، فدخل على فقال : « سأذكرك أمرًا فلا تقضى حتى تستشيري أباك » . فقلت : وما هو يا بني الله ؟ قال : « إني أمرت أن أخبركن » ، وتلا عليها آية التحجير ، إلى آخر الآيتين . قالت فقلت : وما الذي تقول لا تجعل حتى تستشيري أباك ؟ فإني أخشع الله ورسوله . فسر بذلك ، وجرت على نسائه فتباهن كلهن ، فاخترن الله ورسوله (٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يزيد بن سنان البصري ، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثني الليث ، حدثني حكيم ، عن الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أنزلت آية التحجير فبدأ بي أول امرأة من نسائه ، فقال : « إني ذاك لك أمرًا ، فلا عليك أن لا تجعل حتى تستأمرى أبويك » - قالت : قد حكيم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه - قالت : ثم قال : « إن الله قال :

(١) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٦/٦ - ١٤٧ .

(٢) أي : لا تسبق أبويك بإبداء الرأي فيه .

(٣) تفسير الطبري : ١٠٠/٢١ - ١٠١ .

(٤) رفع في المخطوطة بكلمة « نزل » بياض . والنص هكذا في تفسير الطبري : « والمائل إل نسائه » . ويبدو أن فيه سقطا .

(٥) تفسير الطبري : ١٠١/٢١ .

(يا أيها النبي قل لأزواجك) : : : الآيتين ، قالت عائشة ، قلت : أفي هذا أشتأمر أبوي ؟ فأنى لرب الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، قتلن مثل ما قالت عائشة رضى الله عنهن :

وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً ، عن قتية ، عن الليث ، عن الزهري ، عن هرو ، عن عائشة ، مظه (١) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن مسلم بن صبيح ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختارناه ، فلم يملها علينا شيئاً (٢) . أخرجاه من حديث الأعمش (٣) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو حنيفة بن عمرو حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : أتيل أبي بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتأس بيابه جلوس ، والنبي صلى الله عليه وسلم يجالسهم ، فلم يؤذن له . ثم أتيل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي صلى الله عليه وسلم يجالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألني النفقة أفأ ؟ فوجأت (٤) عفتها . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى يدا نجله (٥) وقال : : : هن حولي يسألني النفقة . فقام أبي بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر - رضى الله عنه - إلى حفصة ، كلاهما يقولان : نسالن النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده . فنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلن نساؤه : وانه لاسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيبر ، فبنا بمائقة فقال : : : إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجل فيهِ حتى تستأمرى أبويك . قالت : وما هو ؟ قال : قتل عليها : (يا أيها النبي ، قل لأزواجك) : : : الآية ، قالت عائشة رضى الله عنها : أفليك أشتأمر أبوي ؟ بل أشتأمر الله ورسوله ، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نساك ما اخترت . قال : : : إن الله تعالى لم يعنى معنفاً ، ولكن يعنى معلماً ميسراً ، لاسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها (٦) انفراد بإخراجه مسلم دون البخارى ، فرواه هو والنسائي ، من حديث زكريا بن إسحاق المكي (٧) به .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا علي بن هاشم بن البريد ، عن محمد بن حيد ، أن الله بن علي ابن أبي رافع ، عن عثمان بن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير نساءه الدنيا والآخرة ، ولم يخيرهن الطلاق (٨) .

(١) لم يقع لنا الحديث في الصحيحين بهذا السند ، وانظر البخارى ، كتاب المظالم ، باب « الفرقة والعيلة المشقة » : ١٧٤/٣ - ١٧٧ . ومسلم كتاب الطلاق ، باب في « الإيلاء والعتاق والنساء وغيرهن » : ١٩٢/٢ - ١٩٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٦ .

(٣) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب « من خير نساءه » : ٥٥/٧ . ومسلم ، كتاب الطلاق أيضاً ، باب « بيان أن تخيير امرأة لا يكون طلاقاً إلا بالنية » : ١٨٧/٤ .

(٤) أي : حلفت وكسرت .

(٥) الناجية : واحدة التواجد ، وهي من الاستئذان أي قبله عند الضحك .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٢٨/٣ .

(٧) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « بيان أن تخيير امرأة لا يكون طلاقاً إلا بالنية » : ١٨٧/٤ - ١٨٨ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٧٨٤/١ .

وهذا منقطع ، وقد روى عن الحسن وتادة وغيرهما نحو ذلك : وهو خلاف الظاهر من الآية ، فإنه قال : (فتعالى
أمكن وأمرحكن سراحاً جميلاً) ، أى : أعطىكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لمن لوطلقهن ، على قولين ، وأصبحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود
من السراح ، والله أعلم .

قال حكيم : وكان تحه يومئذ تسع لسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة
وكانت تحه صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيى الأنصريّة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسديّة ،
وجويرة بنت الحارث للمصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

يُنْسَاءُ النَّبِيُّ مِنْ بَيَاتٍ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يُضْلَعُهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٥﴾
وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَئْلَةً وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُفْتَهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ ۖ وَاعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى واعظاً لساء النبي - صلى الله عليه وسلم - اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يفرهن بحكمهن دون سائر النساء ، بأن من بأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس - وهى التشويز
وسوء التلقين - وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك :
لئلا أفركت لباسك عليك) (١) ، وكقوله : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) (٢) ، (قل : إن كان للرحمن
ولد فأنا أول العابدين) (٣) ، (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأوصلنى ما يحلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار) (٤)
• فلما كانت عجلتهن رفيعة ، لناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن منقطعاً ، صيانة لجنايتهن وحجابهن الرفيع ، ولهذا قال :
(ومن يأت منكم بفاحشة مبينة ، يضاعف لها العذاب ضعفين) .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : (يضاعف لها العذاب ضعفين) ، قال : في الدنيا والآخرة ،

وعن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : مثله .

(وكان ذلك على الله يسيراً) ، أى : سهلاً هيناً .

لم ذكر عدله وفضله في قوله : (ومن يفتن منكم الله ورسوله) ، أى : يعلم الله ورسوله ويستجيب (نوتها أجرها
مرتين ، واعتدنا لها رزقاً كريماً) ، أى : في الجنة ، فإن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في أعلى عليين ، فوق
منازل جميع الخلائق ، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

(١) سورة الزمر : آية : ٦٥ .

(٢) سورة الأنعام : آية : ٨٨ .

(٣) سورة الزحرف : آية : ٨١ .

(٤) سورة الزمر : آية : ٤ .

يُنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّبَعْتَنَ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُقَطِّعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٥﴾ وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِنَّ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٢٦﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَكُونُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ عَائِلَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٢٧﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، ونساء الأمة تبع لمن في ذلك ، فقال مخاطباً لنساء النبي بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن في الفضيلة والمثلة ، ثم قال : (فلا تحضعن بالقول) ، قال السدي وغيره : يعنى بذلك ترفيق الكلام إذا خاطبن الرجال : ولهذا قال (فيقطع الذى في قلبه مرض) ، أى : دقش ، (وقلن قولاً معروفاً) - قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ؛

ومعنى هذا أنها مخاطبة الأجانب بكلام ليس فيه ترسيم ، أى : لمخاطبة المرأة الأجانب كما لمخاطبة زوجها ؟

وقوله : (وقرن في بيوتكن) ، أى : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغیر حاجة : ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخرجن إمام الله مساجد الله ، ولا تخرجن ونحن تكليات (١) ، وفي رواية : ويؤمنين خير من (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا حميد بن مسعدة ، حدثنا أبو وجاه الكلبي : روح بن المسيب ثقة ، حدثنا ثابت البناني ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : جئن النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : يا رسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى ، فإنا نعمل نترك به عمل المجاهدين في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بعد - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فترك عمل المجاهدين في سبيل الله ؛

ثم قال : لا تعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب ، وهو رجل من أهل البصرة مشهور (٣) .

(١) أى : لارتكات لطيب .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب : ما جاء في خروج النساء إلى المسجد الحديث ٥٦٥ : ١٥٥٠ ومسنن الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٤٣٨/٢ ، ٤٧٥ ، ٥٢٨ . وعن زيد بن خالد الجهني : ١٩٢/٥ ، ١٩٣ ، ومن حاشية - رضى الله عنها - : ٦٩/٦ - ٧٠ .

(٣) في ميزان الاعتدال ٦١/٢ : وقال ابن حدى : أساديه غير عرقولة . وقال ابن معين : صحيح . وقال ابن حبان : يروى الموضوحات من الثقات ، لا تحل الرواية منه . هذا والحديث أخرجه الذي في ترجمته من طريق نصر بن حل الجهمسي ، عن أبي رجاء ، بإسناده ، والله وبعده إحداهن في بيتها فترك عمل المجاهدين في سبيل الله .

وقال الزوار أيضاً : حدثنا محمد بن اللقي ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن مورتق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها (١) الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحاً (٢) » وبها وهي في تعريضها :

ورواه الترمذي ، عن بنابر ، عن عمرو بن عاصم ، به نحوه (٣) :

وروى الزوار بإسناده المتقدم ، وأبو داود (٤) أيضاً ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « صلاة المرأة في عذعها أفضل من صلاتها في بيها ، وصلاتها في بيها أفضل من صلاتها في حجرها » . وهذا إسناده جيد .

وقوله تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية :

وقال قتادة : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، يقول : إذا خرجت من بيتك - وكانت لمن مشية وتكسر وتفتش (٥) - فلي الله من ذلك :

وقال مقاتل بن حبان : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، والتبرج : أنها تلبس الخمار على رأسها ، ولا تشده فيأري للرجال ما عجزها ، ويبذل ذلك كله منها ، فذلك التبرج ، ثم حمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقال ابن جرير : حدثني ابن زهر ، حدثنا مرسى بن إسحاق ، حدثنا داود - يعني ابن أبي القرات - حدثنا علي ابن أحمد ، عن حكيم عن ابن عباس قال : تلا هذه الآية : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) . قال : كانت فيما بين نوح وإدريس ، وكانت ألف سنة ، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل ، والآخر يسكن الجبل ، وكان الرجل يهاب الجبل صياحاً ، وفي النساء السهل صياحاً ، وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة جلام ، فآجر نفسه منه ، فكان يخلعه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يرمز فيه الرعاء ، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حوله ، فأتوا به يسمعون إليه ، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة ، فيتبرج النساء للرجال - قال : ويتبرجن (٦) الرجال لمن ، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فركب النساء وصباحتهن ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك ، فحولوا إليه . فتركوا منهن وظهرت الناحشة فيهن ، فهو قوله تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (٧)) :

(١) أي : زينها في نظر الرجال ، وقيل : نظر إليها ليغريها ويغري بها . وأصل الاستشراق : دفع البصر للنظر إلى الشيء ويصط الكذب فوق الحجاب .

(٢) أي : تكون على مقدار دوسة من دها ، وهي المرة من الراح .

(٣) نسخة الأحوص ، أبواب الرضاع ، الحديث ١١٨٣ : ٢٣٧/٤ .

(٤) من أبو داود ، كتاب الصلاة ، الحديث ١٥٧٦ : ١٠٦٧/١ .

(٥) التفتيح : التذلل والتكسر .

(٦) في الخطبة : « ويترك » . والله من تفسير الطبري والبيهقي للمناسبة .

(٧) تفسير الطبري : ٤٢٢ .

وقوله : (وآتَيْنَ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ ، وَأَمْلَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ، بُهِنَ أَوَّلًا عَنْ الشَّرِّ فَلَمْ أَسْرَهُنَّ بِالْقَبْرِ ، مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ - وَهِيَ : عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لِاشْرِكَ لَهُ - وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ ، وَهِيَ : الْإِحْسَانُ إِلَى الْخُلُقَيْنِ ، (وَاطْلُنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ، وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ .

وقوله : (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَلْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) وَهَذَا نَصٌّ فِي «عَنْكَمُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَاهُنَا ، لِأَنَّهُمْ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَسَبَبُ النِّزُولِ دَاخِلٌ فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا ، إِمَّا وَحْدَهُ عَلَى قَوْلٍ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى الصَّحِيحِ .

وروى ابن جرير ، عن حكيم بن عمار أَنَّهُ كَانَ يَتَنَادَى فِي السُّوقِ : (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَلْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ، تَزَلَّتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً ، وَهَكَذَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ قَالَ :

« حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ لِلْمَوْصِلِ ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحَبَابِ ، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ ، عَنْ زَيْدِ النَّحْوِيِّ ، عَنْ حَكِيمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَلْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) ، قَالَ : تَزَلَّتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً (١) » وَقَالَ حَكِيمَةُ : مِنْ هَؤُلَاءِ بَاهِلَتِ أَمَّا تَزَلَّتْ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

لِإِنْ كَانَ الْمُرَادُ أَمَّا « كُنْ » سَبَبُ النِّزُولِ دُونَ غَيْرِهِمْ فَصَحِيحٌ ، وَإِنْ أُريدَ أَنَّهُ الْمُرَادُ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهِمْ ، فَبِإِذَا هَذَا نَظَرٌ ، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ « أَمَّا » مِنْ ذَلِكَ :

الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ : قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا عَفَانٌ ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : إِذْ رَسَلَ اللَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَمُرُّ بِبَابِ خِزْمَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ إِذَا خَرَجَ إِلَى صَلَاةِ الْقَبْرِ ، يَقُولُ : الصَّلَاةُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ ، (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَلْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ،

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ ، عَنْ حَفَّانٍ ، بِهِ ، وَقَالَ : حَسَنٌ غَرِيبٌ (٢) .

حَدِيثٌ آخَرٌ : قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَكَيْعٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ أَخْبَرَنِي أَبُو حَرَاوَةَ ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ قَالَ : وَابْطَأْتُ الْمَدِينَةَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ عَلَى عَبْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، [قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] إِذَا طَلَعَ الْقَبْرَ ، جَاءَ إِلَى بَابِ حُلِيِّ وَطَاطَمَةَ فَقَالَ : « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ » (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَلْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (٣) .

أَبُو حَرَاوَةَ الْأَعْمَى هُوَ : نَفِيعُ بْنُ الْحَارِثِ ، كَذَّابٌ .

حَدِيثٌ آخَرٌ : وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ مَسْعُودٍ ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ ، حَدَّثَنَا شَدَادُ أَبُو حَرَاوَةَ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى وَائِلَةَ بْنِ الْأَسَدِ وَهِيَ تَقْرَأُ ، فَذَكَرُوا عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمَّا قَامُوا قَالَ لِي : أَلَا أُنَبِّئُكَ بِمَا رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْتُ : بَلَى . قَالَ : أَنْتِ قَاطِمَةُ أَسْلَمًا عَنْ عَلِيٍّ فَقَالَتْ : تَوَجَّهْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَلَسَتْ

(١) تفسير الطبري : ٧/٢٢ - ٨ .

(٢) نسخة الأخرى : تفسير سورة الاحزاب ، الحديث ٣٢٥٩ - ٦٧٤٩ - ٩٨ .

(٣) تفسير الطبري : ٦/٢٢ .

أنظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم معه علي وحسن وحسين ، أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ، فأخذ علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذيه ، ثم لف عليهم ثوبه - أو قال : كساءه - ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، اللهم هؤلاء أهل بيتي ، وأهل بيتي أمتي (١) ، وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي حمزة عن الوليد بن مسلم ، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه - زاد في آخره : قال وأله : فقلت : وأنا : يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهلك ؟ قال : وأنت من أهل ، قال وأله : إنها من أرجعي ما أرجعي (٢) .

ثم رواه أيضاً عن عبد الأجل بن واصل ، عن الفضل بن دكين ، عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المخاضية ، عن شداد بن عمار قال : إني لجالس عند وأله بن الأسمع إذ ذكروا علياً فشتوه ، فلما قاموا قال : اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه ، إني عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فأتى صلى الله عليه وسلم عليهم كساءه ، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قال : وأنت ، قال : فوالله إنها لأوثق مما أرجعي .

حدثني أحمد : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن عمر ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء بن أبي رباح ، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في بيتها ، فأتته فاطمة رضي الله عنها برمة فيها خزيرة (٣) ، ففعلت بها عليه فقال لها : ادعي زوجك وابنيك ، قالت : فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه ، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة ، وهو على منامة له على دكان (٤) تحته كساء خيبري ، قالت : وأنا في الحجره أصلي ، فأئذ الله زوجي هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، قالت : فأخذ فضل الكساء فغطاهم (٥) به ، ثم أخرجهم هذه فأوى (٦) بها إلى النساء ، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت : فدخلت وأمسى البيت ، فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال : إني إلى خير ، إني إلى خير (٧) .

في إسناده من لم يسم ، وهو شيخ عطاء ، وبقية رجاله ثقات .

طريق آخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا حوف عن أبي الملعول ، عن عطية الطفاوي ، عن أبيه أن أم سلمة حدثته قالت : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي يوماً إذ قالت الخادم : إن فاطمة وعلياً بالسدة (٨) . قالت : فإني لفي قوس فتفتحني من أهل بيتي ، قالت : ففتحتني في البيت قريباً ، فدخل علي وفاطمة ، ومعهما الحسن والحسين ، وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيان فوضعهما في حجره فقبلهما ، واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة

(١) مسند الإمام أحمد : ١٠٧/١ .

(٢) تفسير الطبري : ٦/٢٢ .

(٣) الخزيرة - يفتح الخاء - : ثم يقطع قطعاً صغيرة ، ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق .

(٤) الدكان - يفتح الدال - : يفتح الكاف مشددة - : لفظة المبالغة للجورس عليها .

(٥) في كسرة : فغسلهم به .

(٦) أي : توجه بها .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢٩٢/١ .

(٨) السدة : الكائنة على الباب لقرب من المخرج .

باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل عليا ، وأخذني عليهم ختم بيعة (١) سواه وقال : اللهم ، إليك لا إلنا وأنا وأهل بيتي ، قالت فقلت : وأنا يا رسول الله ؟ صلى الله عليك . قال : وأنت (٢) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب [الحسن بن عطية ، حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، عن أم سلمة أن هذه الآية نزلت في بيتها (إنما يريد الله ليحبب عنكم أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ، قالت : وأنا جالسة على باب البيت فقلت : يا رسول الله ، ألسن من أهل البيت ؟ فقال : « إنك لبي خير ، أنت من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - قالت : وفي البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، رضي الله عنهم (٣) » .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أبي كريب ، عن وكيع ، عن عبد الحميد بن جرام ، عن شهر بن حوشب عن أم سلمة بنحوه (٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا خالد بن مخلد ، حدثني موسى بن يعقوب ، حدثني هاشم بن هاشم ابن حنيفة بن أبي وقاص ، عن عبد الله بن وهب بن زمة قال : أخبرني أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع فاطمة (٥) والحسن والحسين ، ثم أدخلهم تحت ثوبه ، ثم جاز إلى الله عز وجل ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتي » ، قالت أم سلمة : فقلت : يا رسول الله ، أدخلني معهم فقال : أنت من أهل ، (٦) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً عن أحمد بن محمد الطوسي ، عن عبد الرحمن بن صالح ، عن محمد بن سليمان الأصمعي ، عن يحيى بن عبد الحميد ، عن عطاء ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أمه بنحو ذلك (٦) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مصعب بن القلاء ، حدثنا حميد بن زريق ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن أم سلمة قالت : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرساة لما قد صلت فيها حصية (٧) فحملها على طين ، فوضعتها بين يديه فقال : أين ابن عمك وإبنك ؟ فقالت : في البيت ، قال : « ادعهم » ، فجاءت إلى علي فقالت : أحب رسول الله أنت وإبنك . قالت أم سلمة : فلما رأهم قبل أن يده إلى كسله كان علي المنامة ، فده وسطه ، وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فوضعه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه عز وجل فقال : « اللهم ، هؤلاء أهل بيتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (٨) » .

(١) الخبيصة : ثوبه أسود من عز أو صوف .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٩٦/٦ .

(٣) تفسير الطبري : ٧/٢٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٦/٢٢ .

(٥) كلما في غسوة الأثر . وفي تفسير الطبري : « جمع عليا والحسين » .

(٦) تفسير الطبري : ٧/٢٢ .

(٧) المصيدة : دقيق يلت بالسن ويطلع .

(٨) تفسير الطبري : ٦/٢٢ - ٧ .

طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن حكيم بن سلم قال: ذكرنا على بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيبي تزلت: (إنا يريد الله ليلهب عنكم الرجس أهل البيت، ويظهركم تطهراً). قالت أم سلمة: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيبي فقال: «لأتأخى لأحد»؛ فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبه عن أبيها؛ ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده، ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه (١)؛ فاجتمعوا فنجسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيبي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهراً». فتزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط - قالت فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: «والله ما أنعم» (٢)، وقال: «إنك إلى خير» (٣).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن زكريا، عن مصعب بن شيبة، عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة، وعليه مرط مرحل (٤) من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: (إنا يريد الله ليلهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهراً) (٥)، ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن بشر، به (٦).

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سريج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام - يعني ابن حوشب - عن حم له قال: دخلت مع أبي علي عاتكة، فسألناها عن علي رضي الله عنه، فقالت رضي الله عنها: سألتني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إلي؟ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فأتى عليهم نوباً فقال: «الهم، هؤلاء أهل بيبي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهراً»؛ قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تسحى»؛ فإني على خير.

حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا ابن للثني، حدثنا بكر بن يحيى بن زببان العنزي، حدثنا مندل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن، وحسين، وفاطمة» (إنا يريد الله ليلهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهراً) (٧).

لقد قدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبي سعيد، عن أم سلمة كما تقدم.

(١) قوله: «ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه» ما قدم من تفسير الطبري.

(٢) أي ما قال: نعم.

(٣) تفسير الطبري: ٧/٢٢٢.

(٤) المرط - يكرس فسكرن - كساء من صوف، وديما كان من خز أو غيره. ورسول: عليه تصاوير الرجال.

(٥) تفسير الطبري: ٧/٢٢٢. وقد وقع فيه سقط.

(٦) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ١٣: ٤٧.

(٧) تفسير الطبري: ٧/٢٢٢.

وروى ابن أبي حاتم من حديث هارون بن سعد الجبلي ، عن عطية ، عن أبي سعيد موقولا قال : **أعلم** .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن المني ، حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا بكير بن ميسار قال : سمعت عامر ابن سعد قال : قال سعد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه الوحي ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ، ثم قال : « رب . هؤلاء أهل وأهل بيتي (١) » .

حديث آخر : وقال مسلم في صحيحه : حدثني زهير بن حرب ، وشجاع بن مخلد جميعاً ، عن ابن علقمة . قال زهير : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثني أبو حنيفة ، حدثني يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم (٢) إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا ابن أخي ، والله لقد كبرت سنّي ، وقدّم هدي ، ونسيت بعض الذي كنت أحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحذّثكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكفركوني : ثم قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطيباً عام يدهي خماً . بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذلوا بكتب الله واستمسكوا به . فحسب علي كتاب الله ورسول الله ، ثم قال : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس لسأوه من أهل بيته قال : سأوه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال هم آل حل ، وآل عتبيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم (٣) . »

ثم رواه عن محمد بن بكر بن الريان ، عن حسان بن إبراهيم ، عن سعيد بن مسروق ، عن يزيد بن حبان ، عن زيد بن أرقم ، فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه : فقلنا له : من أهل بيته ؟ لسأوه ؟ قال : لا وإيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة (٤) بعده ،

هكذا وقع في هذه الرواية الأولى ، والأخذ بها أخرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه ، إنما المراد بهم آل الذين حرموا الصدقة ، أو أنه ليس المراد بالأهل الأرواح فقط ، بل هم مع آله ، وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بينهما وبين الرواية التي قبلها ، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن سمحت ، فإن في بعض أسانيدنا نظراً ، والله أعلم . ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم داخلات في قوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، فإن سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، أي : اصعلن بما يتزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة ، فانه قناده وغير واحد . واذكرن هذه النعمة التي خصصن بها من بين الناس ، إن الوحي يتزل في بيوتكن دون سائر الناس .

(١) التفسير الطبري ٧/٢٢ .

(٢) في الصنطرة : « سلم » . والمثبت من صحيح مسلم ، ومسنّد الإمام أحمد : ٣٦٦/٤ .

(٣) « كتاب فضائل الصحابة » ، باب : من فضائل علي رضي الله عنه : ١٢٢/٧ - ١٢٣ .

وعائشة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الثنية ، وأخصهن من هذه الرحمة العيمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم يَمْ معها رجل في فراشها سواه ، فناسب أن تختص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه الرتبة العالية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحق بهذه التسمية ، كما تقدم في الحديث : « وأهل بيته أحق » ؛ وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال : « هو مسجدى هذا (١) » ؛ فهنا من هذا القبيل ؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء ، كما ورد في الأحاديث الأخر . ولكن إذا كان ذلك أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بتسميته بذلك ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا أبو حوالة ، عن حصّ بن عبد الرحمن ، عن أبي جميلة قال : إن الحسن بن علي استخلف حين قُتِل على رضى الله عنهما قال : فيينا هو يصل إذ وثب عليه رجل فطعته بخنجر وذهم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد ، وحسن ساجد قال : فيزعمون أن الطعنة وقعت في رزكه ، فرغ منها شهراً ، ثم برأ فقدم على المنبر ، فقال : يا أهل العراق ، اتقوا الله فينا ، فإننا أمراؤكم وغيباتكم ، ونحن أهل البيت الذي قال الله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، قال : فما زال يقول حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يحزن بكاء .

وقال السدي : عن أبي النديم قال : قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام : أما قرأت في الأحزاب : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ؟ قال : نعم ، ولأنهم هم ؟ قال : نعم .

وقوله : (إن الله كان لطيفاً خبيراً) ، أى : بلطفه يكن بلفظ هذه المترلة ، ويخبرته يكن وأنكن أهل لذلك ، أعطاك ذلك وخطبك بذلك .

قال ابن جرير رحمه الله : وأذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تنلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله على ذلك وأحمدنه (٢) .

(إن الله كان لطيفاً خبيراً) ، أى : ذا لطف يكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تنلى فيها آياته والحكمة . وهى السبعة ، خبيراً يكن إذ لا تخافكن لرسوله أزواجاً .

وقال قتادة : (وأذكرن ما ينلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ، قال : بمن عليهن بذلك . رواه ابن جرير ٢ . وقال عطية العوفي في قوله : (إن الله كان لطيفاً خبيراً) ، يعنى : لطيف باستخراجها ، خبير بموضعها . رواه ابن أبي حاتم ، لم قال : وكذا روى عن الربيع بن أنس ، عن قتادة .

(١) مسلم ، كتاب الحج ، باب : بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة ؛ ١٢٦/٥ . وانظر فيما تقدم لتفسير الآية ١٠٨ من سورة براءة ١٥٢/٤ - ١٥٣ .
(٢) تفسير الطبري ٨٢/٧٢ .

وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلن : قد ذكر كركن الله في القرآن ، ولم تُذكر بشيء ، أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله عز وجل : (إن المسلمين والمؤمنات)... الآية (١) ، فقله : (إن المسلمين والمؤمنات والمؤمنين) دليل على أن الإيمان خبر الإسلام ، وهو أخص منه ، وقوله تعالى : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولا يدخل الإيمان في قلوبكم) (٢) . وفي الصحيحين : لا يزيق الزاني حين يزني وهو مؤمن (٣) ، فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أنه أخص منه كما قرئناه في أول شرح البخاري .

(والقائتين والقائتان) ، القنوت : هو الطاعة في سكون ، (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) (٤) ، وقال تعالى : (وله من في السموات والأرض كل له قانتون) (٥) ، (يامريم ، اقنئ لربك واسجدي واركعي مع الرَّاكعين) (٦) ، (وقوموا لله قانتين) (٧) : فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها ، ثم القنوت ناشئ ههنا . (والصادقين والصادقات) ههنا في الأگوال ، فإن الصدق خصلة مضمومة ، ولما كان بعض الصحابة لم تُجرب عليه كجذبة لافي الجاهلية ولاني الإسلام ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكلب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ، وعليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكلب ، فإن الكلب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يصدق ويضحي الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال الرجل يكلب ويتحرى للكلب حتى يكتب عند الله كذاباً (٨) والأحاديث فيه كثيرة جداً .

(والصابرين والصابرات) ، هذه سجيحة الألبات ، وهي الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقهور كائن لا محالة ، ولتكن ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصنمة الأولى ، أي : أصبح في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجدة وثباتها :

(والخالصين والخالصات) ، الخشوع : السكون والطمأنينة ، والثبوت والوقار والتواضع . والخالص عليه الخوف من الله ومراقبته ، « احب الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٩) .

(والمتصدقين والمتصدقات) ، الصدقة : هي الإحسان إلى الناس المداويح الضعفاء ، الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، وإحساناً إلى خلقه ، وقد ثبت في الصحيحين : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل

(١) تفسير الطبري : ٨/٢٢ .

(٢) سورة الحجر : آية ١٤ .

(٣) تقدم الحديث في سورة المائدة ، عند تفسير الآية ٩٣ منها وخرجناه هناك ، انظر : ١٨٠/٣ .

(٤) سورة الزمر ، آية ٩ .

(٥) سورة الروم ، آية ٢٦ .

(٦) سورة آل عمران ، آية ٤٣ .

(٧) سورة البقرة ، آية ٢٣٨ .

(٨) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) :

٨/٣٠٠ . ومسلم في كتاب البر ، باب « قبح الكلب وحسن الصدق وفعله » : ٢٩/٨ .

(٩) البخاري في كتاب الإيمان ، باب « سؤال جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان ... » : ١٩/١ - ٢٠ .

ومسلم في كتاب الإيمان أيضاً ، باب الإسلام ، ما هو ؟ وبينان خصاله » : ٣٠/١ - ٣١ .

إلا ظه - فذكر منهم - : ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم حاله ما تلقى ميتة (١) ، وفي الحديث الآخر : « والصدقة تطفى الخليفة ، كما يطفى للماء النار (٢) » والأحاديث في إحت عليها كثيرة جداً ، له موضع بآياته :
(والصائمين والصائمات) ، في الحديث الذي رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » ، أى : تركبه وتطهره وتقويه من الأخلاط الرديئة طيباً وشرها

قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل في قوله : (والصائمين والصائمات) «
وبما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء (٣) » -
ناسب أن يذكر بعده : (والحافظين فروجهم والحافظات) ، أى : عن الحارم والمأثم إلا عن اللباس ، كما قال تعالى :
(والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين : فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٤)) .

وقوله : (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) - قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا محمد بن جابر ، عن علي بن الأكرم ، عن الأثر الجع مسلم ، عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصلبا وكعتن ، كتبنا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، من حديث الأعمش عن علي بن الأكرم (٥) « عن الأثر الجع مسلم ، عن أبي سعيد وأبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عنه (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لمية ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : قلت : يا رسول الله أتى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات (٧) »

(١) البخارى : كتاب الأذان ، باب « من جلس في المسجد ينظر الصلاة ، وفصل المساجد » : ١٦٨/١ . مسلم : كتاب الزكاة ، باب « فصل إغفاء الصدقة » : ٩٣/٣ .

(٢) تحفة الأحوى : أبواب الإيمان ، باب « ما جاء في حرمة الصلاة » ، الحديث ٢٧٤٩ : ٣٦٢/٧ - ٣٦٥ . وابن ماجه : كتاب الزهد ، باب « الحسد » ، الحديث ٤١٢٥ : ١٤٠٨/٢ . ومسنن الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : ٣٩٩/٣ ، وعن معاذ بن جبل : ٢٣١/٥ .

(٣) تحفة الأحوى : أبواب النكاح ، باب « ما جاء في فضل التزويج والحش عليه » ، الحديث ١٠٨٧ : ١٩٩/٤ - ٢٠٥ . والنسائي : كتاب الصيام ، باب « فضل الصيام » : ٣٦٩/٤ - ٣٧٠ .

والإمام : مؤنة النكاح . والوجه في الأصل : رضى الاثنين وكلهما انضمت النحولة .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيات ٧ - ٥ .

(٥) ما بين القوسين عن سنن أبي داود وابن ماجه .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب التطوع ، باب « قيام الليل » . ومسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل » ، الحديث ١٣٣٥ : ٤٢٣/١ - ٤٢٤ .

(٧) والذاكرات « غير ثابتة في المسند » .

قال : قلت : يا رسول الله ، ومن الغزاة في سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويخضب بما لكان الناكرون الله أفضل منه (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، عن البلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة ، فأتى على جُمُحْدَان (٢) فقال : هذا جُمُحْدَان ، سبوا فقد سبق المُكْرَدُونَ (٣) ، قالوا : وما المُكْرَدُونَ ؟ قال : الناكرون الله كثير أثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « وللمقصرين (٤) » .

فروى به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره :

وقال الإمام أحمد : حدثنا حُصَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى ، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن زياد بن أبي زياد - مولى عبد الله ابن عبيد بن أبي ربيعة أنه بلغه عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حل آدمى حلا قط أنبى له من طلب الله من ذكر الله » . وقال معاذ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بخبر أحلكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من مما طاعى للعجب والقسوة ، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : « ذكر الله عز وجل (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن أبي ليثة ، حدثنا زِيَّانُ بْنُ فَالْدٍ ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن رجلاً سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم ذكرًا » : قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكرًا » . ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثرهم لله ذكرًا » . فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبطل (٦) .

وسندكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة : (يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا الله ذكراً كثيراً : وسبحوه بكرة وأصيلاً (٧)) :: الآية ، إن شاء الله تعالى .

وفروى : (أعدل الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً) ، أى : بما لم منه للتوبهم مغفرة وأجرًا عظيماً وهو الجنة ،

(١) في المتن ٩٥/٣ : « أفضل منه درجة » .

(٢) جُمُحْدَان - بضم الجيم ، وسكون الميم - : جبل على ليلة من الليالي .

(٣) في النجاشية (فرد) : « وفى رواية : طريق المفردين ؟ قيل : وما المفردون ؟ قال : الذين أعتقوا في ذكر الله » . وفى مادة « حتر » : يقال : أعتق فلان بكذا ، واستهتر ، فهو مهتر به - بالبناء للمفرد - - واستهتر : أى مولع به ، لا يتحدث بغيره ، ولا يفعل غيره .

(٤) مستد الإمام أحمد : ٩١/٢ .

(٥) مستد الإمام أحمد : ٢٣٩/٥ .

(٦) مستد الإمام أحمد : ٤٣٨/٣ .

(٧) سورة الأعراف : الآيات ٤١ - ٤٢ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ صُلًىً مَبِينًا ﴿٥١﴾

قال اللوح ، عن ابن عباس : قوله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ليخطب على فناء زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسيرة فخطبها ، فقالت : لست بناكحه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل فانكحه • قالت : يا رسول الله ، أأمر في نفسي ؟ فيينا هما يتحدان أولك الله هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) الآية • قالت : قد رضى بي منكحا يا رسول الله ؟ قال : نعم • قالت : إن لا أصح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أنكحه نفسي (١) .

وقال ابن قيم ، عن ابن أبي عمرة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ثم زيد بن حارثة ، فاستكففت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا - وكانت امرأة فيها حدة - فأزك الله عز وجل : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية كلها (٢) .

وهذا قال جماعة ، وقادة ، ومقاتل بن حيان : أنها تزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة ، فامتصت لم أبيات .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : تزلت في أم كلثوم بنت حبة بن أبي مغيص ، وكانت أولك من هاجر مع النساء - يعني بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، قال : قد قبلت • فزوجها زيد بن حارثة - يعني والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هي وأخوها وقالوا : إننا أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا هذه • قال : فزول القرآن : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) الآية • قال : وجاء أمر أجمع من هذا : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ، قال : فذلك خاص وهذا جماع (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ثابت البناني ، عن أنس قال : خطب النبي صلى الله عليه وسلم على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها ، قال : حتى استأمر أمها • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم إذا : قال : فانطلق الرجل إلى امرأته [فذكر ذلك لها] ، فقالت : لاها الله ذا (٤) ، ما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جليبيبا ، وقد منعناها من فلان وفلان : قال : والجارية في سترها تسبع ، قال : فانطلق الرجل يريد أن يغير أكنبه صلى الله عليه وسلم بذلك • فقالت الجارية : أتريدون أن ترتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه ، إن كان قد رضى لكم فانكحوه : قال : فكانها جئكت عن أبيها ، وقال : صدقت • فلحق أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير الطبري : ٩/٢٢٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٩/٢٢٤ - ١٠ .

(٣) تفسير الطبري : ١٠/٢٢٤ .

(٤) في الخطوط والمسنود : « لاها الله إذا » . وقد ألقينا هذا من النهاية • وذلك من حديث أنس . قال ابن الأثير : « ومنه : لا ، والله لا يكون ذا » .

قتال : إن كنت رغبته قد رغبته : قال : « فإني قد رغبته » : قال : فزوجها ، ثم فرح أهل المدينة ، فركب جليبيب فوجده قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ، قال أنس : فلققوا أبيها [ولها] من أنفق بيت بالمدينة (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوي ، عن أبي بزة الأسدي أن جلييبا كان امرأ يدخل على النساء يمرّ بهن ويلاعبهن ، فقتل لامرأى : لا يدخلن اليوم عليكم جلييب ، فإنه إن دخل عليكم لأكلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم : هل نبي الله صلى الله عليه وسلم فيها حاجة أم لا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من الأنصار : « زوجني ابتك » : قال : لم ، وكرامة يا رسول الله ، وثمّة حين (٢) . فقال : إني لست لأريها نفسي . قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : لجلييب . فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها : فأتى أمها فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم يغيب ابتك ؟ فقالت : نعم وثمّة حين . قال : إنه ليس يغيبها لنفسه ، إنما يغيبها لجلييب . فقالت : أجلييب إني (٣) ؟ أجلييب إني ؟ لا ، لئلا لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من غطيت إليك ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟! ادفعوني إليه ، فإنه لن يضيعني . فالتفت إليها أمها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : شاكك بها . فزوجه جلييبا ، قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة له ، فلما أناه الله عليه قال لأصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد ثلاثا ونفقد ثلاثا : قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا . قال : لكني أقد جلييبا » . قال : فاطلبوه في القتل : فطلبوه فوجده إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . [فقالوا : يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] : قال : فأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلهم ، فقال : قتل سبعة [وقتلوه] ، هذا عني وأنا منه . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه [وحفر له] ، ماله سرير إلا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم . ثم وضعه في قبره ، ولم يذكر أنه ضلعه وضى الله عنه . قال ثابت . لما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إصحاق ابن حيد الله بن أبي طلحة ثابتا : هل تعلم ما دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها [الخمر] صبا ، ولا تجعل (٤) حبشها كذا » . كلا قال ، لما كان في الأنصار أيم أنفق منها (٥) .

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، والخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله . وذكر الحافظ أبو هرير بن عبد البر في « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت في خبرها : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ قلت هذه الآية : « وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم بغيره من أمرهم » (٦) .

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٦/٣ ، ومضى أنفق بيت : أكثرهن لفقة .

(٢) أي : قرعة حين وسورا .

(٣) في المخطوطة : « أيم » . وهو خطأ ، والصواب من المست ، ونتائج الفكر للسبيل ، ورقة ٤١ . وللفقة : إنيه . فتمسكها البرج في الإنكار ، يقول القائل : جاء زيه . فقول أنت : أريد فيه ، وأريد فيه ؟ كأنك استبدت بحبه . هذا وانظر للكتاب لسبويه ٤٠٦/١ ، والخصائص لابن جني ١٥٦/٣ .

(٤) في المخطوطة : « واجبل حبشها كذا وكذا قال ... » . وفي المست : « ولا تجعل حبشها كذا كذا » . قال : « هذا وانظر الاستيعاب ٢٧٢/٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد ٤٢٢/٤ ، وما بين الأقواس من المست .

(٦) الاستيعاب ٢٧٢/٤ .

وقال ابن جريج : أخبرني عامر بن مصعب ، عن طلوس قال : إنه سأله ابن عباس عن ركبته بعد العصر ، فنهاه ،
 وقرأ ابن عباس رضي الله عنه : (وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .
 فلهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاتماً
 ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى تنكحوك بما شئتم ، ثم لا يجحدوا في أنفسهم حرجاً
 مما قضيت ويسلموا تسلياً) (١) . وفي الحديث : « والى لقبي يله ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تباً لما جئت به » .
 ولما شدد في خلاف ذلك ، قال : (ومن يصح الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) ، كتوله تعالى : (فليحذر الذين
 يخافون من أمره أن تصيبهم فتة أو يصيبهم طلبة ألم) (٢) .

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ
 وَخُفِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَوْجَهَا مَلَأَ قُصْفًا مِنْهَا مَلَأَ قُصْفًا مِنْهَا لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
 فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ مَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣﴾

يقول تعالى خبراً عن نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — أنه قال لولاء زيد بن حارثة وهو الذي أنعم الله عليه ،
 أي : بالإسلام ومتابعة الرسول عليه أفضل الصلوات والسلام : (وأنعمت عليه) ، أي : بالحق من الرق ، وكان سيداً كبيراً
 الشأن جليل القدر ، حبباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال له الحبيبة ، ويقال لاهته أسامة : الحبيب ابن الحبيب —
 قالت عائشة رضي الله عنها : ما به رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه .
 رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق وعبد بن عبيد ، عن وائل بن خلود ، عن عبد الله الجهمي عنها (٣) .

وقال الزوار : حدثنا خالد بن يوسف ، حدثنا أبو حوالة (ج) ، وحدثنا محمد بن معمر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا
 أبو حوالة ، أخبرني عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه : حدثني أسامة بن زيد قال : كنت في المسجد ، فأتاني العباس وعلي بن
 أبي طالب رضي الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأتيت رسول الله
 فأخبرته ، فقلت : هل والعباس يستأذنان ؟ قال : « أتري ما حاجتهما ؟ » فقلت : لا يا رسول الله . قال : لكني أرى ،
 قال : فأذن لهما . قال : يا رسول الله ، جئتكم لتخبرنا : أي أهلك أحب إليك ؟ قال : أحب أهل إلى فاطمة بنت عبد
 قال : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة ، قال : أسامة بن زيد بن حارثة ، الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج بآبته زينة بنت جحش الأسدية — وأما أمية بنت عبد المطلب —
 وأصبها عشرة ذنائب ، وستين درهماً ، وخملاً ، ومثلحك ، ودرهماً ، وخمسين مثلاً من طعام ، وعشرة أمثال من تمر .
 قاله مقاتل بن حيان ، فكنت عنده قريباً من ستة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله صلى الله

(١) سورة النساء : آية : ٦٥ .

(٢) سورة النور : آية : ٦٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٢٧٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨١ .

عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « أسئلك عليك زوجك » ، وأتى الله : « قال الله تعالى : ﴿ وتغنى في نفسك ما الله مبديه ، وتغنى الناس والله أعز من غشاه ﴾ .

ذكر ابن جرير ، وابن أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم ، أحببت أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ، من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس في غرابة تركنا سيافه أيضاً .
وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا مولى بن منصور ، عن حماد ابن زيد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ وتغنى في نفسك ما الله مبديه ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة رضى الله عنهما (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن علي بن زيد بن جدعان قال : سألت علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله : ﴿ وتغنى في نفسك ما الله مبديه ﴾ ؟ فذكرت له فقال : لا ، ولكن الله أعلم ليه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : اتق الله ، وأسئلك عليك زوجك . فقال : قد أبشرك أني مؤزجكها ، وتغنى في نفسك ما الله مبديه ، وهكذا روى عن السدي أنه قال نحو ذلك .

وقال ابن جرير : حدثني إسحاق بن شاهين ، حدثني خالد (٢) ، عن داود ، عن عامر ، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لو كنت محمد - صلى الله عليه وسلم - شيئاً مما أوصى إليه من كتاب الله لكنم : ﴿ وتغنى في نفسك ما الله مبديه وتغنى الناس والله أعز من غشاه ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها ﴾ ، الوطء هو الحاجة والأرب ، أي : لما فرغ منها وفارقها .
« زوجناكمها ، وكان الذي وكل تزويجها منه هو الله عز وجل ، يعني : أنه أوصى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم - يعني ابن القاسم أبو الثغر - حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس رضى الله عنه - قال : لما انقضت مدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها على فاطمة حتى أتياها وهي تخشع حجبها ، قال : فلما رأيتها عظمت في صبري - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فقولتها ظهري ونكمت على عقي ، وقلت : يا زينب ، أبشري ، أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك : قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل . فقامت إلى مسجدنا ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لخلل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دخلت على (٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٧/٦ .

(٢) في تفسير الطبري : « حدثني إسحاق بن شاهين قال : ثنا داود » ، بإسقاط خالد . وإسحاق بن شاهين يروي عن خالد ابن عبد الله أنظر التلخيص : ٢٣٦/١ .

(٣) تفسير الطبري : ١١/٢٢ .

(٤) لفظ المسند : « ولقد رأيتنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أطلعنا ... » .

أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقي رجال يصحشون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (وابنته) فجعل يتبع حجر نساءه يسلم عليهن ، ويقنن ؛ يا رسول الله ، كيف وجدت أمك ؟ فما أدري أنا أخبره أن القوم قد خرجوا أو أخبر - قال : فانتقل حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى السرير بين يديه ، وتزك الحجاب ، ووعظت القوم بما وعظوا به : (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) :: (الآية (١))
ورواه مسلم والنسائي من طرق ، عن سليمان بن المغيرة (٢) ، به .

وقد روى البخاري - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن زينب بنت جحش كانت تطهر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات (٣) .
وقد قلنا في « سورة النور » عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : ففانحرت زينب وحاشة ، فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تروحي من السماء ، وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري من السماء ، فاعترفت لما زينب رضي الله عنها (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبي قال : كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأدُلُّ عليك ثلاث ، ما من نساءك امرأة تدل من : إن جنبي وجدك واحد ، وإنني أنكحكك الله من السماء ، وإن السفر جبريل عليه السلام (٥) .

وقوله : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) ، أي : إنما أعتاك زوجيها وفلنا ذلك ، فلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأبوائكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل : ادعواهم لأبائهم هو أفضل عند الله) ، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ، ولما قال في آية التحريم : (وحلال أبناؤكم اللين من أصلابكم (٦)) ليحترز من الابن الدعي ، فإن ذلك كان كثيراً فيهم .
وقوله : (وكان أمر الله مفعولاً) ، أي : وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحققه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب في علم الله متصيرة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٦﴾

يقول تعالى : (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) ، أي : فإجل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيته زيد بن حارثة .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) مسلم ، كتاب النكاح ، باب : زواج زينب بنت جحش ، ونزول الحجاب ، وإثبات ولية المرس : ١٤٨/٤ - ١٤٩ .

(٣) البخاري ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٢ .

(٤) انظر تفسير الآية ١١ من سورة النور : ٦/٢٥ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٢/١١ .

(٦) سورة النساء : آية : ٢٣ .

ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضی الله عنهم أجمعين ، مات في حياته ثلاث وثلاثون فاطمة حتى أصيبت به - صلوات الله وسلامه عليه - ثم ماتت بعده ليلة أشهر .

وقوله : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليا) ، كقوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (١) ، فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا يتعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث جياحة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو حنيفة ، حدثنا زهير بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن حنبل ، عن الطفيل بن أبي بن كعب ، عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يمسحها ، فجعل الناس يطوفون بالبيت ويحبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! - فأتانا في النبيين موضع تلك اللبنة » (٢) .

ورواه الترمذي ، عن بندار ، عن أبي عامر العقدي ، به ، وقال : حسن صحيح (٣) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن قنقل ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدي ولا نبي . قال : فشق ذلك على الناس قال : قال : ولكن المبشرات : قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة » (٤) .

وهكذا روى الترمذي عن الحسن بن محمد الزعفراني ، عن عفان بن مسلم به ، وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن قنقل (٥) .

حديث آخر ، قال أبو داود الطيالسي : حدثنا سلم بن حبان ، عن سعيد بن ميناء ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فظفر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! - فأتانا موضع اللبنة ، ختم في الأنبياء عليهم السلام » (٦) .

ورواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، من طرق ، عن سلم بن حبان ، به . وقال الترمذي : صحيح غريب من هذا الوجه (٧) .

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ . (رسالة) حكها بالجمع في غسوة الأزر ، وقد نهى عن ذلك عند تفسير هذه الآية ، انظر : ٣/٣٢٤ .

(٢) سنن الإمام أحمد : ١٣٦/٥ - ١٣٧ .

(٣) تحفة الأوسى ، أبواب التفصيل ، الحديث ٣٦٩٢ : ٨١٪ - ٨٧ .

(٤) سنن الإمام أحمد : ٢/٢٦٧ .

(٥) تحفة الأوسى ، أبواب الرؤيا ، باب « خرجت النبوة وبقيت المبشرات » ، الحديث ٢٢٧٤ : ٢٢٧/٦ - ٥٥٢ .

(٦) منحة المعبود ، كتاب الميرة النبوية ، باب « ما جاء في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ٨٥٪ - ٨٦ .

(٧) البخاري ، كتاب المناقب ، باب « خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم » : ٢٢٦٪ - ٢٢٧ . ومسلم ، كتاب التفصيل ، باب « ذكر كونه - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين » : ٧/٦٥ . وتحفة الأوسى ، باب الأمثال ، أبواب « ما جاء مثل النبي والأنبياء ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم » ، الحديث ٣٠٧٢ : ١٥٨٪ - ١٦٠ .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ومثل التينين » (١) كمثل رجل يني داراً فأتمها إلا لبنة واحدة ، فبحثت أنا فأعمت تلك اللبنة (٢) . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) .

حديث آخر ، قال أحمد : حدثنا يونس بن عمد ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عثمان بن عبيد الراسي قال : سمعت أبا الطفيل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نبوة بعدى إلا للبشرات . قال : قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الحسنة - أو قال - : الرؤيا الصالحة » (٤) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام بن منبّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مثل ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل ابني بيتاً فأحسنها وأكملها وأجملها ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويمجبهون البنيان ويقولون : ألا وضعت هاهنا لبنة فيم ينالك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكنت أنا اللبنة » (٥) .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٦) .

حديث آخر ، عن أبي هريرة أيضاً ، قال الإمام مسلم : حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلى بن حجر قالوا : حدثنا إسماعيل بن جعفر ، عن العلماء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نُصِّبَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ : أُعْطِيََتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ ، وَنُصِّرَتْ بِالرَّحَبِ ، وَأُحِلَّتْ فِي الْفَنَائِمِ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَسَجْدًا ، وَأُورِسِلَتْ لِي الْخَلْقُ كَالْفَلَكِ » وَخَمْسٌ مِنَ النَّبِيِّينَ (٧) .

ورواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، وقال الترمذي : حسن صحيح (٨) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل ومثل الأنبياء من قبل ، كمثل رجل يني داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ، فبحثت أنا فأعمت تلك اللبنة » (٩) .

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وأبي كريب ، كلاهما عن أبي معاوية ، به .

(١) ما بين القوسين من الحديث .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٩/٣ .

(٣) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « ذكر كونه - صلى الله عليه وسلم - هاتم التينين » : ٦٥/٧ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٥٤/٥ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٢ .

(٦) وقع لنا حديث عبد الرزاق في مسلم ، كتاب الفضائل : ٦٤/٧ .

(٧) مسلم ، كتاب المساجد : ٦٤/٢ .

(٨) تحفة الأحرار ، أبواب السير ، باب « ما جاء في التينية » ، الحديث : ١٥٩٤ : ١٦٠/٥ - ١٦٢ .

(٩) تقدم هذا الحديث من قريب ، ومخرجه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن مسعود الكلبي ، عن عبد الأجل بن هلال السلمي ، عن الرياض بن سارية قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدك في طيئته » (١) :

حديث آخر ، قال الثوري : أخبرني محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن لي أميئة : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا للملأى الذي يحو الله به الكفر ، وأنا المأثر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقبة التي ليس بعدي نبي » : أخرجاه في الصحيحين (٢) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن أبي عمير ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوما كالدع ، فقال : « وأنا عبد الله بن أبي - ثلاثا - ولا نبي بعدي : أوليت فرائع الكلم وجوامع وخرائمه ، وعلمت كم خلة النار وحيلة العرش ، وتجاوز (٣) بي ، وعوفيئت وعوفيئت أمي ، فاسمعوا وأطيعوا ما مدت فيكم ، فإذا ذهب بي فلبيكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه » : تقدم به الإمام أحمد (٤) :

ورواه أحمد أيضا عن يحيى بن إسحاق ، عن ابن أبي عمير ، عن عبد الله بن هبيرة ، عن عبد الله بن مريح (٥) الخولاني ، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء (٦) :

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد - صلوات الله وسلامه عليه - إليهم ، ثم من ثمرته له غنم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الخفيف له ، وقد أخبر تعالى في كتابه ، ورسوله في السنة للثبوت عنه : أنه لا يبي بعده ليطلعوا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفك ، دجال ضال مضل ، ولو فخرق وشهد ، وألق بالوابع السحر والطلاسم والتبرجيات (٧) ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود السمنين باليمن ، وسيسلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأحوال الباردة ، ما علم كل من لب وفهم وحجبي أنها كذبات ضالان ، لعنا الله ، وكذلك كل مدح للذك إلى يوم القيامة حتى يخلصوا بالمسيح النجاة ، بخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكلبي من جاء بها ، وهذا من غام لطف الله تعالى بخلقهم ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمرفوع ولا يهرون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أولا لهم فيه من للمقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الإلزام والتجوير في أقوالهم وأفعالهم ،

(١) مسند الإمام أحمد : ١٢٧/٤ . وقد تقدم تفسير كلمة « منجد » في : ٢٥٢/١ .

(٢) البخاري ، كتاب المناقب ، باب : ما جاء من أميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم . : ٢٢٥/٤ . مسلم ، كتاب الفضائل ، باب : في أميئة صلى الله عليه وسلم . : ٨٩/٧ .

(٣) معناه - والله أعلم - أنه تعالى خفف عن أمه بسببه .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٢ .

(٥) كلما في المسند . وفي المخطوطة تحصل أن قرأ : « مريح » ، بالسين . ولم نجد « عبد الله » هذا .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٧٢/٢ .

(٧) كلما في مخطوطة الأثر . وفي القاموس المحيط : « التبرج - بكسر التاء ، وسكون الراء ، وفتح الراء ، وقول ثالثة ساكنة - : أعد كالسحر » ، وليس به . ويقول الزبيدي في تاج القروس : « والمقول من نص كلام الله » ، فالنتيجة : وإسقاط التواتر الثانية .

كما قال تعالى: (هل أتيتكم على من تزل الشياطين . تزل على كل أفكك أليم) (١) .. الآية : وهذا خلافاً الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة فيا يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يريدون به من لتفوارق العادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات . فصولات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً مادامت الأرض والسموات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ فِي سُرَّتِكُمْ لَا تَنظُرُ إِلَى الْكُفْرِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِبُّهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا ۚ

يَوْمَ ۝

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بذكره لربهم تعالى المتص بهم بأنواع التتم وأصناف اللن ، لما هم في ذلك من جليل القوام ، وجليل اللاب .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن سعيد ، حدثني مولى ابن هياش عن أبي بصريه ، عن أبي الترداء - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أتيتكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ؟ » (٢) ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلوا : وما يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله عز وجل » (٣) :

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند ، عن زياد - مولى ابن هياش - عن أبي بصريه - واسمه عبد الله بن قيس الترمي - عن أبي الترداء ، به ، قال الترمذي : ورواه بعضهم عنه فأرسله (٤) .

قلت : وقد تقدم هنا الحديث عند قوله تعالى : (والذاكرين الله كثيراً واللاتكرات) في مسند أحمد ، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن حيكاش : أنه بلغه عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحوه ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن أبي سعد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاه سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أده : اللهم اجعلني أعظم شكره ، وأبغ نصيبك ، وأكثر ذكره ، وأحبك وصيكتك (٥) :

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى ، عن وكيع ، عن أبي فضالة الفرغ بن فضالة ، عن أبي سعيد (٦) الحمصي ، عن أبي هريرة ، فذكره وقال : غريب :

(١) سورة الشعراء ، آية : ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) في المخطوطة : « إنفاق الذهب » . ولقود : القصة .

(٣) مسند الإمام أحمد ١٩٥/٥ .

(٤) نسخة الأحوي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٧٤٣٧ : ٣١٧/٩ - ٣١٨ . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب فضل الذكر ، الحديث ٣٧٩٠ : ١٢٤٥/٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد ٤٧٧/٢ .

(٦) التي في نسخة الأحوي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٦٧ : ٦٧/١٠ « عن أبي سعيد المقبري » .

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضا عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة ذكره (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله ابن مسعود يقول : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : يا رسول الله ، أي الثامن خير ؟ قال : من طال هجره وحسن عمله . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فراق بأمر أتيت (٢) به . قال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله (٣) .

وروى الترمذي وابن ماجة القائل الثاني ، من حديث معاوية بن صالح ، به : وقال الترمذي : حسن غريب (٤) . وقال الإمام أحمد : حدثنا مسدد ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث قال : إن ذرأجا أبا السمع حدثني ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : عتقوا (٥) . وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا حنيفة بن مسعود ، حدثنا سعيد بن مسعود ، حدثنا الحسين بن علي ، حدثنا الحسن بن علي ، عن عتبة بن أبي ثبيت الراسبي ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذكروا الله ذكرا كثيرا حتى يفرق المنافقون : ترمذي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي ، سمعت أبا الوائض جابر ابن عمرو (٦) يحدث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رآه حسرة يوم القيامة » (٧) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (اذكروا الله ذكرا كثيرا) : إن الله لم يفرض أن يحل عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم « حل أمر أهلها في حال حذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً يتبعه » إليه . ولم يعلل أحداً في تركه ، إلا مغلوباً على تركه (٨) ، فقال : (فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) ، بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والنهي والنقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال . وقال : (وسبحوه بكرة وأصيلاً) ، فإذا سلمت ذلك صلى عليكم هو وملائكته (٩) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٩١/٢ .

(٢) في المسند : « أتيت به » . وما في الترمذي وابن ماجة يوافق نص ابن كثير .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٩٠/٤ .

(٤) تحفة الأحرف : أبواب النعمات ، باب « ما جاء في فضل الذكر » ، الطبع : ٢٤٣٠ : ٣١٤/٩ - ٣١٠ : وسبق ابن ماجة ، كتاب الأدب ، باب « فضل الذكر » ، الحديث ٣٧٩٣ : ١٢٤٦/٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٩٨/٣ .

(٦) في المسند : « سمعت أبا الوائض جاء وعمر يحدث » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا . وانظر الخلاصة .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢٢٤/٢ .

(٨) في تفسير الطبري : « لا مغلوباً على عقله » .

(٩) تفسير الطبري : ١٣/٢٢ . وما بين الأقواس «هـ» .

والأحاديث والآيات والآثار في الحديث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفي هذه الآية الكرمة الحديث على الإكثار من ذلك .
وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآثار الليل والنهار كالتسائي والمعمري وغيرهما . ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك
كتاب الأذكار للشيخ يحيى الدين النوروي رحمه الله تعالى .

وقوله : (وسبحوه بكرة وأصيلا) ، أي : عند الصباح والمساء ، كقوله : (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون)
وله الحمد في السموات والأرض وحشا وحين تظهرون (١) .

وقوله : (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) ، هذا ينسج إلى الذكر ، أي : إنه سبحانه يذكركم فاذكروه انتم ،
كقوله تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا
تعلمون) فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون (٢) : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله : من ذكرني
في نفسه ذكرته في قصبي ، ومن ذكرني في مأكلا ذكرته في مأكلي أخر منهم (٣) :

والصلوة من الله ثأره على العبد عند الملائكة ، حكاه البخاري عن أبي العالية (٤) . ورواه أبو جعفر الرازي ، عن
الربيع بن أنس ، عنه .

وقال غيره : الصلاة من الله الرحمة .

وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة فمعنى الدعاء للتائب والاستغفار ، كقوله : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون
حمدا ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) دينا ، وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك
وفهم عذاب الجحيم . دينا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت
العزيز الحكيم . وقهم السينات (٥) : الآية .

وقوله : (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) ، أي : بسبب رحمته بكم وثباته عليكم ، ودعائه لملائكته لكم ، يخرجكم
من ظلمات الجهل والضللال إلى نور الهدى واليقين ، (وكان بالمؤمنين راحة) ، أي : في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا
فإنه يهدم إلى الحق الذي جهله غيرهم ، ويصرفهم الطريق الذي ضل عنه وحده من سواهم من الدعاة إلى الكفر
أو البدعة وأشياهم من الطغام : وأما رحمته بهم في الآخرة فأنهم من القوم الأكابر ، وأمر ملائكته بتلقونهم بالبخارة
بالقول بالجنة والجنة من النار ، وما ذاك إلا ليهبه لهم ورافته بهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عيسى ، عن حميد ، عن أنس - رضي الله عنه - قال : مر رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - في نفر من أصحابه وصبي في الطريق ، فلما رأته أقوم خشيت على ولدها أن يموتا ، فأقبلت تسمى

(١) سورة الروم : آية : ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة البقرة : آية : ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٤٧/٨ - ١٤٨ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب : الحديث على ذكر الله تعالى : ٨٢/٨ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٥١/٦ .

(٥) سورة غافر : الآيات : ٧ - ٩ .

إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِينَ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ فِي صَحِيحِ الْإِسْلَامِ الْبُخَارِيُّ ، عَنْ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍو بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً مِنَ الْعَبِيدِ قَدْ اخْتَلَتْ صَبِيحًا ، فَاقْبَضَتْهُ إِلَى صَبْرِهَا ،
وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ : « أَتَرُونَ هَذِهِ تَأْتِي وَلِهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَعْتَدُ حُلَّيَّ خَلْقٍ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَرَأَيْتَ لَهَا أَرْضَعُ يَمِادِهِ مِنْ حَلَمِ
يُولَدُهَا » (٤) .

وقوله (واحد لم أجراً كريماً) ، يعني : الجنة وما فيها من لأكل والشارب ، والملابس والمسكن ، والتسبيح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يَتَابِ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٧﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِذِيهِ يُصَوِّرُ أَجْسَادَكُمْ وَإِلَى إِلَهِهِ كُنْتُمْ تَقُودُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ لَمْ يَنْفَعِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ بَدْعُ أَفْئِدَتِهِمْ وَمَقُوقِلٌ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فكيع بن سليمان ، عن هلال بن علي ، عن عطاء بن يسار قال :
 لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الثورة : قال :
 أجل ، والله إنه لخصوص في الثورة بصفته في القرآن : (يا أيها النبي ، إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) ، وحزرا للأئمة ،
 أنت عبدني ورسولي ، سميتك المتوكل لست بظف ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق . ولا بدلع السيئة بالسيئة ، ولكن
 يحفو ويحفر ، ولن يقيضه الله حتى يقيم به لللة الورجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآثانا صما ،
 وقلوبا غلفا (٨) :

- (١) أي : سكتهم حتى يتبينوا لما يليق عليهم .
- (٢) في الخطبة : « ولا والله » . وملتفت عن المحدث . ولكن في رواية أخرى في المحدث ٢/٢٣٥ : « ولا والله » .
- (٣) مسند الإمام أحمد : ١٠٤/٣ .
- (٤) البخاري ، كتاب الأدب ، باب : رحمة قوله ، ٩/٨ .
- (٥) سورة يس ، آية : ٥٨ .
- (٦) تفسير الطبري : ١٣/٢٢ - ١٤ .
- (٧) سورة يونس ، آية : ١٠ .
- (٨) مسند الإمام أحمد : ١٧٤/٢ .

وقد رواه البخاري في «اليوم» عن محمد بن سنان، عن فليح بن سليمان، عن هلال بن حلل به، ورواه في التفسير عن عبد الله - قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح - عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو (١) به، ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الملقب بـ «جشون» به.

وقال البخاري في «اليوم» وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام (١).
 وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: شعيا - أن قم في قومك بني إسرائيل، فانطلق لسانك بروحى وأبعت أميا من الأميين، أبته ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكنته، ولو عشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبته مبشرا ونليرا، لا يقول الخنا، أفتح به أمينا كمنها (٢)، وأذانا صما، وقلوبا غلفا، لئلا يسمع لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسا، والنار شعلة، والقوى ضميرة، والحكمة منطق، والصدق والوفاء طليعة، والحق والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والمشي إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أمدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، ولرفع به بعد الخساسة، وأعرف به بعد التكررة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وأجمع به بعد القلة، وأزنت به بهم أم مفرقة، وقلوب غشاة، وأمواله منتشة، وأستقذ به فعما من الناس عظيمة من الملكة، وأجعل لهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدون موحدين، مصلحون لا جاعين به وصل (٣) لهم السبيل والصحيد، والثناء والتكبر والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومتعلهم ومنازلهم، يصلون في قياما وقعودا، ويقفون في سبيل الله صفا وحرًا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضات أوليها، يظهرون الوجوه والأطراف، وينشدون الثياج في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، وهبان بالليل ليوت النهار، وأجمل في أهل بيته وخزيه السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمة من بعدهم يهتدون بالحق وبه يعدلون، أمة من نصرهم، وأزيد من دعا لهم، وأجمل دائرة السوء على من خالفهم أو بغي عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئا مما في أيديهم، أجملهم ورة لنبيهم، والداعي إلى دينهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم، أنعم بهم لنبيهم الذي يدا به أولهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

مكلا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليافى رحمه الله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن شيان النخعي، أخبرني قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لا نزلت (يا أيها النبي) إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونليرا) - وقد كان أمر عليا ومعاذ أن يسيرا إلى اليمن - فقال: «انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنا قد أنزل على (يا أيها النبي) إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونليرا».

(١) البخاري، كتاب اليوم، باب كراهية السب في الأموات، ٨٧/٣، وتفسير سورة الفتح: ١٦٩/٦ - ١٧٠.

(٢) النكه - بضم فسكون - جمع أكه، وهو الأعمى.

(٣) إلى هنا تضمنت سبعة هذا الأثر في تفسير سورة النور، عند الآية ٤٥ منها، وبخروجها هناك وشرحنا فريده،

ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البراز البغدادي ، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي ، عن عبد الرحمن بن محمد ابن عبيد الله العرزمي ، بإسناده مثله . وقال في آخره : « فإنه قد أنزل على : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة ، ونذيرا من النار » وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه « وسراجا منيرا بالقرآن » .
وقوله : (شاهدا) ، أي : الله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة « وجنتنا بك على هؤلاء شهيدا » : لا نقوله « لتكونوا شهداء على الناس » ويكون الرسول عليكم شهيدا « (١) » :

وقوله : (ومبشرا ونذيرا) ، أي : بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب .
وقوله : (وداعيا إلى الله بإذنه) ، أي : داعيا للخلق إلى عبادة ربه من أمره لك بذلك ، « وسراجا منيرا » ، أي : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس في إشراقها وإضاءتها ، لا يمحدها إلا ما ندد .

وقوله : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذنهم) ، أي : لا تطعهم وتسبح منهم في الذي يقولونه ، (ودع أذنهم) ، أي : اصنع وتجاوز عنهم ، وكمل أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفاية لهم ، ولما قال : (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ لَكَ لَكُمْ عَلَيْهِنَ مِنْ عِدَّةٍ
فَعِدَّتُهُنَّ فَتَمْسُوهُنَّ وَسِرَّهِنَّ سِرَّاكُمْ جَمِيعًا ﴿٥٥﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة ، منها : إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها .
وقد اختلفوا في النكاح : هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمل القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده ، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده ، لقوله : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) . وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل البخل بها .

وقوله : (المؤمنات) خرج غرض الغالب ، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكافية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وحل بن الحسن زين العابدين ، وجاعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، لأن الله تعالى قال : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ، فسبق النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا ملحق للشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى .

وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله إلى صحة الطلاق قبل النكاح ، فبأن إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهي طالق » .
فقدما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيها إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهي طالق » ، فقال مالك : لا يتعلق حتى يعين للمرأة . وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فلما الجمهور فاحتجوا على علم وقوع الطلاق بهذه الآية :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور المروزي ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا يونس - يعني ابن أبي إسحاق - سمعت آدم بن مولى خالد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : [إذا قال] : « كل امرأة أتزوجها فهي طالق » ، قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) : الآية .

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع ، عن مطر ، عن الحسن بن مسلم بن يساق ، عن ابن عباس قال : إنما قال الله تعالى : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح .

وهكذا روى محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال الله : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فلا طلاق قبل النكاح .

وقد ورد الحديث بذلك من عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » (١) ، رواه الإمام أحمد والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » ، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب : وهكذا روى ابن ماجه عن علي ، والمسيور بن غرمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا طلاق قبل نكاح » (٢) .

وقال : (ما لكم عليلين من عدة تحضونها) ، هذا أمر بجميع عليه بين العلاء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتلبس بفتروج في فورها من ثياب ، ولا يستثنى من هذا إلا للثوقي عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً .

وقوله : (فتعوهن وسرحنهن سراحيهنا) ، الفتة هاهنا أهم من أن تكون نصف الصداق للمسي ، أو الفتة الخاصة . إن لم يكن قد سعى لها ، قال الله تعالى : (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم) (٣) . وقال : (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومعهن على الموضع قلعه ، وعلى المفتر

قلعه ، مئاحا بالمعروف حقاً على المحسنين) (٤) .

وفي صحيح البخاري ، عن سهل بن سعد وأبي أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين ركاظيين (٥) .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتهما على قدر حصره ويسره ، وهو السراح الجميل (٦) .

(١) سنن الإمام أحمد : ١٨٩/٢ ، ١٩٠ . وسنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب : في الطلاق قبل النكاح . ومحنة الأحوص ، أبواب الطلاق ، باب : ما جاء : لا طلاق قبل النكاح . الحديث ١١٩١ : ٣٥٥/٤ . وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب : لا طلاق قبل النكاح . الحديث ٢٠٤٧ : ٦٦٠/١ .

(٢) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والبابه المتضمنين ، الحديث ٣٠٤٨ ، ٢٠٤٩ : ٦٦٠/١ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣٧ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٣٦ .

(٥) البخاري ، كتاب الطلاق ، باب : من طلق ، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق . ٥٣/٧ وانظر تفسير سورة البقرة : ٤٢٤/١ ، فقد تقدم الحديث هناك . ومفرحنا غريبه .

(٦) تفسير الطبري : ١٥/٢٢ .

يُنَاقِبُ إِلَيْهِ إِنَّا أَهْلُهَا لَكَ أَزْوَاجُكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَمْلَكَتُكَ يَمْلِكُهَا اللَّهُ عَلَيْكَ حَبِيبَاتٍ
عَمَلِكِ وَبَنَاتِ عَمَلِكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ مَوْلَاكِ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرُهُمْ هُنَّ لِتَصَوَّبَتْ حَقَّهَا
لِلنِّسْرِ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا يَرِىُّكَ اللَّهُ فِي السَّمْعِ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَلَّا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهوَرَهُنَّ ، وهي
الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مهَرُهُ لثلاثة اثني عشرة أوقية ونَشَأُ (١) وهو نصف أوقية ،
فالمجموع خمسة درهم : إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله أربعاً دينار ، وإلا صفة بنت
حبيبي فإنه أصطفاه من سبئي خبر ، ثم أعطها وجعل عتقها صداقها : وكذلك جويرية بنت الحارث للمصطلق ، أدى عنها
كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها (٢) - رضى الله عن جميعهن :

وقوله : (وما ملكك عينك عما إفاء الله عليك) ، أى : وأباح لك الترسى عما أحلت من المغانم ، وقد ملك صفة
وجويرية فأعتقها وتزوجها : وملك ربيعة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنة إبراهيم عليه السلام ، وكانتا من
السرائى رضى الله عنها :

وقوله : (وبَنَاتِ عَمَلِكِ وَبَنَاتِ عَمَلِكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ اللّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) هذا عَمَلُكَ وَسَطُ بَيْتِ الْإِفْرَاطِ
والضريط ، فإن النصرارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحسب
بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهم إفراط النصرارى ، فأباح بنت العم وللممة ، وبنت الخال
والخاله ، وتحريم ما قرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع :

وإنما قال : (وبَنَاتِ عَمَلِكِ وَبَنَاتِ عَمَلِكِ ، وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ) فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث
لنقصهن كقوله : (عن اليمين والشمال) (٣) ، (يخرجهم من الظلمات إلى النور) (٤) ، (وجعل الظلمات والنور) (٥) .
وله نظائر كثيرة .

وقوله : (اللّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) ، قال ابن حاتم رحمه الله :

(١) اللش : نصف الأوقية ، وهو مشرون درهماً ، والأوقية أربعون .

(٢) أخرجه ابن إسحاق بإسناده عن عائشة قالت : لما قسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبايا بني المصطلق ، وقسم
جويرية بنت الحارث في الجسم لثابت بن قيس بن الشباس ، أو لأبن عم له ، فكانت به عن نفسها . وذكر أنها ذهبت إلى رسول
الله تستبى حل كتابتها ، فقال لها الرسول : « أفضى منك وأتزوجك » قالت : نعم ، يا رسول الله . قال : قد طلت .
انظر سيرة ابن هشام : ٢٩٤/٢ - ٢٩٥ .

(٣) سورة النمل ، آية : ٤٨ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٧٥٧ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٠ .

حدثنا محمد بن حار بن الحارث الرازي ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، حدثنا إسرائيل ، عن السدي ، عن أبي صالح ، عن أم هانئ قالت : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتلرت إليه بعلوي ، ثم أنزل الله : (إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك بما آفاه الله عليك) وبنت حملك ، إلى قوله : (اللاتي هاجرن منك) ، قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن من هاجر معه ، كنت من الطلقاء :

ورواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن عبيد الله بن موسى ، به (١) .

ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح ، عنها بنتوه ،

ورواه الترمذي في جامعه (٢) : وهكذا قال أبو رزين وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة : وفي رواية عن

قتادة : (اللاتي هاجرن منك) ، أي : أسلمن : وقال الضحاك : قرأ ابن مسعود : (واللاتي هاجرن منك) .

وقوله : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها) ، أي : ويجل لك - ياها النبي - المرأة للمؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك : وهذه الآية تولى فيها شرطان ، فقولته تعالى إيجاباً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : (ولا يتبعكم نصحي ، إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم) (٣) ، وكتوله موسى : (يا قوم ، إنا كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ، إن كنتم مسلمين) (٤) : وقال هاهنا : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها) ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهد امرأة فلقبت : يا رسول الله ، إلى قدير وهبت نفسي لك : فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندي إلا إزار عري . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فافس شيئاً . فقال : لا أجد شيئاً . فقال : اتقى ولو خافنا من حديثنا فافس شيئاً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هل ملك من القرآن شيء ؟ قال : نعم ، سورة كلنا ، وسورة كلنا - يسور يسميها - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : زوجتكها بما ملك من القرآن (٥) .

أخرجه من حديث مالك (٦) .

(١) تفسير الطبري : ١٥/٢٢ .

(٢) تحفة الأوسفي ، تفسير سورة الأعراف ، الحديث ٣٢٦٦ : ٧٤/٩ - ٧٦ .

(٣) أخرجه الطبري هذه القصة : ١٦/٢٢ . وذكر بإسناده إلى الضحاك : « في حرف ابن مسعود » (واللاتي هاجرن منك) يعني بذلك كل فيه هاجر معه ، ليس من بنت الم والمسة ، ولا من بنت الخال والخاله . ورواه أن قراءة ابن مسعود بزيادة وار .

(٤) سورة هود ، آية : ٣٤ .

(٥) سورة يونس ، آية : ٨٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٣٦ .

(٧) البخاري ، كتاب النكاح ، باب « عرض المرأة نفسها » : ١٧/٧ . ومسلم ، كتاب النكاح ، باب « الصداق » وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حميد : ١٤٢/٤ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا مرحوم ، سمعت ثابتاً يقول : كنت مع أنس جالماً وعنده ابنة له ، قال : أنس : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبي الله ، هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل جامعاً . فقال : هي خير منك ، ورغب في النبي ، فزوّجته عليه نفسها (١) ،

انفرد بإخراجه البخاري ، من حديث مرحوم بن عبد العزيز ، عن ثابت البناني ، عن أنس ، به (٢) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن بكر ، حدثنا سنان بن ربيعة ، عن الحضرى ، عن أنس بن مالك : أن امرأة أتته النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ؟ ابنة لي وكذا ، ففكرت من حسنها وجملها ، فأثرتك بها ؟ فقال : قد قبلتها ، فلم تزل تحملها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشكك شيئاً قط ، فقال : لا حاجة لي في ابنتك (٣) ، لم يخرجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا ابن أبي الزواح - يعني عمه بن مسلم - عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : أتني وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم خولة بنت حكيم .

وقال ابن وهب ، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه : أن خولة بنت حكيم ابن الأرقص ، من بني سكم ، كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن ، عن هشام ، عن أبيه : كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة صالحة .

فيحتمل أن أم سلم هي خولة بنت حكيم ، أو هي امرأة أخرى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، وعن ابن أبي عمير ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة امرأة ، ست من فريش ، خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وثلاث من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتان من بني حنظلة ، ابن عامر ، ميمونة بنت الحارث ، وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وزينبة أم السكيت - امرأة من بني لؤي - بكر بن كلاب من القريظ (٤) ، وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجرج ، وهي التي استأذنت منه ، وزينبة بنت جحش الأسدية ، والسبيتان صفية بنت حني بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن الصلتان الخزاعية .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) ، قال : هي ميمونة بنت الحارث .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٦٨/٣ .

(٢) البخاري ، في الكتاب والباب المضمين : ١٩/٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٥٥/٣ .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٢٨٢ .

فيه انقطاع . هذا مرسل ، والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية ، وقد ماتت عند النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، فلهذا أحل .

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن من النبي صلى الله عليه وسلم كثير ، كما قال البخاري ، حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو أسامة قال : هشام بن عروة حدثنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كنت أخاف من (١) اللاتي وهبن أنفسهن من النبي صلى الله عليه وسلم وأقول : أتعب امرأة نفسها ؟ قلما أنزل الله : (رجى من تشاء منها ، وتوكل على الله من تشاء ، ومن ابتليت من عزلت فلا جناح عليك) ، قلت : ما أرى زينك إلا يسارع في هوائك (٢) .

ولله قال ابن حاتم : حدثنا هل بن الحسن ، حدثنا محمد بن منصور الجني ، حدثنا يونس بن بكير ، عن هشبة بن الأبره ، عن مسدد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له ، ورواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن يونس بن بكير (٣) : أى : إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له وخصوصاً به ، لأنه مردود إلى مغيثه ، كما قاله الله تعالى : (إن أراءه النبي أن يستفكها) ، أى : إن اختار ذلك .

وقوله : (خالصة لك من دون المؤمنين) ، قال عكرمة : أى لا تحمل الموهوبة لفردك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحمل له حتى يطعها شيئاً ، وكلما قال مجاهد والشعبي وغيرهما :

أى : إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَرِّوَجَ بنته وأشق ما فوضت ، فحكم لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهر مثلها لما توفي عنها زوجها ، والموت والخنول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر للثل في المفوضة لغير النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما هو عليه السلام فإنه لا يجبه عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها ، ولهذا قال قتادة في قوله : (خالصة لك من دون المؤمنين) ، يقول : ليس لأمرأتهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي صلى الله عليه وسلم :

(وقوله تعالى : (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم)) ، قال ابن حاتم ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وابن جرير (٤) في قوله : (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) ، أى : من حَضَرهم في أربع نسوة حرائر وما شاهدوا من الإمام ، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك في ذلك ، فلم توجب عليك شيئاً منه ، (لكن لا يكون عليك حرج ، وكان الله خفواً رحيماً) .

(١) في الصحيح : «هل اللاتي» .

(٢) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٧/٦ .

(٣) تفسير الطبري : ١٧/٢٢ .

(٤) تفسير الطبري : ١٧/٢٢ - ١٨ .

﴿ تَرْجِيْ مِنْ نِّسَاءِ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِيْ اِلَيْكَ مِنْ نِّسَاءٍ ۚ وَمِنْ اَبْنَيْتٍ مِّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ اَدْنٰى اَلَّا تَقْرَءِيْهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ وَرِضَمَيْنِ مَّا تَتَذَكَّرْنَ ۚ وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ۝۱۱ ﴾

قال الإمام احمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها : أنها كانت تُعَجِّرُ النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ألا تصحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأزول الله عز وجل (ترجى من نساء منهن وتؤوى إليك من نساء ومن ابنتين ممن عزلت فلا جناح عليك) ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك في هؤلاء (١) .

وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث [أبي] أسامة ، عن هشام بن عروة ، فكل هذا على أن المراد بقوله (ترجى) ، أى : تؤخر (من نساء منهن) ، أى : من الواهبات ، (وتؤوى إليك من نساء) ، أى : من شئت قبلها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عدت فيها فأؤيتها ، ولهذا قال : (ومن ابنتين ممن عزلت فلا جناح عليك) ، قال حارث الشيباني قوله (ترجى من نساء منهن وتؤوى إليك من نساء) كن لسان وهب أنفسهن لتبني صلى الله عليه وسلم ، فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يتكهن بهن ، منهن أم شريك .

وقال آخرون : بل المراد بقوله (ترجى من نساء منهن وتؤوى إليك من نساء) ، أى : من أزواجك ، لاحتج عليك أن ترك التمسك هن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجمع من شئت ، وتترك من شئت .

مكنا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقاعدة ، وأبي رزين ، وحيد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم : ومع هذا كان صلوات الله وسلامه عليه يقسم هن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه صلوات الله وسلامه عليه واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

وقال البخاري : حدثنا حبان بن موسى ، حدثنا عبد الله - هو ابن المبارك - أخبرنا عاصم الأحول ، عن معاوية عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن تولت هذه الآية (ترجى من نساء منهن وتؤوى إليك من نساء ، ومن ابنتين ممن عزلت فلا جناح عليك) ، فقلت لها : ما كنت تقولين؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلى فاني لا أريد يا رسول الله أن تؤخر عليك أحدا (٢) .

فهذا الحديث منها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم ، وحديثها الأول يقتضي أن الآية تولت في الواهبات ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده ، أنه غير عين إيهن إله شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذي اختاره حسن جيد قوى ، وفيه جمع بين الأحاديث ، ولهذا قال تعالى : (ذلك أدنى أن تقر أمهتهن ، ولا يحزنن ويرضين بما آتيتن كلهن) ، أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم هن اختيارا منك لأنه على سبيل الوجوب وفرن بذلك واستعثرن به وحملن جميلك في ذلك ، واعتزفن عنك عليهن في قسمك هن وتسويك يتهن وإنصافك لهن وعذلك فيهن .

(١) مسند الإمام أحمد ١ : ١٥٨٧ .

(٢) البخاري : تفسير سورة الاحزاب ١ : ١٤٧ - ١٤٨ .

وقوله : « والله يعلم ما في قلوبكم » ، أي : من الليل إلى بضعهم دون بعض ، مما لا يمكن دفعه ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبي قلابة ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نفسه فيقول : اللهم هذا لي في أمك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملاك (١) ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث حماد بن سلمة - وزاد أبو داود بعد قوله : فلا تلمني فيما تملك ولا أملاك - يعني القلب : واستاده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات (٢) : ولهذا عقب ذلك بقوله : (وكان الله عليماً) ، أي : بشئائير السرائر (عليماً) ، أي : يعلم ويقرر :

لَيْسَ لَكَ نِسَاءٌ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ مِنْهُنَّ مِنْ أَنْ تَزُوجَ وَلَوْ أَجَبْتَ حَسَنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى شَيْءٍ حَكِيمًا مُبِينًا

ذكر غير واحد من العلماء - كآبن عباس ، ومجاهد ، والفسحاك ، وقناة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم - أن هذه الآية تزلت مجازة لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ورضاً عنهم ، على حسن صنيعهم في اختيارهن الله ورسوله وللدار الآخرة ، لما عيّن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في الآية . فلما اخترن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان جوازهن أن يقصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبهن حسنهن إلا الإماء والسراويل فلا حرج عليه فيهن : ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزويج تكون للرسول صلى الله عليه وسلم عليهن .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسلم الله له النساء :

ورواه أيضاً من حديث ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن حمير ، عن عائشة : ورواه الترمذي (٣) والنسائي في سننهما وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شعبة ، حدثني عمر بن أبي بكر حدثني لغيرة بن عبد الرحمن المزني ، عن أبي النضر مولى عمر بن عبد الله ، عن عبد الله بن وهب بن زمة ، عن أم سلمة أنها قالت : لم يعط رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسلم الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ، إلا ذات عرم ، وذلك قول الله عز وجل (رجعي من مقام منهن وتزوي إليك من نساء) .

فجعلت هذه ناسطة التي بعدها في التلاوة ، كآبى هذه الوفاة في البقرة ، الأولى ناسطة التي بعدها ، والله أعلم .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٤٤/٦ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب النكاح ، باب « في القسم بين النساء » ، وثقة الأحوص ، أبواب النكاح ، باب « ما جاء في التسمية بين الشرائع » . الحديث ١١٤٩ : ٢٩٤/٤ . والنسائي ، كتاب عشرة النساء ، باب « ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض » : ٦٢/٧ - ٦٤ . وسنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « القسم بين النساء » ، الحديث ١٩٧١ : ٩٢٤/١ .

(٣) ثقة الأحوص ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث ٣٢٦٩ : ٧٨/٩ - ٧٩ .

وقال آخرون : بل معنى الآية : (لا يحل لك النساء من بعد) ، أى : من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللتنا لك من نساءك اللاتي آتيت أجورهن ومالكنك عينتك ، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواحدة وماسوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، هذا مروى عن أبي بن كعب ، وعجماد ، وعكرمة ، والشعك - فى رواية - وأبي رزين - فى رواية عنه - وأبي صالح ، والحسن ، وقادة - فى رواية - والسلى ، وغيرهم .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن داود بن أبي هند ، حدثني محمد بن أبي موسى ، عن زياد - رجل من الأنصار - قال : قلت لأبي بن كعب : رأيت لو أن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - توفين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما عنكم من ذلك ؟ قال : قلت : قوله : (لا يحل لك النساء من بعد) ، فقال : إنما أحل الله له ضربا من النساء ، فقال : (يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك) إلى قوله : (إن وهبت نفسها للنبي) . ثم قيل له : (لا يحل لك النساء من بعد) (١) :

ورواه عبد الله بن أحمد بن محمد بن طارق ، عن داود ، به . وروى الترمذى ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصناف النساء ، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله : (لا يحل لك النساء من بعد) ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت عينتك ، فأحل الله فتياتكم المؤمنات (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقاله : (يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ومالكنك عينتك) إلى قوله (خالصة لك من دون المؤمنين) ، وحرم ماسوى ذلك من أصناف النساء (٢) .

وقال عجماد : (لا يحل لك النساء من بعد) ، أى : من بعد ما مضى لك ، للإسلمة والهجيرة والانصراف ولا كفارة (٣) ، وقال أبو صالح : (لا يحل لك النساء من بعد) ، أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا غريبة ، ويتزوج بعد من نساء تامة ، وما شاء من بنات العم والعمة ، والخال والخالة ، إن شاء ثلاثا (٤) .

وقال عكرمة : (لا يحل لك النساء من بعد) ، أى : إلى سعى الله :

واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفى النساء اللاتي فى عصمته وكن تجمعا ، وهذا الذى قاله جيد ، ولعله مراد كثير من حكيتا عنه من السلف ، فإن كثيرا منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا مناقلة ، والله أعلم .

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وجبه يومها لمائنة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله : (لا يحل لك النساء من بعد) ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ، وهذا الذى قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بن عبد اللواتي فى عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يملك ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استئذانك ، والله أعلم .

(١) تفسير الطبرى : ٢١/٢٢ .

(٢) تحفة الأوصاف : تفسير سورة الاحزاب ، المصنف ٣٢٦٨ : ٧٧/٩ - ٧٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٢/٢٢ .

فأما قضية سورة في الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - وهي سبب نزول قوله تعالى : (وإن امرأة غفلت من بعلها فسوزا أو إمرأياً ، فلا جناح عليهما : أن يصلحا بينهما صلحاً (١)) الآية .

وأما قضية حفصة قروى أبو داود والتساقق وابن ماجه (٢) وابن جبان في صحيحه ، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن صالح بن صالح بن حثي ، عن سلمة بن كهيل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها ، وهذا إسناد قوى :

وقال الحافظ أبو يعل : حدثنا أبو كريبه ، حدثنا يونس بن بكير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلقك ؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجل ، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لأكلمك أبداً ، ورجاله على شرط الصحيحين .

وقوله : (ولا تبدل بين من أزوج) ولو أصحبك حسنهن ، فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

وقد روى الحافظ أبو بكر الزوار حديثاً مناسباً ذكره هاهنا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن نصر ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن إسحاق بن عبد الله الترمذي ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : كان البذل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادئني امرأتك وأبادئك بأمرأتك ، أي : تنزل لي من امرأتك ، وأنزل لك من امرأتك ، فأذنك الله ، (ولأن تبدل بين من أزوج ، ثم أصحبك حسنهن) ، قال : ففضل حينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين الاستئذان ؟ قال : يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل من منكر منذ أفرقت ، ثم قال : من هذه الحصة إله إلى جنبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة أم المؤمنين ، قال : ألا أنزل لك على أحسن خلق ؟ قال : يا حينة إن الله قد حرم ذلك ، فلما أن خرج قالت عائشة : من هنا ؟ قال : هذا أحسن مطاع ، وإنه على ما قرين لسيد قومه .

ثم قال الزوار : إسحاق بن عبد الله : لئن لم يخطب جلاً ، وإنما ذكرناه لألأم لحفظه إلا من هذا الوجه ، وبينا الملة فيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِنْ طَعَمَ غَيْرَ نَظِيرِينَ، إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِنَّمَا طَعِمْتُمْ فَأَنْتُمْ وَأُولَاؤُكُمْ فَاسْتَعِينُوا بِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكَ كَلَبَ يُؤْذِي، أَلَيْسَ قَبَسْتَحِي مِنْكُمْ وَأَلَّا لَا يَسْتَحِي مِنْ أَحَدٍ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مِنْهُنَّ فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُسَبِّحُوا بِأَرْجُلِكُمْ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْإِبْرَةِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝

إِنْ يُدْأُوا شَيْئًا أَوْ غَطُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما ثبت ذلك في الصحيح عنه أنه قال : وافقت ربح في ثلاث قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟

(١) سورة النساء : آية ١٢٨ . والنظر فيما تقدم : ٣٧٩/٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب : في المراجعة ، وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، الحديث ٢٥١٦ : ١/١٠٠٠ .

فأقول الله : (واختلوا من مقام إبراهيم مصل) : وقلت : يا رسول الله ، إن تسامك يدخل عليهن البر والقاجر ، فلو حجبتهن ؟
فأقول الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا تعالين عليه في النيرة : (حسب ربه إن طلقكن أن يبدلهن أزواجاً خيراً منهكن) ، فتركت كذلك (١) .

وفي رواية لحسن ذكر أسارى بدر ، وهي قضية رابعة (٢) .

وقد قال البخاري : حدثنا مسدد ، عن يحيى ، عن حميد ، عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والقاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأقول الله آية الحجاب (٣) .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزین بنت جحش ، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقدي وغيرهما .

وزعم أبو حنيفة معمر بن المنفي وحكيمة بن خياط : أن ذلك كان في سنة ثلاث ، فالحق أعلم .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الله الركني ، حدثنا معتمر بن سليمان ، سمعت أبي ، حدثنا أبو مجلز ، عن أنس ابن مالك - رضى الله عنه - قال : لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ، دعا القوم فجلسوا ثم جلسوا يتحدثون ، فإنا هو [كانه] (٤) يتبعنا لقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام [قام] (٤) من قام ، وقد ثلثة نفر . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليخيل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقوا (٥) فبحثت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فأتني [الحجاب] (٤) بيني وبينه ، فأقول الله (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) الآية (٦) .

وقد رواه أيضاً في موضع آخر ، وسلم (٧) والساق ، من طرق ، عن معتمر بن سليمان ، به : ثم رواه البخاري مفرداً به من حديث أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه - [بنحوه] (٨) . ثم قال : حدثنا أبو يعمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس بن مالك قال : بئس [حلي] النبي - صلى الله عليه وسلم - [زينب بنت جحش] يميز ولحم ، فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجىء قوم لياكلون ويخرجون ، ثم يجىء قوم لياكلون ويخرجون . فحدث حتى ما أجده أحداً أدعوه ، فقلت : يا نبي الله ، ما أجده أحداً أدعوه . قال : ارفعوا طعامكم . وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : السلام عليكم - أهل البيت - ورحمة الله وبركاته . قالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ؟ فتعترى (٩) .

(١) البخاري ، كتاب الصلاة : ١١١/١ . وتفسير سورة البقرة : ٢٤/٦ .

(٢) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب : من فضائل عمر بن الخطاب : ١١٥/٧ - ١١٦ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٨/٦ .

(٤) ما بين القوسين عن البخاري .

(٥) في المخطوطة : « فانطلقوا » . والمثبت عن البخاري .

(٦) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٨/٦ - ١٤٩ .

(٧) مسلم ، كتاب النكاح ، باب : « زواج زينب بنت جحش » : ١٤٩/٤ - ١٥٠ .

(٨) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٤٩/٦ .

(٩) أي : تلج .

حُجِرَ نَسَائِهِ كُلَّهُنَّ ، يَقُولُ لِمَنْ كَمَا يَقُولُ لِمَنْشَةِ ، وَيَقَالُ لَهُ كَمَا قَالَتْ حَائِشَةُ : ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَافْزَحَ رَهْطَ ثَلَاثَةٍ [فِي الْبَيْتِ] يَتَحَدَّثُونَ : وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدِيدَ الْحَيَاءِ ، فَخَرَجَ مُنْتَظِلًا نَحْرَ حُجَيْرَةِ حَائِشَةَ ، لَمَّا أَدْرَى أَخْبَرَتْهُ أَنَّ لُحْبَ أَنْ يَقُومَ خَرَجُوا ؟ فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أَسْكِنَتِ (١) الْبَابِ دَاخِلَهُ ، وَأُخْرَى خَارِجَهُ ، أَوْخَعِيَ السَّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ (٢) .

انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب [السنة] ، سوى التستاق في اليوم واليلة ، من حديث عبد الوارث .
ثم رَوَاهُ عَنْ إِسْحَاقَ - هُوَ ابْنُ مَسْرُورٍ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرِ السَّهْمِيِّ ، عَنْ حَمِيدٍ ، عَنْ أَنَسٍ ، بِنَحْوِ ذَلِكَ ، وَقَالَ : وَرِجْلَانِ (٣) انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنْ أَنَسٍ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمُظَفَّرُ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، عَنْ الْجَدِّ - أَبِي عُمَانَ الْيَشْكُرِي - عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : أَمَرَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْضَ نَسَائِهِ ، فَصَنَعَتْ أُمُّ سَلِيمٍ حِسَامًا ثُمَّ وَضَعَتْهُ فِي تَوْرٍ (٤) ، فَقَالَتْ : أَذْهَبَ إِلَيَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْرَبَهُ مِنِّي السَّلَامَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ هَذَا مَنَّا لَمْ يَلَيْزَ قَلِيلًا - قَالَ أَنَسٌ : وَالتَّاسِ . يَوْمَئِذٍ فِي جَهَنَّمَ ، فَجِئْتُ بِهِ قَتَلْتُ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، بَعَثْتَ إِلَيَّ أُمَّ سَلِيمٍ إِلَيْكَ ، وَهِيَ تَقْرُوكَ السَّلَامَ ، وَتَقُولُ : وَخَيْرُهُ أَنْ هَذَا مَنَّا لَمْ يَلَيْزَ قَلِيلًا ، فَظَلَّ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : وَضَعَهُ فَوَضَعْتُهُ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبَ قَادِعٌ لِي فَلَانًا وَفَلَانًا ، وَسَتِي وَبِغَالَا كَثِيرًا ، وَقَالَ : وَمَنْ لَقِيتُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . فَدَعَوْتُ مَنْ قَالَ لِي ، وَمَنْ لَقِيتُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَجِئْتُ وَالْهَيْتَ وَالْمُسْتَعْتَبَةَ (٥) وَالْحَجْرَةَ مَكَلَّتِي مِنَ النَّاسِ - قَتَلْتُ : يَا أَبَا عُمَانَ كَمْ كَانُوا ؟ قَالَ : كَانُوا زُهَاهُ ثَلَاثُمِائَةٍ - قَالَ أَنَسٌ : فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : جِئْتُ بِهِ . فَجِئْتُ بِهِ إِلَيْهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ ، وَدَعَا وَقَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ قَالَ : لَيْسَ مَعَكُمْ حُجْرَةٌ حُجْرَةٌ ، وَلَيْسَ مَعَكُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مَعًا إِلَيْهِ . فَجَعَلُوا يَسْمُونَ وَيَأْكُلُونَ ، حَتَّى أَكَلُوا كُلَّهُمْ . فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ارْجِعْ . قَالَ : فَجِئْتُ فَأَخْلَعْتُ التَّوْرَ فَمَا أَدْرَى أَوْ حِينَ وَضَعْتُ أَكْثَرَ أَمْ حِينَ أَخْلَعْتُ ؟ قَالَ : وَتَجَلَّيْتُ وَجَالَ يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَزَوْجُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَاقِينُ دَخَلَ بِهَا مَعَهُمْ مَوْلِيَةً وَجْهَهَا إِلَى الْخِطَابِ ، فَأَطَاعُوا الْخِطَابَ ، فَشَقُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً - وَلَوْ أَعْلَمُوا كَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَزِينًا - فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ فَمَسَّ عَلَى حُجْرَتِهِ وَحَلَّ نَسَائِهِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ جَاءَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ تَجَلَّيْتُ بِهَا ، ابْتَدَرُوا الْبَابَ فَخَرَجُوا ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَرْخَى السَّرَّ ، وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَأَنَّى الْحَجْرَةَ ، فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ سِرًّا ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُدْعَى لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرٍ مِنْهُ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا) إِلَى قَوْلِهِ : (بِكُلِّ فَيْءٍ عَلِيمًا) . قَالَ أَنَسٌ : فَهَرَأْنِ عَلَى قَبْلِ النَّاسِ ، فَأَنَا أُحَدِّثُ النَّاسَ مِنْ عَهْدِي .

(١) الْأَسْكِنَةُ : عَشِيَّةُ الْبَابِ الَّتِي يَوْمًا عَلَيْهَا .

(٢) الْبُخَارِيُّ : تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ : ١٤٩/٦ .

(٣) الْبُخَارِيُّ : تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ : ١٤٩/٦ - ١٥٠ .

(٤) التَّوْرُ : إِذَا مِنْ عِصَا أَوْ سِجَارَةٍ .

(٥) السِّفَةُ : مَوْضِعٌ مَظْلَلٌ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ . وَأَمَّا السِّفَةُ : فَقَرَأَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ يَسْكُنُهُ ، فَكَانُوا يَأْوُدُنْ إِلَيْهِ .

وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعاً ، عن قتبية ، عن جعفر بن سليمان ، به . وقال الترمذي : حسن صحيح (١) وعلمته البخاري في كتاب التكاثر فقال .

وقال إبراهيم بن طهمان ، عن الجعد أبي عثمان ، عن أنس ، فذكر نحوه (٢) .

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الجعد ، به (٣) . وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك ، عن شريك ، عن بيان بن بشر ، عن أنس ، بنحوه

وروى البخاري والترمذي ، من طريقين آخرين ، عن يتيان بن بشر الأحمسي الكوفي ، عن أنس ، بنحوه (٤)

ورواه ابن أبي حاتم أيضاً ، من حديث أبي نضرة العبدى ، عن أنس بن مالك ، بنحوه . ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ، ومن حديث الزهري ، عن أنس ، بنحوه (٥) ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا جبر وهاشم بن القاسم قالوا : حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب فاذكريها على . قال : فانطلق زيد حتى أتاه ، قال : وهي تُحْسَنُ عيبتها ، فلما رأيتها عظمتم في صدرى ... وذكر تمام الحديث كما قلناه عند قوله : (فلما قضى زيد منها وطراً) وزاد في آخره بعد قوله : وَوَعظَ القوم بما وعظوا به . قال هاشم في حديثه (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ، ولكن إذا دعيت فادخلوا) ، فلما طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق (٦) .

وقد أخرجه مسلم والنسائي ، من حديث (سليمان بن المغيرة) (٧) به ،

وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبد الرحمن - ابن أخي ابن وهب - حدثني عمي (٨) عبد الله بن وهب - حدثني يونس عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم كنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناجع - وهو صعيد أفيح (٩) - وكان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نسائك . فلم يكن رسول الله

(١) مسلم ، كتاب التكاثر ، باب زواج زينب بنت جحش : ١٥٠/٤ - ١٥١ . ونسخة الأحرش ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث : ٣٢٧٢ : ٨٢/٩ - ٨٤ . والنسائي ، كتاب التكاثر ، باب « الحدية لمن حرس » : ١٣٦/٦ - ١٣٧ .

(٢) البخاري ، كتاب التكاثر ، باب « الحدية للمروس » : ٢٨/٧ - ٢٩ .

(٣) مسلم ، كتاب التكاثر ، باب « زواج زينب بنت جحش ... » : ١٥١/٤ - ١٥٢ .

(٤) نسخة الأحرش ، تفسير سورة الأحزاب ، الحديث : ٣٢٧٠ : ٧٩/٩ - ٨١ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧/٢٢ - ٢٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٩٥/٣ - ١٩٦ .

(٧) في المسبوقة : « من حديث جعفر بن سليمان . وهو مجهول . والنسائي ما أثبتناه . وانظر صحيح مسلم ، كتاب التكاثر ، باب « زواج زينب بنت جحش » : ١٤٨/٤ - ١٤٩ .

(٨) في تفسير الطبري : « حدثني أحمد بن عبد الرحمن قال : أتى عمرو بن عبد الله بن وهب . وهو غلط ، صوابه ما في تفسير ابن كثير . انظر الخلاصة ، وتفسير سورة التور : ٣٣/٦ .

(٩) أي : واسع .

صلى الله عليه وسلم ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة . حرصاً أن يتزل الحجاب ، قالت : فأنزل الله الحجاب (١) .

هكذا وقع في هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم ، من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها - قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسميمة لا تخفى على من يعرفها ، فرأها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ، أما والله ما تخشعين علينا ، فانظري كيف تخرجين ؟ . قالت : فانكفأت راجعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيى ، وإنه ليمشى ، وفي يده صرّق (٢) ، فدخلت فقالت : يا رسول الله ، إنى خرجت لبعض حاجتى ، فقال لي امر كذا وكذا . قالت : فأوحى الله إليّ ، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ، ما وضعه . فقال : إنه قد أذنّ لكن أن تخرجن لحاجتكن (٣) . لفظ البخارى .

بقوله : (لا تدخلوا بيوت النبي) حظّر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى صار هذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والنحول على النساء » (٤) . ثم استثنى من ذلك فقال : (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه) .

قال مجاهد وقادة وغيرهما : أى غير محتجبين بنفسه واستواءه ، أى : لا تقربوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء عرفتم النحول ، فإن هذا يكرهه الله ويعلمه . وهذا دليل على تحريم التطليل ، وهو الذى تسميه العرب الضيفين (٥) ، وقد صنف لطلبه البداوى في ذلك كتابا في ذم التلطين ، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

ثم قال تعالى : (ولكن إذا دعيت فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا) . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دعا أحدكم أخاه فكليجيب ، حرصاً كان أو غيره (٦) ، وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضاً ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كراع (٧) لقبلت (٨) . فإذا فرغتم من الذى دُعيت إليه فمضوا من أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » ولهذا قال : (ولا مستأنسين

(١) تفسير الطبرى : ٢٨/٢٢ - ٢٩ .

(٢) البرق - ينتع فسكون - : العلم إذا أبله عنه مظن العلم ، وجسمه : عراق ، بضم العين . يقال : هربت العلم ، واضرته ، وترعته : إذا أخذت منه العلم بأستائك .

(٣) البخارى : تفسير سورة الأحزاب : ١٥٠/٦ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب : إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان : ٦/٧ . ومسنّد الإمام أحمد : ٥٩/٦ .

(٤) تحفة الأخرى : أبواب الرضاخ ، باب : ما جاء من كراهية النحول على المضيفات ، الحديث ١١٨١ : ٣٣٤/٤ . ومسنّد الإمام أحمد من حقبة بن حنبل : ١٤٩/٤ ، ١٥٣ .

(٥) الضيفين : الذى يسمّى مع الضيف .

(٦) مسلم ، كتاب النكاح ، باب : الأثر بإجابة الداعي إلى دعوة : ١٥٢/٤ .

(٧) الكراع : ما دون الركبة من الساق .

(٨) هذا التقدير أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب : من أجاب إلى كراع : ٣٢/٧ . والإمام أحمد عن أبى هريرة :

٤٢٤/٢ ، ٤٢٩ ، ٤٨١ ، ٥١٢ .

الحديث) ، أى : كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين أسرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتى شقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم) .

وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهائهم عن ذلك من شدة حيايه عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ، ولهذا قال : (والله لا يستحي من الحق) ، أى : ولهذا نهاكم عن ذلك ووجّركم عنه .

ثم قال تعالى : (وإذا سألوه من متاعا فأسالوه من ورامحجاب) ، أى : وكما نهيكم عن اللخوع عليهم ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكناية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألن حاجة إلا من ورامحجاب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن مسمر ، عن موسى بن أبي بكر ، عن مجاهد ، عن عائشة قالت : كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيناً في قميص (١) فرعر فدعاه ، فأصابت إصبعه إصبعى ، فقال : حسّ (٢) - أو - أوّه - لو أطلع فيكن ما رأيتك حين : فترك الحجاب ،

(ذلكم أطهر قلوبكم وقلوبهن) ، أى : لهذا الذى أمركم به وشرحه لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن ، حدثنا محمد بن أبي حماد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) ، قال : نزلت في رجل همّ أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم قال رجل لسفيان : أئمة عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك .

وكذا قال مقاتل بن حيان ، وحيد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدي أن الذى حرم على ذلك طلعة بن عبيد الله رضى الله عنه ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من نوى منها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم : واحتفلوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يعمل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذها : هل دخلت هذه في عموم قوله (من بعده) أم لا ؟ فأما من تزويجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما تعلم في حلها لغيره - والحالة هذه - أزواجا : والله أعلم .

(١) الحيس - يفتح فسكون - هو الطعام المختل من التروايلين الخبث والسنن . وقد يجعل موضع البين التيقن ، والثبوت .
الفتح القسيم .

(٢) في المخطوطة : غير . وفي الطبقات السابقة : حسن . . والثبت عن التباية لابن الأثير : حسن - بضم السين مشددة - : كلمة يقولها الإنسان إذا أسأبه ما مضى وأسرته طفلة : كالجمرة والقمرة . وقد تقلعت هذه الكلمة في حديث آخر .
النفث ١٧٢/٢ .

وقد أخبر أنه سبحانه وتعالى يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كبيرًا • وسبحوه بكرة وأصيلًا • هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيًا) (١) ، وقال تعالى : (وبشر الصابرين : الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) (٢) . وفي الحديث : « إن الله وملائكته يصلون على مسابين الصفوف » (٣) . وفي الحديث الآخر : « اللهم ، صل على آل أبي أوفى » (٤) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة جابر - وقد سأله أن يصلي عليها وعلى زوجها - « صلى الله عليك ، وعلى زوجك » (٥) .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد ، حدثنا أبي ، عن مسهر ، عن الحكم ، عن ابن أبي ليلى ، عن كعب بن حجرة قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ فقال : قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد : اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم قال : سمعت ابن أبي ليلى قال : لقيني كعب بن حجرة فقال : ألا ألهدي لك هدية ؟ فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو عرفنا - كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد : اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (٧) .

(١) سورة الأحزاب ، الآيات : ٤١ - ٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) من أبي دارود ، كتاب الصلاة ، باب « من يستحب أن يلى الإمام في الصف وكرامته التأخر » . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « فضل صيغة الصف » ، الحديث : ١٠٠٠ : ٣٢١/١ .

(٤) البخاري ، كتاب الشعرات ، باب « هل يصل على غير النبي صلى الله عليه وسلم » : ٩٥/٨ - ٩٦ . وسنن أبي دارود ، كتاب الزكاة ، باب « دعاء المصدق لأهل الصدقة » . والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب « صلاة الإمام على صاحب الصدقة » : ٣١/٥ . وابن ماجه ، كتاب الزكاة ، باب « ما يقال عند إخراج الزكاة » ، الحديث : ١٧٩٦ : ٥٧٢/١ . ومسنن الإمام أحمد من حديث أبي أوفى : ٣٥٤/٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٥) أخرجه الترمذي ، انظر المقدمة ، باب « ما أكرم به النبي صلى الله عليه وسلم في تركه العلماء » ، الحديث : ٢٨/١ : ٢٩ .

(٦) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٥١/٦ ، وما بين الأقواس .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢٤١/٤ .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم ، من طرق متعددة ، عن الحكم - وهو ابن حنيفة - زاد البخاري : وحده الله ابن عيسى ، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، فذكره (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا هشام بن بشير ، عن يزيد بن أبي زياد ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن كعب بن حنيفة قال : لما نزلت : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً) قال : قلنا : يا رسول الله : قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » ، إنك حميد مجيد : وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد : وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول : « وعلينا معهم »

ورواه الترمذي بهذه الزيادة (٢)

ومعنى قولهم : أما السلام عليك فقد عرفناه ، هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

حديث آخر ، قال البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، عن ابن المدا ، عن عبد الله بن غناب ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام (٣) ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم : وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم . (قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ») (٤) .

حدثنا إبراهيم بن حمزة ، حدثنا أبو عبد الله الحارثي والد كوكبي ، عن يزيد - يعني ابن المدا - قال : « كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم »

وأخرجه النسائي وابن ماجه ، من حديث ابن المدا (٥) به

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن ، مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه ، عن عمرو بن سفيان أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : اللهم ، صل على محمد

(١) البخاري ، تفسير سورة الاحزاب : ١٥١/٦ ، وكتاب التبرعات ، باب « الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم » : ٩٥/٨ . وكتاب الاضياء ، باب قول الله تبارك (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) : ١٧٨/٤ . ودرهم ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم » : ١٦/٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم به الشهد » . ومختصر الاصول ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء في صفة الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٨٢ : ٦٠٣ - ٦٠٤ . والنسائي ، كتاب السجود ، باب « كيف الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم » : ٤٧٣ - ٤٨٠ . وابن ماجه ، كتاب الإثنية ، باب « الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٤ : ٢٩٣/١ .

(٢) مختصر الاصول ، أبواب المتكلم : ٦٠٤/٢ .

(٣) في الصحيح : « هذا التسليم » .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الاحزاب : ١٥١/٦ . وما بين القوسين منه .

(٥) النسائي ، كتاب الصلاة : ٤٩/٣ . وابن ماجه ، كتاب الإثنية ، باب « الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم » : ٩٠٣ : ٢٩٣/١ .

وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشامي وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان : وإليه ذهب الشافعي ، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضا ، وإليه ذهب أحمد أنبأنا فيما حكاه عنه أبو زوزة النمشي ، به . وبه قال إسماعيل بن راهويه ، والفتيحة الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي . (١) ، رحمهم الله ، حتى إن بعض أئمة الخطابة أوجب أن يقال في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كما علمهم أن يقولوا لا سالوه ، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآن ممن حكاه البند كيجي (٢) وسكيم الرازي (٣) ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي (٤) ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الفرائي قولا من الشافعي . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه ، وحكوا الإجماع على خلافه ، ولقول يوجيه ظواهر الحديث (٥) ، والله أعلم :

والفرس أن الشافعي - رحمه الله - لقوله يوجب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة - سكن وتختف كما تقدم ، لله الحمد والمئة ، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديما ولا حديثا ، والله أعلم .

ومما يزيد ذلك الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي - وصححه - والنسائي وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحهما ، من رواية حيوة بن شريح المصري ، عن أبي هانئ حميد بن هانئ ، عن عمرو بن مالك أبي علي الجبتي ، عن فضالة بن عبيد - رضى الله عنه - قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته ، لم يجد الله ولم يصل على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عَجِل هذا ! ثم دعاه فقال له ولغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله عز وجل والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي ثم ليح 3 بعد ما شاء (٦) .

وكذا الحديث الذي رواه ابن ماجه ، من رواية عبد الله بن لهيعة عن حبان بن سهل بن سعد الساعدي ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ، ولا صلاة لمن لم يصل على النبي ، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار (٧) .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن المواز الإسكندراني المالكي ، صاحب التصانيف ، أغل من أصعب بين الفرج .
وعبد الله بن عبد الحكم ، وانتهت إليه وثلة الملعب ، وإليه كان المشي في تفرع المسائل . توفي سنة ٢٨١ هـ . انظر المعبر للذهبي : ٦٦/٢ .

(٢) هو أبو القاسم تميم بن أحمد بن أحمد البندنيجي الأزجي ، محدث بغداد . توفي سنة ٥٩٧ هـ . المعبر للذهبي : ٢٩٧/٤ .
(٣) هو أبو الفتح سالم بن أبي جبر الرازي الشافعي المفسر ، صاحب التصانيف والتفسير . توفي في صفر سنة ٤٨٧ هـ ، المعبر : ٢١٢/٣ .

(٤) هو شيخ الشافعية أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي النابلسي ، كان محدثا حافظا زاهدا . توفي يوم خلوه سنة ٤٩٠ هـ . المعبر للذهبي : ٣٢٩/٣ .

(٥) في المخطوطة : والقول يوجيه ظهور . واكتفت عن الكلمات السابقة .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٨/٦ ، وسنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب الدعاء . ونسختة الأسوخي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٤٦ : ١٠/٢٥٠ - ٤٥١ .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب وما جاء في التسمية في الوضوء . الحديث ٤٥٠ : ١٠/١٤٠ .

ولكن عبد المهيمن هذا متروك : وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أبي بن عباس» ، ولكن في ذلك نظر ، وإنما يعرف من رواية عبد المهيمن ، والله أعلم :

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل ، عن أبي داود الأحمي (١) عن بريدة قال : قلنا يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسل عليك ، فكيف نصل عليك ؟ قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد (٢) .

أبو داود الأحمي اسمه : ثقب بن الحارث ، متروك :

حديث آخر موقوف ورواه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويؤيد بن هارون ، ثلاثتهم عن توح بن قيس : حدثنا سلامة الكندي : أن عليا - رضى الله عنه - كان يعلم الناس هذا الدعاء : اللهم داحي اللدخوات (٣) ، وبارئ السموات (٤) ، وجبار (٥) ، القلوب على فطرتها شقيها وسعيها ، اجعل شرائف صلواتك ، ونواهي بركاتك ، ورافة تحنك (٦) ، على محمد وعبدك ورسولك ، الخاتم لما سبق ، والفاتح لما أغلق ، والمملن الحق بالحق ، والدامغ جيشات الأباطيل (٧) ، كما حمل فاضطلع (٨) بأمرك لطاعتك ، مستوفزا (٩) في مرضاتك ، خير تكفل في قديم (١٠) ، ولا واهن (١١) في حزم ، وأحيا لحيك ، حافظا لمهلك ، ماضيا على نفاذ أمرك ، حتى أورى (١٢) قيسا نقابا (١٣) ،

(١) في الحديث : «عن أبي داود الراسي» .

(٢) سنن الإمام أحمد : ٣٥٣/٥ .

(٣) اللدخ : البسط ، واللدخوات : الأرضيون .

(٤) السموات : السموات السبع ، وسك الله يحكمه سما : وقته . وفي نفع البلاغة : «ودام السموات» .

(٥) جبار : من جبر العظم المكسور ، كانه أدام القلوب وأثبتها على ما فطرها عليه من معرفته والإقرار به ، شقيها وسعيها . قال القتيبي : «لم أجعله من أجبر ، لأن أفضل لا يقال فيه فعل» . يقول ابن الأثير : يكون من ألفه الأخرى ، يقال : جبرت وأجبرت بمعنى قهرت .

هذا وفي نفع البلاغة : «وجاب القلوب» ، أي : خالفها . والفطرة : أول حالات الخلق التي يكون عليها في بدء وجوده . وفي الإسن : حاله غالبا من الآراء والأهواء والديانات والمفاهيم .

(٦) قوله : «ورافة تحنك» ، غير ثابت في نفع البلاغة .

(٧) في نفع البلاغة : «والدامغ جيشات الأباطيل» ، والدامغ : دافع جيشات الأباطيل . «دافع جيشات الأباطيل» : مهلكها . والجيشات : جمع جيشة ، وهي القوة من جاش إذا ارتفع .

(٨) في نفع البلاغة : «كما حمل فاضطلع قائما بأمرك» .

(٩) المستوفز : المسارع .

(١٠) أي : يميز بين وإسليم في الإجماع .

(١١) أي : ولا ضعيف في رأي . وفي نفع البلاغة : «ولا واه» .

(١٢) أي : أظهر نورا من الحق لطالب الحق ، يقال : ورى الزند - كومي - يرى : إذا خرجت ناره . والدايس : طالب النار . والقيس : الشعلة من النار .

(١٣) بدله في نفع البلاغة : «وأضاء الطريق للهابط» . وليس في النسخ : «آلاء الله تصل بأهله أسبابه» ، ويبدو أنها ثابتة في هذا النص ، انظر النهاية لابن الأثير : مادة «آل» . والآلاء : النعم .

آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد غروبها (١) القنن والإثم ، ١ وأقام (٢) مؤفحيات الأعلام (٣) ، ومنشيرات الإسلام وناترات الأحكام (٤) ، فهو أمينك للأمن ، وخازن حملك الخزون ، وشهيدك يوم الدين ، ويثبتك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم المسح له مفسحات (٥) في حملك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك ؛ مهتات له غير ممكنات ، من فوز ثوابك المعلوم (٦) وجزيل عطائك المجهول : اللهم ، أحل على بناء البائتين بيتانه (٧) ، وأكرم مثواه لديك ونزله : وأتم له نوره ، واجزه من إيمانك له مقبول الشهادة ، مرضى الحقالة ، ذا منطق عدل ، وخطة فصل (٨) ، وحجة ورواهان عظيم (٩) :

هذا مشهور من كلام علي رضي الله عنه ، وقد تكلم عليه ابن قتبية في مشكل الحديث ، وكلا أبو الحسين أحمد ابن فارس الثوري في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن في إسناده نظرا .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : سلامة الكندي هذا ليس بمعروف ، ولم يترك عليا : كذا قال . وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ ، عن سعيد بن منصور ، حدثنا نوح بن قيس ، عن سلامة الكندي قال : كان علي رضي الله عنه يعلمنا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : اللهم ، دلني المذخوات . وذكره :

حديث آخر موقوف ، قال ابن ماجه [حدثنا الحسين بن بيان (١٠)] حدثنا زياد بن عبد الله ، حدثنا المسعودي ، عن عون بن عبد الله ، عن أبي خاشعة ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : إذا سلمتم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تظفرون لعل ذلك يمرض عليه : قال : فقالوا له : فحسبنا : قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المؤمنين ، وخاتم النبيين . محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابنته مقاماً محموداً يتبعه به الأولون والآخرون ،

(١) الخوض : الخشي في الماء وتحريكه . والأسلوب تمثيل .

(٢) ما بين القوسين من تيج البلاغة .

(٣) الموضحات : جمع موضحة ، وهي ما يبين الشيء ، والأعلام جمع علم ، وهو ما يستدل به على الطريق ، والأعلام موضحات الطرق ، لأنها تبينها للناس وتكشفها .

(٤) اننارات : الواضحات كالبينات . وفي تيج البلاغة : « ثورات » . وفي النهاية مثل ما هنا .

(٥) في النهاية : « مفسحات » . وفي تيج البلاغة : « مفسحات في ذلك » . أي : أوسع له سعة في دار حملك يوم القيامة .

(٦) في الخطوط : « المعلوم » . وفي الطبقات السابقة : « المعلوم » . والمثبت من النهاية : « من جزيل صلابة » ، أي : أن عطاه الله مضاعف ، يصل به جادة مرة بعد أخرى . ومثله : « الشرب بعد الشرب » .

(٧) في الخطوط : « بناء المؤمنين » . وللتبني من تيج البلاغة .

(٨) أي : أسر فصل . ويروي : « وخطة فصل » ، أي : مقال فاصل .

(٩) تيج البلاغة : الخطبة الميمون : ٨١ - ٨٢ بصحيفتنا . وقد وقع هنا اختلاف مع ما في التيج لجنا حل بشفه .

(١٠) ما بين القوسين من سنن ابن ماجه ، وفيها « الحسن » . والصواب : « الحسين » . وفي التهذيب ٣٣١/٢ أن ابن ماجه يروي عن الحسين بن بيان .

اللهم صل على محمد ﷺ وعلى آل محمد ﷺ ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد : اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد (١) .

وهذا موقوف ، وقد روى إسماعيل القاضي (٢) عن عبد الله بن عمرو - أو - عمر - عن الثلث من الراوى قريباً من هذا .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا أبو إسرائيل ، عن يونس بن خباب قال : خطبنا بغارس فقال : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً) ، فقال : أتأبى من سمع ابن عباس يقول : هكذا أول : قلنا - أو : قالوا - : يا رسول الله ، حكمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، لا ورع محمد وآل محمد ، كما رحمت آل إبراهيم (٣) ، إنك حميد مجيد ، لا وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركته على إبراهيم ، إنك حميد مجيد (٤) .

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو قول الجمهور : ويضبطه حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ، ارحمني وعيلاً ، ولا ترحم مناً أحداً : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حيرت وأساء (٥) .

وحكي القاضي عياض عن جمهور المالكية متعه ، قال : وأجازه أبو محمد بن أبي زيد (٦) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا شعبة ، عن حاصم بن عبيد الله قال : سمعت عبد الله بن عباس بن زبينة يحدث عن أبيه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصل عليه ما يصل على ، فليقبل عليه من ذلك أو ليكثر » (٧) ، ورواه ابن ماجه ، من حديث شعبة ، به (٨) .

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٦ : ٢٩٣/١ - ٢٩٤ .
(٢) هو أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إبراهيم بن زياد الأزدي البصري القاضي . كان فقيهاً مالكيًا ، وله تصانيف في التواريخ والحديث والفتاوى وأحكام القرآن والأصول . تلقاه على أحمد بن محمد ، وأخذ علم الحديث عن ابن المنذر ، وكان إسلاماً في العربية ، حتى قال المبرد : هو أعلم بالتصريف من . توفي في ذي الحجة سنة ٢٨٢ من ٨٣ سنة . البر للشيخ : ٦٧/٢ .

وإسماعيل هذا كتاب في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره ابن غير في فهرسته ، أنظر : ٣٠٤ .
(٣) قوله : « وارحم محمد وآل محمد » ، كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد . غير ثابت في تفسير البري ، ولعله قد سقط منه .

(٤) تفسير الطبري : ٣١/٢٢ . وما بين القوسين منه .

(٥) البغاري ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الناس والبهائم » : ١١/٨ .

(٦) هو عبد الله بن عبد الرحمن الخزاعي ، أنظر كتابه في فهرسته بن غير .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٤٥/٣ .

(٨) سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٨ : ٢٩٤/١ .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزازي ، ويونس - هو ابن محمد - قال : حدثنا ليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن أبي الحويرث ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن عبد الرحمن ابن عوف قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته حتى دخل نخلا ، فسجد فأطال السجود ، حتى خفت - أو : خشيت - أن يكون الله قد توفاه أو قبضه . قال : فبغت أنظر ، فرغ رأسه فقال : مالك يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له فقال : إن جبريل - عليه السلام - قال لي : ألا أبشرك ؟ إن الله عز وجل يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه (١) .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنا عمرو بن أبي عمرو ، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : [خرج] (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجه نحو صدفته ، فدخل فاستقبل القبلة ، فخر ساجدا ، فأطال السجود ، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها ، فدنوت منه ثم جلست ، فرغ رأسه فقال : من هذا ؟ قلت : عبد الرحمن . قال : ما شألك ؟ قلت : يا رسول الله ، سجدت سجدة خشيت أن يكون الله عز وجل قبض نفسه فيها فقال : إن جبريل أتاني فيشرق أن الله - عز وجل - يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه : فسجدت لله عز وجل شكراً (٣) .

حديث آخر : قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن يحيى بن عبد الله بن معاوية بن يحيى بن ريسان (٤) حدثنا يحيى بن أيوب ، حدثنا عبد الله بن عمر ، عن الحكم بن عتيبة ، عن إبراهيم التيمي ، عن الأسود بن يزيد ، عن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة فلم يجد أحدا يتبعه ، فخرج عمر ، فاتاه بمطهرة (٥) من خلفه ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم ساجدا في مشربة (٦) ، فتحنى عنه من خلفه حتى رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه ، فقال : « أحسنت يا عمر حين وجدني ساجدا فتنتحيه حتى ، إن جبريل أتاني فقال : من صلى عليك من أمته أو أحده ، صلى الله عليه عشر صلوات ، ورفعه عشر درجات » .

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج على الصحيحين : وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن القعنبي ، عن سلمة بن وردان ، عن أنس ، عن عمر بنحوه . ورواه أيضا عن يعقوب بن حنيد ، عن أنس بن ماض ، عن سلمة بن وردان ، عن مالك بن أنس بن الحذافان ، عن عمر بن الخطاب ، بنحوه .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٩١/١ .

(٢) في المخطوطة : « قال » . وفي الطبعات السابقة : « قام » ، والكتب من المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٩١/١ .

(٤) في المخطوطة : « ريان » . وفي المسند الصغير للطبراني ٨٩/٢ : « ريسان » . بالسين للمجمة ، والكتب من المشبه للنسائي : ٤٧٨/١ .

(٥) المطهرة - بكسر الميم - : ما يتوضأ به ويصلي به .

(٦) المشربة : الفرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن حنبل ، عن القليل بن أبي ، عن أبيه قال : قال رجل : يا رسول الله ، أرايت إن جعلتُ صلتي كلها عليك ؟ قال : « إذن يكفيك الله ما أهتمك من دنياه وآخرتك » (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت عن سليمان مولى الحسن بن علي ، عن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم ، والسرور يرى في وجهه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا نرى السرور في وجهك . فقال : « إنه أتاني الملك فقال : يا محمد ، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يعصى عليك أحد من أمته إلا صليت عليه عشرًا ، ولا يسلم عليك أحد من أمته إلا سلمت عليه عشرًا ؟ قال بلى » (٢) .
ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة به ، وقد رواه إسماعيل القاضي ، عن إسماعيل بن أبي أويس ، عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن حبيب الله بن عمر ، عن ثابت ، عن أنس ، عن أبي طلحة ، نحوه .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا أبو معشر ، عن إسحاق بن كعب بن عجرة ، عن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا طيب النفس ، يرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى في وجهك البشر ؟ قال : أجل ، أتاني آت من ربي عز وجل فقال : من صلى عليك من أمته صلاة ، كتبت الله له بها عشر حسنات ، وعما عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » (٣) .
هذا أيضًا إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، من حديث إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرًا » .

قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ربيعة ، وعمار ، وأبي طلحة ، وأنس ، وأبي بن كعب » (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا شريك ، عن ليث ، عن كعب (٥) ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله

(١) مسند الإمام أحمد : ١٣٦/٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٠/٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٩/٤ .

(٤) تحفة الأحرار ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٨٣ : ٦٠٨/٢ - ٦٠٩ . وسنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب « في الاستغفار » ، مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد » : ١٧/٢ ، والنسائي ، كتاب التيمم ، باب « الفضل في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » : ٥٠/٥ .

(٥) في المخطوطة مكان « كعب » : ثابت . « والمثبت عن الحسن ، والبيهقي لأبيه » .

حدثني آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد (١) : حدثنا سليمان بن بلال ، عن حمزة ابن غزيرة ، عن عبد الله بن علي بن الحسين (٢) عن أبيه علي بن الحسين (٣) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البخيل من ذكرت عنده ، ثم لم يصل على . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على (٤) » .

ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » (٥) .

ومن الرواة من جعله من مسند الحسين بن علي ، ومنهم من جعله من مسند علي ، فلهذا

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد بن هلال المتزني ، حدثني رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبي زر - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أبغض الناس من ذكرت عنده فلم يصل على »

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يُصَلِّيَ على » - صلوات الله عليه :

حدثني آخر : قال الترمذي : حدثنا أحمد بن إبراهيم البوري ، حدثنا ربيعة بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يضر له ، ورغم أنف رجل أدركه عليه أبواب الكبر فلم يدخله الجنة » : ثم قال : « حسن غريب » (٦) .

قلت : وقد رواه البخاري في الأدب ، عن محمد بن حديد الله ، حدثنا ابن أبي حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد ابن رباح ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، بنحوه ، (وروناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، به) قال الترمذي : وفي الباب عن جابر وأنس (٧) .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن صبرة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : (إما يلفن عنك الكبر أحدهما أو كلاهما) .

وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما ذكر ، وهو بمنحبه طائفة من العلماء ويضوئ بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه ،

(١) ما بين القوسين من المسند .

(٢) ما بين القوسين من الطبقات السابقة ، وقد سقط من المسند ، وانظر الترمذي .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٠١/١ . وقول أبي سعيد غير ثابت فيه .

(٤) تحفة الأحوس ، أبواب الدعوات ، الحديث : ٣٦١٤ : ٤٣١/٩ .

(٥) تقدم الحديث في سورة الإسراء ، حقه تفسير الآية ٢٣ : وخبرناه هناك ، انظر : ٦٢/٥ .

حدثنا جبركة بن المفضل ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي الصلاة على خطي طريق الجنة (١) » .

جبركة ضعيف : ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه ، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي الصلاة على خطي طريق الجنة » : وهذا مرسل يقتضى بالذي قبله .

وذمب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس ، بل تستحب : نقله الترمذي عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي :

حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تيرة (٢) » ، فإن شاء عليهم ، وإن شاء غفر لهم (٣) » :

نفرد به الترمذي من هذا الوجه : ورواه الإمام أحمد عن حجاج بن يزيد بن هارون ، كلاما عن ابن أبي ذئب ، عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة ، مرفوعا (٤) مثله : ثم قال الترمذي : « هذا حديث حسن (٥) » :

وقد روى عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من غير وجه ، وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة ، عن سليمان ، عن ذكوان ، عن أبي سعيد قال : « ما من قوم يقطعون ثم يقومون ولا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا كان عليهم حسرة » ، وإن دخلوا الجنة لمسا يرون في من أبواب : :

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه السلام - في العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هي مستحبة في كل حال : وهذا هو الذي نصره القاضي حياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الجملة : قال : وقد حكى الطبراني أن عمل الآية على التلبيح ، وادعى فيه الإجماع : قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فتدوب مَرْتَبِع فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله :

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة فيها واجبه ومنها مستحبه على ما نبهه ، فنه بعد التلوة للصلاة للحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا كعب بن علقمة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول : إنه سمع عبد الله ابن عمرو بن العاص يقول : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم مؤذنا يقولوا مثل ما يقول ثم ،

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الإملاء ، باب « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٩٠٨ : ٢٩٤/١ .

(٢) الترة - بكسر التاء ، وتثنية الراء - : التهمة والماتية ، أو التقصان والحسرة .

(٣) تحفة الأسوفى ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء في القوم يملسون ولا يذكرون الله » ، الحديث ٣٤٤٠ .

٣٢٢/٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٥٣/٧ .

صلوا على" فإنه من صلى على" صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سألني الوسيلة حلت عليه الشفاعة (١)» ،

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن حنيفة (٢)»

طريق أخرى : قال إسماعيل القاضي : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا عمرو بن علي ، عن أبي بكر الجشتي ، عن صفوان بن سليم ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سأل الله في الوسيلة ، حفت عليه شفاعتي يوم القيامة » ،

حديث آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا سعيد بن زيد عن : ليث عن كعب - هو كعب الأحبار ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلوا على ، فإن صلحكم حل في زكاة لكم ، وسلوا الله لي الوسيلة ، قال : فلما حدثتنا ولما سألناه ، فقال : الوسيلة أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون ذلك الرجل .

ثم رواه عن محمد بن أبي بكر ، عن معتمر ، عن ليث - وهو ابن أبي سليم - به : وكذا الحديث الآخر : قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن أبي ليثة ، حدثنا بكر بن سوادة ، عن زياد بن نعيم ، عن وكلاء (٣) الحضري ، عن ربيعة بن ثابت الأنصاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزه المقعد بالقرب عندك يوم القيامة ، وحيث له شفاعتي (٤) » .

وهذا إسناده لا بأس به ، ولم يخرجوه .

أثر آخر : قال إسماعيل القاضي : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا : صفيان حدثني معمر ، عن ابن طلوس ، عن أبيه ، سمعت ابن عباس يقول : اللهم قبل شفاعة محمد الكبرى ، وارفع درجة عليا ، وأعطه سؤلته في الآخرة والأولى ، كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام . إسناده جيد قوى صحيح ،

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه ، للحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ليث بن أبي سليم ، عن عبد الله بن الحسن ، عن أمه فاطمة بنت الحسين ، عن جدته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال : اللهم ، اغفر لي ذنوبي ، واغفر لي أبواب رحمتك . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ، ثم قال : اللهم ، اغفر لي ذنوبي ، واغفر لي أبواب فضلك (٥)» .

وقال إسماعيل القاضي : حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا صفيان بن عمر التميمي ، عن سليمان الغبي ، عن علي ابن الحسين قال : قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : إذا مررتُم بالمسجد فصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٨/٢ .

(٢) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب القول مثل قول المؤذن ... : ٤/٢ ، والنسائي ، كتاب الأذان ، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان : ٢٥/٢ - ٢٦ .

(٣) في المخطوطة : « ورواه » . والصواب عن المسند والمختار .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٠٨/٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٨٢/٦ .

وأما الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، فقد قلنا الكلام عليها في الشاهد الأكبر ، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع الشافعي رحمه الله . وأما الشاهد الأول فلا يجب فيه قولاً واحداً ، وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي . ومن ذلك الصلاة عليه [صلى الله عليه وسلم] في صلاة الجنائز ، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الثالثة يدعو للميت ، وفي الرابعة يقول : اللهم ، لا نغرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده .

قال الشافعي رحمه الله : حدثنا مُعْتَرَفُ بْنُ مَازِنٍ ، عن معمر ، عن الزهري : أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أن السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويغسل الدعاء للجنائز ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ، ثم يسلم سرا في نفسه (١) .

ورواه الثنائي ، عن أبي أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره .

وهذا من الصحاح في حكم المرفوع على الصحيح .

ورواه إسحاق القاضي ، عن محمد بن الحنفية ، عن عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهري ، عن أبي أمامة بن سهل ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : السنة في الصلاة على الجنائز ... فذكره .

وهكلا روى عن أبي هريرة ، وابن عمر ، والشافعي .

ومن ذلك في صلاة العيد ، قال إسحاق القاضي : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هشام الدستوائي ، حدثنا حماد ابن أبي سليمان ، عن إبراهيم ، عن حلقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحليفه جرجع عليهم الوليد بن عقبة يوماً (٢) ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم للهو ، وتكبر وتعمل مثل ذلك ، ثم تكبر وتعمل مثل ذلك ، ثم تكبر وتعمل مثل ذلك ، ثم تقوم فقرأ وتحمد ربك وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم للهو وتكبر ، وتعمل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حليفه وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن ! إسناده صحيح .

ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، قال أبو داود :

حدثنا أبو داود أخبرنا الشافعي عن ثعلبة بن جابر ، عن أبي قررة الأسدي ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصل على نبيك (٣) .

وهكلا رواه أيوب بن موسى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب - قوله . ورواه معاذ بن الحارث ، عن أبي قررة ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر مرفوعاً . وكلا رواه زَيْنُ بْنُ معاوية (٤) في كتابه مرفوعاً ، عن النبي

(١) الإجماع للشافعي ، كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الجنائز والتكبير فيها : ٢٣٩/١ - ٢٤٠ .

(٢) في الموطأ : « حقة صلى الله عليه وسلم » . والمثلث عن الطبقات السابقة .

(٣) تحفة الأشراف ، أبواب الوتر ، باب « ما جاء في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤٨٤ : ٦١٠/٢ .

(٤) أبو الحسن زَيْنُ بْنُ معاوية الميموني الأندلسي السرقسطي ، مصنف تهذيب الصحاح ، وكتاب أخبار مكة والمدينة وفضائلها ، توفي في المحرم سنة ٣٥٠ هـ . انظر الجيع المصنف : ٩٥/٤ . وفسره ابن عديم : ١٢٣ : ٢٧٩ .

صلى الله عليه وسلم قال : « الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد حتى يصل إلى ، فلا يجعلون ككشعر الراكب (١) صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » .

وعله الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي قال : حدثنا جعفر بن حوث ، أخبرنا موسى بن حبيدة ، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : قال جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، إذا علق تماثيله أخذ قدحه فلأه من لئاه ، فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا أهرق ما فيه ، اجعلوني في أول الدعاء ، وفي وسط الدعاء ، وفي آخر الدعاء » .
فهذا حديث خريب ، وموسى بن حبيدة ضعيف الحديث .

ومن ذلك دعاء القنوت ، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، من حديث أبي الخوراء ، عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولن في الوزن : اللهم اهتدي فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، ونفخ في شرا ما قضيت ، فالتقى تقضى ولا يقضى عليك إنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا [وتعالي] (٢) .

وزاد النسائي في سننه بهذا : وصل الله على النبي [محمد] .

ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة قال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن علي الجعفي ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن أوس بن أوس الثقفي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه الساعة ، وفيه المصطفى ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ : قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرميت (٣) ؟ - يعني وقد بليت - قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء (٤) .

(١) القدر - بضم القين ، وضع الميم - ، القدح الصغير ، أراد أن الراكب يحمل دلو وأزواده حمل واسطه ، ويترك قبه إلى آخر ترسائه ، ثم يملئه حل دلو كالملح - أي : الزيادة - فليس عنده بهم ، فهم أن يجعلوا الصلاة عليه كالقدر الذي لا يقدم في الهام ، ويجعل تما .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٩٩/١ . وسنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب القنوت في الوتر . وتلحة الأحوص ، أبواب الوتر ، باب وما جاء في القنوت في الوتر ، الحديث ٤٦٣ : ٥٦٢/٢ - ٥٦٣ . وسنن النسائي ، كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب الدعاء في الوتر : ٢٤٨/٣ .

(٣) في النهاية : « قال الحربي : هكذا يرويه المحدثون ، [يعني بفتح التاء] ، ولا أرفق وجهه والصواب : أرسى [يعني : يسكنون التاء] ، فشكون التاء لتأنيث النظم ، أو : روت ، أي صرت دمية .

وقال غيره ، [إما هو أرسى - بوزن غربت - وأصله أرسى : أي بليت ، فخطبت إحدى الميمين ، كما قالوا : أحست في أحسست » .

هذا ، وقد قدم ابن الأثير تفسيراً الرواية التي أنكرها الحربي ، انظر النهاية : مادة : رم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٨/٤ .

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، من حديث حسين بن علي الجعفي (١) . وقد صحح هذا الحديث ابنُ هُرَيْرَةَ ، وابنُ حبان والدارقطني ، والنووي في الأذكار .

حديث آخر ، قال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا عمرو بن سَوَّاد المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو ابن الحارث عن سعيد بن أبي هلال ، عن زيد بن أُمَيْن ، عن عُبَادَةَ بن نُسَيْبٍ ، عن أَبِي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكثَرُوا الصَّلَاةَ عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ » فإنه مشهود تشهد الملائكة : وإن أحداً لم يصل على إلا عُرِضَتْ هَكَذَا صَلَاتُهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا » قال قلت : وبعد الموت ؟ قال : وبعد الموت (٢) ، « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ » ، وفي الله حتى يرزق (٣) » .

هذا حديث لا غريب من هذا الوجه ، وفيه انقطاع بين عُبَادَةَ بن نُسَيْبٍ وأبي الدرداء ، فإنه لم يدركه ، والله أعلم ، وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأثر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، ولكن في إسنادهما ضعف والله أعلم : وروى مرسلان عن الحسن البصري ، فقال إسماعيل القاضي : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن - هو البصري - يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَأْكُلُ الْأَرْضُ جَسَدًا مِنْ كَلِمَةٍ رُوِيَ الْقَلْبُ » : مرسل حسن ،

وقال القاضي : أخبرنا إبراهيم بن همد ، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةُ الْجُمُعَةِ ، فَأَكثَرُوا الصَّلَاةَ عَلَى (٤) » : هذا مرسل .

وهكذا يجب على المصلح أن يصل على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ، ولا يصح للخطيبان إلا بذلك ، لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كالأذان والصلاة ، هذا لمصحب الشافعي وأحمد رحمهما الله .

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره - صلوات الله وسلامه عليه - قال أبو داود : حدثنا ابن عوف - هو همد - حدثنا المقرئ حدثنا حيوة ، عن أبي حمزة حميد بن زياد ، عن يزيد بن عبد الله ابن قيس ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْلِمُ عَلَى إلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَى رُوحِهِ ، حَتَّى لَرْدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٥) » .

نُفِذَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو دَاوُدَ :

(١) سنن أبي داود : كتاب الزَّكَاةِ ، باب في الاستغفار . وسنن النسائي : كتاب الجمعة ، باب « إكثار الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الجمعة » : ٩١/٣ - ٩٢ . وسنن ابن ماجه : كتاب الجنائز ، باب « ذكر وفاته ودفعه صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٣٦ ، ٥٢٤/١ .

(٢) ما بين القوسين من سنن ابن ماجه .

(٣) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ١٦٣٧ : ٥٢٤/١ .

(٤) الآم للإمام الشافعي ، كتاب الجمعة ، باب « ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها » : ١٨٤/١ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب المناقب ، باب « زيارة القبر » .

حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع ، أخبرني ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قريى حياً ، وصلوا على ، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » (١) .

تفرد به أبو داود أيضاً ، وقد رواه الإمام أحمد عن سريج ، عن عبد الله بن نافع - وهو الصالح - (٢) : وصححه الترمذي أيضاً . وقد روى من وجه آخر عن علي - رضي الله عنه - قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه : فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

حدثنا إسماعيل بن أبي أويس ، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (عن ٢) أخبره [من أهل بيته ، عن علي بن الحسين بن علي : أن رجلاً كان يأتي كل صلاة فيزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويصل عليه ، ويصنع من ذلك ما اشتهر (٤) عليه علي بن الحسين ، فقال له علي بن الحسين : ما يحملك على هذا ؟ قال : أحب السلام على النبي صلى الله عليه وسلم : فقال له علي بن الحسين : هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي ؟ قال : نعم . فقال له علي بن الحسين : أخبرني أبي عن جدتي أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا قريى حياً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على وصلوا حيثما كنتم فتبلغني صلاتكم وصلاتكم » .

في إسناده رجل مهم لم يُسم . وقد روى من وجه آخر مرسل ، قال عبد الرزاق في مصنفه ، عن الترمذي ، عن ابن جبريل ، عن رجل - يقال له : سهيل - عن الحسن بن الحسن بن علي أنه رأى قوماً عند القبر فنهام ، وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخلوا قريى حياً ، ولا تتخلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني » . فلعلم رآهم يسيرون الأديب يرفع أصواتهم ، فنهام .

وقد روى أنه رأى رجلاً يتاب القبر فقال : يا هذا ، ما أنت ورجل بالكنس منه إلا سواء : أي : الجميع يملكه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقال الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا أحمد بن وشكين للصري ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرني حميد بن أبي زئب ، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغني » ،

ثم قال الطبراني : حدثنا العباس بن حمدان الأصماني ، حدثنا شبيب بن عبد الحميد الطحاني ، أخبرنا يزيد بن هارون بن أبي شيان (٥) ، عن الحكم بن عبد الله بن خطاب ، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي ، عن أبيها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لرأيت قول الله عز وجل : (إن الله وملائكته يصلون على النبي) ؟ قال : « إن هذا

(١) سنن أبي داود في الكتابين والباب المتقدم .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٦٧/٢ .

(٣) ما بين القوسين من التلميحات السابقة ، ومكافئ في المخطوطة : « من أمه » .

(٤) كلما في المخطوطة والتلميحات السابقة .

(٥) كلما ، ومقرره هو ابن هارون بن راض . انظر التلخيص : ٣٦٦/١١ .

من الكون ، ولولا أنكم سألتوني عنه لا أخبرتكم ، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فصل حل إلا قال ذلك الملكان ، « غفر الله لك » . وقال الله وملائكته جواباً لملكك للملكين : « آمين » . ولا يصح أحد إلا قال ذلك للملكان : « لا غفر الله لك » : ويقول الله وملائكته جواباً لملكك للملكين : « آمين » .

غريب جداً ، وإسناده فيه ضعف شديد :

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ملائكة سياحين في الأرض ، يبلغون من أمي السلام (١) وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش ، كلاهما عن عبد الله بن السائب ، به (٢) .

فأما الحديث الآخر : « من صلى عتقت عنده قبرى سمعته ، ومن صلى على من يهدى بكفته » - ففى إسناده نظر ، فهد به محمد بن مروان السدى الصغير ، وهو متروك ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة مرفوعاً .

قال أصحابنا : ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تليته أن يصل على النبي صلى الله عليه وسلم لما روى عن الشافعي والتارطقي من رواية صالح بن محمد بن زائدة ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تليته أن يصل على النبي صلى الله عليه وسلم على كل حال (٣) .

وقال إسماعيل القاضي : حدثنا حارم بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا زكريا ، عن الشعبي ، عن وهب ابن الأبرقع قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إذا قلتم فطوفوا بالبيت سباً ، وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ، فكبروا سبع تكبيرات ، تكبيرا بين حمد الله وتناء عليه ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومساة لنفسك ، وعلى المرأة مثل ذلك .

إسناده جيد حسن قوى ،

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مع ذكر الله عند الصباح ، وإستأسأ بقوله تعالى : (وعلنا لك ذكرك) (٤) ، قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرت معي » . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ، كما عند الأكل ، والدخول ، والوقاع وغير ذلك ، بما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ،

حديث آخر ، قال إسماعيل القاضي : حدثنا محمد بن أبي بكر الملقى ، حدثنا عمر بن هارون ، عن موسى بن حبيدة ، عن محمد بن ثابت ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا على أنبياء الله ورسله ، فإن الله يمتعهم كما يشاء » .

فى إسناده ضعيفان ، وهما عمر بن هارون وشيخه ، والله اعلم . وقد رواه عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن موسى ابن حبيدة الركني ، به .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٤١/١ .

(٢) سنن النسائي ، كتاب السفر ، باب « السلام على النبي صلى الله عليه وسلم » : ٤٣/٣ .

(٣) الأم للإمام الشافعي ، كتاب الحج ، باب « وما يستحب من القول في أثر التلبية » : ١٣٤/٢ .

(٤) سورة الانشراح : آية : ٤ .

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ، إن صح الخبر في ذلك ، على أن الإمام أبابكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ، حدثنا معمر بن محمد بن عبيد الله ، عن (١) علي بن أبي رافع ، عن أبيه أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل علي ، وليكلمني » ذكر الله ممن ذكرني بخبر . إسناده غريب ، وفي ثبوته نظر ، والله أعلم ،

[مسألة]

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كلما كتبه ، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة ، عن نهشل ، عن الفضلك ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى علي في كتاب ، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب »

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ، وقد روي من حديث أبي هريرة ، ولا يصح أيضاً ، قال الحافظ أبو عبد الله الله الهي شيخنا : أحسنه موضوعاً . وقد روي نحوه عن أبي بكر ، وابن عباس . ولا يصح من ذلك شيء ، والله أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه : « الجامع لأحاديث الراوي والسماع » (٢) ، قال : رأيت فضل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبي صلى الله عليه وسلم من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : ويأنى أنه كان يصل عليه لفظاً ،

[فصل]

وأما الصلاة على غير الأنبياء فإن كانت على سبيل التسمية كما تقدم في الحديث : « اللهم صل على محمد وآل محمد وأزواجه وذرته » ، فهنا جاز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون : « يجوز ذلك » واحتجوا بقوله : « هو الذي يصل عليكم وملائكته » ، ويقول : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » ويقول : تعالى : « خل من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، ويحدث عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » . وأتاه أبي بصدقة فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » . أخرجاه في الصحيحين . ويحدث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل على وحلي زوجي . فقال : « صل الله عليك وعلى زوجك » (٣)

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو « قال علي صلى الله عليه » . وإن كان للحنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على النسخ لم ، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ، ولا لجابر وامرته . وهذا مسلک حسن .

وقال كثيرون : لا يجوز ذلك ، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء ، يصلون على من يحضنون فيهم ، فلا يقتضى بهم في ذلك ، والله أعلم :

(١) في المخطوطة : « من حل » . . ولم يبيناً لنا ضبط هذا اللفظ . والمكتوب من التلميذات السابقة .

(٢) انظر كشف القنون : ٥٧٥/١ .

(٣) تقدم نخرج طين الحديثين في هذه السورة ، انظر : ٤٤٨/٦ .

ثم انحلت المأثور من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة الترتيبية ، أو خلاف الأولى ؟ هل ثلاثة أقوال ، حكاهما الشيخ أبو زكريا النوري في كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذي عليه الأكثر أنه مكروه كراهة تنزيه ، لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمحدث في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في اللسان بالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - كما أن قولنا « عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : أبو بكر - أو : علي - صلى الله عليه : « هلنا نقطه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني (١) من أصحابنا : هو في معنى الصلاة ، فلا يستعمل في الغالب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « علي عليه السلام » ، وسواء في هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخطبه به ، يقال : سلام عليكم ، أو سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا يجمع عليه ، انتهى ما ذكره قلت : وقد غلبه هذا في عبارة كثير من الساخ للكتب ، أن يفرد على رضى الله عنه بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : «كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغي أن يسأى بين الصحابة في ذلك ، فإن هذا من باب التنظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضي : حدثنا عبد الله بن عبد الرهاب (٢) ، [حدثنا عبد الواحد I بن زياد ، حدثني عثمان بن حكيم ابن حبيب بن حنبل ، عن حكيم ، عن ابن عباس أنه قال : لا تصح (٣) الصلاة على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن يلقى للمسلمين وللغفرة (٤)] .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبي شبة ، حدثنا حسين بن علي ، عن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله : لما بعد ، فإن أناساً من الناس قد اتصوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أخذوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم هذا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاعك كتابي هلنا فسرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن .

قال إسماعيل القاضي : حدثنا معاذ بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا أبو هبة ، حدثني خالد بن يزيد (٥) ، عن سعيد بن أبي حلال ، عن ثوبان بن وهب : أن كتباً دخل على عائشة رضى الله عنها ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال كتب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضيئون بأجنتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، سبعون ألفاً بالليل ، وسبعون ألفاً بالنهار ، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه .

-
- (١) هو عبد الله بن يوسف ، شيخ الشافعية ، وهو والد إمام الحرمين أبي المعالي الجويني . كان أبو محمد جهده في العبادة ، وقد تصبر للفتى والتدريس والتسليف . وكانت وفاته في ذي القعدة سنة ٢٨٨ هـ أنظر البربر للهي : ١٨٨/٣ .
- (٢) في المخطوطة : « حدثنا عبد الله بن عبد الرهاب بن زياد » . وما بين القوسين عن الطبعات السابقة : « هذا وانظر التلخيص ترجمة » عبد الواحد بن زياد : ٤٣٤/٦ .
- (٣) في المخطوطة : « لا تصلح » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
- (٤) في المخطوطة : « بالاعتقار » . وللمثبت أيضاً عن الطبعات السابقة .
- (٥) في المخطوطة : « خالد بن زيد » . والصواب عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣٥٨/٢٤١ .

[فرع]

قال النووي : إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة والسلام ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول :
 « صلى الله عليه فقط ، ولا : « عليه السلام ، فقط ، وهذا الذي قاله مترجم من هذه الآية الكريمة ، وهي قوله :
 (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليما »

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا كُتِبَ لَهُمْ أَنْ يَتُوبُوا عَلَيْهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى متهددا ومتوعدا من آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذى رسوله بحب
 أو تنقص ، عيادا بالله من ذلك .

قال عكرمة في قوله : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ، نزلت في المصومين »

وفي الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، سب النهر ، وأنا النهر ، أقلب إليه بنيانه ، (١)
 ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : ياخية النهر . فعل بنا كلها وكلنا . فيستنون أعمال الله تعالى إلى النهر ،
 وسبوه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو حنيفة وغيرهما من العلماء
 رحمهم الله .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله (يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ، نزلت في الذين طعنوا في تزويجه صفية بنت حيي
 ابن أخطب (٢) .

والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، من آذاه فقد آذَى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال الإمام أحمد :
 حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عبيدة بن أبي ربيعة الخلداء التميمي ، عن عبد الرحمن بن زياد (٣) ،
 عن عبد الله بن الفضل المزني قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الله الله في أصحابي . لا تتظلموا عنهم فتربا بدي ،
 فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذَى الله ، ومن آذَى
 الله يوشك أن يأخذه (٤) » .

(١) البخاري ، تفسير سورة المائدة : ١٦٦/٦ . وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام الله)
 ١٧٥/٩ . ومسلم ، كتاب الألقاب من الأدب ، باب « النبي عن سب النهر » : ٤٥/٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٣٢/٢٢ .

(٣) ما بين التوسمين من الطبقات السابقة ، ومثله في المسند : ٥٤/٥ ، ٥٧ . وفي طين الموضعين أيضا : « عبد الرحمن
 بن زياد ، أو : عبد الرحمن بن عبد الله . ولكن في الموضع الذي معنا ٨٧/٤ : « ابن أبي ربيعة ، عن عبد الله بن عبد الرحمن » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٨٧/٤ .

وقد رواه الترمذي من حديث حَبِيبَةَ بْنِ أَبِي رَافَةَ ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١) .

وقوله : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) ، أي : ينسبون إليهم ما هم برّاء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، (فقد احتملوا بهتاناً وإلماً مبيناً) ، وهذا هو البهتان البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العبث والتقصص لهم ، ومن أكثر من يدخل في (هذا) الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتقصصون الصحابة ويمسبونهم بما قد برّاهم الله منه ، ويصفونهم بتقيف ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومنحهم ، وهؤلاء الجهلة الأخيلاء يسبونهم ويتقصصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب ، يلحون للمدحجين ، ويلحون للمؤمنين .

وقال أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن عمه - عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : ذكرك لشكك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان في أبي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما أقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما أقول فقد بهتته (٢) .

وهكذا رواه الترمذي ، عن قتيبة ، عن الدراودي ، به . قال : حسن صحيح (٣) .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن هار بن أنس ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أي الربا أربى عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أحرم . قال : أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم . ثم قرأ : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإلماً مبيناً) .

وَمَا يَكْفُرُ اللَّهُ إِلَّا الْفُجُورَ وَبَنَاتِكَ وَلَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِدِينٍ عَلَيْهِمْ مِنْ جَلِيلٍ ذَلِكَ أَذُنٌ أَنْ يُعْرِضَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَنْ لَرَيْنَهُ الْمُنْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمُنَافِقَةِ يُفْتَنُوكَ رُبَّمَا لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ظَفَرُوا أَخْذُوا وَفُتِلُوا تَفْتِيلًا * سَنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا

يقول تعالى أكرمأ رسوله - صلى الله عليه وسلم تسلياً - أن يامر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلاليهن ، ليشيرن عن مبات نساء الجاهلية ومبات الإمام . والجلاباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، [وقائدة] والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد : وهو بمنزلة الإزار اليوم :

- (١) تحفة الأوسى : أبواب المنائب ، باب : وفيمن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، الحديث ٣٩٥٤ : ١٠/٣٦٥ .
- (٢) أي : كذبت واقريت عليه . والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في الغيبة .
- (٣) تحفة الأوسى ، أبواب البر ، باب : ما جاء في الغيبة ، الحديث ١٩٩٩ : ٦٣/٦ - ٦٤ . وقد أخرجه مسلم في كتاب البر ، باب : تحريم الغيبة : ٢١/٨ من طريق العلاء .

قال الجمهور : الجلباب ، للثبته ، قالت امرأة (١) من حبل ثرى قبلاها :
تستشى النور إليه وهى لاهية * متشى السد كرى حكيتين الجلابيب (٢)
قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن
من فوق رموسهن بالجلابيب ، ويبدن حياء واحدة (٣)
وقال محمد بن سيرين : سألت حبيدة السلماني عن قول الله تعالى : (يبدن عليهن من جلبابهن) ، فقلت وجهه
ورأسه وأبرز عينه اليسرى .
وقال حكيمه : نطى ثفركم محرها بجلبابا تدليه عليها ،
وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلى ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن شقيق ،
عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : (يبدن عليهن من جلبابهن) ، خرج نساء الأنصار
كان على رموسهن القريان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسها .
وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثني الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال : وسألتها - وهى
الزهري - : هل على المرأة حار متروجة أو غير متروجة ؟ قال : عليها لشمار إن كانت متروجة ، وتسمى عن الجلباب
لأنه يكره لمن أن يتشبهن بالحرار إلا محصنات : وقد قال الله تعالى : (يا أيها النبی ، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين
يبدن عليهن من جلبابهن) .
وروى عن سفیان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل اللفة ، إنما ينهى عن ذلك لحرف اللفة ،
لا لحرمتهم . واستدل بقوله تعالى : (ونساء المؤمنين) .
وقوله : (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) ، أى : إذا فعلن ذلك مُرفقن أنهن حرار ، فمن يراه ولا حواجر
قال السدي في قوله تعالى : (قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يبدن عليهن من جلبابهن) ، ذلك أدنى أن يعرفن
فلا يؤذين) ، قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ،
وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقفين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يصفون
ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا :
هذه أمة . فوليوا إليها . .

وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرار فلا يعرض لمن فسق بأذى ولا رية
وقوله : (وكان الله غفورا رحيما) ، أى : لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهم علم بذلك
ثم قال تعالى متوعدا للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر ، (والذين في قلوبهم مرض) - قال
حكيمه وغيره : هم الزناة هاهنا . (وللمرجفون في المدينة) ، يعنى : الذين يقولون : « جاء الأعداء » ، « وجاءت
الحروب » . وهو كذب وإفتراد - لأن لم يشهروا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق (لتخزيك بهم) ، قال على بن أبى طلحة :

(١) في اللسان : « قالت جنوب أعت عمرو بن الكلب ثريته » .

(٢) الصراح : مادة « جلب » : ١٠١/١ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٢/٢٢ .

عن ابن عباس : أتى تسليطك عليهم (١) . وقال قتادة رحمه الله : لتحرشك بهم (٢) . وقال السدي : لتعلمك بهم .
(ثم لا يجاوروك فيها) ، أي : في المدينة (إلا قليلا . ملعونين) حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة
مطرودين مبعدين ، (أيتها قنقرا) ، أي : وجدوا ، (أعطوا) للثمن وقتلهم ، (وقتلوا تقتيلا) .
ثم قال : (سنة الله في الذين خلوا من قبل) ، أي : هذه سنة في المنافقين إذا تردوا على تفاقم وكفرهم ولم يرجعوا
عما هم فيه : إن أهل الإيمان يسلمون عليهم ويثيرونهم ، (ولن نجد لسنة الله تبيلا) ، أي : وسنة الله في ذلك لا تبيل
ولا تغير .

مَسَّكَ الْبَاسُ عَنْ السَّاعَةِ ۖ فَلِإِنَّمَا عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَنَن
الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهَهُمْ
فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۖ وَقَالُوا رَبَّنَا سَادَتَنَا وَكَرِهَتْنَا فَأَفْضَلُونَا
الْمَسِيحَ ۖ رَبَّنَا إِنِّي ضَعُفْتُ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمِ لَعْنَا كَبِيرًا ۖ

يقول تعالى خبرا لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك : وأرشد أنه
يرد علمها إلى الله عز وجل كما قال له في سورة الأعراف : وهي مكة وهذه مدينة ، فاستمر الحال في رد علمها إلى
الله بقبحها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) ، كما قال : (اقتربت الساعة وانشق
القدر) (٣) ، وقال : (اقرب الناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) (٤) ، وقال : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (٥) ،
ثم قال : (إن الله لمن الكافرين) ، أي : أبعدهم من رحمته (وأعد لهم سعيرا) ، أي : في الدار الآخرة : (خالدين
فيها أبدا) ، أي : ما كتبت مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، (لا يجدون وليا ولا نصيرا) ، أي :
وليس لهم منيف ولا معين يخلصهم عما هم فيه .

ثم قال : (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) ، أي : يسحبون في النار على
وُجُوهِهِمْ ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يضمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا بمن أطاع الله وأطاع
الرسول ، كما أخبر عنهم في حال العرصات بقوله : (ويوم يَحْشُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : ياليتني اتقيت مع الرسول
ص ليلا . ياولتني لئني لم أكن فلانا خليلا . لقد أضلني من الذكر بعد إذ جاني وكان الشيطان للإنسان خلويا) (٦) . وقال
تعالى : (رجا يرد الذين كفروا لو كانوا مسلمين) . وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يتوعدون أن لو كانوا أطاعوا

(١) تفسير الطبري : ٢٧٢/٣٤ .

(٢) للتحرش : أن يميل حل حرجهم .

(٣) سورة القدر : آية ١ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ١٠ .

(٥) سورة النحل : آية ١ .

(٦) سورة الفرقان : الآيات ٢٧ - ٢٩ .

الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ، (وقالوا : ربنا ، إنا أطمنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السيل) ، وثاق طاموس : سادتنا يعني الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء . رواه ابن أبي حاتم .

أى : اتبنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عدلهم شيئاً ، وأنهم على شيء . [فإذا هم ليسوا على شيء ، (وربنا آثم ضفين من المذاب) ، أى : بكفرهم وإغوائهم إيانا ، (والمثمهم لمتاكبراً) - قرأ بعض القراء بالباء للموحدة . وقرأ آخرون بالثاء للثالثة ، وهما قريباً للمضى ، كما في حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أذع به في صلاتى . قال : قل : اللهم ، إني ظلمت نفسى ظلماً كبيراً ، ولا ينظر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . أخرجاه في الصحيحين (١) ، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما معنى صحيح .

واستحب بعضهم أن يجمع اللصاح بين الظلمين في دعائه ، وفي ذلك نظر : بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القاريء يغير بين القراءتين أيهما قرأ فحسنت ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن حسان بن أبي شيبة ، حدثنا زهير بن صرد ، حدثنا علي بن هاشم ، عن حبيب الله بن أبي رافع ، عن أبيه ، في تسمية من شهد مع علي رضي الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غزيرة ، وهو الذي كان يقول عند اللقاء : يا معشر الأنصار ، أريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه (وربنا إنا أطمنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السيل) . وربنا آثم ضفين من المذاب والمثمهم لمتاكبراً (٢) ٩٠ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ أَذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ يِمَّ قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبٌ

قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا عوف ، عن الحسن [ومحمد] وعطاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن موسى كان رجلاً حكيماً ، وذلك قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّاهُ الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيباً (٣)) ،

مكلاً أورد هذا الحديث هاماً مختصراً جداً ، وقد رواه في أحاديث الأئبياء : بل السند يمتد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن موسى عليه السلام كان رجلاً حياً سثيراً ، لا يرى من جلده شيء استباح منه ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما ينسُر هذا التستر إلا من عيب جلده ، إما برص وإما أدركه (٤) وإما آفة . وإن الله عز وجل أراد أن يبرِّهه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فضلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلبس فرغ أقبل إلى يابه ليأتملحها ، وإن الحجر هذا بقرية ، فأتاه موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : لو

(١) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٤٤/٩ . وسلم ، كتاب الذكر ، باب : استجابات غفقى الصوت بالذكر : ٢٤٨/٢٤ .

(٢) . أمد العنابة : المترجمة ١٠٨٤ : ٤٥٨/١ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الأحزاب : ١٥١/٦ - ١٥٢ .

(٤) الأذوة : نفقة في الخسبة . ويقال لرجل : أذ .

حَجَر . ثوبى حَجَر (١) . حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وأبراه مما يقولون ، وقام (٢) الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطبق بالحجر ضرباً بمصاه ، فوالله إن بالحجر لتندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيباً (٣)) .

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم .
وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم - وخلص ومحمد ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن موسى كان رجلاً حسيباً متبراً ، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه) (٤) .

ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولاً ، ورواه في تفسيره عن روح ، عن عوف ، به : ورواه ابن جرير من حديث الثوري ، عن جابر الجعفي ، عن عامر الشعبي (٥) ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ينحو هذا (٦) . وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن لكهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، وعبد الله بن الحارث ، (عن ابن عباس في قوله : (لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قال : قال قومه له : إنك آذر . فخرج ذات يوم يتنسل فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة فتتد (٧) بثيابه ، وخرج يتبعها هرياناً حتى انتهت به مجالس بني إسرائيل : قال : فرأوه ليس بأذر ، فذلك قوله : (فبرأه الله مما قالوا) .

وهكذا رواه الثوري ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن الملقم الأدي قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد ابن سلمة ، عن حنبل بن زيد ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : (كان موسى عليه السلام رجلاً حسيباً ، لؤلؤة آتق - أحسبه قال : للماء - ليختل ، فوضع ثيابه على صخرة ، وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال بنو إسرائيل : إن موسى آذر - أو : به آفة ، يبتون أنه لا يضع ثيابه - فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بملاء مجالس بني إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كالحسن الرجال ، أو كما قال ، فذلك قوله : (فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيباً)

ولله ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا حماد بن الرواح ، عن سفيان بن حسين (٨) ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في قوله : (فبرأه الله مما قالوا) ،

(١) أي : ثوبى بالحجر .

(٢) أي : وقف وتثبت .

(٣) البخارى ، كتاب الأندباء : ١٩٠/٤ - ١٩١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٤٢/٢ - ١٤٣ .

(٥) في تفسير الطبري مكان عامر الشعبي : صكرة .

(٦) تفسير الطبري : ٣٦/٢٢ .

(٧) أي : تسرح وتجري .

(٨) في تفسير الطبري : سفيان بن حبيب . والصواب ما هنا : نظر التلخيص : ٩٩/٥ .

قال : سعد موسى وهارون الجبل ، فأتى هارون عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلت ، كان أبنا لنا منك وأشد حياء . فأخذه من ذلك ، فأمر الله للملكة فحملته ، فورا به على مجالس بنى إسرائيل ، فشكمت بموته ، فاحرف موضع قبره إلا الرعم ، وإن الله جلله أسم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن حل بن موسى الطوسي ، عن عباد بن العوام ، به (١) .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا فرق أولى من قول الله عز وجل .

قلت : يحصل أن يكون الكل مراداً ، وإن يكون منه غيره ، والله علم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القدمة ما أريد بها وجه الله . قال : قلت : يا رسول الله ، أما لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت . قال : فذكر ذلك لنبى صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ، ثم قال : رحمة الله على موسى ، لقد أوتى بأكثر من هذا فصبر (٢) .

أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، به (٣) .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم (٤) . - موسى المدائني ، عن زيد بن زائد (٥) ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا يلبغي أحد من أصحابي عن أحد شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا (سليم الصدر) (٦) . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حال نفسه ، قال : فررت برجلبن وأطعها يقول لصاحبه : والله ما أريد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . قال : فتكبت حتى سمعت ما قلنا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إنك قلت لنا : لا يلبغي أحد من أصحابي شيئا ، وإني مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كلنا وكلنا . فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشق عليه ، ثم قال : ذهنا منك ، لقد أوتى موسى بأكثر من هذا ، فصبر (٧) .

وقد رواه أبو داود في الأدب ، عن محمد بن يحيى اللحلي ، عن محمد بن يوسف القرباني ، عن بنو إسرائيل عن الوليد ابن أبي هاشم به مختصراً : « لا يلبغي أحد من أصحابي (٨) » . عن أحد شيئا ، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر (٩) .

(١) تفسير الطبري : ٢٢ / ٣٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٨٠ .

(٣) البزارى ، كتاب الأنبياء : ١٩١ / ٤ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب : إصالة المولدة فلوجهم حل الإسلام وتصبر مع قولى وإياه : ١٠٩ / ٣ .

(٤) في المسند : « هشام » . وكلاهما مروى في اسمه ، انظر التلخيص : ١٠٩ / ١١ .

(٥) في المسند : « زائدة » . وكلاهما مروى أيضاً ، انظر التلخيص : ١٢٣ / ٣ .

(٦) ما بين القوسين من المسند ومكانه يباين في المخطوطة ، وفي الغاشم منه : « ما هنا سقط » . وله ووثيق فله في نصف كراس . وكذا ، وانقص مستقيم ؟ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٨) ما بين القوسين من سنن أبي داود .

(٩) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : « في دفع المشيئة » .

وكذا رواه الترمذي في «المتأنيب» ، عن اللؤلؤ سواء ، إلا أنه قال : «زيد بن زائدة» : ورواه أيضاً عن محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن محمد ، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السدي ، عن الوليد بن أبي هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد في إسناده السدي ، ثم قال : «غريب من هذا الوجه (١)» .
وقوله : (وكان عند الله وجيهاً) ، أي : له وجهة وجاه عند ربه عز وجل .

قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرتبة لما يشاء الله عز وجل .
وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة : أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فاجاب الله سؤاله ، وقال : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كآله يراه ، وأن يقولوا (قولاً سديداً) ، أي : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أُنْهَبَ عليهم بأن يصلح لهم أعمالهم ، أي : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها
ثم قال : (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) ، وذلك أنه يجاز من النار ، ويعصر إلى النعيم المقيم .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا خالد ، عن ليث ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى [الأشعري قال] ، صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن الله أمرني أن آمركم ، أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن الله أمرني أن آمركن : أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً » .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى» : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد العزيز بن محران الزهري ، حدثنا حبيب بن سمرة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر إلا نسحته يقول : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) ... الآية . غريب جداً .
وروى عن حليث بن عبد الرحمن بن زيد الصمى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب عن ابن عباس موقوفاً : من سره أن يكون أكرم الناس فليقل الله .

قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله .

وقال غيره : السديد : الصديق . وقال مجاهد : هو السداد : وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٧﴾ لَيُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٨﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس : يعي بالأمانة : الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يقبلتها . فذلك لآدم : إلى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يقبلتها ، فهل أنت تأخذ بما فيها ؟ قال : يارب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت : فأتى آدم فتحمّلها ، فذلك قوله : (وحملها الإنسان) إنه كان ظلوماً جهولاً (١) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : اقرار النفس ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها علبهم ، فكروها ذلك وأشفقوا من غير مصيبة ، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم قبلها بما فيها ، وهو قوله : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) ، يعي : غرّاً بأمر الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ، قال : عرضت على آدم فقال : خلديا بما فيها ، فإن أطعت عذرت لك ، وإن عصيت علبتك . قال : قبلت لما كان إلا قدوماً بين المصريين إلى ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة (٢) .

وقد روي الضحاك ، عن ابن عباس ، قريباً من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، والله أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصري ، وغير واحد : إن الأمانة هي اقرار النفس .

وقال آخرون : هي الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق : قال أبي بن كعب : من الأمانة (أن لمرأة) لم تمت على فرجها (٣) .

وقال قتادة : الأمانة الدين والقرار النفس والخلود .

وقال بعضهم : الفصل من الجنبات :

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاختصاص من الجنبات .

وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أئيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة ، حدثنا حماد بن واقد - يعني أبا عمر الصنفار - سمعت أبا معمر - يعني عون بن معمر - يحدث عن الحسن - يعني البصري - أنه تلا هذه الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السموات

(١) تفسير الطبري : ٣٨/٢٢ - ٣٩ .

(٢) تفسير الطبري : ٣٨/٢٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٣٩/٢٢ .

والأرض والجبال) ، قال : عرضها حل السبع الطبايق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحملت العرش العظيم ، قليل لما : هل تحمّلين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال قليل لما : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شلت بالأوتاد ، وقلّلت بالهباد ، قال : قليل لما : هل تحمّلين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال قليل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الثم الشوامخ للمصابب المصلاّب ، قال قليل لما : هل تحمّلين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال قليل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسماوات والأرض والجبال ، فبدأ بالسماوات لعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة ، فقال لهن : أتعملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة . . ؟ قلن : يارب ، إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليست بنا قوة ، ولكننا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتعملن هذه الأمانة وتقبلنها مني ، وأطيعيكن الفضل والكرامة ؟ قلن : لا عبر لنا على هذا يارب ولا نطيع ، ولكننا لك سامعين مطيعين ، لا نصيبك في شيء تأمرنا به ، ثم قرب آدم فقال له : أتعمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : مالي عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورحيت الأمانة ، فلك عندى الكرامة والفضل ورحن الثواب في الجنة . وإن عصيت ولم ترضها حق رعايتها وأسأت ، فأنى ممليك ومعاقلك وأتزلك النار . قال : رضيت رب . وتحملها ، فقال الله عز وجل : قد حمّلتكها . فلك قوله : (وحملها الإنسان) . رواه ابن أبي حاتم .

ومن يجاهد أنه قال : عرضها على السماوات فقالت : يارب ، حملنى الكراكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يارب ، غرست فى الأشجار ، وأمرت فى الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) فى حاقية أمره . وهكذا قال ابن جريج .

وعن ابن أشجرح أنه قال : لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ، غصصجنّ إلى الله ثلاثة أيام وليلالهن ، ولئن : ربنا ، لا طاعة لنا بالعمل ، ولا نريد الثواب .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هارون بن زيد بن أبى الزرقاء الموصل ، حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم فى هذه الآية : (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال) ، فقال الإنسان : بين ألقى وعاقبى . فقال الله تعالى : إنى ممّليك عليها ، أى : مميتك على حينك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطيع . ومميتك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطيع . ومميتك على فرجك بلباس ، فلا تكشفه إلى ما أكره .

ثم روى عن أبى حاتم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قول الله عز وجل : (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ، قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يقرض عليهن الدين ، ويجعل لمن ثوابا وعقابا ، ويستأمنهن على الدين . قلن : لا ، نحن مسخرات لأمر لا [تريد] ثوابا ولا عقابا ، قال : وعرضها الله على آدم فقال : بين ألقى وعاقبى . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إذ حملت هذا فساكنك ؟

وقال ابن جرير : حدثني سعيد بن عمرو السكوتى ، حدثنا بقية ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبي حبيب ، عن الحكم بن عيمر - وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الأمانة والوفاء نزلتا على ابن آدم مع الأنبياء ، فأرسلوا به . ففهم رسول الله ، ومنهم نبي ، ومنهم نبي رسول ، ونزل القرآن وهو كلام الله ، ونزئت الحرية والعصية ، فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بأستهم ، ولم يبلغ الله شيئا من أمره بما بأنون وما يجتنبون وهي المحجج عليهم ، إلا بيته لم . فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقيح ، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جلود قلوب الناس ، ثم يرفع الوفاء والعهد والتم وتبقى الكتب ، فمالم يمل ، وساجل يعرفها وينكرها ولا يحملها ، حتى وصل إلى وإلى أمي ، ولا يهلك الله على إلا هالك ، ولا يفضله إلا تارك . فالأمر أيا الناس ، ولما يك زال الوسواس الخناس ، فإما يلوكم أيكم أحسن حالا (٢) .

هذا حديث غريب جدا ، وله تواهد من زوجه لآخرى .

وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن الصنبري ، عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي ، عن أبي النوام
مهران بن داود الصطام ، (٦) به .

(١) تفسير الطبري : ٢٢/٣٩ - ٤٠ .

(۲) تفسیر الطبری : ۴۹/۷۷ .

(۴) فی تفسیر الطبری : « ثلثا الموام » حون و أبو . . . وهو غطاء ، و سیاق تعریف این کثیر باقی الموام .

(٤) ما بين القوسين من تفسير الطبري .

(٥) تفسير الطبري : ٢٢/٢٩ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب وفي المحافظة على وقت الصلاة .

كهيبتها ، ليحملها فيحملها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلّت فهو في أثرها
أيد الأبدن : قال : والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الخليل ، وأشد ذلك
للدواع : فقلت البره قلت : ألا تسمح إلى ما يقول أخوك عبد الله ؟ قال : صلق .

قال شريك : وحدثننا عياض العامري ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه : ولم يذكر «الأمانة في الصلاة وفي كل شيء» (١) : إسناده جيد ، ولم يخرجوه .

وهما يتعلق بالأمانة للحدث اللذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
حدثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعملوا من
القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : بنام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر
«الزكوة» (٢) ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر «المعطي» (٣) كجمهر دهرجه [على رجله] ، تراه
مستترا (٤) وليس فيه شيء - قال : ثم أخذ حصي للحرجة (٥) على رجله - قال : فيه يح الناس يتبايعون لا يكاد أحد
يؤمنى الأمانة ، حتى يذاه [إن في بني فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجمله وأظرفه وأعقله . وما في قلبه حبة من
هرجك من إيمان ، وقد أتى حكي زمان وما أبالي أيكم بايت ، إن كان مسلما ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهوديا
ليردنه على سابعه » (٦) ، فأما اليوم فما كنت أبابع منكم إلا غلاتا وغلاتا (٧) .

وأخرجاه في الصحيحين عن حديث الأعمش ، به (٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن أبيه ، عن الحارث بن يزيد الحضري ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : «أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصديق حديث ، وحسن خلق ، وعفة طعمة» (٩) .

حفظنا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص

- (١) تفسير الطبري : ٤٠/٢٢ .
- (٢) الزكوة - يفتح فسكون - : وأشد وكنة ، وهي : الأثر في الشيء ، كالتقطعة من غير لونه .
- (٣) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد .
- (٤) يقال : بليت يده : إذا غن جلدنا وتصير ، ونظير فيها ما يشبه البثر ، من العسل بالأشياء الصلبة انفتحت .
- (٥) الانتباير : الخروم والانتفاخ . ولقد البختاري ومسلم : «فقط قراه مستترا» ، يقال : فطقت يده - من باب تعب - : إذا صار بين الجمل والحم ماد .
- (٦) يعني : وليسهم الذي يصدر من رايه ، ولا يمشون أمرا كدونه . وقيل : أراد الوالي الذي عليه ، أي : يصفى منه ، وكل من دل أمر قوم فهو ساع عليهم .
- (٧) مسند الإمام أحمد : ٣٨٣/٥ .
- (٨) البخاري ، كتاب الفتن ، باب : إذا بنى مخالطة من الناس : ٦٦/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان .
- (٩) مسند الإمام أحمد : ١٧٧/٢ .

وقد قال الطبراني في مستد عبد الله بن عمر بن الخطاب : حدثنا يحيى بن أيوب الملقب المصري ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الخوارزمي بن يزيد ، عن ابن حجرية ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وحفة طعمة » . فزاد في الاستاد : « ابن حجرية » ، وجعله من مستد ابن عمر :

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة ، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق الشيباني ، عن خُتَّاسِ بْنِ سَحْمٍ - أو قال : جَبَلَكَةَ بْنِ سَحْمٍ - قال : أقبلت مع زياد بن حدير من البجاية فقلت في كلامي : لا والأمانة . فجعل زياد يبكي ويبكي ، فقلت أني أتيتُ أمراً عظيماً ، فقلت له : أكلان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر ابن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع ، قال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد ابن لعبه الطائي ، عن ابن بريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالأمانة فليس منا (١) » . فترد به أبو داود ، رحمه الله .

وقوله تعالى : (ليلبب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) ، أي : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليلبب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرن الإيمان خوفاً من أهله ويعطنون الكفر متابعة لأهله ، (والمشركين والمشركات) ، وهم الذين ظاهريهم وباطنيهم على الشرك بالله عز وجل وبخلافه رسله ، (ويعتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) ، أي : وليرحم المؤمنين من الخلق [اللئى آمنوا] بالله [وملاكه] وكتبه ووصله العاملين بعبادته ، (وكان الله غفوراً رحيماً) .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الإيمان والنذور ، باب : في كراهية الحلف بالأمانة .

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْقَلِيدُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝

يُخبر تعالى عن نفسه الكبرية : أن له الحمدَ للطلق في الدنيا والآخرة ، لأنه للنعم المفضل على أهل الدنيا والآخرة ، لذلك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال : (وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون) . ولهذا قال هاهنا : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) ، أي : الجميع ملكه وعبيده ، ونحوه تهره وتصرفه ، كما قال : (وإن لنا للآخرة والأولى) (١) .

ثم قال : (وله الحمد في الآخرة) ، فهو للمعبود أبدا ، المعبود على طول المدى . وقال : (وهو الحكيم) ، أي : في أموره وأفعاله وشرعه وقدره ، (الخبير) الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال مالك من الزهرى : خبير بخلق ، حكيم بأمره . ولهذا قال : (يعلم ما يُلج في الأرض وما يخرج منها) ، أي : يعلم عدد القطر النازل في أجزله الأرض ، والحب الملبور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفية وصفاته ، (وما ينزل من السماء) ، أي : من قطر وورق ، (وما يخرج فيها) ، أي : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، (وهو الرحيم الغفور) ، أي : الرحيم بعباده فلا يماجل عصمتهم بالقوية ، الغفور من ذنوب التائبين إليه للتركتين عليه .

وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ لَيَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا عَلَيْنَا فَيَنبَغِزُوا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَنَبِيِّنَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لمن ، مما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع للعاد لتأنيده من أنكره من أهل الكفر والتعاد ، فإحداه في سورة يونس : (ويستنبطونك الحق هو ؟ قل إلى ربي إنه الحق

وما أنتم بمعجزين (١) ، والثانية هذه : (وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة ، قل : بل وربي لتأتينكم) ، والثالثة في الثنائين (زعم الذين كفروا أن لن ينصرنا ، قل : بل وربي لتبينن ، ثم لتبينن بما عملن ، وذلك على الله يسر) (٢) ، قوله : (قل : بل وربي لتأتينكم) ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك وقرره : (علم الغيب ، لا يزيب عنه مقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) »

قال مجاهد وقطادة : (لا يزيب عنه) ، لا يغيب عنه (٣) ، أي : الجميع متدرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء ، فالعظام وإن تالشت وتفرقت ونحزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يبعدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم ،

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين) ، أي : سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، (أولئك لم عذاب من رزق أليم) ، أي : لنعمهم السعيا من المؤمنين ، ويطلب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) (٤) ، وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المظلمين كالنهار) (٥) ،

وقوله : (ويرى الذين آمنوا أأنزل إليهم من ربك هو الحق) ، هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والعقاب باللي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا وأوه حيثئذ حين البعث ، ويقولون يومئذ أيضاً : (لقد جاءنا رسول رينا بالحق) (٦) ، وقال أيضاً : (هلنا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (٧) ، (لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهلنا يوم البعث) (٨) ، (ويرى الذين آمنوا أأنزل إليهم من ربك هو الحق ، وبه إلى صراط العزيز الحميد) - العزيز هو : المنيع الجنب ، الذي لا يخالط ولا يُمكنح ، بل قد فسر كل شيء ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو الممجد في ذلك كله .

(١) سورة يونس ، آية : ٥٣ .

(٢) سورة التباين ، آية : ٧ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٣/٢٢ .

(٤) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .

(٥) سورة ص ، آية : ٢٨ .

(٦) سورة الأعراف ، آية : ٤٤ .

(٧) سورة ص ، آية : ٥٢ .

(٨) سورة الروم ، آية : ٥٦ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدَّبَكُم عَلَىٰ رُحُلِي بِئْسَ يُنَادِيكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّنْ قَوْمٍ لَّيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ
 لِلَّهِ كَذِبًا أَفَرَأَيْتُمْ جَنَّاتٍ بَلِيٍّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٢﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَمَخَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ إِنَّ لَنَا حِشْفًا بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
 لَآيَةً لِّكُلِّ هَادِيٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة للملحين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - في إخباره
 بذلك : (وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل يناديكم إذا مرَّكم كل قَوْمٍ لَي خَلْقٍ جَدِيدٍ) ، أى : تفرقت أجناسكم في الأرض وذهبت
 فيها كل ملجأ ، وتخرقت كل حمق : (إنكم) ، أى : بعد هذا الحال (لَي خَلْقٍ جَدِيدٍ) ، أى : تعودون أحياء ترزقون
 بعد ذلك : وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسنيين إما أن يكون قد تمعد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه
 لم يتعمد لكن تيسر عليه كما يُلَبِّس على المتوه والخبون : ولهذا قالوا : (أترى على الله كذباً ، أم به جنة) ؟ قال الله
 تعالى راداً عليهم : (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) ، أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ،
 إبل محمد صلى الله عليه وسلم هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة البهجة الأضياء ، (في العذاب) ، أى :
 الكفر للقضى بهم إلى عذاب الله ، (والضلال البعيد) من الحق في الدنيا .
 لم قال منها لم على قدرته على خلق السموات والأرض - فقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء
 والأرض) ، أى : حينما توجهوا وذهبوا فالسما مُمْلَكَةٌ مُّظَلَّةٌ عليهم ، والأرض مَحْتَمٌ بهم ، كما قال : (والسماء بينناها
 ما بين وانا لموسون ، والأرض فرشتاها فنعلم للآلهون (١)) .

قال عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء
 والأرض) ، قال : إنك إن نظرت من بينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .
 وقوله : (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) ، أى : لو شئنا لقطعنا بهم ذلك لظلمهم وقدرنا
 عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وضوئنا .

ثم قال : (إن في ذلك لآية لكل هاديٍ مبين) ، قال معمر ، عن قتادة : (متين) ، تأنيب .
 وقال سفيان عن قتادة : للتبني : القبل إلى الله عز وجل .

أى : إن في النظر إلى خلق السماء والأرض دلالة لكل عبد قطن ليبه رجاء إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد
 ووقوع المماد ، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطولها وأقصاها ،
 لأنه قادر على إحادة الأجسام ونشر الرمم من العظام ، كما قال تعالى : أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن
 يخلق مثلهم ، بلى (٢) ، وقال : (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣)) .

(١) سورة الناريات آية : ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) سورة يس ، آية : ٨١ .

(٣) سورة فاتر ، آية : ٥٧ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ اَوْبِيْ مَعْمُرٍ وَالطَّيْرُ وَالنَّٰثِرُ لَهُ الْحَبِيْدُ ﴿١٠﴾ اِنْ اَعْمَلَ سَبِيْحَتٍ وَّكَتَرِ فِي السَّرْدِ وَاَعْمَلُوْا صَلٰطٌ اِنِّيْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ ﴿١١﴾ ۝﴾

غير تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود - صلوات الله وسلامه عليه - بما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملوك للممكن ، والجنود قوى المدد والمعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذي كان إذا سمع به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشاغعات ، وتقف له الطيور السارحات ، والناديات والرنجات ، ونجاوبه بأنواع اللغات . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقرائه ، ثم قال : ولقد أوتى هذا ميزكراً من مزاير آل داود (١) .

وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صبح ولا يرتبط (٢) ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

ومعنى قوله : (أوبى) ، أى : سبى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد . وزعم أبو مبصرة أنه معنى سبى بلسان الحبشة . وفي هذا نظر ، فإن التوبى في اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه والجمال في باب التثنية منه : (يا جبال ، أوبى معه) ، أى : وسبى معه بالنهار كله ، والتأوبى : سبب النهار كله ، والإسآد : سبب الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده لغيره ، وإن كان له مساعدة من (حيث) التفض في اللغة ، لكنه بعيد في معنى الآية هاتنا . والصلوب أن الذى في قوله تعالى : (أوبى معه) ، أى : رجعتي مسبحة معه ، كما هضم ، والله أعلم .

وقوله : (وألنا له الحبيد) ، قال الحسن البصري ، وقناة ، والأعشى وغيرهم : كان لا يحتاج أن يكلمه تاراً ولا يقبضه بمطقة ، بل كان يقضه بيده مثل الخيوط ، ولهذا قال : (أن اعمل سابغات) ، أى : الدروع - قال قناة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح (٣)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا ابن ميادة ، حدثنا ابن خزيمة ، عن ابن شوذب قال : كان داود - عليه السلام - يرفع في كل يوم دعواً فيصيحها ستة آلاف درهم : أثنين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل شحم الخنزيرى (٤) .

(وقدر في السرد) ، هذا إرشاد من الله لنتبه ، داود عليه السلام ، في تعليمه صنعة الدروع .

-
- (١) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب : حسن الصوت بالقراءة ، ٢٤١/٦ . وسلم ، كتاب السالكين ، باب : استحباب الصوت بالقرآن ، ١٩٢/٢ - ١٩٣ .
(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ١٧٤/٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، ٤٦/٢٢ .
(٤) الخنزير الحمارى ، الذى نخل مرة بعد أخرى .

قال مجاهد في قوله : (وقد في السرد) : لا تُدَقِّ المسار (١) في الحلقة ، ولا تُعَلِّقْه فيفصمها (٢) ، واجعله بقدر :

وقال الحكم بن عتيبة : لا تُعَلِّقْه فيفصم ، ولا تُدَقِّه فيفلق . وهكذا روى عن قتادة ، وضرب واحد .
وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَقُ الحديد . وقال بعضهم : يقال : درج مسرودة : إذا كانت مسرودة الحلقي ، واستشهد بقول الشاعر (٣) :

وعَلَيْهَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا • « دَاوُدُ » ، أَوْصَنَحُ السَّوَابِغَ « تُبَعُّ (٤) »

وقد ذكر الحافظ ابن حساكر في ترجمة داود - عليه السلام - من طريق إسحاق بن بشر . وفيه كلام - من أني إلياس ، عن وهب بن منبه ما مضمونه : أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً ، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحداً إلا أني عليه خبراً في حياته وسيرته ومعدته - صلوات الله وسلامه عليه - قال وهب : حتى يث الله ملكاً في صورة رجل ، فلقبه داود فساله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً . قال : ما هي ؟ قال : يأكل ويطلع عياله من مال المسلمين . يعني بيت المال ، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه في الدعاء أن يعلمه حملاً يديه يستفي به ويغني به عياله ، فالأن له الحديد ، وحلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع ، وهو أول من عملها ، فقال الله : (أن اعمل سابغات وقد في السرد) ، يعني سابغ الحديد ، وكان يعمل الدرع ، فإذا رصع من حملة درج بأهيا ، فصنق بلثها ، واشترى بثلثها ما يكتيه وحياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم أن يعمل غيرها . وإن الله أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش (٥) حتى يدخل بأهانتها وما تنفر ، وما سمعت للشياطين المزمار والبُرْبُط والمُنُوج إلا حل أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في سُرَابِير ، وكان قد أعطى سبعين [مزاراً] في حلقة .

وقوله : (واعلموا صالحاً) ، أي : في الذي أعطاكم الله من النعم ، (إلى بما تعملون بصبر) ، أي : مراقب لكم ، **بصبر بأعمالكم وأقوالكم ، لا بغنى عن ذلك شيء .**

وَلَيْسَ مِنَ الرِّيحِ غَدُوها وَسُورُوحها شَهْرٌ وَأَسْلَمُها لَهُ عَيْنُ الْقَطْرِ وَمِنْ أَيْحَنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ
وَمَنْ يَرْغَ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا يُدَقِّ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَيَنْشِئُونَ
كُلَّ لُجُوءٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْلَمُوا أَنَّ دَاوُدَ شَكَرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿٧﴾

(١) أي : لا يجعله دقيقاً رقيقاً . ويقلق ويصيرك ويكون غير ثابت .

(٢) أي : يكسرها .

(٣) هو أبو ذؤيب اللؤلؤ ، من قصيدته البنية المشهورة ، انظر ديوان الهذليين : ١٩/١ . ولسان العرب ، مادة « قضى » .

(٤) قاضاً : فرغ منها . والصنع - بفتحين - : الخلق بالعمل . وتبع ملك من ملوك حبر ، كانت تنسب إليه الدروع البنية . وقد ذكر الأصبسي أن أبا ذؤيب قد غلط في هذا فقال : إنه - أي أبا ذؤيب - مع بالدروع البنية ، فظن أن تبعا عملها ، وكان تبع أعظم شأناً من أن يصنع شيئاً يبد ، وإنما حملت بأمره وفي ملكه .

(٥) في الطبقات السابقة : « تسمع الوحش إليه حتى ... » .

١٤ ذكر تعالى ما أنتم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان ، من تسخير الريح له لعمل بساتنه ، غلها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصري : كان يندو على بساتنه من دمشق فيقول باصطخر (١) ينفذني جاء ، ويلعب لرائحة من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرح ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرح .

وقوله : (وأسلنا له عين القطر) - قال ابن عباس ، وعجاده ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، وقادة ، والسدي ، ومالك بن زيد بن أسلم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر النحاس . قال قتادة : وكانت يالين ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليان عليه السلام .
قال السدي : وإنما أسلفت له ثلاثة أيام .

وقوله : (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) ، أي : وسخرنا له الجن يعملون به يديه بإذن الله ، أي : بقدره ، وتسخره لهم بحسبته ما يشاء من النبات وغير ذلك . (ومن يرغ منهم عن أمرنا) ، أي : ومن يبدل ويخرج منهم عن الطاعة (نلقه من حباب السبع) ، وهو الخريق .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال : حدثنا أبي [حدثنا أبو] صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جابر بن نفير ، عن أبي ثعلبة الشنقيطي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الجن كل ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظفون : ربه غريب جداً .
وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا حملة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني بكر بن مضر ، عن حميد ، عن ابن أنس أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الأبواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيا بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثني أن الإيس ثلاثة : صنف يظلمهم الله بظل حرشه يوم القيامة : وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين

وقال أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن حاتم بن مرزوق حدثنا سلمة - يعني ابن الفضل - عن إسماعيل ، عن الحسن : قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مومنون ومن هؤلاء مومنون ، وهم شركائهم في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء مؤمناً فهو ولي الله ، ومن كان من هؤلاء وكافراً فهو شيطان .

وقوله : (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) ، أما المحاريب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصنعه ، وقال مجاهد : المحاريب بياض دون القصور . وقال الضحاك : هي للمساجد . وقال قتادة : هي للمساجد والقصور . وقال ابن زيد : هي للمساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفي ، والضحاك والسدي : التماثيل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : (وجفان كالجرب وقدور راسيات) ، الجواب : جمع جانية ، وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء ، كما قاله الأعمش ميمون بن قيس (٢) :

(١) إصطخر - بكسر الهمزة ، وسكون الخاء المسجمة - : بلدة بفارس ، وهي من أقدم منها . وأما كابل فهي - كما في معجم البلدان لياقوت - : من ثغور طخارستان .

(٢) ديوانه ، ط بيروت : ١٢١ . ورواية لشرط الأول فيه :

• في اللام من آله الخلق جنة •

والبيت أيضاً في تفسير الطبري : ٤٩/٢٢ •

تَرَوْحُ عَلَى آلِ لَحْمَتِكَ جَعَنَةً * كِتَابِيَّةُ الشَّيْخِ المَرَاكَلِيِّ تَفْهَمُ (١)

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (كالجواب) ، أي : كالجوبة (٢) من الأرض .

وقال الرقي ، عنه : كالخياض (٣) . وكلما قال مجاهد ، والحسن ، وقنادة ، والضحاك وغيرهم :

واقنود الراسيات ، أي الثابتات ، أي أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لمعناها . كلما قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال حكيم : ألقاها (٤) منها ؛

وقوله : (اعملوا لك داود شكرا) ، أي : وقلنا لم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين ؛

وشكراً : مصدر من غير الفعل (٥) ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون

بالقول وباليه ، كما قال ؛

أَفَادَ كُكُمُ التَّحَمُّامِ مَتَى ثَلَاثَةً : * يَدِي ، وَلِسَانِي ، وَالْفُتَيْمِ الْمُسَحَّيْبِ

قال أبو عبد الرحمن (الحليل) (٦) : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير عمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد ،

رواه ابن جرير ؛

وزي هو وابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي قال : الشكر لقوى الله والعمل الصالح ؛

وهذا يقال إن هو متطابق بالفعل ، وقد كان آل داود - عليه السلام - كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملًا ؛

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، حدثنا جعفر ، - يعني ابن سليمان - عن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغفرهم هذه الآية : (اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادي للشكور) .

وفي الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان يتم نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سلمه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولا ينكر إذا لاقى (٧) » .

(١) الشيخ العراقي : قيل إنه أراد به كسرى . تلهق : تلبس .

(٢) الجزية : الحفرة المستديرة الواسعة .

(٣) تفسير الطبري : ٤٩/٢٢ .

(٤) الألفاظ : جمع أفتية - بقم الحزمة ، ومكون لئاء ، وكسر الفاء ، وياء مطددة وقد تنحفت - وهي الحياجرة التي تنصب وتجعل القنود عليها .

(٥) أخذ ابن كثير ذلك من الطبري ، قال ابن جرير ٥٠/٢٢ : « وإخراج قوله (شكراً) مصدراً من قوله : (اعملوا آل داود) ، لأن معنى قوله (اعملوا) : « اشكروا ربكم بطاعتكم إياه » .

(٦) ما بين القوسين عن تفسير الطبري : ٥٠/٢٢ ، ومكمله في المخطوطة : « والسلي » . وقد روى عنه هذا الأثر زهرة ابن معية ، وزهرة بن معية - كما في التهذيب : ٣٤١/٣ - يروى عن أبي عبد الرحمن الحلي .

(٧) البخاري : كتاب الأضياء ، باب قول الله تعالى : (وأتينا داود زبوراً) : ١٩٥/٤ ، ورواه : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود » : ١٩٥/٤ - ١٩٦ ، ومسلم : كتاب الصيام ، باب « النبي من صوم الدهر ... » : ١٩٥/٢٣ .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سنيّد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قالت أمّ سليمان بن داود لسليان : يا بني ، لا تكسر التوم بالليل ، فإن كثرة التوم بالليل ترك الرجل قبراً يوم القيامة (١) » ؛

وروى ابن أبي حاتم عن داود - عليه السلام - هاهنا أنرا خريفا مطولا جذا ، وقال أيضاً :

حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد (٢) فيض بن إسحاق الرقي قال : قال لفضيل في قوله تعالى : (اعملوا آل داود شكراً) . فقال داود : يارب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرني حين علمت أن النعمة مني » .

وقوله : (وقليل من عباده الشكور) ، إخبار عن الواقع .

قُلْ أَتُحِبُّونَ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَعَابِكُمْ فَبَآنُكُمْ بَيْنِي وَأَيْنُكُمْ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَذَابَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١١﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف صمى الله موته على الجنّ السخريين له في الأعمال الشاقة ، فانه مكث متراكماً على حصاه - وهي منسأته - كما قال ابن عباس ، وجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، وهي الأرضة ، ضعفت وسقط إلى الأرض ، وحمل الله قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تينث الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون القيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع خريص ، وفي صحيحه نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حليفة ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن حماد (٣) ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : كان سليمان نبي الله - عليه السلام - إذا صلى رأى شجرة ثابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كنا . فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس خرسست ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ (٤) . فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : نخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، صمّ على الجن موتي حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون القيب . فتحتها عصاً ، فتراك عليها حولا ميتاً ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت للإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون القيب ما لبثوا [حولاً] في العذاب المهين .

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب « إقامة الصلاة والسنة فيها » ، باب « ما جاء في قيام الليل » ، الحديث ١٣٣٢ : ١/٢٢٢ .

(٢) في المخطوطة : « زيد » . والمثبت من الجرح والتصديق : ٢/٣٠٨ .

(٣) في المخطوطة : « عن حماد بن السائب » ، ومثله في تفسير الطبري . وما أئتمناه من الطبعات السابقة ، وإلى وجهه قول ابن كثير رحمه : « والأقرب أن يكون موقفاً ، وصادق بن أبي مسلم الخراساني له غرائب » . وعليه فهو صادق بن أبي مسلم .

لا خلاف بين السائب ، هاهنا ويروى عن صادق بن أبي مسلم إبراهيم بن طهمان ، انظر التهذيب : ٣١٢/٧ .
(٤) أي : تقطع وتصر ، ويكتب على الصخرة اسمها ودواؤها . انظر النهاية : مادة (خرب) .

قال : وكان ابن عباس يقرأها كذلك . قال : فشكرت لجن الأرض ، فكانت تأتيها بالأمم (١) .
وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، من حديث إبراهيم بن طهمان ، به : وفي رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون
موقوفاً ، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابيات ، وفي بعض حديثه نكارة .

وقال السدي ، في حديث ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس - وعن مرة الحمصاني ، عن ابن
مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كان سليمان يتحرر (٢) في بيت المقدس السنة
والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي توفي فيها ، وكان
بده ذلك (٣) أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا تبت في بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول :
اسمي كذا وكذا (٤) : فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبتت دواء قالت : نبتت دواء لكلنا وكلنا . فيجعلها
كذلك ، حتى تبت شجرة يقال لها : الخروبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولا شيء تبتت ؟
قالت تبت لغراب هذا المسجد ؟ قال سليمان : ما كان الله يُعزِّبه وأنا حي ؟ أنت التي حل وجهك هلاكاً وغراب
بيت المقدس : فزعمها وغرسها في حائط له ، ثم دخل الغراب فقام يصلي متكاً على عصاه ، فأتت ولا تعلم به الشياطين ،
وهم في ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم . وكانت الشياطين تجتمع حول الغراب ، وكان الغراب له كوى
بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد [أن] يخلع يقول : أأست جلدك إن دخلت فخرجت من ذلك الحائط ؟
فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر ، فيدخل شيطان من أولئك فر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في الغراب إلا
احترق . فر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع في البيت ولم يخرج . ونظر إلى سليمان عليه
السلام قد سقط ميتاً . فخرج فأنشأ الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا عليه (٥) فأخرجوه . ووجدوا منسأته -
وهي : العصا بلسان الحبيسة - قد أكلتها الأرض ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرض على المنصا ، فأكلت
منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك الدنو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهي في قراءة ابن مسعود . فكانوا يدأبون (٦)
له من بعد موته حولا ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان
ولم يلثوا في العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله عز وجل : (ما حلح على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما
خر تبيت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) ، يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم .
ثم إن الشياطين قالوا للأرض : لو كنت تأكلين الطعام أنيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشرين الشراب سقيناك أطيب
الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين - قال : فهم يقولون إنها ذلك حيث كانت - قال : ألم تر إلى الذين (٧) الذي
يكون في جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكرأ لها (٨) .

(١) لتفسير الطبري : ١/٢٢ .

(٢) كذا وفي المخطوطة ، وفي تفسير الطبري : « يتحرر » . وفي الدر المنثور ٢/٢٩٧ : « يتحرر » .

(٣) لفظ الطبري : « فأدخله في المرة التي مات فيها ، وذلك أنه لم يكن يوم يصبح ... » .

(٤) بده في تفسير الطبري : « فيقول لها : لئى شيء تبت ؟ فتقول : نبت لكلنا وكلنا . فيأمر بها فتقطع » .

(٥) ما بين القوسين عن الطبقات السابقة . وفي المخطوطة : « ففتحوا صه » . وفي الدر المنثور ٢/٢٩٧ : « ففتحوا صه » .

(٦) في المخطوطة : « يذنون » . وللحديث عن تفسير الطبري . وفي الدر المنثور : « يدأبون » .

(٧) وقع هنا سقط في تفسير الطبري .

(٨) تفسير الطبري : ١/٢٢ - ٥٢ .

وهذا الآخر - والله أعلم - إنما هو مما تلي من علماء أهل الكتاب ، وهي وكُفَّ ، لا يصدق منها إلا ما وافق الحق ، ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقي لا يصدق ولا يكذب .

وقال ابن وهب^(١) وأصحب بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : (ما حلح على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) ، قال : قال سليمان عليه السلام لملك الموت : إذا أمرت في فأعلمني : فأنا فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سوية ؟ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصل فانكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت - قال : والجن يعملون بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حي . قال : فيبت الله - عز وجل - دابة الأرض ، قال : والدابة تأكل العبدان - يقال لها : القادح - فدخلت فيها فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف الصا ضغطت ، وقتل عليها فخر ميتاً ، فلما رأيت ذلك الجن انقضوا وذهبوا ، قال : فذلك قوله : (ما حلح على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) - قال أصح : بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن ينز . وقد ذكر خبر واحد من السلف نورا من هذا ، والله أعلم .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلًّا مِنْ رِزْقِ رَبِّكَ وَشَرَكُوا لَهَ بِأَلَدَةِ حَبِيبِهِ رَبِّ
عُورٍ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا طَائِفَهُمْ سَبِيلَ الْعَرَمِ ۖ وَأَبْكَتْهُمْ يَجْنِتُهُمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْمَامٍ تَحْمِلُ وَائِلٍ وَيَتَّوَمِنُ
مِنْهُ قَلِيلٌ ۝ ذَٰلِكَ جَزَاءُ كَفْرِهِمْ وَعَاكِفُوا ۖ وَهَلْ يَجْزِيهِ إِلَّا الْعُقُورُ ۝

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التابعة منهم ، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم ، وكانوا في لعبة وظيفية في بلادهم ، وحيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثراهم . وبث الله إليهم الرسل فأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فصرفوا بإرسال السيل والفرق في البلاد أبلى سبأ ، شلى مكر كما يأتي تفصيله وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عبد الله بن هُبيرة ، عن عبد الرحمن بن وُهَيْل قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد حشرة ، فسكن اليمن منهم سبعة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما الباقون فكمك حبيح » وكذلك ، والأزد ، والأشعريون وأنصار حبيز^(٢) ، وأما الشامية للحم ، وجدام ، وحاملة ، ويسان^(٣) .
ورواه عبد ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة^(٤) ، به . وهذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه . وقد رواه الحافظ

(١) رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد في تفسير الطبري : ٥٢/٢٢ .

(٢) يمتد في السنة : « حرباً كلها » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣١٦/١ .

(٤) في المخطوطة مكان « ابن لهيعة » : « حرب » . والمثبت عن الطبقات السابقة ، وفي التذهيب ٣٢٢/٢ أن الحسن بن موسى الأشعري عن ابن لهيعة .

أبو هرير بن عبد البر في كتاب «المعتمد والأهم» ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم ، من حديث ابن هبيرة ، عن حلقة بن وبرة ، عن ابن عباس ذكره نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] (١) : أيضاً وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جتناب يحيى بن أبي حنيفة الكلبي ، عن يحيى بن هانيء بن عروة ، عن فروة بن مسيك قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أقاتل بمقبول قومي مديرم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبول قومك مديرم » : فإني وليت دعائي فقال : « لا تقاثلهم حتى تدعهم إلى الإسلام » : فقلت : يا رسول الله ، لو أيت سبأ لواد هو ، أو رجل ، أو ما هو ؟ قال : « بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فتية من سنة وتسامم أربعة ، ثمان الأزدي ، والأشعريون ، وحمر ، وكنته ، وبلنج ، وأغار الذين يقال لهم : بجيلة وخشم : وتسامم ثلث ، وجلد ، وعاملة ، وضمان :

وهذا أيضاً إسناد جيد وإن كان فيه أبو جتناب الكلبي ، وقد تكلموا فيه : لكن رواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن الباقين ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانيء المرادي ، عن عمه أو عن أبيه - بذلك أسباط - قال : قدم فروة بن مسيك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره (٢) :

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، حدثني ابن هبيرة ، عن أبيه بن (٣) ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند حبيبة بن عبد الرحمن باغرية قال يوماً : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال علي بن رباح : كلا ، قد حدثني فلان أن فروة بن مسيك الفطيفي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن سبأ قوم كان لهم جز في الجمالية ، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ قال : « ما أمرت بهم بشيء بعد » . فأنزلت هذه الآية : (لقد كان لسبأ في مسألتهم (٤) آية) : الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل [هذا] الحديث [الذي] أقبله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن سبأ : ما هو ؟ أبعد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، وكنته عشرة فسكن اليمن منهم سنة ، والثام أربعة ، أما الباقين فبلنج ، وكنته ، والأزدي ، والأشعريون ، وأغار ، وحمر غير ما حلها . وأما الثام فثلث ، وجلد ، وضمان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر الآية بالفتح ، والسورة مكية كلها ، والله أعلم .

طريق أخرى قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثني الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو صبرة النخعي ، عن فروة بن مسيك الفطيفي قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرني عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيمان سنة وتسامم أربعة ، فأما الذين تسامموا للثام وجلد »

(١) ما بين القوسين من الطبقات السابقة : وفي غطوة الأثر مكان « أسد » كلمة مفروجه عليها . حل أنا لم نجد هذا الحديث في مسند الإمام أحمد ، وانظر حديث فروة بن مسيك في المعتمد : ٤٥١/٣ . ولعل هذا الحديث قد أدرج في مسند غيره من الصحابة ، فقد قال السيوطي في البلد المنثور ٢٣١/٥ : إن الإمام أحمد وعبد بن حميد أخرجاه ، ويخشى أن يكون السيوطي قد اتبع حل بعض غطوات هذا الضمير ، وكذلك قال الحافظ أبو المثل في تحفة الأسفوي ٩٠/٤ : إن الإمام أحمد أخرجه ، قاله أعلم .

(٢) تفسير الطبري : ٥٢٧٢٢ .

(٣) في الغطوة : « غير » . ولكتبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤٤٩/١ .

(٤) كذا في غطوة الأثر (مسألتهم) ، جيساً . وهي قراءة الجمهور . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٢٩٩/٢ .

وعاملة وغسان ، وأما الذين ياتونوا ذكئة ، والأشعيرون، والأزرد، ومنجج ، وحمبر ، وأغار : فقال رجل : ما أغار ؟ قال : « الذين منهم ختم وبجيلة (١) » .

ورواه الترمذى فى جامعه ، عن أبى كريب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أمامة ؓ : فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب (٢) » .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد بن زهير ، حدثنا عبد الإله بن نجيعة الحوطى ، حدثنا ابن كثير - هو عثمان بن كثير - عن الليث بن سعد ، عن موسى بن حلى ، عن يزيد بن حصين ، عن نعيم الدارى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن سبأ ... فذكر مثله ، فقرأ هذا الحديث وحسن .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إصحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يبريت بن قحطان (٣) ، وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له الراثنى ، لأنه أول من ضم فى الزو فأعطى قومه ، فسمى الراثنى ، والعرب تسمى للآل : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر يرسله الله صلى الله عليه وسلم فى زمانه المقدم ، وقال فى ذلك شعرا (٤) :

سَبَّكَ بِحَسْبِكَ مَلَكًا عَظِيمًا	نَبِيٍّ لَا يَرْفُضُ فِى الْحَرَمِ
وَسَبَّكَ بِعَدَّةٍ مِّنْهُمْ مَلُوكٌ	يَلْبِسُونَ الْعِبَادَ بِشِيرِ قَامٍ
وَسَبَّكَ بِمَلْعَمٍ مِّنْ مَّلُوكٍ	يَصْبِرُ لِلْعَلَا لَيْلًا بِالنَّاسِمِ
وَسَبَّكَ بِمَدَّةٍ قَحَطَانِ نَبِيٍّ	فَقَى خَبْرَتِهِ (٥) خَيْرَ الْأَنَامِ
وَسَمَى أَحْسَنًا يَكُونُ إِلَى	أَحْمَرٍ يَعُدُّ مَتَاعَهُ بِعَامِ
فَأَعْبَدَهُ وَأَحْبَبَهُ بِصَبْرِي	بِكُلِّ مَدَّجٍ وَيَكُلُّ رَامِ
مَنْ يَظْهَرُ فَكُونُوا نَاصِرِهِ	وَمَنْ يَكْفَاهُ يُبْلَغُهُ سَكَامِ

ذكر ذلك المحدث فى كتاب «الإكليل» .

واختلفوا فى قحطان على ثلاثة أقوال ، أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا فى كيفية اتصاله بسببه على ثلاث طرائق

(١) تفسير الطبرى : ٥٣/٢٧ .

(٢) نسخة الأحرصى ، تفسير سورة سبأ ، الحديث ٣٢٧٥ - ٨٨/٩ - ٨٩ .

هذا وقد أخرجه أبو داود ، فى كتاب الحروف والقرامات من طريق حبان بن أبى شينة وطارود بن عبد الله ، عن أبى أمامة .

(٣) سيرة ابن هشام : ١٠/١ . والى فى جبهة أنساب العرب لابن حزم ٣٢٩ ، ونسب حدان وقحطان لغيره ١٨ . أن اسم سبأ : طمر .

(٤) الأبيات فى البداية والنهاية لابن كثير ، طيبة بيروت : ١٥٨/٢ .

(٥) وردت هذه الكلمة فى المخطوطة دون نقل . وفى البداية والنهاية مكانها : « بيته » ولا معنى لها هنا ، ولا يستقيم عليها وزن البيت . ولعل الصواب ما أثبتناه ، ويكون من الوصف بالصدر ، يقال : « هذا الرجل فيه خبته » ، أى : تواضع .

والثاني : أنه من سلالة عابر ، وهو هود عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليها السلام - واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً : وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر التميمي رحمه الله ، في كتابه : « الإتياء على ذكر أصول القبائل الرواة » :

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلاً من العرب » ، معنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم (١) ، والله أعلم ، وفي صحيح البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنجر من « أسلم » ينتقلون (٢) ، فقال : « ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا (٣) » : فأسلم قبيلة من الأنصار ، [والأنصار] أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ - نزولوا يثرب لما تفرقت سبأ في البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غسان جاء نزولاً عليه فيل باليمن : وقيل : إنه قريب من للشكل (٤) ، كما قال حسان بن ثابت (٥) :

إِذَا سَأَلْتَ فَانْصُرْ نَجْبُ • الْأَزْدُ لِيَسْبِتُنَا • وَلِإِذَا غَسَّانُ

ومعنى قوله : « ولده عشرة من العرب » ، أي : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأيوان الثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر معين في مواضع من كتب النسب :

ومعنى قوله : « فتيان منهم ستة » ، وتشام منهم أربعة ، أي : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزع عنها إلى غيرها : وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين ويجتمع إليه أيضاً سيوك أمطارهم وأوديعهم ، فصمّد ملوكهم الأقدام ، فهربوا بينها سداً عظيماً حكا حتى ارتفع الماء ، وحكّهم على حافات ذببت الجبلين ، ففرسوا الأشجار واستغلوا الفمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكلل أو زنبيل ، وهو الذي تحترف (٦) فيه النصارى ، فيتناقص من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطعاً ، لكثرة ونضجه واستوائه . وكان هذا لشد ما يربى ، يلذ بها وبين صنامها ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن يلبس شيء من اللباب ولا العوض ولا البراهيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاحتدال الهواء وصحة المزاج وحماية أقدارهم ، ليرحلوهم ويعينهم ، كما قال تعالى : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) ، ثم فسرها

(١) انظر جبهة أصحاب الحرب لابن حزم ٥ : ٧ . وتب مدللان وقطعان المبرد ١٨ : ١٨ .

(٢) أي : يرتعدون بالهيام .

(٣) البخاري ، كتاب المناقب ، باب : نسبة اليمن إلى إسماعيل ٤ : ١٩٤ .

(٤) المشلل - بنم الميم ، وفتح الشين واللام المشددة - جبل وراء حوز - واد قريب من المدينة - جهل منه إلى ثبته من ناحية البحر .

(٥) ديوانه ، طبعة بيروت ٥ : ٢٥١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١٠٧ .

(٦) أي : نجس .

بقوله : (جتنا من بين وهال) ، أى : من ناحى الجبلين والبلدة بين ذلك ، (كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور) ، أى : غفور لكم إن استعزتم على التوحيد .

وقوله : (فأمرضوا) ، أى : من توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعادوا إلى عبادة الشمس ، كما قال مهندس سليمان : (وجئت من سبأ بنياً يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها مرش عظيم . وجدها وتومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فعبدكم عن السبل فهم لا يحتسبون (١)) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبته : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً :

وقال السدي : أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبي . والله أعلم .

وقوله : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) ، قيل المراد بالمرم المياه . وقيل : الرادى : وقيل : الجرذ (٢) . وقيل : الماء النزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » و « سيد كرز (٣) » ، حكى ذلك السهيلي .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، وهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك : أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها « الجرذ » فبعثه - قال وهب بن منبه : وقد كانوا يهدون في كتبهم أن سبب غراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنه السنابير (٤) برهة من الزمان ، فلما جاء القدر ظلت القار السنابير ، وولبت إلى السد ففتحت ، فأتاهم عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجرذ : هو الحقلد (٥) ، فبعث أسأله حتى إذا ضعف وهى ، وجاءت أيام السيول ، صدم الماء البناء فسقط ، فانساب الماء في أسفل الرادى ، وغرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونصب الماء عن الأشجار التي في الجبلين من بين وهال ، فبيست ونحطمت ، وتبليت تلك الأشجار المثمرة الأبية النضرة ، كما قال الله تعالى : (وبذلناهم بحسبهم جنتين ذوات أكل حط) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : وهو الأراك ، وأكلة البرير (٦) .

(وأكل) ، قال السوي ، عن ابن عباس : هو العرقاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرطاف . وليل : هو الشمر (٧) : لأنه أحمر .

(١) سورة النمل : آية : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) البرذ : الأكر من القثبان .

(٣) الكر - ينم فسكون - : النرج : والبرقان الصغير . و « كرز » في هذا المثال لقب لسيد . وحل ذلك ليست الإضافة إلى الصفة وإنما هي إلى القب .

هذا وانظر قول السهيلي في الروض الأنف ١٥/١ ، والتصريف والإعلام : ١٠٦ ، ١٠٧ . ونتائج الفكر في التفسير : ورقة : ١٤ .

(٤) السنابير : جمع سنور : وهو القمل .

(٥) الخلد - ينم الخاء وضحاها ، وسكون اللام - : نوع من القثبان . وقيل : الخلد : الثأرة السياه ، أو التي غلقت ولم تتقاع لها حيون .

(٦) الأراك : شجر له ثمرة كمنقيد السنب . والبرير - ينمض الياء ، وكسر الراء ، وياء بعدها واو ثانية - : ثم الأراك إذا أسود .

(٧) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٦٩/٣ .

وقوله : (وثىء من سدر قليل) ، لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال : (وثىء من سدر قليل) ، فهذا الذى صار أمر تَبَيَّنَتِ الجنتين إليه ، بعد النمار الضبيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، يبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشرهم بالله ، وتكذيبهم للحق وعلمهم عنه إلى الباطل . ولهذا قال : (ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل يجزى إلا الكفور) ؟ أى : عاقبتهم بكفرهم .
قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طائوس : لا يناقش (١) إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا حلى بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج بن محمد ، حدثنا أبو اليناه ، عن هشام بن صالح الثعلبى ، عن ابن خيرة — وكان من أصحاب على رضى الله عنه — قال : جزاء المصيبة الوهن فى العبادة ، والضييق فى المشيئة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يعادف لذة حلال إلا جاءه من يَتَخَصَّصُها إياها .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَ الْبَرِّ قَرْيَ ظَلُمَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالٍ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَرْنَا وَعَلِمْنَا أَنَّ أَنْفُسَهُمْ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٦﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من القبطة والتمعة ، والمعى المنى الرخيد ، واللذات الرخيصة ، والأماكن الآمنة ، والقري المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها ونمارها ، بحيث إن مسافريهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء ونمرا ، ويكفيهم في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ، ولهذا قال تعالى : (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) — قال وهب بن منبه : هي قرى يصنعاء . وكلها قال أبو مالك .

وقال مجاهد ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والفسحاك ، والسدى ، وابن زيد ، وغيرهم : بينى قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة (متواصلة) (٢) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

(قرى ظاهرة) ، أى : بينه واضحة ، يعرفها المسافرون ، يتكيفون في واحدة ، ويبيتون في أخرى : ولهذا قال : (وقدّرنا فيها السبر) ، أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، (سبروا فيها ليل وأياما آمنين) ، أى : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

(١) المناقشة : الاستقصاء فى المحاسبة .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٧٢/٢٢ - ٥٨٠ .

(قالوا : ربنا ، بعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم) - وقرأ آخرون : (بعد بين أسفارنا) (١) - وذلك أنهم بطَروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس ، وجاهد ، والحسن ، وغير واحد - وأحبوا مفاز ومهامم يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسبر في الحرور (٢) والخوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم ما تبث الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعنبها ويصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنَ وسوى وما يشتهون من المأكلي ومشارب والمابس مرتفعة ، ولهذا قال لهم : (أنستدلون الذي هو أذى باللي هو خير ، احبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباعوا بغضب من الله) (٣) ، وقال تعالى : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) (٤) ، وقال تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكثرت بأنم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (٥) . وقال في حق هؤلاء : (وظلموا أنفسهم) ، أي : بكفرهم ، (فجلناهم أحاديث ومزقناهم كل عرق) ، أي : جعلناهم حديثا للناس ، وتسمأ يتحلثون به من غيرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق حملهم بعد الاجتياح والآلفة والبش الحية ، تفرقوا في البلاد ما هنا وما هنا : ولهذا يقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أبدي سبا » و « أبأدي سبا » (٦) ، « تفرقوا شكراً مكرراً » (٧) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد (٨) بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبا ، قال : (لقد كان لسبا في مساكنهم آية جنتان) إلى قوله : (فأرسلنا عليهم سبل الحرم) : وكانت فيهم كهنة ، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأعبروا الكهنة بشيء من أخبار السبا . فكان فيهم رجل كان شريف كثير المال ، ولله خيبر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن الطلأ قد أظلمهم ، فلم يدر كيف يصنع ، لأنه كان له مال كثير من حقار ، فقال لرجل من بني - وهو أعزهم أخوالا - : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتلك فانتهرني ، فإذا تناولتكم بالطمى . فقال : يا أبت ، لا تفعل ، إلا هنا أمر عظيم ، وأمر شديد . قال : يا بني ، قد حدث أمر لا بد منه . فلم يزل به حتى واثق على ذلك : فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ، اضل كذا وكذا ، فإني ، فانتهره أبوه ، فأجابته ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناول أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابني بطمى ؟ حكى بالشفرة ، قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أخذته . قالوا : تلبس ابنتك ، لطمه أو اصنع ما بدا لك . قال : فإني ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خلعتنا ما بذلك : فإني إلا أن يذهب . قالوا : فليمتن قيل أن تذهب . قال : فإذا كان الحديث هكذا فلإني لا أرى أن أقم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه ، اشترأ مني دورى ، اشترأ مني أرضى . فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وحقاره ، فلما صار الثمن في يده (وأحرزه) ، قال :

(١) البسر المحيط : ٢٧٢/٧ ، وتفسير الطبري : ٥٨/٢٢ .

(٢) الحرور : حسر الشمس .

(٣) سورة البقرة : آية : ٦١ .

(٤) سورة القصص : آية : ٥٨ .

(٥) سورة النحل : آية : ١١٧ .

(٦) أي : فرقتهم طريقهم إلى سلكوها ، كما تفرق أهل سبا في مذاهب شتى . واليد في اللغة : الطريق ، يقال : أمد القوم يد بحر ، أي : طريق بحر . والحراب لا تميز سبا في هذا المثل ، لأنه كثر في كلامهم ، فاستقلوا فيه الحمزة .

(٧) أي : خيروا في كل وجه . ولا يقال ذلك في الإقبال .

(٨) هو أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان . انظر مرجعته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٧٤/١٦١ .

أي قوم ، إن العذاب قد أنزلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، لمن أراد منكم داراً جليلاً ، وجعلنا قليلاً ، وسفراً بعيداً ، فليلق بيان : ومن أراد منكم التمسُّرَ والخميرَ (١) والتمصيرَ - وكلمة ، قال إبراهيم : لم أحفظها - فليلق بيسفري . ومن أراد الرخاء في الرحل ، المطيعات في الخيل ، للمطيعات في الضحل (٢) ، فليلق بيبشرب ذات نخل ، فأطاعه قومه . فخرج أهل عمان إلى عمان : وخرجت ضنان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأثروا على بطن (٣) مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نهي به بدلاً . فأقاموا (٤) به ، فسموا لذلك خراقة . لأنهم اغزوه من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة . وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت عمان إلى بصرى :

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر [عمرو بن] عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استنصاره بأوسال العرب فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثني أبو زيد الأنصاري - : أنه رأى جرذاً (٥) يحفر في سد مأرب ، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاموا من أرضهم . فلم أنه لا يطاق للسد على ذلك ، فاحترزم على التمسُّك من اليمن فكاد قومه ، فأمر أسفر أولاده إذا أخطأ له ولطمه أن يقوم إليه ليخطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد تنطم وجهي فيها أسفر ولدي . وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشرافه اليمن : اختنموا خشبكم عمرو : فاشترؤا [منه] أمواله ، وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر : فإمروا أموالكم ، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد « حك » مجنازين يرتادون البلدان ، فحاربهم حك ، وكالت حربهم سحلاً (٥) . ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَحَكَّ بَيْنَ حَمَكَانَ اللَّيْلِ تَغَلَّبُوا (٦) • يَحْتَسِمَانِ ، حَى طَرْدُوا كُلَّ مَطَرَدٍ

وهذا البيت من قصيدته له :

قال : ثم ارتحلوا عنهم فطرقوا في البلاد ، فقتل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خراقة مراً ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد حَمَكَانَ حَمَكَانَ : ثم أرسل الله على السبل لهدمهم ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات (٧) :

وقد ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو ما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أمية » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله « فإبحر ماله وارتحل بأهله » ، فطرقوا : « رواء ابن أبي حاتم » .

(١) الخمر : معروف . ولعله أراد : الخمر - بتصحين - وهو الخمر . والخمير : ما يحمل في الجبين من الخمر . ولعله يعني ما يحمل في التيب من الخمر .

(٢) الضحل : الجلب . والضحل : القليل من الماء . وقيل : هو الماء القريب المكان . وكان في المخطوطة : « الضحل » . والمثبت من أثر المشور .

(٣) بطن مر : من لؤي مكة .

(٤) البعد : الأكر من القرائن .

(٥) السحال : أن ينقلب هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة .

(٦) في سيرة ابن هشام : « تلقبوا » . والمثبت من المخطوطة . وفي الهامية والتهلوة : « تلقبوا » .

(٧) سيرة ابن هشام : ١٠٤١ - ١٣ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أنسبنا سلمة ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو (١) بن عامر — وهو عم القوم — كان كاهنًا ، فرأى في كهنته أن قومه سيمزقون ويأخذون بين أسفارهم . فقال لهم : إني قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهمًا بعيد وجمل شديد ، ومزاد جديده (٢) — فليلق بكناس أو كروود (٣) . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذاهمًا مدن ، وأمر دهن (٤) ، فليلق بأرض شن . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشًا أنيا (٥) ، وحرما أمنا ، فليلق بالأرزين (٦) . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، الملعقات في الغل ، فليلق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خرا وخنمرا ، وذهبا وحريرا ، وملكا وأميرا ، فليلق بكنوي ويصري ، فكانت غسان . يترجم ملك الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريقة امرأة عمرو بن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت في كهنتها ذلك ، فأتته أهل أبي ذلك كان (٧) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبي : أما غسان فلفحوا بالشام ، وأما الأنصار فلفحوا بيثرب ، وأما خزاعة فلفحوا بتهامة ، وأما الأزد فلفحوا ببيان فزعمهم الله كل ممزق . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير (٨) .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثني أبو حبيدة قال : قال الأعشى — أعشى بني قيس بن ثعلبة — واسمه : ميمون ابن قيس (٩) :

وَقَدْ ذَاكَ لَمَوْتَسَى أَسْوَدُ وَمَلَرَبَ حَقٍّ (١٠) عَكَبَهَا الْعَرَمُ
وَعُتَامُ (١١) يَنْتَقَى لَهُمْ حَمِيرُ إِذَا جَلَّ مَوَكْرُهُ (١٢) لَمْ يَرَمُ
فَلَارَوْى الزَّرْوَعُ وَأَعَابَهَا عَكَى سِمَةٍ مَلَأَتْهُمْ إِذْ قَسَمُ
فَعَاكُرُوا أَيَّاهُ مَا يَحْتَسِرُ نَ مَشَهُ عَكَى شَرِبَ طِفْلٌ فَلَعِمُ (١٣)

(١) في تفسير الطبري : « حران بن عامر » . وهو خطأ ، انظر الآثار المثبتة .

(٢) المزاد — يفتح الليم — وأجدا مزايدة ، وهو ما يصل لها الله ، وتسمى الراوية .

(٣) يجمعون أن كاهنًا ، و « كروود » وغير ذلك ما هو في هذه الأثر إما كحل أنا لم نبتد إليه تصحيحا .

(٤) كذا ، ومنه في تفسير الطبري . ولا نأبى ما المقصود به ؟ .

(٥) أي : جافرا .

(٦) كذا في تفسير الطبري ، وفي المخطوطة : « بالأردن » .

(٧) تفسير الطبري : ٥٩/٢٢ — ٩٠ .

(٨) تفسير الطبري : ٥٩/٢٢ .

(٩) انظر الأبيات في ديوان الأعشى أيضا : ٢٠١ .

(١٠) أي : طمسها وأذهب معالمها .

(١١) الرغام — حبر أبيض .

(١٢) الموارد : التشديد المور ، يقال : « ما لفتني مور » : إذا جعل يلعب ويحيط ويتردد .

(١٣) سيرة ابن هشام : ١٤٤ .

وقوله تعالى : (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، أى : إن في هذا الذى حل به لاء من النعمة والمصائب ، وتبدل النعمة وتحول العافية ، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعلهم يذكرون - لآيات لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالوا : أخبرنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن العيص بن حرث عن عمر بن سعد ، عن أبيه - هو سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هيجت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابه مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء ، حتى في النعمة يرفعها إلى في أمره » (١) .

وقد رواه الترمذي في « اليوم والليلة » ، من حديث أبي إسحاق السبكي ، به - وهو حديث عزيز (٢) - من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة : « صبراً للمؤمن . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً ، إن أصابه سرور شكر فكان خيراً له ، وإن أصابه ضرر صبر فكان خيراً له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٣) .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيان ، عن قتادة (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) قال : كان مطرف يقول :
ثم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أصلى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنَّا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ حَفِيفٍ ﴿٢٦﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم المولى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم من اتبع إبليس والمولى ، وخالف الرشد والمضى ، فقال : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : (أراءيتك هذا الذى كرمت على : لئن أخرتني إلى يوم القيامة ، لأحتكن ذريتاً إلا قليلاً) (٤) ، ثم قال : (ثم لأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين) (٥) : : والآيات في هذا كثيرة .

وقال الحسن البصري : لما أبطأ الله آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منها ، وقال : « إذا أصبت من الأبرين ما أصبت ، فاللرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظناً من إبليس ، فأنزل الله عز وجل : (ولقد صدق عليهم إبليس)

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ١٧٣ .

(٢) الترمذي : ما انفرد عن رواه اثنان أو ثلاثة .

(٣) وقع لنا الحديث في مسلم عن صبيب . انظر كتاب الزهد ، باب : المؤمن أمره كله خير : ٢٧٧/٨ .

(٤) سورة الإسراء آية ٦٢ .

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٧ .

لله فاتبعوه ، إلا فريقا من المؤمنين) ، فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدته وأنتبه وأندبته » . فقال الله : « وعزني لا أعجب عنه التوبة ما لم يُعثر غر بالوث ، ولا يدعوني إلا أجيء » . ولا يسألني إلا أعطيه ، ولا يستغفري إلا غفرت له » . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : (وما كان له عليهم من سلطان) — قال ابن عباس : أي من حجة .

وقال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعضا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاتهم إليها فأجابوه (١) .

وقوله : (إلا لتعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) ، أي : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وفيماها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ، ممن هو منها في شك .

وقوله : (وربك على كل شيء حفيظ) ، أي : ومع حفظه غفل من ضل من أتباع إبليس ، وبخلفه وكلامه مسك من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَمَلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

بيّن تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : (قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه) ، أي : من الآلهة التي عبدت من دونه [لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض] ، كما قال تبارك وتعالى : (والذين همون من دونه [ما يملكون من ظهير]) (٢) :

وقوله : (وما لهم فيها من شرك) ، أي : لا يملكون [شيئا] استقلالا ولا على سبيل الشراكة ، (وما لهم منهم من ظهير) أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه ، قال قتادة في قوله : (وما لهم منهم من ظهير) ، من حون يعينه بشيء (٣) .

وقال : (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ، أي : لنظمت وكبريائه لا يجزئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء ، إلا بعد إذنه له في الشفاعة ، كما قال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (٤) ، وقال : (وكم من ملك في السموات

(١) تفسير الطبري : ٢٢ / ٦١ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ١٣ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٢ / ٦٢ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

لا تنفي شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء (١) ، وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢)) .

وهذا ثبت في الصحيحين (٣) ، من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفعين عند الله - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فبدعني ما شاء الله أن يدعني ، ويضع حلي بحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تُعطى ، واشفع تشفع ... الحديث بتمامه .

وقوله : (حتى إذا فرغ من قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق) : وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة : وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي ، سمع أهل السموات كلامه ، أرضعوا من الحلية حتى يلصقهم مثل الفئس ، قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما (٤) .

(حتى إذا فرغ من قلوبهم) ، أي : زال الفزع عنها ، قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي ، والشامي ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك والحسن ، وقاعدة في قوله تعالى : (حتى إذا فرغ من قلوبهم) يقول : جعلني من قلوبهم ، وقراً بعض السلف - وجاء مرفوعاً - : (إذا فرغ) بالغين للمصجمة ، ويرجع إلى الأول (٥) .

إذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم من تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ، ولهذا قال : (قالوا : الحق) ، أي : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، (وهو العلي الكبير) .

وقال آخرون : بل معنى قوله : (حتى إذا فرغ من قلوبهم) ، يعني المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق . وأخبروا به عما كانوا عنه لاهين في الدنيا .

قال ابن أبي نجيب ، عن مجاهد : (حتى إذا فرغ من قلوبهم) ، كشفت عنها الغطاء يوم القيامة .

وقال الحسن : (حتى إذا فرغ من قلوبهم) ، يعني : ما فيها من الشك والتكليب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (حتى إذا فرغ من قلوبهم) ، يعني : ما فيها من الشك ، قال : فرغ الشيطان من قلوبهم وفكرهم وأمنيتهم وما كان يضلهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلي الكبير ، قال : وهذا في بني آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإكرار (٦) .

(١) سورة التيمم : آية : ٢٦ .

(٢) سورة الأنبياء : آية : ٢٨ .

(٣) تقدمت أسانيد الشفاعة عند الآية الثامنة والسبعين من سورة الإسراء ، وعرجناها هناك ، انظر : ١٠٢/٥ - ١٠٨ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٢ / ٦٢ .

(٥) أنظر البحر المحيط : ٢٧٨/٧ ، وتفسير الطبري : ٢٢ / ٦٤ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٢ / ٦٤ .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة ؛ هذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، لصفة الأحداث فيه والآثار ، ولذكر منها طرفا يدل على غيره .

قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه : حدثنا الحميلي ، حدثنا صفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت حكمة ، سمعت أبا هريرة يقول : إن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً » (١) لقوله ، كأنه سلسلة حل صفوان ، فإذا فُزَّح عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق ، وهو العمل الكبير ، فيسمعا مسترق السمع ، ومستمق السمع - هكذا بعضه فوق بعض - ووصفت صفيان بيده (٢) - فسحرتها (٣) - وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة ، فيلقيا إلى من تحته ، ثم يلقيا الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيا على لسان الساحر أو الكاهن . فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيا ، وربما اتفاما قبل أن يدركا ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، وكذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء (٤) ،

انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه : وقد رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث صفيان ابن حنيفة ، به (٥) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا همد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنا الزهري ، عن حل بن الحسن ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : من الأنصار - فرمى بنجم فاستثار ، قال : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يؤت عظيم ، أو يموت عظيم - قلت لزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن حُكَّتْ (٦) حتى يثب التي صلى الله عليه وسلم - قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياة ، ولكن ربنا - تبارك وتعالى - إذا قضى أمراً أصبح حكمة العرش ، ثم أصبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يكونون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش حملة العرش : « ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، وغير أهل كل سماء سماء ، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتختلف الجن الصمغ فيرمون ، لما جاءوا به على وجه فهو حق ، ولكنهم ينفون فيه وينكرون » (٧) .

هكذا رواه الإمام أحمد : وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، من حديث صالح بن كيسان ، والأوزاعي ، ويونس ومغل ابن حبيب الله ، أرويتهم عن الزهري ، عن حل بن الحسن ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به ، ورواه وقاص يونس .

(١) كتبت سهلة هذا الحديث من البخاري عند تفسير الآية الثالثة عشرة من سورة الحجر : ١٤٦ - ١٤٧ ، وذلك من طريق حل بن عبد الله ، عن صفيان ، ورفعتنا هناك غريب هذه الرواية ، ونفرض هنا ما انفردت به رواية الحميلي .

(٢) في الصحيح : « بكته » .

(٣) حرفها : أسألا . ويدد بين أصابعه : أي فرق بينها .

(٤) البخاري ، تفسير سورة سبأ : ١٥٢ - ١٥٣ .

(٥) تحفة الأعراف ، تفسير سورة سبأ : ٩٠ - ٩١ . وسن ابن ماجه : الثامنة ، باب : « فيما أنكرت الجبهة » ، الحديث

١٩٨ : ٩٦ / ١ - ٧٠ .

(٦) وكذا ومطله في اللسان . ولعل الذي : أحسست السماء بعد بضئ النبي صلى الله عليه وسلم .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢١٨ .

عن وجال من الأنصار (١) : وكلنا رواه النسائي في « التفسير » من حديث الزبيدي ، عن الزهري ، به : ورواه الترمذي فيه (٢) من الحسين بن حريث ، عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار - رضى الله عنه - والله أعلم

حديث آخر ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادي - والسياق لمحمد بن عوف قال : حدثنا نعيم بن حاد ، حدثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن وجاء بن حيوة ، عن النوايس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره فكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة - أو قال : رعدة - شديدة ، من خوف الله . فإذا سمع بذلك أهل السموات صهقوا وغروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وجهه بما أراد ، فيمضي به جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سألها ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال : الحق ، وهو الحق الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكلنا رواه ابن جرير (٣) وابن خزيمة ، عن زكريا بن أبان المصري ، عن نعيم بن حماد ، به .

قال ابن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم رحمه الله .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي ، عن ابن عباس - وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية ابتداء بإنشاء الله سبحانه إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى . ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَهْدَىٰ أَوْ ضَلَلَىٰ مَبِينٌ ﴾ ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَنَا حَرْمَنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ اتَّخَفْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى مقترنا تفرده بالخلق والرزق ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض - أى : بما يتول من المطر وينبت من الزرع - [لا الله] ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَهْدَىٰ أَوْ ضَلَلَىٰ مَبِينٌ) ، هذا من باب اللف والنشر (٤) ، أى : واحد من الفريقين مهبط ، والآخر حق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فقل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله . ولهذا قال : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَهْدَىٰ أَوْ ضَلَلَىٰ مَبِينٌ) .

(١) مسلم ، كتابه السلام ، باب : تحريم الكهانة وإتيان الكهان : ٣٦/٧ - ٣٧ .

(٢) كلا ، ولم يقع لنا في الترمذي من هذه الطريق . انظر تحفة الأوسى : ٩١/٩ - ٩٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٦٣/٢٢ .

(٤) انظر التبريد بهذا المصطلح البلاغي في : ٢٦٢/٦ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - المشركين : والله ما نحن بولايكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهد (١) .

وقال حكيمه وزيد بن أبي مريم : معناه : إنا نحن لعل هدى ، وإنكم لفي ضلال مبين (٢) .
وقوله : (قل لا تستلون مما أجرمتا ولا تستلن مما تعملون) ، معناه التبرئ منهم ، أي : لستم منا ولا نحن منكم ، بل لدعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا .
كما قال تعالى : (فإن كذبوك نقل في محلي ولكم حلكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون (٣)) . وقاله : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم وإلى دين (٤)) .

وقوله : (قل يجمع بيننا وبينكم) ، أي : يوم القيامة ، يجمع الخلاق في صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أي : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزئ كل عامل بعمله ، إن غيرا فغير وإن شرا فشر . وستعملون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : (ويوم نقيم الساعة يومئذ يضربون : فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكلوا بأياتنا وقتلوا الأنبياء ، فأولئك في المذابح محضرون (٥)) . ولهذا قال تعالى : (وهو الفتح للعالمين) ، أي : (الحاكم العادل) العالم بمقائق الأمور .

وقوله : (قل : أروني الذين ألحقتم به شركاء) ، أي : أروني هذه الآفة التي جعلوها لله أندادا وصبرتموها له جدا ؟ . (كلا) ، أي : ليس له نظير ولا تنكيد ، ولا شريك ولا حليل . ولهذا قال : (بل هو الله) ، أي : الواحد الأحد الذي لا شريك له (العزيز الحكيم) ، أي : ذو العزة التي قد ظهر بها كل شيء ، وعكبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وشرحه وقدره ، تعالى وتقدس :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى لعبدته ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - : (وما أرسلك إلا كفاة للناس) ، أي : إلا لجميع الخلق من المكلفين ، كتوله تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعاً (١)) ، (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٢)) :

(١) تفسير الطبري ١ : ٦٤/٢٢ .

(٢) تفسير الطبري ١ : ٦٥/٢٢ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٤١ .

(٤) سورة الكافرون .

(٥) سورة الروم ، الآيات : ١٦ - ١٧ .

(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .

(٧) سورة قمران ، آية : ١ .

(يشيرا ونذيرا) ، أى : بشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .
 (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، كقوله تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١)) ، (وإن تطلع أكثر من فى الأرض يضلوك من سبيل الله) (٢) .
 قال محمد بن كعب فى قوله : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، يعنى إلى الناس عامة .
 وقال قتادة فى هذه الآية : أرسل الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله أطوعهم لله عز وجل (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الطهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العلى ، حدثنا الحكم - يعنى ابن أبان - عن حكيمته قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فم ففضله الله على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت حسام يقطعون أحد من الأنبياء قبلى : نصرته بالربح مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدرسته الصلاة ليصل . وأحلت لى المنام ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، ويعيش إلى الناس عامة (٤) » .

وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث إلى الأسود والأحمر (٥) » . قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم . ولكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : (ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) ، كما قال تعالى : (يستعجلون) ، الذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق (٦)) ... الآية .
 ثم قال : (قل : لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) ، أى : لكم ميعاد موعدهم معلوم محرو ، لا يزداد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : (إن أجل إننا جاء لا يؤخر (٧)) وقال (وما يؤخره إلا أجل معلوم . يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد (٨)) .

(١) سورة يوسف ، آية : ١٠٣ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١١٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٢ / ٦٦ .

(٤) تقدم الحديث فى سورة الأنفال : ٤٩ / ٥٤ ، وخرجناه هناك .

(٥) أى موسى ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة : ٦٣ / ٢ . وسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ٢٥٠ / ١ ، ٣٠١ . وعن

أبى موسى : ٤١٦ / ٤ . وعن أبى ذر : ١٤٥ / ٨ ، ١٤٨ ، ١٦٢ .

(٦) سورة الشورى ، آية : ١٨ .

(٧) سورة نوح ، آية : ٤ .

(٨) سورة هود ، آية : ١٠٤ - ١٠٥ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَأَوْا الظَّالِمِينَ مُوقِفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا آمَنَّا صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَلِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُبُوا الْأَنْدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَظَ فِي آخِثِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

غير تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المبدأ ، ولهذا قال : (وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) ، قال الله تعالى متهددا لم ومتوعدا ، وعبرهم عن موقفهم الذليل بين يديه في حال غناصهم وتحاجتهم : (يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا) ، منهم وهم الأتباع (للذين استكبروا) ، وهم قادتهم وسادتهم : (لولا أنكم مؤمنين) ، أي : لولا أنكم تصدقوا لا لكنا أتبعنا الرسل وآمنا عما جأونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : (أنكم صدقناكم من الهدى بعد إذ جاءكم) ، أي : نحن ما قلنا بكم أكثر من أن ندعوناكم فاتبعونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء ، لشهوكم واختياركم لذلك ، ولهذا قالوا : (بل كنتم مجرمين) ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، أي : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتفرقونا وتشتتونا ، وتغفرونا أنا على هدى وأنا على ضلوة ، فإذا جمع ذلك باطل وكتب ومين .

قال قتادة ، وابن زيد : (بل مكر الليل والنهار) ، يقول : بل مكرهم بالليل والنهار : وكلما قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .
(إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) ، أي : نظراء وآله معه ، وتقيموا لنا شبيها وأشياء من المثل ، تفعلوا بها . (وأسرؤا الندامة لما رأوا العذاب) ، أي : الجميع من السادة والأتباع ، كل فلتب على ما سكتتمه .

(وجعلنا الأغلال في آخِثِ الَّذِينَ كَفَرُوا) ، وهي السلاسل التي تجتمع أيديهم مع أعناقهم ، (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ، أي : إنما يجازيكم بأعمالكم ، كل بحسبه ، لقادة حلاب بحسبهم ، ولأتباع بحسبهم ، قال : لكل ضعفه ولكن لا تعلمون (١) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان ابن الأصبهاني ، عن ابن سنان ، عن ابن جبر ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، عن ابن هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن جهنم لا مسبق إليها أهلها تكتفأهم فيها ، ثم لقصصهم لقمحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب » .

وحدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الخوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى المشفى قال : ما في جهنم هار ولا منار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب : قال : فحدثني أبا سليمان - يعني الداراني -

وحمة الله عليه - فبئس لم قال : وحك : فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد في رجله ، والفعل في يده والسلسلة في عنقه ، ثم أدخل النار وأدخل النار .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا إِنَّمَا أَكْثَرُ مُنَادٍ ﴾ ﴿ وَأَوَّلُكُمْ وَآخِرُكُمْ يُهْلِكُونَ ﴾ ﴿ قُلْ إِن رَّيِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَمَتَابُكُمْ إِلَهُكُمْ وَلَا أُولَئِكَ بِبَالِي تَقْرِيكُمْ حِينَدَنَا إِلَٰهَ الْإِمْنِ ؕ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا قَابَلْتُكَ فَهَمَمْتُ بِكُمُ الْفَضِيعَ ؕ إِنَّمَا جِئْتُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُجَاجِرِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ إِن رَّيِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؕ أَوْ يَمْتَصِّقُ مِّنْ فَيْدٍ مِّنْهُم مَّخْلُوفًا ؕ ذُو خَيْرٍ لِّلرَّزْقِينَ ﴾

يقول تعالى مسلما لنبيه ، وأمر له بالتأسي بمن قبله من الرسل ، وغيره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه متروفا ، واتبه ضغائنهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَوُفِّرُكَ لَكَ وَاتَّبِعِ الْآذِلُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا نُرَاكَ ابْنُكَ إِلَّا الْبَيْنَ هُم أَذِلُّنَا بِأَدَى الرَّأْيِ ﴾ (٢) ، وقال الكبرياء من قوم صالح : ﴿ الَّذِينَ اسْتَضَفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَطْمَئِنُّونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا : إِنَّمَا نَعْلَمُ أَنَّ رُسُلًا بِهِ مُؤْتَوْنَ : قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا : أَهَؤُلَاءِ مِنْ آلِهِمْ مِمَّنْ بَيْنَنَا ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) ؟ وقال (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرمين ليجزوا فيها) (٥) ، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نَّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ (٦) .

وقال حامدا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴾ ، أي : نبي ، أو رسول (إلا قال متروفا) ، وهو أول النعمة والحشمة والكرامة والرياسة .

قال قتادة : هم جبابرتهم وقاضهم وروعوسهم في الشر . (إنا بما أُرسلتم به كافرون) ، أي : لا تؤمن به ولا تنبئه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن حيد الوهاب عن سفيان بن عاصم ، عن أبي ذر بن قال : كان رجلا شريكا خرج أسدما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يجبه أحد من قريش ، إنما أتبعه أراذل الناس ومساكينهم : قال : فترك تجارتهم ثم أتى صاحبه فقال : دلي عليه - قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب - قال : فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إلام لدعو ؟ قال : إلى كلنا وكلنا . قال : أشهد أنك رسول الله : قال : وما حملك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا أتبعه رذالة الناس ومساكينهم . قال : فتركت هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ، قال : فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أنزل تصديق ما قلت .

(١) سورة الشعراء ، آية : ١١١ .

(٢) سورة هود ، آية : ٢٧ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٧٥ ، ٧٦ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٥٣ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٣٣ .

(٦) سورة الإسراء ، آية : ١٦ .

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وما أنتك ؟ أضغاث الناموس أم أشرفهم ؟ فرحمت : بل ضغافهم ، وهم أنبياء الرسل .

وقوله تعالى لإخبارا عن المترفين المكذبين : (وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بعملين) ، أى : انصروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على عبة الله لم واعتناهم ، وأنه ما كان يعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يلبسهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك : قال الله : (أنصبون أنما نعدكم به من مال وبين : تسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) (١) وقال : (فلا تمجلك أموالكم ولا أولادكم ، إنما يريد الله ليبلسهم بها في الحياة الدنيا ، وترحق أنفسهم وهم كافرون) (٢) . وقال تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا مملوكا : ويدعني شهيدا : ومَهَّكْتُ له نهيديا ثم يطمع أن أزيد : كلا إنه كان لأياتنا حيندا . سأرققه صعيدا) (٣) .

وقد أخبر الله عن صاحب تلك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد ولهم ، ثم لم تُغن عنه شيئا ، بل سكب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال تعالى هاهنا : (قل : إن ربي ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أى : يعطى المال لمن يشاء ومن لا يحب ، فيفتر من يشاء ويفنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة والحكمة الدامغة القاطعة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون .)

ثم قال : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تهريكهم هنذا زلزلتي) أى : ليست هذه دليلا على صحتنا لكم ، ولا امتدانتا بكم . قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا كثير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٤) .

رواه مسلم وابن ماجه ، من حديث كثير بن هشام ، عن جعفر بن برقان ، به (٥) . ولهذا قال : (إلا من آمن وعمل صالحا) ، أى : إنما يقربكم هنذا زلزلتي الإيمان والعمل الصالح ، (فأولئك لم يزدوا الضعيف بما عملوا) ، أى : تضاعف لهم الحسنات بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف : (وهم في الغرفات آمنون) ، أى : في منازل الجنة العالية آمنون [من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يحكر منه ،

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي ، حدثنا القاسم وعلي بن مسير ، عن عبد الرحمن ابن إسحاق ، عن الثمان بن سعد ، عن علي — رضى الله عنه — قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة ثغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام » (٦) :

(١) سورة المؤمنون : آية : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة التوبة : آية : ٥٥ .

(٣) سورة النثر ، الآيات : ١١ - ١٧ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٩٢/٢ .

(٥) مسلم ، كتاب البر ، باب : تحريم ظلم المسلم .. : ١١/٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهده ، باب : الفسقة .

المحدث ١٤٤٣ : ١٣٨٨/٢ .

(٦) انظر تلميح الآية الثالثة والخمسين من سورة المتكوير : ٢٩٩/٦ - ٣٠٠ .

(والذين يسعون في آياتنا معاجزين) ، أى : يسعون في الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصدق بآياته : (فأولئك في العذاب يحضرون) ، أى : جميعهم مستجزون بأعمالهم فيها مجسيهم .
وقوله : (قل : إن ربى يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) ، أى : بحسب ماله في ذلك من الحكمة ، يسطر
هل هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جدا ، وله في ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره ، كما قال تعالى :
(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) (١) ، أى : كما هم متفاوتون في الدنيا ،
هذا اقتير مدقع ، وهذا غنى موسّع عليه ، فكل ذلك هم في الآخرة : هذا في الفُرقات في أعلى الدرجات ، وهذا في الصّمرات
في أسفل الدرجات : وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا ،
وقنّعه الله بما آتاه » (٢) : رواه مسلم من حديث ابن عمر (٣) .

وقوله : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) ، أى : مهما أنفقتم من شيء فبما أكرمكم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في
الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت في الحديث : « يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك » (٤) . وفي
الحديث أن ملكين يصبّحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط ممسكا تلفا » ، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا
عطفا » (٥) : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا » (٦) .

وقال ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس (٧) حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني
عن حليفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن بعدكم زمان حضور ، بعض للموسر على ما في يده حكار
الإتفاق » ثم تلاه الآية : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين) .

وقال الحافظ أبو يعلى اللؤلؤي : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هشيم ، عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني
عن حليفة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان حضور ، بعض للموسر على ما في
يديه حكار الإتفاق » ، قال الله تعالى : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ، ويتّهل (٨) شرار الخلق بيايعون

(١) سورة الإسراء ، آية : ٢١ .

(٢) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « في الكفاف والقناعة » : ١٠٢/٣ .

(٣) في الضعيفة : « ابن عمر » ، والصواب عن مسلم .

هذا وقد أخرجه ابن ماجه في كتاب الزكاة ، باب « القناعة » ، الحديث ٤١٣٨ : ١٣٨٦/٢ ، والإمام أحمد في مسنده
عن عبد الله بن عمرو بن العباس : ١٦٨/٢ ، ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤) البيهقي ، تفسير سورة هود : ٩٣/٦ ، وكتاب التوحيد : ١٧٥/٩ - ١٧٦ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب
« الحث على التلقة وتبشير الملتق بالخلف » ٧٧/٣ . وابن ماجه ، كتاب الكفارات ، باب « النهي عن التلذذ » ، الحديث
٢١٢٣ : ٦٨٦/١ . وسنده الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢٤٢/٢ ، ٣١٤ ، ٤٦٤ .

(٥) البيهقي ، كتاب الزكاة ، باب « قول الله تعالى : (فلما من أصلى راتق ...) » : ١٤٢/٢ . ومسلم ، كتاب
الزكاة أيضا ، باب « في المنفق والممسك » : ٨٣ - ٨٤ . وسنده الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٣٠٥/٢ - ٣٠٦ ، ٣٤٧ .
وحن أبي النرداء : ١٩٧/٥ .

(٦) أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والبيهقي في المعجم الكبير . انظر الكثر الثمين لعبد الله بن الصديق : ١٩٣ .

(٧) في الضعيفة : « القليص » ، والمثبت عن البرج والتعليل لابن أبي حاتم : ٢٧٨/٢/٤ .

(٨) وقسم هذه الكلمة في الضعيفة دون تقط . ولعل الصواب ما أجتهد . وفي اللغة : « كل شيء أهل فقه انصب » .
ولمّا أن الشراذم يقبلون في هذا الزمان هل هذا البيح دون وازع من فسير ، والله أعلم .

كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، لا إلا إن بيع للضطرين حرام ، السلم آخر السلم ، لا بظلمه ولا بخدله ، إن كان عندك معروف ، فمضد به على أخيك ، وإلا فلا تترده هلاكاً إلى هلاكه .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي إسناده ضعف .

وقال سفيان الثوري ، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال : قال جاهد : لا يتولن أحدكم هذه الآية : (وما أنفقتم من شيء فهو عظفه) : إذا كان عند أحدكم ما يقبضه فليقبض فيه ، فإن الرزق مقسوم .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا مِمَّن يَقُولُ لِمَلَكِكُمْ آهْ أَهْؤُلَاءِ بَارَكُوا يَوْمَئِذٍ قَالُوا مُبِحَّثَنَّكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ
بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ ١١٠ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١١١

بحر تعالى أنه يفرح المشركين يوم القيامة على رموس الخلائق ، فيسل الملائكة الذين كان للمشركين يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربهم إلى الله زلي ، فيقول الملائكة : (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) ، أي : أنتم أمرم هؤلاء بعبادتهم ؟ كما قال في سورة الفرقان : (أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١)) ؟ وكما يقول ليسى ١ (أنتم قلت للناس اتخذوني وأهل بيئتكم آلًا فأنزلناهم ومن قبلهم طوفانًا من دون الله ؟ قال : سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق (٢)) . وهكذا تقول الملائكة : (سبحانه) ، أي : تعاليت وتعلست عن أن يكون معك إله . (أنت ولينا من دونهم) ، أي : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، (بل كانوا يعبدون الجن) ، يعنون الشياطين (لأنهم هم (٣)) الذين يزعمون أنهم عبادة الأوثان ويضلونهم ، (أكثرهم بهم مؤمنون) ، كما قال تعالى : (إن يدعون من دونه إلا إلهًا ، وإن يدعون إلا شيطانًا مريدًا (٤)) قال الله تعالى : (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) ، أي : لا يقع لكم نفع من كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التي ادعوتهم عبادتها لشدايدكم وكذبكم ، اليوم لا يكون لكم نفعاً ولا ضراً ، (ونقول للذين ظلموا) - وهم للمشركون - (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) ، أي : يقال لهم ذلك ، تحريماً وتوبيخاً .

وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ ءَابِقُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا
مَا هَٰذَا إِلَّا إِلَٰهُكُمْ مُتَفَرِّقٌ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ
كِتَابٍ يَدْرُسُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ١١٢ وَكَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَارِمًا ءَابِقُنْتُمْ
فَكَلَبُوا رَسُولًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١١٣

غير تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ، لأنهم كانوا إذا تلى عليهم آياته يبنات يسمونها غصبةً طرية من لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يبد آباؤكم) ،

(١) سورة الفرقان ، آية ١٧ .

(٢) سورة المائدة ، آية ١١٦ .

(٣) ما بين القوسين من التبعات السابقة ، ومكانه في المخطوطة : م م م .

(٤) سورة النصار ، آية ١١٧ .

يعتقون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - (وقالوا : ما هذا إلا لك مغترى) ، يعتقون القرآن ، (وقال الذين كفروا للحق إلا جاعم : إن هذا إلا سحر مبين) . قال الله تعالى : (وما آتيناكم من كتب يدبرونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نبي) ، أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يَدَّوْن ذلك ويقولون : لو جاءنا نبي أو أنزل علينا كتاب ، لكننا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : (وكتب الذين من قبلهم) ، أى : من الأمم ، (وما بلغوا مشار ما آتيناكم) - قال ابن عباس : أى من القوة في الدنيا (١) : وكذلك قال قتادة ، والسدي ، وابن زيد : كما قال تعالى : (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفغناهم) ، فما أخفى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ، ولا أفغناهم من شيء ، إذ كانوا يحسبون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهترون (٢) ، (ألم يسروا في الأرض فيظنوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة (٣) ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم ما كتبوا رسله ، ولهذا قال : (فكتبوا رسل فكيف كان نكير) ، أى : كيف كان نكالي وحقاي واتصاري لرسل ؟ :

يُنَبِّئُكُمْ إِنَّمَا آتَيْنَاكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِقِينَ وَتُفَكِّرُوا مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا تَفَكَّرْتُمْ بِهِنَّ بِهِنَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝

يقول تعالى : قل يا محمد هؤلاء لكافرين الزاعمين أنك مجنون : (إِنَّمَا آتَيْنَاكُمْ بَوَاحِدَةٍ) ، أى : إِنَّمَا آمَرَكُم بِوَاحِدَةٍ ، وهى : (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِقِينَ وَتُفَكِّرُوا مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ) ، أى : تقوموا قياماً خالصاً لله ، من غير هوى ولا عصبية ، ليسأل بعضكم بعضاً : هل محمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضاً ، (ثُمَّ تَفَكَّرُوا) ، أى : ينظر الرجل لنفسه (إِنَّمَا آمَرَكُم بِهِنَّ) - صلى الله عليه وسلم - ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويضفركى ذلك ، ولهذا قال : (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفِقِينَ وَتُفَكِّرُوا مَا يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ) ،

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، وعبد بن كعب ، والسدي ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية : فأما الحديث الذى رواه ابن أبي حاتم :

حدثنا ابن ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صفقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة ، عن حنبل بن يزيد ، عن القاسم ، عن ابن أمية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : (وأعطيت ثلاثاً لم يطمئن من قبل ولا فخر : أحلت لي الفتانم ، ولم تخل لي قبل ، كانوا قبل يجمعون شأنهم فيحرقونها : ويبحث إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبي يبحث إلى قومه)

(١) تفسير القلبي : ٢٠/٢٢٢ .

(٢) سورة الأحقاف : آية ٢٦ .

(٣) سورة طه : آية ٨٢ .

وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، أُنِيم بالصعيد ، وأصلنى حيث أُنزكنى الصلاة ، قال الله : (أن تقولوا لله منى وفراى) وأعت بالرب سيرة شهر بين يلى .

فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفراى ، بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحيح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) - قال البخارى عنه :

حدثنا حلى بن عبد الله ، حدثنا محمد بن شكارم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : صعدنا النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم ، فقال : يا صباحاه . فاجمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : أرايتم لو أنبرتكم أن العدو يصيبكم أو يستبكم ، أما كنتم تصلقون ؟ قالوا : بلى ؟ قال : فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : يا لك ! ألهذا جئتمنا ؟ فأمر الله : (ثبت يداي لهب (٢)) .

وقد قدم عند قوله : (وأنذر عشيرتلك الأكرين (٣)) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثني عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فنادى ثلاث مرات فقال : يا أيها الناس تلرون ما ملئى ومثلكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : وإنما ملئى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا بأنهم ، فبعثوا رجلاً يترأى لهم ، فيبينوا هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينلهم ونفى أن يلوك العدو قبل أن ينلوا قومه ، فأهوى بوجهه : يا أيها الناس ، أوتيتم : يا أيها الناس ، أوتيتم ثلاث مرات .

وهذا الإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بعثت أنا والساعة جميعاً ، إن كادت لتبقي) .
نورد به الإمام أحمد فى مسنده .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهِيدٌ ﴿٦٠﴾ قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْدِرُ
وَالْحَقُّ طَلَمُ الْغُيُوبِ ﴿٦١﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٦٢﴾ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَلَأَمْسِلُ
حَقَّ نَفْسِي وَإِنْ أَهَمَّيْتُ فَلَأُفْرِجَنَّ إِلَى رَبِّى وَأَتُرَمِّعُ قَرِيبٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى آخر آرسوله أن يقول للمشرىين : (ما سألتكم من أجر فهو لكم) ، أى : لا أريد منكم جمل ولا عطاء
هل أداء رسالة الله إليكم ، ونصصى لياكم ، وأمركم بعبادة الله ، (إن أجرى إلا على الله) ، أى : إنما أطلب ثواب ذلك منه
الله ، (وهو على كل شىء شهيد) ، أى : أعلم بجميع الأمور ، بما أنا عليه من إنبارى حته برسالة لى إلى إياكم ، وما أنتم
عليه .

(١) انظر الحديث حته تفسير الآية الثلاثة والمشرىين من حله السورة .

(٢) البخارى ، تفسير سورة سبأ : ١٥٣/٦ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٢١٤ . هذا وانظر تفسير حله الآية ، والأحداث المروية فى شأنها فى ١٦٢/٦ - ١٦٨ .

وقوله : (قل إن ربّي بخلق بالحقّ علام الغيوب) ، كقوله تعالى : (يلى الروح من أمره على من يشاء من عباده (١)) ،
أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا
في الأرض .

وقوله : (قل جاء الحقّ وما يبدئُ الباطل وما يعيد) ، أى : جاء الحقّ من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق
واضمحل ، كقوله : (بل تُلْقِىَ بالحقّ على الباطل فيدمغه (٢)) ، ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام
يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم بحسبة (٣) قَوْصَه ، ويقرأ : (جاء الحقّ
وزَهقَ الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً) ، (قل : جاء الحقّ ، وما يبدئُ الباطل وما يعيد) ، رواه البخارى ومسلم والترمذى
والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن معمر عبد الله بن
صفورة ، عن ابن مسعود (٤) به .

أى : لم يبق الباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وَزَعِمَ قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك : وهذا
وإن كان حقا ولكن ليس هو المراد هاهنا ، والله أعلم .

وقوله : (قل إن ضللت فإنا أضل على نفسى ، وإن أهديت فإنا يهتدى إلى ربّي) ، أى : إن غيبتك من عند الله ، وإنا
أقول له عز وجل من الرضى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنا أضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن
مسعود - رضى الله عنه - لما سئل عن تلك المسألة في المفضضة : أقول فيها برأى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ
فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله يريان منه (٥) .

(١) سورة هافر ، آية : ١٥ .

(٢) سورة الأنباء ، آية : ٨ .

(٣) حبة القوس - يكرس السنين ، وفتح الياء - ما عطف من طرفها ، ولها سينان .

(٤) البخارى ، كتاب المظالم ، باب : هل تكرس الذنان إلى فيها النحر ... : ١٧٨/٣ . وكتاب المنازى : ١٨٨/٥ .
وتفسير سورة الإسراء : ١٠٨/٦ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب : إزالة الأصنام من حول الكعبة : ١٧٣/٥ . ونسخة
الأكوفى ، تفسير سورة بني إسرائيل ، الحديث ١٤٦ : ٥١٤/٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ومسنده
الإمام أحمد : ٣٧٧/١ .

هذا وانظر تفسير الآية الحادية والعشرين من سورة الإسراء : ١٠٩/٥ .

(٥) انظر سنن أبى داود ، كتاب التكلب ، باب : فيمن تزوج ولم يمس صدقا حتى مات . ومسنده الإمام أحمد : ١٧٧/١ .
وذلك أنهم قد ترددوا على ابن مسعود في شأن رجل تزوج امرأة فمات منها ، ولم يدخل بها ، ولم يفرسها - وظل هذا
التردد نحو من شهر أو قريباً من ذلك ، إلى أن قالوا له : لا يد من أن تقول فيها : أى : تقضى فيها بقضائك . فقال :
« فإن أنقض ما مثل صدقة امرأة من نسائها ، لا وكس ولا شطط ، ولها الميراث ، وعليها العدة ، فإن يك صواباً فمن الله ،
وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان » والله - عز وجل - ورسوله يريان . فقام رجل من أشيع فيهم الجراح وأبر سنان ، فقالوا :
نشيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى في امرأة منا يقال لها « بروع بنت واشق » مثل الذى قضيت . فخرج ابن مسعود
بذلك فرساً شديداً ، حين وافق قوله فدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله (إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) ، أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وقد دوى التثانى هاهنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين : « إنكم لا تدعون أحدا ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا (١) »

وَلَوْ تَرَى إِذْ فُتِحُوا قُلُوبُهُمْ وَأُخْذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّخَاذُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْقَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِئَ لِيُتَمَنَّى بِهِ مَا يَسْتَوُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : ولو ترى - يا محمد - إذ فُتِحَ هؤلاء المكذبون يوم القيامة ، (غلاطوت) ، أى : غلا مفر لهم ، ولا وزد ولا ملجأ ، (وأُخْذوا من مكان قريب) ، أى : لم يكونوا يمتنعون فى الغرب ، بل أُخْذوا من أول وهلة ، قال الحسن البصرى : « حين خرجوا من قبورهم » .

وقال مجاهد : « عطية العوفى ، وقناة : « من تحت أظفارهم » .

وعن ابن عباس والضحاك : « ينهى عليهم فى الدنيا » .

وقال عبد الرحمن بن زيد : « ينهى قتلهم يوم بدر » .

والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس (٢) : لم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكيفية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

(وقالوا آمنا به) ، أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله : كما قال تعالى : (ولو ترى إذ أقروا أنهم لم يسمعون صوتنا ، أبصرنا وسمعنا ، فآذنا موقنون (٣)) ، ولقد قال تعالى : (وأن لهم اتناوش من مكان بعيد) ، أى : وكيف لم تهاطى الإيمان وقد بدلوا عن عمل قولهم منهم وصاروا إلى النار الآخرة ، وهى لا دار الجزاء لا دار الآتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى النار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : (وأنى لهم اتناوش) ، قال : التناول لذلك (٤) .

وقال الثمرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم [الدنيا] .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا يتال ، تهاطوا الإيمان من مكان بعيد .

-
- (١) البخارى ، كتاب الدعاء ، باب : الدعاء إذا علا حجة : ١٠١/٨ - ١٠٢/٢ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب : استصحاب خفض الصوت بالذكر : ٧٣/٨ - ٧٤ .
- (٢) تفسير الطبرى : ٧٢/٢٢ - ٧٣ .
- (٣) سورة السجدة ، آية : ١٢ .
- (٤) أثر مجاهد كما فى تفسير الطبرى ٧٤/٢٢ : « وأنى لهم اتناوش » قال : الرد . ونحوه أن يكون الميت هنا مع لسوك غيره .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة عما هم فيه ، وليس عيّن رجعة ولا توبة : وكلما قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله .

وقوله : (وقد كفروا به من قبل) ، أى : كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ، وقد كفروا بالحق في الدنيا ، وكلبوا الرسل ؟ .

(ويقفلون بالغيب من مكان بعيد) ، قال مالك ، عن زيد بن أسلم : (ويقفلون بالغيب) ، قال : بالظن . قلت : كما قال تعالى : (رجعنا بالغيب) (١) ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد ، (ويقفلون : إن ظنن إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين) . قال قتادة : يرجعون بالظن ، لا بحث ولا حجة ولا ناز (٢) .

وقوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ، قال الحسن البصري ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى الإيمان . وقال السدي : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ، وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله ، وقال مجاهد : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من هله الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخاري وجماعة . والصحيح أنه لا منافاة بين القولين ، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما يطلبوه في الآخرة ، فتنوا منه .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا أثرًا غريبًا جدًا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا بشر بن حجر السامى ، حدثنا علي بن منصور الأنباري ، عن الشرقي بن قطنى ، عن سعد بن طريف ، عن حكيم ، عن ابن عباس في قول الله عز وجل : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) : : إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بني إسرائيل فأنعم (٣) : أى : فتح الله له مالا - فأت فوره ابن له تافه - أى : فاسد - فكان يعمل في مال الله بمصاحى الله : فلما رأى ذلك إنحران أبيه أتوا الله فعدلوه ولأموه ، ففسح الله فباع عقاره بصلوات (٤) ، ثم رحل فأتى حينئذ حاجبة (٥) ففسح فيها ماله ، وابنى نصرًا : فبينما هو ذات يوم جالس إذ همكت عليه [ريح] بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أريجًا - أى : ريحًا - فقالت : من أنت يا هذا ؟ فقال : أنا امرؤ من بني إسرائيل . قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت : فكيف يهنئك (٦) الجيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك : فهل لك من بئيل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إلى امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان

(١) سورة الكهف : آية : ٢٢ .

(٢) سورة البقرة : آية : ٢٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٧٥/٢٢ .

(٤) في المخطوطة : « إن فسخ » . والمثبت من أثر المخطوط : ٧٤٢/٥ .

(٥) القصاص : اللب والشفة ، خلاف الناق ، وهو : المحوران .

(٦) أى : يسيل منها المساء سيلًا .

(٧) أى : كيف تنأ به ؟ .

قد فتروا زاد يوم والهي ، وإن رأيت في طريقك هولاً فلا يهولنك . فلما كان من الند تروذ زاد يوم ، وانطلق فانتبهى إلى قصر ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أريجاً - أى : ريحاً - فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسراييل . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعني صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت في طريقك ؟ (هـ) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس على هالتي الذي رأيت . (ل) قال : ما رأيت ؟ قال : أقبلت حتى إذا انفرج في السيل ، إذا أنا بكلبة فاعمة فاما ، فزعت ، فوثبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراًؤها (٢) ينبح في بطنها . فقال له الشاب : لست تترك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة في مجلسهم ويبرزهم حديثهم (٣) .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج في السيل ، إذا أنا بمائة حتر حُفْل (٤) ، وإذا فيها جدى يصمها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه بتمس الزيادة . فقال : لست تترك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه بتمس الزيادة .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج في السيل إذا أنا بشجر ، فأعجبني خصل من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فتأذنت شجرة أخرى : يا عبد الله ، منى فخذ . حتى تأذنت الشجر أجمع : يا عبد الله ، منى فخذ . قال : لست تترك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة قد هودت العشر والعشرون إلى أئسنهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج في السيل إذا أنا برجل قائم حل حين ، يعرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تصدعوا (٥) حته صبب في جترته فلم تعلق جترته من الماء بشيء . قال : لست تترك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج في السيل إذا أنا بعتز ، وإذا يقوم قد أخطوا بقواثمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرئها ، وإذا رجل قد أخذ بذيئها ، وإذا رجل قد ركبها ، وإذا رجل يحملها . فقال : أما المتر ففى الدنيا ، والذين أخطوا بقواثمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرئها فهو يمالج من عيشها ضيقاً ، وأما الذى أخذ بذئها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها فقد تركها : وأما الذى يحملها فخير (٦) ، ذهب ذلك جا .

(١) الرئاج - بكسر الراء - الياض العظيم .

(٢) الجراء - بكسر الجيم - جمع جرو ، وهو ولد الكلب .

(٣) في الله المنيور : ويأسرهم حينهم .

(٤) أى : كثيرة اللبن ، جمع حائل .

(٥) أى : ذهبوا وتفرقوا .

(٦) يخ يخ : كلمة تقال عند الملح والزحاح بالحق .

قال : ثم أتيت حتى إذا انفرج في السيل ، وإذا أنا برجل يمتح على قلبه (١) ، كلما أخرج دلوه صبّه في الحوض ، فانساب الماء واجماً إلى القلب . قال : هذا رجل رآه الله صالح عمله ، فلم يقبله . .

قال : ثم أتيت حتى إذا انفرج في السيل ، إذا أنا برجل يذُر بلساً فيستحصد (٢) ، فإذا حنطة طيبة . قال : هذا رجل قبل الله صالح عمله ، وأزكاه له .

قال : ثم أتيت حتى انفرج في السيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد الله ، ادن مني فخذ بيدي وأقنني ، فوالله ما قدمت منذ خلقني الله فأخبرت بيده ، فقام يسي حتى ما أراه . فقال له القنى : هذا كحمر الأبعد لكند ، [أنا] ملك الموت (وأنا المرأة التي أتتك) . . . أمرني الله بقبض روح الأبعد في هذا المكان ، ثم أسيده إلى نار جهنم . قال : فقبه فزلت هذه : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون (٣)) الآية .

هذا الر غريب ، وفي صحته نظر ، وتزيل الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغمور المقتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بقتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهي .

وقوله : (كما فعل بأشياهم من قبل) ، أي : كما جرى للأمم الماضية للكذبة الرسل ، لما جاءهم بأمر الله فماتوا لو آمنوا فلم يقبل منهم ، (فلما رأوا بأسنا قالوا : آتينا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يلق ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) فوالله التي قد خلعت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون (٤) .

وقوله : (إنهم كانوا في شك مريب) ، أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يقبل منهم الإيمان عند ما بينة العذاب ، قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بغير بحث عليه ، ومن مات على يقين بغير بحث عليه .

آخر التفسير سورة سبا ، والله الحمد والمنة

(١) يمتح : يستقى . والقلب : البئر .

(٢) أدنى : يحسن حسابه .

(٣) الأثر في الدر المنثور عن ابن أبي حمزة : ٢٤٢/٥ - ٢٤٣ .

(٤) سورة طه : آية ٨٤ ، ٨٥ .

تفسير سورة فاطر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَعَةٍ مِّنْهُ وَتِلْكَ رُبُّنَا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قال مكيان القرطبي ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لأدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أمرييان يخصيان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرناها ، أنا يذلناها . فقال ابن عباس أيضاً : (فاطر السموات والأرض) ، يطلع السموات والأرض .

وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض .

وقوله : (جاعل الملائكة رسلًا) ، أى : بينه وبين أنبيائه ، (أُولَىٰ أَجْنَعَةٍ) ، أى : يطهرون بها ليلطوا ما أمروا به مريباً (مئى وثلاث ورياح) ، أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ليلة الإسراء وله سبالة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب . ولهذا قال : (يزيد في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير) — قال السدي : يزيد في الأجنة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهري ، وابن جريج في قوله : (يزيد في الخلق ما يشاء) ، يعنى : حسن الصوت . رواه عن الزهري البخاري في الأدب ، وابن أبي حاتم في تفسيره .

وقرئ في الشاذ : (يزيد في الخلق) ، بالحاء المهملة ، والله أعلم ؛

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

يعبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع .

قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن حاصم ، حدثنا مغيرة (١) ، أخبرنا عامر ، عن وركاء — مولى المغيرة بن شعبه — قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبه : اكتب إلى عما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلدخاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة قال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجبن منك الجبن » ، وسمعتة ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وحقوق الأمهات ، ومنعن وهنات (٢) .

(١) في المسند : « ثنا المغيرة بن شبل عامر » . والمواب : « عن عامر » . وانظر المسند أيضاً : ٤/٢٠٠ .

(٢) سنن الإمام أحمد : ٤/٢٠٤ - ٢٠٥ .

وأخرجاه من طرق عن وِزَادَ به (١)

وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : «سمع الله من حمدك ، اللهم ربنا لك الحمد ، مبلّغ السبأ والأرض» (٢) ، ومبلّغ ما شئت من شيء بعد ، اللهم ، أهل الثناء والمجد : أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منمت ، ولا ينفع ذا الجند منك الجند » .

وهذه الآية كقوله تعالى : (وإن بمسكك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضلته) (٣) . ولهذا نظر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مطبوا يقول : مطبونا بنوم (٤) التثنية ، ثم يقرأ هذه الآية : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) (٥) . ورواه ابن أبي حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه .

بَيَّنَّا لِلنَّاسِ آذِكُمْ أَنَّ اللَّهَ بِكُمْ خَالِفٌ غَيْرُ اللَّهِ بَرِّزْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِلٌ نُوْفَكُونَ ﴿٦﴾

بَيَّنَّه تَعَالَى عِبَادَهُ وَيُرْسِدُهُمْ إِلَى الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ فَكَذَلِكَ فَكَيْفَرِدُ بِالْعِبَادَةِ ، وَلَا يَشْرِكُ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ . وَلِهَذَا قَالَ : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِلٌ نُوْفَكُونَ) ، أَيْ : كَيْفَ تُوْفَكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ ، وَوَضُوحِ هَذَا الْبَرْهَانِ ، وَأَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ ؟ .

(١) تقدم تخريج الحديث في الصحيحين عنه تفسير الآية السابعة عشرة من سورة الأنعام وحدثنا غريبه ، انظر : ٢٤٠/٣ .

(٢) في الموطأ : « ومبلّغ الأرض » . والمثبت عن صحيح مسلم ، والطبقات السابقة .

(٣) سورة يونس ، آية ١٠٧ .

(٤) النوم : واحد أنواء القمر ، وهي منازلها ، ولقمر ثمان وحشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها . وتسقط في المرجح كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع القمر ، وتطلع أخرى مقابله ذلك الوقت في المشرق ، فتتنقش جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقبها يكون مطر ، وينسبون له إليها ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا . وإنما سمي نورا ، لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ، أي : طلع ونهض .

وإنما أدان النبي صلى الله عليه وسلم العرب في أسر الأنواء ، لأنها كانت تنسب للمطر إليها ، فأما من جعل المطر من فعل الله تعالى ، وأراد بقوله : « مطرنا بنوء كذا » ، أي في وقت كذا ، فإن ذلك جائز .

(٥) الموطأ ، كتاب الاستسقاء ، باب « الاستسقاء بالنجوم » ، الحديث ٦ : ١٩٢/١ .

وَأَن يُكَلِّمُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ﴿٢﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُحْضَبِينَ ﴿٣﴾

يقول : وإن يكلموك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور ، يا محمد - هؤلاء المشركون بالله وعائلوك فيما جنتهم به من التوحيد ، ذلك فيمن سلك قبلك من الرسل أسوة ، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمرهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ، (وإلى الله ترجع الأمور) ، أى : وسنجزهم على ذلك أوفر الجزاء »

ثم قال : (يا أيها الناس ، إن وعد الله حق) ، أى : المادكان لا محالة ، (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) ، أى : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأولياته وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تغتفروا عن ذلك الباقى بهذه الزهرة الفانية ، (ولا يغرنكم بالله الغرور) ، وهو الشيطان ، قاله ابن عباس : أى : لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفالك : وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (١)) »

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان : كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب (بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله المذابح : ينادونهم : ألم تكن ممك ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمانى ، حتى جاء أمر الله وجرمكم بالله الغرور (٢)) »

ثم بين تعالى عدواة إبليس لابن آدم فقال : (إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا) ، أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، واتخذوه وكنيوه فيما يفركم به ، (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تتخلوا معه إلى حطاب السعير ، فهذا هو العدو المهيبة : فسألك الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يقرنا أتباع كتابه ، والافتقار بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهذه كقولته : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخلونه وقرنته أولياء من دونهم وهم لكم عدو ، يمش للظالمين بدلا (٣)) »

(١) سورة لقمان ، آية : ٣٣ .

(٢) سورة الحديد ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة الكهف ، آية : ٥٠ .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ ۖ إِنَّهُمْ زُرْنَا لَهُمْ ۚ سَوَّاهُ قَوْلُهُ حَسْبُ ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ فَلَا تَحْزَنْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لم يلبسوا شريكاً ، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله (وعملوا الصالحات لم مغفرة) أي : لما كان منهم من ذنب ، (وأجر كبير) على ما عذوه من غير .

ثم قال : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) ، يعني كالكفار والتجارب ، يعملون أعمالاً سيئة ، وهم في ذلك يظنون ويحسون أنهم يحسنون صنعاً ، أي : أفمن كان هكذا قد أهله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) ، أي : بقدره كان ذلك ، (فلا تلجب نفسك عليهم حسرات) ، أي : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في فوره ، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ، لما له في ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ، ولهذا قال : (إن الله عليم بما يصنعون) ، وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عوف الحمصي ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي عمرو السنياني - أو : ربيعة - : عن عبد الله بن النبطي قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط بالعائفة يقال له : الوعد ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم أتى عليهم من نوره ، فمن أحببه من نوره يومئذ فقد اعتدى ، ومن أسخطه منه ضل ، فذلك أقول جفت القلم على ما علم الله عز وجل» . ثم قال : حدثنا يحيى بن عبد العزيز ، حدثنا حسان بن حسان البصري ، حدثنا إبراهيم بن بشر (٢) ، حدثنا يحيى بن معمر ، حدثنا إبراهيم القرشي ، عن سعد بن شرحبيل ، عن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله» ، وليس الضلالة على من أحب» . وهذا أيضاً حديث شريف جداً .

وَاللَّهُ الَّذِي أَوْسَلَ الرِّيحَ فَتِيرَ عَمَائِهِ فَاسْتَفْتَىٰ إِلَىٰ بِلَدٍ مِّمَّاتٍ فَأَعْيَّنَ فِيهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِ ۖ كَذَلِكَ الْأَنْشُورُ ﴿١٨﴾
مَنْ كَانَ يَرْيِدُ لِعِزَّةِ اللَّهِ الْكِبَرِ ۖ فَلَيْسَ الْفِئَةُ الْعِزَّةُ جَمْعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ۖ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ ۖ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْرَأُ ﴿١٩﴾ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَيَسْخَرُ لَكُمْ مِنْ أَنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۖ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَقْصِرُ مِنْ غَيْرِهِ ۖ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ
عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على لمعاد بإحيائه الأرض بعد موتها - كما في سورة الحج (٢) - بنبه عباده أن يعتبروا بهذا حال ذلك ، لأن الأرض تكون مئة عاملة لا بات فيها ، فإذا أُرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، (اهزرت وربت ، وأنبت

(١) هو ريحة من ريح الشمس ، يروى عن عبد الله بن النبطي ، يروى عنه الأوزاعي . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤٧٥ - ٤٧٦/٢/١ .

(٢) في المصنوع : ١٠٠ ، والثبت من ترجمة إبراهيم بن بشر : في الجرح : ٩٠/١/١ .

(٣) سورة الحج ، الآيات : ٥ - ٧ ، وانظر فيها تقدم : ٣٩٠ - ٣٩٤ .

من كل زوج بهيج) ، كذلك الأجساد ، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يوم الأرض جميعاً فتبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض ولهذا جاء في الصحيح : « كل ابن آدم يبل إلا عجب النج ، منه خلق ومته يركبه » (١) : ولهذا قال تعالى : (كذلك النشور) .

وتقدم في «الحج» حديث أبي رزين «قلت : يارسول الله ، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟» قال : يا أبا رزين ، أما مروت يراعى قولك محلاً ثم مروت به جهز ختيراً؟ قلت : بلى . قال : « فكلك يحيي الله الموتى » (٢) .

وقوله : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) ، أى : من كان يحبه أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة ، فليعلم طاعة الله فإنه يحصل له مقصوده ، لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً كما قال تعالى : (الذين يتخلون للكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيقنون بعهدهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً) (٣) .

وقال تعالى : (ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً) (٤) ، وقال : (وقد العزة ورسوله والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) (٥) .

قال مجاهد : (من كان يريد العزة بعبادة الأوثان ، فإن العزة لله جميعاً) .

وقال قتادة : (من كان يريد العزة ، فإن العزة لله جميعاً) ، أى : فليعز بعبادة الله عز وجل (٦) .

وتيل : من كان يريد حلم العزة ، لمن هي ؟ (فإن العزة لله جميعاً) ، حكاه ابن جرير (٧) .

وقوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) ، أى : الذكر والتلاوة والصدقات قاله غير واحد من السلف .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي ، أخبرني جعفر بن عون ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي ،

عن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه الحارث بن سليم قال : قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثاً أنبأكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أعظم من ملك فجعلته تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا له ، حتى ينجى بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) .

وحدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن حبان ، أخبرنا سعيد الجريري ، عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : إن « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » لدوا حول العرش كدوى النحل ، يذكرون بها صابغين ، وللعمل الصالح في آخره (٨) .

(١) تقدم الحديث عنه تفسير الآية الرابعة من سورة المؤمنين ، وهرجناه هناك ، وهرجناه غيره . انظر : ٥٩١ .

(٢) انظر الحديث : ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٣) سورة النساء ، آية : ١٣٩ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٦٥ .

(٥) سورة المنافقون ، آية : ٨ .

(٦) تفسير الطبري : ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٧) تفسير الطبري : ٥٠٦ - ٥٠٧ .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمه الله ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن خبيرة ، حدثنا موسى - يعني ابن مسلم الطحان - عن عون بن عبد الله ، عن أبيه - أو عن أخيه - عن الثنابن بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتعليقه ، يتعاطفون حول العرش ، لمن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصاحبهن ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به » (١) ؟ .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن موسى بن أبي [عيسى] (٢) الطحان ، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن أبيه - أو عن أخيه - عن الثنابن بن بشير ، به (٣) .

وقوله : [والعمل الصالح يرفع] ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الكلام الطيب : ذكر الله ، يصعد به إلى الله عز وجل ، [والعمل الصالح أداء فرائضه] ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، ودكلامه على عمله ، فكان أولى به (٤) . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعي ، والفضالة ، والسدي ، والريبع بن أنس ، وشهر بن حوشب ، وغير واحد .

وقال إياس بن معاوية القاضي : لو لا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قول إلا يعمل .

وقوله : [والذين يذكرون السيئات] ، قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المرامون بأعمالهم ، يعني يذكرون بالناس ، يوحون أنهم في طاعة الله ، وهم بخصام إلى الله عز وجل ، يرامون بأعمالهم ، (ولا يذكرون الله إلا قليلاً) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى . ولهذا قال : [لم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور] ، أي : يفسد ويبيطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهي ، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أباها الله على صفحات وجهه وفلانت لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على خبي ، أما المؤمنون المنفردون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

ونفوه : [والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة] ، أي : ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من ملائكة من ماء مهيمن ، (ثم جعلكم أزواجاً) ، أي : ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٩٨/٤ ، وانظر أيضاً : ٢٧١/٤ .

(٢) ما بين القوسين عن سنن ابن ماجه ومكانه يباين . ولكن الشكل في هذا أن موسى بن أبي عيسى هذا يعني الحنابلة . لا الطحان ، ولعل هذا كان دليلاً للفرق لأن يترك قرأه . انظر التلخيص : ٣٩٥/١٠ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « فضل التسميع » ، الحديث ٣٨٠٩ : ١٢٥٢/٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٨٠/٢٢ ، وما بين القوسين عنه .

وقوله : (وما يحمل من أثني ولا تضع إلا يعلمه) ، أي : هو عالم بملك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل (ما تسقط من ورقة إلا يعلمها) ، ولا حية في ظلمات الأرض ، ولا طيب ولا يابس ، إلا في كتاب مبين (١) : وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام) : إلى قوله : (ليشمال (٢)) .

وقوله : (وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ، أي : ما يطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عند في الكتاب الأول ، (وما ينقص من عمره) الضمير حاله على الجنس ، لا على العين ، لأن العين الطويل العمر في الكتاب وفي عالم الله لا ينقص من عمره ، وإنما هاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « حدى ثوب ونصفه » ، أي : ونصف آخر (٣) .

وروى من طريق الموقى ، عن ابن عباس في قوله : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ، إن ذلك على الله يسر ، يقول : ليس أحد قضيت له طول حصر وحياة إلا وهو يأنف ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، وإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة يأنف العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتب له : فذلك قوله : (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ، إن ذلك على الله يسير (٤) .

يقول : كل ذلك في كتاب عندكم .

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ، قال : ما كتبت الأرحام من الأولاد من خير عام .

وقال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وتسر يموت حين يولد ، فهذا حله . وقال قتادة : والذي ينقص من عمره : فالذي يموت قبل ستين سنة :

وقال مجاهد : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ، أي : في بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أقصى من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، يأنف ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : (وما يعمر من معمر) ، أي : ما يكتب من الأجل (ولا ينقص من عمره) ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهرا بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله في كتاب :

نقله ابن جرير عن أبي مالك : وإليه ذهب السدي ، وصحاه الثعالبي ، واختار ابن جرير الأول ، وهو كما قال .

وقال الثعالبي عند تفسير هذه الآية للكرعة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثني يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يحطه له في رزقه ، ونشأ له في أجله فليصل رحمه » .

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٩ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ٨ ، وانظر فيما تقدم : ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٣) تفسير الطبري : ٨١٧٢ .

وقد رواه البخاري ومسلم وأبو حنبل ، من حديث يونس بن يزيد الأيلي ، به (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الوليد (٢) بن عبد الملك بن عبيد الله أبو معمر ، حدثنا عثمان ابن عطاء ، عن سلمة بن عبد الله ، عن عمه أبي مشجعة بن ربي ، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيبدون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : (إن ذلك على الله يسير) ، أي : سهل عليه ، يسير لديه عامه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَابِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مَلِجٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تلبسونها وَتَرَى الْمَالِكُ فِيهِ مَوَاسِرَ لَيَتَبَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي حلية سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، وهذا ملج أجاج ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحاً طرياً مرة ، ولهذا قال : (وهذا ملج أجاج) ، أي : مر .

ثم قال : (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) ، يعني السمك ، (وتستخرجون حلية تلبسونها) ، كما قال تعالى : (فخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ، أي : آلاء ربكم تكلبان (٣) .

وقوله : (وترى المالك فيه مواسر) ، أي : تحضره وتشفه شيزومها ، وهو مقدمها المستتم الذي يشبه جوز الطير - وهو : صدره .

وقال مجاهد : تحضر الريح السفن ، ولا تغر الرعب من السفن إلا المظالم .

وقوله : (ليتبعوا من فضله) ، أي : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم : (ولعلكم تشكرون) ، أي : تشكرون ربكم على تيسيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تنصرفون فيه كيف شئتم ، وتلهيهم أين أردتم ، ولا يمنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

(١) البخاري ، كتاب البيوع ، باب : من أسحب البسط في الرزق : ٧٣/٣ . ومسلم ، كتاب البر ، باب : صلة الرحم وتحريم طبيعتها : ٨/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الزكاة ، باب : في صلة الرحم : ١٦٩٣ - ١٣٢/٢ - ١٣٣ .

(٢) في المخطوطة : « حل بن الحسين بن الوليد » . وليس - فيما عهدنا من شيخ أبي حاتم - من ينسب هكذا ، بل هما اثنان : حل بن الحسين بن الحر بن إلكاب ، وحل بن الحسين بن الجنيدي . انظر الجرح له : ١٧٩/١/٣ . وقد وقعت هذه الزيادة ، وهي : « بن الوليد » في الشيخ الذي يعله ، فقيل : « الوليد بن الوليد بن عبد الملك » . وهو خطأ ، انظر الجرح : ١٠ / ١ / ٤ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٢٢ ، ٢٣ .

يُوجِبُ الْإِلَهِ فِي الْبَهَارِ وَيُوجِبُ الْبَهَارَ فِي اللَّيْلِ وَيَخْرِقُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ الْعَرِيقُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ ۝١٧ إِنَّ اللَّهَ صَمٌّ لَا يَسْمَعُ أَصْفَاءُ لَهُ وَلَهُ يُسْمَعُ الْكَلِمَاتُ الْحَسَنَاتُ
لَهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرَجُونَ مِنْكُمْ وَلَا يَدْخُلُ فِيكُمْ خَيْرٌ ۝١٨

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، في تسخير الليل بظلامه والنهار بضياءه ، وأخذ من طوك هذا فيزيد
حل قصر هذا فيمتدلان ، ثم يأخذ من هذا [في هذا] فيطول هذا ويقتصر هذا ، ثم يتقاربان صيفاً وشتاء ، (ويخرق الشمس
والقمر) ، أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثابتات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسرون بمقدور معين ،
وحل منهاج مقنن محرر ، تقدير آمن عزيز عليم .

(كل مجرى لأجل مسمى) ، أى : إلى يوم القيامة :
(ذلكم الله ربكم) ، أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ، (والذين تدعون من دونه) ، أى :
من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من ترحمون من الملائكة المقربين ، (ما يملكون من قطيع) .
قال ابن عباس ، وعجابه ، وعكرمة ، وصطاء ، وعطية العرق ، والحسن ، وقنادة ، وغيرهم : القطيع : هو القفالة
التي تكون على نواة القرة (١) . أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا يقدرون على التقطيع .

ثم قال : (إن تدعونهم لا يسمعون دُعاءكم) ، يعنى الآلة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون دُعاءكم ، لأنها جماد
لا أرواح فيها . (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) ، أى : لا يقدرون على ما تطلبون منها ، (ويوم القيامة يذكرون بشركم) ،
أى : يتبرهون منكم ، كما قال تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب إلى يوم القيامة وهم عن
دعائهم غافلون) ، وإذا حشر الناس كانوا لم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٢) ، وقال : (وانخلوا من دون الله آلة
ليكونوا لهم عزاً : كلا سيذكرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً (٣)) .

وقوله : (ولا ينفعكم مثل خبير) ، أى : ولا ينفعكم بعواقب الأمور ومالكها وما تصبر إليه ، مثل خبير بها .
قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا بحالة .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٩ إِنِّي أَنبَأْتُكُمْ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ ۝٢٠
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢١ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٢٢ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَةٍ لَا يُصَلُّ إِلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ فَهُوَ كَافٍ ۝٢٣
قَرِيبٌ إِلَيْنَا تَحْوِيلُ ۝٢٤ الَّذِينَ يُحْمَلُونَ مِنْهُمْ ثِقَلٌ خِثْلًا فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۝٢٥ وَإِنْ تَرَوْهُ فَقَدْ تَرَىٰ تَنْفُسَهُ ۝٢٦ وَلِلَّهِ
الْحَسْبُ ۝٢٧

غير تعالى بفناءه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتلها بين يديه ، فقال : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى
الله) ، أى : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ، ولهذا قال : (والله هو الغنى
الحميد) ، أى : هو المفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشعره .

(١) تفسير الطبري : ٨٢ / ٢٢ - ٨٣ .

(٢) سورة الأحقاف : آية : ٦٠ .

(٣) سورة صرح : آية : ٨١ ، ٨٢ .

وقوله : (**إِن يَأْخُذْ بِأَلْحَكِمِ وَيَأْخُذْ بِخَلْقِ جَدِيدٍ**) ، أى : لو شاء لأخذكم أبداً الناس وأنت بقرم خبركم ، وما هذا عليه بصحب ولا مجتمع ، ولهذا قال : (وما ذاك على الله بعزيز) .

وقوله : (**وَلَا تَرَوْا زُرَّةَ وَزَرَ أُخْرَى**) ، أى : يوم القيامة ، (**وَأَن تَدْعَ مَهْلَةً إِلَى حِمْلٍ**) ، أى : وإن تدع نفس مهلة بأوزارها إلى أن تُساحكت على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، (**لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قَرْبَةٍ**) ، أى : ولو كان قريباً إليها ، حتى ولو كان أباهاً أو ابنتها ، كل مشغول بنفسه وحاله .

قال حكمة في قوله : (**وَأَن تَدْعَ مَهْلَةً إِلَى حِمْلٍ**) الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول : يا رب صل هذا : لم كان يعلق بابه دوني . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك بئداً ، قد حرفت كيف كنت لك في الدنيا ؟ وقد أحضرت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى منزل دون [منزله ، وهو في النار : وإن الولد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بني ، أى والد كنت لك ؟ فينبئ أخيراً ، فيقول له : يا بني إنني قد أحضرت إلى مثقال ذرة من حسناتك أخيراً بما مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ، ما أبسر ما طلبت ، ولكنني أخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة - أو : يا هذه - أى : زوج كنت لك ؟ فينبئ أخيراً ، فيقول لها : إنني أطلب إليك حسنة واحدة تهبنيها لي ، لعل أخيراً بما مما تترين . قال : فيقول : ما أبسر ما طلبت ، ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، إنني أخوف مثل الذي تتخوف ، يقول الله : (**وَأَن تَدْعَ مَهْلَةً**) .. الآية . ويقول الله : (**لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ**) ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ويقول تعالى : (**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ**) . وأنه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

وداود ابن حاتم رحمه الله ، عن أبي عبد الله الطهراني ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن حكمة : به . ثم قال : (**إِنَّمَا تَحْتَرِ الْلَّيْنِ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَمَامُوا الصَّلَاةَ**) ، أى : إنما يتنظع ما جثت به أولو البصائر والهيبة ، الخاضعون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، (**وَمَنْ تَرَكِي فُلَانًا يَتْرَكِي لِنَفْسِهِ**) ، أى : ومن عمل صالحاً فلأنما يعود نفعه على نفسه ، (**وَالِلَّهِ اللَّهُ الصَّبْرُ**) ، أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۚ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۚ وَإِن يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَبِالزُّبُرِ ۖ وَبِالْكِتَابِ الْأَعْلَى ۚ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝

يقول تعالى : كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير ، لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كبير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : (**أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**) ، كمن

مثله في الظلمات ليس بخارج منها (١) ، وقال تعالى (مثل الفريقين كالأحمر والبصر والسميع ، هل يستويان مثلا (٢) ؟ قلوا من سمع بصير في نور يمشي ، على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال واليون ، والكافر أحمى أحمى ، في ظلمات يمشي ، لا يخرج له منها ، بل هويته في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة ، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يحوم : لا يارد ولا كرم (٣) .

وقوله : (إن الله يسمع من يشاء) ، أي : جلبهم إلى صياح الحجة وقبولها والافتقار لها ، (وما أنت بمسمع من في القبور) ، أي : كما لا ينطق الأموات بعد موتهم وصبرودتهم إلى قيودهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء للمشركون الذين كُتِبَ عليهم الشقاوة لأجل حالهم فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

(إن أنت إلا نذير) ، أي : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يصل من يشاء ويهدي من يشاء .

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أي بشيرا للمؤمنين ، ونذيرا للكافرين ، (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ، أي : وما من أمة خلقت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذير ، وأزاح عنهم الظلم ، كما قال تعالى : (إنا أنزلنا من كل قوم هاد (٤)) ، وكما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغيت ، فنهى من هدى الله ، ومنهم من حنت عليه الضلالة (٥)) ، الآية ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات) ، وهي : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، (وبالنزير) ، وهي الكتب ، (وبالكتاب المنير) ، أي : الواضح البين . ثم أضلت الذين كفروا ، أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءهم به ، فأغلثم : أي بالمقاب واللكال ، (فكيف كان لكبر) ؟ أي : فكيف رأيت إنكارى عليهم عطيا شديدا بليغا ؟

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَجْنَا بِهِ عُثْمَانَ الْوَيْهَاءَ وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۖ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَنٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصِي اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو قُوَّةٍ

يقول تعالى منها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وعلومها وورائها ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : (وفي الأرض قطع متجاورات وكنات من أعانها

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .

(٢) سورة هود ، آية : ٢٤ .

(٣) سورة الواقعة ، آية : ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٧ .

(٥) سورة النمل ، آية : ٣٦ .

وزرع ونخل ، صفوان وغير صفوان ، يفتى بماه واحد ، وتفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١) »

وقوله يبارك وتعالى : (ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها) ، أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق - وهى : الجُدَد - جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضا ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما : الجُدَد الطرائق . وكلما قال أبو مالك ، والحسن ، وقناة ، والسدى .

وسمى (غرابيب سود) ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال المطوال السود . وكلما قال أبو مالك ، وعطاء الخرساني وقناة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غرابيب (٢) :

ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : (وغرابيب سود) ، أى : سود

غرابيب :

وفي قوله نظره

وقوله تعالى : (ومن الناس والدياب والآنعام مختلف ألوانه كذلك) ، أى : كذلك الحيوانات من الأناس والدياب - وهى : كل ما بهى على قوائم - والآنعام : من باب عطف الخاص على العام : كذلك هى مختلفة أيضا ، فالتاس منهم بهيمه وجيوش وعطاسم (٣) في غاية السواد ، وصقالية وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والمنود دون ذلك : ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : (واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للمالين (٤)) . وكذلك الدياب والآنعام مختلفة الألوان ، حتى في الجنس الواحد ، لا بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد ، يكون أبيض (٥) ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فبارك الله أحسن الخالقين :

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر (٦) بن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبيض ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يتنقض (٧) » ، أحمر وأصفر وأبيض . وروى مرسلًا وموقوفًا ، والله أعلم :

ولهذا قال تعالى بعد هذا : (إنما نحشى الله من عباده العلماء) ، أى : إنما نحشا حق غيبته العلماء العارفين به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظم القدير الملم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأماء الحسى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الغشية له أعظم وأكثر .

(١) سورة الفرقان : آية ٤٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٢ / ٨٦ .

(٣) التيسار - يضم التاء الأولى - : الأصم إلى لا يفتح . انظر تاج المروس .

(٤) سورة الروم : آية ٢٢ .

(٥) الألبان : ما جمع بين الأبيض والأسود .

(٦) في البحر لابن أبي حاتم ١١٠ / ٢ / ٢ : « عمر بن عبد الله بن أبان » .

(٧) أى : لا يزول لونه .

قال علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (إِنَّمَا غَشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ) ، قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير (١) .

وقال ابن تيمية : عن أبي حمزة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئا ، وأهل حلاله ، وحرم خرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن جببر : الغشى هي التي يحول بينك وبين محبة الله عز وجل .

وقال الحسن البصري : الإيمان (٢) من غشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيها ورغب الله فيه ، وزهد فيها سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : (إِنَّمَا غَشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الغشية .

وقال أحمد بن صالح المصري ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب .

قال أحمد بن صالح المصري : معناه أن الغشية لا تترك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذي فرض الله عز وجل أن يبعث فلما هو الكتاب والسنة ، وما بهما من الصحابة - رضي الله عنهم - ومن يعلم من أئمة المسلمين - فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم ، ومعرفة معانيه .

وقال صفيان الثوري ، عن أبي حيان ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ، عالم بأمر الله . وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وأمر الله : الذي غشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذي غشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذي يعلم الحدود والفرائض ، ولا غشى الله عز وجل .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ نَّبْزِرَهُمْ لِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّمَا غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عبادته المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق بما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، (يرجون تجارة لن تبور) ، أي : يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله . كما قلنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل نخارة » . ولهذا قال تعالى : (ليؤتيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) ، أي : ليؤتيهم نواب ما فعلوه وبضاعفه ثم بزيادات لم تخطر لهم ، (إلا غفور) ، أي : للتوبخ ، (شكور) لقليل من أعمالهم .

(١) تفسير الطبري : ٨٨/٢٢ .

(٢) كذا في المخطوطة ، والرد للمتنوع عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم : ٢٥٠/٥ . ويمكن ترجمته عربية بأن يقال : الإيمان الكامل إيمان من غشى ...

قال قتادة : كان مطرقت وجهه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء :

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيو ، حدثنا سالم بن خيلان أنه سمع ذركجا أبا السمح يحدث عن أبي التميم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى إذا رضى عن العبد أتى عليه سبعة أصناف من الخير لم يسله ، وإذا خطط على العبد أتى عليه سبعة أصناف من الشر لم يعملها (١) » . غريب جدا ،

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَصْنَعُ غَفِيرٌ بَصِيرٌ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى : (والذي أوحينا إليك) ، يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) ، أى من الكتب للقلمة يصدقها ، كما شهدت له بالنبوة ، وأنه منزل من رب العالمين .

(إن الله عباده خير بصير) ، أى : هو خير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه : ولما فضل الأتباع والرسول على جميع البشر ، وفضل التين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القارئ بالكتاب العظيم ، للصدق لا بين يده من الكتب ، الذين اصطفتنا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال : (فمنهم ظالم لنفسه) ، وهو : المقلط في فعل بعض الواجبات ، المرتكبة لبعض المحرمات (ومنهم مقتصد) ، وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات : وقد يترك بعض المستحبات ، ويقبل بعض المكروهات (ومنهم سابق بالخيرات يؤتي ماله ليتزكى) ، وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المحاببات :

قال حل بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا) ، قال : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وركبهم الله كل كتاب أنزل ، فظالمهم يختر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب (٢) :

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وحيد الرحمن بن معاوية المصنف : قال : حدثنا أبو الطاهر ابن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني ، حدثني ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : « شفاعتي لأهل الكبار من أمي » - قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، وللمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأحراف يدخلون الجنة بشفاعدة محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) مست الإمام أحمد : ٣٨٢٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٨٨٤٧٢ .

وهكنا روى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، هل ما فيه من عوج وتعصب .
وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .
قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن ابن عباس - رضى الله
عنهما - : (لنهم ظالم لنفسه) ، قال : هو الكافر . وكنا روى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه
ابن جرير (١) .

وقال ابن أبي نجیح ، عن مجاهد قوله : (لنهم ظالم لنفسه) ، قال : هو أصحاب المفاة .
وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقناة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقناة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة .
وأندرها .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما نيسر :

الحديث الأول : قال الإمام أحمد . : حدثنا محمد (٢) بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار : أنه سمع رجلا
من ثقف يحدث عن رجل من كنانة ، عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه
قال : في هذه الآية : (ثم أوردنا الكتاب اللين اصطفتينا من عبادة لنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات
يؤذن الله) ، قال : هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة (٣) .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي إسناده من لم يسم . وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث شعبة ،
به نحوه (٤) .

ومعنى قوله : بمنزلة واحدة : أى : في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق في المنازل
في الجنة .

الحديث الثاني : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عيسى ، حدثنا أنس بن مياض الليثي أبو ضمرة ، عن موسى بن
هشبة ، عن ابن عبد الله الأزدى ، عن أبي اللرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال
الله : (ثم أوردنا الكتاب اللين اصطفتينا من عبادة ، لنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات يؤذن الله) ،
فأما اللين سبقوا فأولئك الذين يخطون الجنة بغير حساب ، وأما اللين اقتصدوا فأولئك يمحسون حسابا سيرا ، وأما اللين
ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسون في طول المعسر ، ثم هم . اللين تلافاهم برحمته ، فهم الذين يقولون : (الحمد لله

(١) تفسير الطبري : ٨٩/٢٢ .

(٢) في اللست : وحدثنا محمد بن شعبة ، عن الوليد . وهو خطأ ، صوابه : وحمد بن شعبة .

(٣) سند الإمام أحمد : ٧٨/٤ .

(٤) تفسير الطبري : ٩٠/٢٢ . وقد أخرجه أيضا الترمذي في تفسير سورة فاطر ، عن أبي موسى محمد بن المنذر وعبد
ابن بشر ، عن محمد بن جعفر بإسناده . انظر تحفة الأحوف : الحديث ٣٢٧٨ : ٩٢/٩ - ٩٣ ، وقال : هذا حديث غريب
حسن . وأخرجه أيضا أبو دلرد البجلي عن شعبة بإسناده . انظر منحة المصنف : تفسير سورة فاطر : ٢٢/٢ .

الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور - الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يحسننا فيها نصبه ، ولا يحسننا فيها لغوب (١) ، طريق أخرى ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي النرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثم أوردنا الكتاب للذين اصطفتنا من عبادنا ، فنهزم ظالم لنفسه ، قال : فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة »

ووه ابن جرير من حديث سفيان الثوري ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد ، فجلس إلى جنب أبي النرداء ، فقال : اللهم ، آتس وحشني ، وارحم غربي ، ويسر لي جليسا صالحا . قال أبو النرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية : (ثم أوردنا الكتاب للذين اصطفتنا من عبادنا ، فنهزم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) - فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا . وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الهم والحزن ، وذلك قوله : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) (٢) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن أنس ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أسامة بن زيد (فنهزم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) « الآية » قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلهم من هذه الأمة » .

الحديث الرابع : قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن حَزْرَفٍ ، حدثنا سلامة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن هرون بن جالح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آمَنِي ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ ، فَلَئِنْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، وَلَئِنْ يَخْسِرُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَئِنْ يَخْسِرُونَ وَيَكْثِفُونَ ، ثُمَّ تَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ : وَجَدْتَاهُمْ يَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ : يَقُولُ اللَّهُ عز وجل : صدقوا ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، أَدْخَلُوهُمْ الْجَنَّةَ بِقَوْلِهِمْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَاسْمِعُوا خُطَابَهُمْ حُلَّ الْعِلِّ ، وَهِيَ الْإِلَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ، وَتَصْدِيقُهَا فِي الْإِلَى فِيهَا ذِكْرُ الْمَلَائِكَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (ثُمَّ أَوْرَدْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) ، فَيُجْلِبُهُمْ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ ، وَهُمْ أَصْنَافُهُ كُلُّهُمْ ، فَنَهْمُ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ ، فَهَذَا الَّذِي يَكْشِفُ وَيَجْعَلُ : غَرِيبٌ جَدِيدٌ .

أثر عن ابن مسعود ، قال ابن جرير : حدثني ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، عن عمرو بن قيس ، عن عبد الله بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شقيق أبي واثل (٣) ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة ، ثلث يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَثَلَاثُ يَخْسِرُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَثَلَاثُ يَجْزِيُونَ بِذُنُوبٍ عَظِيمَةٍ حَتَّى يَقُولَ : مَا هَؤُلَاءِ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِتَارِكٍ وَتَعَالَى - فَقُولُوا الْمَلَائِكَةُ : هَؤُلَاءِ جَاءُوا بِذُنُوبٍ عَظِيمَةٍ ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا بِكَ الرَّبَّ عز وجل ،

(١) سنة الإمام أسيد : ١٩٨٥ .

(٢) تفسير الطبراني : ٩٠٪٢٢ .

(٣) تفسير الطبراني : « من شقيق أبي واثل » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا : وهو : شقيق بن سلمة الأسدي أبو واثل ، صاحب عبد الله بن مسعود ، النظر ترجمته في أسد الغابة : ٢٧٧٪٢٠ تصديقتنا .

أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي (١) وتلا عبد الله هذه الآية : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) : : الآية (٢) .
 أثر آخر : قال أبو داود الطيالسي ، عن الصلت بن دينار [أبو شعيب (٣)] ، عن عتبة بن صهبان المثلثي قال : سألت
 حائشة رضي الله عنها عن قول الله : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه) : : الآية ، فقالت
 لي : يا بني ، هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد له رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بالحياة والرزق . وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به : وأما الظالم لنفسه فليلى ومظلم ،
 قال : فجعلت نفسها (٤) معنا .

وهذا منها رضي الله عنها ، من باب التخصم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ، لأن فضلها على النساء
 كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : في قوله تعالى : (فمنهم ظالم
 لنفسه) ، قال : هي لأهل بلوتا ، ومقتصدنا أهل حضرةنا ، وسابقنا أهل الجهاد ، ورواه ابن أبي حاتم .

وقال حروف الأعرابي : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه
 الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ،
 فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها) . .
 إلى قوله : (والذين كفروا لهم نار جهنم) ، قال : هؤلاء أهل النار (٥) ،

رواه ابن جرير من طرق ، عن حروف به . ثم قال : ،

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث ، عن أبيه أن ابن
 عباس سأله كعباً عن قوله : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) إلى قوله : (إذن الله) ، قال : تخاست منا كعبهم
 ورب كعب (٦) ، لم أعطوا الفضل بأعمالهم .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبي إسحاق السبيعي في هذه
 الآية : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) . : الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت منذ متيت سنة فكلهم تاج .
 ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن عمرو ، عن محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور
 له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في اللوجيات عند الله .

(١) في المخطوطة : « في جنة رحمتي » . وللتبويب من التبرير والطلبات السابقة .

(٢) تفسير التبرير : ٨٨/٢٢ .

(٣) ما بين القوسين من منحة المبيود والبحر ٤٢٧/١٦٢ . ومكانه في المخطوطة : « ابن الأخت » .

(٤) منحة المبيود : تفسير سورة فاطر : ٢٢/٢ .

(٥) تفسير التبرير : ٨٨/٢٢ .

(٦) في تفسير التبرير : « ورب كعبية » . والوصاف ما هنا .

ورواه الثوري ، عن إسماعيل بن سميع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن علي - يعني الباقر - عن قوله : (لنهم ظالم لنفسه) ، فقال : هو الذي غلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ما ينسب من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا حاصم بن رجا بن حيوة ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - وهو يدمشق - فقال : ما أقدمك أي أضي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه [فيه] علما ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رخصا لطالب العلم ، ولأنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفصل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر » (١) .

وأخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن حديث كثير بن قيس - ومنهم من يقول : قيس بن كثير - عن أبي الدرداء (٢) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخاري » ، والله الحمد والمنة ، وقد تقدم في أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للماء : إني لم أضع علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالي » . (٣)

مَجِئْتُ عَنْ يَدِ خَلْقٍ يَخْلُوتُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٨﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا فُجُورٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿١٩﴾

غير تعالى أن أسأوي هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أوتوا الكتاب المنزَّل من رب العالمين يوم القيامة (جنت عدن) ، أي : جنت الإقامة يخلطونها يوم معادهم وقدمهم على ربه عز وجل : (يخلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) ، كما ثبت

(١) مستد الإمام أحمد : ١٩٦/٥ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب « الحث على طلب العلم » . وثيقة الأسوسى ، كتاب العلم أيضا ، باب « في فضل التفقه على العبادة » ، الحديث ٢٨٢٣ : ٤٥٠/٧ - ٤٥٣ . وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « في فضل العلماء والحث على طلب العلم » ، الحديث ٢٢٣ : ٨١/١ .

(٣) النظر : ٢٦٧/٥ .

في الصحيح عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الرضوخ » (١) .

(ولباسهم فيها حرير) ، ولذا كان عثقوا عليهم في الدنيا ، فألبسه الله لهم في النار الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ليس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وقال : « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » (٢) . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السرخي ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لبيبة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن أبا أمامة حدث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم ، وذكر حل أهل الجنة فقال : مسرون بالذهب والفضة ، مكللة باللؤلؤ ، وعليهم أكالييل من دُرٍّ وباقوت متواصلة ، وعليهم تاج ككاج الملوك ، شباب جرد مشردٌ مكحلون :

(وقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) ، وهو الخوف من المخلوع ، أزاحه عنا ، وأزاحنا عما كنا نتخوفه ، ونحمله من مومم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس حل أهل دلاله إلا الله ، وحشة في يومهم ولا في منشرهم ، وكأني بأهل دلاله إلا الله ، ينفقون للرباب عن وعوهم ، ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » . رواه ابن أبي حاتم عن حديثه ،

وقال الطبراني : حدثنا جعفر بن محمد القزويني ، حدثنا موسى بن يحيى اللؤلؤي ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس حل أهل دلاله إلا الله ، وحشة في الموت ولا في قبورهم ولا في المنثور : وكأني أنظر إليهم عند الصبيحة ينفقون وعوهم من الرباب ، يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور » .

قال ابن عباس ، وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .
(الذي أحلنا دار المقامة من فضله) ، يقولون : الذي أعطانا هذه الميزة ، وهذا المقام من فضله ومنة ورحمته ، لم تكن أهما لنا تساوي ذلك . كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لن يدخل أحداً منكم هذه الجنة قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منة وفضل » (٣) .
(لا عسنا فيها نصيب ولا عسنا فيها لغوب) ، أي : لا عسنا فيها عناء ولا إعياء ،

والنصب والغروب ، كل منها يستعمل في النصب : وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا يصب على أبدانهم ولا أرواحهم

(١) تقدم الحديث عنه تفسير الآية ٢٣ من سورة الحج ، وخرجناه هناك ٤٠٣/٦ .

(٢) تقدم أيضاً هذا الحديث في الموضع المتقدم ، وخرجناه ، أنظر : ٤٠٤/٦ .

(٣) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب : القصد والمداومة حل السبل : ١٧٢/٨ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ،

باب : « لن يدخل أحد الجنة بعملة ، بل برحمة الله تعالى » : ١٣٩/٨ - ١٤٠ .

والله أعلم ، لمن ذلك أنهم كانوا يُدْمِئُونَ أنفسهم في العبادة في الدنيا ، فسقط عنهم التكليف ، بدخولها ، وصاروا في راحة دائمة مستمرة . قال الله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) (١) .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْفَضُ عَنْهُمْ فِيْهَا قُوَّةٌ وَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَى كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) وَمِمَّنْ يَنْتَظِرُ لِقَا رَبِّهِمْ فِيْهَا رِجَاءٌ أُنْزِلَتْ عَنْهُمْ صُحُفٌ مِّنْ لَّدُنْهِمْ أَوَّلَ نَصْرِهِمْ أَمْ يَقُولُونَ لَا تَرْجِعْهُم فَرِحْنَا بِهِمْ لِقَاؤُنَا وَمِمَّنْ يَنْتَظِرُ لِقَا رَبِّهِمْ فِيْهَا رِجَاءٌ أُنْزِلَتْ عَنْهُمْ صُحُفٌ مِّنْ لَّدُنْهِمْ أَوَّلَ نَصْرِهِمْ (٣)

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع في بيان مآل الأشقياء ، فقال : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) ، كما قال تعالى : (لا يموت فيها ولا يحيى) (٢) ، وثبت في صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وأما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون) (٣) . قال تعالى : (ونادوا : يا مالك ، ليقتل علينا ربك ؟ قال : إنكم ماكثون) (٤) . فهم في عالم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك - قال الله تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) ، كما قال تعالى : (إن العبرين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتقر عنهم وهم فيه مبسوثون) (٥) ، وقال : (كلما خبت زخاتهم سمعنا) (٦) ، (فلو قلنا فلان يزيدكم إلا عذاباً) (٧) ، ثم قال : (كذلك يجزى كل كفور) ، أي : هذا جزاء كل من كفر به ، وكذب بالحق :

وقوله : (وهم يصطرغون فيها) ، أي : يتأدون فيها ، يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم : (ربنا ، أخرجنا فصل صالحاً غير الذي كنا نعمل) ، أي : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير علمهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، ولأنهم لكاذبون . فلعلنا لا يجيبهم إلى سؤلهم ، كما قال تعالى غيرنا عنهم في قولهم : (فهل إلى خروج) (٨) من سبيل ؟ . ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) . أي : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم لا كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتم إلى ما كنتم عنه . ولعلنا قال هاهنا : (أو لم نعمركم ما نتذكر فيه من تذكر) ، أي : أو ما علمتم في الدنيا أعمالاً لو كنتم ممن يفتق بالحق لاتضعم به في مكة همركم ؟ .

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن علي بن الحسين زين العابدين . أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

(١) سورة المائدة : آية : ٢٤ .

(٢) سورة طه : آية : ٧٤ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والسبعين من سورة طه ، وخرجناه هناك ، أنظر : ٢٩٩/٥ .

(٤) سورة الزمر : آية : ٧٧ .

(٥) سورة الزمر : آية : ٧٤ ، ٧٥ .

(٦) سورة الإسراء : آية : ٩٧ .

(٧) سورة التبا : آية : ٣٠ .

(٨) في المصنوعة : (فهل إلى مرد من سبيل) . ولسواء ما أخرجناه . والآيات من سورة طه : ١١ ، ١٢ .

وقال قتادة : اعلما أن طول العمر ٣ حجة ، فنعوذ بالله أن نُحَيَّرَ بطول العمر ٢ ، قد وثقت هذه الآية ١ (أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، وإن فيهم لابن ثاني عشرة سنة : وكلما قال أبو خالب الشيباني :

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن رجل ، عن وهب بن منبه في قوله ١ (أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، قال ١ : عشرين سنة ؛

وقال هشيم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن في قوله ١ (أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، قال ١ : أربعين سنة ؛

وقال هشيم ، عن مجاهد ، عن الشعبي ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حطوه من الله عز وجل ؛

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير ١ : حدثنا ابن عبد الأهل ، حدثنا بشر بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : العمر الذي أُمِرَ الله إلى ابن آدم ١ (أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) أربعون سنة ؛

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس : وهذا القول هو اختيار ابن جرير ١ لم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : العمر الذي أُمِرَ الله فيه لابن آدم في قوله ١ (أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ، ستون سنة ؛

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت في ذلك من الحديث — كما ستورده — لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ، لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره ١ (١) ؛

وقد روى أصبغ بن نباتة ، عن حنّ رضى الله عنه أنه قال : العمر الذي حَيَّرَهم الله به في قوله تعالى ١ (أولم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) : ستون سنة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا دحيم ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني إبراهيم بن الفضل الخزرجي ، عن ابن أبي حُسَيْن المكي : أنه حدثه عن عطاء — هو ابن أبي رباح — عن ابن عباس — رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذي قال الله فيه ١ (أولم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر) وجاءكم التثنية » ؛

وكذا رواه ابن جرير ، عن حنّ بن شبيب ، عن [محمد بن (٢)] إسماعيل بن أبي فديك به : وكلما رواه الطبراني من طريق طريق ابن أبي فديك ، به . وهذا الحديث فيه نظر ، لحال إبراهيم بن الفضل ، والله أعلم ؛

(١) تفسير الطبري : ٩٢/٢٢ .

(٢) في تفسير الطبري : ٩٢/٢٢ ؛ في قوله .

(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبري : ٩٢/٢٢ . وانظر الجرح والتعديل : ١٨٨/٢٤٣ — ١٨٩ ، والتهذيب : ١٠٥٠/١٠٦١/٩ .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن رجل من بني عكرمة ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لقد أهلك الله إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أهلك الله إليه لقد أهلك الله إليه » (١) .

وهكذا رواه الإمام البخاري في « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مطهر ، عن عمر بن علي ، عن معمر بن محمد الغفاري ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أهلك الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى يبلغه ستين سنة »

ثم قال البخاري : تابعه أبو حازم وابن حبان ، عن سعيد المقبري (٢) .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح التزاري ، حدثنا محمد بن سوار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن ابن عبد القاري الإسكندر ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « من عتقوا (٣) الله ستين سنة ، فقد أهلك الله في العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والسائي في الرقاق جميعا عن قتبية [عن يعقوب بن عبد الرحمن ، به (٤)] .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه [عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العمر الذي أهلك الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » . يعني : (أول عمركم ما يذكر فيه من الذكر) »

وأما متابعه [ابن حبان] فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو السريجي بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني محمد بن حبان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتت عليه ستون سنة فقد أهلك الله عز وجل إليه في العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ - به (٥) . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبي معشر ، عن سعيد المقبري .

طريق أخرى : عن أبي هريرة ، قال ابن جرير : حدثني أحمد بن الفرج أبو عتبة الحمصي ، حدثنا بقية ابن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكتاني ، حدثني معمر بن راشد قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الشفاري يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أهلك الله عز وجل في العمر إلى صاحب الستين سنة والسيهين » .

(١) مستد الإمام أحمد : ٢٧٥/٢ .

(٢) البخاري في كتاب الرقاق ، باب « ما بلغ من سن سنة ، فقد أهلك الله إليه » . ٩١١/٨ .

(٣) ما بين القوسين من الطبقات لسانية ، وتفسير الطبري : ٩٢/٢٢ . وللفظ غطوة الأثر : إذا أحياء الله ابن آدم .

(٤) مستد الإمام أحمد : ٤١٧/٢ .

(٥) مستد الإمام أحمد : ٣٢٠/٢ .

فقد صرح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلم يكن إلا الطريق التي لرفضها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة [لكنت] : وقول ابن جرير : « إن في رجاله بعض من يجب الثبوت في أمره » ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري ، والله أعلم وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال السنين ، ثم يشرح بمد هذا في النص والمزمع ، كما قال الشاعر :

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى سِتِينَ عَامًا • قَدْ ذَهَبَ لِلْسَرَةِ وَالْقَتَامِ (١)

ولما كان هذا هو العمر الذي يملأ الله إلى عباده به ، ويؤرخ به عنهم المال ، كان هو الثالث على أعمار هذه الأمة • كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد الحارثي ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » ،

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعا في كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به : ثم قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٢) » .

وهذا عجيب من الترمذي ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه أكثر وطريق أخرى ، عن أبي هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ، عن كامل أبي العلاء ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعمار أمي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذي في « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري ، عن محمد بن ربيعة ، به : ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبي صالح عن أبي هريرة » وقد روى من غير وجه عنه (٣) : « هذا لصححه بخروجه في الموضعين ، والله أعلم » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصاري ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني إبراهيم بن الفضل - مولى بني غزوم من المقرئ ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُعْتَرَكُ الْمَنَاءِ مَا بَيْنَ السَّتِينِ إِلَى السَّبْعِينَ » .

وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكَلُ أُمِّي أَبْنَاءُ سَبْعِينَ » : إسناده ضعيف •
حديث آخر في معنى ذلك ، قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده :

(١) الفناء : الشباب . وقه أشد أبو حنيفة قريع بن ضريح الفزاري :

إِذَا حَانَ الْفَتَى مَائَتِينَ عَامًا • قَدْ ذَهَبَ الْمِلَادَةُ وَالْقَتَامُ

(٢) تحفة الأحوزي ، أبواب المنوعات : الحديث ٣٦٢٠ : ٣٧٧/٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد : باب « الأمل والأجل » •

الحديث ٢٣٦ : ١٤١٥/٢ .

(٣) تحفة الأحوزي ، أبواب الزهد : باب « ما جاء في أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى سبعين » ، الحديث ٦٢٤٣/٢ : ٩٢٢٣-

حدثنا إبراهيم بن هاني، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مطر، عن أبي مالك، عن ربيعي عن حليفه أنه قال: يا رسول الله، أنبتنا بأعمار أمك، قال: «ما بين الخمسين إلى الستين». قالوا: يا رسول الله، فأبناء السبعين؟ قال: «قل من يبلغها من أمتي»، ورحم الله أبناء السبعين ورحم الله أبناء الثمانين».

ثم قال الهزار: لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثة وستين سنة، وقيل: ستين. وقيل: خمساً وستين سنة، والمشهور (١) الأول، والله أعلم.

وقوله: (وجاءكم النذير)، روى عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقنادة، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: بقي الشعب.

وقال السدي: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن زيد: (هنا نذير من النار الأولى) وهذا هو الصحيح عن قتادة، فإياه رواه شيخان، عنه أنه قال: احتج عليهم [بالمعراج] بالرسول: وهذا اختيار ابن جرير، وهو الظاهر، وقوله تعالى: (وانادوا: يا مالكة، ليقبض حلينا بك، قال: إنكم ما تكونون. لقد جئناكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون (٢))، أي: لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل، فأبستم، وقال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٣))، وقال تبارك وتعالى: (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير. قالوا: بلى، قد جاءنا نذير، فكلبنا وقتلنا، ما نزل الله من شيء، إن أنتم إلا في ضلال كبير (٤)).

وقوله: (فلوقوا لنا الظالمين من نصير)، أي: فلوقوا حطاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أمثالكم، لما لكم اليوم ناصر يفتدكم عما أنتم فيه من السلب والنكال والأغلال.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَافَ فِي الْأَرْضِ، قَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ، كُفْرُهُمْ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا عُتُوًّا ﴿٦﴾

غير تعالى يعلمه غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيمجازي كل حامل بعمله:

ثم قال: (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض)، أي: خلف قوم آخرين قبلهم، وجعل لجيل قبلهم، كما قال: (وجعلكم خلفاء الأرض، فن كفر بعلية كفره (٥))، أي: فإذا يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره، (ولا يزد

(١) انظر أسد الغابة ١/٢٧١، بصحيفتنا.

(٢) سورة الزمر ٧٧، ٧٨.

(٣) سورة الأسراء ١٥.

(٤) سورة الملك ٨، ٩.

(٥) سورة قاطر ٣٩.

الكارين محرم عند ربهم إلا عقاباً : أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة ، فخلال الزمن فلأنهم كلما طاعوا أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزله في الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خلقه وباراه وبه الملائكة ،

قُلْ أَرَأَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
أَمْ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمُ الْكِتَابُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا غُرُورٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ ۖ لَهُ تَرْكَانٌ حَلِيماً خَفِيراً ﴿٢١﴾

يقوله تعالى لرحله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : (أَرَأَيْتُمْ شِرْكَائِكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ، أى : من الأصنام والأنداد ، (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ) ؟ أى : ليس لهم شيء من ذلك ، ما يخلوون من ظلمهم .

وقوله : (أَمْ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمُ الْكِتَابُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا غُرُورٌ) ، أى : بل إنما اتهموا في ذلك بأهوامهم وأكرامهم وأمانتهم التي تمنعها لأنفسهم ، وهي غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل ليهما من القوة للاستقامة ، فقال : (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا) ، أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (١) ، وقال تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَقُولَ اقْبُرْ وَيُفْثِقُهَا رَبُّهُ (٢)) (وَلَنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ (٣)) ، أى : لا يقلد على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلیم خفیر : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو حلیم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يمسجل ، ويستر آخرين ويفسر ، ولعلنا قال : (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا خَفِيرًا) ،

وقد أورد ابن أبي حاتم ما حدثنا غريباً بل منكرأ ، فقال : حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثني هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل (٤) ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن موسى - عليه السلام - على المنبر قال : (وقع في نفسي حوى - عليه السلام -

(١) حدود الحج : آية : ٦٥ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٢٥ .

(٣) سورة فاطر : آية : ١ .

(٤) في المخطوطة وسبل . . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢٠٢/١ ، ولا تقدم كذلك في سنة كبرى .

هل ينال الله من وجل ، فأمر الله إليه ملكا ، فأمره ثلاثة ، وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة ! وأمره أن يحفظ بهما ، قال : فبذل ينال وتكاد يذاه تلقيان ، ثم يستيقظ فيحسب إحداهما عن الأخرى ، حتى نام نومه فاصطفت يذاه فتكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلا : إن الله لو كان ينال لم تستملك السماء والأرض (١) .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بحرف ، بل من الإسرائيليات المتكرة ، فإن موسى - عليه السلام - أجل من أن يُجوزَ حل الله - سبحانه وتعالى - النوم ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه : (إلى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض) . وثبت في الصحيحين (٢) عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينال ، ولا ينام ، ولا يفتن له أن ينال ، يخفف القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (٣) . ما انتهى إليه بصره من خلقه (٤) » .

وقد قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعشى ، عن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله - هو ابن مسعود فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال ما حدثك كعب ؟ قال : حدثني أن السموات تدور على مكتب ملك . قال : أنصتته أو كذبه ؟ قال : ما صدقته ولا كذبه . قال : لوددت أنك اتخذت من رحلتك إليه برحلتك ورحلتها ، كذذب كعب ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُنَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٥) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد (٦) ، عن جرير ، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جندب اليماني إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه . وقد رآيت في مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزيّن الطليطل ، ساه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع ، عن وكيع ، عن الأعشى ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان - يعني عبد الملك بن الحسن ، عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : الساه لا تدور . واحتج بهذه الآية ، ومحدث : « إن المغرب بابا لتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

قلت : وهذا الحديث في الصحيح (٧) ، والله أعلم .

(١) تقدم الأثر في سورة البقرة عند تفسير الآية ٢٥٥ : ١/٥٥٦ عن ابن جرير ، عن إسحاق بن إبراهيم أبي إسرائيل ، به .

(٢) كذا رواه أن الصواب : « في الصحيح » ، فلم نجد إلا في مسلم ، وكذلك قال ابن كثير في سورة البقرة : ١/٤٥٥ .

(٣) أي : شياؤه ، وجلاله وحظوته .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله عليه السلام : « إن الله لا ينال » . ١١١/١ . وقد أخرجه ابن ماجه في المقدمة بوجه . فبما التكررت الجهمية : « الحديث ١٩٦ : ١/٧١ . والإمام أحمد في مسنده : ٤/٤٥٠ - ٤٥١ : ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٢٢/٩٤ - ٩٥ .

(٦) سقط من تفسير الطبري : « ابن حميد » .

(٧) أخرجه الإمام أحمد عن صفوان بن صالح المرادي : ٤/٢٤٥ - ٢٤٦ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيْسُنَّ بِأَهْلَىٰ مِنْ أَهْلِ الْأُمَمِ قَلِيلًا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٦﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ قَلِيلًا يَحْجِدُونَ لَنَلَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَحْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٧﴾

غير تعالى عن فريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل لإرسال الرسول إليهم ؛ (لكن جامعهم للبر ليكون أهلى من أهلى الأمم) ، أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : (أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين • أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فن أظلم عن كلب آيات الله وصدف عنها (١) ، وكقوله تعالى : (وإن كانوا يقولون : لو أن عندنا ذكرًا من الأولين . لكنا عباد الله المختصين • فكفروا به فسوف يعلمون (٢) •

قال الله تعالى (فلما جامعهم نذير) - وهو : محمد صلى الله عليه وسلم - لما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، (ما زادهم إلا نفورا) ، أى : ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم ؛ ثم بين ذلك بقوله ، (استكبروا في الأرض) ، أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، (ومكر السيئ) ، أى : ومكروا بالناس في صدقهم لإيهام عن سبيل الله ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله (٣) ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم •

قال ابن حاتم : ذكر على بن الحسن ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حكاه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله (٤) ، ولهم من الله طالع •

وقد قال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى يتزل به من مكر أوبى أوثك ، وتصديقها في كتاب الله : (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) ، [إنما ينحى على أنفسكم) ، (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) ،]

وقوله : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) ، بنى : حقوية الله لهم على تكليمهم رسوله وعائلتهم أمره ، (ولن يجد لسنة الله تبديلا) ، أى : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك في كل مكلف ، (ولن يجد لسنة الله تحويلا) ، أى : (وإنما أراد الله بقوم سودًا فلا مرد له) (٥) ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

(١) سورة آل عمران : آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) سورة الصفات : الآيات : ١٦٧ - ١٧٠ .

(٣) ما بين القوسين من التعليقات السابقة .

(٤) سورة الرعد : آية : ١١ .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنَّا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١٠﴾ وَلَوْ يَوَاسِعُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُورِهِمْ دَابَّةً وَلَكِنْ يُؤْخِرُهم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا يَصْنَعُونَ بَصِيرًا ﴿١١﴾

يقول تعالى : قل يا محمد هؤلاء المكلفين بما يجتهدون به من الرسالة : سيرا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كفروا الرسل ، كيف حذر الله عليهم وللكافرين أمثالا ، فحُكِّمَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والمقدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أخفى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يسخره شيء ، إذا أراد كونه في السموات والأرض ، (إنه كان عليما قديرا) ، أي علم بجميع الكائنات ، قدير على جموعها .

ثم قال تعالى : (ولو يواسع الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة) ، أي : لو أوسعهم بجميع ذنوبهم ، لأهلكهم بجميع أهل الأرض ، وما يملكونه من حواب وأرزاق .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : كاد الجمل أن يعلب في جمح عبد بن آدم ، ثم قرأ : (ولو يواسع الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهورها من دابة) .

وقال سعيد بن جبير ، والسدتي في قوله : (ما ترك على ظهورها من دابة) ، أي : لا سقام المطر ، فانت جميع الدواب .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) ، أي : ولكن ينظرون إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل حامل بعمله ، فيجازى بالواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل العصية . ولما قال تعالى : (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) .

[آخر تفسير سورة طه ، والله الحمد والمنة] (١)

(١) وقع في خطوطة الأزهري به هنا : « وهو آخر الجزء الخامس » يتلوه إن شاء الله تعالى في أول السادس تفسير سورة « يس » . والحمد لله رب العالمين « وسئل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا » ورضي عن أصحاب رسول الله أجمعين .

هذا وقد وقع في أول الجزء السادس : « يسم الله الرحمن الرحيم » وفي أمم على قوله .

تفسير سورة يس

مكة

قال أبو عيسى الترمذی : حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الزواي ، عن الحسن ابن صالح ، عن هارون أبي عماد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كتّبه الله له بقراءتها قرأة القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن : وهارون أبو عماد شيخ مجهول . وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبي هريرة (١) منقول فيه .

أما حديث الصديق فرواه [الحكيم الترمذی في كتابه نوائد الأصول (٢)] ، وأما حديث أبي هريرة فقال أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ، حدثنا زيد - هو ابن الحباب - حدثنا حميد - هو للحكي ، مولى آل علقمة - عن عطية - هو ابن أبي رباح - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسماعيل بن أبي إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفورا له : ومن قرأ » . حم : التي يذكر فيها اللخنان أصبح مغفورا له » إسناده جيد .

وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى قتيبة ، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني ، حدثنا أبي ، حدثنا زياد بن عبيدة ، حدثنا محمد بن جعدة ، عن الحسن ، عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ يس في ليلة ابتلاه وجه الله خير له » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عمار ، حدثنا مسعر ، عن أبيه ، عن وجبل ، عن أبيه ، عن معقل بن يسار عن أبي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البقرة منام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها لمانون ملكا ، واستخرجت (الله لا إلا هو الحى القيوم) من تحت العرش فوصلت بها - أو : فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن » لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة ، إلا غفر له ، وأقرموها على موتاكم (٣) .

(١) نسخة الأحمدى : أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٤٨ ، ١٩٦/٨ - ١٩٨ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبقات السابقة ، ومكانه في المخطوطة يماس .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ٢٦٤ .

وكذا رواه الترمذي في «اليوم واليلة» ، عن محمد بن عبد الأعلى ، عن معتمر بن سليمان ، به ،
ثم قال الإمام أحمد : حدثنا حاتم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمي ، عن أبي عثمان - وليس بالتهدي -
عن أبيه ، عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقروها على موتاكم » يعني يس (١) .
ورواه أبو داود ، والترمذي في «اليوم واليلة» ، وابن ماجه (٢) من حديث عبد الله بن المبارك ، به إلا أن في رواية
الترمذي : عن أبي عثمان ، عن معقل بن يسار .
ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر صبي إلا يسره الله : وكان قراءتها عند الميت
تترك الرحمة والبركة ، ويسهل عليه خروج الروح ، والله أعلم .
قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو لليرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعني يس -
عند الميت خفف عنه بها (٣) .
وقوله الزائر : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال :
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لوددت أنها في قلبه كل إنسان من أمي » يعني يس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ ١ وَالْفُرْقَةِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٣ الْمُرْسَلِينَ ٤ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ ٦
الرَّحِيمِ ٧ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرُوا بِآثَاتِهِمْ فَهُمْ ٨ غَافِلُونَ ٩ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ ١٠
لَا يُؤْمِنُونَ ١١

قد نظم الكلام على الحروف المتقطعة في أول «سورة البقرة» : ورؤى عن ابن عباس وصكرمة ، والضحاك ، والحسن ،
وسفيان بن عيينة : أن «يس» بمعنى «بالإنسان» (١) .

وقال سعيد بن جبير : هو كذلك في لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى .

(والفرقان الحكيم) ، أي : الحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، (إنك) يا محمد (لن المرسلين) .
على صراط مستقيم ، أي : على منهج وجهين قويم ، وشرع مستقيم ، (تنزيل العزيز الرحيم) ، أي : هذا الصراط
والمنهج والدين الذي جئت به مشترك من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : (وانك لن تهدي إلى صراط
مستقيم) . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور (٥) .

(١) سنة الإمام أحمد : ٢٦/٥ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، باب «القرأة عند الميت» ، الحديث ٣١٢١ ، ٩١/٣٠ . وسنن ابن ماجه ، كتاب

الجنائز أيضاً ، باب «ما جاء فيها يقال عند المريض إذا حضر» ، الحديث ١٤٤٨ : ٤٦٥/١ - ٤٦٦ .

(٣) سنة الإمام أحمد : ١٠٥/٤ .

(٤) انظر تفسير الخبزي : ٩٥/٢٢ .

(٥) سورة القصص ، آية ٥٧ ، ٥٣ .

وقوله تعالى : (لتتلز أروما ما أنزل آباؤهم فهم غافلون) ، يعني هم العرب ؛ فإنه ما أنزلهم من لغير من قبله ؛ وذكرهم وحدهم لا يعني من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا يعني العموم ؛ وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بيئته - صلوات الله وسلامه عليه - عند قوله تعالى : (قل ؛ يا أيها الناس ، إلى رسول الله إليكم جميعا) (١) .

وقوله : (لقد حق القول على أكثرهم) - قال ابن جرير : لقد وجب العلاب على أكثرهم بأن (٢) حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ، (فهم لا يؤمنون) بالله (٣) ، ولا يصدقون رسوله ؛

إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ لَا أَبْصَارَ ۖ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًا ۖ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَعْضَيْتُهُمْ فَمَهُمُ لَا يَبْصُرُونَ ۚ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوِّفِ الزَّكِيمَ بِالتَّيْبِ فَيُشْرَهُ بِغِفْرَةٍ وَأُجْرٍ كَرِيمٍ ۚ إِنَّا نَحْنُ غَنِيٌّ عَمَّا يُكْسِبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ وَكُلٌّ فِيْ أَصْحَابِنَا ۚ

يقول تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا لَهَؤْلَاهِمْ الحِجْمَ عليهم بالشقاء نسجهم إلى الوصول إلى الهدى كسبة من جعل في عقله غل ، فجمع يديه مع عقله تحت ذقنه ، فارفع رأسه ، فصار مقمحا ، ولهذا قال : (فهم مقمحون) ، وللمقح هو الرابع رأسه ، كما قالت أم زرع في كلامها : « وأشرب فاقمطح » (٤) ، أي : أشرب فأروى ، وأرفع رأسي شيئا وترويا ؛ واكتفى بذكر الغل في المتن عن ذكر الدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر (٥) :

فَمَا أَذْرَى إِذَا يَمَسَّتْ رُؤُوسَا لَوْدِ الْخَيْرِ أَيُّهَا يَكِينِي

أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا بُتَيْغِي أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتِكِينِي (٦)

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه ، وكذا هذا ، لما كان الغل إنما يعرف بما جتمع اليدين مع المتن ، اكتفى بذكر المتن عن الدين .

قال النوني ، عن ابن عباس في قوله : (إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ لَا أَبْصَارَ) إلى الأذقان فهم مقمحون) ، قال : هو كقول الله تعالى : (ولا تجعل بلك مظولة إلى عتقك) ، يعني بذلك أن أيئسهم موقلة إلى أفعالهم ، لا يستطيعون أن يسطروا غير .

(١) سورة الأعراف ، آية ١٥٨ ، وانظر فيها تقدم : ٤٨٨/٣ - ٤٩٠ .

(٢) في تفسير الطبري ٩٨/٢٢ : « لأن الله قد سم ... » .

(٣) وقع هنا في تفسير الطبري سقط ، وهو سقط نظر .

(٤) البخاري ، كتاب النكاح ، باب « حسن الممارسة مع الأهل » : ٣٥/٧ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « ذكر

حليته أم زرع » : ١٣٩/٧ - ١٤٠ .

(٥) معاني القرآن لقرناء : ٢٧٢/٢ . وتفسير الطبري : ٩٨/٢٢ .

(٦) أي : الذي لا يتم في طلبه .

وقال مجاهد : (فهم مغمضون) ، قال : رافض رموسهم ، وأبديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل غير (١) وقوله : (وجعلنا من بين أيديهم سداً) قال مجاهد : عن الحق ، (ومن خلفهم سداً) ، قال مجاهد : عن الحق ، فهم يبردون ، وقال قتادة : الضلالت (٢) .

وقوله : (فأعطيناهم) ، أي : أعطينا ألبصارهم عن الحق ، (فهم لا يبصرون) ، أي : لا يتفهمون غير ولا يتبدلون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ (فأعطيناهم) ، بالعين للمهمة ، من المشا وهو داء في العين (٣) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) . ثم قال : من منه الله لا يستطيع .

وقال حكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن : فانزلت : (إنا جعلنا في أذانهم أهلاً) إلى قوله : (لا يبصرون) ، قال : وكأنا يقولون : هذا محمد . فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير (٤) . وقال محمد بن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعوه كنتم ملوكاً ، فإذا تم بئستم بعد موتكم ، وكانت لكم جنانٌ خسر من جنان الأعداء : وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه فزع ، ثم بعث بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تحلبون بها . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، وفي يده سحرة من تراب ، وقد أخذ الله على أصيبتهم دونه ، فجعل يذرّها على رموسهم ، ويقرأ : (يس) والقرآن للحكيم) ، حتى انتهى إلى قوله : (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأعطيناهم فهم لا يبصرون) ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ، وباتوا رُصداء على بابهِ ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً : قال : قد خرج عليكم ، فما بقي منكم رجل من إلا وضع على رأسه تراباً ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفذ ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبي - صلى الله عليه وسلم - قول أبي جهل فقال : (وأنا أقول ذلك : إن لم يمتي للبحا ، وإله أعلم) .

وقوله : (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ، أي : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة (٥) ، وكما قال تعالى : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (٦) .

(١) تفسير الطبري : ٩٨/٢٢ .

(٢) في المخطوطة : في الضلالت . والمثبت من تفسير الطبري : ٩٩/٢٢ .

(٣) لفظ الطبري : ٩٩/٢٢ . وقد زوى عن ابن عباس أنه كان يقرأ (فأعطيناهم فهم لا يبصرون) ، بالعين ، بمنى أعطيناهم منه ، وذلك أن المشا هو أن يمشي بالليل ولا يبصر .

(٤) تفسير الطبري : ٩٩/٢٢ .

(٥) هي الآية السادسة من سورة البقرة وقد مضى تفسيرها في ١٩/٢٩ - ٣٥ .

(٦) هي الآية السادسة من سورة البقرة وقد مضى تفسيرها في ١٩/٢٩ - ٣٥ .

(إِنَّمَا تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ) ، أي : إِنَّمَا يَتَنَبَّأُ بِإِظْلَامِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، (وَنُحِشُوا الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ) ، أي : (حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ ، يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ، وَحَالُهُ بِمَا يَفْعَلُهُ ، (فَيُفْشِرُهُ مَغْفِرَةً) ، أي : لِلذَّنْبِ ، (وَأَجْرٌ كَرِيمٌ) ، أي : كَبِيرٌ وَاسِعٌ حَسَنٌ جَمِيلٌ ، كَمَا قَالَ : (إِنَّ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَيْبًا بِالْغَيْبِ لَهُمْ عَذَابٌ مُغْتَرِفٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١)) :

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) ، أي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبًا مِنْ يَشَاءُ مِنَ النَّكَارَاتِ الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ ، فَيُهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ ، كَمَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ قِسْوَةِ الْقُلُوبِ : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)) :

وَقَوْلُهُ : (وَنُكَبِّ مَا قَدَّمُوا) ، أي : مِنَ الْأَعْمَالِ . وَقِي قَوْلُهُ : (وَأَكْثَرُهُمْ) قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : نَكَبَّ أَحْمَالَهُمْ الَّتِي يَأْتِيهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَكْثَرَهُمْ الَّتِي أَتَوْهَا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَتُجْزَمُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا ، إِذْ هِيَ أَمْرٌ خَفِيرٌ ، وَإِنْ شَرَّ أَفْشَرُ ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مَنْ غَرِبَ أَنْ يَقْصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مَنْ غَرِبَ أَنْ يَقْصُ مِنْ لُؤْزِهِمْ شَيْئًا » .

رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، مِنْ رِوَايَةِ شُعْبَةَ ، عَنْ حُرَيْثِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ ، عَنْ الثَّوْرِيِّ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ، (عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ) ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَفِيهِ قِسْمَةُ سُجُودِ النَّسَارِ (٣) لِلضَّرِيفِينَ . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَالِمٍ الْجَبَلِيِّ ، عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ يَحْيَى ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوَّلِهِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (وَنُكَبِّ مَا قَدَّمُوا وَأَكْثَرَهُمْ) :

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي حُرَايَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ جَعْفَرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، فَذَكَرَهُ (٤) . وَهَكَذَا الْحَدِيثُ الْأَخَرُ الَّذِي فِيهِ صَحِيحُ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ اقْطَعْ عِلَّهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : مِنْ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ (٥) » .

وَقَالَ سَهْبَانُ الثَّوْرِيُّ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : سَمِعْتُ عِمَامَةً يَقُولُ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) وَلَكِنِّي مَا لَعَمْرُؤُا وَأَكْثَرَهُمْ ، قَالَ : مَا نُؤَوِّفُوا مِنَ الضَّلَالَةِ :

(١) سورة الملك ، آية ١٢ .

(٢) سورة الحديد ، آية ١٧ .

(٣) النصارى - يَكْسِرُ النونَ - ، جَمْعُ نَمْرَةٍ - وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ مَازِلِ الْأَعْرَابِ ، كَأَنَّمَا أُخْلِفَتْ مِنْ لَوْنِ الْفَرَسِ ، لَا فِهَا مِنْ لَوْنِهِ وَرَاحَتِهِ . وَتَعْبِيرُهُمْ عَنْ رُسُلِهِمْ أَوْ سَالِحِيهَا ، يَقَالُ : اجْتَبَيْتُ الْقَائِمِينَ ، فَدَخَلَتْ فِيهِ ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : وَكُلُّ فَرَسٍ قَطَعَ وَسْطُهُ فَهُوَ هَوَجٌ .

(٤) مُسْلِمٌ ، كِتَابُ الزَّكَاةِ ، بَابُ ٥٨٨ ، عَلَى الصِّفَةِ ، وَلَوْ بَقِيَ قَرْنُهُ : أَوْ كَلِمَةُ طَبِيعَةٍ ، وَأَمَّا حَبَابُ مِنَ النَّسَارِ : ٨٧٧ - ٨٧٨ .

(٥) مُسْلِمٌ ، كِتَابُ الْوَصِيَّةِ ، بَابُ ٥٨٩ ، مَا يَلِيقُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْغَوَابِ بِهِ وَقَوْلُهُ : ٧٢٤٥ .

وقال ابن أبيه : عن حماد بن دينار ، عن سعيد بن جبير في قوله : (وتكتب ما قدموا وآثارهم) ، يعني : ما أثاروا يقول : ما سئروا من سنة ، فعل بها قوم من بعد موتهم ، لأن كان خيراً فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شرّاً فله مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً : ذكرهما ابن أبي حاتم ، وهذا القول هو اختيار البيهقي :

والقول الثاني : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية :

قال ابن أبي تيجان وغيره ، عن حماد : (ما قدموا) ، أعمالهم ، (وآثارهم) ، قال : خطاهم بأرجلهم (١) . وكذا قال الحسن وقائدة : (وآثارهم) ، يعني : خطاهم . قال قائدة : لو كان الله تعالى متغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم ، أغفل ما تمسك الرّيح (٢) من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى لها الأثر فيها هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله فليفل : وقد وردت في هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبي ، حدثنا الجري ، عن أبي تضرّة ، عن جابر بن عبد الله قال : سخط الباق حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ؟ قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : يا بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم (٣) . وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجري وكثمن بن الحسن ، كلاهما عن أبي نضرة - واسمه : المنذر بن مالك ابن قيسمة السبيدي - عن جابر (٤) :

الحديث الثاني ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطي ، حدثنا إسماعيل الأزرق ، عن سفيان الثوري ، عن أبي سفيان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد ، فتركت : (إنا نحن نجي الموت وتكتب ما قدموا وآثارهم) ، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : إن آثاركم تكتب : فلم ينتقلوا .

انفراد باخرجه الترمذي عند تفسير هذه الآية الكريمة ، عن محمد بن الوزير ، به . لم قال : حسن غريب من حديث الثوري (٥) :

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثوري ، عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان الصنعلي - عن أبي نضرة ، به (٦) .

(١) تفسير الطبري : ١٠٠/٢٢ .

(٢) أي تحسره وتلعبه .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٤) مسلم ، كتاب المساجد ، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد : ١٣١/٢ .

(٥) تحفة الأحرف ، تفسير سورة يس ، الحديث : ٣٢٧٩ ، ٩٤/٩ - ٩٥ .

(٦) تفسير الطبري : ١٥٥/٢٢ .

وقد رُوِيَ من غير طريق الثوري ، قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا حبان بن زياد الساجي ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجري ، عن أبي نصر ، عن أبي سعيد قال : إن بني سمية شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد منازلهم من المسجد ، فزلت : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فأقاموا في مكانهم .

وحدثنا ابن المني ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجري ، عن أبي نصر ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه .

وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكلمة مكية ، فآله أمم .

الحديث الثالث ، قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا إسرائيل ، عن ماله ، عن حكومة ، عن ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن يتقلوا إلى المسجد ، فزلت : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فقالوا : ثبتت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شيء مفرح .

ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم ، عن محمد بن يوسف القرطبي ، عن إسرائيل ، عن ماله ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتقلوا إلى المسجد ، فزلت : (ونكتب ما قدموا وآثارهم) ، فلقوا في منازلهم .

الحديث الرابع ، قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني حبيب بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله عمرو قال : توفي رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا ليت مات في خير مولده . فقال رجل من الأنبياء : ولم يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل إذا توفي في خير مولده ، قيس له من مولده إلى مطلع أثره في الجنة (١) .

ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن جابر بن عبد الله ، به (٢) وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأمرعت للمشي ، فأخذ بيدي فشدني رويداً ، فلما قضيت الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأمرعت للمشي ، فقال : يا أنس ، أما شحرت أن الآثار تكتب ؟ أما شحرت أن الآثار تكتب ؟ .

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول ، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى ، فإنه إن كانت هذه الآثار تكتب ، فكانت تكتب تلك التي فيها قوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : (وكل شيء أحصيناه في إمام بين) ، أي : جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام للمين هنا هو أم الكتاب . قاله جاهد ، وقادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وكلما في قوله تعالى :

(١) مسند الإمام أحمد : ٧٧/٢ .

(٢) السنن ، كتاب الجنائز ، باب : الموت بغير مولده : ٨ - ٧/٤ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز أيضاً ، باب : ماجه

فمن مات غريباً : الحديث ١٦١٤ : ١٠١٤/١ .

(يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) (١) ، أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عاينوا من خير وشر ، كما قال تعالى : (ووضعت الكتاب ، وجوه بالنبيين والشهداء) (٢) ، وقال تعالى : (ووضعت الكتاب ، فترى للجرمين مشققين بما فيه ، ويقولون : ياويلتنا ، ما هذا الكتاب لا يتأخر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما علوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحد) (٣) ،

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦٧﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ فَوْقِ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْدِيلُونَ ﴿١٦٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا بَعِّمُونا إِنَّا لَنَكِيدُ لِمُرْسَلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧١﴾

يقول تعالى : وأضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك (مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) ،

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس ، وكتبه الأخبار ، ووهب بن منبه : أنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يقال له : انطيوخس بن انطيوخس بن انطيوخس ، وكان يبعد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم ، فكلبهم (٤) ،

فمكلا رؤى عن برودة بن الحنصية ، وعكرمة ، وقناعة ، والزهرى : أنها أنطاكية ،

وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى ،

وقوله : (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما) ، أى : بأدروهما بالتكليب ، (فعززنا بثالث) ، أى : قومناهم وشددنا قورهما برسول ثالث ،

قال ابن جرير ، عن وهب بن سليمان ، عن حبيب الجبالي قال : كاذب اسم الرسولين الأولين همون ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

(فقالوا) ، أى : لأهل تلك القرية : (إنا إليكم مرسلون) ، أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بمبادئه وحده لا شريك له ، قاله أبو الماتية ،

وزم قناعة بن دعامة : أنهم كانوا رؤس المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، (قالوا : ما أنتم إلا بشر مثنا) ، أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحى إلينا مطلق ؟ : ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبهة كثير من الأمم للملكية ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهودنا ؟) ، فاستجبوا من ذلك وأنكروه ، وقوله : (قالوا إن أنتم إلا بشر مثنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد

(١) سورة الإسراء : آية ٧١ .

(٢) سورة الزمر : آية ٦٩ .

(٣) سورة الكهف : آية ٤٩ .

(٤) تفسير الطبري : ١٠١ / ٢٢ .

(٥) سورة التين : آية ٦ .

آبَاتِنَا ، فَاتَّبَعُوا بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ (١) : وقوله حكاية عنهم في قوله : (وَلَقَدْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَتَحْسُرُونَ) (٢) ، (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) (٣) . ولهذا قال هؤلاء : (ما أنتم إلا بشر مثنا) ، وما أنزل الرحمن من شيء إلا أنتم أنتم إلا فكلبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) ، أي : أجايبهم رؤسهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أننا ولسه إليكم ، ولو كنا ككذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سبنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون حاقية النار ، كقوله تعالى : (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا ، يعلم ما في السموات وما في الأرض) ، والذين آمنوا بأبائنا وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون (٤) .

(وما علينا إلا البلاغ المبين) ، يقولون : إنما علينا أن نبليكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كالت لك السعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تحيروا تستعلمون شيئا ذلك (٥) والله أعلم .

قَالُوا إِنَّا تَطْهِيرُكَ رَبُّكَ لَيْنَ لَمْ نَقْتُلْكَ لَتَرَجَعَنَّكَ

وَلَيَمْسُكَ مَنَا طَلَابُ الْآلِمِ ﴿٦﴾ قَالُوا عَلَيْكُمْ مَعَكُمْ أَهْنٌ ذُرِّيَّتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿٧﴾

فبعد ذلك قال لهم أهل القرية : (إنا تطهيرنا بك) ، أي : لم نر حل وجهكم غيراً في عهدنا .

وقال قتادة : يقولون : إن أصابتنا شر فإنما هو من أفعالكم (٦) .

وقال جاهد : يقولون : لم يدخل عليكم إلى قرية إلا عقيب أهلها .

(ثم لم تتوهوا لرجعتكم) ، قال قتادة : بالحجارة : وقال جاهد : بالشتم .

(ولستم منا طلاب آلم) ، أي : حقبة شديدة : قتالت لهم وسلمهم : (طائرهم معكم) ، أي : مردود عليكم ، كقوله تعالى في قوم فرعون : (فلما جاءهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن نصيبهم ميتة فبطروا موسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله) (٧) ، وقال قوم صالح : (اطيرنا بك وعن مملك ، قال : طائرهم عند الله) (٨) — وقال قتادة : ووهب بن منبه : أي أصالحكم معكم — وقال تعالى : (وإن نصيبهم حسنة فقلوا : هذه من عند الله ، وإن نصيبهم ميتة فقلوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله ، فإلهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثنا) (٩) .

(١) سورة إبراهيم : آية : ١٠ .

(٢) سورة المؤمنون : آية : ٣٤ .

(٣) سورة الإبراهيم : آية : ٩٤ .

(٤) سورة التكاوير : آية : ٥٧ .

(٥) أي : عاقبت .

(٦) تفسير الطبري : ٢٢ / ١٠١ - ١٠٢ .

(٧) سورة الأعراف : آية : ١٣١ .

(٨) سورة النمل : آية : ٤٧ .

(٩) سورة القصص : آية : ٧٨ .

وقوله : (أن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون) ، أي : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابضونا بهذا الكلام ، ونوعدتونا وتهددتونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون .
وقال قتادة ، أي : إن ذكرناكم بالله تطهيرم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون (١) .

وَجَاءَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَمْعَى قَالَ يَنْفَعُ أَتْبَعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَائِي وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿١٨﴾ إِنِّي إِذَا لَوْ ضَلَلْتُ لَمِيسِرٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْتَمِعُوا ﴿٢٠﴾

قال ابن إسحاق : فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه - : إن أهل القرية هُمزوا ، يقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسمى ، أي : لينصرهم من قومه - قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجبرير - وهو الحبال - وكان وجلا سقيا ، قد أسرع فيه الجلام ، وكان كثير الصدقة ، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة .
وقال ابن إسحاق عن رجل مائة (٢) ، عن الحكم ، عن مجسم - أو : عن مجاهد - عن ابن عباس قال : اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجلام قد أسرع فيه .

وقال الثوري ، عن حاتم الأحول ، عن أبي جابر : كان اسمه حبيب بن مري .
وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : اسم صاحب يس حبيب التجار ، فقتله قومه ؛
وقال السدي : كان قصصا (٣) . وقال عمر بن الحكم : كان إسكالا . وقال قتادة : كان يتعبد في دار هتاك .
(قال : يا قوم ، اتبعوا المرسلين) ، يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ، (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) ، أي : على إِبْلَاحِ الرسالة ، (وهم مهتدون) فيما يذهبونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .
(ومالي لا أعبد الذي فطرني) ، أي : وما يعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ، (وإليه ترجعون) ، أي : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .
(أأتخذ من دونه آله) ، استغما إنكار وتوبيخ وتبريح ، (إن يردن الرحمن بضر) ، لا تمن حتى شفاعتهم شيئا ولا ينقلون) ، أي : هذه الآلهة التي تعبونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادني بسوء (فلا كاشف له إلا هو) (٤) ؛ وهذه الأصنام لا تحلك دفع ذلك ولا منه ، ولا ينقلوني عما أنا فيه ، (إني إذا لقي ضلال مبين) ، أي : إن اعتدتها آلهة من دون الله .

(١) تفسير الطبري : ١٠٢/٢٢ .

(٢) في تفسير الطبري : ١٠٣/٢٢ ؛ عن ابن إسحاق ، عن الحسن بن حمادة ، عن الحكم

(٣) يقال : قصر الثوب : قصارة ، وقصره - بالتثنية : حوره أي يهسه - وقده بالقصره - يلع القاف والصاد - وهي كلمة من الخشب .

(٤) سورة يونس ، آية : ١٥٧ .

وقوله : (إني آمنت بربكم فاسمعون) - قال ابن إسحاق فبا يلفه عن ابن عباس وكعب ووهب ، يقرئ لقومه : (إني آمنت بربكم) ، الذي كثرتم به ، (فاسمعون) ، أي : فاسمعوا قولي (١) .

ويحتمل أن يكون خطابه لفرسل بقوله : (إني آمنت بربكم) ، أي : الذي أرسلكم ، (فاسمعون) ، أي : فاشهدوا لي بذلك عنه . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل ، وقال لم : اسمعوا قولي ، تشهدوا لي بما أقول لكم عند ربّي ، (إني آمنت بربكم واتبعكم (٢) .

وهذا الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق - فبا يلفه عن ابن عباس وكعب ووهب - : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرميونه بالحجارة ، وهو يقول : اللهم ، اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى أنصروه وهو يقول كذلك ، فقتلوه وحده الله .

فَقِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَئِسْتُ قَوْمِي يَعْزِلُونَ ﴿٣٨﴾ يَمَّا فَخَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَا أَرْزَأْنَا عَلَى قَوْمِهِمْ مِنْ بَعْلِهِمْ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كَانُوا مُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَلَمَّا هُمْ خَائِدُونَ ﴿٤١﴾

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : أنهم وطئوه بأرجعهم حتى خرج فُصْبُهُ (٤٢) من دبره . وقال الله : (ادخل الجنة) ، فدخلها فهو يبرزق منها ، قد أذهب الله عنه سُمُّ الدنيا وحزنها ونصبها .

وقال مجاهد : قيل لحبيب التجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتِلَ فوجبت له ، فلما رأى الثواب (كأن) : يا ليت قومي يعلمون) .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا لتقاء غاشا ، ثمّ حين من كرامة الله (قال) : يا ليت قومي يعلمون . بما فخر لي ربّي وجعلني من المكرمين) ، (تخى) على (٤٣) الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله ، وما هجم عليه (٤٤) .

وقال ابن عباس : نصبح قومه في حياته بقوله : (يا قوم ابعزوا للمسلمين) ، وبعد مماته في قوله : (يا ليت قومي يعلمون) . بما فخر لي ربّي وجعلني من المكرمين) . رواه ابن أبي حاتم .

وقال سفيان الثوري ، عن حاصم الأحول ، عن أبي عجلان : (بما فخر لي ربّي وجعلني من المكرمين) ، يعلماني بربّي . وتصنيقي المرسلين .

(١) تفسير الطبري : ١٠٣/٢٢ - ١٠٤ .

(٢) تفسير الطبري : ١٠٤/٢٢ .

(٣) القصب - بضم نون - : المعى ، وجسمه أنصابه . وقيل : القصب اسم للأشجار كلها . وقيل : هو مكان أسفل

البعث من الأشجار .

(٤) في الخطوط : «تخى والله» . والمثبت عن تفسير الطبري .

(٥) تفسير الطبري : ١٠٤/٢٢ .

ومقصودهم أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا القرب والبهاء والتعظيم للقيم ، لتقدم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه :

قال ابن أبي سالم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا ابن جابر - وهو محمد - عن عبد الملك - يعني ابن هبيرة - قال : قال هروث بن مسعود الضبي الذي صلى الله عليه وسلم : ابشئوا إلى قومي أدهوم إلى الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أخاف أن يقتلك » : فقال : لو وجدوني نائما [ما] أيقظوني . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلق » : فالتفت فرحلى الثلاث والزرى ، فقال : لأصحبك غدا عما يسؤك : ففضبت ثيبي ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن الثلاث لا لات ، وإن المزرى لا حزى ، أسلموا تسلموا : يا معشر الأحلاف ، إن المزى لا حزى ، وإن الثلاث لا لات ، أسلموا تسلموا : قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكتفه (١) فقتله ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هذا مظه كلبي صاحب يس » ، قال : يا ليت قومي يعلمون : بما غفر لي وبني وجعلني من المكرمين) :

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن مسهر بن حزم : أنه حدث عن كعب الأحبار : أنه ذكر له حبيب بن زيد بن حاصم - أنس بن مازن بن النجار - الذي كان مسيما الكلاب قطعه بأمامة ، حين جعل يسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحبل يقول : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول : نعم : ثم يقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له ميسمة : أسمع هذا ولا تسمع ذلك ؟ فيقول : نعم : فحبل يقرأه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يرد على ذلك إلا حتى مات في يده . قال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان والله صاحب يس اسمه حبيب (٢) :

وقوله (١) : وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) ، غير تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضبا منه تعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، وذكروا تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك : قاله ابن مسعود ، فبارواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، أنه أنه قال في قوله (٢) : وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) ، أي : ما كانوا بالجموع الأمر كان أيسر علينا من ذلك ، (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) ، قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل ! أهلكه ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم ياتية (٣) :

وقيل (١) : وما كنا منزلين) ، أي : وما كنا نزل للملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل بحث عليهم علانا بدمهم ، ولعل الملقى في قوله (٢) : وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) ، أي : من رسالة أخرى إليهم ، قاله مجاهد وقادة : قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) (٤) :

قال ابن جرير : والأول أصح ، لأن الرسالة لا تسمى جندا :

(١) الأكل : مركب في وسط اللوح يكتب فيه .

(٢) تفسير الطبري : ١٠٣/٢٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٢/٢٣ - ٥ .

(٤) تفسير الطبري : ٢/٢٤ .

قال المقرون ، بعث الله إليهم جبريل - عليه السلام - فأخذ بعضهم (١) باب بلهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق لهم روح فردد في جسد :

وقد تقدم من كتب من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا : من عند المسيح - عليه السلام - كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فبرزنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون) : إلى أن قالوا : (ريتنا يعلمنا إليكم مرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) ، ولو كان هؤلاء من الحوارين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، والله أعلم : ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا) :

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا يرسل للمسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ، ولهذا كانت عند التصاري إحدى المدن الأربعة التي فيها يتنكره ، ومن القدس لأنيا بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها اصطلموا على إيقاد البتركة والمطارنة والأقفلة والقساوسة والشمامسة والرهبان ، ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأهلده : ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البتريك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد من ذكر تواريخهم كسيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا قررر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أهلكهم ، فلهذا أعلم :

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحوارين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعلاب يبعث عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتل المشركين ، ذكره عند قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى (٢)) : فعل هذا يصح أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا : لو تكون أنطاكية إن كان نقطا محظوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في اللغة العبرانية ولا في أهل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم :

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا الحسن بن إسحاق الثوري ، حدثنا المسيب بن أبي عمير الصقلاني ، حدثنا حسين الأشقر ، حدثنا ابن حنينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السبيث ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى يحيى صاحب يس ، والسابق إلى محمد علي ابن أبي طالب » - فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر ، وهو شيعي متروك :

(١) مضادنا الباب : ناصيته .

(٢) سورة القصص ، آية ٤٢ .

يُخْصِرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (يا حسرة على العباد) ، أي : يا ويل العباد (١) .
وقال قتادة : (يا حسرة على العباد) ، أي : يا حسرة العباد على أنفسهم ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت في جنبه الله . قال : وفي بعض القراءة : يا حسرة العباد على أنفسهم .
ومعنى هذا : يا حسرتهم ولذاتهم يوم القيامة إذا عاينوا المصاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وعانقوا أمر الله ، فإنيهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم .

(ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) ، أي : يتكلمونه ويستهلون به ، ويجهلون ما أرسل به من الحق .
ثم قال تعالى : (ألم يروا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) ، أي : ألم يعظوا عَن أَهْلَكِ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ (المكذبين للرسول ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرامة ولا رخصة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفجرتهم من قولهم : (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا)) ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : (ألم يروا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) .

وقوله : (وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) ، أي : وإن جميع الأمم للماضية والآتية مستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها غيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : (وَإِنْ كَلَّا لَأُولِيْنَهُمْ رِيْكَ أَعْمَالِهِمْ) (٢) .
وقد انحطفت القراءة في آداء هذا الحرف ، فمنهم من قرأ : (وَإِنْ كُلُّ لَمَّا) بالتحفيف ، فغتنده أن : (لَمَّا) للإثبات ، ومنهم من شدد (لَمَّا) ، وجعل : (لَمَّا) نافية ، و (لَمَّا) بمعنى إلا تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون (٣) ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

وَأَنبَأَهُ اللَّهُ أَنَّ الْأَرْضَ أَمِيتَةٌ مِّمَّا أَحْيَيْنَاهَا وَأَتَرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا لَّهُنَّ يَا كُلُّونَ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿١٩﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا لِيَبْتَغِيَنَّ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : (وَأَنبَأَهُ اللَّهُ) ، أي : دلالة لم حل وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه للموتى (الأرض الميتة) ، أي : إذا كانت مية حاملة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنتبت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال :

(١) تفسير الطبري : ٣ / ٢٣ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٣٧ .

(٣) سورة هود : آية ١١١ .

(٤) البقر تفسير الطبري : ٤ / ٤٧٧ .

(أحييناها وأنجزنا منها حبا فله يأكلون) ، أى : جعلناه رزقا لهم ولائهمهم ، (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون) ، أى : جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره ، لا آمنوا على خلقه بإنجاء الزروع لم يخلت بذكر الثمار وتوحيدها وأصنافها .

وقوله : (وما علمته أيهم) ، أى : وما ذلك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا يسميهم ولا كلمهم ، ولا يحولهم وقتهم ، قاله ابن عباس وقتادة . ولما قال : (أفلا يشكرون) ، أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى . واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن « ما » في قوله : (وما علمته أيهم) ، بمعنى « الذى » ، تقديره : ليأكلوا من ثمره وما علمته أيهم ، أى : غرضه ونصيره ، قال : وحى كلمك في قراءة ابن مسعود (ليأكلوا من ثمره وما علمته أيهم أفلا يشكرون) ،

ثم قال : (سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) ، أى : من زروع وبذر ونبات ، (ومن أنفسهم) ، فجهلهم ذكرا وأنثى ، (وما لا يعلمون) ، أى : من مخلوقات شئ لا يعرفونها ، كما قال تعالى : (ومن كل فئ خلقنا زوجين لعلكم تتذكرون) (١) .

وَأَيُّهُمُ الْمُسْلِمُ مِّنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ ۖ كَذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢١﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٢﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى : ومن اللذات لم على قدرته - تعالى - المنظمة غمكت الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا بضياه ، وجعلها يومانيان ، بجي هذا فيلعب هذا ، ويلعب هذا فيجي هذا ، كما قال : (ينشئ الليل النهار يطلبه حثيثا) (٢) ، ولما قال هاتتا : (وأيُّهم المسلم منه النهار فإذا هم مظلمون) ، أى : نصربه منه فيلعب ، فيقبل الليل ، وهذا قال : (فإذا هم مظلمون) ، كما جاء في الحديث : وإذا أقبل الليل من هاتتا ، وأدبر النهار من هاتتا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم (٣) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها قوله تعالى : (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) (٤) ، وله تحمض ابن جرير قول قتادة هاتتا ، وقال : إنما معنى الإيلاج (٥) الأخذ من هذا في هذا ، وليس هذا مرادا في هذه الآية (٦) ، وهذا الذى قاله ابن جرير حتى ،

(١) سورة الأنعام : آية ٤٩ .

(٢) سورة الأعراف : آية ٥٤ .

(٣) مسلم ، كتاب الصوم ، باب : بيان وقت انقضاء الصوم وخروج الأجر : ١٣٢/٢ . وقيل : كتاب الطلاق ، باب : الإشارة في الطلاق والأمور : ٦٦/٧ - ٦٧ . وسنة الإمام أحمد من حبه الله بن أبي أوفى : ٢٨٠/٤ .

(٤) سورة الحج : آية ٦١ .

(٥) انظر معنى الإيلاج في : ٤٤٥/٥ ، ٣٥٢/٦ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٢٢/٥ .

وقوله ١ : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، في معنى قوله : (لمستقر لها) قولان ، أحدهما : أن للراد مستقرا المكاني ، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أبنيا كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ، لأنه سقفها ، وليس يكره كما يزعمه كثير من أرباب الحية ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلي رموس الناس ، فالشمس إذا كانت في قبة تلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحيثما تسجد وتستأذن فيه الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث :

قال البخاري : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذر ، أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم : قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : (والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم) .

حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى ، حدثنا وكيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (والشمس تجري لمستقر لها) ، قال : مستقرها تحت العرش (١) .

كلما أوردناه هاهنا . وقد أخرجه في أماكن متعددة (٢) ، ورواه بقية البجاجة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ،

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن حبيب ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد حين وجبت الشمس (٣) ، فقال : يا أبا ذر ، أتدري أين تذهب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربه عز وجل ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيث جئت . فارجع إلى مطلقها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : (والشمس تجري لمستقر لها (٤)) .

وقال سليمان الثوري ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لأبي ذر حين غربت الشمس : أتدري أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ؟ وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعي من حيث جئت . فتطلع من مغربها ، فذلك قوله : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن أبي إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال : في قوله : (والشمس تجري لمستقر لها) ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بني آدم ، حتى إذا غربت سكنت ومسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت ومسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : أين المسير بعد وإلى أين إلا يؤذن لي

(١) البخاري ، تفسير سورة يس : ١٥٤/٦ .

(٢) انظر : ٢٥٢/٦ ، التعليق رقم ٥٥ .

(٣) أي : سقطت مع التنبؤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٥٢/٥ .

لا يبلغ ، فحيص ماشاء الله أن يحيي ، ثم قال لما : « اطلعي من حيث هربت » قال : فن يومئذ إلى يوم القيامة لا يبلغ نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أوكسبت في إيمانها خيراً .

وقيل المراد بقوله : (لمستقر لها) ، هوانتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السحاب في الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الخفيض .

والقول الثاني : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يطل منها ويرها ويسكن حركتها ومكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزماني .

قال قتادة : (لمستقر لها) ، أي : لوقتها ولأجل لاكمالها (١) .

فن : المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : (والشمس تجري ، لامتقر لها) (٢) ، أي : لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً ، لا تفر ولا تخف . كما قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر ذابين) ، أي : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

(ذلك تقدير العزيز) ، أي : الذي لا يخالف ولا يمانع ، (العلم) بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك وقتنته على منازل لا اختلاف فيه ولا تماكس ، كما قال تعالى : (فأتى الإصباح وجاء الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم) (٤) . وهكذا ختم آية « حم السجدة » بقوله : (ذلك تقدير العزيز العليم) (٥) .

ثم قال : (والقمر قدرناه منازل) ، أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل : هي موافق للناس والحج) (٦) ، وقال : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) (٧) . . . الآية وقال : (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، لمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتجتروا فضلاً من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلاً) (٨) . فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر له نور يخصه ، وقاوت بين سير هذه وهما ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومنازلها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ،

(١) تفسير الطبري ٤ : ٢٣٣ .

(٢) البحر المحيط : ٣٣٦/٧ .

(٣) كلما في خطوطة الأكرم : « وجاء الليل » وهي قراءة خرجناها عند هذه الآية ، انظر ٢٩٧/٣ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .

(٥) سورة فصلت ، آية : ١٢ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٨٩ .

(٧) سورة يونس ، آية : ٥ .

(٨) سورة الإسراء ، آية : ١٢ .

لم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانه بالنهار ، فهي كوكب نهارى . وأما القمر فقدره منازل ، يطلع في أول ليلة من الشهر فثبثا قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءه ، وإن كان مقبباً مع الشمس ، حتى يكامل لونه في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في التقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالمرجوج القديم ،

قال ابن عباس : وهو أصل الحديث (١) .

وقال مجاهد : المرجون القديم ، أى : الملقق اليابس .

يعنى ابن عباس أصل المتنود من الربط إذا حَقَّقَ (٢) ويس وائى ، وكلما قال غيرهما : ثم بعد هذا يبدئه الله جديداً في أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأولى «عُزْرَه» ، والثلاث بعدها «نُكْرَه» ، والثلاث بعدها «تُسْعَه» لأن أضرارهن التسعة ، والثلاث بعدها «عُشْرَه» ، لأن أولهن العاشرة ، والثلاث بعدها «البُشْرَه» لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، والثلاث بعدهن «دُرُج» (٣) جمعت دُرُجاء ، لأن أولهن سُود ، لتأخر القمر في أولهن ، ومنه نشأة الدُرُجاء وهي التي رأسها أسود ، ويعلمن ثلاث «ظلم» ثم ثلاث «حَسَّاس» ، وثلاث «دَامِس» (٤) ، وثلاث «مِحَاق» ، لانحساق القمر وأواخر الشهر فيهن : وكان أبو حنيفة (٥) ينكر التسع والعشر . كلنا قاله في كتاب «غريب المصنف» .

وقوله : (لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر) ، قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعبده ولا يقتصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا (٦) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الحسن بن قنبل : (لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر) ، قال : ذلك ليلة الثلاثاء .

وروي ابن أبي حاتم هاتماً عن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن للرياح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلات من الماء . وقال الثوري : عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح : لا يترك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا .

والله حكيمه : (لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر) ، يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل .

(١) تفسير الطبري : ٦/٢٣ .

(٢) أى : قدم ودمعت عليه فترة جف فيها .

(٣) ضبط في اللسان مادة «دُرُج» بضم فسكون . وفي مادة «ظلم» بضم ظلمة وضم فسكون . ونقل ابن منظور عن أبي حنيفة أنه قال : والواحدة من النور والظلم : دُرُجاء وظلماء . ثم قال ابن منظور : «قال أبو الحيثم وأبو الهيثم المبرد : واحدة النور والظلم - يعنى بضم فسكون - دُرُجاء وظلمة - يعنى بضم فسكون . قال أبو منصور : وهذا الذى قاله هو القياس الصحيح» .

(٤) في اللسان : مادة «دَامِس» و«دَادَ» : وفي الصالح : الدَّامِسُ : ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليال الحاق . والحاق آخرها وقيل : هى «هى» ونقل ابن منظور عن أبي الحيثم أنه قال الثلاث التي بعد الحاق ، سبب دَامِسُ لأن القمر يدانى إلى التيوب ، أى : يصرح ، من دَادَ التيوب .

(٥) في المخطوطة : «وأبو حنيفة» ، بالهاء . والصواب : أبو حنيفة . وهو القاسم بن سلام صاحب الغريب المصنف .

(٦) تفسير الطبري ، ٦/ ٢٣ .

وقوله: (ولا الليل سابق النهار) ، يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يحى النهار من هاهنا : وأوماً يده إلى المشرق :

وقال مجاهد : (ولا الليل سابق النهار) : يتطالبان (١) حثيثين ، يتسلخ أحدهما من الآخر :

والمعنى في هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يقبض الآخر بلا مهلة ولا فراغ ، لأجما مسطران هالكان يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : (وكل في فلك يسبحون) ، لا يعنى الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون في فلك السباح : قاله ابن عباس ، وحكمة ، والضحاك ، والحسن ، وقادة ، وعطاء الخراساني :

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : في فلك بين السماء والأرض : رواه ابن أبي حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكروه .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : في فلكة كفلكتك المبحر (٢) :

وقال مجاهد : الفلكة كحليمة الرحى ، أو فلكة المنزل ، لا يدور المنزل إلا بها ، ولا تلور إلا به .

وَأَنَّا لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ وَإِن نَّسَأَلُهُمْ فَلَآ صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿١٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ودلالة لم أيضا على قدرته تعالى تسخير البحر ليحمل السفن ، فن ذلك - بل أوله - سفينة نوح عليه السلام إلى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم . ولهذا قال : (وَأَيُّاهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ) ، أى : آباءهم ، (في الفلك المشحون) ، أى : في السفينة المملوءة من الأمتة والحیوانات ، إلى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس : للمشحون : المرفرف (٣) . وكلنا قال سعيد بن جبیر ، والشبي ، وقادة ، والسلي .

وقال الضحاك ، وقادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح عليه السلام .

وقوله : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) - قال العوفي ، عن ابن عباس : يعنى بذلك الإبل ، فلها سقن البر يحملون عليها ويركبونها : وكلنا قال حكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقادة - في رواية - وعبد الله بن شداد ، وغيرهم .

(١) في تفسير الطبري ٦/٢٣ : « يتطالبان » . وفي خطوطة الأزهري : « تلخ أحدهما » . والمثبت من الطبري .

(٢) تفسير الطبري : ٧/٢٣ .

(٣) أى : الحمل حمل ثقيل .

وقال السدي - في رواية - : هي الأنعام .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس قال : تلرون ما (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ؟ قلنا : لا . قال : هي السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها (١) وكذا قال أبو مالك ، والضحك ، وقناة ، وأبو صالح ، والسدي أيضاً : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ، أي : السفن :

ويُفْتَوَى هَذَا لِلدَّهَبِ فِي اللَّحَى قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّا لَأَطْلِقُ الْمَاءَ حَمَلَتَكُم فِي الْبَارِيَةِ . لَنَجْلِعَنَّ لَكُمْ تَذَكُّرًا وَتَعْبَهُ أُذُنَ وَاعِيَةٍ (٢) .

وقوله : (وإن نشأ نفرهم) ، يعني الذين في السفن ، (فلا صريح لهم) ، أي : فلا منيخ لهم معاهم فيه ، (ولاهم يقلون) ، أي : بما أصابهم ، (إلا رحمة منا) . وهذا استثناء منقطع ، تقديره : لكن برحمتنا نسركم في البر والبحر ، ونسركم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال : (ومتاعاً إلى حين) ، أي : إلى وقت معلوم عند الله .

وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَذَرُوهَا آمْنًا أَنْظِمُمْ بَيْنَ أَوْسَاءِ اللَّهِ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى خبراً عن تمادي المشركين في ضلالتهم ، وعدم أكثراتهم بلنوبهم التي أسلفوها ، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : (وإذا قيل لهم انفقوا مما بين أيديكم وما خلفكم) - قال مجاهد : من اللئوب . وقال غيره بالمكس - (ولكم ترصمون) ، أي : لعل الله بالتفانيكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير الكلام : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويصرفونه عنه . واكتفى من ذلك بقوله : (وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم) ، أي : على التوحيد وصدق الرسل (إلا كفروا عنها معرضين) ، أي : لا يأمرونها ولا يتنصتون بها .

وقوله : (وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله) ، أي : وإذا أمروا بالإففاق مما رزقهم الله على الفقراء والمهاجرين من المسلمين (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ، أي : من الذين آمنوا من الفقراء ، أي : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإففاق حاجتين لهم فيما أمرهم به : (أنظم من لوشاء الله أطعمه) ، أي : هؤلاء الذين أمرتونا بالإففاق عليهم ، لوشاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، (إن أنتم إلا في ضلال مبين) ، أي : في أمركم لنا بذلك :

قال ابن جرير : وعمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين وردوا عليهم ، فقال لهم : (إن أنتم إلا في ضلال مبين) (٣) : وفي هذا نظر .

(١) لتفسير الطبري : ٨/٢٣١ .

(٢) سورة انفلاق ، آية : ١١ ، ١٢ .

(٣) انظر تفسير الطبري : ٨/٢٣١ - ٩٠ .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿١٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾

يُحِبُّ تَعَالَى عَنْ اسْتِعْجَالِ الْكَفَرَةِ قِيَامَ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِمْ : (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) ؟ (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا) (١)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) ، أَيْ : مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، وَهِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - نَفْثَةُ الْفَرْعِ ، يَنْفِثُ فِي الصُّورِ نَفْثَةَ الْفَرْعِ ، وَالنَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَعَابِشِهِمْ يَخِصِّمُونَ وَيَتَشَاجِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ ، فَبَيْنَا هُمْ كَلَيْكَ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَنَفِثَ فِي الصُّورِ نَفْثَةً يَطُوفُهَا وَيَحْدُهَا ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْحَى لَيْثًا ، وَرَفَعَ لَيْثًا - وَهِيَ صَفْحَةُ الْعَنْقِ - يَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ قِبَلِ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَسَاقُ لِلْمَوْجِدُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَحْشَرِ الْقِيَامَةِ بِالنَّارِ ، تَحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ ، وَهَلْكَ قَالَ : (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً) ، أَيْ : عَلَى مَا يَمْلِكُونَهُ ، الْأَمْرُ أَهْمُ مِنْ ذَلِكَ ، (وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) .

وَقَدْ وَرَدَتْ هَاهُنَا آيَاتُ وَأَحَادِيثُ ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (٢) ، ثُمَّ تَكُونُ بَعْدَ هَذِهِ نَفْثَةُ الصَّعْقِ ، الَّتِي تَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ كُلُّهُمْ مَعَالِهَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْثَةُ الْبَيْثِ .

وَيُنْفِثُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا بُولُوكُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا عُصْرُورٌ ﴿٢٣﴾ فَأَلْوِيَوْمَ لَا تُظِلُّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

هَذِهِ هِيَ النَفْثَةُ الثَّلَاثَةُ ، وَهِيَ نَفْثَةُ الْبَيْثِ وَالتَّشْوِيرِ لِلْقِيَامِ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ ، وَهَلْكَ قَالَ : (إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) ، وَالتَّسْلِيلُ هُوَ : الْمَشْيُ السَّرِيعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا كُلَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبِ يَوْفُفُونَ) (٣) .

(قَالُوا : يَا بُولُوكُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟) يَمُوتُونَ قُبُورَهُمْ إِلَى كَانُوا يَحْضَرُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ مِنْهَا ، فَلَمَّا هَابُوا مَا كَتَبُوهُ فِي مَحْشَرِهِمْ (قَالُوا : يَا بُولُوكُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) ، وَهَلْكَ لَا يَبْقَى عَلَيْهِمْ فِي قُبُورِهِمْ ، لِأَنَّهُ بِالنَّصَبِ إِلَى مَا بَعْدَهُ فِي الشَّدَةِ كَالرَّكَادِ .

وَقَالَ أَبُو بِنِ كَعْبٍ ، وَجَاهِدٌ ، وَالْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ : يَتَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبَيْثِ (٤) .
قَالَ قَتَادَةُ : وَذَلِكَ بَيْنَ التَّضَخُّينِ .

(١) سورة الشورى ، آية : ١٨ .

(٢) انظر : ٢٧٦/٣ - ٢٨٢ - ٢٢٦/١ .

(٣) سورة المارج ، آية : ٤٣ .

(٤) تفسير الطبري : ١٢/٢٣ .

فذلك يقولون : (من بشتا من مرقدنا) ، فإذا قالوا ذلك أجايبهم المزمعون - قاله غير واحد من السلف - : (هذا ما وعد الرحمن وصدق الرسولون) .

وقال الحسن : إنما يجيهم بذلك لللاذكة .

ولامنافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : (ياويلنا ! من بشتا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق الرسولون) .

قوله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ، وذلك كقوله تعالى في الصافات : (وقالوا : ياويلنا ! هذا يوم الدين) هذا يوم الفصل الذي كتب به تكليوب (١) وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون (٢) .

فأوله : (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) ، كقوله : (فإذا هي زجرة واحدة) فإذا هم بالساعة (٣) وقال تعالى : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ، أو هو أقرب) (٤) . وقال : (يوم يدعركم فتسجبيون صمد ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) (٥) .

ثم : (إنما نأمرهم أمرا واحدا ، فإذا جميع محضرون) ، (قال يوم لا تعظم نفس شيئا) ، أي : من عملها ، ولا يجزون إلا بما كنتم تعملون) .

إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةَ وَلُحُومُهُمْ فِي شُغْلٍ فَكَهْنُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّينَ عَلَى الْأَرْدَائِكِ مَنْكَحُونَ ﴿٥٧﴾ هُمْ فِيهَا مُقِيمُونَ ﴿٥٨﴾ هُمْ وَمَا يَدْعُونَ ﴿٥٩﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٦٠﴾

سيجوز تلك من أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من السررات فزلوا في ووضعات الجنات : أنهم في شغل عن خبرهم ، بما هم فيه من التمتع العظيم ، والفوز العظيم .

قال الضيق البصري ، وإسحاق بن أبي خالد : (في شغل) مما فيه أهل النار من اللعب .

وقال مجاهد : (في شغل فاكهون) ، أي : في لعب ممتع ، أي : به : وكلما قال فتادة .

وقال ابن عباس : (فاكهون) ، أي : فرحون .

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) سورة القوم ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٤) سورة الفصل ، آية : ٧٧ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقادة ، والأعمش ، وسليمان التيمي ، والأوزاعي في قوله : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) ، قالوا : شغلهم اغتضاض الأبقار (١) .

وقال ابن عباس - في رواية عنه - : (في شغل فاكهون) ، أي : سماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لمه غلط من المسمع ، وإنما هو اغتضاض الأبقار .

وقوله : (هم وأزواجهم) - قال مجاهد : وحلالهم - (في ظلال) ، أي : في ظلال الأشجار ، (على الأراك) مكتون .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقادة ، والسندي ، وعصميت (الأراك) هي : السرر تحت الحبال (٢) .

قلت : نظيره في الدنيا هذه الصغور تحت البشائير ، والله أعلم .

وقوله : (لهم فيها فاكهة) ، أي : من جميع أنواعها ، (ولهم ما يدعون) ، أي : مهما طلبوا وجلبوا من جميع أصناف الملائكة ،

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن حوف الحمصي ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك السخري ، عن سليمان بن موسى ، حدثني كريب : أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا هل مضى إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا تضل (٣) لها ، هي - ورويه الكشي - نزلها بلائلاً ، وريحانة بهت ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد (٤) ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسنة جميلة ، وحلال كثيرة ، ومقام في أبد ، في دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحسنة ونعمة ، ومعلقة عالية بهيئة . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن للشعرون لها . قال : قولوا : « إن شاء الله » ، قاله القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ، من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مهاجر ، به (٥) .

وقوله : (سلام قولاً من رب رحيم) - قال ابن جريج - : قال ابن عباس في قوله : (سلام قولاً من رب رحيم) : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا للذي قاله ابن عباس كقوله تعالى : (تحيهم يوم يلقونه سلام) (٦) .

(١) انظر تفسير الطبري : ١٣ / ٢٣ .

(٢) المجال : جمع حجلة - فنج الخلاء والجم - وهي : بيت كالقبة يسر بالتياب ، وتكون له أبواب وكوابل .

(٣) أي : لا مثل لها .

(٤) أي : جار .

(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب : صفة الجنة ، الحديث ٤٣٣٢ : ١٤٤٨ / ٢ - ١٤٤٩ .

(٦) سورة الأحزاب : آية : ٤٤ .

وقد روى ابن أبي حاتم هاتنا حديثاً في إسناده نظر ، فانه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك ابن أبي الشوارب ، حدثنا أبو حاتم التميمي ، حدثنا الفضل الرقاشي ، عن محمد بن المنكر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أهل الجنة في نعيمهم ، إذ مطع لهم نور ، فرفعوا رموسهم فإذا الرب تعالى قد أشرقت عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : (سلام قولاً من رب رحيم) ، قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركه عليهم وفي حيارهم » .

ورواه ابن ماجه في «كتاب السنة» من سننه ، عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، به (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حرملة ، عن سليمان بن حميد قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار ، أقبل في ظنك من اللعاب والملاكمة ، قال : فيسلم حل أهل الجنة ، فيردون عليه السلام - قال القرظي : وهذا في كتاب الله : (سلام قولاً من رب رحيم) - فيقول : سلوني ، فيقولون : ماذا نسألك أي رب ؟ قال : بل سلوني : قالوا : نسألك - أي رب - وضائك ، قال : وضائك أحلكم دار كرامتي : قالوا : يارب ، فما لنا نسألك ، فوحزتك وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الظالمين لأعلمناهم ولأعلمناهم ولأيسناهم ولأعظمناهم ، لا يتقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدى مزيداً . قال : فينمل ذلك بهم في وجههم ، حتى يسوي في مجلسه . قال : ثم تأتيهم لتصف من الله من وجل تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه .

وهذا أثر قريب ، أورده ابن جرير من طرق (٢) .

وَأَعْبُدُوا إِلَهَكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَدَمُ إِنَّ لَكُمْ عِدَّةَ الْعَذَابِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۚ (١٥) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۚ (١٦)

يقول تعالى ضرباً مما يورث إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره أن يتنازوا ، بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم . قوله تعالى : (ويوم نحشرهم ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاكم ، فويلنا بينهم (٣) . وقال تعالى : (ويوم ندم الساعه يومئذ يظفرون) (٤) ، (يومئذ يصدحون) (٥) ، أي : يصيرون صديقين فرفيقين ، (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعلمون من دون الله ، فاهدوهم إلى صراط الجحيم) (٦) .

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية ، : ١٨٤ : ١٥٤/١ - ٦٦ .

(٢) التفسير الطبري : ٢٣/ ١٥٤ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٢٨ .

(٤) سورة الروم ، آية : ١٤ .

(٥) سورة الروم ، آية : ٤٣ .

(٦) سورة الصافات ، آية : ٢٢ ، ٢٣ .

وقوله تعالى : (ألم أهد إليكم بائى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم حلو مبين) : هذا تفرع من الله للكفرة من بئى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو حلو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم : ولهذا قال : (وأن اصبوني هذا صراط مستقيم) ، أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعبادتنا الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فبا أمركم به ، ولهذا قال : (وقد أضل منكم جبلا كثيرا) ، يقال : « جبلا » بكسر الجيم ، وتشديد اللام . ويقال : « جبلا » بضم ، الجيم والياء ، وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الياء : والمراد بذلك لخلق الكثير ، قاله جاهد ، والسدى ، وقطادة ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : (ألم تذكروا تغفلون) ، أى : أفأنا كان لكم حقل فى غفلة وكم فبا أمركم به من عبادة وحده لاشريك له ، وعدوكم إلى الباع الشيطان .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد الطائفي ، عن إسماعيل بن رافع ، عن حذيفة عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عصف ساطع مظلم ، يقول : (ألم أهد إليكم بائى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم حلو مبين) . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . وقد أضل منكم جبلا كثيرا ألم تذكروا تغفلون » . هذه جهنم التي كنتم توعدون) امتازوا اليوم أبا المجرمون . فيميز الناس ويعتدون ، وهي التي يقول الله تعالى : (وترى كل أمة جالية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم يجزون ما كنتم تعملون (١))

هَلِيجِهِ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنشُدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُونا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الْعَذْرَ لَوْ أَنَّ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْتُمُونا عَلَى مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَعْمَلُوا مَعِيَا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٥﴾

يقال للكفرة من بئى آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم هربا وتوبيخا : (هذه جهنم التي كنتم توعدون) ، أى : هذه التي حددتكم الرسل فكلبتموهم ، (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) ، كما قال تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكتبون) . أفسر هذا ألم أنه لا يصرون (٢) .

وقوله تعالى : (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، ونشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) ، هذا حال الكفار والمتأقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجرموه فى الدنيا ، ويحلفون مانعوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما علمت .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو شعبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شعبة ، حدثنا منجاب بن الحارث التميمي ، حدثنا أبو حاتم الأسدي ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المكثيب ، عن الفضيل بن عمرو ، عن الشعبي ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبي -

(١) تفسير الطبري : ٢٣ / ١٦ .

(٢) سورة الطور ، الآيات : ١٣ - ١٥ .

صلى الله عليه وسلم - فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال : أتدرونم أصبحت ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مجادلة العيد ربه يوم القيامة يقول : رب ، ألم تجزني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى على إلا شاهداً من نفسي . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكائين شهوداً . فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : « انطقى » . فتنتطق بممله ، ثم ينطق بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسخفاً ، فنحن كُنتُ أنا ناضل .

وقد رواه مسلم والنسائي ، كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر ، عن أبي النضر ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي ، عن سفيان - هو الثوري - به . ثم قال النسائي : [لأعلم (١)] أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي ، وهو حديث غريب ، والله تعالى أعلم .

كلنا قال ، وقد تقدم (٢) من رواية أبي حنبل عن عبد الملك (٣) بن عمرو الأسدي - وهو المعتدي - عن سفيان ؟ وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم تُدانونكم سنة (٤) » أفواهكم بالصيد ، فأول ما يسأل عن أحدكم فضله وكفته . رواه النسائي (٥) عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، به .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم في حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يأتي الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بربوبيتك وبكتابك ، وصبرته وصليت وتصدقت - وبني غير ما استطاع - قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهداً ؟ قال : فيفكر في نفسه ، من الذي يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفضله : « انطقى » . فتنتطق فضله ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك لما نطق ، وذلك ليعلم من نفسه . وذلك الذي سخط الله عليه .

ورواه [مسلم (٦)] وأبو داود ، عن حديث سفيان بن عيينة ، به (٧) بطوله .

ثم قال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضَمَيْقَمُ بن زُرَّه ، عن شريح بن عبيد ، عن حنيفة بن حامر : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُخْتَمُ على الأفواه ، فضله من الرجل اليسرى . »

(١) من هنا وقع سقط في خطوطة الأثر . وما أثبتت عن الطبقات السابقة .

(٢) تقدم الحديث منه لتفسير الآية الرابعة والمشرين من سورة النور ، وخرجناه هناك ، النظر : ٣٤/٦ .

(٣) في الطبقات السابقة : « أبي حنبل عن عبد الملك » . وأبو حنبل هو عبد الملك انظر كتابه : ٤٠٩/٦ .

(٤) في الطبقات السابقة : « مقدما حل أفواهكم » .

وما أثبتناه من مسند الإمام أحمد : ٤/٥ .

والفهام : ما يند حل في الإبريق والكرز من غرة لتصفية الشرايع التي فيه ، أي : إنهم يمتحنون الكلام بأفواههم حتى تكلم جوارحهم ، ففقه ذلك بالفهام .

(٥) إل هنا يتنطق السقط الذي أشرنا إليه من قبل .

(٦) ما بين القوسين عن الطبقات السابقة .

(٧) سلمى : كتابه الزهد : ٢١٦/٨ .

ورواه ابن جرير عن محمد بن حوف ، عن عبد الله بن المبارك ، عن إسحاق بن هياش ، به مثله (١) ،

وقد جَوَّدَ إسناده الإمام أحمد رحمه الله فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسحاق بن عتيق ، عن ضَمْنَمِ بْنِ زُرْعَةَ ، عن شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدِ الْحَضَرِيِّ ، عن حَدَّثِهِ عن عَقْبَةَ بْنِ حَامِرٍ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ عَظَمٍ مِنَ الْإِنْسَانِ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ يُخْتَصَمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ ، فَتُخَلَّدُ مِنَ الرَّجُلِ الشَّيْثَالُ (٢) » .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيْيَةَ ، حدثنا يونس بن عُبَيْدٍ ، عن حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ : قَالَ أَبُو بَرْدَةَ : قَالَ أَبُو مُوسَى هُوَ الْأَشْعَرِيُّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :- يَدْعِي الْمُؤْمِنُ لِلْحَسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَتَعَرَّضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، فَيَعْرِفُ فَيَقُولُ : نَعَمْ أَيْ رَبِّ ، عَلِمْتُ عَلِمْتُ عَلِمْتُ . قَالَ : فَيُفَرِّقُ اللَّهُ لَهُ ذَنْبِيهِ ، وَيُسْتَرُهُ مِنْهَا : قَالَ : فَا عَلَى الْأَرْضِ خَبِيفَةٌ تَرَى مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ شَيْئًا ، وَتَدْنُو حَسَنَاتِهِ ، فَتَدْرَأُ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرُونَهَا ، وَيَدْعِي الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ لِلْحَسَابِ ، فَيُعَرَّضُ رِيهِ عَلَيْهِ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، وَهَذَا لَكَ كَتَبْتُ عَلَى هَذَا الْمَلَكِ مَا لَمْ أَهْمَلْ : فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ : أَمَا عَلِمْتُ كَلِمًا ، فِي يَوْمٍ كَلِمًا ، فِي مَكَانٍ كَلِمًا ؟ فَيَقُولُ : لَا ، وَهَذَا لَكَ أَيْ رَبِّ مَا عَلِمْتُ : فَاذَا قُضِيَ ذَلِكَ خَشِيعٌ عَلَى فِيهِ - قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : فَاذْنِ أَحْسَبُ أَوَّلَ مَا يَنْتَقِلُ مِنْهُ الْقَلْبُ (٣) الْيَمْنَى ، ثُمَّ تَلَا : (الْيَوْمَ نَحْمُ عَلَى أَعْوَاهِهِمْ ، وَنَكَلِمُهُمْ أَيْدِيَهُمْ ، وَنَقْلُهُمْ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (٤) .

وقوله : (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّونَ) - قَالَ عَلَى بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنْ ابْنِ هِشَامٍ فِي تَفْسِيرِهَا : يَقُولُ : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَضْلَعْنَاهُمْ مِنَ الْهَدْيِ ، فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ ؟ وَقَالَ مَرَّةً : أَعْيُنُهُمْ .

وقال الحسن البصري : لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَطَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، فَجَعَلَهُمْ ضَمِيًّا يَرُدُّونَ .

وقال السدي : لَوْ شَفْنَا أَعْيُنًا أَبْصَارَهُمْ .

قال جاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدي : (فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) ، بِمَعْنَى الطَّرِيقِ .

وقال ابن زيد : بِمَعْنَى بِالصِّرَاطِ هَاهُنَا لِحَقِّ ، (فَأَنَّى يُصِرُّونَ) ، وَقَدْ طَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ .

وقال المتوفى ، عن ابن عباس : (فَأَنَّى يُصِرُّونَ) : لَا يُصِرُّونَ لِحَقِّ (٥) .

وقوله : (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ) ، قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَمَلَكْنَاهُمْ .

وقال السدي : بِمَعْنَى لَنَجْرَتْنَا خَلْقَهُمْ .

وقال أبو صالح : لِنَجْمَتْنَاهُمْ حِجَابًا .

وقال الحسن البصري ، وقتادة : لَأَتَكَلَّمُ عَلَى أَرْجُلِهِمْ .

(١) تفسير الطبري : ١٧ / ٢٣ .

(٢) منه الإمام أحمد : ١٥١ / ٤ .

(٣) في تفسير الطبري : ١٧ / ٢٣ .

(٤) تفسير الطبري : ١٧ / ٢٣ .

(٥) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري : ١٧ / ٢٣ - ١٨ .

ولهذا قال تعالى : (فَاِصْطَلَحُوا مَضِيًّا) ، أى : إلى أمام ، (وَلَا يَرْجِعُونَ) ، أى : إلى وراء ، بل يلوذون حالاً واحداً ، لَا يَتَقَلَّبُونَ وَلَا يَتَغَيَّرُونَ .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْإِسْعَرَوْمَا يَلْبَسُهُ لَئِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَفُتْرَانٌ ﴿٥٧﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾

يُخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طالع عمره رُدَّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، كما قال تعالى : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، خلق ما يشاء وهو العليم القدير) (١) . وقال : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) (٢) .

والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لادار دوام واستقرار ، ولهذا قال : (أفلا يعلمون) ، أى : يشكرون يعقلون في ابتداء خلقهم ثم صبرورهم إلى الشبيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليملأوا أنهم هلكوا لدار أخرى ، لا زوال ولا انتقال منها ، ولا عيذ عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) ، يقول تعالى خبراً عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : أنه ما علمه الشعر ، (وما ينبغي له) ، أى : وما هو في طبعه ، فلا يشته ولا يصح ، ولا تقتضيه جبريلته ، ولهذا ورد أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يحفظ بيتاً على وزن منظم ، بل إن أنشده زحفة (٣) أولم يمه .

وقال أبو زرعة الرازى : حدثت عن إسحاق بن عمار ، عن أبيه ، عن الشعبي أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذكره ابن صاكر في ترجمة «عبد بن أبي سب» الذى أكله السبع بالزرقاء .

قال ابن أبي حاتم : «حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد» (٤) ، عن الحسن - هو الهجرى - قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمثل هذا البيت (٥) :

• كفى بالإسلام والشيب لعمراً نكاحياً •

فقال أبو بكر : يا رسول الله !

• كفى للشيب والإسلام لعمراً نكاحياً •

قال أبو بكر ، أومر : أشهد أنك رسول الله ، يقول الله : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) .

(١) سورة الروم : آية ٥٤ .

(٢) سورة النحل : آية ٧٥ .

(٣) الزحاف - بكسر الزاى - من مصطلحات علم العروض في الشعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف ، فيزحفت أعضاؤه إلى الآخر ، أى يبنى منه أنه كان مفعولاً منه هذا الحرف الذى سقط .

(٤) ما بين القوسين من الطبقات السابقة .

(٥) البيت لاسم عبد بن الحساس ، وصحده :

• عميرة ودع إن تجهزت خادياً •

الظفر في البيان والتمهين للجاسط : ٧١ ٪ ١ . والكامل للمبرد : ٥٨٥ .

• أَجْعَلْ نَهْجِي وَنَهْجَ الْعَبِيدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْيَةِ •

يعني في المعنى ، صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا روى الأموي في مغازيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمشى بين القنلى يوم بدر ، وهو يقول :

..... مِنْ رِجَالِ أَعْزَةٍ • عِلْبَتِنَا ، وَهُمْ كَانُوا أَصْقَى وَأَظْلَمَا

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا مغيرة ، عن الشعبي ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله إذا استراحت (هـ) الحمر ، غفل فيه بيت طرفة (٦) !

• وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزِدْ (٧) •

وهكذا رواه الترمذي في «اليوم واليلة» من طريق إبراهيم بن مهاجر، عن الشعبي، عنها ورواه الترمذي و«السنن أيضا» من حديث اللخادم بن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، كذلك. ثم قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» (أ).

(١) البهت في سيرة ابن هشام مع أبيات أخر : ٤٩٣/٢ : ٤٩٤ . وأسد الغابة ٢/ ١٦٨ : وروايته هكذا :

• أنجمل نوى ونهب العبيد بين حيفة والأكرح •
والنهب - يفتح لسكون - : ما ينهب ويضم .

(٢) ليس هذا حاصل ما قاله السهيلي في الروض ، وقد قدم المختار بأسباب التقدم وتزليل الكلام ، وذكر ما قبلها الرتبة والفضل ، وقال : « أما لفظة الرتبة فلهذا من عشتف ، ثم من بين تعيم ، فهو أقرب إلى نفي ، صلى الله عليه وسلم - من حيوة ، في قرب في الذكر ، فيقبله ، وأما لفظة الفضل فبالأحرار حسن إسلامه ، وحيوته من يزل مردداً في أهل البلاء ، في ارتد وأن بطليحة وعاتق أسير ، فيقبل المسيان ، يقولون له صلى الله عليه وسلم إن بكسر ، ويحك يا صلوات الله ارتدعت يمه إني إني ١٩ ، فيقول ، وإني ما كنت أعتد أن أسلم في الظاهر ، ثم لم يزل جالساً حتى ساءت ، وبنيك تسوء الفتي صلى الله عليه وسلم - له : « الأصح المطاع . . . وذكر السهيلي بهذا هذا مطلقاً ، أعز من جلده ، انظر الروض الأنيب : ٣٩٠ ، ٣٩١ . »

(٢) تقدم للبهت عند التفسير الآية الثانية عشرة من سورة الأنفال ، وخرجناه هناك ، انظر : ٥٦٥/٧ - ٥٦٦ .

(٤) حصة أبن فلم : ١٠٧-١٠٩ ، وانظرها في التفصيلات القوية : ٦٤-٧٣

(٥) لى : استبطأه ، يقال : راح علينا عبر فلان ، إذا أبطل .

(۶) دیوانہ : ۶۶

(٧) مستند الإعلام أحمد : ٣١٧/٦ ، ١٤٦٠

(٨) مجلة الأحرار، أبرار الأدب، باب ما جاء في إنشاء الشعر،، أطنبت ٣٠٠٦: ٥-١٤١/١٤٠ هـ.

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة ، عن معاذ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل من الأشعار :

• وَيَتَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ •

لم قال : رواه غير زائدة ، عن معاذ ، عن عكرمة عن عائشة .

وهذا في شعر طرفة بن العبد ، في معلقته المشهورة ، وهذا المذكور منها ، أوله :

سَتُبْدَى لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتُتْ جَاهِلًا وَيَتَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

وَيَتَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبَحْ لَهُ بَتَاتًا ، ولم تصرب له وقت مؤد .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم - وكيل المتوفى ببغداد - حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضرير ، حدثنا حل بن عمرو الأنصاري ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن حروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط ، إلا بيتاً واحداً ، ثم لم يزل يمازجهم حتى يكتن ، فكتكت . بكال لشيء كان . إلا تحكت

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني عن هذا الحديث ، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخنا الحاكم ، ولا الضمير . وقال سعيد بن أبي حروبة عن قتادة : قيل لعائشة : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت : كان لبعض الخليل إليه ، غير أنه كان يتمثل بيت [أني] بني قيس ، فيجمل أوله آخره ، وآخره أوله . فقال أبو بكر ليس هكذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه (١) وقال معمر بن قتادة : بلغني أن عائشة سئلت : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ فقال : لا ، إلا بيت طرفة :

سَتُبْدَى لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتُتْ جَاهِلًا • وَيَتَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

فجعل يقول : من لم تزود بالأخبار . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : إني لست بشاعر ، ولا ينبغي لي . وثبت في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام - نزل يوم طرفة بن العبد بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن تباعاً لقول أصحابه ، فأنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لَا حَمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا كُنْتُتْ جَاهِلًا وَلَا تَصَدَّقْتُ وَلَا مَنِّي

فَأَنْزَلْنِي مِنْكُمْ مَكِينًا وَتَبَّتْ الْأَعْدَامُ إِنَّ لَاقِيًا

إِنَّ الْأَوَّلَى قَدْ بَخُوا عَنِّي إِنْ أَرَادُوا لِقَاءَ ابْنِ

ويزعم غيره بقوله : أيتها ، وعدها (٢) . وقد روى هذا بزحاف في الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين (٣) وهو راكب البكرة ، يقدم بها في نحو المدد :

(١) تفسير الطبري : ٢٢ / ١٩ .

(٢) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق : ١٤٠٧٥ . وحسنه ، كتاب التجهيز والتأبير : ١٨٨٠ . غزوة حبر .
وغزوة الأحزاب : ١٨٥ / ١٨٨ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة براءة ، وعرجاه هناك ، الطبري : ١٠٠ / ٧٠ .

أَنَا النَّبِيُّ لَا كُتِبَ • أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .
وكل ذلك ما ثبت في الصحيحين عن عبد بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار فُتَيْكِبَت (١)
أصبه ، فقال :

هَكَأُنْتِ إِلَّا إِصْبَحَ دَمِيثٌ • وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ (٢)

وسبأني عند قوله تعالى : (إِذَا لَمْ يَأْمُرْ) إنشاد :

إِنَّ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا • وَأَنْتَ عَبْدُكَ مَا أَلَمَّا

وكل هذا لا ينافي كونه صلى الله عليه وسلم ما علمتم شراً ولا يبغي له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ، (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (٤) . وليس هو بشعر كما زعم طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضالِّين وأراء الجهَّال . وقد كانت سجيته صلى الله عليه وسلم تأتي صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه أبو داود قال :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا عبد الله بن يزيد (٥) ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا شرحبيل بن يزيد المصنف عن عبد الرحمن بن رافع التميمي قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول) : ما أبالي ما أُرِيتُ إن أنا شَرِيتُ تَرْبِيّاً (٦) ، أو طلعت قيمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي (٧) : فردد به أبو داود .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن الأسود بن شيبان ، عن أبي ثوبان قال : سألت عائشة أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسامع (٨) عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه وقال عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصحبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك (٩) .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا شعبة ، عن الأحشي ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لأن يمتلي جوف أحدكم فيما خير له من أن يمتلي شعره) (١٠) .

(١) أي : لآلئها المخالفة .

(٢) أخرجه في كتابه الجهاد ، انظر البخاري ، باب : من يتكبر في سبيل الله : ٢٢/٤ ، ومسلم ، باب : ما أتى النبي صلى الله عليه وسلم - من أتى المشركين والمناقبين : ١٨١/٥ ، ١٨٢ .

(٣) سورة النجم ، آية : ٤٢ .

(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

(٥) في المخطوطة : وجه الله بن سوية . والصواب من سنن أبي داود : وصته الإمام أحمد .

(٦) الترياق : ما يستعمل لدفع كس من الأفعية .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب : في الترياق . وانظر مسنده الإمام أحمد : ٢٧٣/٧ .

(٨) في المخطوطة : يسماع عنده . والمثبت عن المستدرك : وانظر أيضاً للمصنف : ١٢٤/٦ ، ١٨٩ .

(٩) مسنده الإمام أحمد : ١٤٨/٦ .

(١٠) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : ما جاء في الشعر . الحديث : ٣٥٢٩ ، ٣٥٢٨ ، ٣٥٢٧ .

فرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا قزعة بن سويد الباهلي ، عن عاصم بن عجلد ، عن أبي الأشعث الصنعاني (ح) وحدثنا الأكيبي قال : عن ابن عاصم ، عن (أبي) الأشعث ، عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ بيت شعر بعد المشاء الآخرة ، لم تقبل له صلاة تلك الليلة » (١) .

وهذا حديث خريب من هذا الوجه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة : والمراد بذلك نظم لا إنشاده ، والله أعلم ؛ على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذي كان يتصاهاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وحيد الله بن روكعة ، وأمثلم وأضرابهم ، رضي الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواظ وآداب ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « آمن شعره وكفر قلبه » . وقد أشبه بعض الصحابة منه النبي صلى الله عليه وسلم ما لا بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعني يستطعمه (٢) ، فيزيده من ذلك (٣) ، وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب ، وبريدة بن الحبيب ، وعبد الله بن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكمة » (٤) .

ولهذا قال تعالى : (وما علمناه الشعر) ، يعني : محمد صلى الله عليه وسلم ما علمه الله شعراً ، (وما ينبئ له) ، أي : وما يصلح له ، (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ، أي : ما هذا الذي علمناه (إلا ذكر وقرآن مبين) ، أي : بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ، ولهذا قال : (لينزل من كان حياً) ، أي : لينزل هذا القرآن اليين كل حي على وجه الأرض ، كقوله : (لا تكلمكم به ومن بلغ) (٥) ، وقال : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (٦) : وإنما يتنفع بتلاوته من هو حي القلب ، مستبصر البصيرة ، كما قال قتادة : حي القلب ، حي البصر . وقال الضمك : يعني عاللاً (٧) ، ولحق القول على الكافرين) ، أي : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَمَّا مَلِكُونَ ﴿١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوزُهُمْ
وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣﴾**

يلذكر تعالى ما انعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ، (فهم لها ما لكون) - قال قتادة : مطيقون : أي ؛ جليلهم يفهمونهم . ولهم ذليلهم ، لا تمنع منهم ، بل لوجاه صغير إلى كبير لأناخه ، ولوشاء لأقامه وساقه ، وذلك دليل مقامه معه : وكلما لو كان الصغار مائة بغير أو أكثر ، لساار الجميع بغير صغير .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤ / ١٢٥ .

(٢) أي : يطلب منه أن يذيقه المذاق من علم هذا الحديث .

(٣) أنظر صحيح مسلم ، كتاب الشعر : ٤٨ / ٧ - ٤٩ . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « الشعر » ، الحديث : ٣٧٥٨ .

٧ / ١٢٣٩ . ومسند الإمام أحمد عن الفريدي بن سويد : ٤ / ٣٨٨ - ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « ما جاء في الشعر » ، الأحاديث : ٥٠١٠ - ٥٠١٢ / ٤ / ٣٠٣ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .

(٦) سورة هود ، آية : ١٧ .

(٧) تفسير القرطبي : ٢٤ / ١٩ .

وقوله : (فنها ركوبهم ومنها يأكلون) ، أى : منها ما يركبون ، فى الأسفار ، ويعملون عليه الاتكال ، إلى سائر الجهات والأقطار . (ومنها يأكلون) ، إذا شاموا نحرروا واجتروا ، (ولم فيها منافع) ، أى : من أسوائها وأوبارها وأشارها أئاثا ومناعا إلى حين ، (ومشارب) ، أى : من ألبانها وأبولها لمن يتلوى ، ونحو ذلك : (أفلا يشكرون) ، أى : أفلا يؤحدون خالق ذلك وصنعه ، ولا يشكرون به غيره ؟ :

وَأَنفَحُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَمْ يَلْعَلْهُمْ يَصْرُونَ ﴿٣٨﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُعْضِرُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا يَخِفُّونَكَ قُوَّتُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى منكراً حل المشركين فى اتخاذهم الأنداد الله مع الله ، يتفنون بذلك أن تصرهم تلك الآلة وترزقهم وقرهم إلى الله زلي : قال الله تعالى : (لا يستطيعون نصرهم) ، أى : لا يمكن الآلة على نصر هابئها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر ، بل لا تنصر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام من أرواحها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل :

وقوله : (وهم لهم جند محضرون) - قال جامد : يعنى جند الحساب (١) يريد أن هذه الأصنام محشورة بجموعة يوم القيامة ، محشورة عند حساب هابئها ، ليكون ذلك أبلغ فى عزيزهم ، وأدك عليهم فى إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : (لا يستطيعون نصرهم) ، يعنى الآلة ، (وهم لهم جند محضرون) ، وللشركون ينضفون للآلة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تلج عنهم سوءاً ، إنما هى أمتام (٢) .

وهكذا قال الحسن البصرى : وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله .

وقوله : (فلا يخفك قوتهم) ، أى : تكليهم لك وكفرهم بالله ، (إنما نعلم ما يسرون وما يعلنون) ، أى : نعلم تعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزهم وصفتهم وناملهم حل ذلك ، يوم لا يقفون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِنَّا هُوَ حَصِيمٌ مِّمَّيْنِ ﴿٤١﴾ وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَبَيْنَ خَلْقِهِ قَالَهُ مَنِ بِيئَ الْإِنْسَانُ وَمَنِ رَيْبُهُ ﴿٤٢﴾ قُلْ بِحَيْثُهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ قُوقِدُونَ ﴿٤٤﴾

قال جامد ، وحكمة وحروقة بن الزبير ، والسدى ، وقطادة : جاء ابن بن خلعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم روم وهو يفتقه ويذريه فى الملاء ، وهو يقول : يا محمد ، أترى أن الله يبيت هذا ؟ قال : نعم يبيت الله تعالى ، ثم يمشك ، ثم يمشك إلى النار : وتزلت هذه الآيات من آخر : (أُولَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ) إلى آخره .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن الجعيد ، حدثنا محمد بن الملاء ، حدثنا عثمان بن سعيد الأرياث ، عن هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففقه بيده ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيحي الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أيحيك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » قال : وقرئت الآيات من آخر يس :
ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم ، عن هشيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر ابن عباس (١) ،

وردى من طريق الموفى ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن أبي بظلم ففته : « وذكر نحو ما تقدم »
وهذا منكر ، لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبي ابن سلول إنما كان بالمدينة ، وحل كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف ، أو العاص ، أو فوهما ، فهي حامة في كل من أنكر البعث ، والآلف واللام في قوله : (أولم الإنسان) للجنس ، يعم كل منكر البعث :

(أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) ، أي : أولم يستلكن من أنكر البعث بالبدن على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سائلة من ماء مهين ، فخلقته من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : (ألم نخلقكم من ماء مهين • فجعلناه في قرار مكين • إلى قدر معلوم) (٢) . وقال : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نطية) (٣) ، أي : من نطفه من أخلاط مفرقة ، فاللئى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ، كما قال الإمام أحمد في مسنده :

حدثنا أبو المنيرة ، حدثنا حريز ، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، عن جبير بن نفير ، عن بصير بن جهماش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث (٤) يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : قال الله تعالى : ابن آدم ، أنى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا متوتيتك وعككك ، مشيت بين برديك والأرض منك وليد (٥) ، فجمعت ومضت ، حتى إذا بكتكت الترابي قلت : « أتصدق » وأنى أوان الصدقة (٦) ؟

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حريز بن عثمان ، به (٧) .

ولمّا قال : (وضرب لنا ثلاثاً نتسى خلقه) قال : من يحيى العظام وهي رميم ؟ أي : استبعد إعادة الله تعالى - ذئ القدرة العظيمة إلى خلقت السموات والأرض - للأجساد والعظام الرمية ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعد وأنكره وجسده ، ولمّا قال تعالى : (قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم) ، أي : يعلم العظام في سائر أقطار الأرض ولرجائها ، أين ذهبت ، وأين فترت وتمزقت ؟

(١) تفسير الطبري : ٢٢٣/٢١ .

(٢) سورة المرات : الآيات : ٢٠ - ٢٢ .

(٣) سورة الإنسان : آية : ٢ .

(٤) في المسند : « بزق » .

(٥) التوكيد : صوت شدة الوطء على الأرض يسبح كالقوى من بعد .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢١٠/٤ .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب : « أنى من الإسك في الحياة والتبديل عنه الموت » ، الحديث ٢٧٠٧ ، ١٠٣/٢ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عروبة ، عن عبد الملك بن عمر ، عن ريشي قال : قال حبة بن عمرو لحبة ، ألا تحدثنا ما سمعت من (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال سمعت يقول : إن رجلا حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إنا أنا ميت فاجمعوا لي حطباً كثيراً حتى لا (٢) ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا لا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت (٣) ، فخلوها فكدروها (٤) في ألم ، فقلوا ، نجسم الله إليه فقال له : لم فعلك ذلك ؟ قال : من خشيت ، ففكر الله له : قال حبة بن عمرو : وأنا سمعت يقول ذلك . وكان ثياباً (٥) .

وقد أخرجه في الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمر ، بألفاظ كثيرة ، منها : أنه أمر به أن يحرقه ثم يسحقه ، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، في يوم ربيع ، أي : كثير المزارع - فقلوا ذلك ، فأمر الله اليسر فجمع ما فيه . وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن : فإذا هو رجل قائم : فقال له : ما حملك على ما صنعت فقال : عافاك وأنت أعلم : فابلاغاً (٦) أن خفر له (٧) :

وقوله (الذي جبل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون) ، أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار مختصراً تنسجراً كما نثر ويتن (٨) ، ثم أحاده إلى أن صار حطباً يابساً ، فوجد به النار ، كلوك هو فاعاك لا يشاء ، قادر على ما يريد لا يمتعه في .

قال قتادة في قوله (الذي جبل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون) ، يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعث (٩) ،

وجبل : المراد بملك سترح (١٠) للرخ والعفكار ، بنبت في أرض الحجاز فيأمن أراد قدح للز وليس منه زائد ، فيأخذ منه حودين أخضرين ، ويقطع أحدهما بالأخر ، فتولد النار من بينهما ، كما نفاذ سواه ، روى هذا من ابن عباس رضي الله عنهما : (وفي المثل (١١) : لكل شجر نار ، واستمجد الترخ والعفكار (١٢)) ، وقال الحكماء في كل شجر نار إلا الناب .

(١) هنا اختصر ابن كثير عن الحديث .

(٢) أي : حطباً قوياً .

(٣) الحطب : استأثر البلد وظهور العلم .

(٤) في المصنف : وفادروها .

(٥) سمع الإمام أحمد : ٣٩٥٥ .

(٦) التلحق : توارك الشيء بعد أن قلت .

(٧) البخاري : كتاب الأنبياء : ٢١٤/٤ . وكتاب الرقاق : باب : الكوف من الله : ١٢٧٨/٨ . وكتاب التوحيد : ١٧٨/٩ .

١٧٩-١٧٨ . ومسلم : كتاب التوبة : باب : في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه : ٩٨/٨ .

(٨) أي : ولفج .

(٩) تفسير الطبري : ٢٢٢/٢٣ .

(١٠) المشرح : شجر واحد سرحة ، وهي من كبر الشجر .

(١١) في المصنف : مكان وفي المثل : وقال الرازي : . والثلث من لطيفات السابقة : وعزائل معزولة .

(١٢) جمع الأمثال البدائي ، المثل رقم : ٢٧٥٢ - ٧٤٢/٢ - . ونتائج الفكر للسبيل ، ورقة : ٤٤ .

والمن أن الرخ والطير - قد استكثرا وأخذوا من النار ما هو حسيما : لأجها يرمون في الرمي ، وقوله الأصل يكرهه .

الغبار والأصل من الرخ . يفرح هذا المثل في تفصيل بعض الشيء على بعض .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَيَلِدُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ

إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٩﴾ فَبَحَنَ الَّذِي يَبْدُوهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السائرة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد خلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (١)) . وقال هاهنا : (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) أي : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير (٢) .

وعله الآية كقوله تعالى : (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ، ولم يبي خلقهم ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بل إنه على كل شيء قدير (٣)) . وقال : (بل وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، أي : يأمر بالشيء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَكُنْ . يَقُولُ لَهُ دَعْنُ قَوْلُهُ فَيَكُونُ (٤)

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا موسى بن أبي سبيب ، عن شهر ، عن عبد الرحمن بن شتم ، عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يقول : يا عبادي ، كلّم مدّنب إلامن عافيت ، فاستغفروني أخفركم ، وكلّم قهراً إلامن أخفيت ، إني جواد ماجد واجد أفضل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعدائي كلام ، إذا أردت شيئاً فإني أقول له كن فيكون (٥) .

وقوله : (فبحن الذي يبدو ملكوت كل شيء ، وإليه ترجعون) . أي : تنزيهه وتقديسه وتبرّقه من السوء للهي القيوم ، الذي يبدو مقادير السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل لنظم المفضل .

ومعنى قوله : (فبحن الذي يبدو ملكوت كل شيء) كقوله : لا حر وجل : قل من يبدو ملكوت كل شيء (٦) ، وكقوله تعالى : (تبارك الذي يبدو الملك (٧)) ، فالملك والملكوت واحد في المعنى . كرحمة ورحمات ، ورحمة ورحمات ، وجنّ وجنّات ، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

(١) سورة طه : آية ٥٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٢/٢٣ .

(٣) سورة الأحقاف : آية ٣٣ .

(٤) تقدم البيت عند تفسير الآية ١١٧ من سورة البقرة : ٢٣٢/١ ، والآية الأربعين من سورة النمل : ٤٩٠/٤ .

(٥) سند الإمام أحمد : ١٧٧/٥ . وقد اختصر ابن كثير منه .

(٦) سورة المؤمنون : آية ٨٨ .

قال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمر ، حدثني ابن عم حليفة ، عن حليفة - وهو ابن اليمان - ، رضى الله عنه ، قال : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقرأ السبع الطوك في سبع ركعات ، وكان إذ رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : « الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرفت وقد كانت تنكسر رجلاي (١) .

وقد روى أبو داود ، والترمذي في الثبائيل ، والنسائي ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي حمزة - مولى الأنصار - عن رجل من بني عتبس ، عن حليفة : أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل ، وكان يقول : « الله أكبر - ثلاثاً - ذوالملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « سبحان ربّي العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه ، يقول : « ربّي الحمد له ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول في سجوده : « سبحان ربّي الأعلى » . ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيها بين السجدين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لي ، رب اغفر لي » : فصل أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة - أو الأנקام ، شك شعبة - هذا لفظ أبي داود (٢) .

وقال النسائي : « أبو حمزة حدثنا طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة (٣) » : كذا قال ، والأشبه أن يكون ابن عم حليفة ، كما تقدم في رواية الإمام أحمد ، فأما رواية صلة بن زفر ، عن حليفة ، لإنها في صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثني معاوية بن صالح ، عن عمرو بن لبيس ، عن عاصم ابن حميد ، عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعز ، قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة (٤) .

ورواه الترمذي في الثبائيل ، والنسائي ، من حديث معاوية بن صالح ، به .

[آخر تفسير سورة يس]

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٨/٥ ، والثلث أيضاً : ٣٩٩-٣٩٧-٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده » ، الحديث ٨٧٤ ، ٢٣١/١ ، والبيهقي : *

كتاب الا فتاح ، باب « ما يقول في قيامه » : ١٩٩/٢ - ٢٠٠ ، وباب الفناء بين السجدين : ٢٣١/٢ .

(٣) يعني صلة بن زفر القهبي .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقول في ركوعه وسجوده » ، الحديث ٨٧٢ ، ٢٣٠/١ - ٢٣١ .

الفهارس

فهرس موضوعى

(ف)	القاحشة ، سباحها وإذاعتها : ٢٩	سورة النور	(١)
(ق)	القلوب : ٣١-٣٥	الاستئذان : ٣٦-٤٢، ٨٨-٩١، ٩٥-٩٦	الإفك (قضية عائشة) : ١٧-٢٩
(م)	الماء : ٧٩	أمة محمد صلى الله عليه وسلم : ٨١	المؤمنون : ٨١
(ن)	للتألقون : ٨٠-٨١	(ح)	حد الزنا : ٣-٧
نور الله : ٦٥-٦٥	الحرج : ٩٢-٩٤	(خ)	الخلق : ٧٩
سورة الفرقان	(ج)	(ج)	النزاهة : ٣-١١
(ت)	التوبة : ١٣٦	الزواج : ٥٣-٦٥	(س)
(ح)	الحساب : ١٠٧، ١١١	التسبيح : ٧٧-٧٨	للمساجد : ٦٥-٧٦
(ر)	الرسول : ١٠٨-١٠٩، ١١٧، ١١٩	السحاب : ٧٨-٧٩	(ش)
(ز)	الزنا : ١٣٥-١٣٦	الشیطان وخطراته : ٣٠	(ص)
(ش)	الإشراك وجهل للمشركين : ١٠١، ١٢٧.	الصلاة : ٨٨	صلة الأرحام : ٣١
(ع)	العامة : ١٤٣	(ع)	تعظيم الرسول : ٩٦
حرم الرسالة : ١٠٥-١٠٦، ١٢٥	علم الله : ٩٨-٩٩	أعمال التكفار : ٧٦-٧٧	(غ)
(ق)	القتل : ١٣٥-١٣٦	غض البصر : ٤٣-٥٢	
القرآن : ١٠٥	القائمة : ١٠٣-١٠٧، ١١٤		

(هـ)

للكفر وجهل الكفار : ١٠٢، ١٠٩، ١١٧، ١٢١

(حـ)

المؤمنون : ١٣١-١٣٥، ١٤٠-١٤٢

(جـ)

وجود الله وقدره : ١٢٢-١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩
التوكل على الله : ١٢٨

سورة الشعراء

(حـ)

حرمين الرسول على إيمان الكفار : ١٤٤

(سـ)

استراق السمع : ١٨٣

(شـ)

الشمر والشهداء : ١٨٤-١٨٧

(ظـ)

النظم : ١٨٧، ١٨٨

(فـ)

قصة الله : ١٤٥

القرآن : ١٧٣-١٧٥

قصة موسى عليه السلام : ١٤٦-١٤٥

قصة إبراهيم عليه السلام : ١٦٥-١٦٠

قصة نوح عليه السلام : ١٦٥-١٦١

قصة هود عليه السلام : ١٦٢-١٦٤

قصة صالح عليه السلام : ١٦٤-١٦٧

قصة لوط عليه السلام : ١٦٧-١٦٨

قصة شعيب عليه السلام : ١٦٨-١٧١

(نـ)

الإنفال : ١٧٦-١٨١

(وـ)

التوحيد : ١٧٦

التوكل على الله : ١٨٢

سورة النمل

(اـ)

آيات الساعة : ٢٧٠-٢٢٤

(تـ)

البعث : ٢١٧-٢١٩

(حـ)

حمد الله : ٢١٠

(شـ)

المشركون : ٢١١-٢١٦

(عـ)

العبادة : ٢٢٧-٢٢٨

علم الله : ٢١٦-٢١٧

(قـ)

قدرة الله : ٢١١-٢١٦

القرآن : ١٨٩، ٢١٩

قصة موسى : ١٩٠-١٩٢

قصة داود : ١٩٢

قصة سليمان : ١٩٢-٢٠٦

قصة صالح : ٢٠٧-٢٠٩

قصة لوط : ٢٠٩-٢١٠

القيامة : ٢٢٤

سورة القصص

(بـ)

البلاغ : ٢٦٩

(حـ)

الحساب : ٢٥٩-٢٦١-٢٦٢

الحياة الدنيا : ٢٥٨-٢٥٩

(غـ)

الخلق : ٢٦١

(ذـ)

النار الآخرة : ١٦٨-٢٦٩

(طـ)

الطغيان : ٢٥٧-٢٥٨

(غ)

الغلاب : ٢٩٧ - ٢٩٨ .
العمل الصالح : ٢٧٤ .

(غ)

الإغواء وعاقبه : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(ق)

قُدرة الله : ٢٨٩ .

قصة توح : ٢٧٧ - ٢٧٩ .

قصة إبراهيم : ٢٧٩ - ٢٨٥ .

قصة لوط : ٢٨٥ - ٢٨٧ .

قصة شبيب : ٢٨٧ .

(ق)

الكتب السماوية : ٢٩٤ .

الكلب : ٣٠٣ .

التكليب وعاقبه : ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(ق)

الأمثال : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

الموت : ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(هـ)

المجيرة : ٢٩٩ .

(و)

الوحدانية : ٣٠١ .

الوصية بالوالدين : ٢٧٤ - ٢٧٥ .

سورة الروم

(و)

الربا : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(ز)

الزكاة : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(س)

الساحة : ٣٣١ .

(ط)

طبيعة الإنسان : ٣٢٣ - ٣٢٤ .

أطوار الإنسان : ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(ع)

علم الله : ٢٧١ .

علم أهل الكتاب : ٢٥٣ - ٢٥٥ .

لصنت الكفار : ٢٥١ - ٢٥٣ .

(ف)

الفناء : ٢٧٢ .

(ق)

قُدرة الله : ٢٦١ - ٢٦٢ .

قصة موسى : ٢٣٠ - ٢٥١ .

قصة قارون : ٢٦٣ - ٢٦٨ .

(هـ)

المضايقة : ٢٥٥ - ٢٥٧ .

سورة النكبات

(١)

الآيات : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(ب)

الابتلاء : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(ت)

تلاوة القرآن : ٢٨٩ .

(ج)

المعادلة : ٢٩٢ .

(ح)

الحرم الآمن : ٣٠٢ .

(د)

الدنيا وحفارتها وزولها : ٣٠١ .

(ر)

الرزق : ٣٠٠ - ٣٠١ .

(ش)

المشركين وجهلهم : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(ص)

إقامة الصلاة : ٢٨٩ - ٢٩٢ .

(ف)

- الفساد : ٣٢٥ - ٣٢٧
 القطرة : ٣٢٠ - ٣٢٣
 لتفكر في خلق السموات والأرض : ٣١٢
 (ق)
 قدرة الله : ٣١٢ - ٣١٩ ، ٣٢٧ - ٣٢٩
 قصة الرُّوم ولارس : ٣١٢ - ٣٠٣
 الاستقامة : ٣٢٠ ، ٣٢٧
 (م)
 الأمثال : ٣١٩ ، ٣٢١

سورة لقمان

(ل)

- إنصاف المبادئ : ٣٥٠
 الأخلاق : ٣٤٦ - ٣٤٨
 الاختيار : ٣٤٩

(م)

- السماء : ٣٣٣ ، ٣٣٥

(ن)

- المشركون وجهلهم : ٣٥٠
 الأتقياء : ٣٣٣ - ٣٣٥
 الشهرة : ٣٤٥ - ٣٤٦

(هـ)

- حظرة الله : ٣٥١
 علم الله : ٣٥٤ - ٣٥٩

(ز)

- قدرة الله : ٣٣٥ - ٣٣٦ ، ٣٥١ - ٣٥٩
 قصة لقمان : ٣٣٦ - ٣٤٩
 القيامة : ٣٥٤

(ح)

- الكبر وضه : ٣٤٦ - ٣٤٨

(ط)

- لعم الله : ٣٤٩

(و)

- التواضع : ٣٤٣ - ٣٤٥
 سورة السجدة
 (أ)
 الإمامة والأئمة : ٣٧١ - ٣٧٢
 المؤمنون : ٣٦٤ - ٣٦٩

(ب)

- خلق السموات والأرض : ٣٦٢

(س)

- المشركون : ٣٦٠ ، ٣٦٢ - ٣٦٤

(ع)

- الاعتبار : ٣٧٣ ، ٣٧٤
 حمد لله : ٣٦٩

(ق)

- قدرة الله : ٣٦١ - ٣٦٢
 القرآن : ٣٦٠
 القيامة : ٣٦٣
 التكليف : ٣٧٣ - ٣٧٥

سورة الأحزاب

(أ)

- آداب بيت النبوة : ٤٠٤ - ٤١٦
 الاستئذان : ٤٤٠ - ٤٤٦
 إيلاء الله تعالى ورسوله : ٤٦٩ - ٤٧٠ ، ٤٧٣ - ٤٧٦
 الأسوة : ٣٩٢
 الأمانة : ٤٧٧ - ٤٨١

(ب)

- النبي : ٣٧٧ - ٣٨٠ ، ٤٢٢

(ث)

- ثبات المؤمنين : ٣٩٣ - ٣٩٦

(ج)

- الحجاب : ٤٥٥ ، ٤٤٦

(خ)

- تحجير لسان النبي : ٤٠١ - ٤٠٤

سورة سبا	(ذ)	ذكر الله : ٤٧٦ :
(ت)	(د)	
اتباع إبليس : ٥٠٠ - ٥٠١ .		الرسالة : ٤٧٢ - ٤٧٦ ، ٤٣١ - ٤٣١
(ح)	(ذ)	
حب الله تعالى للناس : ٥٠٩ .		الزواج : ٤٣٣ .
(د)		زوجات النبي : ٤٣٣ - ٤٤٠
الرزق : ٥١٠ :	(س)	
الرسالة وموقف الناس منها : ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ -		الساعة : ٤٧٢ - ٤٧٣ .
٥١٤ :		
(س)	(ص)	
الساعة : ٤٨١ - ٤٨٤ .		الصلاة على النبي : ٤٤٧ - ٤٦٩
(خ)	(ط)	
المشركون : ٥١١ :		الطلاق : ٤٣١ - ٤٣٧ .
الشفاعة : ٥٠١ - ٥٠٢ :		الطاعة : ٣٧٦ ، ٣٨٠ - ٣٨٧ ، ٤٦٩ - ٤٧٠ ، ٤٧٣ -
(ج)		٤٧٦
السلابة : ٥١١ :	(ع)	
عاطقة الجاهة ومسلك القرد : ٥١٢ - ٥١٣		أولو النزم من الرسل : ٣٨٣ .
علم الله : ٤٨٢ :	(غ)	
عموم الرسالة : ٥٠٥ - ٥٠٦		غزوة الخندق : ٣٨٤ - ٣٩٧ .
(ق)		غزوة بني قريظة : ٣٩٧ - ٤٠١
القرآن وموقف الكفار منه : ٥٠٧	(ق)	
قصة داود : ٤٨٥ - ٤٨٦		قصة زينب بنت جحش : ٤١٧ - ٤٢٢
قصة سليمان : ٤٨٦ - ٤٩١	(ن)	
قصة سبا : ٤٩١ - ٥٠٠		لباس المرأة : ٤٧٠ - ٤٧١ .
القيامة : ٥٠٧ ، ٥١٥ - ٥١٨	(م)	
سورة طاهر		للهور : ٤٣٣
(ل)	(د)	
الزمنون : ٥٣١ - ٥٣٢		نعم الله : ٣٨٤
(و)		لناقون : ٤٧١ - ٤٧٢
التكليم : ٥٢١ ، ٥٢٨ :	(و)	
(هـ)		التقوى : ٣٧٦ ، ٤٠٥
الجنة : ٥٣٧		

(ح)

الحزن : ٥٣٧ .

(خ)

خلق السموات والأرض : ٥١٩ .

(ش)

الشيطان : ٥٢١ .

(ص)

صفرة العباد : ٥٣٢ .

(ع)

الملاب : ٥٢٢ .

علم الله : ٥٤٢ .

العمى : ٥٣٩ - ٥٤٢ .

(ف)

لفظنا الملقن إلى الله : ٥٢٧ .

(ق)

قدرة الله : ٥١٩ - ٥٢٠ ، ٥٢٢ - ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

القرآن : ٥٣٢ .

(ك)

الاستكبار : ٥٤٥ .

(م)

المكر : ٥٤٥ .

(ن)

الإنظار : ٥٤٦ .

نعم الله : ٥٢٠ .

النار : ٥٣٨ .

(هـ)

سورة يس

(ب)

استبعاد الكفار للقيامة : ٥٦٧ .

البعث : ٥٦٧ .

(ج)

الجنة : ٥٦٨ - ٥٧٠ .

(ح)

الحساب : ٥٧٠ - ٥٧٤ .

(س)

سليمة الرسول : ٥٧٩ .

(ش)

شركون : ٥٧٩ .

ال : ٥٧٤ - ٥٧٨ .

(ص)

ضعف الإنسان : ٥٧٩ .

(ف)

فضل سورة يس : ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(ق)

قدرة الله : ٥٦٠ - ٥٦٥ ، ٥٨٠ - ٥٨٣ ،
القرآن : ٥٤٨ .

قضاء الله على الكفار : ٥٤٩ - ٥٥٠ .

(ك)

كتاب الأعمال : ٥٥١ - ٥٥٤ .

(م)

الأمثال : ٥٥٤ .

(ن)

الإنذار : ٥٤٩ ، ٥٥١ .

نعم الله : ٥٧٨ - ٥٧٩ ، ٥٨١ .

النار : ٥٧١ - ٥٧٤ .

(و)

موقف الناس من الرسالة : ٥٥٤ - ٥٦٠ ، ٥٦٦ .

خصيف : ١١٠ ، ٥٦٩
 الخليل بن أحمد : ٥٣٤٥
 خزيمة : ٢٦٣
 ابن خزيمة : ٥٩٩٦

(د)

الدراكي (أبو سليمان) : ٥٠٧
 أبو البرداء : ٧٤ ، ١٦٢ ، ٣٣٧ ، ٥٣٤

(هـ)

الريح بن أنس : ٧٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ٣٥١ ، ٤٢٨ ، ٤٤٧ ، ٥١٦ ، ٥٢٤

الريح بن عظيم : ٣١٨
 ربيعة : ٧

أبو دؤب : ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٥٥٠٨

(ز)

الزهر بن العوام : ٣٨٢
 الزجاجي (عبد الرحمن بن إسحاق) : ٤٨٥

زدر بن حيش : ٣٧١
 أبو زعدة بن عمرو بن جرير : ٢٥٠ ، ٢٥٢
 الزهرى : ٧١ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٤٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٧ ، ٢٥٥ ، ٣١٠ ، ٣٧٨ ، ٤٨٢ ، ٥١٩ ، ٥٥٤

زهر بن عبد : ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 زهير بن أبي مرجم : ٥٠٥

زهران بن أسلم : ٤٢ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ، ٤٠٤ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٤٨
 زيد بن ثابت : ٥
 زيد بن ربيع : ٣٢٥

(س)

السدي : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ٤٧١ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥

٥١٢ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٧٩

سعيد بن جبير : ٧ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٧١ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٣٢٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٧ ، ٤٩٦ ، ٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٥

سعيد بن أبي الحسن : ٧٤

أبو سعيد الخدري : ١١١ ، ٢٤٩ ، ٤٦٠

سعيد بن المسيب : ١١ ، ٥٠ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٥٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٣٣٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٥٦٩

سفيان بن حسين : ٦٦

سفيان بن سعيد الثوري : ٤٧ ، ٥٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١٧٢ ، ٢١٠ ، ٢٧٢ ، ٣١٠ ، ٣٤٠ ، ٣٧٢ ، ٤٤٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧١

سفيان بن عيينة : ١٦٩ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨
 سليمان التيمي : ٥٦٩

أم سلمة : ٤٧١

سماك بن سلمة : ٣٤٥

السولي (عبد الرحمن بن عبد قه) : ٣٩٠ ، ٤٩٥ ، ٥٧٥

(ش)

الشافعي : ٧٠ ، ٧١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٥٦ ، ٣٠١ ، ٤٣١ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٢

شريح : ١٢ ، ٢٣٩

أبو الشامة : ٤٧ ، ٩١

شبيب الجبلي : ٢٠٢ ، ٢٣٩ ، ٥٥٤

شمر بن عطية : ١٢٩

شهر بن حوشب : ٢٦٣ ، ٥٢٤

ابن شاذب : ٤٨٥

(ص)

أبو صالح : ٦٦ ، ٩١ ، ١٢٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٧ ، ٢٧٠ ، ٤٣٩ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦

أبو صخر : ١٦٥

أبو الصديق التاجي : ١٩٤

صفوان بن عرز : ١٨٨

(ن)

نافع بن جبير : ٦٦ .

نصر بن علقمة : ٧ .

نعم القاري : ٢٧١ .

نوف البكالي : ١٩٤ .

(هـ)

أبو هريرة : ٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٣٦٧ ، ٥٢١ ، ٥٤٧ .

(و)

أبو وائل : ٢٢٧ .

أبو الوليد الباجي : ٢٩٤ .

وهب بن منبه : ٨٣ ، ١٦٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ ،

٢٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٣٥٤ ، ٤٩٥ ، ٥٣٩ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

(ي)

يحيى بن الجزار : ٢٧٠ .

يحيى بن أبي كثير : ٩٠ ، ٣١٣ .

يحيى بن يسر : ٢٠٧ .

زيد بن الأصم : ٣٤١ .

زيد بن رومان : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ .

يعلى بن حبيد : ١١٧ .

أبو البيان الموزني : ٣٦٩ .

يونس بن حبيد : ٣٤٩ .

فهرس الامان والبلدان ونحوهما

(١)		(٢)	
أحد	٣٩٤٠٣٩٣٠٣٨٤	الحيشة	٤٤٩٠٤٤٨٥٠٢٩٩٠٠١٨٥٠٤٤٤٠٤٧
أذربيجان	١١٩	الحجاز	٥٤٨
أفصاحات	٣١٠٠٣٠٧	الحجر	٥٨١٠٣٩٨٠٣٩١
الأردن	٣٣٣	الحدبية	٢٠٩
الاسكندرية	٥٥٩٠٨٤	حوران	٣١١٠٣١٠٠٣٠٨
اصطخر	٤٨٧	حمص	٣٠٨
افريقية	٤٩٢	حوران	٣١٠
الأندلس	٨٤	الحيرة	٨٤
أطاسكية	٥٥٩٠٥٥٨٠٥٥٤		٨٦
الأهواز	٨٤		
أيلة	٣٧٦		
إيليا	٣١٠		
(ب)		(ج)	
البحرين	٨٤	غراسان	٣٠٩٠١٩٥٠٨٤
بار	٥٧٥٠٣٩٤٠٣٩٣٠٥٨	الخور	١٣٦
البصرة	٥٤٢٠٤٠٥٠١٨٥٠١٢٦	نعم	٤١١
بصرى	٤٩٩٠٤٩٨٠٣١٠٠٣٠٧٠٨٤	المنطق	٥٧٦٠٣٩٦٠٣٨٩٠٣٨٧٠٣٨٤
بطن مر	٤٩٨	نجير	٥٧٦٠٣٩٩٠٣٨٤٠٨٤
بعلبك	٢١٣		
بنداد	٥٧٦٠٣٨٧٠٣٧٤		
بيت المقدس	٤٩٦٠٤٩١		
(د)		(هـ)	
بيرك	٣٦٦٠١٦٥	دمشق	٥٣٦٠٤٨٧٠٢١٣٠٨٤
بامه	٤٩٩٠٤٠٠	دومة الجندل	٢٠٦
(ز)		(ح)	
جزيرة العرب	٣٠٤٠٢٧٠٠٨٦٠٨٤	رومية	٥٥٩
جمع	٣٧٩	الرك	٣٠٩
جها	٢٢٣	الزرقاء	٥٧٤
(ط)		(ق)	
سبأ	٣٦٦٠١٦٥	سبأ	٣٦٦٠١٦٥
سبج	٤٩٩٠٤٠٠	سبج	٤٩٩٠٤٠٠
سلوم	٣٠٤٠٢٧٠٠٨٦٠٨٤	سلوم	٣٠٤٠٢٧٠٠٨٦٠٨٤
السراة	٣٧٩	السراة	٣٧٩
سلج	٢٢٣	سلج	٢٢٣

(كـ)	(شـ)
٤٨٧ : كابل	٣٠٧، ٣٠٤، ١٩٤، ١٦٥، ١٦٤، ٨٤ : الشام
٤٩٩ : كوثي	٥٠٤، ٤٩٩، ٤٩٦، ٤٩٤، ٤٩٢، ٣٧٤ : صافين
٣٨٥ : الكوفة	٥٤٤ : صنعاء
(مـ)	(صـ)
٤٩٤، ١٩٧ : مأرب	٤٦٦، ٢٢٣، ٢٢٢، ١٨١، ١٧٦ : الصين
٣٠٦ : المدائن	٥٠ : الطائف
٢٣٧، ٢٣٦، ٢٣٥ : مدنين	٤٩٧، ٤٩٤، ١٩٧ : طرسوس
٢٢٥، ٢٢٣، ٨٥، ٣٠، ١٩، ١٥، ٩، ٨ : المدينة	١٢٦، ٨٤ : الطور
٢٣٨٩، ٣٨٤، ٣٨٢، ٣٥٢، ٣٠٠، ٢٨٢ : طيبة	٥٥٢، ١٨٤، ٦١، ٥١ : عدن
٤٥٧، ٤٠٠، ٣٩٧، ٣٩٦، ٣٩٢، ٣٩٠ : العراق	٣٠٥ : المرج
٤٤٣٢، ٤٧١، ٤٧٠، ٤٦٢، ٤١٨، ٤١١ : صفان	٢٥٠ : العقبة
٥٥٣، ٥٣٦، ٥١٥، ٤٩٨، ٤٩٦، ٤٩٤ : عمان	٣٩٠ : غزة
٣٧٩، ٢٢٣ : المزدلفة	٢٢٠ : خوخة دمشق
٥١٤، ٢٢١ : للمسجد الحرام	٤٩٩، ٤١٢، ٣٠٩، ٨٤ : فارس
٤٩٤ : المشلل	١٨٤ : قباء
٣٣٦، ٢٤٥، ٢٣١، ١٥٢، ١٥١، ٨٤ : مصر	٢٢٣ : قبرص
٣٧٤، ٣٧٣ : المغرب	٣٧٩ : القلبيس
٢٢٣، ٨٤ : مكة	٤٩٤ : قديد
٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١، ٢٢٠، ٨٥، ٨٤، ٨ : أم القرى	١٢٥ : قرية برزة
٤١٦، ٤١١، ٣٧٩، ٣٧٥، ٢٥٧، ٢٢٨ : القسطنطينية	١٩٥ : القلزم
٥١٥، ٤٩٨، ٤٦٢ : القبرون	٨٤ : قنطرة
٣٧٩ : منى	
٣٧٩ : مؤتة	
١٨٥ : ميسان	
(نـ)	(قـ)
٤٠٠ : نجد	٤١٢ : قباء
(هـ)	(قـ)
٣٨٩، ٨٤ : حجر	٨٤ : قبرص
١٢٦ : الهند	٥٥٩ : القلبيس
(يـ)	(قـ)
٤٩٩، ٤٩٨، ٣٩٠، ٣٨٩ : يثرب	٤٩٤ : قديد
٤٢٥، ١١٩ : اليمامة	١٢٥ : أم القرى
٤٨٧، ٤٢٥، ٣٧٤، ٢٢٣، ١٢٦، ٨٤ : اليمن	١٩٥ : قرية برزة
٤٩٨، ٤٩٦، ٤٩٤، ٤٩٢، ٤٩١ : القسطنطينية	٥٥٩، ٣٠٩، ٣٠٤، ٨٤ : القلزم
	١٥٣، ١٢٦ : القبرون
	٨٤ : قنطرة

فهرس القبائل والطوائف ونحوهما

(خ)		(١)	
٤٩٣، ٤٩٢	عشم	٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٣، ٤٩٢، ٤٩١، ٢٠٥	الأرد
٤٩٩، ٤٩٨	غزاة	٤١٢	بنو أسد
٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٤، ٢٢، ٢١، ٢٠	الخروج	١٧٤، ١٥٥، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ٨٣	بنو إسرائيل
٥٧٥	خلفاء	٢٦٧، ٢٣٥، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٠، ٢١٩	
١٩٥	الخوارج	٤٧٤، ٤٣٠، ٣٩٨، ٣٧٢، ٣٧١، ٣٠٨	
(د)		٤١٦، ٥١٤	
٥٦٠	النخبة	٤٩٤، ٣	أسلم
(١)		٤٩٤	بنو إسحاق
٤٧٠	الرافضة	٤٩٣، ٤٩٢، ٤٩١	الأشعريون
٣٠٥، ٣٠٤، ٢١٤، ١٨٨، ١٦٦، ٨٤	الروم	٣٠٨	بنو الأصغر
٥٣٠، ٣٠٦		٨١، ٤٩، ٢٦، ٢٤، ٢٢، ٢٠، ١٦، ١٣	الأنصار
(٢)		٤٧٥، ٤٧٣، ٤٧١، ٣٨٢، ١٨٦، ١٨٤	
٣٨٢	بنو زيد	٥٥٣، ٥٠٤، ٥٠٣، ٤٩٩، ٤٩٤	
(س)		٤٩٣، ٤٩٢، ٤٩١	أنار
٢٤٣	السامية	٤٩٩، ٤٩٨، ٤٩٤، ٢٢، ٢١، ٢٠	الأوس
٥٥٣، ٥٥٢	بنو سلمة	(ب)	
(ش)		٤٩٣، ٤٩٢	بيلة
٣٧١	شومة	٢١٢	بلمهجم
٨٥	الشبة	(٥)	
(ص)		٨٤	الترك
٥٢٠	الصقالبة	٥٧٥	بنو تميم
(ط)		(ث)	
١٨	طهار	٥٥٨	ثبيت
(ع)		٢٠٨، ٢٠٧، ١٦٩، ١٦٤، ١١٩	ثمود
٣٥٧، ٣٩	بنو عامر	(ج)	
٤٩٣، ٤٩٢، ٤٩١	حامله	٤٩٢، ٤٩١	جلالم
١٧٩، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٦	بنو حيد المطلبية	٤٩٩	بنو جفنة
١٧٨، ١٧٧	بنو حيد منات	(ح)	
٥٨٣	بنو حيس	٤٦	بنو حارثة
٤٩٨	بنو حيان	٤٩٢، ٤٩٢، ٤٩١، ١٩٦	حمير

(د)	الكروبيون	٥٠٦،٤٩٢،٣٧٣	السم
١١٥،١١٤	بنو كعب	٤٩٣	حدائق
١٧٧	بنو كنانة	٤٩٨	حلك
٥٣٣	كتنه	(غ)	
٤٩٣،٤٩٢،٤٩١		٤٩٩،٤٩٨،٤٩٣،٤٩٢،٤٩١	خسان
(ل)		٣٨٤	خطفان
٢٦٧	بنو لاري	٤٠٠	بنو غم
٤٩٢،٤٩١	نخم	(ف)	
١٧٦	بنو لوي	٣٩٩،٣٠٧،٣٠٦	فارس
(م)		١٧٦	بنو لهر
٥٥٨	بنو مازن	(ق)	
٨٤	المخوس	٢٣١،٢٣٠	القبط
٤٩٣،٤٩٢،٤٩١	ملحج	٤٩٣	خيطان
٣٨٢،٤٢	للمهاجرون	٢٣٢	القارية
(ن)		١٨١،١٧٧،١٠٣،٨٥،٥٨،٤٩،٤٨	فريش
٥٥٩،٣٨٠،٢١٩،٦٧	النصارى	٣٨٢،٣٧٧،٣٧٢،٣١١،٣٠٧،٣٠٦	
٣٨٤	بنو النضير	٥٧٧،٥٠٨،٤٠٠،٣٨٦،٣٨٤	
(هـ)		٤٠٠،٣٩٨،٣٩٧،٣٨٧،٣٨٦،٣٨٤	بنو قريظة
١٨١،١٧٨،١٧٧	بنو هاشم	١٧٨	بنو مصي
(ي)		٥٧٦	بنو قيس
٣٠٩	اليثورية	٣٩٨	بنو قينقاع
٣٨٤،٣٥٢،٢١٩،٧٦،٦٧	اليهود		

فهرس الشمر

الصفحة	الشاعر	القافية	الصفحة	الشاعر	القافية
	(ع)		(ا)		
٣٦٥	١ عبد الله بن رواحة	ساطع	٢٦	١ حسان بن ثابت	الحزاء
٣٦٥	١	والمع	٢٦	١	وفاة
٣٦٥	١	المضاجع	٢٦	١	القتاد
٤٨٦	١ أبو ذؤيب	نبح	٥٤١	-	الدلاء
٥٧٥	١ حسان بن مرثد	والأفزع		(ب)	والقتاد
	(هـ)		٤٨٨	-	المصبا
٣٣٧	-	خلف	١٧٥	-	لطلب
١٣٧	-	الرجيف	٥٧٧	١	لطلب
	(ق)		٢٢٩	-	رقيب
٥٧٩	-	لحقا	٢٢٩	-	بليبه
٤٨٨	١ الأعشى ميمون	لحق	٤٧١	١ جنوب أخت عمرو بن الكلبي	لجلال
٣٥٩	١ أعشى ممدان	عرق		(ت)	
٣٥٩	١	لنطلق	٥٧٧	١	دميت
٣٥٩	١	عق		(جـ)	
٥٥٥	١	للمعق	٧٢	١ نبل بن جري	الطوالج
٥٥٥	١	يسق		(د)	
	(ذ)			١ طرفة بن العبد ٥٧٥ ، ٥٧٦	ثود
٣٩١	-	العوازل	٥٧٦	١	مورع
	(ن)		٤٩٨	١ حسان بن مرثد	مفره
٢٧٧	١ ليث	باطل		(و)	
٢٥	١ حسان بن ثابت	الفواقل	١٤٤	١ ذو الرمة	للقاهر
٢٧٧	-	والعمل	٣٥٤	١ عمرو بن معد يكرب	رغفر
٤٥٥	-	الأجل	٣١٣	١ المصباح	شكر
١٣٢	١ الأعشى ميمون	مالي	٢٦٨	١ زيد بن عمرو بن لوطن	بكر
			٢٦٨	١	نمر
			١٦٦	-	للمحمر
			١٨٧ ، ١٠٨	١ ابن الزبير	ورد
			١٨٧ ، ١٠٨ ، ١٠٦	١	شود
				(ض)	
			٣٠٥	-	الهيض

الصفحة	الشاعر	الطائفة	الصفحة	الشاعر	الطائفة
٤٩٩		علم	(م)		
٣٤١	عمر بن حنبل	نقوما	٤٩٣	سبا بن شجب	الحرام
٤٩٤		النصم	٤٩٣		ذام
	(ن)		٤٩٣		بالقسام
٤٩٤	حسان بن ثابت	خسان	٤٩٣		الانام
٥٨٢	-	فيكون	٤٩٣		يعام
٢٥٢	-	يلينى	٤٩٣		وام
٥٤٩	-	يلينى	٥٧٧	-	سلام
٥٤٩	-	يانلى	٥٧٥	-	أظلم
٥٧٦	عبد الله بن رواحة	صلينا	١٨٥	الزمان بن هدى	حزم
٥٧٦		لا قيتا	١٨٥		عس
٥٧٦		أيتنا	١٨٥		لظلم
٨	(هـ)		١٨٥		المتقدم
٣٤٢	أبو طالب	نقيمها	٤٩٩	أهش بن قيس - ميمون	العرم
	(ي)		٤٩٩		لم يرم
٥٧٤	سحيم عبد بن الحساس	ناها	٤٩٩		إذ قسم

فهرس غريب اللغة

		(١)	
٢٢	فِيكَرَتْ لِي الْخَلِيشِ	٧١	أَبْتُوا أَهْلَ
١٧٧	أَلَا إِنَّ لَكُمْ رَحِمًا صَائِلَهَا	٩٤	وَلَا تُرْ وَجُوهُ
٣١٧	بَكَّةَ	٣١١	يَأْتُوا عَلَى الْكَلْبِ
٤٧٠	لَقَدْ بَهَّتْهُ	٤٩٥	وَأَثَلْ
٥٤	مِنْ اسْتِطَاعَ مِنْكَ الْبَهَامَةُ	١٣٦	يَكُنْ أَكْثَمَ
٨١	إِلَّا أَنْ يَأْمُرَكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بِوَلَاكِهِ	٨٣	وَالْأَجْسَامُ فِي الْغِيْطَانِ
١٩٨	وَكُنُوا قَوْمًا يَوْمًا	٨٧	لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَكْثَرُ الرَّحْلِ
٢٠٩	لُيَيْتَ صَالِحًا	٤٧٣	وَلَمَّا أَدْرَأَ
(٢)		٤٠٠	وَأَمْرٌ بِغَيْبَةٍ مِنْ أَدَمَ
١١٤	بَيْنَ حَبْرَةٍ إِلَى تَرْفُوكِهِ	٩٣	وَلَيْسَتْ أَتَابِيَهُ مَا يَهْدِي
٧٣	وَلِيخْرِجَنَّ مِنْ تَكَلَّاتٍ	٤٦	يَلْخُنَ عَلَيْهَا غَيْرَ مُتَأَزَّزَاتٍ
٤٠٥	وَمِنْ تَكَلَّاتٍ	٧١	بِالْغَدُوِّ وَالْأَصْحَالِ
(٣)		٨٤	وَأُطِدَّ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ
١٠٦	وَادْعُوا ثَوْرًا كَثَرًا	٤٠٠	عَلَيْهِ لِكَاثُ
٥١٦	فَلَمَّا عَيْنًا تَجَامَعَتْ	٣٣٩	لَا لَوْلَكُمْ خَيْرٌ
٣٤٤	الْأَخْيَافُ الْأَرْوَاحُ	٢٥٥	لَمْ تَكُنْ
٤٨٨	أَكْثَفِيهَا مِنْهَا	٣١	وَلَا يَأْتِيكَ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ
١٨٥	بِالْأَصْفَرِ الْمُتَشَكِّمِ	٤٤٩	لَا يَأْتِيكَ بَيْنِي
(٤)		٤١	حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا
١٣٣	إِنْ فِي النَّارِ لِحِجَابًا	٤٩٩	يُرِيدُ عَلَيْنَا آتِيًا
١٣١	مِنْ غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ	٢٢٣	وَقَرْنُهَا قَرْنٌ أَبْلٌ
١٦٢	عِنْدَ جَوَادِ الْفَرَقِ	٥٤	الْأَيَّامِي : جَمْعُ أَيَّامٍ
٥٣٠	وَهِيَ الْجَدَّةُ	(٥)	
٢٨	وَجِدَادَةٌ	١٣٣	فِيهَا حَيَاتٌ أَثَالُ الْبُحْبُثِ
١٨٥	تَجِدُوْهُ عَلَى كُلِّ مَقْسَمٍ	١٤٦	لَهُكَ بِكَعْجٍ نَفْسُكَ
٦٥	قَلْبِي لَجَرْدٍ	٤٨٥	صَبِيحٌ وَلَا يَهْرَبُ
٣٠٩	جَرِيْلَةٌ فِي جَيْشٍ	٤٩٥	وَأَكَلَةُ الْبَرِّيْرِ
١٢٦	جَزَزَتْ حَتَّى لَرَجٍ	٣٠٠	صَدَارُكَ الْبَرِّيْرِ
١٨	لَمَّا عَقِدَ مِنْ جَزَعٍ ظَفَارُ	١٧٢	كَيْفَ تَرَوْنَ بِهَوَاسِقِهَا
١٨٥	بِالْجَوْسَقِ الْمُتَشَدِّقِ	٢٠	مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبَرَحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ

١٨٥	في زجاج حقيق	حتم	١٤	جعد	جعد
٥٦٤	حناس	حناس	٤١٠	جل	جل
٣٤٤	خفيف الحاذق	حوذ	٢٨٦	جلهق	جلهق
٤٠٠	أو يكون تحوّر	حوذ	٦٩	جمر	جمر
٣٦٣	حيوت له الأرض	حوى	٢٣٥	جمع	جمع
٤٤٥	حيث	حيث	١٤	جمل	جمل
١٥٤	وقام الماء على حيله	حيل	٢١	جمن	جمن
١٢٤	لما جامها الحيا عالت	حي	٤٨٨	جوى	جوى
(خ)			٢٦٥	جول	جول
٣٥٤	الخضر أتم القدر	خضر	٣٢٠	جول	جول
٢٨	أخشان مؤمن	خشن	١٧٧	جوى	جوى
١٤	مخدّج الساقين	خدلج	١٢٦	جوى	جوى
٢٨	خشد كفة عصاة	خشف	(ح)		
٥٩	أى : من خراجهن	خرج	٢١٣	حبر	حبر
١٠١	إلا مثل الفرس	خرص	٨٦	حبر	حبر
٢١٤	تخترق فيه الشمار	خرف	١١٠	حبر	حبر
٢٨٨	بهرمة فيها خزيمة	خزر	٨٦	حبر	حبر
٢٧٧	خضر خضره	خطر	١١٤	حبر	حبر
٢٥٨	لا خضر لها	خطر	٩٠	حبر	حبر
٢٢٧	فتخضم أنف الكافر	خضم	٥٦٩	حبر	حبر
٢٢٩	خضمهم رسول الله	خضم	٤١	حبر	حبر
٢٤	أومض أم يحقر	خفو	٢٣٩	حبر	حبر
٢٤	الجرد هو الخلد	خله	١٧٩	حبر	حبر
٢٤	والخمر : جمع خمر	خمر	١٨٣	حبر	حبر
٢٤	ومن أراد منكم الخمر والخمر	خمر	٥٠٣	حبر	حبر
٢٤	والخمر	خمر	١٦٤	حبر	حبر
٢٤	وأفلق عليهم عصمة	خص	٢٥	حبر	حبر
٢٤	وألفق به به الخصال	خل	٢٢٣	حبر	حبر
٢٤	وألفق به به الخصال	خل	٥١٧	حبر	حبر
٢٤	لا يقول الحقنى	خنى	٥٣	حبر	حبر
٢٤	فى مجالس السوء والمخنى	خنى	١٤	حبر	حبر
٢٤	خوضات	خوض	١٨١	حبر	حبر
٢٤	مخاضة جيجون	خوض	١٨٠	حبر	حبر
٢٤	للا يتخوّنهم	خون	١١٣	حبر	حبر
٢٤	حتى يصب الداء على الخوان	خون	٥٧	حبر	حبر
(هـ)			٢٠٠	حبر	حبر
٢٤	هأهأ	هأهأ	٢٠٠	حبر	حبر

٢٠٩	رضخ	: كدرضخوا بالحجارة	١٩	دجن	: فأتى الداجن فأكله
١٧٨	رضم	: صمد على رخصته	١٧٧	دجن	: في يوم دجن
٢٢١	رضو	: وهي ترغو	٤٥٢	دحو	: للدحوات
٥٣	رذل	: الرافلة في الزينة في غير أهلها	٢٤٥	درا	: إني أدرا بك
٤٠٠	رقا	: فرقا ككسه	٢٢٥	درد	: دكر رزقهم
١٩	رقا	: لا يرقأني جمع		دردع	: ويقوم بين يدي الرجل في الدرع والشماع
١٧٨	رقم	: رقصه الوادي	٩١	دردع	: يكسهم درعها
٧٨	ركم	: ثم يجعله ركاما	٢٣٨	دردع	: درع
١٨٠	رمص	: وأرخصهم عينا	٥٦٤	دمج	: أدهج العين
٣٩	رمض	: آذاه الرضعا	١٦	دملج	: عرس من وراء الجيش فادلج
٤٦٣	رمم	: وقد أرمست	١٨	دلم	: وعقارب أمثال البغال الدكس
٣٨٧	رمم	: ويهي عن القوث والرمة	١٣٣	دملج	: الزينة: القرط والدملج
١١١	رمج	: الفجار الهباء رخص الدواب	٤٧	دعر	: قد طوروا فيها
٣٩	روح	: وهو يروح بين قلمي	١٥٩	دول	: أولى الحل والعقد والدول
٤٠٦	روح	: ما تكون بروحة	١٥٣	دوج	: لم يدع حاجة ولا داجة
١٦٢	ريج	: أنبون بكل ريج آية	١٣٨	دبث	: والدبوث الذي يقر في أهله الحبث
٣٠٠	ريم	: ما يرحنا ولا رمشا	٩	دبث	: الدبوث القتلح
٢٠	ريم	: ما رام رسول الله من جلسته	١٠		
(٣)			(٣)		
٣٧٧	زبر	: الذي لا زبر له	٥٥٠	ذرو	: فجلس يكرها
١٠٥	زجج	: مثل الزجاج في الرمح	٣٩٧	ذرو	: يقتل له في الذروق والغارب
٧٨	زجو	: ألم تر أن الله يزوجي صبا	١٥٨	ذرب	: فإذا هو بلسخ متلخ
١٢٦	زحق	: مالح مرزحاق			(٤)
١٥٤	زلف	: ولزلفنا لم الآخرين	١٣	ذرب	: في تزيده وجهه
٢٥	زفن	: ما مؤن بريعا	٣٧١	ذرب	: مزيوع الخلق
٣١٦	زهر	: وزهارة كواكبها ونجومها	٩٠	ذرب	: إذا كان الغلام ربا حيا
٨٤	زوى	: وسيلخ ملك أمي ما زوى لي منها	٣٧٤	ذرب	: الربا زيانا
			٢١٤	ذرب	: فارتج على القرآن
			٥١٧	ذرب	: فكمز وناجيه
			١٨	ذرب	: لاستيقظت باسترجاعه
			١٧٠	ذرب	: فارتجعوا بنبي الله
			٤٩	ذرب	: قامت إلى مرطها للمرحل
			٤١٠	ذرب	: مرط مرحل
			١٨١	ذرب	: لم يردوا منها إلا يسيرا
			٢٥	ذرب	: رذآن
			١٤	ذرب	: أرتسح
(٥)			(٥)		
٤٨٥	ساد	: والإستاد صبر القيل		ذرب	
١٩٠	سج	: لأحرق سبحات وجهه		ذرب	
٥٤٤	سج	: سبحات وجهه		ذرب	
٣٧٧	سبط	: سبط الرأس		ذرب	
٤٠٠	سج	: ولهم رجل عليه تسبحة		ذرب	
٤٩٨	سجل	: وكانت خزائنهم سجلا		ذرب	

٣٦	صفت	ألقى عنه الصفق بالأسواق...
٥١٦	صمت	فياح حارة بصامت...
٣٣٧	صمم	صمم صمكة صكتنا...
١٨٥	صنح	وامرأة صنجة...
٤٨	صنف	المقاع يعمل لها صنفات...
١٤	صهيب	إن جاءت به أصهيب...
(ض)		
٢٤٢	ضبيب	ولا ضبيب...
١٩٣	ضرح	وخلبت عليه المضرجية...
٣٨	ضفيس	وضغافيس...
١٥١	ضبر	أقالوا لا ضبر...
(ط)		
٣٤٦	طرف	صاحب المطرف بمطرفه...
٤٩٦	طرف	إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر...
٤٣	طرق	أطرق بصره...
٤١	طرق	نبي أن يطرق الرجل أهله طروفا...
١٦٥	طلع	هو اللعج حين يفرق...
٢٢٦	طلل	كأنه الطلل...
٧٧	طمطم	وهم الطمطم الأشمام...
٥٣٠	طمطم	وحبوش وطمطم...
٢٨٢	عليه	ولا يستطيب يمينه...
(ظ)		
٢٣٤	ظار	زحمتهم في ظفورة...
٨٦	ظعن	حتى تخرج الظعنكة...
(ع)		
٢٢	عبر	فاستعبرت وبكيت...
٤٩	عبر	فاستعبرت به...
٣٩٧	عبر	مستعجرا بتمسكة...
٥٩	عذر	من يعذرك من محمد...
٢٠	عذر	من يعذرك من رجل...
٥٤٤	خلق	الصدق...
٤٤٤	عرق	في يده عرق...
٢٤٣	عزز	ولا عزوز...
١٩٥	عزم	فأعلا يعزومان...
٣٧٨	عزم	لو أرسل بالنبوة عزمة...
٢٤٤	عصج	من العوصج...
١٧٩	عصي	وأحد لنا عصي لهن...
١٦٦	عصر	الذين لم منحور...
١٦٦	عصر	إما أنت من المحجرين...
١٦	عصر	فإن جاءت به أسحيم...
٨٣	عصر	ليس يفظ ولا يظف ولا سحاب...
٤٠٨	عصر	إن فاطمة وعلياً بالسدة...
٤٨	عصر	أمر بين الرجال مسفحة بصلوها...
٣٠٧	عصر	قدحاً بالسقط...
٣٤٢	عصر	إلما الكرم أن تسفه الحق...
٢٢	عصر	حتى استقطوا لما به...
٤٥٢	عصر	للمسكات...
٢١	عصر	كانت تسامين...
٣٠٩	عصر	الأساور...
١١٣	عصر	فيسر كاساً من سم الأساور...
١٥٣	عصر	التنهم بهم السبر إلى سيف البحر...
(ش)		
٢٧٥	شجر	شجروا فكام...
٢٤٣	شخب	وأسم الشخب...
٣٤٧	شدة	للتشدة فون...
٣٤١	شدي	يحيى باليك التهدي...
٤٩٧	شدهور	شكبر سكر...
٨٦	شرد	فالتلوا الحجرة والشرط...
٤٠٦	شرف	استشرفها الشيطان...
٤١	شفت	حتى تشتط الشعرك...
٦٢، ٦١	شكر	كشكاة...
٣٢٢	شظو	والشظير الفاحش...
٦٨	شهر	ولا يشهر فيه سلاح...
١٠٥	شوق	فتشوق إليه النار شهوق البقلة...
(ص)		
١٣٦	صحب	كانما ينط من صهب...
١٧٦	صبح	ثم لادى يا صباحاه...
٥٦١	صرم	لصمره منه فدهبه...
٢٤٧	صعد	فا صعد معهم ذلك...
٣٤٣	صنح	يصلح من أبواب الناس...
٣٣٦	صنح	مصلح القدمين...
٦٥	صنح	ولقب مصلح...

تصويبات

الصفحة	السطر	الحط	صوابه
١٧	٦	إلينا إلى إسحاق	إلينا إلى إسحاق
١٨	١٥	يُهَيِّجُهُنَّ	يُهَيِّجُهُنَّ
١٩	٥	مُسْتَبْرَزَاتَا	مُسْتَبْرَزَاتَا
٢٦	٩	ولي	تولي
٨٢	١٢	لا ينصرفون	(لا ينصرفون)
٨٧	١٨	اليوم للقيامه	يوم القيامه
٩١	السطر الأخير من التعليق	(٦) ؟؟؟	(٦) لم نجد إلى تفسير هذه الكلمة
٩٤	١٨	نايبا (٩)	نايبا
١٠٨	الأول	أكرمهم به	(أكرمهم بهم)
١٣١	٢٠	اللفر من أعرضوا	(اللفر من أعرضوا)
١٨٥	٢٣	تجلوا	تجلو
٢٠٥	٢٣	نحن	نحن
٢٢٣	٢٠	اثنا ذراعاً	اثنا عشر ذراعاً
٢٢٧	١٨	هذا البيت	(هذا البيت)
٤١١	السطر الأخير	كلمة مقولية	(٣) مسلم
٤٦٧	١٢	وحمة الله كثيراً	وحمة الله كثيراً
٤٨٣	١٥	جاء رسل	(جاءت رسل)
٥٢٦	السطر الرابع من التعليق	وقد وضعت	وفي الطبقات السابقة وضعت

Bibliotheca Alexandrina



0252512